الحضارة الإسلامية

مقارنة

بالحضارة الغربية

الدكتور توفيق يوسف الواعى






الحضارة الإسلامية
مقارنة
بالحضارة الغربية

« هذا الكتاب فى الأصل رسالة لنيل درجة العالمية (الدكتوراه)
من كلية أصول الدين » ــ جامعة الأزهر ــ .

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

الوفاء للطباعة والنشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ش.م.م - المنصورة
التوزيع : شارع الحرر أمام كلية الطب . ت : ٣٤٧٤٢٣
المطابع : شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب - عمارة الوفاء
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠ - تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

الحضارة الإسلامية

مقارنة

بالحضارة الغربية

الدكتور توفيق يوسف الواعي

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ش.م.م.

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

الحمد لله نستعينه ونستهديه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فهوالمهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

وأصلى وأسلم على خير خلقه وخاتم رسله إمام الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فلقد كان من رحمة الله بالمسلمين خاصة ، والبشرية عامة ، أن أرسل فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين .

كما كان من فضله ومنه أن هدانا إلى الطريق المستقيم والصراط القويم ، صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ، فسار عليه القاصدون ، فهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد ، واعتصموا به ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . فنشأت على هذا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . كانوا فى التاريخ مُثُلا روادا وأئمة . وصدق الله ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾[1] ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾[2] .

---

(١) الأنبياء ـــ ٧٣ .

(٢) السجدة ـــ ٢٤ .

ولقد ظهر على مدار التاريخ رواد للحضارة الحقة ، وأئمة للسلوك الإنسانى والريادة البشرية الرحيمة ، فكانوا بمثابة الظلال الوارفة التى ترتاح فى جنباتها الإنسانية ، والنسائم الندية التى تبهج الأرواح والقلوب . وهؤلاء كانت لهم نفحات علوية وهدايات ربانية وإيحاءات إلهية ، وقد كان أصدق مُثُل على هذا الطريق هم الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم بإحسان . كما ظهر فى حقب من الأزمان صنف آخر سام الناس الهوان والخسف ، وأذلهم بالقهر والظلم والبغى ، وكان تأثيرهم فى البشرية كالنار فى الهشيم ، وكالوباء فى الأمم ، وإن صاحبهم عمران وعلم أو تقدم وفن . ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ۝ إرم ذات العماد ۝ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ۝ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ۝ وفرعون ذى الأوتاد ۝ الذين طغوا فى البلاد ۝ فأكثروا فيها الفساد ۝ فصب عليك ربك سوط عذاب ۝ إن ربك لبالمرصاد ﴾[1]

وبرغم أن هذه الفترات التاريخية ظهرت بعض معالمها ، فإنها لم تلق العناية والاهتمام ، أو قل لم تلق القبول والاطمئنان فى هذا العصر . وقد يكون السبب أن حضارة اليوم هى المثال المتكرر للصنف الثانى ، الذى ظهر على مدار التاريخ ، وانساح فى الأرض يستعبد الناس ويقهرهم ، ويعبدهم للطاغوت ، ويسلبهم الإنسانية والإرادة ، تارة بقهر الجيوش ، وأخرى بقهر الشهوات والغرائز وسيطرة البطون . وكان لزاما أن يظهر جانب الحق ، ويسطع نور الحقيقة ، خاصة وأن حضارة الإسلام هى المثال المتكرر للصنف الأول ، أو قل المثال الجامع للحضارة الإنسانية الحقة .

وكان لزاما أن يرد الناس عن الباطل ، وأن تُفتح بحضارة الإسلام قلوب غلف وعيون عمى وآذان صم . وأن يزهق الباطل بأضواء الحق وأنوار الهداية ، وتفيق الإنسانية من غفوتها وأحزانها مرددة قوله تعالى ﴿ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾[2] ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾[3]

---

(١) الفجر — ٦ إلى ١٤ .

(٢) فاطر / ٣٤

(٣) الأعراف / ٤٣

أهمية الموضوع ودواعي اختياره :

الحضارة الإسلامية اليوم هى موضوع الساعة لأسباب معينة منها !

١ـ صحوة الأمم الإسلامية اليوم تحتاج إلى هوية وإلى تأصيل ، لأن كل أمة تريد أن تنهض أو تتقدم لابد أن تغرس فى تربتها ، وتزرع فى أرضها ، وتستقى من نبعها ، حتى تكون النبتة آمنة باسقة تؤتى أكلها لأهلها وذويها ، وتحمل نكهتهم ، وتصطبغ بلونهم . أما أن ترضع أمة لبان أخرى فإنها تكون ابنة لها من الرضاع ، أما أن تتزود أمة بفتات غيرها وتنهل من ثقافتها وتتسربل بزيها فإنها ولابد أن تكون ذيلا أو تابعا مقلدا أو محاكيا ، تفقد الطعم واللون والرائحة ، وتظل ترسف فى أغلال التبعية والاستعمار ، وإن نصبت لها رايات وحددت لها حدود ، لهذا كان لزاما علينا أن نلتفت إلى تربتنا وحضارتنا وتراثنا وثقافتنا وعقيدتنا وتقاليدنا ، لترشد العزمة وتسلم الخطوة ، وتنضج الثمرة ، وخاصة إذا كانت تربتنا جيدة ، وحضارتنا فريدة ، وتراثنا راشداً ، وثقافتنا عزيزة ، وعقيدتنا دافعة ، وتقاليدنا عريقة قويمة .

وإذا أردنا أن نتصفح الحضارات اليوم نجد أن لكل حضارة روحا تسرى فيها ، وطابعا عاما يميزها ، ومظاهر معينة تتجلى فيها . وكلها مستجدة من تصور أهلها للوجود والكون والحياة والقيم . ومن تكوينهم كأمة لها خصائصها الحسية والمعنوية ، ومن شعورها بذاتها ورسالتها فى الحياة ، ومن ظروف حياة أفرادها ومكانهم فى التاريخ . والأمم تتشابه وقد تتباين فى روحها ومواهبها وبعض أعمالها ، ولكن حضارتها تتشكل بعوامل ترجع إلى طبيعة الأمة وظروفها ، ونحن حين تَأمَّلْنَا وَدَرَسْنا الحضارات الكبرى التى وجدت على الساحة الأرضية فى الأزمنة المختلفة وجدنا أنفسنا نقف أمام تنوع لاحدود له من الألوان والأشكال المختلفة ، وما ذلك إلا لاختلاف الطبائع والنفوس ، مادامت تلك الحضارات لم يجمعها عقد واحد أو مصدر واحد يعلم طبائع النفوس ومداخلها وأهواءها وشهواتها وأشواقها وتطلعاتها . ولهذا كانت الحضارة ذات المصدر الإلهى دائما أبدا جامعة للإنسانية على صراط مستقيم قويم . هذا وقد تربت الأمة الإسلامية من قديم على تلك الحضارة الجامعة الرائقة الصافية ، التى يمكن أن تجتمع عليها الإنسانية من جديد ، لأن الله جمع فيها طبائع الإنسان من كل لون

وجنس وقبيل وصدق الله ﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ [١].

ولهذا كان الواجب على المسلمين واجبا ذا شقين : الأول : إحياء النفس ، والثانى : إحياء الغير . ولايستطيع إنسان أن يتصور مدى الضياع والهوان إذا تخلى المسلمون عن حضارتهم وبعدوا عن ثقافتهم وتراثهم . ويتضاعف هذا الشعور عند الإنسان حتى لايستطيع أن يتخيل حجمه وبعده إذا رأى المسلمين أتباعا لغيرهم ، مقلدين غارقين فى أوهام غيرهم ، والحقيقة بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم .

٢ ـــ تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية بسبب التهديد المستمر بالفناء والزوال المعلق فوق هامتها ، وذلك لفقدانها للقيم التى يمكن أن تنمو الحياة الإنسانية فى ظلها نموا سليما وتترقى ترقيا صحيحا . وهذا واضح كل الوضوح فى العالم الغربى الذى أفلس فى هذا المجال إفلاسا ذريعا ، فلم يعد لديه ما يعطيه للبشرية من قيم ، بل لم يعد لديه ما يقنع ضميره باستحقاقه للوجود . ولهذا وقف العقلاء وقفة تأمل فيما يشاهدونه هذه الأيام من آثار الغرب فيما يسمونه « حضارة » « وثقافة » ؛ فوجدوا إغراقا فى الاقتصاديات ، واستعبادا للماكينات وسباقا إلى الإلكترونيات ، وازورارا عن القلب والجوهر والروح فى الإنسان . ووجدوا مواكب حاشدة من الصور تلاحقنا بها السينما والصحف والإذاعة والتلفاز تجعل الناس تجرى وتلهث إلى غير غاية ، وتعيش على هامش أنفسها ، وكأنما أضحى مثلها الأعلى أن تقيم فى نكد وصراع وتمزق .

فباسم الحضارة والثقافة أهدرت الآدمية والناطقية فى الناس وباسم العقل ـــ بعد أن ابتذلوه ـــ نددوا بما هو روحى وأبدى ، وسخروا من الأديان والقيم .

وباسم الحضارة والتقدم صنعت الحضارة أسلحة القهر والدمار ، واستبعدت الشعوب ونهبت الثروات .

---

(١) الشورى ١٣ .

ولهذا وقف الكل متلفتا إلى منقذ منتظر ، وإلى مخلص يسعفه من هذه اللوثة ، فناسب أن يقدم له الغوث فى حضارة الإسلام التى أنقذت البشرية قبل ذلك ، وأخرجتها من الظلمات إلى النور ، وهى اليوم مستعدة كما بدأت أول الشوط تعيده ، وكما أسعدت أوله تهنىء آخره . وإن غدا لناظره قريب .

٣ ــ ليس غير حضارة الإسلام دواء أو شفاء ، فقد ظهرت الحقيقة جلية للعيان ، وخلت الساحة تماماً من المبادىء والقيم التى تستطيع أن تنقذ البشرية من وهدتها ، وتلفت الكل وتعلقت الآمال بالرسالة الخاتمة ، لما أحسوا فيها من حيوية واستقامة وسمو يتمثل فى :

أ ــ حضارة تقوم باسم الله بأسلوب إنسانى وعمل بشرى .

ب ــ نظام يبنى على القيم العليا والحق والخير والجمال .

جـ ــ حضارة البقاء والدوام والأصالة .

د ــ حضارة متفتحة تقبل كل الثمرات الروحية والعقلية والمادية لعناصر كل حضارة صحيحة ، وهذا هو سر تجددها .

هـ ــ حضارة التيسير ونفى العسر ونفى الإعنات .

و ــ حضارة عالمية إنسانية تبنى على وحدة الشعوب ، لاتفرق بين جنس وجنس ، ولون وآخر .

ز ــ حضارة الحرية فى العقيدة والعبادة .

و ــ حضارة العلم وحب المعرفة والحكمة .

لهذا وغيره ناسب أن تلقى هذه الحضارة من بنيها وكل محب للإنسانية العناية والرعاية ، بالدعوة إليها ، والعمل على نشرها والإفادة منها .

٤ــ اختلط مفهوم الحضارة والتبس بكثير من الدعاوى والأباطيل ، حتى أطلق على كل مايناقض الحضارة . فقيل مثلا للعرى وفقدان القيم حضارة ، وقيل لاختراع المهلكات والمفسدات حضارة .

فناسب أن توضع الأمور فى نصابها ، وأن تجلى الحقائق وتضبط المسميات ،

حتى يستبين الرشد من الغى .

٥ــ إظهار جهود المسلمين العلمية والثقافية والحضارية ، تلك التى كان لها الفضل الأول على البشرية والإنسانية ، وكانت المعلم والمثقف الذى تتلمذ عليه كل باحث عن معرفة أو كشف أو اختراع . وإن كانت غاية المسلمين وهدفهم العلمى هو إسعاد البشرية وسلام الإنسانية ، وهدف غيرهم هو النفع المادى الأنانى الذاتى ، والقهر والتسلط والإفساد .

٦ــ دراسة العوامل الحضارية والمؤثرة فى حركة التاريخ البشرى والحضارى ، للاستفادة من خطوات الأمم الناهضة ، وتجنب المزالق المهلكة فى دروب الشعوب الهاوية .

٧ــ دراسة الأجناس والبيئات البشرية المختلفة ، وصلتها بالتقدم والتأخر والصعود والنقوص ، وبيان وجه الحق فى الادعاءات الجائرة التى يتذرع بها الناس للتأله على الناس واستعبادهم وظلمهم وقهرهم .

٨ ــ دراسة التحديات الحضارية وآثرها ومستقبلها على الإنسان وما تحتاجه منها البشرية وما ترفضه .

لهذا وغيره مما اشتمل عليه البحث اخترت هذا الموضوع ، لعل الله أن ينفع به آمين .

دكتور / **توفيق يوسف الواعى**

الباب التمهيدى

الحضارة والإنسان والتفسير الحضارى للتاريخ وكيفية قيام الحضارات

الفصل الأول : الحضارة والإنسان وتأثير الجنس والبيئة

الفصل الثانى : التفسير الحضارى للتاريخ وكيفية قيام الحضارات

الفصل الثالث : التحرك الحضارى وكيفية قيام الحضارات

الفصل الأول

الحضارة والإنسان وتأثير الجنس والبيئة

المبحث الأول
تعريف الحضارة لغة وبيان ما يقاربها من ألفاظ ومصطلحات

يحسن بنا قبل أن نتكلم فى الحضارة بوجه عام ، والحضارة الإسلامية بوجه خاص أن نعرف الحضارة ، وأن نصور ماهيتها ، لأن معرفة الشيء فرع عن تصوره ، والموضوع وإن كان متعدد الجوانب ، قد خاض لجته كثير من علماء الاجتماع والتاريخ والدراسات الإنسانية ، وغرق فيه كثير من أدعياء التقدم والمدنية والريادة ، وكان لكل وجهة هو موليها ، فمنهم الباحث المخلص ، ومنهم المتعصب المغرور ، ومنهم الحاقد المضلل ، ومنهم الجاهل الأعمى ، ومنهم حاطب الليل ، ولكن الحقيقة دائما تعلو على الأباطيل ، والشمس دائما تبدد كل الظلمات .

تعريف الحضارة :

الحضارة فى اللغة العربية ، من الفعل « حضر » على وزن قعد ، يقال حضر الغائب حضورا قدم من غيبته ، وحضرت الصلاة فهى حاضرة ، والأصل حضر وقت الصلاة ، و « الحَضَر » بفتحتين خلاف البدو ، والنسبة إليه « حضرى » أقام بالحضر ، و « الحضارة » بفتح الحاء وكسرها : سكون الحضر ، والحَضَر والحَضْرة والحاضرة : خلاف البادية ، وهى المدن والقرى والريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التى يكون لهم بها قرار .[1]

وبهذا المعنى استعملها القطامى الشاعر فى قوله ــ مفتخرا ببداوة قومه ،

---

(١) المصباح المنير ولسان العرب مادة « حضر » .

مستخفا بساكنى القرى والمدن -.

فمن تكن الحضارة أعجبته فأى رجال بادية ترانا !؟[1]

وهكذا أخذت الكلمة فى العربية من دلالة[2] مكانية ، وإن كانت قد تطورت هذه الدلالة المكانية « الإقامة فى الحضر » التى وردت فى أصل استعمال هذه الكلمة ، إلى مايستتبع هذه الإقامة غالبا من التعاون ، والتآزر ، وحسن الخلق ، ورقة الحاشية وتبادل الأفكار والمعلومات فى كل ناحية من نواحى الحياة ، من صناعة وعلوم وثقافة وقانون ، وعزز هذا التحول ابن خلدون حين قال : الحضارة أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال العمران ، زيادة تتفاوت بتفاوت الرقة ، وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة ، تفاوتا غير منحصر[3]. ثم بين ابن خلدون[4] أن الحضارة لاتظهر إلا فى المدن والقرى ، وأنها غاية العمران ، وأنها تتصل « بالتفنن فى الترف واستجادة أحواله ، والكلف بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه » هذا شىء مما ورد حول كلمة « الحضارة » عند العرب قديما ، وأتت به المعاجم العربية فى معنى الكلمة .

المصطلحات ذات الصلة فى المعاجم العربية .

ورد فى المعاجم العربية مصطلحات أخرى لها مدلولها الاجتماعى والعلمى المشابه لكلمة الحضارة عند العرب ، يحسن بنا أن نتعرض لها فى شىء من الإيجاز .

١ ـــ الوبر والمدر :

ومعناهما الصوف والطين ، فالوبر : هو الصوف التى تصنع منه خيام البدو

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المقدمة لابن خلدون ص ١٦٨ ط التجارية القاهرة .

(٣) المقدمة لابن خلدون ص ١٦٨ التجارية ـــ القاهرة .

(٤) ابن خلدون ١٣٣٢ ـــ ١٤٠١ م مؤرخ وفيلسوف اجتماعى عربى مسلم مشهور ، ينتهى نسبه إلى وائل بن حجر ، من عرب اليمن ، أقامت أسرته فى تونس حيث ولد ونشأ وتعلم بها ، تنقل فى بلاد المغرب والأندلس ، ثم أقام بتلمسان وشرع فى تأليف تاريخه ، عاد إلى تونس ، ومنها انتقل إلى مصر ، واتصل بسلطانها برقوق =

فى الصحراء ، يكون رمزا على البداوة ودلالة على أصحابه ، فإذا أطلقت الكلمة ، كانت مرادفة لكلمة البداوة ، وعلامة على أهل البداية ، حيث يكون الوبر « أى الصوف » من لوازم حياتهم ومعيشتهم فى سكناهم فى البادية فى تلك الخيام المصنوعة من الصوف

والمدر : هو الطين الذى تبنى به مساكن الحضر فى المدن والقرى رمزا للحضارة ، ودلالة على ساكنى هذه المدن وقاطنى تلك القرى ، الذين يستقرون فى بناء يكون فى حاضرة معينة ، فإذا قيل أهل المدر ، كان معناه أهل الحواضر والقرى والمدن . يقال : فلان سيد مدرته . أى قريته . ومثل كلمة الوبر والمدر أيضا كلمتا (الحدر والحجر) .

فالحدر ، هى الأرض التى لايبنى عليها ، وهى تطلق على أهل البادية ، لأنهم هم الذين يسكنونها ولا يبنون عليها ، « والحجر » يشير إلى المدن ، أى التى تبنى بالحجارة ويكون فيها المساكن الجامعة ، التى تتكون منها الحواضر ، فالحجر على هذا يشير إلى أهل الحضر وسكان القرى والمدن[1] .

٢ ــ المدنية :

وكلمة المدنية تشير فى استعمالاتها عند كثير من الباحثين إلى معنى مرادف للحضارة . وتشير فى اللغة أيضا إلى ارتباط مكانى « فالمدينة ووزنها فعيلة » المصر الجامع ، لأنها من مدن ، والجمع « مدن » و « مدائن » ، ويقال مدن بالمكان أقام به[2]، ولهذا يميل كثير من الباحثين إلى جعل كلمة مدنية مرادفة لكلمة « الحضارة »

= فولاه قضاء المالكية ، حج إلى مكة سنة ١٣٨٧ ، ورافق جيش المماليك الذى أنفذ لصد زحف التتار ، ثم انقطع للتدريس و التأليف ، فأتم كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر ، وله المقدمه المعروفة ، وهو أول من تكلم فى فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع .

(١) انظر معجم البلدان لياقوت ٢ / ٢٢١ .

(٢) المصباح المنير ، ولسان العرب فى مادة ــ م د ن ــ

وهو ميل له وجاهته لغة .

٣ ـــ الثقافة :

الثقافة فى اللغة « هى التهذيب والصقل والحذق يقال : ثقِف الشىء ثقافا وثقوفة حذقه ، ورجل ثَقفٌ ، ثَقْفٌ ، ثَقِفٌ : حاذق فهم .

ويقال : ثقف الرمح : أى قَوَّمَهُ وسواه ، وثقَّفته ، بالتثقيف ، أقمت المعوج منه »(١)

وهو بهذا ليس له ارتباط بالمعنى المكانى ، بل تطلق الثقافة فى اللغة العربية على معانى التقويم ، والحذق ، والتكيف ، والتهذيب ، الذى قد يكون له ارتباط بإقامة الناس فى المدن والحواضر والقرى .

٤ ـــ النهضة :

النهضة من نهض ، يقال : « نهض عن مكانه ينهض ، نهوضا ، ارتفع عنه ، ونهض إلى العدو أسرع إليه ، ونهضت إلى فلان وله نهوضا ونهضا : تحركت إليه بالقيام ، ونهضه إلى كذا ، أى حركه ، والجمع نهضات ، وأنهضته للأمر بالألف أقمته إليه »(٢).

وهى فى العربية بهذا المعنى ليس لها ارتباط مكانى ، بل تدل على الحركة والارتفاع ، ولامانع كذلك أن يكون لها دلالة معنوية ، ويكون لها ارتباط بالنهوض والتقدم الذى يلازم أهل الحواضر والمدن غالبا .

أصل كلمة الحضارة عند الأوربيين :

وإذا انتقلنا من العربية إلى اللغات الغربية لنرى أصل الكلمة عندهم ومأخذها ومدلولها ، وجدنا أن ثمة لفظتين رئيستين* تستعملان للدلالة على معنى الحضارة :

(١) المصباح المنير ، ولسان العرب ، وتاج العروض فى مادة ـــ ثقف .

(٢) المصباح المنير ولسان العرب فى مادة ـــ نهض ـــ .

* شاع استعمال كلمة رئيسية والصواب رئيسة فتقول الأعضاء الرئيسة القلب والدماغ والكبد والأنثيان . قاموس محيط . الناشر .

Culture وCivilization، ولكل منهما تاريخ طويل متشعب وألوان مختلفة من الدلالة ونلاحظ أن أصل كلمة Cultureمأخوذة من اللاتينية Cultuneمن فعل Colere بمعنى حرث أو نمى ، وقد كانت هذه الكلمة اللاتينية فى العصور القديمة والوسطى تطلق على تنمية الأرض ومحصولاتها ، ومع أن شيشارون استعملها بالمعنى المجازى مراعيا الفلسفة Cultura mertis أى فلاحة العقل (تنميته) ، فإن هذا المعنى ظل نادرا فى اللغة اللاتينية ، وفى أوائل العصور الحديثة بدأت تستعمل فى الإنكليزية والفرنسية بمدلولها المادى والعقلى ، مع إضافة الشيء المقصود تنميته .

La Culture du blé-La culture des arts. ومثلها فى الإنكليزية ، فلما كان القرن الثامن عشر أخذ الكتاب الفرنسيون كوفلتير[(1)] وأقرانه يطلقون هذه اللفظة إجمالا وبدون أداة تعريف أو إضافة إلى شيء معين ، وغدت Culture بهذا المعنى المطلق يقصد بها تنمية العقل والذوق ، ثم انتقلت إلى حصيلةهذه العملية ، أى المكاسب العقلية والأدبية والذوقية التى نعبر عنها بالعربية بلفظ الثقافة ، أما فى الإنكليزية فإن أول نص تستعمل فيه هذه الكلمة بما يشبه هذا المعنى يعود حسب معجم إكسفورد إلى عام ١٨٠٥م ، ولا يزال هذا المعنى هو أحد معانيها السائدة فى اللغة الغربية ، وقد انتقلت هذه اللفظة إلى الألمانية من الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر بشكل Cultur ثم Kulture ، وانتقل معها معناها الأخير « أى الإنماء العقلى والأدبى وحصيلة هذا الإنماء » ثم أخذ معناها يتطور عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع والمؤرخين ، ويتجلى عن دلالات الإنماء أو التحسين الفردى ، ويتحول إلى أحوال الأكوان بمجموعها ، وبرز هذا المعنى الأخير فى أواسط القرن التاسع عشر عند المؤرخ والعالم الألمانى « جستان كلمن » الذى يعتبر مؤسس علم الأنثروبولوجيا[(2)]

---

(١) فولتير ، فرانسوا ١٦٩٤ — ١٧٧٨ . فيلسوف مفكر فرنسى ، نشأ فى باريس ، وتعلم فى كلية لويس الأكبر اليسوعية ، كان حر الفكر ، سجن فى الباستيل أحد عشر شهرا ، رحل إلى إنجلترا . ألف كتابا عن جان دارك ، ثم أصبح مؤرخ البلاط الملكى ، وعضو الأكاديمية الفرنسية ، جمعت آثاره فى سبعين مجلدا ، ونشرت بعد وفاته . دعا إلى الإصلاح ، وكان حر الفكر ، رفض رجال الدين دفنه فى باريس ، ولم ينقل جثمانه إلى سنة ١٧٩١ ، ودفن فى مقبرة العظماء .

(٢) الأنثروبولوجيا ، إحدى فروع العلم التى تهتم بدراسة الأجناس البشرية ، سواء الموجود منها الآن ، أو التى =

الحديث ، وغدت هذه اللفظة ، تطلق على مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها ، فى مجتمع من المجتمعات ، وهذا هو أصل المعنى الاصطلاحى الذى تحويه كلمة Culture اليوم عند علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا ، وانتقل هذا المعنى من Klemn إلى العالم الأنثروبولوجى الإنجليزى E.B.Tylar ،الذى كان أول من استعمله باللغة الإنكليزية عام ١٨٧١م ، ومنه تسرب إلى الأوساط العلمية الأنكلوسكسونية ، ثم انتشرت بصفة خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وغدا هذا المعنى الاصطلاحى مفهوما أساسيا فى هذين العلمين فى ألمانيا وأمريكا ، ولكنه لم يصادف مثل هذا الرواج فى انكلترا وفرنسه ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يرتكز بعد ارتكازه الأخير ، ولم ينف عن كلمة Culture معانيها السابقة .

الثقافة عند الأوربيين :

يستخدم الغربيون فى التعبير عن كلمة الثقافة لفظة Culture المستعملة فى الحضارة ، ولا تزال تستعمل هذه الكلمة فى الفرنسية والإنكليزية ولغات أخرى ، بمعنى الثقافة الفردية والثقافة بوجه عام ، بل عاد إليها فى العلوم الطبية والتطبيقات الصناعية معناها الأصلى ، أى عملية إنماء الأشياء المادية كالجراثيم واللآلىء بالزرع والتصنيع .

ومنهم من يذهب إلى أن كلمة الحضارة ينبغى أن تكون ترجمة لكلمة Civilization والثقافة لكلمة Culture

---

= اختفت مع العناية بالدراسة التحليلية المقارنة للشعوب البدائية كذلك ، والخلاصة : هى علم الإنسان الذى يدرس نواحى النوع الإنسانى وكل الظواهر ، من حيث تعلقها بالإنسان ، وتنقسم ثلاثة أقسام

١ ــ الطبيعية ، وتدرس تطور الإنسان والحفريات . الخ .

٢ ــ الاجتماعية ، وتدرس النظم الاجتماعية المختلفة .

٣ ــ الثقافية ، وتدرس ثقافة الإنسان والشعوب .

المدنية والأصل الذى اشتقت منه عند الأوربيين

استعمل الأوربيون كلمة Civilization أو Civilisation الإنكليزية فى المدنية ، وقد اشتقتا من اللاتينية من Civis ، أى المدنية أو المواطن فى المدينة ، ثم أخذت تستعمل مجازا ، وقد عنت فى بادىء الأمر شأن مرادفتها Culture ، لابصيغة المصدر ، للدلالة على العملية ذاتها ، لا على النتيجة الحاصلة منها ، ثم تطورت لتعبر عن هذه النتيجة ، أى عن حالة الرقى والتقدم فى الأفراد والمجتمعات ، وكان استعمالها بهذا المعنى أقدم فى الفرنسية منه فى الإنكليزية ، وما لبثت هذه الكلمة أن انتشرت فى اللغات الأوربية إلى اليوم ، حيث تستعمل بمعنى الحضارة ، أو الكيان الحضارى.[1]

وقد حاول ول ديورانت أن يربط بين أصل كلمة المدنية Civilisation وعلاقتها بالتهذيب ورقة المعاملة Civility . وعنده أن ذلك ضرب من السلوك المهذب الذى هو فى رأى أهل المدن ، وهم الذين صاغوا حكمة المدنية ، وذلك أنه يتجمع فى المدينة ما ينتجه الريف من ثراء ومن نوابغ العقول ، وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة فى المدينة على مضاعفة وسائل الراحة والترف والفراغ ، ويتلاق فيها التجار والصناع حيث يتبادلون السلع والأفكار ، فتتلاقح العقول ، ويرهف الذكاء ، وتستثار فيه قوته على الخلق والإبداع[2] .

إيضاح :

بعد إن استعرضنا أصل الكلمة فى العربية والأوربية ، وتتبعنا مسارها ومسار ما يقاربها من مصطلحات ، يلاحظ الباحث بغير جهد أو كبير عناء ، أن الكلمة

---

(١) مقدمات ومباحث فى حضارة الإسلام والعرب ــ عمر رضا كحالة ص ٦ مطبعة الحجاز بدمشق ، وفى فلسفة الحضارة الإسلامية للدكتور عفت الشرقاوى ص ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ط دار النهضة بيروت ، والتعبير الحضارى وتنمية المجتمع للدكتور محى الدين صابر سرس اللبان ص ٤١ ، ط ١٩٦٢ ، وفى معركة الحضارة قسطنطين زريق ص ١٥ ط دار العلم للملايين .

(٢) فلسفة الحضارة الإسلامية للدكتور عفت الشرقاوى ص ١٧ دار النهضة .

مستحدثة وأن جميع الحضارات التى تقدمت الحضارة الحديثة ، لم يرد فيها هذا المصطلح أو تلك الكلمة بهذا الإطلاق المستعمل الآن ، وإنما عبر عن الحضارة سلباً أو إيجابا : مثل : القوة ، والعمران ، وإثارة الأرض . ووصف مظاهر ذلك من براعة وهندسة ومعمار . فنرى القرآن الكريم يتكلم على أهل القرى الذين تقدموا وملكوا أسباب القوة والحضارة والمنعة ، فيقول : ﴿ وَكَأين منْ قَريَـةٍ هِيَ أشَدُّ قُوَةً مِنْ قَرْيتكَ التى أخرجَتْكَ أهْلكْنَاهُم فَلاَ ناصِرَ لَهُم ﴾[1]

ونرى الإسكندر ، أو ذا القرنين الذى طوف فى المشارق والمغارب ، ويبهر العالم وقت ذاك ، بما ملك وسخر من علم وهندسة وفن ، يبنى سدا حضاريا ، توفرت فى هندسته الخبرة والعلم والعبقرية ، يصف القرآن ذلك كله بالقوة ، ويطلب ذو القرنين من القوم أن يعينوه بها لا بالمال ﴿ قال مَا مَكَّنّى فيه رَبى خَيْرٌ ، فَأعِينونى بِقوَّةٍ أجْعَلْ بَينكم وَبَينَهُم رَدْماً ﴾[2] ثم نرى آثار هذه القوة وهذا التقدم فى قوله تعالى ﴿ آتُونِى زُبَرَ الحَديدِ حَتَى إذَا سَاوىَ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَى إذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونى أُفْرِغْ عَلَيْه قِطْرا فَمَا اسْطَاعُوا أنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتطاعُوا لَهُ نَقْبا ﴾[3] ونحن نرى فى عملية البناء هذه من مظاهر التقدم والخبرة « التكنولوجيا » كما يسمونها ، ما يجعلنا نقدر هذا العمل الضخم . وإذا انتقلنا إلى حضارة سبأ نجد أنه لم يرد لكلمة الحضارة ذكر ، بل استعملت أيضا كلمة القوة التى هى من نتاج الحضارة ، جاء ذلك على لسان القوم فى معرض الحديث عن استعدادهم لمقابلة سليمان « نَحنُ أُولُوا قُوَةٍ وَأُولوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إليْكِ فَانْظرى مَاذَا تَأْمُرِيْن ﴾[4] .

ونجد القرآن يحدث كذلك عن أصحاب الحضارات الزائلة التى فسدت وانتكست بفعل أبنائها وطغيانهم ، رغم أنهم بلغوا من التقدم والإنتاج والعمران الشىء

---

(١) محمد ـــ ١٣ .
(٢) الكهف ـــ ٩٥ .
(٣) الكهف ـــ ٩٦ ـــ ٩٧ .
(٤) النمل ـــ ٣٣ .

الكثير ، فيقول ملفتا إلى ذلك ﴿ أَوَلَمْ يَسيرُوا فى الأَرضِ فَينْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبةُ الذِينَ مِنْ قَبلهم كانوا أشدَّ مِنْهُم قُوةً وأثَارُوا الأَرْضَ وعَمَرُوها أكْثَر مِمَا عَمَرُوها وَجَاءَتْهُم رُسُلُهُمْ بالبَيّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون ﴾[1] ، ويقول تعالى فى قارون والقرون التى قبله ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُون مَنْ هُو أَشَدُّ مِنْهُ قُوةً وَأَكثَرُ جَمعا ﴾[2]

ونرى القرآن يتكلم على حضارة عاد فيقول : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جَبَّارين ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ، واتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُون . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[3] . ثم يقول لهم رسولهم بعد ذلك ﴿ وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوةً إِلى قُوَتِكُمْ وَلاتَتَولَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾[4] .

فيصف هود عليه السلام ماهم عليه من تقدم وحضارة بالقوة ، ويطلب منهم المحافظة عليها بالاستقامة حتى يزيدهم الله قوة على قوتهم .

وإذا تتبعنا ماكتب عن الحضارات القديمة وما عثر عليه من آثار لانجد فيه استعمالا لكلمة « حضارة » رغم أن تلك الحضارات بلغت مكانة كبيرة فى العلم والفن والتقدم فى شتى نواحى الحياة ، وقد اختلفت أزمنة وأمكنة ومناهج .

فكلمة « الحضارة » المستعملة اليوم كلمة « محدثة » وإطلاق جديد ، وتعبير مخترع ، جاء بعد تلك الحضارات السابقة ، إذن فهو قد أطلق واستعمل فى التعبير عن الحضارة الحديثة ، وسحب على ما سبق من تقدم وازدهار للأمم السابقة ، ثم التمس بعد ذلك اشتقاق للكلمة عربى وأوربى .

---

(١) الروم — ٩ .
(٢) القصص — ٧٨ .
(٣) الشعراء — ١٢٨ إلى ١٣٤ .
(٤) هود — ٥٢ .

والحقيقة أن الاشتقاق العربى أقرب من الاشتقاق الأوربى ، لأن الاشتقاق العربى أخذ من الحضر والمدن ، دلالة على أن أهل هذه الحواضر والمدن ، هم أصحاب العقول الحضرية والثقافية وأقدر من غيرهم على الاختراع والتقدم فى المجالات المختلفة ، فنسبت الحضارة إلى أهل الحضر والمدن لهذا المعنى .

أما فى أصل الاشتقاق الأوربى ، فإن الكلمة تنسب إلى الحرث والزرع ، وهو يعنى الريف وفلاحة الأرض ، وهذا يخالف الاشتقاق العربى ويبتعد عنه وعن أهل المدن والحضر ، ولعل هذا هو ماجعل بعض الأوربيين يجنح إلى القول بأن المراد حرث العقل لاحرث الزرع ، ولا يخفى ما فى هذا من تكلف . ثم نرى بعد ذلك أن الأوربيين يرجعون إلى مجاراة الاشتقاق العربى ، ولعل هذا وجد بعد اتصالهم بعلوم العرب ، فيطلقون اسم Civilisation المشتقة من الكلمة اللاتينية Civis ، أى المدنى أو المواطن فى المدينة على الحضارة ، ويجعلونها أصلا من أصولها ، ومرادفة لكلمة Culture ،التى تعنى الحرث والزراعة والريف . وكأنهم بهذا قد توسعوا فى إطلاق الكلمة ، فأطلقوها على أهل الريف وأهل المدن ، فشملت الاشتقاق العربى وزيادة . (وعندى) ما كان أغنى الباحثين عن هذا العناء ، بأن يقولوا إن الكلمة حديثة ، لاصطلاح حديث اتفق عليه ، شأنه فى ذلك شأن مصطلحات الحضارة الحديثة التى أطلقت على العلوم وعلى المخترعات الكثيرة التى سميت بأسماء مختلفة ، ودخلت القواميس بأسماء جديدة ، وشقت طريقا فى الاستعمال اللفظى والكتابى بثبات وثقة ، وهذا عندى أولى من أن تكون الكلمة كطفل غير شرعى يبحث له عن أصل ويتلمس له شهادة ميلاد لمعرفة نسبه وإثبات هويته .



المبحث الثانى
التعريف الاصطلاحى للحضارة وما يقاربها

لم يتفق الباحثون فى التاريخ ، ولا علماء الاجتماع والحضارة ، على تعريف معين للحضارة ، وإنما اختلفت تعريفاتهم تبعا لاختلاف أقطارهم ومذاهبهم ، فمنهم من يراها عقيدة وخلقا وسلوكا يوفر للإنسان السعادة والرفاهة ، ومنهم من يضم إلى ذلك عناصر أخرى من ازدهار اقتصادى ، وسبق عمرانى ، وتقدم صناعى ، ونظام اجتماعى وتشريعى . ومنهم من يهدم ذلك كله ، ويعتبرها الإباحية المطلقة ، والسلطة القاهرة ، والقوة الباطشة ، وسنعرض بإيجاز غير مخل لجملة من هذه التعريفات ذات الاتجاهات المختلفة ، ونجيل النظر فيها حتى نكون على بينة منها .

الاتجاه الأول :

ونسميه الاتجاه العام ، الذى يعرف الحضارة بأنها جهد البشر فى شتى الميادين ويجعلها شاملة ومحيطة بكثير من جوانب الحياة .

تعريف ول ديورانت :

يعرف ول ديورانت الحضارة بقوله « هى نظام اجتماعى يعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقافى بعناصر أربعة :

١ــ الموارد الاقتصادية .
٢ــ النظم السياسية .
٣ــ العقائد الخلقية .
٤ــ متابعة العلوم والفنون .[1]

(١) نشأة الحضارة لول ديورانت تعريب د ــ زكى نجيب ١ / ٩ ط لجنة التأليف والترجمة .

تعريف تيولر :

يعرف العالم الإنجليزى تيولر الحضارة بمعناها « الاثنوغرافى » الواسع بقوله : « هى : ذلك الكيان المعقد الذى يضم المعرفة ، والمعتقدات ، والفنون ، والآداب ، والقوانين ، والعادات ، وجميع القدرات والتقاليد الأخرى التى يكتسبها الإنسان بصفته عضوا فى المجتمع »[1].

تعريف لارف لنتون :

يعرف الدكتور رالف لنتون الحضارة بقوله : « هى مجموعة منظمة من الاستجابات التى تعلمها الأفراد ، وأصبحت من مميزات المجتمع »[2]

تعريف الحورانى :

يعرف يوسف الحورانى أهم مظاهر الحضارة بقوله : « هى عقائد دينية ، وازدهار اقتصادى ، وإنجازات إنشائية وفنية ، وأنظمة تشريعية ، وتضامن اجتماعى وفق تقاليد وعادات موحدة ، أو قوى حربية [3]

تعريف الدكتور محمد محمد حسين :

يعرف الدكتور محمد محمد حسين الحضارة ، بأنها كل ماينشئه الإنسان فى كل مايتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه ، عقلا ، وخلقا ــ مادة ــ وروحا ــ دنيا ــ ودينا »[4].

---

(١) فى معركة الحضارة لقسطنطين زريق ص ٣٤ ط دار العلم للملايين ، فلسفة الحضارة الإسلامية للدكتور عفت الشرقاوى ص ١١ ط دار النهضة العربية ببيروت .

(٢) شجرة الحضارة للدكتور رالف لنتون ترجمة أحمد فخرى ١ / ٦٥ط الأنجلو المصرية .

(٣) الإنسان والحضارة يوسف الحورانى ص ١٤ ط المكتبة العصرية بيروت . كاتب معاصر سورى الجنسية .

(٤) الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين ص ٤ ط المكتب الإسلامى بيروت سوريا كاتب معاصر

تعريف الدكتور أحمد شلبى :

يعرف الدكتور أحمد شلبى الحضارة بأنها «الإنجازات التى تُحقق للبشرية أو حققتها البشرية من خلق وسلوك ومعارف » [1]

تعريف الدكتور حسين مؤنس :

يعرف الدكتور حسين مؤنس الحضارة فى مفهومها العام بقوله : هى ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود ، سواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية [2].

إيضاح :

بعد هذا العرض من التعريفات التى تتوافق فى اتجاه واحد ، يتبين لنا أن مفهوم الحضارة عند علماء هذا الاتجاه ، مفهوم عام ، يتناول قل قدرات الإنسان العقلية والنفسية والعملية ، المتجهة نحو الرقى والتقدم فى جميع مجالات الحياة ، فنرى ول ديورانت يجعل الإنتاج الثقافى بعناصره الأربعة ــ الموارد الاقتصادية ، والسياسية والخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون ــ هو الحضارة ، وهـذه العنـاصر هى خلاصة قدرات الإنسان فى الحياة وعوامل تقدمه .

ثم يأتى تيلر Tylar ويمشى على نفس الاتجاه ، فيجعل الحضارة هى الفنون ،

---

(١) الحضارة الإسلامية ، للدكتور أحمد شلبى ١ / ٢٠ ط دار النهضة المصرية . معاصر ، دكتوراه فى الفلسفة من جامعة كمبردج ، أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية بكلية دار العلوم ــ جامعة القاهرة ، له العديد من المؤلفات ، منها موسوعة الأديان وموسوعة التاريخ الاسلامى وموسوعة الحضارة الاسلامية .

(٢) الحضارة للدكتور حسين مؤنس ص ١٣ ط الكويت أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة سابقا . مدير معهد الدراسات الإسلامية مدريد ــ ١٩٥٧ رئيس تحرير مجلة الهلال ، له العديد من المؤلفات والبحوث العلمية باللغات الأوربية والعربية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية ــ معاصر .

والآداب ، والقوانين ، والعادات ، وجميع قدرات الإنسان ، والتقاليد المكتسبة من المجتمع الذى يعيش فيه . فيضم كل نشاط للإنسان وكل قدراته ؛ بل وعاداته القديمة والحديثة فى التعريف .

ويأتى الدكتور رالف لنتون ليجعل الحضارة هى استجابات الإنسان التى تعلمها وأصبحت من مميزات مجتمع معين ، يعيشه هذا الإنسان بكل مافيه وبكل طاقاته ، ثم نرى من جاء بعدهم من الباحثين العرب الذين أوردنا طائفة من تعريفاتهم ، تسير فى نفس الاتجاه الذى سار فيه من ذكرنا من الغربيين بل لعلها مقتبسة من أفكارهم أو مترجمة عن تعريفاتهم .

الاتجاه الثانى :

وهو مانسميه بالاتجاه الإنسانى ، أو الاتجاه الروحى ، أى الذى يبحث فى حضارة الإنسان نفسه ، داخليا ، وعقليا ، وسلوكيا ، وخلقيا ، فهو يقيم الإنسان نفسه بغير ماحوله ، بصرف النظر عما يستعمل أو يسكن أو يصنع ، وإذا نظر إلى ماحوله فإنما ينظر إليه بمقدار خدمته للإنسان ، وإسعاده لحياته ، وتقديره لمبادئه ، وسنعرض لطائفة من تعريفات أصحاب هذا الاتجاه .

تعريف كلود دلماس :

يعرف كلود دلماس الحضارة بقوله : « هى تربية الضمير واستعمال الثقافة والعقل فى البحث عن الأفضل » (١)

تعريف غستاف لوبون (٢) :

يعرف الدكتور غستاف لوبون الحضارة بقوله : « هى نضوج الآراء والمبادىء

---

(١) تاريخ الحضارة الأوربية تعريب توفيق وهبة ص ٥ ــ ٧ ط مكتبة الفكر الجامعى .

(٢) غستاف لوبون ــ ١٨٤١ ــ ١٩٣١ عالم نفس واجتماعى فرنسى ، كان متعصباً للعنصرية ، معروفاً بنزعته المضادة للديمقراطية ، الف عددا من الكتب فى علم النفس الاجتماعى منها . روح الجماعة ، وفلسفة التاريخ ،

والمعتقدات وتغير مشاعر الإنسان إلى الأفضل.[1]

تعريف ألكسيس كاريل[2] :

يعرف الكسيس كاريل الحضارة : « بوجوب أن تتبع الأبحاث العقلية والروحية ، والعلوم الخادمة لسعادة الإنسان النفسية والخلقية والإنسانية »[3]

تعريف مالك بن نبى[4] :

يعرف مالك بن نبى الحضارة فيقول : « هى البحث الفكرى والبحث الروحى .[5]

تعريف المودودى[6] :

يعرف أبو الأعلى المودودى الحضارة فيقول : « هى تصور سليم للحياة الدنيا

والسنن النفسية لتطوير الأمم ، وهو من كتاب العرب الذين أنصفوا الحضارة العربية ، وأشادوا بفضلها على الحضارة الأوربية ، عندما نقلت تراث اليونان ، وعندما وضعت تراثها الخاص — فى كتابه « حضارة العرب » الذى ترجم للعربية .

(١) روح الجماعة ترجمة عادل زعيتر ص ١٧ ط دار المعرفة بمصر .

(٢) ولد الكسيس كاريل بالقرب من ليون بفرنسا عام ١٨٧٣ وحصل على إجازة الطب من هذه المدينة كما حصل على إجازة فى العلوم من ديجون . مارس التدريس عدة سنوات ، رحل إلى الولايات المتحدة وتوظف فى معهد روكفلر للأبحاث العلمية منح الدكتور كاريل جائزة نوبل عام ١٩١٢ لأبحاثه الطبية الفذة ، ألف أشهر كتبه « الإنسان ذلك المجهول » الذى استقبل بحماس عظيم عندما نشر لأول مرة ومازال . توفى سنة ١٩٤٤ .

(٣) الإنسان ذلك المجهول ص ٥٧ ط مؤسسة المعارف .

(٤) ولد مالك بن نبى عام ١٩٠٥ فى مدينة قسنطينة فى الجزائر ، تخرج من باريس عام ١٩٣٥ مهندسا كهربائيا ، اتجه نحو تحليل الأحداث وخاصة فى الشرق والعالم المتخلف ، باعتبارها قضية حضارة . أصدر سلسلة من الكتب تحت عنوان مشكلات الحضارة ، منها الظاهرة القرآنية ، شروط النهضة ، وجهة العالم الإسلامى ، لجأ إلى القاهرة عام ١٩٥٦ ثم إلى الجزائر عام ١٩٦٣ وعين مديرا عاما للتعليم العالى . استقال عام ١٩٦٧ وتفرغ للعمل الفكرى توفى سنة ١٩٧٣ .

(٥) شروط النهضة مالك بن نبى — ص ٣٣ ط دار الفكر بدمشق .

(٦) المودودى زعيم الحركة الإسلامية فى باكستان والهند ، صاحب فهم ومدرسة إسلامية كبيرة ، تطالب بتحكيم كتاب الله ، وتوحيد المسلمين ، وإحياء حضارتهم وهو مفكر معاصر توفى سنة ١٩٧٨ م .

وغايتها فى نظام اجتماعى ، يقود الإنسان إلى الرق والإخاء والأمان »[1]

تعريف سيد قطب[2] :

يعرف الأستاذ سيد قطب الحضارة فيقول : « هى ماتعطيه للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادىء وقيم تصلح لقيادة البشرية ، وتسمح لها بالنمو والترق الحقيقيين ، النمو والترق للعنصر الإنسانى وللقيم الإنسانية وللحياة الإنسانية »[3]

تعريف عفت الشرقاوى[4] :

يعرف الدكتور عفت الشرقاوى الحضارة بقوله : هى التراث التاريخى المتمثل فى العقائد والقيم التى ترسم للحياة غاية مثلى ومغزى روحيا عميقا متعاليا على متناقضات الزمان والمكان[5].

إيضاح :

بعد أن تعرضنا لطائفة من تعاريف هذا الاتجاه للحضارة ؛ نرى أنه ينظر إلى الإنسان على أنه إنسان ، وإلى الحضارة على أنها شىء من لوازم هذا الإنسان ، الإنسان صاحب الإحساس والمشاعر والعقل والثقافة ، والفرح والحزن والسعادة والشقاء ، الإنسان الذى سخر له كل شىء ، وكان سبب فى عمارة كل شىء وإبداع كل شىء ، فإذا ارتقى هذا الإنسان ، وسمت مشاعره ، ورقت حواشيه ، واستنارت نفسه ، وهدأ ضميره ، واستقامت غرائزه ، ورشد خطوه ، واعتدل طريقه ، وسعدت أيامه ، كان ذلك هو الحضارة .

---

(١) الحضارة الاسلامية للمودودى ص ٤ ، ٨ ط الطباعة العربية .

(٢) الأستاذ سيد قطب كاتب ومفكر إسلامى معاصر ، له مؤلفات إسلامية عدة منها فى « فى ظلال القرآن » « ومعالم فى الطريق » ، والعدالة الاجتماعية فى الإسلام ، والتصوير الفنى فى القرآن وخلافه ، حكم عليه بالإعدام وأعدم سنة ١٩٦٦ .

(٣) المستقبل لهذا الدين ص ٥٦ ط الكويت .

(٤) الدكتور عفت الشرقاوى ، معاصر ، أستاذ بجامعة عين شمس وبيروت العربية .

(٥) فلسفة الحضارة الإسلامية للدكتور الشرقاوى ص ١٨ ط دار النهضة العربية بيروت .

فيكون الإنسان إذاً كالقلب بالنسبة للجسد الدنيوى ، إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، وكالروح بالنسبة للبدن ، إذا سعدت سعدت الدنيا فى عينه ، وإذا شقيت تعس الثقلان وأظلم المشرقان .

وأصحاب هذا الاتجاه ينظرون إلى الحضارة على أنها تصورات ومفاهيم وقيم تصلح لقيادة الإنسانية وسعادة البشرية ، وتسمح لها بالنمو والترق ، لا إلى عمارة شاهقة واختراع عجيب وجهاز معقد ، ولا إلى حدائق غناء وأرائك مبثوثة وفرش مبسوطة ، فكل هذا فى نظرهم ليس هو الحضارة ، وليس هو الذى يقود الإنسانية إلى الحياة المستقرة والأمن المرتقب والإخاء المراد ، بل يكون وبالا عليها ومحقا لها ، إذا لم يصحبه سياج واق من القيم ، ونور كاشف من التصورات والمبادىء الفاضلة ، وقد يكون هذا التقدم الصناعى والعمرانى أثرا من آثار حضارة الإنسان صاحب القيم ، فحينئذ تؤتى أكلها ، وتعطى ثمارها شهدا يكون فيه سعادة للناس وشفاء لما فى الصدور .

الاتجاه الثالث :

هذا الاتجاه لا يتناول إلا الجانب المترف من النشاط البشرى ، فيكون بهذا عكس الاتجاه الثانى وسنمثل له بتعريف ابن خلدون .

تعريف ابن خلدون للحضارة :

يعرف ابن خلدون الحضارة بقوله : « هى التفنن فى الترف ، واستجادة أحواله ، والكلف بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه ، من الصنائع المهيأة للمطابخ ، أو الملابس ، أو المبانى ، أو الفرش ، أو الأوانى ، ولسائر أحوال المنزل ، ويلزم لهذا التأنق صناعات كثيرة »[1]، ونسمى هذا الاتجاه بالاتجاه المنظور ، أو المستقرأ فى كثير من الحضارات السابقة والحاضرة ، حتى فى عصرنا الحديث الذى يعتبر أسباب الراحة والرفاهة والتأنق فى المراكب والملابس والمبانى والفرش والأطعمة ، هو

---

(١) مقدمة ابن خلدون بتعليق الدكتور عبد الواحد وافى ح ٢ ص٨٧٦ ط لجنة البيان العربى .

الحضارة والتقدم ، وعند النظر إلى كثير من الحضارات السابقة نجد هذا المعنى وهذه الظاهرة واضحة جلية ، وكذلك نجدها عند كثير من دارسى الحضارات الذين لايذكرون شيئا عن الحضارة العقلية أو الخلقية ، بل يدور حديثهم عن الحضارات فى فلك التقدم المادى والمظاهر العمرانية يلفتون الناس إلى ماشيده الأقدمون من مبان ، وما أقاموه من أهرامات ، وما نحتوه من تماثيل ، وما برعوا فيه من نقوش ، وما إلى ذلك ، ولا يشك أحد أن هذا الذى يذكرونه كان نتاج عقل منظم وحياة مستقرة ، ولكن الدارسين والمؤرخين لتلك الحضارات لايلفتهم إلا مالفت ابن خلدون من تلك المظاهر وهذه الأشكال والرسوم ، ولعل ابن خلدون ، كان يذكر بذلك عادات أهل الحضر ، ولايقصد بهذا التعريف للحضارة بالمعنى الذى ذهب إليه المحدثون فيما بعد ، وإنما كان يصف ما طبع إليه أهل المدن والحضر من عوايد واهتمامات ، وإطلاقات واصطلاحات ، ولا يعنى بذلك تعريف جوهر الحضارة الحقة ، وما جاء بعد كلامه هذا من فصول يؤيد تلك النظرة . وللأسف فإن تلك الاهتمامات الظاهرية للحضارة أخذ بها كثير من الناس فى العصر الحديث وعبروا عنها بالحضارة ، وشغفوا بها ، وهاموا بها حبا ، وهذا مما دعى الناس فى كثير من أحوالهم إلى أن يأخذوا بالقشور ويدعوا اللباب ، ويهتموا بالمظهر ويهملوا المخبر ، وإن كان ذلك على حساب كثير من المبادىء والأخلاق والقيم ، وهذا الاتجاه يعد من الاتجاهات المادية للحضارة .

الاتجاه الرابع :

ونسميه الاتجاه الحيوانى أو العدوانى ، ولا أحب أن أقدم لهذا الاتجاه كثيرا ، إنما أترك لأصحابه أن يتكلموا عنه وأن يقدموه إلى الناس وإلى التاريخ .

تعريف كليسكليس وأتباعه ونيتشه وأتباعه :

يعتبر كليسكليس وأتباعه ونيتشه وأتباعه « أن الحضارة هى القضاء على العدل والأخلاق وترك العنان لطبيعتنا الحرة السافرة لتفعل ما تشاء ، ولو أدى ذلك إلى أن نسير على الجماجم فى سبيل تحقيق ذلك » ثم يزيدون هذا التعريف وضوحا ، فيقولون « إن الأخلاق ليست إلا اختراع الضعفاء لكى يقيدوا بها سلطان الأقوياء ،

فلنكن حربا على الأخلاق ، ويجب أن نحطم قيد العدل الظالم حسبما جاء فى القانون الوضعى ، يجب أن نترك العنان لطبيعتنا المطلقة ... يجب أن نكون كذلك فى بنيتنا الطبيعية وفى قوتنا العقلية وفى مزايانا الخلقية ، يجب أن يكون لنا الجسارة فيما به نحيا حياة حرة سافرة فى وضوح النهار ، إذا ما اقتضى ذلك أن نسير فى طريق من الجماجم دون أن يتحرك ضميرنا بملام ، يجب أن تكون لنا قلوب قاسية ، يجب أن نرسل صرخة الحرب دون وجل أو ندم فى وجه مصطلحات العالم ومصطلحات أخلاق القطيع » .[1]

وهذا الفكر واضح الآن ، وله حضارة ودعاة وجيوش وأساطيل وصحف وإعلام ، وهو الفكر الشيوعى ، الذى يعتبر الدين أفيون الشعوب ، والقوانين وجدت ليحكم بها الأقوياء الضعفاء ، والجنس كلأ مباح ، والشهوة متاع محبب ، والشرف كلمة يرددها الرجعيون المتزمتون ، الذين يجب أن يكونوا وقودا للثورة ومعبرا للحضارة المرتقبة ، وأستطيع أن أقول بسهولة : إن هذا الفكر رافد من روافد فلسفة اللذة والشهوة التى سبقته ، فإن أرسطس قد فلسف هذه اللذة وتلك الحرية الجامحة ، بقوله : « اللذة هى قاعدة الحياة »[2] ويعلل ذلك فيقول : « إن تحصيل اللذة الراهنة ، ضرورة نفسية نخضع لها قسراً عنا ، وإن الاعتراف بذلك خير من نكرانه ، لأننا باعترافنا وإدراكنا حقيقة كياننا نستطيع أن نرفه شيئا من وحدة ميولنا ، وأن ننظمها ونروضها على أن تتحول إلى فعل الخير على قدر المستطاع ، ذلك على الضد مما نكون إذا أهملنا الاعتراف بها ، ومضينا نقول : إن حكم الضمير كان للتهذيب ، من غير أن نعير الشهوة وأثرها فى الحياة شيء »[3]

وعلى هذا يكون الفرق بين الفكر الأول والفكر الثانى هو الإصرار على تنفيذه

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة . أندريه كرش ص ٣٢ تعريب الدكتور عبد الحليم محمود وآخرين .

(٢) الحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبى ٢ / ٢٠ ط دار النهضة المصرية .

(٣) فلسفة الحضارة للدكتور عفت الشرقاوى ص ١٩ ط دار النهضة العربية بيروت .

بالقوة ، ولو أدى ذلك إلى الدمار ، والسير على الجماجم ، واستعمال القسوة إلى أبعد مدى .

وفى رأيى أن هذا يقلب اللذة إلى ألم ، ويحول الحياة إلى ليل أسود وغيوم داكنة مليئة بالصواعق والرعود ، التى تقضى على اللذة المقدرة ، بل على الإنسان نفسه والحياة من حوله ..

الألفاظ ذات الصلة بالتعريف الاصطلاحى :

بعد أن تعرضنا لتعريف الحضارة فى الاصطلاح ، ورأينا وجوهه المختلفة التى ظهرت فى سماء العصر على اختلاف المذاهب والنحل فى ذلك ، يحسن بنا أن نتعرض للألفاظ ذات الصلة فى الاصطلاح أيضا ، ليتضح المعنى وتستبين وجوه الاتفاق والاختلاف ، كما أوضحنا ذلك فى التعريف الاشتقاق .

(١) المدنية

يعرف الدكتور أحمد شلبى المدنية بقوله :

« هى الرقى فى العلوم العلمية والتجريبية ، كالطب ، والهندسة ، والكيمياء ، والزراعة ، والصناعة ، والاختراع الآلى »

ثم فسر هذا التعريف فقال « وسمى الرقى فى هذه العلوم مدنية ، لارتباط الرقى فيها بالمدنية »[1] وعلى هذا فالمدنية تستهدف السيطرة على الطبيعة ، وإخضاع ظروف البيئة فيها للإنسان ، فالمدنية تعنى سيطرة الإنسان ، على الأشياء .

تعريف الدكتور عفت الشرقاوى :

يعرف الدكتور عفت الشرقاوى المدنية بقوله : « هى مانستعمل ، أو هى ظاهرة اصطناعية تظهر فى ازدهار الفنون الصناعية للمجتمع المتمدن ، أو هى

---

(١) الحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبى ٢ / ٢٠ ط دار النهضة المصرية .

خلاصة ماتطورت إليه الطاقة العقلية للإنسان ، ومدى قدرة هذه الطاقة على التحكم فى طبيعة الأشياء »[1]

وعلى هذا فالتعريفان المذكوران يحددان مجال المدنية فى العلوم العلمية التجريبية ، التى تظهر وتزدهر فى المجتمع ، ليسيطر بها الإنسان على الطبيعة ، ويخرج بهذه العلوم فنونا من المخترعات فى شتى بمجالات الحياة الدنيا ، ولكنا نلاحظ عند كثير من الباحثين أن لفظة المدنية فى الاصطلاح مساوية للفظة الحضارة ، وأن كل من اللفظين يطلقان على مسمى واحد ، وهذا ما مال إليه الغربيون وكثير من العرب ، منهم الأستاذ محمد فريد وجدى .

تعريف الأستاذ محمد فريد وجدى :

يعرف الأستاذ محمد فريد وجدى المدنية فيقول : « للمدنية اليوم معنى أوسع مما مر من الزمان ، فقد عرفها العلماء الاجتماعيون بقولهم : هى الحالة الراقية التى توجد عليها الأمم تحت تأثير العلوم العالية والفنون الجميلة والصنائع المناسبةلهذه الحالة »[2]فاكتسبت كلمة المدنية بذلك مدلولا أعم من مدلولها اللغوى ، واعتبرت غاية تتدرج الأمم فى الوصول إلى أوجها الأعلى تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع ، وقد قال الفلاسفة « الإنسان مدنى بطبعه » ، أى مفطور على التمدن والارتقاء. ثم يقول : وهذا الترقى المطرد فى الإنسانسيهجم به لا محالة على حالة من الكمال لم يحلم بها السابقون المتقدمون ، ولا نعنى بذلك الكمال زيادة وسائل متاعه المادى فقط ، ولكنا نعنى به كمال أخلاقه ، وتمام ملكاته ، وبروز الإنسانية فيه بأجمل صورها أيضا » .[3]

وعلى هذا نجد أن الباحثين يختلفون فى التعريف الاصطلاحى للمدنية على وجهين :

---

(١) فلسفة الحضارة للدكتور عفت الشرقاوى ص ١٩ دار النهضة العربية بيروت .

(٢) دائرة معارف وجدى ج ٨ ص ٥٥٣ .

(٣) المصدر السابق ٨ / ٥٥٤ .

الأول : يطلقها على العلوم المادية التجريبية ، مثل الطب ، والهندسة ، والصناعة التى تخدم الإنسان ماديا وترفيهيا ، كما يقول الدكتور عفت الشرقاوى ــ المدنية هى مانستعمل ، والحضارة هى مانحن .

والاتجاه الثانى : يجعل كلمة المدنية مرادفة لكلمة الحضارة ، ويطلقها على العلوم النظرية والعملية والصناعية والسلوكية والفكرية والنفسية ، كما أشار إلى ذلك بوضوح الأستاذ محمد فريد وجدى .

والاتجاه الثانى تميل إليه النفس وترجحه ، للأسباب التالية :

١ــ اشتقاق كلمة حضارة ومدنية مترادفان ، فالحضارة مشتقة من أهل الحضر والمدن الذين يسكنون المدن والحواضر ، حيث يكونون أفقه عقلا وأكثر فهما وأحسن استعدادا للرقى من غيرهم .

وكلمة مدنية مأخوذه من المدينة وسكانها ، ومن الحواضر كذلك ، حيث يطلق على المدينة حاضرة ، وعلى الحاضرة مدينة ، فاشتقاق الكلمتين متفق وموحد ، فلا داعى للتفريق بينهما اصطلاحا ، حيث إن مجال عملهما هو الرقى والتقدم .

٢ ــ يستخدم الأوربيون كلمة المدنية والحضارة بمعنى واحد فى أصل اشتقاقهما ؛ حيث يستعملون كلمة Civilisation بمعنى واحد للحضارة والمدنية ، ويعتبرون كلمة الحضارة والمدنية مترادفان ، دلالة على التقدم والترقى والحضارة . وحيث أن الكلمتين محدثتان ومقتبستان من أصل واحد عند الأوربيين والعرب ؛ فلا داعى للتفريق بينهما بدون سبب يدعو إلى ذلك .

(٢) الثقافة :

يعرف ول ديورانت الثقافة والحضارة بتعريف واحد ، ويسوى بينهما فى المعنى ، فيقول :« الثقافة والحضارة : هى النظام الاجتماعى والتشريعى والخلقى والنشاط الثقافى »[(١)]

---

(١) نشأة الحضارة ١ / ٩ الهامش ترجمة زكى حبيب ط لجنة الترجمة والتأليف .

تعريف الدكتور أحمد شلبى :

يعرف الدكتور أحمد شلبى الثقافة بقوله : هى الرقى فى الأفكار النظرية ، مثل القانون ، والسياسة ، والأخلاق ، والسلوك (١)

تعريف مالك بن نبى :

يعرف الأستاذ مالك بن نبى الثقافة بقوله : « هى مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التى يلقاها الفرد منذ ولادته » . (٢)

ثم يفسر هذا التعريف ويزيده وضوحا ، فيقول : فالثقافة على هذا هى المحيط الذى يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته ، ويعكس حضارة معينة ، ويتحرك فى نطاقه الإنسان المتحضر .

وهكذا يضم التعريف بين دفتيه فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة ، أى معطيات الإنسان ومعطيات الجماعة ، مع أخذنا فى الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات فى كيان واحد ، تحدثه عملية التركيب التى تجريها الشرارة الروحية ، عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات .

والذى يلاحظ فى التعريف الاصطلاحى للثقافة ، أن هناك رأيين ، يمثل كل منهما وجها معينا :

الأول : للأوربيين وقد مثلنا لهم بول ديورانت ، يعتبرون الثقافة والحضارة بمعنى واحد ، ويستعملون لهما كلمة واحدة فى التعبير عن الكلمتين ، رغم اختلاف كل منهما فى أصل الاشتقاق Culture ، ويميل بعض الباحثين العرب ، وعلى الأخص علماء النفس إلى استعمال تلك الكلمة الإنجليزية فى التعبير عن الثقافة والحضارة أيضا .

الثانى : وأما الرأى الثانى فيفرق بين الثقافة والحضارة ، حيث يعتبر الثقافة هى الرقى فى الأفكار والأخلاق والقيم الاجتماعية ، التى يكتسبها الفرد من بيئته أو مجتمعه أو

---

(١) حضارة الإسلام لأحمد شلبى ٢ / ١٩ ط النهضة المصرية .

(٢) شروط النهضة مالك بن نبى ص ٨٣ ط دار الفكر دمشق .

دراسته فى المجالات المختلفة .

وقد مثلنا لهذا الاتجاه بتعريف الدكتور أحمد شلبى ، والأستاذ مالك بن نبى ، وهذا الرأى مال إليه الباحثون من علماء الاجتماع العرب ، حيث أطلقوا الثقافة على الفكرى من الحضارة ، وفرقوا فى إستعمال الكلمة الأوربية المترجمة لكل من الحضارة والثقافة . فأطلقوا كلمة Cultureعلى الثقافة ، وكلمة Civilisationعلى الحضارة ، ولا شك أن هذا الرأى يستند إلى واقعية الكلمة وصدق المدلول ؛ للأسباب الآتية :

١ــ قد رأينا فى أصل كلمة الثقافة اللغوى ، أن الكلمة تتصل بمعنى من معانى التقويم ، والتكيف ، والتغيير النوعى ، والمعالجة التربوية ، وهذا المعنى الاصطلاحى الذى أوردناه فى تعريف هذا الاتجاه يسير فى نفس المسار ، فيعرف الثقافة بالتهذيب والرقى وتحصيل الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية ، فيتواكب المعنى الاصطلاحى مع المعنى اللغوى ، ويكون سياجا من الدلالة على رسوخ الكلمة وتمكن معناها فى اللغة والاصطلاح .

٢ــ الثقافة شىء ذهنى وعقلى يختص بالإنسان ؛ لابالمادة والآلة والعمران والصناعة ، نعم قد تتصل بكل ذلك وتوجهه ، ولكنها تبقى من لوازم الإنسان ، وتكون ألصق به وبطباعه الشخصية من مدلول الحضارة .

٣ــ قد تختلف الثقافة من شخص إلى آخر فى مجتمع واحد ، وفى مدينة واحدة ، بل فى أسرة واحدة ، بينما لايكون ذلك فى الحضارة ، فالحضارة إطلاق عام ، إذا أطلق على الأفراد يراد به المجتمع كذلك .

٤ــ الثقافة بمعناها هذا لاتدخل فى كل تعاريف الحضارة السابقة ، فتشترك فى التعاريف التى تقترن فيها الروحية بالمادية ، أو تنفرد بالناحية الروحية ، وتبتعد عن التعاريف المادية الصرفة ، التى يراد بها الترف واللذة والسير مع الشهوات ، لأن هذه الحضارات غالبا ماتكون فى غنى عن الثقافة والترقى الروحى .

(٣) النهضة :

أطلق العلماء والفلاسفة اسم النهضة على الرقى والرفعة والعزة ، والتحرر من

الجهل ، والاستعمار ونبذ التخلف الفكرى والمادى .

ويتتبعنا للمواطن التى ذكر الباحثون فيها اسم النهضة ، وجدنا أنهم لم يتخطوا تلك المعانى التى ألمحنا إليها ، وعلى هذا تكون النهضة أعم من الحضارة والمدنية والثقافة ، إذ تطلق النهضة على كل ذلك ، وزيادة على ذلك أشياء منها الكفاح ضد الظلم ، وضد العبودية ، وضد الذل والكسل والهوان .

ولهذا كثر استعمال مصطلح النهضة عند تحرير الشعوب ، واسترداد الأوطان ، وبعث الحريات ؛ لإرجاع الأمم إلى شخصيتها وبعثها من رقادها ، لتأخذ بأسباب القوة والمنعة والتقدم والحرية .

صلة الحضارة بالمفهوم الإسلامى :

لاشك أن نظرة الإسلام الحضارية ، نظرة متميزة ، تقوم على القيم والإخلاص والخصائص الإنسانيةالعليا التى ينفرد بها الإنسان عن الحيوان ، فمجتمع الإسلام ينبى على العقيدة ، لا على الجنس أو اللون ، عقيدة تجمع بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر ، والعربى والرومى والحبشى والفارسى وسائر أجناس الأرض ، فى عبودية تامة للهسبحانه ، وخضوع لأوامره ، حيث تطوع العادات والتقاليد والأعراف والطبائع لتلك العبودية وليس معنى هذا أن المجتمع الإسلامى المتحضر يحتقر المادة ، وإنما يحترمها فى صورتها النظرية ؛ باعتبار أنها هى التى يتألف منها هذا الكون البديع الذى نعيش فيه ونتأثر به ، فى صورتها فى الإنتاج المادى « فالإنتاج المادى من مقومات الخلافة فى الأرض . سخره الله لنا ، وأمرناأن نعمل الفكر فيه ، ونسير فى الأرض لتحصيله والاستفادة منه ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾[1] ، ولكن المسلم لا يعتبر هذا غايته ، ولا يتصوره القيمة العليا التى تستعبد الإنسان وتهدر كرامته وتبتلع حريته وتجعله خاضعا ذليلا فى كل ما يصدر عنه أو يتصرف فيه ، ولا تدخل فتغير أسلوبه وتبدد خلقه ، وتحرمه من القيم العليا والفضائل الحسنة ؛ لتحقق شيئا أرضيا مثل الوفرة فى الإنتاج ، او الرفاهية فى الطعام ، أو

---

(١) الأعراف ــ ٣٢ .

الأناقة فى الملبس ، والراحة فى المسكن ، والترف فى المركب ؛ على حساب قيمه العليا . فينقلب الإنسان إلى شيء آخر غير الإنسان . قد ينقلب إلى حيوان ، وقد يكون أشر منه وأضل ، كما أشار القرآن بذلك ﴿ يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾[1] ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴾[2] وتأييدا لهذه النظرية نسمع مالك بن نبى يقول : « من المعروف أن القرآن الكريم قد أطلق اسم الجاهلية على الفترة التى كانت قبل الإسلام ، ولم يشفع لهم شعر رائع وأدب فذ من أن يصفهم القرآن بهذا الوصف ؛ لأن التراث الثقافى العربى لم يحو سوى الديباجة المشرقة الخالية من كل عنصر خلاق أو فكر عميق » (٣)

فالتعريف الإسلامى للحضارة على هذا المعنى هو : القيم والأخلاق والعقيدة الخلاقة والخصائص الإنسانية العليا التى ينفرد بها الإنسان عن الحيوان ، وتكون دافعا له إلى تسخير ما خلق الله فيما أمر به ؛ « لأن إنسانية الإنسان هى قيمته العليا فى الحياة ، فيجب أن تكون موضع التكريم والاحترام ، وعقيدته هى ميزانه وقوته الدافعة وقانونه فى نفسه وفى مجتمعه ، فيجب أن تكون موضع النظر والاعتبار ، وتصرفه فى المادة التى هى من نعم الله يجب أن يكون على شكل يحقق الإفادة والنفع والهداية والشكر لواهب هذا الفضل والإحسان ، عندئذ يكون الإنسان متحضرا راقيا ، مشيدا لصرح من الاستقرار والسعادة والتقدم .

أما أن تكون المادة فقط فى أى مجتمع هى قيمته العليا وقطب رحاه ، سواء كانت نظرية فى مخيلته ، أو دراسة فى ثقافته (كما فى التفسير الماركسى للتاريخ) ، أو إنتاجا ماديا فى حياته (كما فى الحضارة المادية الحديثة) التى تعتبر الإنتاج المادى القيمة العليا التى تهدر فى سبيلها كل القيم والخصائص الإنسانية العليا ؛ فإن هذا المجتمع لايصح أن يطلق عليه أنه مجتمع متحضر ، بل هو متخلف وفى أدنى صور التخلف .

---

(١) محمد — ١٢ .
(٢) الفرقان — ٤٤ .
(٣) شروط النهضة مالك بن نبى ص ٢٨ ط دار الفكر دمشق .

وقد تكلم القرآن الكريم على أمثال هذه المجتمعات الخاوية التى فرحت بالقيم المادية ، وعبثت بعد ذلك بكل شيء وكانت وبالاً على مجتمعاتها وعلى الإنسانية .

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ، وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ، أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1] ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِى الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَاكَانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَاكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ ﴾[2]

وهكذا لابد من قيم تحرس المادة وتهيمن عليها ، حتى تسمى حضارة وتسلم من عبث العابثين .



---

(1) الشعراء (١٢٨ — ١٣٦) .

(2) غافر — ٨٢ إلى ٨٥ .

المبحث الثالث
الحضارة والنزعة العنصرية

قد يسائل الباحث نفسه : هل الإنسان جنس من أصل واحد ينتمى إلى ذكر وأنثى ، أم إلى أجناس متعددة وأباء مختلفة ، وإذا ثبت أن البشرية تنتمى إلى نسب واحد وأب معين ، فمعنى ذلك أنها متحدة الميول والخلقة والعقول والأفهام والصفات والغرائز ، وإذا اختلفت بعد ذلك فى شىء ، فإنما هو الاختلاف بين الأخ وأخيه فى اللون والعادة ، وبين المثقف والجاهل والمجرب والغر ، وهو اختلاف يرجع إلى عوامل معينة وأسباب معروفة ، إذا زالت هذه العوامل والأسباب تساوت البشرية فى أصلها ، وفى صفاتها ، وفى ثقافتها ، وفى تجاربها وعاداتها .

إذاً فهل هذه الحقيقة الواضحة الجلية رآها الباحثون ووعاها العلماء وفطن إليها فقهاء الحضارة على مر التاريخ ؟ لننظر فى الأمر على ضوء مصابيح التاريخ وشعاع الوقائع والحوادث ، ونولى وجهنا نحو أنماط مختلفة من القطاعات المتعددة التى حفلت بها الأيام ، واستوعبتها السنون ، ونأخذ من كل مثلا واحدا .

نأخذ مثلا من حضارة الشرق القديمة ، ولتكن حضارة الفراعنة . فهل فهمت هذه الحضارة حقيقة الإنسان وهل نظر الفراعنة إلى الناس نظرة مساواة وأخوة ، أم أن الواقع غير ذلك ؟

يروى لنا القرآن الكريم أن فرعون ومجتمعه كان ذا ثلاثة مفاهيم ، أو ينقسم مجتمعه إلى ثلاث شعب .

الشعبة الأولى :

فرعون والبيت الفرعونى ، وهم طبقة الآلهة ، يدين الشعب لهم ، وتتوجه

الأمة إليهم ، لايُسألون بل يَسألون ، ولايَعبدون بل يُعبدون . ونقرأ هذا فى قوله تعالى : ﴿ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ﴾.[1] وقوله تعالى : ﴿ ماعلمت لكم من إله غيرى ﴾.[2] ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ﴾ [3]

الشعبة الثانية :

المصريون أهل البلاد الأصلية ، ولهم الصدارة والريادة ، وهم الجنس المفضل الممتاز على غيرهم من البشر .

الشعبة الثالثة :

غير المصريين من عبرانيين وغيرهم ، وهذه طبقة مستباحة مسخرة ، ليس لها حقوق أو واجبات ، وإنما هى طبقة ممتهنة مستذلة ، ليس لحياتها قيمة ، ولا لإنسانيتها شرف أو احترام ، ونسمع القرآن يتحدث عن فرعون وعن تلك الشعبة أو هذه القطاعات ، فيقول :﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، إنه كان من المفسدين ﴾ [4]، فتوضح لنا الآية مكانة فرعون . بأنه علا فى الأرض ، أى ادعى الربوبية ، ونصب نفسه إلها على الناس ، ثم قسم الشعب إلى شيع وأقسام ، قسم يرضى عنه ، وقسم يستبيحه ويفعل به ما يشاء ، يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم .

أمم آسيا الوسطى :

أما الأمم فى آسيا الوسطى ، كالمغول ، والترك ، واليابانيين ، والهند ، والصين ، فقد كان يسود تلك البلاد ديانات متقاربة ، بين وثنية همجية ، وبين بوزية

---

(١) الزخرف : الآية (٥١) .
(٢) القصص : ٣٨ .
(٣) الأعراف : ١٢٧ .
(٤) القصص ـــ ٤ .

فاسدة ، لا تملك ثروة علمية ، ولا نظاما سياسيا راقيا ، ولنأخذ الهند مثلا لشعوب شرق آسيا ، حيث كان نظام الطبقات شديد الضراوة بالغ القسوة ، يستهين بشرف الإنسان ، ويمتهن آدميته ، وكانت تحميه السلطة الدينية والمدنية ، قانونا رسميا ومرجعا دينيا فى حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن بـ « منوشاستر »[١] يقسم هذا القانون البلاد إلى أربع طبقات :

الطبقة الأولى : الممتازة ، وهى طبقة الكهنة ورجال الدين .

الطبقة الثانية : (شترى) رجال الحرب .

الطبقة الثالثة : (ويش) رجال الزراعة والتجارة .

الطبقة الرابعة : (شودر) رجال الخدمة .

ويقول (مينو)[٢] مؤلف هذا القانون :« إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه ، وشترى من سواعده ، وويش من أفخاذه ، والشودر من أرجله ..... » ثم قال : « إن البراهمة هم صفوةالله وهم ملوك الخلق ، وإن مافى العالم هو ملك لهم ، فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر ـــ من غير جريرة ـــ ماشاءوا ، لأن العبد لايملك شيئا وكل ماله لسيده .... » ، ثم يقول : من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة ، وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك ، وليس لهم أن يقتنوا مالا أو يدخروا كنزا ، فإن ذلك يؤذى البراهمة ، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمى يدا أو عصا ليبطش به قطعت يده ... وإذا رفسه فى غضب قطعت رجله ، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوى استه وينفيه من البلاد ، أما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه ، وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتا فاترا ، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء »[٣] .

ويلاحظ الباحث والمتأمل أن هذا القانون فى بنى جلدتهم ، وعند من يسمى

---

(١) قانون ارتضته البوذية وتعارفت عليه وعملت به .

(٢) مينو : شخصية دينية اختلفت فيها الآراء ، فمنهم من يقول : إنه مصلح ، ومنهم من يقول : إنه نبى .

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـــ أبو الحسن الندوى ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ .

بالشعب ، فما بال غيرهم من الأجناس الأخرى ، كيف ياترى ؟ وإلى أى درجة تكون معاملتهم أو كرامتهم .

العنصرية عند الفلاسفة :

وإذا نظرنا إلى مجتمعات الفلاسفة ، ويممنا وجهنا شطر بحوثهم وأقوالهم وفلسفتهم ، نجد أن العنصرية البغيضة كانت تسيطر على عقولهم وأفعالهم وأقوالهم ، رغم أنهم كانوا حكماء يشار إليهم بالبنان ، ولنضرب لذلك مثلا بالمدرسة الأفلاطونية التى نظرت إلى الإنسان من زاوية عنصرية كريهة ، فقسمت البشر إلى صنفين : يونان عاقلين ، وبرابرة متوحشين ، كما تذهب إلى أن الطبيعة وهبت اليونانيين عقلا ممتازا ، أما غيرهم فهم مجردون من العقول والأفهام ، وعليهم خدمة هذا الصنف الممتاز .

ثم أوصت باستعمال الشدة مع هذه الأصناف من الخدم والعبيد ، ويدعو إلى مزيد من الصرامة ، وينعى على العهد الديموقراطى تسامحهم معهم[1] ، وقد صار أرسطو على سنن أفلاطون فى تقسيم الأجناس ، كما يجرى على سنن أستاذه فى التمييز بين اليونانى وغير اليونانى . فيقول : إن الله خلق فصيلتين من الناس . فصيلة زودها بالعقل والإرادة ، وهى فصيلة اليونان ، وقد فطرها على هذا التكوين الكامل ؛ لتكون خليفة له فى أرضه وسيدة على سائر خلقه . وفصيلة لم يزودها إلا بقوى الجسم ومايتصل اتصالا مباشرا بالجسم ، وهؤلاء هم البرابرة ، أى ماعدا اليونان من بنى آدم ، وقد فطرهم الله على هذا التقويم الناقص ، ليكونوا عبيدا مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة ، فمن واجب اليونان إذاً أن يعملوا بمختلف الوسائل على أن يردوا هؤلاء إلى المنزلة التى خلقوا لها ، وهى منزلة الرق . وكل حرب يشنها اليونان لتحقيق هذه الغاية حرب مشروعة ، تنبعث من طبائع الأشياء ، ولا تستقيم الحياة الاجتماعية وشئون العمل فى نظر أرسطو إلا باسترقاق هؤلاء البرابرة ، فبفضل هذا الاسترقاق يتحقق توزيع الأعمال على الوجه الذى يتفق مع طبائع الأشياء[2].

---

(١) جمهورية أفلاطون ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، والرق للدكتور الترمانينى ص ٢٠ .

(٢) انظر : قصة الملكية فى العالم ص ٧٢ ، والمجتمع الإسلامى ص ٧١ ، للدكتور على =

هذه هى نظرية الفلاسفة اليونانيين أصحاب الذكر والسمعة ، وأصل بناة الحضارة كما يقول القائلون ويتحدث المفتونون بالخيال عن الحقيقة ؛ وبالسراب عن الماء .

أصحاب الملل من أهل الكتاب

اما إذا توجه بنا البحث ، أو توجهنا به ، إلى الديانات والنحل والملل التى ذكر أصحابها أنها جاءت لخلاص الإنسانية وسعادة البشرية لنرى صدق تلك الدعوة وإخلاص هذه المقولة ؛ فإننا نرى غير ذلك . ولنضرب لذلك مثلا باليهودية والمسيحية .

والحديث عن اليهودية حديث عن عنصرية بغيضة نتنة ، تدعو إلى الغثيان والاشمئزاز ، فهم يدعون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وعلى هذا فهم يستبيحون كل الشعوب دماءا وأموالا ، وقد صرح القرآن بذلك حاكيا قولهم : ﴿ ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾[1]

ثم يقولون بما أن اليهود جزء من الله ، وذلك لقولهم : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾[2] كما ان الابن جزء من آبيه ﴿ نحن أبنؤا الله وأحباؤه ﴾[3] لذلك فإنه إذا ضرب أممى إسرائيليا فالأممى يستحق الموت [4]،وقد صور التلمود غير اليهود بأنهم حيوانات فى صورة إنسان ، هم حمير وكلاب وخنازير ، بل الكلب أفضل منهم ؛ لأنه مصرح لليهودى فى الأعياد أن يطعم الكلب ، وليس له أن يطعم الأجانب ، وخلق الله الأجنبى على هيئة الإنسان ليكون لائقا لخدمة اليهود ، الذين خلقت الدنيا لأجلهم ، ويعتبرون أنفسهم مساوين للعزة الإلهية [5].

= عبد الواحد وافى ، والرق ماضيه وحاضره للدكتور عبد السلام ترمانينى ص ٢٢ ط الكويت .

(١) آل عمران : اية : ٧٥ .

(٢) التوبة : ٣٠

(٣) المائدة ١٨

(٤) انظر : الكنز المرصود فى قواعد التلمود ص ٥٠ .

(٥) المرجع السابق ص١٥ .

ويا ليتهم يتحلون بعد ذلك بصفة الآلهة ، بل يأخذون صفة الأفاعى وأعمال الشياطين ، فنرى التلمود يقول : « إذا وقع أحد الوثنيين فى حفرة يلزمك أن تسدها بحجر » .[1]

وقد جاء فى التلمود أيضا « إن الله لا يغفر ذنبا ليهودى يرد إلى أممى ماله المفقود »[2]. فهم على ذلك لايرون قيمة لغير اليهودى ، ولا يعترفون به نفسا إلا للخدمة والاستعباد ، يرونه مستباح الدم مستباح المال ، يسعون إلى التخلص منه إذا سنحت الظروف ، وقد اعترف اليهود فى كتابهم المسمى (سدحادرون) أن الأمبراطور / مارك أوبل / قتل جميع النصارى بناء على إيعاز من اليهود ، وأنه فى سنة ٢١٤ بعد المسيح قتل اليهود مئتى ألف مسيحى فى روما وكل نصارى قبرص ، وأنه بناء على رغبة اليهود قتل الامبراطور « ديو لكيسيين » جملة من المسيحيين ، ومن ضمنهم بابوات .[3]

أما عن المسيحية ؛ فقد دعا السيد المسيح إلى المساواة بين الناس ، وأوصى أتباعه أن يعاملوا الناس بمثل مايحبون أن يعاملوا به ، فكانت دعوته تصحيحا لليهودية الفاسدة ، وخروجا على تلك العنصرية التى ذاق الناس منها الويلات ، وقد تفرق أتباعه فى البلاد بهذه الدعوة ، واستبشر المستضعفون والفقراء بها خيرا ، ولكنه لم يستمر الأمر على هذا الحال ؛ بل جاء القديس بولس وأعلن فى رسالته إلى روما اعترافه بالرق والخضوع للسادة ، فقال : « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله ، حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيُدانون »[4].

ثم أعلنت المسيحية بعد ذلك أن المساواة التى تدعو إليها إنما هى المساواة فى الروح لا فى الجسد ؛ لأن الجسد قد خلق لهذه الحياة الدنيا ، وعليه أن يخضع

---

(١) التلمود ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) التلمود ص ٧٧ .

(٣) سدحادرون ص ٨٦ ، وحقيقة اليهود والمطامع اليهودية ص ٢١ لمحمد نمر الخطيب .

(٤) الإنجيل رسالة بولس إلى أهل رميه ١٣ ، ٢٠١ .

لكل ذى سلطان ، وعليه أن يتحمل مايلقى من ألم وعذاب ، كما تحمل جسد المسيح[1] . واستطاعت المسيحية بهذا اللغو أن تجمع بين النقيضين ، وظلت تتدرج فى هذه التنازلات حتى اعترفت بالأفلاطونية وقررتها وفلسفتها دينيا ، فقام القديس أوغسطين ، ومن بعده القديس توما الأكوينى ، بالتوفيق بين المسيحية والأفلاطونية ، فذهبا إلى أن الله قد خص بعض الناس بالرق ليكونوا محكومين ، وخص آخرين بالحرية ليكونوا حاكمين ، وقد خص الله الأرقاء بالوظائف الحقيرة فى المجتمع ، وعوضهم عن احتقار الناس لهم بثواب الآخرة [2]

وعلى هذا نرى أن المسيحية تدرجت من نظرة المساواة والدعوة الصحيحة لوحدة الإنسانية ، تلك الدعوة التى مات فى سبيلها دعاة كثيرون ، إلى إباحة الرق ، ثم ادعاء أن المساواة روحية لا جسدية ، ثم أخيرا إقرار الأراء الأفلاطونية التى تدعو إلى تفضيل الجنس والتفريق بين الناس وفلسفة ذلك دينيا ، فتدخل بذلك فى عداد العنصريين ، وتسير فى ركابهم ، تاركة ميدان الكفاح فى سبيل الحق والعدل والمساواة ، وتكون بذلك قد تنكرت لتعاليم المسيح وحوارييه والذين تبعوه بإحسان ، حتى قضوا نحبهم فى سبيل هذا الهدف النبيل والرسالة الكبرى ، التى كانت الإنسانية فى شوق إليها ؛ لتستنشق عبير الإنسانية والرحمة والأمان .

العرب والنزعة العرقية :

اعتز العرب قديما بأنسابهم ، وافتخروا بقبائلهم وشمائلهم ، وكانت تعقد لذلك المساجلات والندوات ، وفى تاريخ العرب لمحات طيبة من الشجاعة والكرم والمرؤة والوفاء والرجولة ، ونعرض لذلك فى جانب من حديث النعمان أمام كسرى حين قدم عليه ، وعنده وفود الروم ، والهند ، والصين ، فصار كل يفتخر بقومه وببلاده . فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى من ذلك فارس ولا غيرها . فقال النعمان مخاطبا كسرى ملك الفرس « وأما الأمم التى ذكرت فأى أمة

---

(١) انظر : الرق ماضيه وحاضره ص ٣٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٣ .

تقرنها بالعرب إلا فضلتها ! . قال كسرى بماذا ؟ قال النعمان : بعزها ، ومنعتها ، وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخائها ، وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ، وأنفتها ، ووفائها .

فأما عزها ومنعتها ؛ فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك ، وقادوا الجند ، ولم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجُنَّتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، غيرها من الأمم كل عزها الحجارة والطين وجزائر النجور .

وأما حسن جوهرها وألوانها ؛ فقد يعرف فى ذلك فضلهم على غيرهم ، من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة .

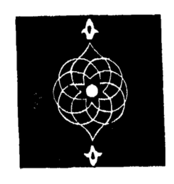
وأمَا أنسابها وأحسابها ؛ فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيرا من أوائلها ، حتى أن أحدهم يسأل عمن وراء أبيه دينا فلا ينسبه ولايعرفه ، وليس أحد من العرب إلا ويسمى آباءه ، فأما آباؤنا فأحاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه ، ولا ينسب إلى غير نسبه ، ولا عى إلى غير أبيه .

ثم يقول : وأما حكمة ألسنتهم ؛ فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال — وإبلاغهم فى الصفات ماليس لشىء من ألسنة الأجناس . ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبلهم الجزع ، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سفر ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر .

وأما دينها وشريعتها ؛ فإنهم متمسكون حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً ، وبلدا محرما ، وبيتا محجوجا ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغبته

منه ؛ فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى [1].

إلى غير ذلك من الصفات التى يفتخر بها العرب على غيرهم ، ويعتبرونهم دونهم فى كل شيء ، وأنهم بلغوا المجد ، وارتفعوا فوق البشر ، وتعدت صفاتهم هذه ، حتى على خيولهم ومطاياهم ولباسهم ومعادنهم ومساكنهم ودياناتهم ، وأنشد الشعراء فى الفخر والحرب والجود والبطولة الملاحم الطوال والمعلقات العظام التى يعرفها القاصى والدانى [2].



(١) تمهيد فى علم الاجتماع الليبى ص ١٨١ ، ١٨٢ ، عن العقد الفريد ٢ / ٦ ، ٨٧ ط الترجمة والنشر .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحات .

المبحث الرابع
آراء المحدثين فى دور الجنس فى الحضارة

إذا نظرنا اليوم إلى العصر الحديث وإلى المجتمعات الحضارية ؛ هل سنجد نفس المفهوم وتلك النظرة القديمة ، أم نجد المفاهيم قد تبدلت وتغيرت وارتقت كما ارتقت العلوم والبحوث والمخترعات ، الواقع المؤسف أن الحال ظل هو الحال ، والنظرة ظلت هى النظرة ، لم تتغير أو تتبدل عند جمهور الباحثين وعلماء الاجتماع الغربيين ، والسبب فى ذلك أن الميول الإنسانية واحدة ، والشهوة البشرية متفقة ، فالنزاع الإنسانى مازال ممتدا ، وحب الذات والتعصب الأعمى والخواء الروحى ما برح متصلا ومستمرا ، والأنانية والتسلط والتعالى والبغى مازال هو السمة بين الماضى السحيق والحاضر الأليم .

ألف أرفوردو غوبينو ١٨١٦ ـــ ١٨٨٢ كتابه « بحث فى تفاوت العروق البشرية » فى أربع مجلدات ١٨٥٣ ـــ ١٨٥٥ ، وحاول أن يشرح فيه أسباب رقى المجتمعات وتأخرها ، ويبرهن على نظريته ، ويرد على المخالفين له فى الرأى . ويخلص فى نظريته تلك إلى أن الشعوب متفاوتة غير متساوية ، وبعضها أعلى من بعض ، فريق فيها فى القمة وفريق فى السفح ، والشعوب العالية هى التى تستطيع أن تتقدم وأن ترتقى وتبنى الحضارات ، أما الشعوب المنحطة الواطئة فهى لا تستطيع فعل شىء أو القيام به ، وتحمل تبعاته ، ولا طاقة لها بالتقدم ، فالمعول إذاً على العِرْق ، والعروق متفاوتة فى القيمة والخصب ، وقد أرجع ذلك التفاوت إلى تفاوت أصولها . وكان غوبينو من أوائل الذين تصوروا تعدد أصول العرق البشرى ، وبنى نظريته على فرضية خيالية ، وقرر فيها أن البشر لم ينشأوا من أب واحد أو أصل واحد ، بل من أجداد مختلفة وأصول متعددة . تنحصر تلك الأصول فى الأبيض ، والأصفر ، والأسود .

ثم اختلطت تلك العروق بعد ذلك ، ولكن الجنس الأبيض هو أعلى العروق ، وأرفعها ، وأكثرها مزايا ، وأقدرها على الإبداع والخلق والتقدم الحضارى ، ولا سيما فى الفرع الآرى ، إذ هو الذى أبدع وأسس جميع المدنيات المعروفة فى تاريخ البشر .

رده على خصومه

ثم ابتدأ غوبينو يرد على من يرجع أسباب التخلف إلى عوامل أخرى :

(١) التعصب الدينى :

يقول : إن التعصب الدينى لم يكن سببا فى تخلف الأمم .

فالإمبراطورية الأزتكية فى المكسيك كانت شديدة التعصب فى دياناتها ، حتى كانت تقدم القرابين البشرية إلى آلهتها دون أن يؤدى ذلك إلى انحطاطها أو ذهاب حضارتها .

(٢) الترف والأبهة :

يقول إن الطبقات العليا فى اليونان والرومان وفى بلاد فارس والبندقية وانكلترا وروسيا القيصرية عاشت مترفة منهكة فى الأبهة ، دون أن يفضى ذلك بها إلى الانحطاط أو ذهاب حضارتها .

(٣) القسوة والرَّذيلة :

يقول لم تكن بداية نهوض إسبارطة وروما وأمثالها من المجتمعات مقترنة بشيوع الفضيلة والشرف ، فقد كان الرومانيون الأوائل قساة متوحشين ، وكان الإسبارطيون ، وكذلك الفينيقيون ، لايتورعون عن اللصوصية والكذب والفساد . ولم يحل ذلك كله دون تقدمهم ورقيهم ، بل بالعكس قد نجد عند بعض المجتمعات التى تبدأ بالتأخر والانحطاط كثيرا من الشعائر الإنسانية ولطف العادات ، وتورعا عن القسوة وحب الرحمة ، ولم يمنعهم ذلك من الانحدار والانهيار ، ولقد انهارت فارس وصور وقرطاجة حين كان الدين فيها قويا وسلطانه مسيطرا على النفوس ، ولم يمنعهم ذلك من الانحطاط والتدنى .

(٤) الاستعمار :

يرد فيقول : قد يفرض: على الشعوب حكم أجنبي فاسد منحل ، يركض وراء مصالحه ، لايمثل الشعب ، ولايعبر عن مصالحه وإرادته ، ولكن هذا لايؤثر على حضارة الشعوب وتقدمها ، ولنضرب على ذلك مثلا بالصين فقد لبثت آلاف السنين والحكام فيها غرباء عن البلاد من أصل مغولى ، ومع ذلك فقد بقيت الصين ، واستمرت ، وازدهرت حضارتها فى تلك الفترة ، وكذلك انكلترا احتلها النورمانديون سابقا ، وهم غرباء عنها فما انهارت ، والأمثلة على ذلك كثيرة تؤكد أن انحطاط المجتمعات ليس ناشئا عن انحطاط حكوماتهم الطبقية ، ولكن قد يكون هذا مساعدا عليه وليس عاملا رئيسا فيه [(١)].

ستوارت تشمبرلن [(٢)]:

من أبرز المقتفين لآراء غوبينو ؛ حيث يرى رأيه فى تفاوت العروق بعضها على بعض تفاوتا طبيعيا بيئيا ، ويرتب العروق حسب اللون ، فيقول : إن أعلى العروق هو العرق الأبيض ، ولاسيما العرق الآرى الذى ينتسب إليه اليونان والرومان فى الماضى والتوتونيون [(٣)] فى الحاضر ، وهو بهذا يشابه غوبينو كثيرا ، ويستشهد لذلك بمدنيات أربع قديمة ، قام بها الجنس الأبيض ، وكانت أصلا للمدنية الحديثة التى أقامها كذلك الجنس الأبيض . فيقول فى كتابه « دعائم القرن العشرين » : إن أصول مدنيات أوربا الحديثة أربع : المدنية اليونانية ، والمدنية الرومانية ، واليهودية ، والتوتونية ، فقد أخذت الحضارة الأوربية الحديثة عن اليونان الشعر والفن والفلسفة ، وعن الرومان الحقوق والسياسة والنظام وحق الوطن وقداسة الأسرة وقداسة الملكية

---

(١) انظر : تمهيد فى علم الاجتماع للباقى من ص ٢٨٥ إلى ص ٢٩١ الترجمة والنشر . بتصرف

(٢) هو ابن الأميرال الإنكليزى وليم تشارلز تشمبرلن ، تثقف ثقافة ألمانية ، وتجنس بالجنسية الألمانية سنة ١٩١٦ ، وكتب كتابه المشهور ـــ دعائم القرن التاسع عشر بالألمانية سنة ١٨٩٩ ، وهو فى كتابه هذا يبحث عن أصول مدنية أوربا فى القرن التاسع عشر .

(٣) ويعنى بهم الألمان والسلت والسلاف وبقية عروق أوربا الشمالية التى تحدرت منها شعوب أوربا الحالية وشعوب أمريكا الحديثة .

الفردية ، وعن اليهود الدين اليهودى والمسيحى ، هذا مع أمور أخرى ، بعضها طيب ، وبعضها سيىء ، أدخلها اليهود معهم عندما دخلوا فى تاريخ الغرب ، ثم استطاع التوتونيون أن ينشئوا بذلك التراث مدنيتهم الطارفة فى القرن التاسع عشر .

ويرى تشمبرلن : أن اختلاط الشعوب أو العروق بعضها ببعض قد يؤدى فى بعض الأحيان إلى نتائج جيدة ، مخالفا بذلك لرأى « غوبينو » الذى يعتبر أن هذا يؤدى إلى انحطاط وتأخر ، ويشترط تشمبرلن لذلك الاختلاط شروطا معينة حتى يؤدى الغرض الممتاز :

١ ــ أن تكون العناصر المختلطة عناصر ممتازة .
٢ ــ أن تتزاوج فيما بينها .
٣ ــ الاصطفاء الصناعى « هو انتقاء السلالات الجيدة من هذه العناصر ؛ حتى تؤدى نسلا قويا .
٤ ــ اختلاط دماء هذه العناصر بعناصر عرقية وبدماء جديدة مناسبة .
٥ ــ تمازج الدماء : تمازج هذه الدماء المعروفة هو الذى يؤدى أحيانا إلى خلق عرق جديد قادر على القيام بالحضارات .

دوبــــولاج :

دوّن دوبولاج آراءه عن الأجناس فى ثلاثة كتب هى :

١ ــ الاصطفاءات الاجتماعية سنة ١٨٩٦ م .
٢ ــ الآرى وتصرفه الاجتماعى سنة ١٨٩٩ م .
٣ ــ العرق والبيئة الاجتماعية سنة ١٩٠٩ م .

ودوبولاج لاينكر اختلاط العروق ، ولكنه مع هذا لايمنع من وجود عروق ممتازة ومتفاوتة تفاوتا يجعل بينها فروقا جوهرية ، تحمل خصائص معينة من الرق والتقدم ، تجعلها تستطيع حمل الحضارة ، ثم قسم الأجناس الراقية إلى ثلاثة أقسام ، بعضها أعلى من بعض .

الأول : العرق الآرى : وطوله ١٧٠ سم فما فوق ، مستطيل الرأس ، قرينته الرأسية ٨٦ فما تحت ، أشقر الشعر ، يحب العمل ، أقوى على كسب الثروة ، مقدام جرىء ، يحب الكفاح للكفاح لا للكسب .

العرق الثانى : هو الإنسان الألبى طوله ١٦٠ إلى ١٦٥ ، مستدير الرأس ، قرينته الرأسية ٨٥ أو أكثر ، لونه بنى أو إلى النصوع ، قنوع متبصر للغاية ، لا يترك الأمور للمصادفة ، على نصيب من الشجاعة ، ليس له استعداد حربى .

العرق الثالث : عرق البحر الأبيض المتوسط ، قامته قصيرة ، لونه قاتم ، قرينته الرأسية ٧٨ أسفل من العرق الألبى .

ويسير دوبولاج على هذا المنوال فى تعريفه للأجناس والعروق ، ويميل بطبيعة الحال إلى الجنس الذى هو منه ، وهو الجنس الآرى ، ويصفه بكل الصفات الشريفة التى فى مخيلة الإنسان حتى يجعل منه أسطورة ومثلا ساحقا فى نظر القارىء والباحث ، ولا ندرى على أى شىء يبنى تلك الملاحظة أو هذه النظرية ، أعلى الطول ، وقياس الرأس ، واللون ، والشعر الأشقر الذهبى ، والعيون الزرقاء والبذة الحسنة ، أم على الأماكن التى يقطنونها ، والبلاد التى يسكنونها ، والاصقاع التى يحلون فيها ؟ وهذا لا يقول به باحث منصف ، أو مفكر يحترم أسلوب البحث ومقدمات النتائج المسلمة ، ثم جاء بعده غالتون .

فرانسيس غالتون :

سار غاليتون العالم الإنجليزى على نفس النهج الذى سار فيه القائلون بتفاوت العروق ، وبنى نظريته تلك على براهين يقول فيها : « بما أن الناس متفاوتون فى الذكاء والفطنة ؛ فكذلك الأجناس والجماعات والعروق ، فالفرق موجود بين الطبقات كما هو موجود بين الأفراد ، وقد أنتجت الطبقات الرفيعة من النوابغ أكثر مما أنتجته الطبقات الوضيعة ، والفروق الطبقية بالوراثة أشد تعلقا منها بالبيئة الاجتماعية ، والعروق متفاوتة تفاوت الأفراد والطبقات .

النازية والعرق :

ظهرت هذه العنصرية فى العصر الحديث ، وكان ممثلها زعيم النازية السياسى أودلف هتلر ١٨٨٩ ـــ ١٩٤٥ .

ويلخص آراء هتلر وأفكاره وحياته كتابه المشهور « كفاحى » ، ولا يختلف هتلر عن سابقيه فى كيل المديح جزافا للعرق الآرى وعبقريته ونبوغه .(١)

فالدم وحده عند هتلر هو القوة والنبوغ ، ولهذا يقول : « فى الدم وحده تكمن قوة الإنسان أو ضعفه ، والشعوب التى لا تعرف ، ولا تقدر دعائم العرقية ، حق معرفتها وحق قدرها ، ولاتحافظ على صفات عرقها ، لاتحتفظ بوحدة نفسيتها » فقضيّة الدم والعرق عند هتلر مفتاح تاريخ الإنسانية كله ، لذلك كان السهر على العرق والإشراف على الدم كيلا يشوبه شائبة هو الغاية الأولى والمهمة المقدسة التى يجب أن يسهر عليها الشعب ، ويحافظ عليها ، وتحرسها الدولة . وانطلق كُتَّاب النازية يفلسفون هذه النظرية .(٢)

يقول روز نبرغ :

« وإذا كان فى الدنيا مكان قطب الوجود كله فيه عاطفة الشرف فهو فى الغرب الشمالى ، أى الجرمانى . فالشرف مبدأ الجرمانية الذى يرتكز عليه وجودها وقانونها ، الذى يتجلى فى أساطيرها وعاداتها ، كما يتبدى فى حياة الفرد شجاعة وإقداما وضبطا للنفس ، كما يربأ بها عن مواطن الذل والإشفاق والخضوع ، ثم يعدد (روز نبرغ) المساوىء التى جرتها الكنيسة والدين المسيحى على أوربا ؛ حين دعا الدين إلى المحبة التى سرعان ماانقلبت إلى معنى الذل والخضوع والزهد ، ويعتبر الكنيسة وبالا على الجنس الجرمانى ؛ باستغلالها الناس ، والتسلط عليهم ، وتعويدهم على الشعوذة والدجل ، ثم يسب الماسونية والماركسية التى ينعتها باليهودية . وخلاصة تمجيد النازية للعرق أنها تهييج للعرق الشمالى ، والغاية التى يقصدها وينشدها الداعون إلى ذلك هى خدمة الوطن الجرمانى تحت لواء الشرف القومى ، بالاعتماد على

---

(١) ، (٢) انظر كتاب كفاحى حيث يمثل فى مجمله نظريته العرقية والسياسية .

الأسطورة التى حلت بها روح العرق الشمالى .

ولقد عد « روز نبرغ » من مجرمى الحرب العالمية الثانية ، وقضت محكمة نور نبرغ عليه مثل سائرهم بالإعدام شنقا ، وأحرقت جثته ، وذرى رمادها بالطائرة فى الهواء[1].

إيضاح ومناقشة

بعد هذا العرض لهذه الآراء والنزعات العنصرية التى كانت وماتزال سببا جوهريا فى شقاء العنصر الإنسانى وإضلاله على وجه المعمورة ، تلك الآراء التى اتخذها كل جبار عنيد سببا وسندا لإذلال الناس وقهرهم واستعبادهم واستباحة أموالهم وأعراضهم ودمائهم ، تلك التى سادت فى عصور ظلام ونحس فى ليل عاصف طويل تمطى بصلبه على أقوام زغب الحواصل لاماء ولا ريش ، وأصبحت هذه الآراء بتزويق المتسلطين كأنها حتمية تاريخية ووثيقة بشرية ، من تمرد عليها يتمرد على طبيعة الخلق ، وقانون الحياة وجاء من بعدهم وعلى أثرهم أحفاد لهم ، ورثوا هذه النزعة ، واستعملوا نفس الآراء ، ورددوا عين الأفكار ليحيطوا الشعوب بضغط نفسى وثقافى وحربى ، ويجهضوا عندهم كل فكر زكى ونفس أبية ، لا يرفعون رأسا ، ولا يحيطون بشىء علما .

وإذا أردنا أن نناقش هذا الادعاء الذى يفرد الجنس الأبيض بصنع الحضارة وإعلاء الثقافة ، نجد أن هذه الأوهام ادعاءات لاتقوم على أى أساس علمى ، وأن نظرية تميز جنس على جنس إنما هى تشويش وتزييف لحقائق التاريخ والعلم ، وقد أوجز لنا عالم الأجناس البشرية جوان كوماس ذلك بقوله : إن فكرة تقسيم البشرية إلى أقسام عنصرية منفصلة بعضها على بعض فكرة غير دقيقة ، لأنها مستندة . على مقدمات منطقية زائفة ، وخاصة نظرية الدم الخاصة بالوراثة ، والتى لايقل زيفها عن زيف النظرية العنصرية نفسها . إن انتماء شخص إلى دم معين هو عبارة لامعنى لها ؛ حيث ثبت أنه ليس هناك علاقة مطلقا بين عوامل الوراثة وبين الدم ، بل إن هذه العناصر مستقلة وهى لاتتحد فحسب ؛ ولكنها تميل إلى أن تتميز ، وليست الوراثة

(١) انظر تمهيد علم الاجتماع ص ٣٣٦ إلى ٣٤٢ .

عبارة عن سائل يسير فى الدم ، وليس صحيحا ما يقال من أن دم الأبوين يتحد فى المولود [1]

العرق الآرى عند غوبينو وأمثاله من العرقيين يبدو غامض الصفات ، غير واضح الخصائص ، فهم يعتبرون أن اكتشافهم الذى يدل على أن أصل اللغة الأوربية واحد ، يعنى الاتحاد فى العرق ، وهذا لا يترتب عليه تلك النتيجة ، فإننا نجد أن بعض الشعوب تتكلم لغة واحدة ، ومع هذا ليسوا من أصل واحد ، بل من أصول متفاوتة . ثم إن هناك علامات استفهام كثيرة حول أصل العرق الآرى وحول ماهيته . فلا يستطيع أحد أن يجيب على هذه الأسئلة التى تسأل عن أصل العرق هذا ، ومن أى الأنساب انحدر ، وما سبب تفوقه ، وما علامة ذلك . ولقد تخبط هؤلاء العرقيون وساروا فى كل اتجاه ؛ عَلَّهُمْ يلتمسون من الأسباب الواهية ما يؤدى إلى نسبة من الاقناع ، فقالوا بالقرينة الراسية والطولية كما أوضحنا . فانهارت عندما تبين أن قبائل الإسكيمو والأقوام البدائية والعرق الأسود تكثر فيهم الرؤوس المستطيلة (القرينة الرأسية عند هؤلاء ـــ ٧٥ ، ٧١) .

ولقد قام العالم الإحصائى الإيطالى نيشفورد بإحصاء على الطبقات الفقيرة والغنية ؛ فوجد أن الطبقات الفقيرة والغنية تتألف من الرؤوس المستطيلة والمستديرة معا على السواء ، دون أن تكون درجة الغنى أو الفقر تابعة لمقدار القرينة الرأسية[2] .

وكذلك عمد الدكتور برسوتر إلى مختلف الطبقات الاجتماعية ، ليجرى عليها التجربة نفسها ، وكان إجراء هذه التجربة على المجتمع الإنكليزى ، فوجد أن القرينة الرأسية بين الطبقات العالية من المصلحين والأشراف تتساوى مع طبقة المنحرفين والخاملين .

هذا وقد أجرى كارل بيرسون إحصاء على ألف مجاز من جامعة كمبرج وخمسمائة طالب ، فلم يجد أى علاقة بين لون الشعر ، ودرجة الذكاء ، [3] بل على

---

(١) المرجع السابق ـــ ٣٥٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تمهيد علم الاجتماع للنابلسى ص ٣٥١ .

العكس وجد بعض العلماء فى ذرية بعض الأسر المشهورة بالانحراف والعته والبله ، بعض الأطفال شقر ، وبعضهم سمر ، وقد أجرى إحصاء للعباقرة فى الجزر البريطانية ؛ ليعرف نسبة الشقر فيهم ، ونسبة السمر فكانت النتيجة مخيبة للآمال ، إذ وجد أن عدد العباقرة — ٤٢٤ ، وكانت ألوانهم كالآتى :

٧١ — شقراً ، ٩٩ — كستناويا ، ٥٤ — وسطا ، ٨٥ — قاتما ، ١١٥ — أسمر .

وهذا بلا شك دليل على عكس تلك النظرية التى تقصر العبقرية على اللون الأشقر . ولهذا نرى ولنر يقول : إنه جائز جدا أن أجناس البشرية الأكثر قدما كانت كلها معتمة اللون أو سوداء . وأن الشقرة شيء جديد ، وعلينا ألا نفترض أن الكائنات الإنسانية فى المنطقة الأسيوية الشرقية كانت تتفرع من اتجاه واحد ، وأن جميع الكائنات الإنسانية فى أفريقيا كانت تتفرع فى اتجاه آخر.[1]

على أننا حينما نتساءل عن الدور الحضارى التاريخى المتقدم الذى قام به هذا الجنس ، نجد أن هذا الجنس على طول التاريخ وقف متفرجا بل كان قليل التأثر بالحضارات التى جاورته ، وكان عالة عليها ، وقد أقر بهذا صاحب قصة الحضارة — ول ديورانت — حيث يقول : وقصارى القول : إن الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة ، بل أخذوها عن بابل ومصر ، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء ؛ لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه . وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة الفن والعلم ، تلك التى مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين ، وجاءت إلى مدائنهم مع مغانم التجارة والحرب ، فإذا درسنا الشرق الأدنى ، وعظمنا شأنه ؛ فإنا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدى من زمن بعيد.[2]

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية هـ — ج ، ولز ١ / ١٢٥ تعريب عبد العزيز توفيق ط لجنة التأليف .
(٢) قصة الحضارة ول ديورانت ٢ / ١٠ ترجمة بدران ط لجنة الترجمة والنشر .

ثم جاء بعد هؤلاء ــ أرنولد توينبى ــ ليهدم تلك النظرية ، ويهيل عليها التراب بطريقته الذكية فيقول : إن علماء الأجناس يقسمون الجنس الأبيض إلى أقسام على أساس نماذجهم الخلقية . ففيهم ذووا الرؤوس الطويلة ، وذووا الرؤوس المستديرة ، وفيهم الأبيض والأسمر ، إلى آخر هذه التنوعات .

وينتهى بهم الأمر إلى تقسيم الجنس الأبيض إلى ثلاث فصائل هى : النوردية ــ والألبية ــ والبحرية المتوسطة ، وسنقبل هذا التقسيم على علاته ، وسنحصى عدد الحضارات التى أسهمت فيها هذه الفصائل بأنصبة إيجابية .

فأما النورديون أى الشماليون ؛ فقد أسهموا فى أربع حضارات ــ ربما خمس ، هى الهندية ، والهلينية أى الأفريقية ، والغربيـة ، والروسية القائمة على المسيحية الأرثوذكسية ، وربما الحيثية .

وساهم الألبيين فى سبع حضارات وربما تسع ــ هى السومرية ، والحيثية ، والهيلينية ، والغربية ، والروسية ، وأصلها الذى انطلقت منه ، وهى الحضارة المسيحيـة الأرثوذكسية ، والحضارة الإيرانية ، وربما المصرية ، والميناوية .

وساهم الجنس البحرى المتوسط فى أحد عشر هى : المصرية ، والسومرية ، والمساوية ، والسريانية ، والهيلينية ، والإغريقية ، والغربية ، والمسيحية ، والأرثوذكسيَّة ، والعربية ، والبابلية .

فأما الجنس الأسمر ويشمل الدراويدى الهندى وأهل الملايو ، ومنهم الجاديون ، أى الأندونيسيون ؛ فقد ساهم فى حضارتين : الهندية ، والهندولية ، وساهم الجنس الأصفر فى ثلاث الصينية ، وحضارتى الشرق الأقصى ، ووليدتها اليابانية .

أما الجنس الأسمر فلم يسهم إلى اليوم فى حضارة ما .

فالجنس الأبيض على هذا الإحصاء أسهم أكثر من غيره فى إنشاء الحضارات ، ولكننا لا ينبغى أن ننسى أن هناك فصائل من البيض لم يسهموا فى أى حضارة ، وهى فى ذلك والجنس الأسود سواء .

وإذا كنا نستطيع أن نخرج بشيء إيجابى من هذا الإحصاء لخرجنا بأن نصف حضارتنا قامت بمشاركات أكثر من جنس واحد ، فكل من الحضارتين الغربية واليونانية ساهمت فى إقامة صرحها ثلاثة أجناس ، وإذا نحن قسمنا الجنسين الأصفر والأسمر إلى فضائل فرعية كما فعلنا مع الجنس الأبيض ؛ لأمكننا أن نخرج من ذلك بالقول بأن كل حضارتنا قامت بمساهمة أجناس مختلفة ، وأننا لا نجد جنسا مفردا قام وحده ببناء حضارة كامله (١)

وبهذا يتضح أن توينبى يعارض هؤلاء العرقيين بالدليل والبرهان ، على أننا لانسلم له هذا الدليل الذكى ، وهذا البرهان المغلف .

فإنه ينسب إلى النورديين حضارات لم يثبت أنهم اشتركوا فيها ، أو قاموا عليها ، أو سمعوا بها إلا من المؤرخين فى العصر الحديث ، فإن الغربيين كانوا يجهلون حضارة الهند ، ولا يعرفون عنها شيئا ، إلى أن جاء القرن السابع عشر وفتح الطريق إلى الهند مبشر هولندى اسمه إبراهام بروجر ، ولكنه لم يهضم حضارتهم أو يستوعب مدنيتهم ، ووصف أهل الهند بالوثنية والخبث ، وألف كتابا أسماه « باب مفتوح إلى الوثنية الخبيثة سنة ١٦٥١ م وفى سنة ١٧٨٩ أى فى القرن الثامن عشر ، بدأ سير وليم جوترسير حيـاته كعالم عظيم فى شئون الهند ، وأخذ يتفهم حضارتها (٢) ويكتب عنها ويعرفها للأوربيين .

فكيف إذاً أثر الأوربيون أو الجنس الآرى فى هذه الحضارة ، أو اشتركوا فيها ، وقد كانوا لا يعرفون عنها شيئا ، وللحضارة الهندية خصائصها التى لم نجد منها شيئا فى الحضارة الأوربية .

ولهذا يقول أصحاب تاريخ الحضارة العام « لحضارة الهند خصائص استثنائية تميزها عن أى حضارة ، إذ هى لا تزال حية حتى أيامنا هذه ، دون أن تتخلى عن خصائصها التى عرفت بها من أوائل التاريخ (٣) .

---

(١) مختصر دراسة التاريخ أرنولد توينبى ١ / ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) قصة الحضارة ٣ / ٢٩١ ، وما بعدها .

(٣) تاريخ الحضارة العام ١ / ١٣٢ أندريه إيمار ، جانين أو بولية ط منشورات عويدات .

ثم بعد ذلك ينسب إليهم أنهم ساهموا فى الحضارة الهيلينية ، وهذا لعمرى غريب فى التاريخ ، إذ الحضارة الهيلينية هى حضارة الإسكندر ، الذى بنى إمبراطوريته فى الشرق ، الذى كان موطن فتحه العسكرى ، وأخذ منه كثيرا من تعاليمه وأخلاقه ، وقد كان الإسكندر تلميذا لأرسطو الذى رأيناه يدعو إلى العنصرية ، ولكن الإسكندر كان على خلاف ذلك ، وهذا بتأثير الشرق وأخلاق الشرق ، ولنسمع قول أصحاب تاريخ الحضارة العام فى ذلك ، حيث يقولون : « للمرة الأولى فى التاريخ يسير الإسكندر بأخلاق فريدة فى الشرق ، فى وحدة واحدة عظيمة فى الحياة والأخلاق والأذواق والاعتقادات ، على الرغم من تعدد التخوم التى مالبثت أن عادت إلى الظهور مرة أخرى ،[1] وليس من ريب أن الإسكندر سار على النهج الشرقى فى ديانته وأسلوبه ، حتى جعل نفسه معبودا .» فيقول تاريخ الحضارة « جرت محاولات رضى عنها الإسكندر فى حياته وشجعها لإقامة عبادة لشخصه.[2]

ثم ما لبث الإسكندر أن استوطن الشرق ، ومات فى الشرق ، وقامت حضارته فى الشرق ، على أيدى شرقيين ، ودفن فى الإسكندرية فى دلتا مصر ، وشيد له ضريح ضخم غدا مركزا لعبادته التى فرضت كعبادة رسمية على كافة سكان مصر . وكانت الأسكندرية محور حضارته ومركزها .

وعلى هذا المنوال سار أرنولد توينبى، يجمع للآريين والألبيين الحضارات . ويدعى اشتراكهم فيها ، حتى أنه ادعى للألبيين الاشتراك فى الحضارة المصرية ، وكأنه عكس الآية تماما وخالف صراحة ول ديورانت فى تصريحه الذى قدمناه واعترف فيه أن الآريين لم يشيدوا شيئا من الحضارة ، إنما أخذوها عن بابل ومصر .

وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء ؛ لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه ، بل إنهم بددوها ، ولم يبنوا عليها ، بل كانوا كتعبيره الوارث المدلل المتلاف لذخيرة لم يتعب نفسه فى اختراعها .

---

(١) المرجع السابق ١ / ٤٠٤ .

(٢) المرجع السابق ٠ / ٤٣٠ .

نعرات تصاحب الاستعمار

وهذه الآراء والادعاءات المغرورة تصاحب دائما الشعوب المتفوقة أو الغالبة ، ولا تعتبر الأساطير الخاصة بالتفوق العنصرى شيئا جديدا على هذا المنوال ، بل تعتبر كحمار الرحى ، يدور مع الغالب حيث دار ، ففى أثناء الحرب العالمية الثانية فاق المستعمرون اليابانيون المستعمرين الغربيين ، عندما حلوا محلهم لفترة قصيرة ، وفى نفس الوقت بينما كان الناس فى أمريكا الشمالية ينظرون إلى اليابانيين على أنهم شعب قدير ذكى نشط . إلا أنهم كانوا ينظرون إليهم تحت وطأة الحرب العالمية الثانية على أنهم شعب ماكر خائن ، ثم دارت الأيام ، وأصبحوا ينظرون إلى اليابانيين فى الوقت الحاضر بالإعجاب بسبب مهارتهم فى الإلكترونيات وغيرها .

وفى الهند كان الهنود الأمريكيون ينظرون إلى الوطنيين على أنهم شيء قذر غير متحضر ، وفى نفس الوقت كان المفكرون الهنود ينظرون إلى الأمريكيين باحتقار ، على أنهم أجلاف ماديون يعوزهم الفكر الحضارى .

وقد تجد عجبا إذ تنظر إلى هذا فى الشعب الواحد ، فبعض الناس يظن أن بعض المدن أعلى من البعض الآخر ، بل بعض العائلات أحسن عرقا من بعض ، لأسباب واهية ، لأن منها ضابطا كبيرا ، أو موظفا محترما ، أو غنيا مرموقا ، أو شيئا من ذلك . ويعلق توماس باتريك مياليدى على هذه العادة بقوله : « إن هذه العادة القديمة ليست عادة تنتقل من مكان إلى مكان» فحسب ، ولكنها قد تنشأ فى نفس المكان .

ففى جزر الأنيتيل الكبرى ، بعد أن اكتشفت أمريكا بسنوات قليلة ، كان المستكشفون الأسبان يوفدون الجماعات ليتأكدوا ما إذا كان للوطنيين أرواح . بينما كان الوطنيون يقومون بإغراق الأسرى البيض ، ليتأكدوا ما إذا كان العفن سيصيب جثثهم أم لا .

إن هذا العجز عن تقبل هذا النوع الإنسانى وتقديره هو علامة على الوحشية البدائية ، قد يحصر إنسان فى جماعة متشابهة معه ينظر إلى أعضاء قبيلتها المجاورة على

أنهم أقل منه ، وأقل من البشر ، وعلى أنهم متوحشون [(١)] »

وهكذا تطل علينا الوحشية والبدائية فى ثوب جديد فضفاض ، وفى كلام منمق يُقَعِّد له ويقوله علماء وباحثون ، لا جهلة مغمورون ، باسم المدنية والثقافة والحضارة ، فيالها من مغالطة تستحق الانتباه والدراسة .

ولهذا ننظر إلى تدرج تلك الفكرة ، وإلى سيرها ، ومدها العنصرى ؛ فنجدها تصل إلى آماد من التفكير عجيبة وعميقة ، تدل على مدى ما وصلت إليه من إهانة واستعباد ، يحدثنا عن ذلك ويفسره ميليدى ، بقوله [(٢)] : إن للهوة التى تفصل الغرب عن غير الغرب أو الأبيض عن غير الأبيض جذورا ليست ذات صبغة تاريخية ودبلوماسية ولغوية فحسب ، بل إن لها صبغة اقتصادية وسياسية وروحية .

وبلغة الاقتصاد نقول : إن هناك قلقا من جهة المعونة الاقتصادية ، فهناك إحساس بأن المعونة الأمريكية الممنوحة إلى دول الشرق لا تقارن بمعونة مشروع مارشال [(٣)] الضخمة ، وهنا يرد الغرب ويقول : إن البلاد المتقدمة يمكن أن تمتص المعونة بوعى أكثر من البلاد المتخلفة ، وفضلا عن ذلك فهناك اختلاف فى المقاييس التى تستخدم فى توزيع المعونة ، فهى تعطى لدول الغرب على أساس الكفاية ، أما مع غير الغرب فإنها تقاس على أساس فقد جزء من الكرامة القومية .

إذاً فهذه النظرة العنصرية قصد منها فى الحقيقة الاستعباد والقهر لشعوب آمنة ، كل ذنبها أنها قصت أظافرها ، بينما تعهد غيرها مخالبه . وألقت سلاحها ، بينما اخترع غيرها ما يهلك الحرث والنسل ، ونامت فترة ، ولكن الوحوش الكاسرة باتت تعد العدة بليل للفتك والصيد .

وفى ضوء هذه الحقيقة نرى أن أصحاب هذه النظريات يتعلقون بها ويتذكرونها على استحياء ، بعد ما ظهر لكل ذى عينين أن هذه الأفكار صدرت من عقول

---

(١) الحرب النفسية صلاح نصر ٢ / ٣٢٨ ، ٣٣٠ .

(٢) هامش الحروب النفسية ٢ / ٣٢١ .

(٣) فكرة عن مشروع مرشال ، وهو مشروع اقتصادى يهدف إلى رواج مخزون الصناعة الأمريكية فى الدول الغربية ، وفى نفس الوقت يكون مساعدة لها على صعوباتها الاقتصادية .

متعصبة متأثرة بالجهل أو الكره أو التعصب والغرور ، ولكن الأهم من هذا كله هو أن الشعوب الملونة هبت من رقادها ، وتقدمت نحو مستقبلها وحضارتها بخطى ثابتة وإصرار وحزم ، أرغمت الكثيرين على إعادة حسابات كثيرة معقدة ، رسمت على أساس استغلال طويل وغزو ثقافى واقتصادى متصل الحلقات لهذه الشعوب والأمل معقود عليها أن تقيم حضارة إنسانية حقيقية فى ظل قيم سليمة بعيدة عن الإباحية والاستغلال والفتك والوحشية ، التى يصبح عليها العالم كل يوم ويمسى ؛ حتى يعيش كل إنسان مطمئن النفس ، هانىء البال .

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن الحضارة ظاهرة إنسانية عامة ، وأن الإنسان هو هو الإنسان ، لا فرق بين آريه وغيره ، من أصل واحد ودم واحد ، وهذا ماخرج به بعض المؤرخين الغربيين فى تلك الأيام بعد طول بحث وعظيم جهد ، وقد أرشدنا إليه قرآننا من قديم فى آية واحدة تريح الإنسانية من تيه طويل ﴿ يَاأَيُّهاَ النَاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرمكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ ﴾ . (١)

﴿ ياأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُما رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ (٢).



(١) الحجرات : آية : رقم : ١٣ .

(٢) النساء : آية : رقم : ١ .

المبحث الخامس
البيئة والإنسان - جغرافيا -

ظهرت نظرية علاقة الإنسان بالبيئة ، وأخذت مكانها بجانب نظرية الجنس السابقة ، وروجت لها نفس النزعة التى اعتنقها كثير من العنصريين ، وبلغت أوجها فى غضون القرون الأخيرة فى المجتمع الغربى ، الذى أراد أن يضغط على تأثير العامل العنصرى فى التاريخ والحضارة ، وأراد أن يظهر فضل أرضه ووطنه وبيئته ، كما أظهر فضل جنسه ، بطريقته المعهودة ، وهى اختراع المقدمات المسلمة ليستخلص منها النتائج التى ترضى غروره وتطلعه ، ووجدوا لذلك سندا من غطرسة اليونان القديمة وتخيلاتهم وعنصريتهم ، حيث حاولوا أن يجدوا تفسيرا للتباين الثقافى فيما يدور حولهم فى الموقع الجغرافى والتربة والمناخ ، يروى توينبى ملخص الآراء اليونانية فى رسالة عنهم ، عنوانها « تأثيرات الجو والماء والموقع » ، وترجع الرسالة إلى القرن الخامس الميلادى ، وحفظت ضمن مجموعة أعمال مدرسة هيبوقراط الطبية ، وفيها يمكن تقسيم الأشكال البشرية إلى النوع الجبلى الغزير المياه ، والنوع ذى التربة الضعيفة عديمة المياه ، ونوع المراعى ذات المستنقعات ، ونوع السهول المستصلحة جيدة الصرف ، ونحيل أبدان سكان البلد الجبلى الصخرى والغزير المياه الموجود على ارتفاع كبير — حيث يكون مجال التقلبات الجوية الموسمية واسعا — إلى ضخامة البنية التى تتفق مع مايلزمهم من شجاعة وقدرة على الاحتمال .... أما سكان الأراضى المنخفضة الحارة الرطبة التى تغطيها المروج المائية ، والتى هى أكثر تعرضا فى العادة للرياح الحارة منها إلى الباردة ، والذين يشربون ماء فاترا ؛ فإنهم — على العكس — ليسوا أقوياء البنية ، كما أنهم ليسوا نحافا ، ولكنهم ضخام مترهلون ذوو شعور سوداء ، ولون الوجه أقرب إلى السواد منه إلى البياض ، وهم أميل إلى الغضب منهم إلى البرود ، وليست الشجاعة

والاحتمال من الصفات الأصلية في طبائعهم ، ولكن يتأتى بها فيهم بفضل تطبيق النظم الفعالة ، أما سكان البلد غير المستوى وذى الرياح الجافة وذى المياه الغزيرة والموجودة على ارتفاع كبير ؛ فهم أقوياء البنية ، ويمقتون النزعة الفردية ، وفى طبائعهم نوع من الجبن وسهولة الانقياد .

وسنجد فى غالبية الأحوال أن الجسم والخلق البشرى يتغيران وفقا لطبيعة البلد[1] وقد تأثر ابن خلدون بالفكر الهيليني فى نظرية أثر البيئة الجغرافية على الإنسان ، فنراه فى مقدمته يفرد فصلا بعنوان « المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر » ، ويقصد ابن خلدون بالهواء المناخ ، ويقسّم ابن خلدون الأرض المعمورة إلى سبعة أقاليم « الثانى والسادس بعيدان عن الاعتدال ، والأول والسابع أبعد بكثير ، والأقاليم الثلاثة متوسطة ، ولهذا كانت العلوم والصنائع والمبانى والملابس والأقوات والفواكه بل الحيوانات وجميع ما يتكون فى هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصا بالاعتدال ، وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى النبوّات فإنما توجد فى الأكثر فيها ، ولم نقف على خبر بعثة الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية ، وذلك لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع فى خلقهم وأخلاقهم ... وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم ، فنجدهم على غاية من التوسط فى مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم ، وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثانى والسادس والسابع ، فأهلها أبعد من الاعتدال فى جميع الأحوال ، فبناؤهم بالطين والقصب ، وأقواتهم من الذرة والعشب ، وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم ، وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم . حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الأقاليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ، ويأكلون العشب ، وأنهم متوحشون غير مستأنسين ، يأكل بعضهم بعضا وكذلك الصقالبة « الروسى »[2]

---

(١) مختصر دراسة التاريخ لتوينبى ١ / ٩٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر

(٢) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ١ / ٣٣٠ لجنة البيان العربى المقدمة ص ٨٢ ، ٨٣ ط دار التراث ببيروت ، المقدمة الثالثة فى المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر .

ويذهب ابن خالدون إلى أبعد من ذلك ، فى فصل فى المقدمه ، عنوانه « أثر الهواء فى أخلاق البشر » فيقول : « قد رأينا من خلق السودان على العموم : الخفة ، والطيش ،وكثرة الطرب ، فنجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق فى كل قطر ، والسبب الصحيح فى ذلك أنه تقرر فى وضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس ، ثم يعزو هذه إلى طبيعة البلاد الحارة ، والبخار الناتج عن هذه الحرارة .

ثم يتعرض ابن خلدون لرأى المؤرخ المسعودى فى هذا الشأن ، فيقول «وقد تعرض المسعودى للبحث عن السبب فى خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم ، وحاول تعليله فلم يأتى بشيء جديد أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندى أن ذلك لضعف أدمغتهم ، وما نشأ عنه من ضعف فى العقول ، وهذا كلام لامحصل له ولابرهان فيه » (١)

وهذا كما أبّنا كلام ظاهر الخطأ ، يعتمد على معرفة خاطئة بطبيعة الحياة والنفس البشرية وطبيعة الأحياء ، كما أنه يسير فى نفس الاتجاه اليونانى ويتأثر به ، وقد رأينا مقدار اطلاع ابن خلدون على أثار اليونان فى تصحيحه لرأى المسعودى ورده إلى أصوله التى استقى منها ، وهو الفكر اليونانى ، فكر جالينوس ، ويعقوب بن إسحق الكندى ، وهذا دلالة على أن الرجل متمكن فى معرفة أخبار وأفكار هؤلاء الناس ، كما أنه يلاحظ : أن ابن خلدون لاينفرد بهذا الخطأ ، بل كانت هذه هى معلومات أهل عصره بالطب والنفس وطبيعة الحياة .

ومن المعروف أن هذه الآراء كانت تعتمد على الظنون والفروض والاستنتاجات ، وكانت أشبه ماتكون بخيالات الفلاسفة منها بالحقائق العلمية .

رأى المحدثين

هذا وإن كان ابن خلدون وقع فى هذا الخطأ الذى سنرد عليه ونبينه إن شاء الله — لعذر أو لجهل بطبيعة الأشياء ، ولفساد الآراء فى عصره ووقوعه فى مصيدة

---

(١) المقدمة لابن خلدون تحقيق د — على عبد الواحد وافى ١ / ٣٣٦ ، ٣٣٧ ط لجنة البيان العربى .

اليونان ــ فما هو إذن عذر رجل فيلسوف فى عصر العلم والحضارة مثل برنارد شو حينما يقول بهذا الرأى ، ويقع فيما وقع فيه غيره ، إذ يستبعد مزدريا فكرة العنصر الكلتى ، وعزا جميع الاختلافات بين الإنجليز والأيرلنديين إلى الاختلاف فى مناخى جزيرتيهما [١].

ونحن لانستبعد تأثير المناخ كلية ، ولكن الإنسان يستطيع أن يتغلب عليه إذا أراد بسهولة ويسر ، ولايكون ذلك عائقا أمام حضارة أو ثقافة ونبوغ .

رأى وول ديورانت

ويرى وول ديورانت أن العوامل الجغرفية لها تأثير على نشاط الإنسان الحضارى ، فيقول « حرارة الأقطار الاستوائية وما يجتاح تلك الأقطار من طفيليات لاتقع تحت الحصر ، ولاتهيىء للمدنية أسبابها ، فما يسود تلك الأقطار من خمول وأمراض ، وماتعرف به من نضوج مبكر وانحلال مبكر ؛ من شأنه أن يصرف الجهود عن كماليات الحياة التى هى قوام المدنية ، ويستنفذها جميعا فى إشباع الجوع وعملية التناسل ، حيث لاتذر للإنسان شيئا من الجهد ينفعه فى ميدان الفنون وجمال التفكير ، والمطر كذلك عامل ضرورى ، إذ الماء وسيلة الحياة ، بل قد يكون أهم من ضوء الشمس .

ولما كانت السماء متقلبة الأهواء لغير سبب مفهوم ، فقد تقضى بالجفاف على أقطار ازدهرت يوما بالعمران ، مثل نينوى وبابل ، أو قد تسرع بالخطى نحو القوة والثراء ، بمدائن هى فيما يبدو للعين بعيدة عن الطريق الرئيسى للنقل والاتصال [٢].

وهكذا نرى أن ول ديورانت يؤيد تأثير العامل الجغرافى وسلطان البيئة على الإنسان ، بحيث يكون سببا أصيلا فى قوامه الحضارى والثقافى ، تدفعه بيئة معينة إلى القمة بمالها من تأثير عليه فى ثقافته وحركته وفاعليته . وتجذبه إلى القاع أو إلى الهاوية بما

---

(١) هامش وتعليق مختصر دراسة التاريخ لتونبى ١ / ٩٤ ط التأليف والنشر .

(٢) قصة الحضارة ول ديورانت ١ / ٣ ، ٤ ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود ط التأليف والنشر .

تورثه من كسل وإهمال وشهـوة وجموح ، تلفتـه عن الجد فى أساسيـات الحيـاة وكمالياتها . وبالتالى عن التفكير والعمل الحضارى .

مناقشة وإيضاح :

بعد هذا العرض الذى قدمناه عن أراء القائلين بتأثير البيئة الجغرافية على الإنسان ، نرى أنه بلا شك أن البيئة لها تأثيرها فى الشكل الحضارى الذى يبنيـه الإنسان ، وفى الطباع النفسية والجسدية له ، وأن الظروف الطبيعية لها أثر فى حفز همته إلى العمل والابتكار ، أو العكس ، فالبيئة المعتدلة الجو ـــ مثلا أهون للإنسان على التقدم من البيئة الحارة المناخ ، وأن البيئة الباردة تحفـزعلى العمـل والنشـاط والسعى ، هذا شيء ملحوظ ، ومع هذا فإن الأجواء مهما بلـغت من السوء فإنها لاتقضى على النشاط الذهنى أو تقلل من قيمته عند أصحاب العزائم والهمم ، أو عند وجود الرغبة فى عمل حضارى منظم وتربية أجيال قادرة على صنع شيء ذى قيمة معينة ، ولهذا نرى أن البيئة أو المناخ ليس هو باعث الحضارة أو هو معيقها ، والأدلة على هذا مشهورة ومستفيضة ، ففى بلاد الهند وأفريقيا المدارية والاستوائية ، وهى بلاد حارة المنـاخ فى جملتها قامت حضارات كبرى ذات صبغـة قويـة تنبـع من ذات المجتمعات ، وظهر فى تلك البلاد رجال نوابغ يمتازون بنشاط ذهنى وبدنى متدفق ، أمثال يوسف ابن تاشفين ، ومنسى كنكن موسى ، ملك مالى سنة ١٣٣٧ ميلادية ، ومارى جاطه سنة ١٣١٢ وكان من حكام أفريقيا العظماء ، وقد رأينا فى التـاريخ حضارات كبرى ظهرت فى وسط الصحراء العربية ، مثل حضارة ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وعاد إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وأصحاب هذه الحضارات التى سخرت كل شيء فى سبيل تحقيق المزيد من الرفاه ،وبسطت قوتها على الجبال فنحتتها ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾[1] ، أو على الأصقاع والممالك والعباد ﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾[2] ، وأقاموا المصانع والمعامل ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾[3]

ولدينا فى التاريخ أكبر ظاهرة أيقظت العالم ونبهته من رقاد طويل ، وطوفت فى

(١) الحجر / ٨٢ (٢) الشعراء / ١٣٠ (٣) الشعراء / ١٢٩

المشارق والمغارب بالحضارة والعدل والخلق ، هذه الظاهرة تضعف الثقة القديمة فى نظرية البيئة وأثرها فى الإنسان . فإن العرب قد نشأوا فى صحراء تشبه الصحراء الأفريقية الكبرى فى كل شيء ، وتشبه صحراء جولى فى الصين ، فكيف أخرجوا هذا الجنس الذى ضرب المثل عاليا فى كل شيء . المتميز فى خصال الذكاء والشجاعة والقوة والتحمل وتفتح الذهن فى الجاهلية ، حتى أنه استطاع أن ينتقل من الجاهلية إلى الإسلام ، وأن يحمل تبعات الدعوة إليه ، وأن ينجح فى ذلك إلى أبعد مدى يتصوره إنسان أو يطمح إليه بشر . بل كيف استطاع هذا الشعب أن يطور لغته حتى استطاعت أن تستوعب المعانى القرآنية ، وما ضاقت عن آى بها وعظات ، وثقافة فيها ومخترعات ، فى حين لم ينشأ فى الصحراء الأفريقية التى تشبهها شيء ، وكذلك فى الصحراء الصينية ، وعندما أتيح لسكان صحراء جوبى من المغول أن يمتدوا خارج بلادهم كان امتدادهم همجيا ، وبلاء على الناس ، وهدما للحضارة ، وسفكا للدماء ، وسحقا للحريات ، وكان الغزو المغولى نكبة هزت ضمير العالم وقلبه ، وأوقفته على حافة همجية كئيبة حالكة السواد .

فكيف اتفقت الصحارى فى المناخ والبيئة واختلفت فى الجنس والعقل والحضارة والثقافة والخير .

أما ماقرره ابن خلدون واستدل به على تأثير البيئة فى الإنسان سلبا وإيجابا ، فهو كلام غير دقيق ، يتناسى حقائق كثيرة عاشها التاريخ العربى ، ويعيشها العالم اليوم .

فابن خلدون يستدل على تأثير البيئة السلبى فى السودان بطيشهم وميلهم إلى اللهو . ونقول فى الرد على هذا ما أبنّاه من أن المناطق الحارة ظهر فيها كثير من الرجال والحضارات مابلغ القمة ، وأن للطيش وللهو عوامل أخرى كثيرة ، فقد يأتى من الفراغ وفقدان الغاية ، كما كان فى العصر الجاهلى ، تقوم الحروب ويسل السلاح لأتفه الأسباب ، حتى تأكل الأخضر واليابس ، وما حرب داحس والغبراء أو حرب البسوس بخافية على أحد ، وليست مجتمعات الإماء والشرب والجنس والرقص والغناء بشيء خفى فى دنيا الجاهلية العربية .

وقد يكون الباعث على ذلك الاعتداد بالنفس ومجاوزة الحد فى الغرور والحمية ، وقد يكون لفراغ وتنفيس عن طاقة مكبوتة ، وقد يكون لبعد الثقافة وغياب التجربة وفقدان الدليل والمرشد، هذا ونحن نعيش اليوم موجات من الطيش تترى بعضها إثر بعض ، حارت فى تفسيرها العقول السليمة والبحوث المتصلة ، فهل هذا من تأثير البيئة أو المناخ ، أم من ضياع النهج السليم والطريق المستقيم .

وينبرى الفيلسوف والمؤرخ الإنجليزى توينبى لإبطال هذه النظرية ، فيضرب لذلك أمثلة أخرى كثيرة ، يستخرجها من استقرائه المتصل فى الحضارات المختلفة ، وفى دراسة حال الشعوب المتنوعة ، ليدلل على أن البيئة وحدها لاتصنع الجماعة المتحضرة ، ويضيف أن بعض العلماء يذهب إلى أن حضارة الصين إنما هى من صنع وادى النهر الأصفر ، وكل حجتهم فى ذلك أنها قامت فى حوض هذا النهر ، ويقول : إذا كان هذا صحيحا فلماذا لم تنشأ فى حوض نهر الدانوب حضارة مماثلة ، مع تشابه الظروف المناخية والطبيعية .

ولقد نشأت حضارة ألمانيا فى بيئة استوائية عامرة بالزروع فى جواتيمالا ، وهندوراس البريطانية التى تعرف اليوم باسم يلبز ، ولكننا لا نجد حضارة أخرى مشابهة لها فى حوض الأمزون والكنغو ، مع أن الظروف البيئية واحدة ، وإذا قيل : إن منطقة جواتيمالا تقع على خط عرض ١٥ شمالا فى حين أن الأمزون والكنغو يقعان فى المنطقة الاستوائية ؛ قلنا إننا نجد فى نفس المنطقة الاستوائية عند كمبوديا حضارة زاهرة ، ولاتزال أثارها ظاهرة فى موقع انجكوروات فى قلب المنطقة الاستوائية ، وإن كانت الأبحاث الأركيولوجية قد دلت على أن حضارة انجكوروات إنما هى وليدة بعيدة للحضارة الهندية . ثم يختم توينبى كلامه قائلا « إننا نستطيع الاستمرار فى هذه الدراسة إلى مدى بعيد ، ولكننا قلنا ما فيه الكفاية ؛ لنقنع القارىء بأن البيئة وحدها لا يمكن أن تكون السبب الرئيسى لتلك الحركات الحضارية التى أيقظت الإنسانية من سباتها الراكد ، ورفعتها إلى مستوى المجتمعات البدائية ، ثم مضت بها فى مناصرة الحضارة قدما خلال آلاف السنوات الستة الماضية . وعلى أية حال : فإنه لا الجنس ولا البيئة كما تصورناهما حتى الآن قد قدما أو يمكن أن يقدما أى دليل عن سبب حدوث هذا التحول العظيم فى التاريخ البشرى ، لا فى أماكن معينة فحسب ؛ بل

أيضا فى تواريخ معينة [1].

ويظهر لنا بدليل توينبى فساد قول ديورانت ، وكذلك قام الدليل على خلاف ذلك بقيام الحضارات فى بعض تلك المناطق دون بعض ، كما قامت حضارات فى بعض الأماكن المعتدلة دون بعض ، والحقيقة أن تأثير الجنس أو البيئة على ثقافة الإنسان وعلى حضارته ضئيل جدا ؛ بحيث لا يعد عاملا من عوامل بعث الحضارة أو ركودها ، وإنما السبب يكمن فى الإنسان نفسه كجنس أعطاه الله العقل ، وسخر له مافى الأرض ، وذللها له ، ليسعى عليها ويأكل من رزق ربه ، ﴿ بلدة طيبة ورب غفور ﴾ .[2]

ونحن لا ننكر أن البيئة عامل مساعد ومناخ جيد للحضارات ، ولكننا لا نقول : إنها العامل الأساسى أو السبب الرئيسى ، كما يقول الآخرون ، وينسبون إليها أنها المحرك والدافع والعنصر الأصيل فى بناء الحضارة ، فيهدمون بذلك حقا من حقوق الإنسان وقيمة من قيمه .

ثم ماذا نقول فى نظرية « التحدى » التى بنى عليها كثير من العلماء قيام الحضارت ، أليست ضد نظرية البيئة ، حيث تقول فحوى هذه النظرية : إن سبب وجود الحضارة هو وجود الإنسان فى وضع غير ملائم ، فيضطر إلى إعمال فكره والتغلب على المصاعب ، فيقهرها ويذللها فيرتقى بذلك عقله ومخترعاته .

ولعلهم يواكبون بذلك نظرية المناعة بالتلقيح الجرثومى ، الذى يعطيه الطبيب للمريض ، فيتدرب الجسم على الكفاح ومقاومة المرض فيقوى ويصح .

ومانحب أن نصل إليه هو أن نعطى صاحب الحضارة وهو الإنسان المقام الأول فى بنائها ، وأنه سبب رفعته أو شقائه ، وهذا هو فحوى رسالات السماء ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِى الْبَرِّ والبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أيدى النَّاسِ ﴾[3] ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أيديكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾[4] .

---

(1) مختصر التاريخ لتوينبى ١ / ٩٩ ، ١٠٠ .
(2) سبأ / ١٥ .
(3) الروم : ٤١ .
(4) الشورى : ٣٠ .

الفصل الثانى

والتفسير الحضارى للتاريخ وكيفية قيام الحضارات

المبحث الأول
تعريف التاريخ

يتفق الباحثون والمؤرخون على اختلاف مشاربهم ومدارسهم فى تعريف التاريخ بأنه : هو دراسة التجربة الإنسانية على وجه الأرض من ظهور الإنسان على هذا الكوكب إلى يومنا هذا .

الميدان الفعلى للتاريخ :

وعلم التاريخ بهذا المعنى يستتبع الإحاطة الكافية بالخلق الإنسانى وظروفه من نواحى كثيرة ، من ناحية تاريخ الأرض نفسها ، بمائها وهوائها ونباتها وحيواناتها ومناخها ومناطقها الصالحة وغير الصالحة .

من ناحية بدء حياة الإنسان وتطورها وظروفها واستقرارها ، وما واجهته من متاعب ، وما تغلبت عليه من عقبات ، أو وقف أمامها من صعاب ، وما أثر فيها من حوادث ، وطوعته من عادات ، من ناحية نشاطه وعمله واستفادته وانتفاعه مما يسر له وأنشىء من أجله ، من ناحية علاقته ببنى جنسه سلما أو حربا ، تعاونا أو شقاقا ، وما يستتبع ذلك من قوانين بين الأفراد والجماعات والدول .

من ناحية الأزمنة التى قطعها الإنسان فى كل فترة من فترات حياته ، وكل مسيرة فى ركب الحضارة مرت على وجه الأرض صعودا أو هبوطا .

التاريخ بين عهدين :ـــ

وقد كان التاريخ فى مفهومه قديما يطلق على دراسة ما مضى وفات من الأحداث ، كقيام الدول وتعاقب الملوك على عروشها ، وما جد من أحداث جسام :

كالحروب ، والغارات ، والهجرات ، ونوازل الطبيعة : من فيضانات ، وزلازل ، وقحط ، وجدب ، ويسر ، ورخاء ، وما لابد من ذكره ، ولا سبيل إلى إهمال أمره ، كما يقول المسعودى المؤرخ العربى الشهير .

وكانوا كذلك يلحقون بالتاريخ سير عظماء الرجال ونبهاء الأقوام ، من قادة ، وشعراء ، وفصحاء ، وبلغاء ، وما يؤثر عنهم من أعمال وأفعال وأقوال ، يعبر عنه هذا المؤرخ والعالم شمس الدين السخاوى فى كتابه المسمى « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » ، فيقول : ويلحق بالتاريخ ما يتفق من الحوادث ، والوقائع الجليلة ، من ظهور ملمة ، وتحديد فرض ، وخليفة ، ووزير ، وغزوة ، وملحمة ، وحرب ، وفتح بلد ، أو انتزاعه ممن تغلب عليه ، وانتقال دولة ، وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء وغير ذلك من الأمور الماضية ، وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتى ، أو دُونها كبناء جامع ، أو مدرسة ، أو قنطرة ، أو رصيف ، أو نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد ، أو خفى سماوى ، كجراد ، وكسوف ، وخسوف ، أو أراضى كزلزلة ، أو حريق ، وسيل ، وطوفان ، وقحط ، وطاعون ، وموتان ، وغيرها من الكربات العظام والعجائب الجسام . والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت ... بل عما كان فى العالم[1] . وقد كان لا يعرف للتاريخ شيء حتى قبل الميلاد ، ثم بدأ بالخيالات والقصص ، ثم بتدوين الحوادث وأخبار الملوك والحروب والنوازل ، وقد ظل علم التاريخ على هذا المفهوم قرونا طويلة ، إلى أن جاء هيردوت فظهر هناك فرق قليل بين القصص والتاريخ ، ولكن ظل الخط الفاصل بين التاريخ والقصص والتخيل غير واضح طوال العصور القديمة والوسطى ، وظل المؤرخون الكبار منهم والصغار رواة أساطير للتسلية والمتعة أشبه بألف ليلة وليلة وغيرها ، وظل هذا كله يروى على أنه تاريخ ، وقد رأينا حتى فى تراثنا العربى أمثال المسعودى فى كتابه « أخبار الزمان ومن أبادة الحدثان[2] » يروى أمثال

(١) السخاوى « الإعلان بالتوبيخ » عن الحضارة لحسين مؤنس / ٦٦ منسوب إلى ــ د ــ صالح أحمد العلى فى ترجمته لكتاب فرانس روزنتال : تاريخ علم التاريخ عند المسلمين ط ــ بغداد سنة ١٩٣١ ص ٣٨٥ .

(٢) المسعودى المؤرخ هو على بن الحسين بن على أبو الحسن المسعودى من ذرية عبد الله بن مسعود . مؤرخ رحالة ، بحاثه من أهل بغداد ، وأقام بمصر وتوفى بها سنة ٣٤٦ .

ذلك من الأقاصيص والحكايات ، ورغم أن المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » كان جيدا فى مؤلفه إلى حد الإعجاب ، حتى عد من عيون الكتب التاريخية فى المكتبة العربية ؛ إلا أنه رغم ذلك ظل التاريخ فى هذا المؤلف العظيم مختلطا بالأساطير وغيرها .

وعلى هذا النحو سار كثير من المؤرخين العرب إلى أن جاء ابن خلدون ، فكان بحق علامة بارزة على طريق البحث التاريخى ، وكان من نتاج اطلاع الغرب على جهوده التاريخية أن تغيرت نظرتهم فيما يتعلق بنشأة العلوم الاجتماعية وتاريخ هذه النشأة ، « فقد كانوا يزعمون مثلا أن فيكو Vico هو أول من بحث فى فلسفة التاريخ ، ولكنهم علموا حينئذ أن ابن خلدون قد سبقه إلى ذلك بمدة تزيد على ثلاثة قرون ونصف قرن ، وأنه أقام دراسته لتطور الحضارة الإنسانية ، أى ما يسمونه « فلسفة التاريخ » على دعائم علمية قوية ، لا يذكر بجانبها ما اتخذه فيكو أساسا لبحوثه »[(١)].

والحقيقة أن علم التاريخ بدأ عند المسلمين مستقل الشخصية ، واضح الخصائص ؛ لأنه بدأ بأصول ثابتة صحيحة بعيدة عن الكذب والاختراع ، لأنه نشأ على الأصول التى نشأ عليها علم الحديث ، وهى الضبط والدقة والأمانة والصدق ، بدأ التاريخ بالسيرة النبوية ، وهى فى ذاتها أقوال النبى ﷺ ، وأفعاله ، وتقريراته ، ومغازيه ، وجهاده ، وتوجيهاته ﷺ ، وما صاحب ذلك من استحسان واستهجان وإرشاد ، وقد التزم ذلك الأخباريون الأوائل الذين مهدوا لكتابة السيرة ، أمثال أبان بن عثمان[(٢)] ، وعبيد بن شربه[(٣)] ، وعروة بن الزبير[(٤)] ، ثم جاء بعدهم موسى بن عقبة[(٥)] ، والواقدى ، ثم جاء محمد بن إسحاق[(٦)] المطلبى ، فكتب سيرة النبى ﷺ

---

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق د / عبد الواحد وافى ١ / ١٧٦ ، ١٨٠ .
(٢) أبان بن عثمان بن عفان الأموى أبو سعيد . مات سنة ١٠٥ .
(٣) عبيد بن شربة الجرهمى ، راوية من المعمرين ، أدرك الطب ، عاش إلى أيام ابن مروان .
(٤) عروة بن الزبير بن العوام بن حويلد بن أسد بن عبد العُزى توفى ٩٤ وقيل ٩٩ هـ .
(٥) موسى بن عقبة الأسدى المدنى من صغار التابعين توفى سنة ١٤١ .
(٦) هو ابن يسار المطلب من أقدم مؤرخى العرب .

ملتزما الدقة والأمانة قدر ما استطاع ، فأخذ عن الثقات ، وعن الذين عايشوا هؤلاء الثقات وأخذوا عنهم .

ولكن كيف دخلت القصص والأساطير التى شابت علم التاريخ بعد ذلك عند المسلمين ؟ دخلت هذه فى مؤلفات المسلمين من عند غيرهم ، وعن غير طريقهم من الأخبار التى لم يعايشوها ، ولم يكن عندهم منها علم أو دراية ، فاضطروا إلى أخذها من غيرهم من أهل الكتاب ، أصحاب الأساطير الملفقة ، والأخبار المزورة ، مع أن الرسول ﷺ شككهم فى ذلك « أى فى أخبار أهل الكتاب » ، وقال : « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم »[1] ، ودخلت هذه الأساطير عن طريق المفسرين عند الكلام عن الأمم السابقة فى القرآن الكريم ، وما ورد من أخبارهم ولم يجلوا تفصيل ذلك فى القرآن الكريم ، فالتمسوا ذلك فيما روى عن الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى ، وفى الحكايات التى كان يتناولها الفرس والإغريق وغيرهم ممن دخلوا الإسلام ، وساعد على ذلك دخول طائفة من أهل الكتاب فى الإسلام ، واشتغالهم بالعلوم الدينية ، فلما وجدوا ماااقتبسه المسلمون من كتبهم وضعوا ماعندهم من رصيد ضخم من هذه الأساطير فى التفاسير ، وسمى ذلك فيما بعد «بالإسرائيليات» ، وجاء من بعدهم من المفسرين طبقة أدركوا خطورة ذلك وحاولوا تنقية ما أحاط بهذه العلوم من غبش وظلام ، وأما عند الغرب ، فقد احتاج التاريخ عندهم إلى قرون طويلة لكى تظهر شخصيته ، ويستقل ، ويقدم علما كاملا له أصوله ومناهجه وقواعده .

هذا وسنلقى عليه الضوء بما يظهر ذلك فيما بعد ، والله الموفق .

العلاقة بين الماضى والمستقبل

وإذا كان التاريخ هو دراسة للتجربة الإنسانية فى الماضى على هذا الكوكب ؛ فما علاقتنا به ، وما هى الحكمة من هذه الدراسة ؟ أفليس الماضى قد

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الشهادات ٢٩ تفسير ٢ / ١١ اعتصام ـــ ٣٥ توحيد ـــ ٥١ ، فتح البارى تحقيق محمد فؤاد عبد الباق ، إحراج محب الدين الخطيب ٥ / ٢٩٢ ، ٨ / ١٧٠ ط دار المعرفة ببيروت .

ولى بخيره وشره وعجره وبجره ، أو ليس الذى يقف على عقبات الماضى كالواقف على الأطلال الدارسة والرسوم البالية ، يناجيها ولا ترد عليه ، ويخاطبها ولا تسمع منه ، لا يأخذ منها إلا الحسرة أو الشجن ، أفما كان الأولى به أن يستشرف للواقع ، ويسير فى ركب الحياة ونهرها الجارى وتيارها المتدفق ؟ .

نقول : نعم إن دراسة التاريخ هى دراسة للماضى ، وبحث فى التجربة الإنسانية الفائتة ، ومعرفة للمستور منها ، ولكن هذا ليس كالأطلال ولا كالهشيم الذى تذروه الرياح ، وإنما هو كالجذر للشجرة الباسقة ، وكالتجربة للإنسان الحصيف ، وكالمخبوء فى داخل النفس المطمئنة ، فتحقق معرفته ترشيدا لمستقبل الإنسانية ومعرفة لطبيعتها ، وفى هذا يقول الحق سبحانه ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فى هذه الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وذكرىٰ ﴾[1] ﴿ وسكَنْتُم فى مَساكِنِ الذينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم وَتَبَيَّنَ لَكمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الأمثال ﴾[2] فمن الاستفادة التى لاتبارى أن يدرس الإنسان التاريخ العام ، ويتتبع آيات الله فى الآفاق ، ويتدبر أحوال الأمم ، كيف تقوم ، وكيف تنهار ، وكيف تتقلب بين ازدهار وانحدار ، والله سبحانه وتعالى يطلب من الناس أن يلتفتوا إلى هذه الأدوار المتعاقبة ، وأن يكون لهم وعى حصيف يوجههم إلى الانتفاع بها والاستفادة منها ، فيقول ﴿ أفلم يسيروا فى الأرْضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعْقِلونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بها ، فإنَّها لاتَعْمى الأبْصارُ ولكنْ تَعْمى القلوبُ التى فى الصدورِ ﴾[3] يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسير فى الدنيا بعقل ، وأن نستفيد من معارف الآخرين ، وأن نأخذ تجاربهم ، ونخرج إلى الحياة مسلحين ، ومن التطواف الممحص والواعى هنا وهناك ، يعود الإنسان بثروة طائلة من الأفكار والآراء والوقائع ، ومن أجل ذلك يندب للإنسان عامة ، والمسلم خاصة ، السياحة الواسعة ، والرحلات الطويلة ، والضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ، والعلم ،

---

(١) هود — ١٢٠ .

(٢) إبراهيم — ٤٥ .

(٣) الحج : ٤٦ .

والاستفادة ، والدراسة .

﴿ قَدِ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقبةُ المُكَذِّبِينَ . هذا بَيَانٌ للناسِ وهدىً وَمَوعَظَةٌ لِلْمُتَقين ﴾ [1] ، ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فى الأرضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كانَ عاقبةُ الذينَ كانوا مِنْ قَبلِهم كانُوا هُمْ أَشدَّ مِنْهُمُ قُوَّةً وأثاراً فى الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ ﴾ [2] وهكذا يدعو القرآن الكريم إلى دراسة الحضارات البائدة ، ومعرفة علل فنائها ، وجوانب الخير والشر فيها ، حتى نتجنب مواطن الزلل التى أودت بالأولين ، وأطاحت بالمتقدمين ، وعصفت بهم ، ونكبت ديارهم ، وهدمت أوطانهم .

وما أصدق القائل العربى :

والليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيب

« وفى هذا يقول أرنست كاسيرر : إن الإنسان لا يستطيع أن يشكل صورة المستقبل دون أن يكون واعيا بظروفه الحاضرة وعمق ماضية . ويقول ليبنتز « يتراجع المرء كى يثب عاليا » ، [3] أى لابد للإنسان من الرجوع إلى الماضى ليقفز إلى المستقبل . ولقد صاغ هرقليطس هذه الحكمة للعالم المادى حين قال : « الصعود والنزول كلاهما شيء واحد » [4] ، أى أن الماضى والمستقبل شيء واحد ، ثم يقول أرنست : « التاريخ لا يتنبأ بالأحداث المقبلة ، وكل ما يستطيعه هو أن يفسر الماضى ، إلا أن الحياة الإنسانية نظام عضوى يفسر بعضه بعضا ، وإذاً فإن فهما جديداً للماضى يمنحنا فى الوقت نفسه استشراقا جديدا للمستقبل ، وهذا بدوره يغدو حافزا فى الحياة الفكرية والاجتماعية » [5]

---

(١) آل عمران : ١٣٧ ، ١٣٨ .

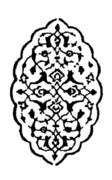
(٢) غافر : ٢١ .

(٣) مدخل إلى فلسفة الحضارة الإسلامية أرنست ص ٣٠٥ ترجمة الدكتور إحسان عباس دار الأندلس ببيروت .

(٤) المرجع السابق ص ٣٠٥ .

(٥) المرجع السابق ص ٣٠٣ .

والإنسان يخرج إلى الدنيا لا يرى المستقبل ، وإنما يرى الحاضر متصلا بالماضى ، يقرأ فى والديه وفى أجداده وفى العادات الموروثة والعبادة القائمة والطقوس المتداولة ، يقرأ كتب الماضين وأخبار الغابرين ، ويرى آثارهم وأعمالهم ، ويسمع سيرهم وقصصهم ، ويعايش تراثهم ، فيُنقش على صفحته كثير من صداهم ورجع أفكارهم ، ويجده مستعدا لذلك ، لأن فيه من دمائهم وعرقهم وموروثاتهم ، وهو امتداد أصيل لهم ، يتغذى على لبانهم ، وينهل من رحيقهم ، فإذا استطاع أن يدرس تاريخهم ويعرف أفكارهم لينظر فيها ويمحصها ويزكيها بروح عصره ومصباح زمانه ؛ ثبتت جذوره ، وبسق فرعه ، وصلح ثمره ، وطاب جناه .



المبحث الثانى
حقيقة التاريخ ومصادره

التاريخ كحوادث وكمادة موجود قبل وجود الإنسان ، كما شرحنا وأبنا فى تعريف التاريخ ، ولكن مانسميه اليوم بالوعى التاريخى أو التدوين التاريخى معرفتنا به حديثة جدا ، وإن كانت قبل ذلك معلومة للقدماء من المصريين والآشوريين وغيرهم ، فإنهم كانوا يدونون تاريخهم وتاريخ حروبهم وحوادثهم على جدران معابدهم ومبانيهم بطرقهم الخاصة وفهمهم المعين للتاريخ ، ولكن هذه الكشوف وهذه الأسرار لم تظهر لنا إلا حديثا ، ولم تُحَلَّ رموزها إلا قريبا ، عند ابتداء النهضة التاريخية والعلمية الحديثة . وفى هذا يقول أرنست كاسيرر (أمّا مانسميه « الوعى التاريخى » فإنه نتاج متأخر من نتائج المدنية الإنسانية ، وليس له وجود قبل عصر الكبار من المؤرخين اليونان ، بل حتى المفكرون الإغريق أنفسهم لم يكونوا يستطيعون أن يقدموا تحليلا فلسفيا للشكل المعين من الفكر التاريخى ، ولم يظهر مثل هذا التحليل حتى فى القرن الثامن عشر ، وتبلغ فكرة التاريخ دور نضجها أولا لدى فيكو وهردر ، ولما أدرك الإنسان مشكلة الزمن أول ما أدرك ، ولما لم يعد محصورا فى دائرة ضيقة من رغباته وحاجاته القريبة ، ولما بدأ يبحث عن أصل الأشياء ؛ عندئذ وجد أصلا أسطوريا ، ولم يجد أصلا تاريخيا ، واضطر أن يعكس العالم ــ أعنى العالم المادى والعالم الاجتماعى ــ على الماضى الأسطورى ؛ لكى يتمكن من فهمه)[1] .

وحين بدأ المؤرخون فى كتابة التاريخ بدءوه بغير بحث أو رِويَّة أو أدلة علمية

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٥ .

ثابتة ، تحدد مضمون الأشياء ، وتظهر حقائقها ، بل اعتمدوا على السماع وعلى الخيال والقصص الخرافية المتداولة بينهم ، وفى هذا يقول أرنولد توينبى : « إن التاريخ مثله مثل الدراما والقصة ـــ نشأ عن الأسطورة ، وهى شكل بدائى للفهم والإدراك ، لايرسم الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال ، كما هو حادث فى الأقاصيص الخرافية التى يستمع إليها الأطفال ، أو فى الأحلام التى يتصورها الواعون من البالغين ، فلقد قيل عن الإلياذة مثلا : إن أى إنسان يشرع فى قراءتها كتاريخ يجدها حافلة بالخيال ، فإذا شرع فى قراءتها كقصة خيالية يجدها بنفس المقدار حافلة بالتاريخ ، وتشبه جميع التواريخ الإلياذة من هذا القبيل ؛ بمعنى أنها لا تستطيع الاستغناء عن عنصر الخيال »[1].

ويعتبر علماء التاريخ أن هيرودوت هو أبو التاريخ ، وأنه كان صاحب باع فى تدوين التاريخ ، عنه أخذ من بعده ، إلا أن هيرودوت كان كثير الخلط ، قليل الاكتراث بصحة الحوادث ، كثير الاستنتاج ، لا يستعمل من الوثائق شيئا ، يعتمد على الخيال والسماع ، ولا يعتمد على الدراسة والبحث والترتيب . وفى هذا يقول غستاف لوبون :

« كان قدماء المؤرخين كهيرودوت قليلى الاكتراث بصحة الحوادث التاريخية ، وكان شأنهم مقتصرا على الاستنتاج مما يسمعونه من أقاصيص ، وكانت هذه الأقاصيص تتألف حصرا من ذكريات باقية فى ذاكرة الناس ، وليست الأحاديث عن الأزمنة التى عقبت تلك أكثر صحة فى الغالب ، وإذا كنا لا نجادل فيها فذلك لأنها تلوح أقل بعدا عن الصواب ، وهؤلاء المؤرخون كانوا يعالجون التاريخ كخطباء ، إذاً فيرتبون الوقائع ترتيبا يسوغون به رأيهم ، وكانت هذه الأقاصيص الوهمية تؤلف استنادا إلى بضع قطع من الحقيقة تجمع مصادفة ، وإلى كثير من الخيال ، فتعدها الأجيال صحيحة بقوة التكرار ، ولم ينقض مبدأ التاريخ الروائى بانقضاء قدماء المؤرخين ، فقد عاش بعد جميع الانتقادات ، وقد ظل باقيا قويا فى أيامنا »[2] ،

---

(١) مختصر دراسة التاريخ لأرنولد توينبى ١ / ٧٣ ط جامعة الدول العربية .

(٢) فلسفة التاريخ للدكتور غستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص ٥٣ ، ٥٤ .

وكلام غُستاف لوبون يدل على أن التاريخ بدأ بالأساطير والأقاصيص ، ولم يتخلص منها ومن الخيال بعد ، رغم تقدم العلوم وتطور وسائل البحث واتساع حركة التنقيب عن المخلفات الحضارية والآثار البشرية التى تبين عن لغات سبقت ، وتكشف عن علوم تقدمت ، وصناعات تطورت ، وأفكار وشعوب سادت وارتقت . وليس هذا رأى غستاف لوبون فقط ، وإنما هو رأى عام يعرفه كل من اشتغل بالتاريخ ، ولننظر إلى ما يقوله مؤرخ عظيم مثل ــ « يعقوب بركهارت » فى مؤلفه عن قسطنطين الكبير ، أو عن مدنية عصر النهضة ، فإنه لم يزعم أنه قدم لنا وصفا علميا لتلك الحقبة ، ولم يتردد فى أن يقول : « إن التاريخ أشد العلوم لاعلمية » ، ولقد كتب بركهارت يقول فى إحدى رسائله « إن ما أحاول أن أبينه تاريخا ليس نتيجة نقد أو تأمل ، بل نتيجة خيال يريد أن يملأ الفجوات فى الملاحظات ، وما يزال التاريخ فى نظرى شعرا إلى حد بعيد ، فهو سلسلة من أجمل المنظومات وأروعها .

وكان مومسن يذهب إلى هذا الرأى أيضا ، ولم يكن مومسن عبقرية علمية فحسب ، بل كان فى الوقت نفسه من أعظم منظمى العمل العلمى ، فيقول « إن المؤرخ ربما كان ينتمى إلى صف الفنانين أكثر من انتمائه إلى طبقة العلماء » [١].

يقول غستاف لوبون ــ ضاربا مثلا للخلط التاريخى الذى كان يصاحب الأهواء ــ « كان المؤرخون يعدون الحقائق جميع الأوهام التى يرونها ، وقد كان عندهم من الاستعداد العجيب ما يستخرجون به من أى نص أبعد التفاسير من الحقيقة ، وما يبينون به أدعى المستحيلات إلى الدهشة ، فقد كانوا يقولون إن محمدا كان كردينالا ، فغضب لعدم انتخابه بابا ، فصار ملحدا وأقام دينا جديدا ، وأن يهوذا كان قد قتل أباه ليتزوج أمه » [٢] وعلى هذا يكون التاريخ خاضعا خضوعا كبيرا لأفكار كتابه وميولهم ونزعاتهم ونحلهم ، يميل معها حيث تميل ، ويعتدل حيث

---

(١) مدخل إلى فلسفة الحضارة الإسلامية كاستيرر ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ عن يعقوب بركهارت « الحبرية والحرية » ص ١٦٧ .

(٢) غستاف لوبون فلسفة التاريخ ص ٦٨ .

تعتدل ، يرفعون من يشاءون ، ويخفضون من يريدون ، وينطقون من يحبون ، ويسكتون من يكرهون ، يفلسفون الأخطاء أحيانا ، ويغمطون الحسنات أحيانا أخرى ، ولا يطلب من أحدهم أى سند أو وثيقة أو دليل فى غالب الأحوال ، وفى هذا يقول العقاد فى كتابه « ساعة بين الكتب » : التاريخ رواية يخترعها كل كاتب من توليد خياله ، وينتحل لها الأسماء والأحلام ، من سير الناس وحوداث الأيام ، وكلما اتفق المؤرخون على رواية مسطورة كان ذلك أدعى إلى الشك فيها ، والتردد فى قبولها ؛ لأنه دليل الأخذ بالسماع والتسليم بغير مناقشة ، فأما إذا اختلفوا أو اضطربت أقوالهم بين الثناء والمذمة والترجيح والتضعيف ، فأنت إذا حيال التاريخ فى وابل من الفروض والآراء ،ومعضلة من الحقائق والشكوك ، ويحتاج المؤرخ إلى كل ما يحتاجه القاضى من الشهادات والأسانيد والبيانات ، وقد ينقض كل ذلك أكثر الحوادث التى يتصدى لها بالبحث والتقرير ، فكل حادثة تاريخية قوامها الأشخاص والأخبار والمصالح والآراء ، ولكل عنصر من العناصر آفته ، تتطرق إليه بالزغل والارتياب »[1]

وعلى هذا يلزمنا إذاً بيان حجية التاريخ وصحة نسبته إلى العلوم ، وهل يصح أن يطلق عليه أنه علم كسائر العلوم ، أم أنه فرضيات وظنون يختلط فيها لون الإنسان وخياله ببعض الحقائق الرجراجة والممزقة .

حجية التاريخ :

إن العالم اليوم يبحث عن الحقائق ليستنتج منها ما يشاء لحاضره وغده ، وينتفع بما توحيه إليه من فكر وثقافة وتجربة ، تثريه وتضيف جديدا إلى رصيده من المعرفة ، وتفتح أبوابا جديدة ، وآفاقا أرحب من الحضارة والتقدم والازدهار ، هو بحاجة إلى ملايين السنين هى عمر الإنسان على الأرض ؛ ليستفيد من هذا الكتاب المستور واللوح المحفوظ والتجربة الضخمة التى خاضتها الإنسانية ، بكل مافيها من عناء وكفاح ، بازلة فى سبيل ذلك العرق والدم والعمر . هو بحاجة إلى صوابها

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ــ كرد على ص ٧ .

وخطئها ؛ ليتجنب العثرات ، ويتنحى المزالق ، ويستقيم على الطريق ، وكان يطمع فى أن يتعلم ذلك من التاريخ ، ويستمد هذا من حوادثه ودروسه وعبره ، ولكن هذا يحتاج إلى كشف الحجب عن مطمور ولى وباد ، وبعث لرميم أدبر وانقضى .

ويظهر أن صعوبة إحياء الآثار كاستحالة إحياء الأعمار ، إلا بقدرة إلٰه خالق ، ولكنه قد يستدل على ذلك بقانون العربى القديم « ابن ساعدة الإيادى » « البعرة تدل على البعير ، والقدم يدل على المسير » . نعم قد يستدل على ذلك بالنظر والبحث والتنقيب ومزيد من العلم ، ويؤيد هذا قول الحق سبحانه ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ﴾ (١).

وقد قال أحد الفلاسفة « تاريخ الأرض مكتوب على قشرتها » ، ولكننا اليوم أمامنا التاريخ بما فيه من حقائق ، وما فيه من أوهام ، فهل يعتمد عليه اليوم ، وهل يرقى إلى مصاف العلوم ، أم مازال بعد بحاجة إلى أن يرسخ قدمه بالحقائق والوثائق ، وقبل الحكم يجدر بنا أن نعرف ما هو العلم ، وماهى المعرفة ، وما هو الظن ، حتى نستطيع أن نلقى الضوء على التاريخ ونحكم عليه .

عرف العلماء العلم بقولهم : « العلم هو اعتقاد الشىء على ما هو به ، على سبيل الثقة واليقين وسكون النفس إليه وثلج الصدر به » (٢).

والمعرفة أخص من العلم لأنها علم بعين الشىء مفصلا ، والعلم يكون مجملا ومفصلا ، وقد يطلق العلم على المعرفة والمعرفة على العلم ، كقوله تعالى : ﴿ لاتَعْلَمُونَهم اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ يعنى لا تعرفونهم الله يعرفهم (٣).

أما الظن : فهو خلاف اليقين والعلم ، حيث يجوز أن يكون المظنون على خلاف ما هو ظنه ، فلا يتحقق المظنون ، أما العلم فإنه يحقق المعلوم ، وقد جاء

---

(١) العنكبوت — ٢٠ .

(٢) المصباح المنير — فى المادة . الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى ص ٧٣ ط دار الآفاق .

(٣) المصباح المنير فى المادة ، والفروق فى اللغة ص ٧٣ .

الظن فى القرآن الكريم بمعنى الشك فى قوله تعالى : ﴿ إن هم إلا يظنون [1] ﴾ ، فيكون بهذا بعيدا عن العلم ، وبتعريف العلم عربيا أخذ الغربيون ، حيث يعرف « كانت » العلم بقوله : « لانستطيع أن نطلق مصطلح « علم » بالمعنى الصحيح للكلمة إلا على مجموعة من المعرفة ، أصبحت درجة الصحة فيها يقينية »[2] .

وفى ضوء هذه التعريفات السابقة نستطيع أن نقول : إن التاريخ لم يرق بعد إلى الدرجة المعلومة اليقينية التى يطلق عليها أنها علم ، ولا نستطيع أن نتحدث إذاً عن شىء اسمه علم التاريخ ، لأن التاريخ على هذا يكون أقرب إلى الظن منه إلى العلم . وفى هذا يقول رينان « إن التاريخ مجموعة ظنون ، أو علم صغير سداه ولحمته من الفرضيات البعيدة ، وقالوا : إن كل امرىء يحاول أن يدمج فى التاريخ أفكاره من طرف خفى ، وأن يتصور الحقيقة ويخلقها ، وذلك لقلة الوثائق التى تثبت على محك النظر ، ومازال البشر منذ عهد « توسيد » و « هيرودتس » يحاولون كتابة التاريخ ، وقلما وصلوا إلى الحقائق لقلة معرفتهم باكتناهها ، ورغم هذا يحاولون شرح الحقائق ومعرفتها وحفظها ، ليدخلوا شيئا ضئيلا كالخيال من العناصر التى تركها العالم فى تاريخه السحيق . وكان « تاسيت » يحاول أن يضع نفسه فوق الحوادث وأن يحكم عليها . ويحاول « فونسكيو » و « هردر » أن يستخرجا من نصوص التاريخ فلسفة ، وحاول ريناان أن يوفق بين الحوادث ويكشف أسرارها الممكنة الظهور ، وأن يورد وقائعا ملموسة ذات وحدة .

يقول : « كار لايل » إن التاريخ مجموعة إشاعات ، ويقول « فولتير » إن التاريخ مجموعة أساطير قبلها الضعفاء » [3].

وعلى هذا فلا يكون التاريخ علما بالمعنى المعروف ، وإنما يظل يفتقر إلى كثير

---

(١) المرجع السابق فى المادة .

(٢) المبادىء الميتافيريقية فى العلم الطبيعى لكانت ، المقدمة ضمن مؤلفاته الكاملة نشرها « كاسيرر المجلد ٤ / ٣٧٠ عن مدخل إلى الفلسفة الإسلامية أرنست ص ١٤٢ .

(٣) التاريخ الإسلامى والحضارة العربية — كرد على ص ٥ .

من البحث والتدقيق ، حتى يؤيد بالحقائق ، ويتخلى عن الميول والأهواء والنزعات ، وإلى أن يصبح التاريخ علما سيظل يحتفظ بقسط من الاحترام ، على قدر ما بذل المؤرخون فى سبيل معرفة الحقائق والاستفادة منها ، وبمواصلة البحث والتنقيب وإعمال الفكر مع اتباع أسلوب معين فى الفهم والتمحيص والتجرد يستطيع الكشف التاريخى أن يتقدم خطوات ، وأن يؤدى غرضه المطلوب ، وأن يأخذ طريقه إلى جانب الأسرة العلمية من مختلف العلوم والفنون ، وإن كنا نستطيع أن نطلق عليه علما باعتبار مايؤول إليه ، أو باعتبار ماثبت فى بعض جوانبه ، مما تؤيده الوثائق والتحريات ، أو باعتبار الاصطلاح بين علمائه ، فتكون تسميته اصطلاحية ، ولا مشاحة فى الاصطلاح .

هذا وفى سبيل الخروج بالتاريخ من دائرة الخيال والميول الشخصى وضع العلماء شروطا للبحث فى التاريخ ، يستطيع الباحث على ضوئها أن يصل إلى نتائج سليمة فى نظرهم ، أو قريب منها ، نعرض إليها فى عجالة ؛ لتكون الرؤية التاريخية واضحة فى نظر الباحث .

شروط البحث التاريخى :

بعد دراسة أسباب الخلط التاريخى ، وبعد إمعان النظر فى المادة التاريخية والشرائح المكونة لها ؛ نقرر أنه لابد من اتباع أسباب معينة تعد فى نظرنا قنوات لتسرب الحقائق ، ونوافذ تستطيع إيضاح الرؤية التاريخية ، وعدم استبدالها بظنون معينة ، وأفكار وخيالات وآراء ونحل ، تحمل لون أصحابها واتجاهاتهم المذهبية والعرفية والاجتماعية ، من هذه الأسباب :

(١) الحيدة والموضوعية ، بمعنى أن الإنسان يحاول أن يعرض المادة التاريخية بعيدة عن ميوله ونحلته ، وإن كانت الحيدة التامة بالنسبة للإنسان أمراً عسير المنال ، فوقائع التاريخ التى يتناولها المؤرخ مثل : النصر ، والهزيمة ، والخديعة ، والاغتيال ، والحروب ، والفتن ، وما إلى ذلك ؛ لا يمكن وصفها بموضوعية مجردة تماما ؛ لأن ميل المؤرخ أو نفوره الشخصى من طبقة أو فئة معينة من الناس تصبغ عمله بشىء

لاشعورى بالميول والرغبات ، فقد يكون المؤرخ ممن يعجبون بالأبطال ، ويقدرون دورهم فى التاريخ ، وقد يكون المؤرخ ممن ينفرون من الدماء والعنف ، ويميل إلى السلم والدعة ، وقد يكون بخلاف ذلك ، فرغم اجتهاده وحيدته تراه يميل إلى إحساسه ، ويوجه الواقعة بشعوره .

وقد دعا الدكتور طه[1] حسين مثل هذه الدعوى فى دراسة التاريخ العربى ، فرأى أنه : يجب علينا حين نستقبل البحث عن الأدب العربى وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية ، وكل مشخصاتها ، وأن ننسى عواطفنا الدينية وكل مايتصل بها ، وأن ننسى مايضاد هذه العواطف القومية والدينية ، فيقول « يجب ألا نتقيد بشىء ، ولا نذعن لشىء إلا منهاج البحث العلمى الصحيح . ذلك أنا إذا لم ننس هذه العواطف وما يتصل بها فسنضطر إلى المحاباه ، وإرضاء العواطف ، وستغل عقولنا بما لا يلائمها ، وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل أفسد علم القدماء شىء غير هذا ؟ ولو أن القدماء استطاعوا أن يفرقوا بين عقولهم وقلوبهم ، وأن يتناولوا العلم على نحو مايتناوله المحدثون ، لا يتأثرون فى ذلك بقومية ، ولا عصبية ، ولا بما يتصل بهذا كله من الأهواء ؛ لتركوا لنا أدبا غير الأدب الذى نجده بين أيدينا ، ولأراحونا من هذا العناء الذى نتكلفه الآن ، ولكن هذه طبيعة الإنسان لا سبيل إلى التخلص منها »[2].

وقد سبق هؤلاء وأولئك العربى المسلم ابن خلدون فى التنبيه على تلك الحقيقة ، فيقول « ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته ، وله أسباب تقتضيه فمنها : التشيعات للآراء والمذاهب ، فإن النفس إذا كانت على حال من الاعتدال فى قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر ، حتى تتبين صدقه من كذبه ، وإذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص ، فتقع فى قبول الكذب ونقله »[3]

---

(١) أديب وباحث ومفكر معاصر .

(٢) الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى ص ٨٦ .

(٣) مقدمة ابن خلدون تحقيق د / على عبد الواحد وافى ج ١ ص ٢٦١ بتصرف .

إلا أن ابن خلدون لم يوافق هؤلاء الغربيين على ماارتأوا من خلع النحل وغير ذلك ، وإنما كانت له نظرته .

(٢) الثقة بالناقلين ، حيث يستمد المؤرخ مادته من نقلة متهمين ، أو ذاهلين ، أو لا تتوفر عندهم الخبرة الكافية فى الفهم اللازم لفهم الحوادث .

وفى هذا يقول ابن خلدون : « ومن الأسباب المقتضية للكذب فى الأخبار أيضا : الثقة بالناقلين ، وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح »(١).

(٣) ومنها : الذهول عن المقاصد ، ويعد ابن خلدون الأسباب المؤدية إلى انحراف المؤرخين عن الحقيقة التاريخية ، ويذكر منها الذهول عن المقاصد ، ويقول « فكثير من الناقلين لايعرف القصد بما عاين أو سمع ، وينقل الخبر على مافى ظنه وتخمينه ، فيقع فى الكذب » ثم يستطرد فى تعداد الأسباب التى تؤدى إلى الانحراف ، فيقول : ومنها توهم الصدق ، وهو كثير ، وإنما يجيء فى الأكثر من جهة الثقة بالناقلين .

(٤) ومنها : الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع ؛ لأجل مايداخلها من التلبيس والتصنع ، فينقلها المخبر كما رآها ، وهى بالتصنع على غير الحق فى نفسه .

(٥) ومنها : تقرب الناس فى الأكثر لأصحاب النحلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك ، فيستفيض الأخبار بها على غير حقيقتها ، فالنفوس مولعة بحب الثناء ، والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة .

(٦) ومنها أيضا : الجهل بطبائع الأحوال فى العمران ، فإن كل حادثة من الحوادث ذاتا كان أو فعلا ، لابد له من طبيعة تخصه فى ذاته ، وفيما يعرض ! من أحواله ، فإذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والأحوال فى الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب (٢).

وابن خلدون فى نظرته هذه إلى التاريخ يدل على أنه صاحب علم واسع وباع

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٦٢ — ٢٦١ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٦٢ — ٢٧١ .

طويل فى فهم الحوادث وطبيعة الأشياء ، وذلك أنه رأى كتب المؤرخين الذين سبقوه قد اشتملت على كثير من الأغلاط التى يجب أن يتخلص التاريخ من وزرها ، حتى يعطى صورة صادقة لأحوال المجتمعات ، من خلال بحوث وحوادث صادقة ، غير ملفقة ، ولا ملتصقة بأهواء الناس ونحلهم . وقد هداه بحثه وصدقه إلى أن يجد مخرجا لهذا العلم النافع ، فأخذ بعضا من قوانين علم الرجال عند المحدثين المسلمين ، وقد كانوا أصحاب خبرة ودربة فى هذا الفن ، حيث يقول علماء الحديث فى شروط الراوى بالعدالة والضبط والعقل ، وكثرة الغلط تنافى الضبط ، والاتهام يعارض العدالة ، وشرط العقل يرادف عن المحدثين مقدرة الراوى على التمييز ، فيندرج تحته البالغ تحملا وأداء ، والصبى المميز تحملا لا أداء[1]، ولنقاد الحديث اصطلاحات فى التعديل والجرح على حسب أحوال الرواة فى القوة والضعف .

وقد جعل ابن حجر هذه الاصطلاحات اثنتى عشرة مرتبة :

١ ـــ الصحابة .

٢ ـــ من أكد مدحه بأفعل التفضيل ، كأوثق الناس .

٣ ـــ من أفرد بصفة ، كثقة .

٤ ـــ من قصر عمن قبله قليلا ، كصدوق أو لا بأس به .

٥ ـــ من قصر عمن قبله قليلا كصدوق سيىء الحفظ ، أو صدوق يهم ، أو له أوهام ، أو يخطىء ، ويلحق بذلك أهل الأهواء والبدع .

٦ ـــ مجهول الحال[2] وغير ذلك من الشروط التى تكون كالموازين فى تقدير الرواة وأخبارهم ؛ ولهذا نرى أن روح شروط ابن خلدون مأخوذة عن علم الجرح ، والتعديل ، وأخلاق الرواة الذين يتحملون الأخبار ، وتؤخذ عنهم ، ويطمأن إليها وإلى صدقها وصحتها ، وقد أخذ الغرب عن ابن خلدون بعض تلك الشروط وصبغوها

---

(١) انظر الجامع لأخلاق الراوى ١ / ١٨ وحه ١ .

(٢) انظر فى ذلك مقدمة تقريب التهذيب ـــ الباعث الحثيث ١١٨ ـــ ١١٩ ، وتوضيح الأفكار ٢ / ٢٦١ ـــ ٢٧١ ومقدمة الجرح والتعديل لأبى حاتم . بتصرف .

بأفكارهم ، وأخذ عنهم الدكتور طه حسين ، فكانت شروطا إنشائية ، أو خيالية غير عملية ، إذ كيف يتجرد الإنسان من ميوله وطبيعته ، وعقيدته وقوميته ، كيف يكون هذا ؟ وما هو الدافع والباعث له على ذلك ؟ ومن الذى يراقبه ، ولا عقيدة ولا إيمان . أما شروط ابن خلدون ؛ فإنها شروط طبيعية مستطاعة ، حيث اشترط الصدق ، والأمانة ، والمعرفة ، وعدم الوهم ، والتجرد من الهوى المضل ، مع الدربة ، ومعرفة الأحوال ، ولم يشترط التجرد من العقيدة مادامت مستقيمة صالحة ، بل قد يكون دينه وأفعاله مراقبا فى أداء ما يتحمله ، وهى شروط أثبتت جدارتها فى نقل الأخبار صحيحة غير محرفة ، وطريق من طرق العلم اليقينى الصادق .



المبحث الثالث
التفسير الحضارى

لاشك أن الحضارة والتاريخ يرتبط كل منهما بالآخر ارتباط الروح بالجسد ، فلا يستطيع إنسان أن يتحدث عن الحضارة إلا إذا درس التاريخ وعرف ماهيته ، فالأدوات التى جربها الإنسان فى صنع الحضارة والاختراعات التى استطاع بها الإنسان أن ينتقل من مرحلة إلى مرحلة استغرق إنشاؤها أزمنة متطاولة وظروفا عدة ، واشترك فى اختراعها عقول وجماعات ، وكان لظهورها تأثير معين فى عصور معينة على الأفراد ، وعلى الجماعة ، وعلى البيئة الإنسانية وعلى التفكير البشرى ، إن صناعة الخبز — مثلا — مرت بمراحل عدة وأزمنة متباعدة ، فعندما درس العلماء أحوال الأمم البدائية عرفت صفحات كانت مطوية من التاريخ ، فمن القبائل من كان يعرف القيمة الغذائية لسنابل القمح التى توجد فى البرية ، فكان يأخذها ويأكلها كما هى ، ومنها من كان يزرعها ويحصدها ويأكلها حبا ، ومنها من كانت تجرشه قبل أن تأكله ، وهناك من كانت تأكله دقيقا ، وهناك من وصلت إلى صناعته خبزا .

فلاشك أن هذا التطور أخذ زمنا وتفكيرا ، كما أن صناعة الخبز كانت تحتاج إلى صناعات خادمة لها ، فصنع الخبز كان يحتاج إلى أوعية وأوانى ، وأحجار للطحن ، وخبرة فى خلط الدقيق ، وتخميره ، واستخدام النار ، وتطويعها ، وما إلى ذلك ، وكل ذلك يحتاج إلى وقت وأزمنة متطاولة وتفكير مستمر .

وظيفة العقل فى التاريخ الحضارى :

ميز الله الإنسان بالعقل ، وعند إطلاق العقل يراد به النشاط الذى يؤديه عضو فى تركيب الإنسان هو المخ ، والمخ عامل مشترك بين الإنسان والحيوان والطيور

وكثير من خلق الله ، ولكن مخ الإنسان امتاز بالعقل والتفكير والاختيار بين البديلات ، وهذا من خواص الإنسان وإكرام الله له ، وكلما زادت معرفة الإنسان وبحثه وتنقيبه ؛ كان أقدر على فهم الأشياء ، وتمييز الضار منها من النافع ، والطيب من الخبيث ، وكان أكثر قدرة على الربط بين الظواهر الطبيعية والإنسانية ، وكلما مرت السنون والأيام أعطته التجربة والقدرة على استيعاب المنظورات والمعقولات والاستفادة منها ؛ لأن للذهن عضلات تقوى وتتعدد قدراتها واستعمالاتها بالمران والمراس ، شأنها فى ذلك شأن أعضائه كالذراع أو اليد ، وهذا شيء يلحظ بالمنظور والمعقول ، فعندما نرى طفلا يحاول استخدام كفه وأصابعه فى إمساك الأشياء والتصرف فيها نعلم أن التطور نفسه يكون فى الذهن ، وأن ذهنه أيضا يقوم بعمله على هذا النحو من الضعف وقلة الضبط والإحكام، وهذه الملاحظة تعطينا فكرة عن الأعصر المتطاولة التى احتاج إليها الإنسان حتى يتنبه ذهنه ، وتصحو قدراته ، ويستخدم إمكاناته فى صنع الحضارة الإنسانية .

العنصر البشرى فى التاريخ الحضارى :

تعددت الآراء واختلفت فى تقدير عمر الإنسان على وجه الأرض ، وأقرب الآراء إلى العقل هو ما ذهب إليه المؤرخ الإنجليزى أرنولد توينبى ــ حيث قال : « إن أقدم آثار عثر عليها للإنسان ترجع إلى ثلاثمائة ألف سنة ، ولكن أكمل الهياكل العظمية الكاملة التى وجدناها ترجع إلى تسعة وأربعين ألف سنة ، أى فى الوقت الذى وصل فيه العصر الثلجى الأخير إلى ذروته ، وأخذ الثلج ينحسر إلى الشمال مخلفا جماعات من البشر متشابهة فى صفاتها العامة فى نواحى شتى من الأرض ، مثل فرنسا ، وشبه جزيرة أيبريا ، وطنجة ، وروديسيا (زيمبابوى) ، وأندونيسيا ، أى فى نطاق واسع من الأرض يدل على أن الإنسان كان موجودا فى نواحى الأرض جميعا قبل ذلك العصر الثلجى الأخير ، ثم طغى الثلج ، فقضى على البشر فى كثير من نواحى النصف الشمالى للكرة الأرضية ، فلم يبق منهم إلا بقايا متناثرة فى المواضع التى ذكرناها ، وفى نواحى أخرى غيرها ، فلما انحصر الثلج إلى الشمال أخذ البشر ينتشرون فى الأرض من جديد .

وهـذه النماذج البشرية التى وجدناها تتشابـه فى خصائصهـا البدنيـة العامـة ، وتتشابه أيضا فى خصائصها العقلية ، بدلالة ماوجدنا مع هياكلها من أدوات »[1] وهذا العمر الطويل على ظهر الأرض كان حافلا بنتاج العقول من كل لون وفن ، ومن كل اختراع وبحث يحمل التاريخ خطواته ، منها ماظهر وانكشفت صفحته ، ومنها مايزال سرا إلى الآن مدفونا مع تلك العصور الخوالى . وهذه الاكتشافات المتتالية للهياكل الإنسانية فى العصور السحيقة وجدت كما رأينا أنها تتشابه فى الخصائص البدنية والعقلية بإنسان اليوم ، وبصفة عامة لم تتغير حياة الإنسان من ذلك الحين عما هى عليه اليوم ، وهذا يلغى تلك الآراء التى اشتط بها أصحابها فى أن الإنسان ينحدر من القردة العليا ، وكان من نتاج ذلك أن جمهرة علماء الغرب اليوم يجمعون على أن الإنسان جنس قائم بذاته ، ولا ينحدر من جنس آخر ، ويرفضون تلك النظريات التى بنيت على فروض معينة لايؤيدها الدليل . وخاصة حينما اعترضها حلقة مفقودة بين هذه القردة العليا وبين الإنسان الذى يبتعد عنها بمراحل .

ولا أحد يستطيع أن ينكر أن الإنسان نزل إلى الأرض أو وجد فيها ، وليس عليها حضارة أو صنعة لأحد قبله ، ولكنه وجد مايقيم أوده ويحفظ حياته من زرع وماء وضرع ، ثم بدأ يعمل ، ويستعمل فكره ، ويستخدم قوته فى معاشه ، واكتساب قوته بأى كيفية ، ومهمة التاريخ تتركز فى الكشف عنها ، وتجلية حقيقتها ، وهى مهمة ثقيلة . وفى هذا يقول السير أرثركيت (إن العصر الصناعى الذى نعيش فيه الآن لا يشمل إلا بضعة قرون ، ولا يمتد عصر الزراعة إلا بضعة آلاف من السنين . أما زمن العيش على الطبيعة الذى كان الإنسان يعتمد فيه على مايتساقط من موائدها فقد استغرق مئات الآلاف من السنين ، ولسنا نعرف مقدار هذا الزمن على وجه التحقيق ، ولكن الذين درسوا ما فى العالم من الشواهد لايشك أحد منهم فى أن هذا العهد من حياة الإنسان لايقل مداه عن نصف مليون من السنين ، فهذا

---

(١) انظر فى ذلك : الحضارة لحسين مؤنس ص ١٧ ، ١٨ ، مختصر دراسة فى التاريخ ١ / ٨٦ توينبى .

العهد البعيد يمثل الفياف والقفار التى قطعها النوع البشرى فى أثناء مراحل التطور التى أوصلته إلى الأرض الموعودة ، أى إلى عهدنا الحاضر »[1].

فرحلة الإنسان الحضارية عبر التاريخ طويلة مديدة ، تحتاج إلى كثير من البحث والتنقيب عن الآثار والشواهد التى تستنطق ، لتبيان ما حدث فى هذه الحياة الغابرة ، وما ورثته لنا من تراث حضارى .



---

(١) تاريخ العالم السيرجون اهامرين ١ / ٣٢٤ .

المبحث الرابع
النظريات المطروحة لتفسير التاريخ

ظهرت نظريات كثيرة لتفسير التاريخ ، تدور حول فكرة تطبيق نهج العلوم الطبيعية على التاريخ ، من خضوع لقوانين تاريخية عامة تربط بين وقائع التاريخ ونتائجها ارتباطا عِلِّيا ، يؤدى إلى ضرورة حتمية ، تبتعد عن الميول الشخصية والنفسية والعقائدية ، التى تؤثر على تدوين التاريخ والاستفادة منه .

ــ قانون العِلِّية فى التاريخ ــ

يقرر أصحاب قانون العِلِّية التاريخية بأن مشكلة التاريخ ممكن حلها ، وما على المؤرخ إذا أراد أن يصل إلى الحقائق إلا أن يدرس علل الأشياء ، شأنه فى ذلك شأن عالم الطبيعة والكيمياء الذى يتوصل من الظواهر إلى النتائج والقوانين الثابتة .

حيث أن قانون العِلِّية فى التاريخ يتضمن اعتبار الأعمال الإنسانية حقائق وثمرات ، لابد من أن تعرف خصائصها ، وتكتشف عللها ، وأن تذهب فى الطريق التى يذهب إليه العلوم الطبيعية ، مثل علم النبات ، وقد تأثر هؤلاء العلماء بالكشوف الطبيعية والعلوم التجريبية التى أدت إلى نتائج باهرة باستعمال قانون العِلِّية .

فحاولوا تطبيق ذلك القانون على التاريخ ؛ ليتخلصوا من الأهواء والميول والنزعات التى أفسدت التاريخ ، وقد تزعم القول بهذا القانون المؤرخ الإنجليزى تين ، حيث يقول : « على المؤرخ أن يعمل كما يعمل العالم الطبيعى .. » ثم يقول : « لافرق بين أن تكون الحقائق مادية أو أخلاقية ، فإن لها جميعا عللا ، هناك علة

للطموح وللشجاعة وللصدق ، مثلما أن هناك علة للهضم وللحركة العضلية وللحرارة الحيوانية ، كذلك الفضيلة والرذيلة معلولتان نتاجان كالكبريتات والسكر ، ولكل ظاهرة مركبة وصلات تصلها بظواهر أخرى أبسط منها ، وتعلقها بها .

إذن فلتبحث عن الظواهر البسيطة فى الخصائص الخلقية ، مثلما نبحث عنها فى الخصائص المادية ، وفى كلتا الحالتين سنجد عللا كلية ثابتة شاهدة فى كل لحظة وفى كل حالة ، تعمل دائما وفى كل مكان ، لايعتريها ضراب ، وتكون فى النهاية سامية معصومة عن الخطأ ، لأن الحوادث التى تعترضها محدودة جزئية ، ولذلك تنتهى تلك الحوادث بالخضوع إلى تكرار قوتها المستمر البليد ، حتى أن المبنى العام للأشياء والملامح العظمى للأحداث تكون من صنعها ، وتكون الأديان والفلسفات والشعر والصناعات وأجهزة المجتمع وأنظمة الأسر أثر من ميسمها »[1].

المعترضون على هذه النظرية :

واجهت نظرية العلية جملة من الاعتراضات ، وتصدى لها كثير من الباحثين بالنقد والتجريح ، فظهر بين عوارها ، وبعد فكرتها عن التطبيق ، حيث أنه لابد لتقرير هذا القانون من الفصل بين الوقائع السابقة واللاحقة من ناحية ، وبين مجرى الأحداث والعوامل الأخرى من ناحية ثانية ، وهذا صعب للغاية ؛ لتعددها وتشابكها ، مما يجعلها مستحيلة فى مجال البحث التاريخى ، وأيضا فإن الأحداث التاريخية لايمكن تصنيفها ، حتى يمكن استخدام العلاقات الثابتة بين مجموعات منها فى استخراج قانون معين ، كما هو الحال فى القوانين الطبيعية ، ومن ناحية أخرى تفتقد التجربة العملية حتى يمكن استخراج القوانين اللازمة .

ومن العلماء المنتقدين لهذه النظرية إدورد ماير ، حيث يقول : « لو سألنا أنفسنا أى الأحداث التى نعرفها تاريخى ؟ لكان جوابنا : تاريخى هو كل ذى أثر أو ما صار ذا أثر ، أما كل ذى أثر فإنا نختبره أولا فى الحاضر الذى فيه نلحظ الأثر

---

(١) تين « تاريخ الأدب الإنجليزى » المقدمة الإنجليزية ١ / ٦ وما يليها — عن كتاب مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية لأرنست كاسيرر ص ٣٢٦ ترجمة الدكتور إحسان عباس .

توا ، ولكنا نستطيع أن نمارسه أيضا فى الماضى ، ففى كلتا الحالتين يكون أمام أعيننا كومة من حالات الوجود ، أى الآثار . والسؤال التاريخى هو : ما الذى أنتج هذه الآثار ؟ عندئذ فإن مانعده علة لذلك الأثر هو حادث تاريخى » [١] .

ويقول أيضا فى ذلك جورج ماكولى ترمليان [٢] :

« وإذا نظرنا إلى التاريخ نظرتنا إلى العلم ، ألفينا أن نتائجه لايمكن أن توازى فى الأهمية نتائج العلم الطبيعى ، وهو لايستطيع أيضا أن يصل بطرائقه ونتائجه إلى ما تمتاز به الاختبارات التى نجربها فى المعمل ، من دقة وثبوت ، فنحن نستطيع أن نحلل غازا أو خنفساء تحليلا كاملا نعجز عنه إذا تصدينا لثورة أو عهد من العهود ، وغاية مانستطيع أن نلم بهما إلماما ناقصا ، لاينفذ إلى اللباب ، ولو كان المؤرخ من الضاربين فى العلم بسهم وافر ، لأنه ليس فى مقدوره أن يستوثق إلا من واحد من بليون مما لايحصيه العدد من الحقائق المسببة أو المكونة للثورة أو العهد الذى يتعرض لتفسيرهما . وآية ذلك أن تحليلا علميا للثورة الفرنسية يقتضى فيما يقتضيه معرفة كل حدث دار فى غرب أوربا من زمن بعيد ، يمتد عدة قرون فالتاريخ علم بمقدار ما تكون الروح التى تستهديها فى جميع الشواهد البعيدة كل البعد عن الكمال والتأليف بينها روح علمية ، وفيما عدا ذلك لايعود ينطبق قياس العلم الطبيعى على المؤرخ ، لأننا ندخل ميدانا آخر عندما نصل إلى التفسير واستخلاص النتائج » [٣].

والواقع أن مسار التاريخ ليس سلسلة من المصادفات التى يتعذر على الباحث تعليلها ، وإنما هو حوادث وأعمال وراءها حشد هائل من الغايات والمقاصد التى حملها أفراد وأمم ، وساروا بها نحو أهداف معينة ومرسومة .

ولكن هذه الأهداف والأعمال التى تحققت لم تكن نتاج أرض صماء أو جماد

---

(١) إدورد ماير « فى نظرية التاريخ ومنهجه سنة ١٩٠٢ ص ٣٦ والتى تليها ، عن فلسفة الحضارة الإنسانية لأرنست كاسيرر ص ٣٣١ .

(٢) حرج ماكولى ترفليان : دكتور فى الأدب والقانون ومؤرخ من أبرز المؤرخين وأستاذ الكرسى الملكى للتاريخ الحديث بجامعة كمبردح ومؤلف تاريخ إنجليزى .

(٣) تاريخ العالم السيرجون ١٠ . هاسرتن جـ ١ ص ٣ .

متحجر ، وإنما كانت ثمار طبائع مختلفة وقلوب حية ، تختلف من إنسان إلى آخر ، ومن صدر إلى صدر ، ومن زمان إلى سواه ، تحس فيها طبيعة الإنسان ، ونبض القلوب ، وفعل الحوادث والأيام ، فكل إنسان له قلب وإحساس وشعور يغاير الآخر ، وكل يوم وكل عصر وكل بيئة تفترق عن سواها ، وهذا كله لا ينسجم مع المادة فى قانون واحد ، لأن المادة لا تتأثر من عصر إلى عصر ، ولا تتبدل من زمن لزمن ، وإنما ينطبق عليها القانون فى كل حالاتها ، بخلاف الإنسان كما بيَّنا ، والتاريخ مرتبط كما نعرف بالإنسان والزمان والبيئة ، ولهذا انتقد المثاليون فكرة الحتمية التاريخية التى تلتزم بالقوانين الكلية ، وقالوا : إذا كانت الطبيعة تخضع لعالم الحتمية فإن التاريخ هو عالم الحرية .

وبهذا نقول أن علية التاريخ ليست كعلية المادة لازمة حتمية لا تتخلف ولا تتبدل ؛ وإنما نقول : إن علية التاريخ سببية مرتبطة بأسباب معينة ودوافع معروفة ، ولكنها دوافع إنسانية تختلف من إنسان إلى إنسان ، ومن بيئة إلى بيئة ، ومن زمان إلى آخر ، وليست مثل حتمية المادة وعِلِّية العلوم الطبيعية ، وإنما تظل هذه العِلِّية التاريخية عليها بصمات الأجيال وطبيعة الإنسان ، ونحن لا ننكر قيمة العلية التاريخية ، إنما نحاول أن نفرق بين عِلِّية المادة ، وعِلِّية التاريخ . وسنبين مزيداً من هذا إن شاء الله تعالى .

التفسير الإحصائى :

ومثلما اتجه فريق الباحثين إلى منهج العِلِّية اتجه فريق آخر إلى المنهج الإحصائى ، وتنبأوا بأن مشكلة التاريخ ستُحل على خير وجه من خلال الإحصائيات ، وقد اعتمدت دراسة الأخلاق قبل ذلك على مثل هذه الإحصائيات ، وقد دافع عن هذه النظرية جملة من العلماء ، على رأسهم « بكل » الذى تبنى هذه الفكرة ، ودافع عنها بقوة فى مقدمة عامة صدر بها كتابه « تاريخ المدنية بانجلترا » (١٨٥٧) ، ولندع « بكل » يتكلم عن الفكرة التى يتزعمها ، فيقول « إن الإحصاء خير رد جامع ينقض ذلك الصنم الذى يسمونه « الإرادة الحرة » وإنه أصبحت لدينا أوسع معلومات إحصائية ، لا عن رغبات الإنسان

المادية فحسب ، بل عن انتماءاتهم الأخلاقية ، ثم قال : إننا نعرف نسبة الوفيات والزواج ونسبة الجرائم أيضا لدى أشد الشعوب تمدنا ، وقد جمعت هذه الحقائق وما شابهها ، وصنفت ، وهى جاهزة للاستعمال ، لقد تأخر علم التاريخ ولم يستطع أن ينافس الفيزياء والكمياء ، وما إلى ذلك ، إلا لأن المناهج الإحصائية ظلت طول العصور مغفلة مهملة ، ولم تكن تدرك أن كل حادثة ـــ فى هذا المقام أيضا ـــ مرتبطة بحادثة سابقة ربطا حتميا لا ينفصم ، وكل حادثة سابقة مرتبطة بحقيقة أسبق ، وأن العالم كله ـــ العالم الأخلاقى والمادى ، فهما فى هذا سيان ـــ يشكل سلسلة ضرورية . قد يلعب فيها كل إنسان دوره ، ولكنه لايستطيع أن يعين ماهية ذلك الدور بأى حال « فإذا رفضنا إذن العقيدة المتافيزيقية التى تؤمن بالإرادة الحرة ... أدى بنا ذلك إلى أن أعمال الناس مادامت تحتمها السوابق التى تقدمت وجودهم وحدها ، فلابد وأن يكون لها طابع الانسجام ، أعنى أنها تحت عوامل واحدة ـــ بالضبط ـــ لابد من أن تتمخض ـــ بالضبط ـــ دائما عن نتائج واحدة »[1]

نقض هذه النظرية :

وقد ناقش أرنست كاسيرر وغيره أصحاب هذا المنهج ، وأثبتوا تجافيه للحقيقة ؛ لأنها إحصائيات لا تستند على مشيئة الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع . والحقيقة أن الإحصاء عون كبير وهام فى دراسة الظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، وبعض الأعمال فى التاريخ أيضا ذات انسجام وانتظام ، ولكن التاريخ ليس قِطَعًا تعد وتحصى ، وحوادث لا صلة لها بالأفراد والنفوس والعادات والتقاليد والعقائد ، وإنما هو ذو ارتباط بالأفراد وميولهم ونفوسهم ، والمناهج الإحصائية لا علاقة لها بحال الأفراد ، وإنما تقصر نفسها على الظواهر الجماعية ، كما أن المناهج الإحصائية تفرض نفسها كعلل حتمية لبعض الأعمال ، فى حين أن الأعمال الإنسانية تكون اختيارية

---

(١) بكل « تاريخ المدنية بانجلترا » (نيويورك ١٨٥٨) ص ١٤ نقل عن فلسفة الحضارة الإنسانية لأرنست كاسيرر ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

يمثل « بكل » فى الفكر التاريخى بإنجلترا ما يمثله « لين » فى فرنسا ، فكلاهما من أنصار الطبيعه والمذهب الوضعى ، وكلاهما يطبق مذهب ومنهج كومت ، الذى كان يرى أن القوانين الطبيعية تعين تطور الجنس البشرى ، مثلما أن هناك قانونا طبيعيا يعين سقوط الحجر .

لاجبرية ، فمثلا حالات الانتحار فى المجتمع حالات اختيارية ، لظروف سابقة ، واختيار الإنسان لما يحبه من الأعمال شىء اختيارى ، ثم إن نقل الوقائع السابقة فى التاريخ عمل يحتاج إلى دقة بالغة ؛ حتى يمكن تصنيفه إحصائيا ، وهذه الدقة غير متوفرة فى العصر التاريخى ، كما سبق لنا ورأينا فى دراستنا للتاريخ .

وعلى افتراض توفر ذلك فإن الحوادث الإنسانية كثيرا ما ترتبط بخيوط عدة تحركها وتشرف عليها ، وهذه الخيوط غالبا ما تكون فى العمق الإنسانى ، وتختلف من حالة إلى حالة ، ومن شخص إلى آخر ، فكيف يمكن تصنيفها وهى بهذه الكيفية المعقدة .

التفسير السيكولوجى :

انتحى فريق من العلماء ناحية أخرى فى تفسير التاريخ ، فوضعوه فى قوانين عامة ليست قوانين الطبيعة ، وإنما هى قوانين سيكولوجية « أى نفسية » ، وقرروا أن الإنسان يسير من داخله بأشياء نفسية ، لا بظواهر خارجية ، وهذه الأعمال التى نراها لها جذور نفسية غائرة ، فإذا وفقنا إلى إيجاد قانون عام لا ينقض يسيطر على هذه الأفكار والمشاعر ، وحققنا لها نظاما محدد ؛ فقد نعتقد أننا وجدنا قبسا يهدى طريقنا إلى العالم التاريخى ، وإلى حل رموز كثيرة من الحوادث التاريخية التى تهم كل الإنسانية ، التى تريد أن تتعلم من التاريخ ، وتأخذ منه الدروس والعبر .

لمبرحت ونظرته للتاريخ :

وكان على رأس القائلين بهذا القانون النفسى « السيكولوجى » : كارل لمبرحت من المؤرخين المحدثين ، الذين أفاضوا فى شرح هذه النظرية ، وضرب الأمثلة لها بالواقع المحسوس ، فى كتابه « التاريخ الألمانى » ذى الاثنى عشر مجلدا ، من حيث يرى لمبرحت « أن أحوال العقل الإنسانى يتلو بعضها بعضا فى نظام لا يتغير ، وهذا النظام يعين ـــ دفعة واحدة ـــ نسق الحضارة الإنسانية . ورفض لمبرحت قبول آراء النظرية الاقتصادية ، ويرى أن كل فعل اقتصادى ككل فعل عملى ، يعتمد على ظروف نفسية ، إلا أننا نحتاج إلى سيكولوجيا اجتماعيه ، لاسيكولوجيا فردية ، أى سيكولوجيا تفسير التغيرات فى العقل الاجتماعى ، وهذه

التغيرات مربوطة إلى خطة ثابتة صارمة ، وإذاً فإن التاريخ لا يجب أن يكون دراسة أفراد . ويجب أن يتحرر من كل لون من ألوان عبادة الأبطال . ومشكلته الرئيسة تتصل بالعوامل الاجتماعية النفسية لا بالعوامل الفردية النفسية » [١].

وكان لمبرحت يعتقد أن لكل شيء فى الطبيعة روحا ، وليست الروح قاصرة على الإنسان ، ويرسم خطوات للوصول إلى خطته ، فقال : « ننتقل من الروحانية إلى الرمزية ، فالأنموذجية ، فالعرفية ، فالفردية ، فالذاتية ، على التوالى ووصف هذه الخطة بأنها حتمية لا يدركها الوهن . وقد جرد هذه الخطة المستوحاة من التاريخ الألمانى ، وكتب يقول : « من المادة كلها نحصل على انطباع سيكولوجى عام يصرح إطلاقا بفكرة الوحدة ، تجريبية كانت أو تاريخية ، ويتطلبها ، ولا نحصل فحسب على فكرة الوحدة نفسها ، وكل الأحداث النفسية المشتركة فى زمن ، ومنها النفس الفردى ، ومنها النفس الجماعى تتجه نحو تشابه مشترك » [٢].

ونحن نقول : إن هذه النظرية لا شك أنها تلمس الناحية النفسية التى تحرك الإنسان وتصوغ كثيرا من أعماله بألوانها المختلفة ، ونستطيع أن نقول : إن الناحية النفسية للإنسان هى وقود أعماله ، ومحرك أفعاله الظاهرة للعيان ، وهذا ما يعنيه « تين » حين يتساءل قائلا « حين ترمق الإنسان المرئى بعينيك فعن ماذا تفتش ؟ عن الإنسان غير المرئى ، وإنما الكلمات التى تقرع أذنك والإيماءات وحركات الرأس والملابس التى يلبسها والأعمال المنظورة من كل نوع ، إنما هذه جميعا تعبيرات لا غير ، ومن دونها ينبلج شيء هو نفس إنسان داخلى ، قد تخفى فى إهاب إنسان خارجى ، والثانى يكشف عن الأول ، وكل تلك الأمور الخارجية طرق تؤدى إلى مركز تمشى فيها ، لكى تبلغ ذلك المركز لشيء آخر ، وهذا المركز هو الإنسان الحقيقى ، هذا العالم الداخلى مادة جديدة صالحة للمؤرخ » [٣].

---

(١) مدخل إلى فلسفة الحضارة — أرنست كاسيرر ص ٣٣٧ بتصرف .

(٢) « ما التاريخ » ؟ : ترجمة أندروز نيويورك ١٩٠٥ ط نكميلان ص ١٦٣ ، عن مدخل إلى فلسفة الحضارة أرنست كاسيرر ص ٣٣٧ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ص ٣٣٩ .

ولكن بعد هذا العرض للنظرية النفسية ، ما حقيقتها ، وجدواها ؟ الواقع أن هذه النظرية مثل النظريات السابقة ، تدخل فى متاهات لا يمكن ضبطها بقوانين مثل العلوم ، وإن كان المؤرخ يأخذ من كل منها ، ولكن حسب ما يتطلبه الفكر التاريخى ، لايستطيع أحد من هؤلاء المؤرخين القائلين بالنظريات المختلفة فى تفسير التاريخ إنكار أن الحقائق التاريخية لا تنتمى إلى النوع الذى تنتمى له الحقائق العلمية ، ومادام النوع قد اختلف وتباعد ؛ فكيف إذا ينتظمه قانون واحد ، إن حقائق التاريخ وثائق وآثار ، وهى ليست أموراً عادية فقط ، وإنما هى دلالات ورموز وإيحاءات كذلك ، وهذا العالم الرمزى يتأثر بالبيئة والزمان والمكان ، وليس على وتيرة واحدة ولهذا نجد أن الزمان قد يكون واحدا والحضارة فى البيئات مختلفة والعادات متنوعة ، ونرى فى الآثار حضارات تولع ببناء المقابر ، وأخرى ببناء الحصون والحدائق ، وكل حضارة لها مميزاتها ورموزها وتقاليدها ، ويتنوع هذا بتنوع الحضارات ، وليس معنى هذا أنه ليس هناك رابط واحد بينهم ، وإنما يستحيل أن يكونوا نسخة واحدة ، وبالتالى لا يجمعهم قانون واحد أو نظرية واحدة .

ومثل هذه التفسيرات سواء كانت متفقة أم مختلفة تتضمن بالضرورة عددا من العناصر المتصلة بمعنى التاريخ ، حيث أنها لا تقف عند الوقائع الموضوعية والمعايير المنطقية المتصلة بفكرة العِلّية التى يقدمها المؤرخ ، وإنما تتجاوز ذلك إلى محاولة فهم المغزى العام لحركة التاريخ ، والنفوذ إلى باطن الأشياء ، وما يستتر خلفها ؛ للتساؤل عن القيم الإنسانية العملية التى تسيطر عليها ، فهذه التفسيرات ليست فى الحقيقة أشياء وهمية ، إنما هى تتصل بفلسفة القيمة التاريخية لتبرير الإيمان بالتقدم والرفاهية والكمال والمساواة ، ولكن الحقيقة التى يلحظها كل مؤرخ أنه لا توجد حتى الآن نظرية علمية واحدة فى تفسير التاريخ ، وينبغى قبولها قبولا تاما لا مآخذ فيه ، كما تقبل النظريات العلمية فى مباحث الطبيعة ، لان النظريات العلمية تقوم على أساس تجريبى دقيق تدرس فيه المواد كاملة . ولم يتوفر ذلك فى المادة التاريخية بعد ؛ لأسباب كثيرة منها : عدم تكامل الحلقات التاريخية المعتمدة على الوثائق الصحيحة ، ومنها : اختلاف الأهواء والنحل والمذاهب السياسية ، ومنها العواطف والميول الشخصية ، إذاً لابد من بحث آخر لتفسير التاريخ .

التفسير الواقعى للتاريخ الحضارى :

وإذا أردنا أن نكون واقعيين فى دراستنا للتاريخ الحضارى ؛ يجب أن نتتبع مسار التاريخ بما يوافق مادته وطبيعته ، فالتاريخ هو دراسة حركة الكون ، وحركة الأرض ، وحركة الأحياء والناس على وجه الأرض ، وما تستتبعه هده الحركة الدائبة من تحرك دائم ، منذ الأزل إلى الأبد ، وهو يشمل الحاضر والماضى والمستقبل جميعا ، وهذا التقسيم أمر نسبى ، أى بالنسبة إلى الإنسان فقط ، وأما بالنسبة إلى الزمن المطلق ؛ فأين هى الحدود التى تفصل بين ما نسميه بالماضى والحاضر والمستقبل ؟ فما هو ماض بالنسبة لنا كان حاضرا بالنسبة لمعاصريه ممن سبقونا ، وهو مستقبل بالنسبة إلى من كان قبلهم . وحاضرنا الذى نحن فيه ؛ إنما هو ماض بالنسبة لنا أنفسنا غدا ، والمستقبل الخافى وراء الغيب سيكون ماضيا بالنسبة لمن ينسأ الله فى أجله منا ، ولكل من يأتون بعدنا ، ولا سبيل لمن يريد أن يدرس حركة التاريخ فيما مضى إلا بأمور ـــ الأول : المشاهدة ، الثانى : الرواية ، أو مايقوم مقامها ، الثالث : من وثائق صحيحة وآثار واضحة بينة .

الأول المشاهدة :

هى عين اليقين التى ليس يعوزها بيان ، فإذا شاهد الإنسان الحدث أو الواقع استطاع أن يصفه ، ويحيط بجوانبه ، ويحكم عليه بأدلة منطقية ومقدمات صحيحة ، وكما يقولون فما مَنْ راء كمن سمعا . ولهذا كان رأى المؤرخ المعاصر دائما محترما وموثقا ، يعول عليه ويؤخذ به ؛ لما له من رؤية للأحداث ومعايشة للوقائع ـــ (وهذا مع اشتراط صفات معينة معروفة فى المؤرخ) .

وهذه المشاهدة وحركة تدوين التاريخ بالمشاهدة ما وجدت إلا فى العصر الحديث ، فى تلك الحضارة المتأخرة ، التى نبهت العقول والأفكار ، وبحثت فى كل فن ، وحققت فى كل علم ، وسارت فى كل درب ، حتى بلغت ما بلغت . أما فى العصور القديمة ، وحينما يوغل الإنسان فى القدم ؛ فإنه ينقطع التدوين بالمشاهدة ؛ لأن التاريخ علم جديد ، والبحث فيه عن الحقائق أسلوب متأخر فى النظرة إلى التاريخ ، كما ألمحنا إلى ذلك قبل ، حيث كان التاريخ عبارة عن رواية الأساطير .

الثانى الروايـة :

وهى طريقة جيدة من طرق الإثبات والتحقق ، وتنتظم وتتمثل هذه الطريقة فى رواية فرد عن فرد ، أو رواية فرد عن جماعة ، أو جماعة عن فرد ، أو جماعة عن جماعة ، فى سلاسل مختلفة من القوة والضعف ، حسب شروط معينة معروفة مثبتة ، وخير من وضح ذلك وبينه وفصله علماء الحديث عند المسلمين ، وهذا ليس مجال بحثنا ، فمن أراد المزيد فعليه بكتب مصطلح الحديث وكتب الرجال ، وبالشروط الواجب اتباعها حتى تكون الأخبار موثقة .

وهذه الطريقة أطول عمرا من سابقتها ، حيث ينتقل الخبر من جيل إلى جيل ، ومن زمان إلى زمان حسب طول السلسلة وقصرها . وهذه الطريقة كان لها فضل كبير فى إثبات كثير من الأحداث عند المسلمين وتدوينها فيما بعد ، فى عصور التدوين المزدهرة عند المسلمين ، وقد أدى هذا إلى حفظ كثير من الآثار والوقائع الصادقة بما لم يوجد فى تاريخ أمة من الأمم أو ملة من الملل ، إلا أن فاعلية هذه الطريقة تكون محدودة بزمان معين ، وإن كانت أطول كثيرا من الطريقة الأولى ، ولكنه لابد وأن يتلقفها التدوين سريعا بعد عدة أجيال ؛ خوف ظهور الوهن فى تلك السلاسل المثبتة للرواية ، وتعتبر هذه الطريقة مكملة للمشاهدة أو امتداداً لها .

الثالث : الآثار :

فإذا لم توجد مشاهدة للحوادث ومجرياتها وللحياة وتقلباتها ، وإذا لم تتحقق رواية للأخبار أو الحوادث وأسبابها وعللها وملابساتها ؛ لم يبق أمام المؤرخ إلا أن يبحث عن آثار أو وثائق ؛ لأننا ليس فى وسعنا أن نعيد بناء ذلك الماضى ، ولا أن نوقظه فى حياة جديدة ، وكل ما نستطيعه هو أن نتذكره ونمنحه وجودا مثاليا جديدا ، لا بالمشاهدة ولا بالرواية ، لأن المؤرخ لا يستطيع ــ كما أوضحنا ــ أن يواجه الأحداث نفسها ، ولا يستطيع أن يدخل فى أشكال حياة سابقة ، إذاً فليس لديه إلا طريق واحد ، وهو سبيل غير مباشر يوصله إلى مايريد ، وهو الرجوع إلى المصادر الموصلة إلى الحقائق ، إلاّ أن هذه المصادر ليست أمورا مادية بالمعنى

المألوف لهذه الكلمة ، وإنما هى أشياء رمزية ، وعليه أن يقرأ هذه الرموز ، وكل حقيقة رمزية مهما تبدو بسيطة فلا يمكن أن تعين أو تفهم إلا بتحليل أولى للرموز ، ثم الوصول منها إلى الحقيقة ، والمواد الأولية المباشرة فى معرفة التاريخ وثائق وآثار ، لا أشياء وحوادث ، ولا نستطيع أن نسير إلى حقيقة تاريخية إلا إذا استنطقنا هذه الوثائق والآثار ، والآثار كثيرة ومتنوعة تؤدى كلها إلى معانى وأحداث معينة ، تستشف من هذه الآثار ، وتقرأ فى وجوه هذه المخلفات الرابضة فوق الأديم ، والراقدة تحت التراب .

المبـانى :

المبانى من حيث قيمتها التاريخية كبيرة جدا ، حيث توحى بتاريخ عصرها ، وحوار حقبها ، وطبيعة هؤلاء المشيدين لها . وفى هذا يقول غستاف لوبون : « المبانى من حيث بعض الحضارات هى المصدر الوحيد الذى يصحح به الماضى تقريبا ، فبفضل هذه الآثار الحجرية يعد اطلاعنا على المصريين والآشوريين والهندوس ، مثلا ، أفضل من اطلاعنا على أمم ظهرت على مسرح العالم بعد هؤلاء بزمن طويل جدا ، كالعوليين مثلا . ويكشف فن البناء أحيانا عن عناصر التاريخ التى لا تُحدث عنها الكتب ، وهكذا درست مبانى الهند حيث هى فاستطعت أن أقرأ على النقوش البارزة علل زوال البدهية فى شبه الجزيرة الكبرى ، والبدهية ما اعتقدت حين ذلك الحين أنها مازالت بفعل الاضطهاد والعنف ، مع أنها توارت بانصهارها فى الديانات السابقة ، وتؤدى دراسة الآثار الفنية إلى تصحيح الآراء الكلاسيكية ».[1]

فإذا ما نظرنا إلى روائع البنائين والمصورين والنحاتين والصواغ فى تلك الأحقاب ؛ عرفنا الفرق بين العصور ، من حيث تقدمها العلمى والفنى ، وأدركنا مدى تعاملها مع عناصر الطبيعة والاستفادة من خصائصها ، وكيفية الإبداع فى الربط بينها ، وتوظيفها فيما يريد هذا الإنسان ويهوى ، وكل إبداع وراءه جهد وعلم وذوق يحدد كمه ومقدار الصعود والتدرج فى مراتب الإحسان والكمال ـــ فمثلا ـــ

---

(١) فلسفة التاريخ غستاف لوبون ١ / ١٠٠ ط دار المعارف

الأبنية الضخمة التى وجدت صامدة تقارع الزمان بعزم الجبابرة وعناد الرواسى تدل على تمكن فى علم الهندسة وفن البناء ، وخاصة ونحن نرى فى عصرنا الحديث أن كثيرا من الأعمال الهندسية قد تنهدم على رءوس مشيديها ، قبل فراغهم منها ، أو مغادرتهم لها ، فإذا رأينا أبنية كالجبال تحطم الأجيال ، وتقهر العوادى ، رغم مرور خمسة آلاف سنة أو يزيد ؛ عرفنا مقدار ما بلغته هذه الأمة من تقدم فى هذا الفن .

ولهذا نرى ، روجه غارودى يقول « قبور المصريين الضخمة توحى بالإعجاز من الناحية العلمية ، فقد حسبت أشكالها بدقة فائقة لا تسمح بإيلاج إبرة بين أية كتلة من أحجارها ، وقد آب « فيثاغورس » من رحلته إلى مصر وهو يحمل مبادىء الهندسة التى نقلها إلينا » (١)

الناحية الدينية :

كما يظهر من المبانى حجم التقدم العمرانى ، يظهر كذلك منها الناحية الدينية . فقد بنيت المعابد والهياكل الضخمة ، وشيدت المقابر الهائلة ، وحنطت الجثث الكثيرة ؛ رجاء حفظها ، ووضع عندها الطعام والشراب وما يلزمها لحياة أخرى ، كما وجدت رسوم لمحاكم إلهية وقوانين ربانية ، يحاسب على منوالها الإنسان أمام ربه ، كما وجدت صور كثيرة للآلهة المتعددة التى كانت تحكم الأقاليم ، ويختص كل إقليم منها بإله ، كما كانت تدون قدرة الآلهة وأعمالهم بأشكال ورسوم معبرة ، فمثلا يرسم الإله وهو يخلق إنسانا ، وبجانبه من يكتب رزقه وأجله ، كما عرف تطور فكرة العبادة عندهم ، إلى أن وصلت إلى عبادة الحيوانات ، فكانت ترسم الآلهة برءوس حيوانات وأجساد بشر ، فمثلا يشاهد الإله خنوم مرسوما برأس حيوان ، والإله توت برأس طائر يسمى « أبو منجل » ، فيعرف المؤرخ من هذه الرسوم والدلالات كيفية التدرج إلى عبادة الحيوان عندهم (٢)

---

(١) حوار الحضارات روجه غارودى ص ٢١ ط عويدات .

(٢) انظر تاريخ العالم محاضرات الدكتور ركوك جـ ١ ص ٦٧٣ وما بعدها .

الكتابة والتدوين للحوادث عند القدماء : ــ

دون القدماء كثيرا من أخبارهم على جدران معابدهم ومقابرهم ، فدونوا الحروب والانتصارات ، كما سجلوا مواسمهم الزراعية وأعياد الحصاد والربيع وفيضان النيل وغير ذلك من أخبارهم العامة ، كما سجلوا وصايا الآلهة وقوانينهم الأخلاقية التى يسيرون عليها ويقدسونها ، وقد أخذت الكتابة عندهم أطواراً عدة ، ويبدو أن اكتشاف الكتابة أخذ فترة من الوقت حتى نضجت فكرتها ، وظهرت على نحو ما ، وقد بدأت الكتابة بالصور مثل تلك التى ما يزال يستعملها الهنود فى أمريكا ، بل ومازال العالم إلى الآن يستعمل تلك الكتابة ، وهى فى الحقيقة لغة عالمية يفهمها الجميع ، فنجد اليوم فى جدول السكك الحديدية وعلى الطرق السريعة علامات فى كثير من بلدان العالم بدل الكتابة ، للدلالة على مسميات يعرفها الجميع ، بدلا من تعدد الكتابة بلغات مختلفة ، ولوضوحها ولفتها للأنظار ــ فتدل علامة فنجان على أن فى هذا المكان مقهى ــ أو بوفيه ، وتدل الشوكة والسكين على أن فى هذا المكان مطعم ، وسماعة التليفون على أن هناك تليفون أو تلغراف ، وظرف الخطاب على أن هناك بريد ــ والهلال على أن هنا مستشفى .

وما زالت الكتابة الصينية للآن تحمل كثيرا من هذه الرموز بدون خجل ، ويعتبرونها تراثا يجب أن يحافظ عليه ، ثم تدرجت هذه الكتابة الهيروغليفية إلى الهيراطيقية ، ثم اشتقت منها كتابات أخرى كثيرة ، منها الكتابة المسمارية ، ثم تدرجت إلى الحروف الأبجدية ، وقد ظلت الكتابة القديمة طلاسم إلى أن عثر على حجر رشيد ، واستطاع العالم « شنبليون » أن يفك رموز الكتابة الموجودة عليه بثلاث لغات ، فعرفت الكتابة الهيروغليفية ، وقد كانت منسية تماما ، مع أنه كان يتكلم بها مدة خمسة آلاف سنة ، أو ستة آلاف سنة ، وبعدها استطاع المؤرخون أن يعرفوا كثيرا من أخبار القدماء ، وكذلك أيضا ساعد فك كتابات « أشوكا » الشهيرة القريبة من أوائل التاريخ الميلادى على معرفة حقيقة حضارة الهند وعمرها ، التى كان يعزى إليها قدم أسطورى ، تبين أنها من أحدث حضارات التاريخ .

الوثائق المكتوبة :

« فقبل خمس وعشرين عاما وجدت بمصر بردية مصرية تحت أنقاض أحد البيوت ، وكانت تحتوى على كتابات عدة ، تبدو وكأنها ملاحظات محام أو كاتب عقود ، تدور حول عمله ، ولم يفكر أحد أن لها أهمية تاريخية ، إلى أن اكتشف فيما بعد نص آخر تحت الأول ، وبعد فحص دقيق تبين أنها بقايا من هزليات أربع ، كانت مجهولة حتى ذلك الحين ، من تأليف ميناندر ، عند ذلك تغيرت طبيعة ذلك النص ، وتغيرت قيمته ، وأصبح وثيقة تاريخية تحكى مرحلة هامة فى تطور الأدب اليونانى (1).

وهذه الوثائق أو هذه الآثار تظهر مدى ما تربط به الأمة من فكر وثقافة ، وتساعد الباحث على معرفة روح العصر ، والمؤثرات التى كانت تحركه فى هذه الحقب البعيدة ، وتعينه كذلك على معرفة مزاج الأمة النفسى بدراسة القصص والأمثال والحكايات والروايات ، ولا ريب ، فإن أخلاق الشعب تظهر من خلال ما ينتج ، كما أنه وجد من الوثائق ما يكشف عن سلوكيات المجتمع وعمق العقيدة فى نفسه ، فوجد فى أحد الأضرحة الفرعونية تلك الشهادة دلالة على نظافة صاحب القبر ، « ولم أجعل أحدا يبكى ، لم أسبب إيلام الناس » ونقرأ كذلك فى كتاب الموتى « أعط الجياع خبزا ، والعطاش ماء ، والعراة كساء ، إن الصالحين العادلين يتمتعون بنشوة الأرض وإن الخلود ليرتبط بالأخلاق »(2)

وهكذا نرى أنه بدراسة ما خلفه القدماء نستطيع أن نفسر تاريخهم ، وأن نعرف أحوال حضارتهم ، وعلى أى أساس كانت ، وعلى أى فكر تقدمت ، وبأى علم سادت وتفوقت ، أو تأخرت وتدنت . إذاً لابد لمن أراد أن يفسر التاريخ أن يبدأ من هذه النقطة ، ومنها يبنى ما يشاء من نظريات وإحصاءات وعلل ، ولكن بدون ذلك يكون المؤرخ كالفيلسوف ، يعتمد على التخيل والبحث فى الأمور الغيبية ،

---

(1) انظر فلسفة الحضارة الإنسانية لأرنست كاسيرر ص ٢٩٩ .

(2) حوار الحضارات ، روجه غارودى ص ٢١ ط عويدان .

وتكون بحوثه سبحات وأفكار ، لايصح أن يطلق عليها علم أو تاريخ ، ولهذا يقول كاسيرر : « وعلى التاريخ أن يبدأ بالآثار ؛ لأنه لا يستطيع دونها أن يخطو خطوة واحدة ، وليس هذا إلا واجبا ابتدائيا أوليا ، ذلك أن على المؤرخ أن يتعلم كيف يقرأ ، أو يفسر وثائقه وعادياته باعتبار أنها رسائل حية من الماضى »[1] إذا يكون الماضى بأسراره وغيبه هو حقلنا وميداننا الذى يجب أن يماط عنه اللثام بالوسائل المؤدية إلى كشف الحقيقة ، بالبراهين الصادقة التى لا تخضع للتخرص أو الظنون ، وهذه البراهين لا تكون إلا بما قدمنا ، لأن الحقيقة التاريخية معرفة بوثائق وآثار ، ولا نستطيع أن نكشف مكنونها إلا بواسطة تدخل من هذه المعلومات التى تستنطق الرجال والعصور بما كانت عليه من حضارة ورقى وفهم وعلم وثقافة وقانون ، وتعطينا تفسيرا سليما وتوضيحا بينا للتقدم العمرانى والهندسى والخلقى والفكرى فى الأزمنة المختلفة كما تهدينا إلى أسلوبهم فى الحياة ، وعقائدهم التى كانوا يدينون بها ونظمهم التجارية والصناعية ، وعادات تلك المجتمعات ، وقيمة الإنسان الاجتماعية ، وغير ذلك مما يبحث عنه اليوم فى الحضارات .



(١) فلسفة الحضارة الإنسانية كاسيرر ص ٣٠١ .

الفصل الثالث

التحرك الحضارى وكيفية قيام الحضارات

المبحث الأول
التحرك البشرى وخطوات هذا التحرك

إن وجود الإنسان على ظهر الأرض هو بلا شك ـــ السبب الفعلى لاهتمامات الإنسان بهذا الكوكب، ووجود البشر من آماد سحيقة على هذا الكوكب حقيقة ليس حولها جدال ، ولكن تحديد عمر الإنسان على هذا الكوكب وكيفية حياته الأولى أضحى مادة لكثير من النظريات والتقديرات والبحوث فى العصر الحديث ، وكلها تدور حول تساؤلات معينة هل الإنسان أصل بنفسه ، أو بينه وبين الحيوان نسب وبينه وبين القردة عرق ؟

وهل كان الإنسان متوحشا فاستؤنس ، وذاهلا فوهب العقل ، وغليظا فرقت حاشيته ، وهمجيا فحسن خلقه وتهذبت سيرته ؟ خاض فى كل ذلك فريق من الباحثين ، واعتمد الخائضون فى ذلك أول الأمر على الخيال والأساطير ، ثم على الآثار والتنقيب ، والبحث فى المخلفات التى يعثر عليها عادة فى الكهوف وفى الآثار المدفونة والرسوم المنقوشة والعظام النخرة ، وحاول كل فريق أن يجد سندا لما يقول ، واشتعلت هذه الحيرة فى أوساط غير المتدينين عامة وغير المسلمين خاصة ، ممن تتلاعب بهم الأهواء المغرضة تارة والكشوف المبتورة والأفكار الشاردة تارة أخرى .

ونحن لا نعارض علما نزيها وكشفا ظاهرا يحقق معرفة أكيدة بالدليل والبرهان ، وإنما نرد التخرصات التى تضع السم فى الدسم ، وتلبس الحق بالباطل ، وتستدل بذرة من الحقيقة على جبال من الأكاذيب ، وسنعرض لهذا التحرك البشرى بمفهوم

المؤرخين ، ولنا بعد ذلك عرض آخر فى المفهوم الإسلامى لهذا التحرك ، على أننا فى تعرضنا لهذا السرد التاريخى نسير فى جانب الكشوف والآثار ، ونتتبع مواطن البحث العلمى بالشواهد التى وجدت حتى الآن فى الساحة العامة لتلك الحقب التاريخية ، باختصار شديد يؤدى إلى المطلوب إن شاء الله .

مواطن الإنسان الأول

إن عمر الإنسان على وجه الأرض لا يشكل سوى جزء بسيط جدا من الزمان ؛ إذا قيس بعمر الأرض نفسها ، ولا شك أن الأرض ـــ حسب النظريات الموجودة ـــ بعد انفصالها عن الشمس احتاجت إلى آماد طويلة حتى صلحت للحياة ، ثم بدأت الحياة على وجه الأرض ، ولكن كيف بدأت الحياة ، وما هو أصل الإنسان الأول، وكيف وجد هذا الإنسان ، أسئلة أجاب عليها الفكر الدينى الصحيح بسهولة ويسر ومن غير تعقيد ، فالإنسان الأول مخلوق لله تعالى ﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء[1] ﴾ نزل إلى الأرض ، وجعل الله له فيها معايش ، وأنبت له فيها كل مايحتاج ﴿ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ﴾[2]، ثم بعد ذلك أمر بالسعى والعمل ؛ ليكسب قوته ويدبر عيشه ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور[3] ﴾ .

ولكن الفكر الرافض لهذه الحقيقة ، ظل حائرا لا يدرى ماذا يفعل ، وليس له وسيلة غير عقله وأساطيره . فحاول أن يهتدى بطريقة العقل ، أو أن يقنع نفسه بنظرية ما ولا شيء غير النظرية ، لأن الحقيقة سحيقة القرار بعيدة الغور ، إلى أن ظهر تشارلس داروين وألف كتابه أصل الأنواع فى عام ١٨٥٩ ، وحاول أن يتكلم فى عملية التطور ، وجاء بفكره المعروف ، وتساءل الناس عن هذا الإنسان : أهو متطور من القردة العليا حقا ، أم هو مخلوق وأصل بذاته ؟ ثم تطور فى شكله وخلقه

---

(١) النساء : ١ .

(٢) البقرة : ٢٩ .

(٣) الملك : ١٥ .

وحياته فيما بعد ، وخلق معه الحيوان والنبات فى وقت واحد ، وانقسم الناس قسمين : قسم يقول كما يقول داروين ، يدفعه هوى فى نفسه وميل جارف إلى تحطيم النظرة الدينية عند الكثيرين ، متمسكا بها كأنها الحق الذى لا مراء فيه ولا قول بعده . وقسم آخر أنكر ذلك على داروين ، وواجهه بالأدلة وبالواقع ، وكان الفيصل عند المتشككين فى النظريتين هو البحث العلمى والكشوف التى يعثر عليها من مخلفات العصور القديمة . فهى إذا الطريقة الوحيدة المؤكدة فى رأيهم على أن الإنسان كان حيوانا من العجماوات ، أو أنه مخلوق بأصل مختلف وطبيعة متميزة ، ولهذا السبب كان اكتشاف الحفريات البشرية بالغ الأثر فى كشف هذا الغموض ، وتوالت الكشوف فى أنحاء كثيرة « ففى الصين عثر على جمجمة فى مغارة عند « تل التنين » ، سميت بإنسان بكين ، ومنذ ذلك اليوم من عام ١٩٢٩أصبح إنسان بكين مشهورا ؛ لأنه واحد من أكثر الحفريات التى عثر عليها ، وحظيت بالدراسة على نطاق واسع ، ولقد دونت الكثير من الدراسات على شكل الجمجمة وحدّها ومقاييسها ، وبعدها عثر على جمجمة قديمة قدم هذه الجمجمة فى جزيرة جاوه بأندونيسيا ، بل لقد عثر على ماهو أقدم فى أفريقيا « أوسترالوبيثيكس » ، وعن طريق الحساب تبين أن الإنسان عاش فى هذه المناطق منذ ٦٠٠٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠٠٠ سنة ، والجماجم التى عثر عليها تنتمى إلى أقدم الأنواع للإنسان الذى عاش على الأرض ، ويبدو من المناطق التى عثر عليها فيها أن الإنسان بدأ أول ما بدأ فى هذه المناطق الأكثر دفئا فى العالم ، ومن هذه الكشوف تبخرت الفكرة الداروانية ، وثبت أن الإنسان أصل بذاته من آماد سحيقة لم تتغير ولم تتبدل ، برغم تباعد الدهور ومرور القرون »[1].

مسيرة الإنسان :

وجد الإنسان على ظهر الأرض وهى مهيأة لاستقباله ، ففيها الماء والهواء والطعام من نبات وحيوان ، كما أن الإنسان رزق العقل ؛ لكى يعمل فى إطعام نفسه

---

(١) نظرية دارون للأستاذ الكيلانى ص ١٦ وما بعدها وانظر تطور الإنسان للسير أرثركيت فى تاريخ العالم ١ / ١٤٩ ، انظر معالم تاريخ الإنسانية ١ / ٥٨ ولز ط لجنة التأليف بتصرف .

وحمايتها ، لأن الله ركبه على صورة لا تصلح حياته إلا بالغذاء ، فكان أول شيء يفكر فيه الإنسان على وجه الأرض هو الغذاء ، ثم فكر بعد ذلك فى كل مايخدم ذلك ويصلحه ويتعاون معه عليه ، وفى هذا يقول ابن خلدون مبينا ذلك « إن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصلح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ، وهداه إلى التماسه بفطرته ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله . إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته من ذلك الغذاء ، غير موفية له بمادة حياته منه ، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا ، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعيد وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة . من حداد ونجار وفاخورى ، هب أنه كان يأكل حبا من غير علاج ، فهو أيضا يحتاج فى تحصيله حبا إلى أعمال أخرى أكثر من ذلك ، من الزراعة والحصاد والدياس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل ، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى ، ويستحيل أن توفى بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد ، فلابد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ، ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجات لأكثر منهم بأضعاف ، كذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا فى الدفاع عن نفسه إلى الإستعانة بأبناء جنسه ؛ لأن الله سبحانه لما ركب الطباع فى الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان ، فقدرة الفرس مثلا أعظم بكثير من قدرة الإنسان ، وكذا قدرة الحمار والثور ، وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته ، وكما كان العدوان طبيعيا فى الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره . وجعل كذلك للإنسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد ، فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر ، والصنائع تحصل له الآلات التى تنوب له عن الجوارح المعدة من سائر الحيوانات للدفاع : مثل الرماح التى تنوب عن القرون الناطحة ، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة ، والتراس النائبة عن البشرات الجاسية إلى غير ذلك[1] » .

---

(١) ابن خلدون المقدمة ١ / ٢٧٢ ط د ــ واف .

وهكذا يسير الإنسان أول ما يسير فى الأرض يقوده عقله لخدمة بطنه وحفظه نفسه ، ثم يخطو من البداوة إلى الحضارة شيئا فشيئا ، مستغلا مواهبه وما أودع الله فيه من قدرات ، وبفضل هذا الذهن حقق الإنسان اكتشافاته الأولى التى أدخلته ميدان الحضارة ، وفى الغالب تتم هذه الاكتشافات عن طريق المصادفة فى الحياة اليومية ، ثم ينتبه لها الإنسان ، فاكتشاف الزراعة مثلا لابد أنه وجد عن طريق الصدفة والملاحظة ، حيث وجد الإنسان أن بعض ما يأكله يكون فيه نوع من البذر ، وبعد إلقائه على الأرض تبين أنه يخرج وينبت مثل أصله الأول ، ويخرج منه ثمر يؤكل أو حب يغرس مثل بذره الأول . وحدث ذلك وتكرر آلاف المرات ، فصار معرفة تستخدم بعد ذلك فى الزراعة ، وكذلك بالنسبة لاكتشاف النار فقد كانت الأرض فى الأعصر السحيقة ، قبل ملايين السنين ، كثيرة النيران من براكين وشهب متساقطة وحرائق مستعرة فى الغابات ، فعرفها الإنسان واستعملها فى الشتاء للدفء ، وطلبا للأنس فى وحشة الليل ، لترية ما يخشاه على نفسه فى الظلام من وحش وغير ذلك ، ثم حدث احتراق حيوان فشم الإنسان رائحة طيبة ، وعندما تناول جسد هذا الحيوان المحترق ليأكله وجد أن اللحم قد طاب طعمه وسهل قضمه ، فتنبه إلى هذه الحقيقة ، وصار إذا صادف حيوانا ألقى به فى النار قبل أكله ليطيب طعمه ، وفطن بعد هذا إلى فوائد النار ، فصار يحرص عليها ، واستخدمها فى طهى الطعام ، وتليين المعادن وتشكيلها فى الصورة التى يريد ، وعندما لانت له المعادن صنع الأوانى واستخدمها فى تسخين الماء ، وبتسخين الماء طيب الكثير من الأطعمة ، والدلالة على علاقة تسخين الماء بصنع الأوانى ، أن الهنود الحمر مثلا برغم معرفتهم بقوة النار فى تليين المعادن وتمكنهم من صنع الحراب والآلات القاطعة ورءوس السهام ؛ فإنهم لم يتوصلوا إلى صنع الأوانى المعدنية ، ولهذا فإنهم لم يتوصلوا قط إلى تسخين المياه واستخدام ذلك فى طهى الطعام . ثم توصل الإنسان بعد ذلك إلى صناعة النار من الشرر المتطاير من ارتطام بعض الأشياء الصلبة ببعض ، من حجارة وحديد ، واشتعال ما أصابه ذلك الشرر من هشيم ، وظهور النار ففطن لذلك ، وكرر هذا الفعل عمدا وتعلمه الناس ، وكانت للنار صناعات مثل صناعة الفخار والزجاج وغير ذلك ، فقد لاحظ الإنسان أن المكان الذى شب فيه نار وكان فيه

بعض الطين صلب ذلك الطين بعد خمود النار ، فعمد إلى الاستفادة من التجربة فى صنع أشياء من الطين وحرقها لتصير أوانى ، وعرف كيف يصنع القدور والجرار بشتى أشكالها وصورها من الفخار ، واستخدمها فى حياته من خزن الماء والطعام . فصار عند الإنسان رصيد ضخم من التجارب ، وشيئا فشيئا ازدادت قدرته مع الأيام على الاستفادة من تجاربه ، وبتجمع كثير من الناس فى مكان واحد صار كل يستفيد من ملاحظة الآخر وإبداعه ، ولاشك أن هذه الاكتشافات استلزمت آلاف السنين ، فقد قدر بعض المؤرخين عمر هذه الاكتشافات وما استغرقته من أزمنة فقال : إذا كان عمر الإنسان على وجه الأرض ثلاثة ملايين من السنين ، فقد انقضت منها مليون وتسعمائة ألف سنة وهو أسفل جبل الحضارة يكتشف هذه الاكتشافات الأولية ، من استخدام النار ، وصنع الفخار ، ومعالجة صيد الحيوان للتدثر بجلودها قبل أن يأخذ فى الصعود إلى جبل الحضارة ، وأنفق تسعين ألف سنة أخرى قبل أنه يجد طريقا مفتوحا للصعود المستمر ، فكأنه أنفق فى الاستعداد للصعود والبحث عن الطريق تسعا وعشرين مرة قدر ما أنفق فى السير الحضارى إلى اليوم .

دلالات المؤرخين فى هذا الاستنتاج .

لاشك أن المؤرخين أمعنوا النظر فى كثير من البحوث قبل هذا الاستنتاج العقلى الذى تخيلوه واقعا من ملايين السنين ، واستدلوا به على خطوات السير الحضارى للإنسان على وجه الأرض ، ولكن هذه التخيلات لم تنشأ فى الواقع من فراغ ، فقد صرح كثير من المؤرخين أنه اعتمد فى الدرجة الأولى على الكشوف المتتالية للعصور الحجرية الأولى ، وعلى حالة بعض الشعوب التى ماتزال إلى اليوم فى تأخر سحيق ، معزولة عن الحضارة ، وتتصل بسبب إلى الإنسان الأول فى تفكيره وحالته وعاداته واستعمالاته اليومية وما يعتمد عليه فى معيشته وبقائه .

يقول السير أرثركيت [١] : « ومن حسن حظنا ونحن الذين نسعى إلى الكشف

(١) السير ارثركيث أستاذ كرسى هنتر للتشريح بكلية الجراحين الملكية ومؤلف كتاب الصور القديمة « الإنسان والقومية والجنس » .. الخ .

عن تاريخ العالم وتاريخ سكانه أن النوع البشرى لا يتقدم كله معا ، فعندما كان أهل أوربا مقبلين على عهد الحضارة الصناعية كان أهالى تسمانيا واستراليا وتبيراول فويجو ، لا يكادون يخرجون من حضارة العصر الحجرى القديم ، وفى وسعنا أن نهتدى بوصف الحياة التى شاهدها الكابتن كوك فى تسمانيا واستراليا لمعرفة نوع الحياة التى كان يحياها أسلافنا فى أوربة منذ عشرة آلاف أو عشرين ألف سنة (١).

وبهذا استطاع كثير من المؤرخين بعد بحوث واستطلاعات لهذه الشعوب البعيدة عن الحضارة فى الأماكن النائية ، وبعد الكشوف الأثرية والبقايا والمخلفات للعصور السحيقة ؛ أن يكونوا فكرة عن الإنسان الأول وعن معاناته ، وعن حلقاته الحضارية فى كل مايحيط به ، من مأكل ومسكن وملبس وعادة ، حتى بالغ بعضهم فرسم له صورا حية من التخيل والذاكرة فى جميع أوضاعه ، وقارنها بصور مماثلة من الشعوب المتأخرة حضاريا ؛ ليجعل ذلك لاصقا بالأذهان ، دالاً على هذا المسار الذى وضحوه وأخرجوه فكرا منظما ، ليأخذ شكل العلم المستقر .



(١) تاريخ العالم ١ / ٣٢٤ ط مكتبة النهضة المصرية .

المبحث الثانى
الحيـاة الروحيـة فى التاريخ

عبد القدماء آلهة اعتقدوا فيها أنها تهيمن على حياتهم وأرزاقهم فى السلم والحرب ، ولم يظهر فى التاريخ القديم ذكر لمعبودات مثل ما ظهر عند قدماء المصريين ، وقد وصف الكاتب الإغريقى هيرودوت المصريين القدماء بأنهم أقوى البشر تمسكا بالدين ، لكنهم كانوا مشركين يعبدون آلهة عدة ، وكانوا يعتقدون أن هذه الآلهة تملك العالم ، وأنها ينبوع الرخاء الذى يعم مصر . لذلك فقد ظل الشعب ينفق الكثير من الوقت والجهد والمال فى بناء المعابد الرائعة ، والمقابر الفخمة ، وإقامة الطقوس الدينية والمهرجانات الإلهية ، لإرضاء الآلهة ، وقد بلغ مجموع الآلهة المعبودة فى ذلك الزمن أكثر من ٢٠٠٠ إله ، بما فيها الآلهة الأجنبية التى كانت تجلب من سوريا وآشور وغيرها ، وقد وجدت بعض الآلهة فى الرسوم التى على المعابد وفى التماثيل برءوس بشر ، وبعضها برءوس حيوانات ، لكن بعض هذه الآلهة لم تكن فى أغلبها إلا أشكالا مختلفة لآلهة أخرى ، وكان لكل إقليم آلهته المحلية ، ولكن عندما اتحدت مصر امتصت المعبودات المحلية أو امتزجت فى ديانة الدولة ، وكان مركزها فى عين شمس .

التوحيد :

وفى القرن الخامس عشر قبل الميلاد حاول الملك اخناتون أن يبشر بالتوحيد « الإيمان بإله واحد » ، ولكنه لاقى مقاومة عنيفة من الكهنة الذين حرضوا عليه الناس ، وسالت فى سبيل ذلك دماء كثيرة ، ومات اخناتون ، وخلفه توت عنخ آمون ، ورجعوا إلى تعدد الآلهة ، وامتثل لعبادة الشمس توت عنخ آمون الصغير

لمشورة المقربين والأوصياء ، ورجع إلى عبادة الآلهة المصرية ، وسمى نفسه على اسم آمون أسمى المعبودات المصرية .

وقد عبدت مصر الشمس منذ الزمن المبكر ، وكان يرمز إليها « برع إله الشمس » ورب السماء والخلق ، وكان غالبا ما يصور رع برأس صقر وجسم طائر ، كرمز لقدرته على ارتياد السماء ، ولكن كان لرع أسماء عدة مقتبسة من بعض الآلهة المحلية مثل ـــ حورس ـــ آتون ، وهو إله الشمس الغاربة ، وآمون ـــ إله الشمس فى أقصى ارتفاعها ـــ وكان رع وأسرته يكونون أسرة من تسع معبودات تسمى التاسوع ، ولقد ظلت تعبد هذه الآلهة حتى نهاية الحضارة المصرّية ، وهذه الآلهة هى شو ـــ إله الهواء ، وتغنت إله الضباب ، وجب إله الأرض ، ونوت ـــ إله الليل ، وأبناؤهم أوزيريس ، وسيت ، وايزيس ، ونفتس .

عبادة الملوك :ـــ

إن عبادة الملوك أخذت دورا بارزا عند القدماء ، وخاصة عند القدماء المصريين ، الذين تقمصتهم الآلهة المعبودة ، فكانوا هم ممثلين لها ، أو هى ممثلة فيهم ، من عبدهم عبدها وقام بحقها ، والقيام على خدمتهم قيام على خدمة الآلهة ، ولا ندرى كيف كانوا يتصورون أن الإله يموت أمام أعينهم ويدفن ويبنى له قبر ، ولكن يظهر أن فكرة الموت عندهم كانت تجوز على الآلهة كغيرهم من البشر ، أو أن أرواحهم كان تحل فيمن يأتى بعدهم ، ويتساءل ولز عن ذلك فيقول : « ولسنا ندرى كيف بلغ الملك عند المصريين هذه المنزلة ، فلم يكن أى ملك من ملوك سومر أو بابل أو آشور ليستطيع أن يحمل قومه على أن يقوموا له بما حمل بناة الأهرام العظام فراعين الأسرة الرابعة قومهم على أن يعملوه فى تلك البنايات الشامخة ، وليس بمستبعد أن كان الفراعنة الأوائل يعدون صورة جسدية لأقوى الأرباب سلطانا . ويجلس الرب البازى « حورس خلف رأس تمثال خفرع الضخمة ، على أن ملكا متأخرا مثل رمسيس الثالث « الأسرة العشرين » يمثل على ناووسه « وهو الآن بمدينة كامبريدج » حاملا الرموز المميزة الخاصة بالآلهة الثلاثة الكبرى للنظام الدينى المصرى ، متقلدا صولجانا « أوزوريس » رب النهار والبعث ، وواضعا على رأسه قرنى البقرة الربة

(هانور) ، هذا إلى قرص الشمس ، وريش أمون رع ، وهو لا يلبس هذه الرموز لمجرد لبسها كما كان يلبسها ملك بابل التقى رموز بعل ماردوك ، وإنما هو هذه الآلهة الثلاثة مجتمعة فى شخص واحد [1] » .

وكذلك كان الأمر عند اليونانيين ، كانت لهم آلهة متعددة ، لكنها تتصرف فى العالم بما ينفع الناس أو يضرهم ، فإذا مررنا على عائلة الآلهة اليونانية نجدها كالآتى :

١ ـــ جوبيترا : وهو أب الآلهة ، والملك الذى يحكم جميع الكائنات الحية ، يجلس على عرشه ، ويحمل فى يده وميضا من البرق المتعرج ، يدعى الصاعقة ، ويقف بجانبه نسر .

٢ ـــ جونوا أوهير ـــ وهى زوجة زفس ، فهى إذن الملكة ، وهى تحمل فى يدها صولجانا ، وفى صحبتها الطاووس .

٣ ـــ نيتون أوبوسيدون ، ويحكم البحر ، ويستطيع أن يهيج البحر أو يسكنه .

٤ ـــ أبولو ـــ وهو أجمل الآلهة ، فهو إله الشمس والغناء والموسيقى ، وهو الذى يجعل الشمس تنير النهار .

٥ ـــ مارس أو أوراس : وهو إله الحرب المرعب ، الذى يسر عند الحرب .

٦ ـــ ماركورى أو هرمز : وهو رسول الآلهة ، وله أجنحة فى طاقيته وفى صندوقه .

٧ ـــ منيرفا أو أثينا : وهى إلهة الحكمة .

٨ ـــ فينس : وهى إلهة الحب والجمال ، فهى أجمل الإلهات ، كما أن أبولو هو أجمل الآلهة .

٩ ـــ فستا : وهى إلهة البيت ، والموقد التى تحمى العائلة .

١٠ ـــ زيريس : أوديمتر : وهى إلهة المزارعين [2]

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية لولز ١ / ٢٠٩ .

(٢) تاريخ العلم لهلير ص ٥٨ بتصرف .

ومن الصعب على أى إنسان أن يتصور كيف كانت تعبد هذه الآلهة ، وكيف كان يتقرب إليها ، ولكن يظهر من هذا أن هذه المجتمعات كانت وثيقة الصلة بالروحانية ، وأنها كانت تؤمن بالغيب ، وهذه الروحانية وهذه العبادات لاشك أنها أورثت تلك الأمم أخلاقا معينة ، ورقابة للسلوك والتصرفات ، جعلتها تنهج نحو التقدم بثبات ، مكنها من صنع الكثير وعمل الكثير مما نشاهده من آثار وما خلفوه من تراث ثقافى وحضارى .

وكذلك كان الحال فى الهند والصين . حيث كانت الآلهة تمثل قوى الطبيعة الرئيسة المختلفة السماء ، والنار ، والضوء ، والرياح ، والماء ، والأرض ، وكل من هذه القوى كانوا يعتقدون فيها كشخص ، ويعطى له اسم ، فكان مثلا أوجنى إله النار ، وبراهما وفشنو ، وسيفا كانت تمثل الخلق والبقاء والفناء .

ويظهر من ذلك أن الديانات كانت متشابهة فى شتى الحضارات فى الزمن القديم ، ولها نفس الخواص ونفس العلاقة بالإنسان وبحياته ، وهذا الخضوع للآلهة والملوك وخوف الخروج على هذه القوى لا شك ولد قانونا يراعى ويحترم ويعمل به ويسار على منهجه ، وكل ذلك من ركائز الحضارة الإنسانية التى قادت ذلك الإنسان إلى رقة المعاملة وشفافية التفكير وإخلاص الضمير .



المبحث الثالث
العوامل المؤثرة فى قيام الحضارات

لابد فى قيام الحضارات من فكر لامع وعقل ناضج وإعداد نفسى وذهنى يتلاءم مع الحضارة المرتقبة ، يحمل بذرتها ويحتضن جنينها ، لأنه لابد لكل ضياء من شمس ، ولكل نور من قمر يبدد قتام الليل الطويل ، وغشاوة الحجب الكثيفة التى تحجب اتصال الفطرة بالفكرة ، ولقد عانت جميع الموجودات منذ ظهور الحياة على وجه الأرض سنة الولادة والنمو ، واقتضى تحول المادة الجامدة إلى مادة حية أكداسا من الزمان ، وكان لابد من انقضاء ملايين السنين لخروج الأشكال النفسية والعقلية القادرة على استيعاب الأمور وترجمتها ، وجميع الاختراعات العظيمة مدينة لنمو الذكاء فقط . وكان لابد من ظهور عقول رائدة توجه طاقاتها للإبداع وريادة الأمم إلى استيعاب الحضارة ، وهؤلاء الرواد هم الذين يسميهم علماء الحضارة بأصحاب الوعى الحضارى .

وهذا الوعى الحضارى لا يشترط أن يوجد بالضرورة فى مخيلة كل فرد من أفراد الأمة ، أو يكون من لوازم الجماعة كلها حتى تتحرك للعمل الحضارى ، وإنما يكفى أن تكون هناك أقلية نابهة واعية ، تحمل ريادة العمل الحضارى ، وتقوم به ، وتوجه إليه ، وتقود الناس على دربه ، ولا يعرف التاريخ أمة من الأمم قامت بدور حضارى معين بغير تلك القلة الرائدة التى يطلق عليها المؤرخون « الصفوة » ، ويطلق عليها بالفرنسية « الإيليت » .

وقد انتقل إلى كل اللغات الأوربية ، ومعناه أصلا « الفئة المختارة » ، وقد تكلم المؤرخون كثيرا عن هذه الصفوة ، وعما تتحمله من أعباء ، وتقوم به من تضحيات ، وتتعرض له من مخاطر فى النفس والمال فى سبيل قيامها بواجبها وتأديتها لرسالتها ، ووضعوها بين خيارين : إما أن يكون لديها القدر الكافى من الوعى والإرادة والقوة لإقصاء الفئات العائقة للحضارة وإزاحتها من طريق الأمة ، أو اتباع فئة مختارة أخرى حتى يتكون فيها القوة لذلك . وإما أن لا يكون لديها هذا القدر من الوعى ، فتجرها الفئة الفاسدة إلى التدهور والهلاك .

وقد تحدث عن هذه الصفوة أو الفئة المختارة وأهميتها بالنسبة للمسيرة الحضارية لكل أمة جميع من كتبوا فى التاريخ وفلسفته فى العصور الحديثة ، من جيانيا تستافيكو إلى أرنولد توينبى ، بل إنها كانت أسسا من أسس الفكر اليونانى ، الذين كانوا يرون أن الصفوة هم أهل العلم ، ويعتقدون أنهم أصلح الناس لقيادة الجماعات الإنسانية .. وحول هذه الصفوة نسمع حديث المؤرخ الإنجليزى « توينبى » يتكلم حول هذه الفئة المختارة ، فيقول : « لابد لكل جماعة إنسانية من صفوة ، فئة قائدة لكى تتقدم وتتحسن أحوالها ، ولا يتم تقدم إذا عدمتها الجماعة ، فكأنها ضرورة للتقدم والنهوض ، ولكنها ليست بالضرورة طبقة متماسكة ، فهى قد تتكون من رجال ذوى ملكات شتى : هذا فى الحرب ، وذاك فى السياسة ، وثالث فى العلم ، ورابع فى الشعر ، وما إلى ذلك . ثم يقول : إن مصير الجماعة كلها مرتبط دائما بهذه الصفوة وأحوالها ، فإذا ظلت على هذه الحال من القلق والحرص والسعى على الفتح والكشف والتجديد والإحساس بمسئوليتها عن الجماعة ؛ تكونت حولها جماعات من الناس يسيرون فى الطريق بعدهم ، واطردت مسيرة الجماعة ، وطال عمر صلاحها . فإذا أصاب الصفوة تصدع أو تدهور ، ففى حالات الهيئات الحاكمة لا تزال الجماعة بخير من الناحية السياسية مادامت هذه الجماعة متحدة أو متآلفة على الأقل ، وفى هذه الحالة لا تتأثر الجماعة كثيرا بما نزل بها من خطوب ؛ مادامت

صفوتها القائدة سليمة ، ولكن البلاء يأتى عندما تصاب هذه الصفوة أو تفسد أو يقع الشقاق بين أفرادها ، فتختلف كلمتها وتعجز عن القيادة [(١)] »

وإذا تركنا مايقوله توينبى إلى اشبنجلر نراه يقول : « تتولد الحضارة « الثقافة » فى الوقت الذى تستيقظ عند فئة من الناس نفس قوية ، تنتشل نفسها من بين ثنايا الأحوال العقلية البدائية التى يتردى فيها جنس بشرى ، فتجعله فى طفولة دائمة ، عندئذ تتخذ هذه النفس شكلا من اللاصورية وكيانا محدودا متغيرا منبثقا عن اللانهاية والإصرار .

وتزدهر هذه النفس على أرض بلاد ذات حدود دقيقة ، تظل ملتصقة بها التصاق النبات [(٢)] »

المعاناه :

وهذه الصفوة المختارة التى تؤسس للحضارة ، وتحمل ضميرة التقدم ، وتجالد الصعاب ؛ لابد من معرفة الدافع الحقيقى الذى قادها وحركها إلى هذا التقدم ، لأن كل حركة لابد لها من دافع يتسبب فيها ، ويكون وراءها ، وهو ما نسميه بالمحرك . فهل هذا الدافع وذلك المحرك هو الجنس ، أو الظروف الجغرافية والمناخية ، أو هو غير ذلك . وواضح كما بينا قبل أن بدء الحضارات لم يكن نتيجة العوامل البيلولوجية ، أو البيئيه الجغرافية بمفردها ، وإنما هو نتيجة تفاعل بين الإنسان وبين الطبيعة فى صراعه على الحياة والبقاء والرفاه ، نتيجة التحدى والاستجابة ، أو الفعل ورد الفعل ولقد قامت الحضارات الخمس الرئيسة نتيجة للتحدى والاستجابة ، وقد قام المؤرخون المحدثون بتتبع الحضارات ودراستها وتحديد العوامل المحركة لها ، ومن هذه الدراسة التى أبدع فيها أوزفالد اشينجلر وأرنولد توينبى ، حيث

---

(١) الحضارة حسين مؤنس ص ١١٤ .

(٢) مختصر التاريخ توينبى ١ / ٣٥٢ ، ١٤٥ الى ٢٥٥ .

درس الأخير ما يقرب من إحدى وعشرين حضارة دراسة وافية ، وخرج من دراسته بأن حركة التاريخ لا تعود إلى البيئة الجغرافية ، ولا تعتمد على الأجناس ، وإنما هى نتيجة موقف الجماعة مما يقابله من تحديات ، ونوع ردها عليها ، أو استجابتها لها [1]. ثم يوضح ذلك توينبى فيقول : « إن الإنسان يتحرك للعمل الحضارى إذا وجد فى ظروف تضطره إلى ذلك فإذا لم تضطره الظروف بقى على حاله ، فإذا فرضنا مثلا أن المصريين الأقدميين عندما اقتربوا من حوض النيل ، فوجدوه سهلا منبسطا تغطيه الأحراش والغابات الحافلة بالثمار وحيوان الصيد؛ لاستقروا هناك دون جهد ، وتابعوا حياتهم السهلة دون تفكير فى تغيير ، وهنا ما كانت الحضارة المصرية القديمة لتقوم .

ولكن نرى أن ثمة جماعة استجابت لتحدى الجفاف بتغيير مواطنها ، وطريقة معيشتها معا ، وكان رد الفعل هذا المضاعف النادر هو العمل ذو القوة الدافقة الذى خلق الحضارتين : المصرية والسومرية ، من بين ما ظهرا فى المجتمعات البدائية التى تعيش فى المراعى الأفراسية السائرة فى طريق الزوال ، وتمثل هذا التغيير فى تحولها تحولا شاملا من جامعى طعام وصيادين إلى زراع ، فخاضوا مستنقعات الأدغال الموجودة فى قرار الوادى ، وحولوها إلى مزارع وسدود ، وأحالهم ذلك إلى قوة دافعة وتفكير مستمر وحضارة ساطعة [2]. وكذلك كان بدء الحضارة السومارية حيث تكاد المظاهر المادية لبدء كل من الحضارتين المصرية والسومرية تكون متحدة حيث أن جفاف أفراسيا قد ألزم آباء الحضارة السومرية بالدخول فى صراع مع مستنقعات غابات الوادى الأدنى لدجلة والفرات ، وتحويلها إلى أرض شنعار ، وتكون حوض دجلة والفرات أسوة بحوض النيل ، وكذلك كان بدء الحضارة الصينية فى الوادى الأدنى للنهر الأصفر ، حيث ألفينا استجابة من جانب الإنسان لتحديات صعبة من الأحوال الطبيعية والمناخية ، ربما كانت أشد عنفا من كل من تحدى النهرين وتحدى النيل ،

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٣ .

(٢) انظر مختصر دراسة التاريخ ١١٦ / ١ وما بعدها .

حيث اجتمع مع هذا التحدى تحدى مناخى تتغير فيه الحرارة موسميا ، فى نهاية قصوى للحرارة فى الصيف ، إلى نهاية عظمى للبرودة فى الشتاء ، ومع هذا استطاع الشعب الصينى أن يتحدى ذلك ، وأن يبنى حضارة سامقه فى التاريخ ، وكذلك كان الشأن فى الحضارتين المايانية والأنديانية ، وعلى هذا المنوال سارت الحضارة المينوية [(١)].

وخلاصة هذا الرأى أن صعوبة التربة والمناخ والتحدى هو الذى أطلق الشرارة الأولى لحضارة الشعوب ، ولعل هذا ترجمة المثل القائل « الحاجة أم الاختراع » ، حيث أن هذه البيئات شحذت همة الإنسان للعمل والاستفادة والابتكار ، ليتغلب على الصعاب التى تواجهه ، ويؤمن حياته وعيشه بطريقة ترضيه ، وتفتح له أبواب مايحب ويهوى ، فالزراعة صاحبها نشاط تجارى ، والنشاط التجارى صاحبه نشاط صناعى لأدوات نقل الحبوب من عربات وسفن وأكياس وصناعة للسفن ، وقد صاحبها ما يلازمها من صناعة الأقمشة للأشرعه وما إلى ذلك ، ثم صاحب زراعة الزيتون عصره ومعرفة زيته واستعمال آلات للعصر وأوانى للحفظ وقناديل يسرج من زيتها ، فنشطت صناعة الفخار ، وظلت العقول تتحرك حتى أسلمها ذلك إلى حضارة زاهرة وإنسان متحضر صناعيا وعقليا ونفسيا [(٢)].



(١) نشأة دولة مينوس فى جزيرة كريت ، وقد أقامت سلطانها على بحر بايجه وازدهرت حضارتها ازدهارا ينبىء عنه بقايا القصور الملكية فى كريت .

(٢) انظر الحضارة للدكتور حسين مؤنس ص ١١٨ وما بعدها ومختصر التاريخ لتوينبي ١٤٥ / ١ إلى ٢٥٥ .

المبحث الرابع
اتجاهات التحرك الحضارى

طرحت تصورات عدة من الباحثين حول التحرك الحضارى ، فنرى مثلا أصحاب المنهج التأملى فى فلسفة التاريخ يعرضون لأنماط ثلاثة من الحركة ، يعتقدون أن التاريخ يسير على وفقها . أولها : التقدم الصاعد ، بمعنى أن التاريخ يتقدم فى مسار مستقيم صاعدا إلى الأمام لا يتدهور ولا ينتكس ، ثانيها : نظام الدورات الحضارية ، حيث أن الإنسانية تمر بدورات حضارية معينة ، سواء كانت هذه الدورات مقفلة أو يفضى بعضها إلى بعض . ثالثها : عدم الالتزام بنمط معين ، هذا وسنعرض لكل اتجاه من هذا الاتجاهات الثلاث .

التقدم الصاعد :

برزت فكرة التقدم الصاعد فى أواخر القرن السابع عشر ، حين اشتد الجدل بين أنصار القديم والحديث من النقاد والأدباء ، فاتهم أنصار الحديث فى معرض الدفاع عن أنفسهم أنصار القديم بأنهم وهموا ووقعوا فى خطأ فادح بنظرهم إلى القدماء على أنهم أرجح عقلا من المحدثين ، وهذا خطأ كبير لأن الإنسان يزداد مع الزمان خبرة ، وبالتالى يكون أكثر معرفة وأكبر عقلا من القدماء ، وهكذا تمضى الإنسانية مع الزمن نحو التقدم والتكامل والازدهار ، وقد انتصر لهذه القضية بسكال وغيره ، والحقيقة أن فكرة هذه النظرية ترجع فى أصولها الأولى إلى آراء بيكون وديكارت . وتتخلص هذه النظرية وحجمها فى الآتى .

١ ـــ إن التاريخ البشرى يمر فى مسار تقدمى ، تتطور خلاله معرفة الإنسان ، وتقترب شيئا فشيئا نحو الهدف النهائى للمجتمع البشرى ، وهو تحقيق

الحرية والكمال والسيطرة التامة على الطبيعة .

٢ ــ البشرية تسير فى وضع تشعر فيه كل يوم بالتقدم ، حيث تكتشف فى كل لحظة جديدا كان الآباء والأجداد عنه غافلون .

٣ ــ إن المجتمع كائن عضوى جماعى ، يخضع مثلما تخضع الظواهر المختلفة فى الطبيعة والرياضة والأحياء لقوانين محدودة ، والمجتمع يقوم على قانون كلى عام ، وهو يتكون من ثلاث مراحل : اللاهوتية ، الميتافيزيقية ، الوضعية ، وهذه هى الديناميكية الاجتماعية التى يقوم عليها تقدم الإنسانية وتحركها .

٤ ــ ارتباط فكرة التطور بفكرة التقدم عند كثير من الباحثين ، وقد سار على ذلك دارون الذى اعتبر أن التطور والتقدم متساويان ، فقال : قد تبين أن الطبيعة تقدمية على غرار التاريخ .

المآخذ التى أخذت على هذه النظرية

١ ــ هاجمت نظرية التقدم الفكر الدينى ، باعتبار أنه ينتمى إلى القديم ، واعتبرت الروحانية لاهوتية قديمة كانت عند تخلف الإنسان ، تفسر له ما لا يستطيع فكره أن يستوعبه ، وقد تجاوز ذلك ، وفتح المغاليق ، وعرف لكل شىء سبب ، وبهذا تكون قد قضت على القوانين الخلقية والنفسية ، ومحت العقيدة من مجال الحضارة .

٢ ــ صارت هذه النظرية فيما بعد مظلة للمنحرفين عن المسار الصحيح فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، من أمثال دارون وماركس وإنجلز وغيرهم من الذين جعلوها تكأة لأغراضهم .

٣ ــ خلطت هذه النظرية بين التقدم والتطور ، وكل منهم له مجاله الخاص ، حيث أن التطور ليس إلا تعديلا بيولوجيا فسيولوجيا ، يختص بالكائنات الحية ، وفقا لقانون الانتخاب الطبيعى ، بينما نجد التقدم تمهيدا واعيا للوصول إلى أنماط جديدة فى سلوك الفرد والمجتمع ، ومن هنا بدا تقدم الإنسانية أمرا حتميا محققا ، إذا

استطاعت أن تستفيد من الكشوف العلمية ، أما إذا لم تستطع أن تستفيد منها ، أو وجهتها إلى غير وجهتها ؛ فلربما تهلكها وتهلك نفسها [1].

حركة النكوص والتدهور للتاريخ :ـ

عاش الناس المدنية فى العصر الحديث ، ونظروا إلى مناهجها وأضوائها وزخارفها ومفاتنها ، ولكن هل استراح الناس ، وهل ضاعت الجريمة ، ونعمت الإنسانية بالأمن والطمأنينة ، وتلاشى الظلم وزال القهر ، هل أشبعت البطون ووجد المحتاج ، هل سعدت النفوس واستقرت الأرواح وزالت العقد ، هل ساد الخلق ، وعمت الفضيلة ، وانتشر التراحم ، أم زاد القلق ، وانتشرت الجريمة ، وشقيت الإنسانية ، وكثر الظلم ، وزاد القهر ، وأرهقت النفس ، وتراكمت العقد ، وانطفأ مصباح الفضيلة ، وتوارت أنوار الأخلاق الحميدة ، بهذه النظرة الفاحصة والرؤية النافذة تأمل كثير من الباحثين فى الحضارة التى بين أيدينا ، وكان مقياسهم فى التقدم والتأخر شيئا غير المبانى والمخترعات وأدوات الزينة والرفاه . كان مقياسهم تقدم الإنسان بصفاته الإنسانية ، وراحته النفسية ، وحالته الاجتماعية ، ومكتسباته الخلقية ، فلما وجدوا أن نصيب الإنسان من هذه الحضارة هو نصيب سنمار ، وأن الناس رجعوا من هذا التعب والنصب من هذه الحضارة بخفى حنين ، فقد تدهورت القيم الجمالية والأخلاقية بين الناس ، وكثرت الشرور والآثام ، وانتشرت الحروب المدمرة ، وكثر الاستعباد والقهر والبغى ، وغلبت شريعة الحيوان ودساتير الغاب على العصر ، نظروا إلى الحضارة نظرة تشاؤم وخيبة أمل وازدراء ، وتجلى ذلك فى أقوالهم وتحليلاتهم .

ولهذا يقول جيته : لقد صار الإنسان أكثر ذكاء ووعيا ، ولكنه لم يصر أكثر

---

(١) انظر فى هذا فى فلسفة التاريخ أحمد صبحى / ط مؤسسة الثقافة الجامعية ، والنقد فى عصر التنوير ، ونازلى اسماعيل ط : دار النهضة ص ٤٣ وما يليها ، ومسيرة المجتمع بحث للدكتور عبد الجليل طاهر ، وماهو التاريخ ادوارد كار ص ١٠٨ ، وفى فلسفة الحضارة الإسلامية للدكتور عفت الشرقاوى ط دار النهضة العربية بيروت ص ١٧١ وما يليها بتصرف .

سعادة أو أنبل خلقا[1] » ويعترض جورج سوريل على فلاسفة التقدم وأصحاب نظريات التصور السياسى والاجتماعى ، ويقول :

رجال من أمثال فوييه Fouillee مدلسين ذوى جرأة شديدة حين يدعون أنهم يدركون تزايد الإحساس بالكرامة الإنسانية والحرية الفردية بين الناس ، بتقدم الديمقراطية وانتشارها فيهم[2] »

ويقول إدوارد كرينتر : « إن المدنية مرض عارض وعلى جميع الأجناس البشرية أن تبرأ منه ، كما يبرأ الأطفال من مرض الحصبة أو السعال الديكى بعد عناء » .

ويقول ج ـــ ب ـــ شو : « إن المدنية لم تتقدم خطوة واحدة منذ عصر الحيثيين » ثم يعلق على هذا متهكما « إن القتل بالبندقية لا يقل إيلاما عن القتل بسهم مسموم » ، ثم يدعو إلى الكف عن القول بالسيطرة على الطبيعة ، فيقول « هذا وَهْم يجب وينبغى أن نكف عنه ويضرب مثلا بحالة الزنوج فى أمريكا ، وما يتعرضون له من هوان قائلا : « إننا نستطيع أن نصف تلك الوحشية بأى شىء إلا أن ندعى أنها تمثل تقدما فى تاريخ البشرية » ثم يقول تحت تأثير ما يرى من الحضارة « إنه من الأفضل لنا أن نتفق على أن الإنسان سوف يعود إلى وثنية وبدائية يوما ما ، على الرغم من كل ما مر به من تطور ، وما قام به من ثورات اجتماعية ـــ ما لم تتغير طبيعته ذاتها . ذلك أن الإنسان مادام على حالته المعهودة ، فإنه من غير المتوقع أن تحقق الإنسانية أى تقدم أكثر مما عرفت ، ولهذا فإن من الأجدر بنا أن نكف عن الاعتقاد بأن الإنسان كما يوجد الآن جدير بأى تقدم . وهذه النزعة التى يسميها البعض تشاؤمية هى فى الحقيقة نزعه واقعية ، مبنية على كثير من الدراسة والمشاهدة التى أصبحت لا تخفى على أحد ، وقد ذاق الكل بأى لون مرارتها ، الشعوب التى تدعى متحضرة ، والشعوب التى تدعى نامية ، وتلك التى توصم بالتخلف ، وتوضع تحت الوصاية والتبعية . ونرى إلكسيس كاريل يقول :

---

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية وعفت للشرقاوى ص ١٧٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٠ .

« إن الإنسان غريب فى العالم الذى ابتدعه .. إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ؛ لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته ، ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هى إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية .. فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة بالنسبة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا .. إن الجماعات والأمم المتمدنة هى الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لا تدرك ذلك ، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها ، وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات التى سبقتها ، أوجدت أحوالا معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ، إن القلق والهموم التى يعانى منها سكان المدينة العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية »[1] ويعلل كاريل ذلك بالأدلة ، فيقول : « إننا نواجه مشاكل حضارية خطيرة ، تحتاج إلى حل سريع . إذ بالرغم من أننا بسبيل القضاء على إسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمى والتيفود ... الخ ، فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال . فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبى والقوى العقلية .. فى بعض ولايات أمريكا يزداد عدد المجانين الذين يوجدون فى المصحات على عدد المرضى الموجودين فى جميع المستشفيات الأخرى . وكذلك الاضطرابات العصبية وضعف القوى العقلية آخذان فى الزيادة ، وهذا أكثر العناصر نشاطا فى جلب التعاسة للأفراد وتحطيم الأسر ، إن الفساد العقلى أكثر خطورة على الحضارة فى الأمراض المعدية » ويخلص من هذا فيقول : إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب ؛ لأنها لاتلائمنا ، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تتولد من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ؛ فإنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا[2] وشكلنا ، ويؤيد هذا شو ، حيث يقول : إن المدنية مرض ينشأ من بناء المجتمعات من

---

(١) الانسان ذلك المجهول ص ٤١ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٧ ، ٣٤ .

مواد عفنة »[1] والحقيقة أن الحضارة الحاضرة برغم زخرفها وتقدمها الآلى قد قتلت كثيرا من القيم وانطلقت كالمارد يجوس خلال الأفكار والتصورات ، فأفسدتها كلها ، ومسخت الحياة مسخا كريها ، وردته إلى حيوانية ، وكانت ثقافتها ثقافة بعيدة كل البعد عن روح الإنسان وأخلاقياته ، فخرجت لنا ـــ مثلا بالتفسير المادى للتاريخ ، وبطله ماركس الذى يفسر الحياة كلها من خلال بطن الإنسان وحيوانيته ، ثم بالتفسير الجنسى ، وبطله فرويد الذى تصور الإنسان حيوانا ممسوخا مشوها ، ينبع كله من طاقة واحدة ، هى طاقته الجنسية .

التفسير الجسمانى للمشاعر، وبطله وليم جيمس وأمثاله من التجريبين الذين يفسرون الحياة كلها من خلال الجسم كالحيوان ، فالمشاعر والأفكار نشاط كهربائى وغدد وكمياء ، غدة الجنس تصنع المشاعر الجنسية ، غدة الأمومة تصنع مساعر الأمومة ، غدة الكظر تصنع الشجاعة ، إلى آخر هذه الأفكار ، وكل تفسير تتخيله قد يأتى إلى التفسير الإنسانى للإنسان ، الذى يسعد نفسه ، ويوافق فطرته ، ويسعد ذاته ، وينمى فيه مشاعر الصفاء والنقاء ، لهذا ولغيره من أمراض تلك الحضارة قال أصحاب فكرة النكوص ! إن الحضارة تنتكس وترتد على أعقابها ؛ للأسباب الآتية :ـــ

١ـــ أن الحضارة نظرت إلى العلوم المادية والجمادية ، ولم تنظر إلى علوم الإنسان ، حتى تخاطب فطرته ونفسه .

٢ـــ تطور العلم اعتباطا ، من غير تخطيط ونظر فيما يعود على الإنسانية بالنفع أو يعود عليها بالضرر والشر والدمار .

٣ـــ توجيه التعليم توجيها خاطئا ، حيث سار التعليم فى طريق آخر غير الطريق السوى ، ووجهت العقول الكبيرة إلى علوم الجماد ، ولم توجه إلى علوم الإنسان ، ولو وجهت إليه لأفادته ، وكانت سياجا للتقدم وراحة للإنسان .

---

(١) فلسفة الحضارة الاسلامية ص ١٨٠ .

٤ ــ ضياع الأخلاق فى سبيل المادة ، وذبح الفضيلة فى سبيل التقدم المزعوم الذى أدى إلى الاستهتار بالأديان والقيم الروحية .

٥ــ استعمال المادة فى الدمار وشقاء الإنسان ، وتوجيه الموارد إلى الحرب والفناء وترك الإنسان يتضور جوعا .

وهؤلاء الباحثون اتسمت آراؤهم بالحماس وقرع نواقيس الخطر وأجراس الإنذار ؛ ليلفتوا إلى ضياع الطريق الصحيح الذى يجب أن تفىء إليه الحضارة الحديثة ، حتى لاتقع فيما وقع فيه كثير من الحضارات قبل ذلك .



الدورات الحضارية للتاريخ

نظرية الدورات الحضارية هى إحدى النظريات التى قال بها كثير من فلاسفة التاريخ ، وكان رائدهم فى القول بها ابن خلدون ، ثم قال بها بعد ذلك فيكو واشبنجلر وتوينبى ، وغيرهم ، وتقوم تلك النظرية على القول بأن التاريخ يعيد نفسه فى دورات حضارية ، وليس بالضرورة أن تتشابه تلك الدورات فى الشكل والمظهر ، أو التفكير والثقافة ، وإن كان يجرى على كل منها الصعود والهبوط والانتكاس والتقدم ، وبرغم كثرة القائلين بتلك النظرية ، فإن بينهم اختلافا واضحا فى جزئيات تلك النظرية وأبعادها وتأثيرها فى شتى نواحى المجتمع بصورة أو بأخرى ، وفحوى هذه النظرية أن الجماعات الحضارية أو المجتمعات المتقدمة تبدأ فى التحلل والتفكك فى كثير من الأحيان بانقسام فى الصفوة أو الأقلية القائدة ، قد يكون لطمع ، أو وشاية ، أو بذخ ، أو ضعف ، أو خيانة ، أو بغير ذلك من الأسباب المحبطة للعقل المدبر والمفكر النشط ، ويتسع مدى هذا الانقسام حتى يتحول إلى حرب أهلية قد لاتكون حرب سلاح أو نزال ، وإنما تكون حرب دعاية وتوهين وإشاعة لفقدان الولاء ، وهذا يؤدى فى النهاية إلى فقدان الترابط والثقة والتضحية والاحترام للجماعة ولقانونها ومقدساتها ، وتتلاشى بذلك هيبة الأقلية القائدة ، بل قد تنزل فى أعين الناس إلى درك المجرمين والخونة والعملاء ، فتكثر بذلك الغوغائية والهمجية ، وتضيع الأقدار ، ويكثر النفاق والعمالة ، ويختلط الحابل بالنابل ، ويذهل الناس عن جلائل الأمور ، ويتبعون سفاسفها ، وفى هذه الأجواء تكثر الانقلابات والثورات ، وتعم المجاعات ، وتنتشر البطالة والتصعلك ، وتسمح هذه الأجواء بتدخل المغيرين والمحتلين ليجوسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، ثم تتكون بعد صفوة أخرى تحمل على كاهلها إزاحة هذا التخلف وتوقظ الناس من جديد ، حتى تنهض الأمة وتتقدم ، ويقوم طور جديد

لحضارة جديدة ، ثم لاتلبث تلك الصفوة أن يحل بها ماحل بسابقتها ﴿وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾[1]

ابن خلدون والنظرية :

تأمل ابن خلدون فى طبيعة الدول وأصول العمران البشرى فرأى أن الحضارة تتعاقب فى الأمم على أربعة أطوار ـــ الأول ـــ طور البداوة ، والثانى : التحضر ، والثالث : الترف ؛ والرابع : التدهور . ويسمى ابن خلدون هذه الأطوار الأربعة : بانيا ، ومباشرا له ، ومقلدا ، وهادما ، وفى هذا يقول : « إن عمر الدولة كعمر الأشخاص ، وهو فى الغالب لايعدو ثلاثة أجيال .

الجيل الأول : لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك فى المجد ، فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم ، فحدهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون .

والجيل الثانى : تحول حالهم بالملك والترف من البداوة إلى الحضارة ، ومن الشظف إلى الترف والخصب ، ومن الاشتراك فى المجد إلى انفراد الواحد به ، وكسل الباقين عن السعى فيه ، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة ، فتنكس صورة العصبية بعض الشيء ، وتؤنس منهم المهانة والخضوع ، ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول ، وباشروا أحوالهم ، وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم فى المدافعة والحماية ، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية ، وإن ذهب منهم ماذهب ويكونون على رجاء من الأحوال التى كانت للجيل الأول ، أو على الظن من وجودها فيهم .

وأما الجيل الثالث : فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ، ويبلغ فيهم الترف غايته بما انغمسوا فيه من النعيم ونضارة العيش ، فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان

---

(١) إبراهيم ٤٥ .

المحتاجين للمدافعة عنهم ، وتسقط العصبية بالجملة ، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ، ويلبسون على الناس فى الشارة والزى وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها ، وهم فى الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها ، فإذا جاء المطالب لهم لم يقوموا بمدافعته . فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ، ويستكثر من الموالى ويصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء ، حتى يتأذن الله بانقراضها ، فتذهب الدولة بما حملت [1] ، ثم تأتى أخرى ، ولكن لاتلبث حتى تسير على سنن الأولى وفى هذا نرى أن ابن خلدون يصف لنا تجاربه وملاحظاته على الأمم والشعوب ، ومعايشتها للحضارات وما كان من أمرها من بدء أحوالها ، ثم فى ازدهارها ، ثم فى انحطاطها وزوالها .

ونرى ابن خلدون يربط بين الحضارة والإنسان ، فحيث يجد الإنسان ويعمل ويطمح يكون الازدهار والتقدم ، وحيث يترف ويهاع ويترهل ويتورم ويكسل يكون الزوال والاضمحلال ، وهذا مبنى على ما استقر وعلم ، وهذا الرأى صحيح فى الجملة ، ولايضعف منه نقد بعض المحدثين الذين يقولون أن ابن خلدون بهذا يفضل البداوة على الحضارة والخشونة عن النعيم ، ويقولون أن معنى هذا تفضيل الجاهلية على الحضارة الإسلامية [2] والحقيقة أن أصحاب هذا النقد لايدركون لكلام ابن خلدون معنى ، ولا يتصورون دائرته التى يعمل فيها ، ويخبطون خبط عشواء ويحتطبون بليل ، إن ابن خلدون لايفضل البداوة على الحضارة إلا فى حالة واحدة ، فى فقدان الرجولة والتحلى بالتخنس واستمراء الهوان والاستسلام للغالب ، ولم يتكلم ابن خلدون على البداوة فى الجاهلية ولا فى الإسلام حتى يدعى مدع أنه يفضل الجاهلية على الإسلام ، ولا أتصور كيف فهم من كلام ابن خلدون والرجل يضرب المثل بالبداوة على الرجولة والخشونة والشجاعة والترابط والصفات الفطرية ، وكان الأولى أن يقال إن ابن خلدون يفضل عصر الصحابة المتقشفين على عصور العباسيين مثلا الذين لبسوا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٨٦، / ٢ تحقيق الدكتور عبد الواحد وافى ط لجنة البيان العربى .

(٢) انظر هذا : فى فلسفة الحضارة الإسلامية للدكتور عفت الشرقاوى ص ١٨٧ وما بعدها والحضارة للدكتور حسين مؤنس ص ٢٧٢ وما بعدها .

الحلل كالنساء ، وأغرقتهم الأموال ، وناموا فى أحضان الجوارى الحسان ، وتقلدوا الجواهر واليواقيت ، وسازوا على النمارق وتركوا الناس جياعا ، والثغور فراغا ، والديار خرابا ، حتى هجم العدو على الديار وخربها ، وجرت دماء المسلمين أنهارا ، وصنعت من جماجمهم جبالا ، وأخذ الخليفة كالقطة الأليفة ، ومات ضربا بالنعال ، إن ابن خلدون شهد واقعا عايشه وأحس به إحساس الفاحص البصير ، وجاء بعده من قدر ذلك ، وصار على سننه ، واحترم افكاره ، هذه القضية قديمة مع الزمان ، وقد تكررت فى التاريخ عشرات المرات ، فقد تحجرت حضارة مصر القديمة فى نهاية عصر الدولة القديمة ، ثم عادت إلى الحياة بعد ذلك بثلاثة قرون على الأقل ، فى صورة حضارة الدولة الوسطى ، ثم جمدت مرة ثانية عقب غزو الهكسوس ، لتبعث إلى الحياة مرة أخرى بعد نحو قرنين على يد أحمس ومن جاء بعده من الفراعنة فى الدولة الحديثة ، ثم جمدت بعد الضربة الفارسية ، أى بعد غارة الفرس على مصر بقيادة قمبيز سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، ثم بعثت أيام البطالمة ، ثم جمدت ، وبعثت فى أيام المسيحية فى القرن الثالث . ثم جمدت وبعثت مرة أخرى فى ظل الإسلام من جديد . ومثال ذلك أيضا حضارة الصين « التى نشأت على أيدى أسرة شو فى حوض النهر الأصفر فى نهاية الألف الثانية قبل الميلاد ، ثم تحجرت ، وبعثت على أيدى منسى وأسرة تشين شى هوانج تى التى وحدت الصين حوالى ٢٢١ قبل الميلاد ، وأتيحت الفرصة لحضارتها للسير من جديد ، ثم تحجرت ، وعادت إلى الحياة مرة أخرى على يد أسرة كوشان فى العشرات الأولى من القرن المسيحى الأول ، ثم سكنت رياحها وجمدت ، حتى بعثت بفضل البوذية ، وقامت أسرة جديدة على أيدى أسرة تانج ثم تشين الثانية . وكذلك حضارة الهند انحلت عدة مرات ، واندثرت على أساسها ، وقامت حضارة الإسلام فى الهند ، ثم الهند الحديثة اليوم ، وكذلك حضارة الأندية ، والأنتيك ، والمايا ، التى تلاشت تماما ، وذابت حضارتها فى كيان الحضارة الغربية التى غزتها وقضت عليها ، وإن كنا نستثنى من ذلك حضارة الإسلام ؛لأن أساسها ليس عنصرا بشريا يناله الضعف والبلى ، ولكن أساسه العقيدة ، وهى لاتزال تتجدد وتتعاقب على حمل رايتها الأجيال ، وأداتها اللغة العربية لغة القرآن ، وبفضله عاشت وقدر لها أن تنجو من الضياع ، وبفضل الإشلام واللغة العربية ظلت حضارة

الإسلام حية ، لأن العقيدة لاتبلى مادام هناك من يؤمن بها ، أى أن عنصرى الحضارة والإسلام الأساسيين باقيان لاينال منها كر الغداة ومر العشى وتعاقب الأجناس وتغير الظروف »[1]. وهذا مبحث واسع سنعرض له .

فيكو :

ويأتى الفيلسوف الإيطالى فيكو ، الذى عاصر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وبرز فى التاريخ والاجتماع ، ويخرج على العالم بكتابه « العلم الجديد » ، مبينا أسباب التغير الحضارى الذى يحل بالمجتمعات البشرية ، وانتهى إلى القول بأن المجتمعات الإنسانية تمر بمراحل معينة من النمو والتطور والفناء ، لأن « من طبيعة الظواهر أن تحدث فى ظل ملابسات محدودة ، ووفقا لطريقة معينة ، فحيثما وجدت هذه الملابسات والظروف وجدت الظواهر[2] » . ولكن نظرية التطور والانحدار عند فيكو تختلف عن الفكرة الخلدونية ، حيث تمر المجتمعات الإنسانية فى رأى فيكو بمراحل معينة من التطور ، الذى ينتهى إلى الانحلال أو البربرية ، لتبدأ من جديد مراحل أخرى أعلى درجة من سابقتها ، لينتهى التطور مرة أخرى إلى الانحلال ، وبذلك تتشابه الحلقات التاريخيه عند فيكو ، ولهذا يدور التاريخ فى رأى فيكو فى حركة لولبية صاعدة ومتجددة على الدوام ، كحركة المتجه إلى قمة الجبل بالدوران الصاعد حوله ، بحيث تعلو كل دورة له ما يسبقها من دورات ، ولعل هذا هو الذى يميز نظرية فيكو عن النظريات التى تقول بالدورات الحضارية .

أوزولد اشبنجلر :

لهذا الفيلسوف تصور معين فى الدورات الحضارية : حيث يعتقد أن الحضارة كائن عضوى طبيعى ، ينشأ فينمو ، ثم يزدهر فيشيخ ، حتى يلحقها الفناء . فالحضارة عنده كائن حى يجرى عليه ما يجرى على الكائنات الحية من تطور

---

(١) انظر الحضارة لمؤنس ص ٢٧٢ وما بعدها .

(٢) فى فلسفة الحضارة الاسلامية د. عفت الشرقاوى ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

طبيعي ، وقد عرض اشبنجلر هذا التصور البيلولوجي للحضارة بتوسع فى كتابه « انحلال الغرب » ، الذى عرف فيما بعد بعنوان « تدهور الحضارة الغربية » ، ومهما يكن من مبالغة اشبنجلر فى تشبيهه للحضارة بالكائن الحى ، من حيث نشأته ، ونموه ، وشيخوخته ، وفناؤه ، فإن هذا لا يدفعنا إلى الظن بأنه يبتعد فى دراسة الحضارات عن الناحية الروحية المتحدة مع البيئة الطبيعية ، وإنما يقرر اشبنجلر فى وضوح أن الحضارة عنده انبعاث روحى لجماعة من الناس يربطهم مفهوم متقارب للوجود ، فينعكس ذلك على ألوان نشاطهم المختلفة فى الفن والدين والفلسفة والسياسة والحرب والاقتصاد . وبهذا يكون مفهوم كل جماعة متميزا عن غيره فى مجال التعبير والانبعاث الروحى .

وأما ميلاد الحضارة عنده ؛ فإنه يتم كما يقرر اشبنجلر : فى اللحظة التى فيها تستيقظ روح كبيرة ، وتنفصل عن الحالة الروحية الأولى للطفولة الإنسانية الأبدية ، كما تنفصل الصورة عما ليس له صورة ، وكما ينبثق الحد والبقاء عن اللامحدود والفناء ، وهى تنمو فى تربة بيئة يمكن تحديدها تمام التحديد ، وتظل مرتبطة بها ارتباط النبتة بالأرض التى تنمو فيها[(١)] « وبعد ميلاد الحضارة الجديدة تتبدل الأحوال الأولى ، وتتحول الفوضى إلى نظام ، والخمول إلى عمل ، وتدخل الأفكار فى مجال الإبداع والابتكار ، وتنتقل من دور التأخر إلى دور الفتوة ، ثم الشباب ، ثم دور الشيخوخة التى تفقد معها الحضارة القدرة على العطاء ، وتصبح كالشجرة الجرداء التى فقدت نضارتها ، ونضبت الحياة فى أصولها وفروعها ، فتتخلى تدريجيا عن الإبداع والابتكار ، وتدخل فى مرحلة الترف والاستهلاك ، وتتحول الحضارة إلى مدنية ، وينعدم الابتكار الفنى والعقلى والذهنى ، ويكون بعد ذلك الموت . وفى هذا يقول اشبنجلر فى تلك المرحلة « تموت الحضارة حينما تكون الروح قد حققت جميع ما بها من إمكانيات على هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية وفنون ودول وعلوم ، ومن ثم تعود إلى الحالة الروحية الأولى[(٢)] » وهكذا تتجلى فكرة اشبنجلر عن الدورات الحضارية . حيث تنمو

---

(١) اشبنجلر للدكتور عبد الرحمن بدوى ص٧٢ .

وفلسفة الحضارة الإسلامية، للدكتور عفت الشرقاوى ص ٢٠١ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٧٢ لاشبنجلر فلسفة ص ٢٠١ .

الحضارة بفكر نابه ، ثم تجاهد هذه الأفكار حتى تضيء مصابيح الحضارة فى الأفكار والنفوس والعقول ، ثم تزدهر تلك الحضارة ، ثم تنغمس فى الترف والنعيم والدعة ، ثم بعد ذلك يأتى دور الموت والانحطاط والفناء . وهذا نفس الخط ونفس رأى ابن خلدون فى جملته ، غير أن اشبنجلر ربط فكرته بعالم الحيوان ، ولم يربطها بطبائع الناس وبالأجيال وطبائعها كما ربطها ابن خلدون ، ولم يربطها بالحلقات التاريخية كما ربطها فيكو بالحركة اللولبية الصاعدة كما قال ، وقد وقع اشبنجلر فى خطأ حتمية الكائن الحى ، ورتب ذلك من النتائج الحتمية اللازمة لفناء الحضارات وقيامها وفقا لقانون الموت والحياة فى عالم الطبيعة ، وإن كان الإطار العام للدورات الحضارية من حيث الارتفاع والانحدار ، والتحلل والترابط واحداً عند الجميع .

توينبى :ـــ

يرى توينبى أن قيام الحضارات يعتمد على التحدى والاستجابة ، لأن الحضارات حصيلة تفاعل بين الصفوة وبين الظروف الصعبة التى تقدح زناد الفكر إلى العمل والإبداع ، ومصارعة الحياة للبقاء ، وتذليل العقبات ،فالظروف الصعبة لاالسهلة هى التى تستثير الأمم لقيام الحضارات ، والسهولة عدو للحضارة، والترف، مدعاة إلى ركود الفكر وبلادة الحس . وقد يكون التحدى من صعوبة الجو ، أو من وعورة البيئة ، وقد يكون من الضروريات الخارجية أو الداخلية ، فقد تمثل هزيمة صدمة قاسية لأمة تنهض دفاعا عن كرامتها ، فتثار فى المجتمع طاقات إبداعه الكامنة ، وتكون سببا فى حضارته ، وقد يكون التحدى من داخل المجتمع نفسه ، وفى هذه الحالة يكون المجتمع أشبه بالجسم الإنسانى الذى ابتلى بفقد عضو من أعضائه ، أو فساد ملكة من ملكاته ، فيكون ذلك سببا فى بحثه عن تعويض ما فقد ، فيلجأ إلى البراعة فى استخدام ملكاته وقواه الكامنة ، فيبز أقرانه فى ميادين عدة ليعوض ما فاته .

انهيار الحضارة وفكرته عن الدورات الحضارية :

إذا كانت الحضارة عند توينبى تنشأ من التحدى والاستجابة ، فكيف إذن

يفسر انهيارها وتكوصها . يذكر أن انهيار الحضارات إنما يقع بسبب قصور الطاقة الإبداعية فى أقلية المجتمع « المعبر عنه بالصفوة » ، وهى الأقلية التى تتولى عادة قيادة أغلبيته العاجزة عن الإبداع ، وترتب على ذلك القصور بالضرورة عزوف هذه الأغلبية عن محاكاة الأقلية ، فتتفكك الوحدة الاجتماعية ، وقد ألمحنا إلى ذلك قبل ، وقد تكلم توينبى عن ذلك فى فصول مطولة فى كتابه « مختصر دراسة التاريخ » ، وعرض لكثير من الآراء فى تحلل الحضارة ، وكر عليها بالنقد ، فليرجع إلى كتابه من أراد المزيد [1].

وهكذا نجد أن مسيرة الحضارة عند المؤرخين بدأت بظهور الإنسان على وجه الأرض المهيأة أساساً لاستقباله بهوائها ومناخها وشمسها وقمرها وزرعها ومائها وتربتها ونمائها ، وحينما ظهر الإنسان على وجه هذا الكوكب لم يجعل مثل الملائكة لا تأكل الطعام ولا تمشى فى الأسواق ، بل نزل أو جاء إلى الأرض بطبيعة محتاجة ، وبطن يريد أن يمتلىء ، ثم وهب عقلا يميزه عن سائر الحيوانات التى على وجه الأرض ، وبوجود العقل ، وبترقى هذا العقل ، وبطبيعة الإنسان المحتاجة وبرغبة ذلك الإنسان وغرائزه وشهواته تحركت الحضارة على وجه الأرض ، كما رأينا فى العرض السابق ، ولكن فكرة الإبداع الحضارى قد لا تتوافر لكثير من الناس ، أو قد يرضى بعض الناس بما لا يرضى به البعض الآخر . وقد تتفاوت الهمم وتتباين الطموحات ، ولهذا وجدت صفوة من البشر ، لهم من الطموح ما ليس عند غيرهم ، ولهم من القدرة على الإبداع ما لايتوافر لسواهم ، فقادت تلك الصفوة الطموح أبناء جنسهم إلى الترقى والإبداع والحضارة ، إلا أنا وجدنا أن بعض الشعوب أو الأمم لم تستطع أن تخرج صفوة تقود أبناء جلدتها إلى الحضارة ، ووجدنا البعض الآخر على عكس ذلك ، فلابد أن يكون هناك سبب أو أسباب أثارت تلك الأمم ، وصنعت صفوة معينة ، استطاعت أن تفعل ما فعلت ، فكانت هذه الأسباب فى التحدى والاستجابة ، ونتيجة ما كان يقابل الجماعة من تحديات ، استطاعت أن تحرك عقلها ، وتسيطر على تلك التحديات ، فتكون عندها فكر وصناعة ، استطاعت أن تتحضر بها وأن تبدع وتنبغ .

---

(١) مختصر دراسة التاريخ ١ / ٤٠٧ الى ٤٥٩ والمرجع نفسه ٢ / ١٤١ إلى ٤٧١ .

ولكن هل سارت هذه الجماعات فى خط الترق صعدا أم اعترضتها نكسات وانكسارات ، وكانت هناك آراء حول مسيرة تلك الحضارات ، فقال قوم بالتقدم المستمر ، وأن العقل الإنسانى لم يرجع إلى الوراء بعدما ترك بداوته وجاهليته . وقال غيرهم عكس ذلك ، لما رأوا من كثرة المآسى التى خلفتها الحضارة الحديثة ، وكثرة الويلات التى أصابت الإنسانية بما لا يصيبها فى عصورها المتقدمة ، وقال آخرون بالدورات الحضارية ، وهى أن الحضارة ظهرت عن بداوة وجاهلية بواسطة الرواد والتحديات ، ثم بعد ذلك انحل الرواد ، وضعف الخلق ، واستعملت الحضارة فى غير موضعها ، فانتكست الحضارة ، وضعف الفكر ، ورجع الناس إلى التخلف والضعف ، ثم خضعوا لتحديات جديدة كونت روادا جددا ، فنهضوا وأبدعوا وسادوا ، وهكذا كلما نهضت حضاره نسى بنوها قوانين بقائها ، فانتكسوا ، ثم عملوا بعد ذلك فنهضوا ، ثم نسوا ، وهكذا ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وهذه الاجتهادات التى يرتاح إليها الفكر ، وإن كانت تحتاج إلى مزيد من التعديل والمراجعة والتغيير سنعرض له فى فصول قادمة إن شاء الله تعالى .



الباب الأول

الفهم الإسلامى للحضارة ومناهجه وتفسيره للتاريخ

الفصل الأول : المفهوم الحضارى فى الإسلام أسسه ومظاهره

الفصل الثانى : المُناهج العلمية التى قامت عليها الحضارة الإسلامية

الفصل الثالث : التفسير الإسلامى للتاريخ الحضارى

الفصل الأول

المفهوم الحضارى فى الإسلام أسسه ومظاهره

المبحث الأول
تصور شامل للكون

تعريف الكون :

يحسن بنا فى بداية بحثنا عن الكون أن نحدد مصدر اصطلاح « الكون » عند الباحثين على اختلاف نزعاتهم .

الكون فى اللغة العربية :

الكون لغة : الحدث ، يقال : كان كونا وكينونة ، فالكائن هو الحادث وحكى عن سيبويه أنا أعرف منذ كنت ، أى منذ خلقت ، ويقال : كونه فتكون ، أحدثه فحدث ، والله مكون الأشياء ، أى مخرجها من العدم [(١)]

الكون فى القرآن :

يشير القرآن الكريم إلى التكوين ــ بمعنى إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود ــ صنعة الله تعالى ــ وهو تكوينه للعالم ، ولكل جزء من أجزائه ، لوقت وجوده على حسب علمه وإرادته [(٢)] ، ويشير القرآن إلى التكوين فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [(٣)] ومعنى هذا أن الله يحكم بكون هذا الأمر فيكون .

الكون عند الصوفية :

يقول الجرجانى : ويرى أهل التحقيق ، أن الكون عبارة عن وجود العالم كله

---

(١) لسان العرب مادة « كون » .

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى مادة التكوين .

(٣) الفصل بهامش الملل والنحل ٣ / ٥٢ ط القاهرة والآية من سورة مريم ــ ٣٥ .

من حيث هو عالم ، لا من حيث هو حق . ويقصد بأهل التحقيق الصوفية .[1]

الكون عند الفلاسفة :

أما أهل النظر من الفلاسفة ، فيرادف الكون عندهم الوجود المطلق العام ، وهو بمعنى الكون عندهم .[2]

الكون عند المتكلمين :

يرى المتكلمون أن الكون مرادف عندهم للوجود ، وقد يستخدم اصطلاح « العالم » أيضا ويشار به إلى مجموع أجزاء الكون ، أى إلى مجموع المخلوقات [3].

الكون عند أنشتين EINSHTEIN :

أما بالنسبة لنظرية النسبة عند أنشتين ؛ فالكون هو مجموع الأحداث المتميزة بارتباطها الزمانى والمكانى [4].

فالكون بهذا المعنى الذى يمكن أن يستخلص من التعريفات السابقة ، هو مجموع ما تكون بالإرادة الإلهية فى الزمان والمكان من الموجودات على اختلافها بعد أن لم تكن موجودة .

الكون فى التفسير الأوربى :

ولهذه المعانى العربية فى تفسير الكون ما يماثلها فى التراث الفلسفى الأوروبى ، فإن لفظ « كون » Universum يشير إلى مجموع الأشياء ، أو مجموع ما يوجد فى الزمان والمكان ، وعند الفيلسوف ليبنتز أيضا ، هو جملة الأشياء الموجودة ، وإذا كان ثمة عوالم يمكن أن توجد فى أزمنة مختلفة وأمكنة مختلفة ؛ فإنه يمكن اعتبارها جميعا عالما

(١ ، ٢) التعريفات للجرجانى مادة « الكون »

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى مادة « كون » و « عالم » .

(٤) alande : vocabulaire Eechnigue etcritiquede la philosophie Art (uniuers) .

واحدا ، أو إن شئت كونا Theodicee, 18 وقد يطلق الكون مجازا على العالم المرئى Lemondevisble أو عالم الشهادة كما يطلق عليه الإسلاميون ، وقد يعتبر الكون (Univers)مطلقا على حين يعتبر العالم (monde)نسبيا :

Comte (A) Politpositive 1,348

التصور الإسلامى للكون

تقر البشرية بالفعل أو بالقوة أن هناك مدبرا موجودا لهذا الكون العجيب ، كما يقرر الكتاب العزيز ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَ لله يَسْجُدُ مَنْ فى السَّمٰوَات والأرضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾[1] ، وكذلك يقدم التصور الإسلامى أن هذا الموجود كله من خلق الله تعالى ، اتجهت إرادته إلى كونه فكان ، ثم أودعه الله ـــ سبحانه ، قوانينه التى يعمل بها ويتحرك ، وتتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبغَىٰ لَهـاٰ أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سـاٰبِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾[2]. حركة محسوبة ومقدرة تقديرا دقيقا ، لقوله تعالىٰ ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرا[3] ﴾ ، والإنسان جزء من هذا الكون المخلوق العريض الواسع ، مرتبط به ، يدرج عليه ، ويعيش حياته يستنشق هواءه ، ويأكل نباته ، ويشرب ماءه ، كما أنه خلق منه ويعود إليه . فإما أن يكون الكون خلق له ، أو وجد هو لعمارته ، أو كان كل لازمة للآخر ، والتصور الإسلامى فى خلق الكون وخلق الإنسان وفى إظهار الحكمة من ذلك واضح بين ، لم يترك شيئا لمتاهة الشطحات والتصورات والخيالات ، كما كان فى الماضى . ولم يقف جامدا أمام التساؤلات الحاضرة والمستقبلة التى من المتوقع أن يتناولها المفكرون ، فبعد أن كان الناس فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن يوجهون اهتمامهم الأساسى إلى الواقع المادى المشاهد وتطور الكائنات الحية على هذه الأرض ، خصوصا بعد إعلان دارون نظريته فى التطور ، فإن الجيل المعاصر والأجيال التى

---

(١) الرعد ١٥ .

(٢) يس . ٤٠ .

(٣) الفرقان ٢ .

ستليه ستوجه اهتمامها إلى الكون الخارجى ، وستتسائل عن حدوده وأبعاده ، وإمكان وجود كائنات أخرى فيه ، وما هو نوع حياتها ، وهل الفضاء الخارجى يتناهى أو لايتناهى ، وهل هناك إمكانية لحياة البشر على سطح بعض الكواكب الأخرى ، وهل لايوجد فى هذا الكون إلا الإنسان فقط ؟. صحيح أن مثل هذه التساؤلات لن يجيب عليها بشكل محدود إلا العلم ، ولكن فى هذا الجو العلمى الذى يبدد كثيرا من الخيالات المتخلفة ينشط كثير من الماديين مؤكدين للناس وجوب النظرة إلى كل تراث دينى على أنه لا مكان له فى هذا العصر ، وقد أدى ذلك فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية إلى نوع من الصراع ـــ الذى لامبرر له ـــ بين قيم تراثنا الدينى والحضارى ، والقيم الجديدة التى يؤكد عليها أولئك الدعاة ، ومثل هذا الصراع ينشأ فى رأينا من جهل بطبيعة الإسلام ، ومن تقليد وانسياق بدون وعى وراء فلسفات العصر المادية التى كانت سببا فى ضياع كثير من الأمم ، ويجب أن يعلم أنه ليس من شروط التقدم العلمى أن يقترن بالإلحاد ، كما أن الإلحاد فى ذاته ليس دليلا على علمية النظرة .

ولعل من أبرز الأسئلة التى يثيرها العقل صرح بها أو أبطنها ـــ هى : هل الإسلام متفق مع العلم روحا ومنهجا ، وماهو مبلغ هذا الاتفاق ومظاهره ؟. وإذا كان العلم الحديث قد توصل فى مجالات شتى إلى تكوين صورة معينة بل ملموسة عن هذا الكون ، كما أثبت قدرة الإنسان على تسخير كثير من القوى فى الكون وتطويعها لمنفعته ، فإلى أى حد تكون نظرة الإسلام إلى هذا المجال ، وهل هو معوق ، أو متفرج ، أم حافز ومشجع ، ثم يوجه آخرون أسئلة معدلة ، فيقولون : من المعلوم أن انفتاح آفاق المادة على مصراعيها وغرور الإنسان بها ولد فسادا وانحرافا فى استعمالها ، فما هى القيم الروحية التى أعدها الإسلام لتحد من أخطار ذلك .

علمية النظرة إلى الكون .

عندما يتأمل الباحث فى آيات الكتاب العزيز وينظر فى ثناياه نظرة متأنية فاحصة ، يجد أنها توجه العقل إلى استخدام منهج متكامل فى البحث فى الكون ، يتكون من عدة نقاط :ـــ

١ ــ النظرة العلمية البحتة إلى الأشياء

فلا تأثر بعبادة ولا بتراث ولا بعقائد سابقة . وكثيرا ماتحدى القرآن هؤلاء الأصناف بالمنهج العلمي والحجة والدليل ، لا بالعقائد الموروثة والأفكار السائدة . كقوله تعالى :ــ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْن ﴾[١] وقوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوه لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُون ﴾[٢] وقوله تعالى :ــ ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوابِ عِنْدَ الله الصُّمُّ البُكْمُ الذينَ لايَعْقِلونَ ﴾[٣] ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ماأَلْفَيْنا عَليه آباءَنا أَوَ لَوْ كَانَ آباؤُهم لايَعْقِلون شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[٤] . وإنما يريد القرآن من الإنسان أن لايخطو خطوة إلا بالعلم ، خاصة وأنه قد وهب أدوات البحث والنظر . فيقول تعالى : ﴿ وَلا تَقفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا ﴾[٥] وكانت هذه صيحة فى وسط العالم وقت ذاك ، أيقظت الجاهلية التى كانت تؤله الكواكب وتعبد الأصنام ، فمن العرب من كان يعبد الكواكب ويؤمن بالتنجيم ، فكانت حِمْيَرَ تعبد الشمس ، وكنانة تعبد القمر ، وهناك قبائل كانت تتوجه بالعبادة إلى المشترى وإلى الشعرى وإلى عطارد ، فحول الإسلام تلك النظرة غير الواقعية إلى نظرة واقعية علمية فقال : ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْس وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدوا لِلّه الذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُم إِيَّاهُ تَعْبُدونَ ﴾[٦]

٢ ــ محاربة الدجل العلمى

وقد حارب رسول الله ﷺ فيما حارب الدجل والعقائد الباطلة والتنجيم والكهانة

---

(١) البقرة ١٧٠ .
(٢) الأنعام ١٤٨ .
(٣) الأنفال ٢٢ .
(٤) البقرة ١٧٠ .
(٥) الإسراء ٣٦ .
(٦) فصلت : ٣٧ .

والعرافة ، وهى من مظاهر بدائية التفكير التى تتعارض مع العلم الصحيح ، فقد نهى رسول الله ﷺ نهيا صريحا عن إتيان الكهان وتصديق العرافين ، فقد سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان ، فقال لهم رسول الله ﷺ « ليسوا بشيء »[١] ، وعن صفية بنت أبى عبيد عن بعض أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « ومن أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة[٢] » . وقد كان الكهان والعرافون يزعمون لأنفسهم قدرة الإخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان ، وعلى معرفة الأسرار . ومطالعة الغيب .

٣ ــ عدم الربط بين الظواهر الطبيعية والعالم .

ولعلنا نلحظ فى هذا مايدل كل عاقل ومفكر أن الإسلام لم يتهاون لحظة واحدة فى نفى هذه الأباطيل والأوهام ، كما أنه نفى أى ربط بين ظواهر الطبيعة وحركات العوالم ونفع الناس وضرهم ، أو حياتهم وموتهم . فيوم توفى إبراهيم بن رسول الله ﷺ حدث كسوف للشمس ، ظنه الناس معجزة حدثت لهذه المناسبة ، فرد ذلك رسول الله ﷺ ونفاه ، وقال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته .[٣]

٤ ــ الإرشاد إلى المنهج الصحيح فى المعرفة

ومن ذلك رد القرآن على مؤلهة الكواكب من الصائبة بمثل هذه الآية التى تصور حال إبراهيم علية السلام حين نظر إلى الكواكب ، واهتدى إلى وجود خالق له ، ورد على هؤلاء العابدين لهذه الأجرام والكواكب . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوٰتِ والأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَيْلُ رَأى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ : لا

---

(١) هذا بعض حديث فى صحيح مسلم ــ انظر مختصر صحيح مسلم للمنذرى رقم ٤٩٤ ط الكويت .

(٢) مختصر صحيح مسلم للمنذرى رقم ١٤٩٦ ط الكويت وزارة الأوقاف .

(٣) جزء من حديث رواه مسلم ، مختصر صحيح مسلم للمنذرى رقم ٤٤٥ ط الكويت .

أُحِبُ الآفِلِينَ ، فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ : هَذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّين . فَلَمّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ : هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُون . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِين ﴾ [1] فنرى أن إبراهيم عليه السلام ينظر إلى الكواكب والنجوم نظرة علمية ، على أنها أشياء مسيرة ، لاتملك من أمرها شيئا ، فضلا عن أنها تنفع وتضر وترزق ، ومن طبيعة القرآن أنه يقرر الأصول العامة للدلائل العقلية ، أما تفصيلاتها وكشف قوانينها وطرق استخدامها فهى وظيفة العقل البشرى ، والعقل السليم غير الملوث بالغرائز المنحرفة ، والأفكار العليلة الشَّرُودُ .

خلق الكون : ــ

تكلم القرآن عن أكوان وعوالم خلقها الله سبحانه وتعالى قبل أن يعرف الناس شيئا عن تلك الأكوان وهذه العوالم ، وقبل أن توجد المراصد والتحليلات الرياضية وغير الرياضية ، فأخبرنا فى أول سورة من القرآن وفى أول آية منها بعد البسملة بقوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، تلك الكلمة التى فاجأت العرب ، حيث كانوا لا يعلمون إلا عالما واحدا فقط ، وهو مايشهدونه من أرض وسماء وما بينهما ، والتمس الناس تلك العوالم المتعددة ، وضرب المفسرون ذات اليمين وذات الشمال ، فمن قائل : إنها عوالم الإنس والجن والملائكة ، ومن قائل : إنها عوالم الحيوان والنبات والجماد ، إلى غير تلك الأقوال ، ولكن الحقيقة أن هذا يكون عالما واحدا ، أو هو يكون ذلك العالم الذى نراه ولا يتعدد بتعدد أجزاءه ، ثم جاء العصر الحديث فأظهر عوالم متعددة بجانبها عالمنا المشاهد وليس شيئا مذكورا ، فهناك المجرات الهائلة المترامية الأطراف التى تعد بالملايين ، وإن كان العلم الحديث لم يهتد للآن فى تلك العوالم إلى

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٧٥ ــ ٧٩ .

أرض كأرضنا وحياة كحياتنا ، وإن كان العلم يعد ذلك ممكنا وغير مستحيل ، بل يعده أمرا راجحا ، وقد قرر ذلك كثير من العلماء المحدثين فى هذا العصر ، أمثال الفلكى الإنجليزى الشهير سبنسر جونز ، الذى كتب عن الحياة فى العوالم الأخرى وإمكانية ذلك[1].

خلق السموات والأرض :

ثم تكلم القرآن على خلق السموات والأرض ، وفصل ذلك تفصيلا يرمز إلى كثير من الدلالات التى تنبه العقول إلى كثير من الحقائق التى يجب أن يبحثها الإنسان ، ليهتدى :

أولًا : إلى معرفة قدرة الخالق وإنعامه .

ثانيا :إلى مافيها من حقائق تكاد البشرية تفنى أعمارها وأوقاتها فى البحث عن أسرارها ، ويهديها الله إليها رحمة منه ، ولتكون إشباعا لتلك الرغبات الإنسانية المتطلعة إلى معرفة المجهول . فقال تعالى :ـــ

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرونَ بالذى خَلَقَ الأَرْضَ فى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِها ، وَبَارَكَ فِيْها وَقَدَّرَ فيها أَقْوَاتَها فى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سواءً للسَّائِلين ، ثُمَّ اسْتَوى إلى السَّماءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَها وَلِلأَرْضِ ائتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالتا : أَتَيْنا طَائِعيْن ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوٰاتٍ فى يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحَى فى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَليمْ ﴾[2] واليوم فى الآية الكريمة عبارة عن الحقبة من الزمان ، حيث خلقت السموات والأرض وما كان هناك أيام لاشمس ولا قمر .

---

(١) انظر فى دلك « عوالم لا نهاية لها » للفلكى الملكى الإنجليزى « سبنسر جونز . فصل الحياة فى العوالم الأخرى . « والإسلام فى عصر العلم » للأستاذ محمد أحمد العمراوى ص ٢٢٤ ط دار الإنسان .

(٢) سورة فصلت ـــ ٩ ـــ ١٢ .

واليوم فى اللغة العربية ، يطلق على يوم الأسبوع ، ويطلق على الحقبة من الزمان ، كأيام العرب فى حروبها على أن اليوم[1] ، وإن أطلق فى القرآن الكريم على اليوم العادى ؛ فقد أطلق على الحقبة أيضا كيوم بدر ويوم حنين ،وأطلق على أيام الله التى تبلغ ألف سنة ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾[2]

وأطلق على خمسين ألف سنة ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[3]وعلى الناظر فى أيام الخلق فى القرآن أن يعلم أنها تطلق على الحقب الزمنية ، لا على الأيام العادية ، وهذه الحقب الزمنية لا يستطيع أن يحدد مداها إلا العلم ، وقد يقال : إن يَوْمَى خلق الأرض ، عبارة عن طور الانفصال من الشمس والانطفاء والبرودة التى أعقبها تكثف البخار السابح حولها ، والطور الثانى : هو طور تجمد القشرة الأرضية ، ويبقى هناك طوران آخران عنتهما الآية بقولها ﴿ وَجَعَلَ فِيها رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أى فى تمام أربعة أيام ، يومان سابقان ، ويومان لاحقان ، فيكون الكل أربعة أيام . أشار إلى طور خلق الجبال بأنواعها ، ثم طور إعداد الأرض للحياة ، بخلق جميع العناصر اللازمة للحياة من هواء وماء وتربة ، وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ ، ولا بركة بغير ماء ، ولاتقدير أقوات بغير خلق جميع العناصر اللازمة للزراعة والإعاشة والإنبات والنماء نباتيا وحيوانيا ، وفى الحكمة فى التعبير بالأيام عن الأطوار يقول الأستاذ . الغمراوى « وفى التعبير عن الأطوار وأحقابها بالأيام إعجاز آخر نفسانى ، له أهميته فى تحقيق الهداية التى أنزل من أجلها القرآن ، ألا وهو صلاحية التعبير لأن يفهمه أهل الكتاب على الوجه الذى لايعرفون غيره ، فلا يكذبون القرآن ، فيقف تكذيبهم حائلا دون دخول أحد منهم فى الدعوة ، وعائقا لغيرهم من مشركى العرب الذين يثقون بعلم أهل الكتاب . والله وحده هو القادر أن يخاطب عباده فى أسلوب يعبر عن الحقيقة الكونية لمن علمها ، ولايصدم معتقد

---

(١) انظر لسان العرب وتاج العروس فى مادة يوم .

(٢) الحج ـــ ٤٥ .

(٣) المعارج ـــ ٤

من جهلها . وهذا تشريع عملى من الله أن تكون الدعوة إلى الله على وجه لايكون فيه ما يصد الناس عن الدخول فى دين الله ، وهو المبدأ الذى عبر عنه الرسول عليه السلام بقوله ما معناه « خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتريدون أن يُكَذَّبَ الله ورسولُهُ » ومن هنا كان قبوله ﷺ جواب الجارية حين سألها « أين الله ياجارية » ؟ قالت : فى السماء ، فقال لوليها : « هى مؤمنة ». ومن هنا تبسمه ﷺ لقول الحبر الذى جاءه وقال ، فيما روى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « إنا نجد يامحمد أن الله يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء على أصبع ، والثرى على أصبع ، وثائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الملك » يقول ابن مسعود : فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه ، تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[1] والخطأ فى كلام الحبر واضح . فإن الأرضين تشمل طبعا كل ماعليها من شجر وماء وثرى وخلائق ، لكن الرسول لم يبين للحبر خطأه فينفر وينفر من وراءه ، وإنما تلطف بعد أن تبسم فتلا عليه الآية الكريمة ، التى يدل صدرها على أن ماقال الحبر هو دون مايليق بجلال الله سبحانه ﴿ وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾[2]

ثم تكلم القرآن على خلق السماء بعد خلق الأرض : فقال سبحانه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ وتقديم ذكر خلق الأرض على خلق السماء إما للاهتمام بها لعلاقتها المباشرة بالإنسان ، أو لأنها خلقت وكونت بعد الأرض فعلا ،و« ثم » للدلالة على التراخى فى الآية ، بمعنى أن السماء كانت سديمية حين انفصلت الأرض عن شمسها فى اليوم الأول ، أو الطور الأول من خلق الأرض ، مصداقا لقوله تعالى ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾[3] .

---

(١) الزمر : ٦٧ .

(٢) الإسلام فى عصر العلم الأستاذ الغمراوى ص ٢٤٨ .

(٣) الأنبياء — ٣٠ .

ودلت « ثم » على أن الأيام الثلاثة ، أو الأحقاب التى تحققت فيها صلاحية الأرض للإعاشة وتقدير أقواتها فيها ، لم تكن كافية لخروج السماء من السديمية الأولى إلا إلى الحالة الدخانية ، وهل كانت السموات دخانا قبل أن تتخلق بأمر الله سبع سموات ، يقابلها سبع أرضين كما نصت على ذلك الآية ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[1]. كل أرض تقابلها وتعلوها شيء ، وهذا من العجائب العلمية فى خلق السموات والأرض ، حيث يكتشف العلم فى العصر الحديث أن السماء كانت يوما دخانا ، ولا تزال كتل هائلة مما سماه الله دخانا يشاهدها الفلكيون بمراقبهم القوية اليوم فى السماء وإن تكتل داخل أكثرها نجوما ، ويسمونها فى العصر الحديث سدما ، سواء تكتل منها نجوم أم لم يتكتل بعد[2].

وبعد : فقد أفاض القرآن فى الكلام على خلق السموات والأرض والكواكب والنجوم فى كثير من آياته ، فقال ﴿ وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[3] ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَادًا ﴾[4] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيرًا ﴾[5] ، ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾[6] ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[7] . وكل هذه الآيات تشير إلى آفاق من المعرفة التى يجب أن يتدبرها الإنسان ، ويسير على هداها ، حتى يحصل له من العلم ما به سعادته وخيرهُ فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الطلاق ـــ ١٢ .

(٢) انظر التفسير العلمى للآيات الكونية للأستاذ حنفى محمود ص ٢٠٧ ، مقال الدكتور زغلول النجار فى عالم الفكر الكويت ص ١١٤ .

(٣) الذاريات ـــ ٤٧ .

(٤) عم ١٢ .

(٥) الفرقان ٦١ .

(٦) الواقعة ـــ ٧٥ ـــ ٧٦ .

(٧) الأنبياء ـــ ٣٣ .

المبحث الثانى
المنهج الإسلامى فى النظر إلى الكون

نظر المنهج الإسلامى إلى الكون نظرة منطقية واقعية ، فجعله مصدر الثقافة ، ذلك شىء يقرره الواقع نفسه ، فأبصارنا وأسماعنا تقع على هذا الكون ، ولا تقع على غيره ، تقع على الكون بكائناته المختلفة من جماد ونبات وحيوان وإنسان ، وتصاحبه فى تطوراته فى ليله ونهاره وحره وبرده ، فتكتسب منه العلم والتجربة والخبرة ، وتتفاعل معه بما أودع الله فى الإنسان من عقل وسمع وبصر وحس ، مصداقا لقوله تعالى ﴿ واللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾[1] ولما كان الكون مصدر ثقافة الإنسان دعانا الله سبحانه إلى النظر فيه ، والتفكير فى آلائه ، فقال : ﴿ قُلْ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى الأَيَاتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لّاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[2]. والآية تطلب من الإنسان أن ينظر إلى الكون بحاستين : الأولى : الحواس الظاهرة ، والثانية : الحواس الباطنة ، وهى القلب والفكر ، وكما أن الرؤية بالبصر حالة مخصوصة من الانكشاف والجلاء ولها مقدمات ، هى تقّلب الحدقة إلى جهة المرئى طلبا لتحصيل تلك الرؤية ، فكذلك الرؤية بالحواس الباطنة لها حالة مخصوصة من الانكشاف بتقلب الفهم وإعمال العقل. إذا فالنظرة الإسلامية تتكون من شيئين :

الأول : الإدراك الحسى :

ويتناول الرؤية العامة للأشياء ، ومظاهرها ، وتقلباتها ، وخواصها ، وهيكلها ،

---

(١) النحل — ٧٨ .

(٢) يونس — ١٠١ .

وما يؤثر فيها سلبا وإيجابا ، وأبعادها ، ومقاييسها ، وكمها ، وكيفها ، وهذه الأشياء التى تكون مقدمة لتفكر واستجلاء المكنون منها ، وتكون كالمادة بالنسبة لتكون الأشياء وإنشائها ، نلحظ هذا فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (١). وفى أمثال قوله تعالى : ﴿ وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢)﴾ فمشاهدة هذه الأشياء وملاحظتها تكون مادة لإعمال العقل واستجلاء ما وراء المشاهدة من أسرار .

الثانى : الإدراك العقلى :

وهو الإدراك الباطنى والفكرى ، وله خواص فى استجلاء حقائق الأشياء ، منها : إدراك السببية بين الأشياء ، وتعرف بخاصيةالسببية ، وهى ملكة خطيرة ترى فى الكائنات ارتباط كل كائن بمسبب أحدثه ، وهو ارتباط يدرك بالعقل لا بالحواس الظاهرة : فإذا أبصرت العين العادية شيئا ماله طول وعرض ولون وخواص معينة ، لم تقف عند هذا الحد ، وإنما تتعداه إلى دراسته ومعرفة مكوناته وكيفيته ، وظهور هذه المكونات إلى دنيا الواقع وما هى القوى التى وراء هذه الأشياء ، فحين يرى الإنسان بيتا جميلا وحديقة غَنَّاء يؤخذ بهذا الجمال الرائع والمنظر الساحر ، ثم لا يلبث أن يلاحظ دقة الصنع وهندسة البناء وروعة التنسيق ، ويتدرج من هذا إلى مقدرة المهندس وبراعة العامل الذى أخرجه .

فنجد أن العين شاهدت ، ثم أسلمت ذلك إلى العقل ، الذى أدرك سبب تلك البراعة ، ومصدر هذا الجمال ، وهو المهندس والعامل الذى أنشأ هذا العمل وكان مصدرا لهذا الإتقان . إذن هذه الظاهرة ارتبطت بمسبب لها ، وهذا الارتباط علامة عقلية ، موجودة فى الأشياء تلحظ بالعقل وتدرك بالفكر ، مؤداها الضرورى البديهى أن الأشياء آثار أحدثها محدث ، ولم توجد نفسها من العدم . وهذا معيار فطرى من معايير العقل التى يدرك بها حقائق الأشياء فى الكون ، وليس كما يقول

(١) الرعد — ٢ .
(٢) الرعد — ٤ .

الماديون الحسيون مجرد وضع اكتسبه العقل من التجربة ، فإن الطفل الذى يسأل أباه من حفر البحر ، أو من خلق القمر والشمس ، لا تجربة عنده ، ومع هذا يدرك السببية ويسأل عنها ، ويتوافق إحساسه مع فكر المفكرين وتأمل الباحثين فى أن تلك الكائنات لم تخلق نفسها ، أو توجد خواصها وقوانينها ، ولم يكن لها فى ذلك إرادة فاعلة أو علم مسبق ، ولهذا بدا الكون ولا معنى له فى نظر الإنسان السوى إلا أنه صنع صانع وفعل حكيم ، وقد قادنا القرآن إلى درس عملى مع إبراهيم عليه السلام وقومه ، وكان ميدان هذا الدرس هو الكون بما فيه من نجومه وأقماره وشموسه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾[1].

وخلص إبراهيم عليه السلام من الدرس بأن هذه العوالم لا تملك من أمرها شيئا ، فضلا عن أن تملكه لغيرها ، وأن لها خالقا مدبرا فاطرا ، يجب أن يوجه الناس وجوههم إليه ، وقد فعل هو ذلك ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَـٰوٰتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[2] وكثيرا ما نرى الآيات تغوص بنا فى أعماق الخلق ؛ لتوضح السببية فى الأشياء ، فتقول : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾[3]. إن رؤية الكائنات متداولة بين الإيجاب والعدم ، وبين المحو والإعادة ، هى عين سلبيتها وافتقارها إلى موجد ، وهذا الموجد يجب أن يكون فى جلاله وقدرته أعظم من الموجود ، وفى هذا التساؤل وحول هذه المعانى يحدثنا القرآن ، فيقول : ﴿ أَمَّن خَلَقَ السَّمَـٰوٰتِ وَالأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ لَكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ .. مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[4].

ويوضح القرآن أمر السببية ، وينزل بها إلى الحياة المعيشية ، والمخالطة اليومية ،

---

(١) الأنعام — ٧٥ .
(٢) الأنعام — ٧٩ .
(٣) العنكبوت ١٩ .
(٤) النمل — ٦٠ .

فيقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ .... أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ، أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوه مِن الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ؟ .... أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ، أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ؟ ﴾ (١). ويطلق القرآن بعد ذلك سؤالا ليس له إلا إجابة واحدة فقط ، تقطع المعاذير ، وتقيم الحجة على الغافلين ، فيقول ، ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ (٢)﴾ . إذن فالآية الكريمة تضع الجاحدين بين خيارين ليسألوا أنفسهم ، أخلقوا من غير شىء أبدا ، وهذا مستحيل عقلا وواقعاً ومشاهدة ، أم هم خلقوا أنفسهم ، وخلقوا السموات والأرض والعوالم ، وجلبوا الأرزاق والأقوات ، وسيروا الكواكب والأجرام ، وأنزلوا الماء ، وجلبوا الثماء ، لم يثبت ذلك لأحد من البشر أبدا ، ولم يدعيه للآن أو قال أو يقول به مخلوق ، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التى يقررها القرآن ، وهى أنهم جميعا من خلق الله تعالى .

الحقائق المستفادة من هذه النظرة :

الحقيقة الأولى : أن الأشياء حلقت لغاية وحكمة ، ولم تأت باطلا أو عبثا .

الحقيقة الثانية : هذه العوالم وهذا الخلق : متقن الصنع ، متناسق المعالم ، مكتمل الأجزاء ، وثيق البنية .

الحقيقة الثالثة : هذه المخلوقات خير نافع محمود الأثر فى كل حال .

أما أن الأشياء خلقت لغاية وحكمة ، ولم تأت باطلا وعبثا ، وهذا ماتقتضيه الحكمة الإلهية من خلق الأشياء ؛ فلأن الله خلقها لنا لنفعنا ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَافِى الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ ، وخلقها على درجة من الإتقان والإحكام تفوق كل حصر . وصدق الله ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ وقد أشار القرآن إلى ذلك فى كثير

---

(١) الواقعة ٦٣ ـــ ٧٢ .

(٢) الطور ـــ ٣٥ .

من آياته ، فقال :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ثم مدح القرآن أولى الألباب ؛ لأنهم عرفوا أن الله خلق السموات والأرض والعوالم لحكمة وغاية ، فقالوا ﴿ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ :
قال الفخر الرازى[1] إن كل مايفعله الله تعالى فهو إنما يفعله لغرض الإحسان إلى العبيد ، ولأجل الحكمة ، والمراد منها رعاية مصالح العباد ، ولو لم يخلق السموات والأرض لحكمة لكان خلقها باطلا ، وذلك ضد الآية وضد حكمته سبحانه[2]. وقد وضح القرآن هذا المعنى فى آيات أخرى ، منها : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِين[3] ﴾ ، وقال فى آية أخرى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا[4] ﴾ ثم قال ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأنكم إلينا لاترجعون ، فتعالى الله الملك الحق[5] ﴾ ، أى فتعالى الملك الحق عن أن يكون فعله عبثا ، وإذا امتنع أن يكون عبثا فبأن يمتنع كونه باطلا أولى .وهذه الآيات تدل دلالة واضحة على أن أفعال الحق سبحانه وتعالى منزهة عن الوصف بالعبث واللعب والبطلان ، وإنما خلقت لغاية وحكمة نافعة للإنسان ، هادية له إلى جلال الحق وحكمته سبحانه وتعالى ، وهذه قضية عقلية يشهد العقل بصحتها ، كما يشهد باستحالة العبث والباطل فى أفعاله سبحانه .

٢ــ وأما عن إتقان الخلق ، وتناسق الصنع ، وكونه واضح المعالم ، مكتمل الأجزاء ، وثيق البنية ؛ فلأنها ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شيء ﴾[6].قال البيضاوى : أى أحكمه وسواه على ماينبغى . وقال الشوكانى [7] . أتقن كل شيء : أحكمه .

---

(١) هو محمد بن عمر الحسن بن الحسين أبو عبد الله فخر الدين ، أصله من طبرستان ، ومولده فى الرى ، ويقال له ابن خطيب الرى ، له مؤلفات كثيرة ، من أشهرها مفاتيح الغيب فى التفسير ، وله كتاب المحصول فى علم الأصول . وتوفى سنة ٦٠٦ هـ فى هراه .

(٢) انظر تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص ١٣٩ ط طهران ، وفتح القدير شوكانى جـ ١ ص ٤١١ .

(٣) الأنبياء ــ ١٦ الدخان ٣٨ .

(٤) ص ــ ٢٧

(٥) المؤمنون ــ ١١٥ ــ ١١٦ .

(٦) النمل ــ ٨٨ . انظر تفسير البيضاوى فى الآية .

(٧) هو محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى ثم الصنعانى ، ولد سنة ١١٧٣ هـ فى بلده هجرة شوكان ، =

يقال : رجل تقن : أى حاذق بالأشياء ، فالله سبحانه وتعالى صنع ماصنع مع إتقان كلى شيء .[1]

ويظهر الإتقان فى خصائص أربع : —

أ — تمام النظام .

ب — دقة التقدير .

ج — شدة الإحكام

د — إهتداء كل شيء إلى وجهته .

أ — أما النظام : فإنه يبدو للمتأمل ، ويظهر للناظر فى نظام ذلك الكون العجيب ، فى أرضه وسمائه ، فى هوائه ومائه ، فى زرعه وضرعه ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم[2] ﴾ فقدر لطعام الإنسان أن يمر بمراحل معينة من التجهيز والإعداد والتقدير والتنويع ، حتى يستطيع الإنسان أن يستوفى احتياجات جسده ، ويأخذ من كل بقدر معين ، ونأتى إلى السماء فنجدها بناء محكما مزينا منسقا . وصدق الله ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل ؛ لتعلموا عدد السنين والحساب[3] ﴾ ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾[4] .

= وتوفى سنة ١٢٥٠ هـ ، تفقه على مذهب الإمام زيد ، وبرع فيه ، وطلب الحديث وفاق فيه أهل زمانه ، له مؤلفات منه : فتح القدير فى التفسير ، ونيل الأوطار فى الحديث ، له مؤلفات كثيرة منها المطبوع وغير المطبوع رحمه الله رحمة واسعة

(١) فتح القدير جـ ٢ ١٥٥ ط دار المعرفه .

(٢) عبس — ٢٤ — ٣٢ .

(٣) يونس — ٥ .

(٤) يس ٣٧ — ٣٩ .

لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار . وكل فى فلك يسبحون [١] ﴾

وإذا أردنا أن ننظر إلى إحكام متناسق بين السماء والأرض وإلى وحدة شاملة متعانقة فلننظر إلى قوله تعالى :﴿ إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون [٢] ﴾ نجد فى الآية الكريمة نظاما فريدا ، يجمع بين دوران الأفلاك وجريان الفلك ، ونزول الماء ووجود النماء ، وبين تصريف الرياح وتسيير الدواب ، وتسخير كل هذا النظام فريدا عجيبا يؤدى دورا فى الحياة فى إحكام وطاعة وانقياد .

ب ـــ وأما عن دقة التقدير ؛ فقد جاء القرآن بذلك ، ولفت إليه فى كثير من آياته ، حتى يتنبه الإنسان لهذا الإبداع وذلك التقدير الفائق الذى عليه تقوم الحياة ، وليس للصدفة أو العفوية ـــ كما يقول بعض الناس ـــ دخل فى هذا الترتيب والتنظيم المتقن نقرأ قول الحق سبحانه ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون[٣] ﴾ .

ولننظر إلى قوله تعالى ﴿ موزون ﴾ ، ونتخيل هذه الدقة فى ترتيب الأمور ، وكأننا نرى مثاقيل الذر وهى توزن لتنسجم مع هذا النظام السارى فى الحياة ، وصدق الله ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرا [٤]﴾ ، أى قدره بدرجة محكمة تامة دقيقة ، فجعل لكل كائن ما هو ضرورى لكيانه من الخلايا والذرات والعناصربقدر معين ونسق معين ونظام مقدر، بحيث إذا اختلفت النسبة فسد الشىء ، فلا يكون الهواء هواء ولا الثمار ثمارا ولا الإنسان إنسانا ولا الأجناس أجناسا ولا الأنواع مضطردة ،

---

(١) يس ـــ ٣٧ ـــ ٤٠ .

(٢) البقرة ـــ ١٦٤ .

(٣) الحجر ـــ ١٩ .

(٤) الفرقان : ٢ .

ف ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى (١) ﴾ . فكل ميسر لما خلق له ، فلا الأسد يلد جملا ، ولا الثور يلد فيلا ، ولا الحمار يلد إنسانا ، ولا الشاة تلد كلبا ، ولا التفاح يخرج برتقالا ، ولا الزيتون يخرج تمرا ، وإنما يكون كما قدر الله وأراد . وصدق الله ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدرا (٢) ﴾ ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال (٣) ﴾ .

جـ ،د أما الإحكام ودقة الإحكام ؛ فهذا واضح فى صفحة الكون ، وفى شبكة النواميس المبثوثة فى الكون ، كيف تسير ، وكيف تعمل بنظام عجيب بغير فساد أو فوضى ، وبغير عصيان أو تمرد ، ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين (٤) ﴾ .

ومن الإحكام ودقته اهتداء كل نسمة وكل خلية إلى وجهتها الخاصة بها ، فخلايا الجسم كلها خلايا ، ولكن هناك خلية للعين ، وخلية لليد ، وخلية للأذن ، وخلية للرجل . وتذهب كل خلية إلى موضعها المراد لها ، فلا خلية العين تذهب إلى الرجل ، ولا خلية الأذن تذهب إلى العين ، ولكن كل يذهب إلى موطنه وموضعه ، على ماقال سبحانه ﴿ ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾(٥) فدودة القز تخرج الحرير ، وتتجه النحلة إلى إخراج العسل فى العرش فى الجبال ، ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾(٦) وهكذا صنع الله فى كل شيء وفى كل زمان .

وأما أن هذه المخلوقات خير كلها ومحمودة الأثر ومنزهة عن العبث ؛ فهذا يشهد له العقل والواقع ، لأن العقول التى سلمت بحكمة الصانع وعلمه ورحمته تعلم أن الخير والإحسان فى حكم الحكيم وفعل العليم ، وإن كان يخيل للإنسان فى بعض

---

(١) الأعلى ١ ــ ٣ .
(٢) الطلاق ــ ٣ .
(٣) الرعد ــ ٨ .
(٤) فصلت ــ ١١ .
(٥) طه ــ ٥٠ .
(٦) النحل / ٦٨

مظاهر الأفعال أنها على غير ذلك ، فعندما يسمع الإنسان الرعد مثلا ، تحدثه نفسه مافائدة هذا الضجيج ، ويظل الإنسان زمنا ينسب ذلك إلى خرافات لا تغنى من الحق شيئا ، ثم يقرأ قول الحق سبحانه ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ [1] ، فيعلم أن كلاً مسبح مطيع خاضع نافع ، ثم يعلم بعد ذلك عن طريق البحث أن الرعد سببا فى إنزال الغيث ، وسبب فى الحياة والنماء ، والجودة ، ثم يمزج كثيرا من الأكسوجين والنتروجين ، ويصل هذا النتروجين المركب إلى الحقول عن طريق المطر ، وتقدر الكمية التى تحصلها الحقول من هذا المركب بسهولة كل سنة مايقرب من خمسة أرطال لكل فدان من الأرض ، وهى تساوى ثلثمائة رطل من نترات الصوديوم ، فتكتسب الأرض قوة وحياة ، وصدق الله ، ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾ [2] وقوله ﴿ وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ﴾ [3] وقوله ﴿ وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ [4]. وإذا نظر الإنسان إلى الحقير من الأشياء ، إذا نظر إلى الكلب مثلا ، ثم يسأل نفسه : ما فائدة هذا الحيوان الذى لايؤكل ولا يلمس ، ويضرب به المثل فى الحقارة ، ﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ [5] ، ولكن بعد تفكير يجد أن هذا الشىء وهذا الحيوان الحقير خلقه الله لفائدة الحراسة والصيد ، وقد اكتشف الإنسان أن له حاسة معينة تستطيع بعد تدريبها أن تكشف عن الجرائم ، وتميز بين الروائح والآثار بشكل يدعو إلى العجب والدهشة ، ونجد أن جوانبه الخيرة هذه قد أشير إليها وأشير إليه فى قصة أصحاب الكهف ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ [6] ؛ ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ﴾ [7] فتعلم أن فى وجود الكلب معهم وجه من الوجوه يجب أن نفطن إليه . ويشير إلى هذا النفع فى جميع خلق الله كذلك قوله تعالى ﴿ هو الذى خلق

---

(١) الرعد : ١٣ .

(٢) الروم : ٥٠ .

(٣) الروم / ٢٤

(٤) الجاثية : ٥ .

(٥) الأعراف / ١٧٦ .

(٦) الكهف ١٨ .

(٧) الكهف / ٢٢ .

لكم مافى الأرض جميعا ﴾ (١) ، فتشير الآية إلى صلاحية كل خلق الله لنفع الناس فى دينهم ودنياهم : قال الزمخشرى[٢] فى تفسيرها « خلق مافى الأرض جميعا لأجلكم ولانتفاعكم به فى دينكم ودنياكم » .

طبيعة هذا النفع :

وإذا نظرنا إلى طبيعة نفع هذه المخلوقات ، نجد أن نفعها عام لايختص به أحد دون أحد ، فهو إما ظاهر النفع كالشمس ، فإنها ترسل ضوءها لكل إنسان ، تدخل قصور الأغنياء ، كما أنها لاتحتجب عن أكواخ الفقراء ، فهى كالهواء يعطى لكل مستنشق ، ويدخل إلى رئة كل حى ، وكالماء والنار والكلأ ينتفع به الناس وينعمون به .

وإما أن يكون نفعه مستترا فيحتاج إلى إعمال فكر وبحث عقل فيتفتح منه ما أغلق على الكثيرين وهذا النفع عام ليس محصورا ، فلا تختص به أمة دون أمة ولا جيل دون جيل ولا جنس دون جنس .

ثانيا : أن هذا النفع منقاد غير عصى ، فقد خلق الله كل كائن ولم يخلق له القدرة على إمساك نفعه ومنع خيره ، وإنما سخر للإنسان وانقاد ، وقدر فيه قانون تسخيره وما على الإنسان إلا أن يضع يده على مفاتيح هذا التسخير ، وأمامنا الآن الطيران بطائراته وصواريخه ، والفضاء الجوى كله قد أعطى نفعه لكل إنسان ، وخضع ومااستعصى لما أديرت مفاتيح تسخيره ، ويزعم الإنسان أنه سخر الطبيعة ، والطبيعة مسخرة ، ولكنه كان لايعلم قانون ذلك التسخير ، والطبيعة طيعة ، ولكنه كان يجهل هذه القيادة ، فلما استعمل عقله استطاع أن يركبها وأن يقودها تماما كما يعلم الإنسان كيف يفتح الخزينة ، ويدير فيها مفتاحها ، أيزعم بعد ذلك أنه هو صانعها ومخترع تلك الأقفال أم أن هناك صانعا آخر غيره جعل لفتحها قانونا معينا من عرفه

---

(١) البقرة : ٢٩ .
(٢) الزمخشرى فى الآية

استطاع أن يأخذ خيره ، وصدق الله ﴿ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾[1] ﴿ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه ﴾[2]، ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها ﴾ .[3]

﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ﴾ [4].

﴿ والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .[5]

﴿ أو لم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ﴾[6].

ثم قال الله للنحل :

﴿ ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ﴾ [7].

وبعد ، فإن هذا المنهج القرآنى وهذه الفطرة الإسلامية للعوالم وللخلق تدعو إلى الالتفات والدهشة ، وتضع الإنسان أمام لوحة دراسية كبيرة ، تحفز فكره ، وتنبه عقله ، وتجيش مداركه ، ليكشف هذه المغاليق ، وليستفيد من هذه المخلوقات التى جعلها الله نعمة له ، ولا يقف أمام المجهول وقوف العاجز الحائر ، لكنه يقف أمامها بمصباح فكره ونور بصيرته ، غير هياب ولا وجل ،وكلما كشف سرا ووجد قانونا واهتدى إلى سبب وفطن إلى علة هتف من أعماقه ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[8] ، وتذكر قول ربه ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ .[9]

---

(١) يس — ٧٢ .
(٢) الجاثية ١٣ .
(٣) الملك — ١٥ .
(٤) إبراهيم — ٣٣ .
(٥) البقرة ١٦٤ .
(٦) النحل — ٧٩ .
(٧) النحل — ٦٩ .
(٨) المؤمنون ١٤ .
(٩) فصلت ٥٣ .

التصور الإسلامى لخلق الحيوان :

إن تصور الإسلام لخلق الإنسان والحيوان ، وتسويته وإبداعه ، تصور ربانى بخصائص إلهية ، تصور إعتقادى موحى به من الله سبحانه وتعالى ، محصور فى هذا المصدر لايستمد من تصور غيره ، وهذا يميزه عن التصورات البشرية والفلسفية التى ينشئها الفكر البشرى حول الحقيقة الإلهية ، أو الحقيقة الكونية ، أو الحقيقة الإنسانية ، ويميزه كذلك عن المعتقدات التى تنشئها المشاعر والأخيلة والأوهام والتصورات البشرية .

لقد بذل الجنس البشرى جهدا كبيرا لكى يعرف نفسه . ولكن بالرغم من أنه يملك كنزا من الملاحظة التى كدسها ، والركام الجبار المجمع من نتاج عقله من فلسفة وشعر وبحوث روحانية فى جميع الأزمان ، نجده لايعرف من نفسه إلا جوانب سطحية فقط ؛ لأن كل واحد من البشر مكون من مواكب من الأشباح ، يسير فى وسطها حقائق مجهولة ، تغلف بظلام كثيف . وفطرة الإنسان قد كدرت بأهواء شتى فى عصور متلاحقة ، فأصبح كشفها للحقائق يخيم عليه قتامات المذاهب والآراء المتباينة ، وجنح كثير من العلماء إلى التعصب المادى ؛ ليواروا به كثيرا من عوراتهم ، وكلما ألحت عليهم فطرتهم بالتوجه نحو الحقيقة جذبهم ذلك التعصب إلى الهاوية ـــ يقول السيد جيمس جينز [1] ـــ فى كتابه « عالم الأسرار » ، « إن فى عقولنا الجديدة تعصبا يرجع التفسير المادى للحقائق » « ويذكر شمامبرز » فى كتابه (الشهادة) حادثا كان من الممكن إن يصبح نقطة تحول فى حياته ، ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفتت أذناها نظره ، فأخذ يفكر فى أنه من المستحيل أن يوجد شىء معقد دقيق ، كهذه الأذن ، بمحض اتفاق ، بل لابد أنه وجد نتيجة إرادة مدبرة ، لكن (شامبرز) طرد هذه الوساوس عن قلبه ، حتى لايضطر أن يؤمن ـــ منطقيا ـــ بالذات التى أرادت فدبرت ، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة . ويقول الدكتور (تامس ديودباركس) بعد أن يذكر هذا

(١) السير جيمس جينز عالم بريطانيا العظيم ، يعتبر ولاشك أعظم علماء العصر الحديث فى الفلك ، الأستاذ بجامعة كمبردج .

الحادث « إننى أعرف عددا كبيرا من أساتذتى فى الجامعة ، ومن رفقائى العلماء الذين تعرضوا مرارا لمثل هذه المشاعر ، وهم يقومون بعمليات كيماوية وطبيعية فى المعامل[1]. وكتب السير آرثر كيث : يقول : إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ، ونحن لانؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخالق المباشر « وهذا مالا يمكن حتى أن أفكر فيه » [2].

ونظرية الإسلام فى خلق الإنسان تصور ربانى يدعو إلى البحث والتدبر فى الأشياء ، لتستقر الأفهام والعقول ، وتتفق مع الفطرة فى معرفة الحقيقة ، وتؤمن بتلك المسلمات الربانية التى أشفت غليل الإنسان ، وأراحته من عناء طويل ، وفرغته لمهمته فى الأرض ، فالإنسان أصل بذاته خلق من الأرض ، ليدرج عليها ويعمرها ، تولى الله خلقه وتصويره وتعليمه وتوجيهه ، ووهبه ما به يستمر فى هذه الحياة ويميز فيها الخبيث من الطيب ، وتسير مع هذه الخطوط العريضة التى رسمت للإنسان طريق الوجود .

خلق الإنسان :

يحدثنا القرآن الكريم فى كثير من الآيات عن خلق الإنسان ، ويذكر مراحل هذا الخلق ومادته — وهى الماء والتراب ، والطين المكون منها ، فتارة يلقى الضوء على كل عنصر على حدة ، وتارة يجمع بينهما ، فيتكلم أولا : على أصل الكائنات الحية وهى الماء فيقول سبحانه .

﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حى[3] ﴾ ويقول ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾[4] ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ﴾ [5]، ﴿ ثم جعل

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم .

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم

(٣) الأنبياء — ٣٠ .

(٤) النور : ٤٥ .

(٥) الفرقان — ٥٤ .

نسله من سلالة من ماء مهين ﴾[1] ثم ألقى القرآن الضوء على العنصر الثانى : وهو التراب فقال ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ﴾[2] ، ﴿ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾[3] ، ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾[4] .

ثم على العنصرين بعد خلطهما ، فقال ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾[5] ، ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾[6] .

فهذا هو الطور الأول للإنسان ، والإنسان هو الطور الأخير ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة ؛ ليتخذها مجالا للتدبر فى صنع الله ، ولنتأمل تلك النقلة البعيدة بين الطين والتراب والماء وهذا الإنسان ، والقرآن بعد هذا لا يتعرض لتفصيل هذا التسلسل إلا بالقدر الذى يوضح مخلوقيته لله ، لحكمة معينة ، أما نظرية النشوء والارتقاء فتحاول إثبات سلم معين للنشوء والارتقاء ؛ لوصول حلقات السلسلة بين الطين والإنسان ، وهى تخطىء وتصيب فى هذه المحاولة . والفرق كبير بين الحقيقة القرآنية الواضحة وبين التخرص العلمى الذى ليس عليه دليل . والقرآن يعبر عن هذه الحقيقة باختصار فيقول ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ .[7]

أما كيفية تسلسل الإنسان من الطين فمسكوت عنه كما قلنا .

ومفرق الطريق بين نظرة القرآن إلى الإنسان ونظرة النظريات الأخرى أن القرآن يكرم الإنسان ، ويقرر أن فيه نفخة من روح الله ، وهى التى جعلت من سلالة الطين إنسانا ، ومنحته تلك الخصائص التى بها صار إنسانا ، وافترق بها عن الحيوان ، وأن الله تعالى تولى تسويته وتعديله وخلقه وتقويمه وتعليمه . ﴿ فإذا سويته

---

(١) السجدة ــ ٨ .
(٢) غافر ــ ٦٧ .
(٣) آل عمران ــ ٥٩ .
(٤) الروم ــ ٢٠ .
(٥) المؤمنون ــ ١٢ .
(٦) الرحمن ــ ١٤ .
(٧) السجدة ــ ٧

ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين[1]﴾ ، فدل ذلك على أن الإنسان كان جنسا وأصلا بنفسه ، وأن الله منحه تلك الخصائص التى صار بها إنسانا ، وهنا تفترق النظرة الإسلامية افتراقا كليا عن نظرة الماديين .

ولكن هل آدم أول البشر أم كان هناك آدم قبل آدم ؟ .

يقول الأستاذ النجار فى كتابه قصص الأنبياء « إن العقل لا يجعل من المحال أن يكون الله خلق آدم غير آدم الذى نعرفه أبا للبشر ، ولكن الله تعالى لم يذكر سوى آدم الذى نعرفه أبا البشر ، فالقول بوجود غيره مجازفة بلا برهان » ثم يقول : وهناك فريق من الناس يرجح أنه ليس أول نوعه ، ويستأنسون لذلك بقول الملائكة « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، ويقولوا : إن الملائكة لم يقولوا ذلك إلا لرؤيتهم من تقدموا آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا ذلك ، وأن آدم إنما كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا ، ويعززون أقوالهم بما يراه علماء الجيولوجيا من وجود بقايا عظام لآدميين تخالف عظام الآدمين الموجودين الآن ، ويرجع تاريخ وجود ها إلى أزمان كثيرة تعد بعشرات الآف ومئات الآلاف من السنين[2].

وحين نرجع إلى الأقوال المأثورة وآراء المفسرين فيما يدعيه بعض القائلين بأن الملائكة يستشهدون بآدم آخر كان قبل آدم عليه السلام ، أخذا من قولهم « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » فنرى الشوكانى فى تفسيره فتح القدير يروى لنا جملة من الآثار تدل على أن الأرض كانت مأهولة قبل بنى آدم بالجان ، ففسدوا فيها ، فقاس الملائكة الخلق الآخر على الخلق الأول. « أخرج الحاكم وصححه ، عن ابن عباس قال : كان فى الأرض قبل خلق آدم الجان فأفسدوا فى الأرض وسفكوا الدماء ، فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله عليهم جنداً من الملائكة ، فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور ، فلما قال الله ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ ، كما فعل أولئك الجان » وأخرج أبو حاتم عن ابن

---

(١) الحجر / ٢٩ ، ص / ٧٢

(٢) قصص الأنبياء للنجار — ص ١١ ، ١٢ وهو المرحوم عبد الوهاب النجار مدرس التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين ، وناظر مدرسة عثمان ماهر باشا

عمر مثله ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله ، وأخرج ابن جرير وابن عساكر ـــ عن ابن مسعود قريبا منه »[1] وذكر ذلك القرطبي[2] وروى عن عبد الرازق عن معمر عن قتادة فى الآية رأيا آخر قال : أعلمهم الله أنه إذا وجد فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، فلذلك قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها . وفى الكلام حذف على مذهبه . والمعنى إنى جاعل فى الأرض خليفة يفعل كذا وكذا ، فقالوا : أتجعل فيها الذى أعلمتنا إياه ، أم غيره [3] « والذى يظهر لنا بعد . هذا من الأدلة أن آدم عليه السلام هو أبو البشر ، وأنه أول خلق الله من البشر ، وأن الذين يستدلون على أن هناك آدم قبل آدم الذى ذكر فى القرآن ليس لهم دليل معتبر فى هذا المجال ، ثم من الذى قدر لهم عمر آدم حتى يستقصرون عمره بالنسبة لعمر البشرية على وجه الأرض ؟ أوجدوا شهادة ميلاد موثقة فى ذلك ، أم وجدوا قبر آدم عليه السلام ، ثم لم لا يكون آدم عليه السلام هو آدم الأول الذى يدعون ,وَلِمَ ذكر الله آدم الثانى ولم يذكر آدم الأول . وأما عن الكشوف التى يتعللون بها يقولون : إنها تختلف عن أوصاف البشر الحاليين ، لم يسلم لجميع الباحثين بذلك ، ثم ماهى تلك الكشوف ؟ هى جماجم ناقصة متحجرة أكملوها بتخيلاتهم ، وقالوا : إن جبهة الإنسان القديم أبرز قليلا من الجبهة الحالية ، وهل هذا فرق يدل على اختلاف النوع . إنه موجود الآن بين الأجناس المختلفة ، بل بين الجنس الواحد ، بل بين الأسرة الواحدة فى بعض الأحيان ، ثم لماذا لا يكون هذا البروز والنتوء فى الحواجب والجبهة أتى من تغير الزمان ، وتقلص الأجسام ، بفعل عوامل التعرية ، وهم يقولون : إن الجبال نتجت من برودة قشرة الأرض وتصلبها ، أيقرون تصلبا فى الجبال ونتوءات تبلغ آلاف الأمتار ولا يقرون نتوء مليمتر واحد فى جبهة من ملايين السنين ، وأما عن استدلالهم بالآية وبقول الملائكة ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن

---

(١) فتح القدير للشوكانى ١ / ٦٣ ط : دار المعرفة .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن نوح الأنصارى الخزرجى ، كان مقره مية بن خصيب محافظة المنيا بمصر ، توفى ودفن بها سنة ٦٧١ ، له كتاب جامع أحكام القرآن فى تفسير القرآن ، كان مالكى المذهب .

(٣) تفسير القرطبى ١ / ٢٣٥ ط دار الكتب المصرية ، الفخر الرازى ٢ /١٧٠ .

نسبح بحمدك ﴾[1]؛ فقد أتينا فيه بأقوال المفسرين وبما أثر عن الصحابة ، وليس فيه شيء يشهد بوجود بشر قبل آدم عليه السلام ، ثم على فرض أن هناك بشرا قبل آدم عليه السلام وكان لهم تجربة سيئة وفساد ، كيف والقرآن لم يذكر لنا شيئا عن ذلك ، ونحن بشر وهم بشر ، وقد قص الله علينا أخبار ما هو أبعد منهم قص علينا أخبار الملائكة ، وصفاتهم ، وقص علينا أخبار خلق السموات والأرض ، وتهيئتها للمعاش ، وخلق الحيوان ، فقال سبحانه ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون[2] ﴾ ، ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون[3] ﴾ ، ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون[4] ﴾ فأعطانا القرآن تصورا عن كل خلق ، وعن بدء كل خلق ، وبدء كل حياة ، والإنسان لايخرج عن هذا النطاق ، فأخبرنا الله ببدء خلقه ، وقص علينا قصته فلا نذهب بعيدا بغير دليل مع الأهواء والفروض ، وندع الحق من ربنا سبحانه .

شمول التصور الإسلامى للكون

يقوم التصور الإسلامى للكون على أساس أن الوجود كله من خلق الله تعالى ، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان ، وأودعه الله سبحانه قوانينه التى يتحرك بها ، والتى تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها كما تتناسق بها حركته الكلية سواء ؛ لأن وراء هذا الكون مشيئة تدبره ، وقدرا يحركه ، وناموسا ينسقه . وهذا الناموس ينسق بين مفردات هذا الوجود كلها ، وينظم حركتها جميعا ، فلا تصطدم ولا تختل ، ولا تتعارض . ولهذا أشعل الإسلام أحاسيس المسلم تجاه الكون وتجاه العوالم ، وأضاء فكره ، لينظر إلى الوجود نظرة شمول وعموم ، فقال سبحانه ﴿ فلينظر الإنسان إلى

---

(١) البقرة / ٣٠
(٢) يس — ٧١ .
(٣) النحل — ٥ .
(٤) يس — ٣٦ .

طعامه أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنباً وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ؛ متاعا لكم ولأنعامكم[1] ﴾ ثم بعد أن لفته إلى طعامه لفته إلى نفسه ، فقال : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر[2] ﴾ . ثم بعد ذلك لفتهُ إلى السماء ، وإلى الإبل ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾[3] وبعد هذه الجولة من النظر فى النفس والعوالم ، وتفحص هذه الجوانب ، ليرى مدى الصلة بينه وبينها ، وعمق الروابط فى قانونها المشترك المرتبط بالخالقية الموجهة والمحركة لهذه الحياة كلها بما فيها ومن فيها . ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ! بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا . أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ! قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، أإله مع الله ! تعالى الله عما يشركون .أمن يبدؤاْالخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين[4] ﴾ .

لوحة متكاملة متناسقة ، ليس بينها فصام ولا تنافر ، وإنما هى جسد واحد ، تدل على نظام واحد ،وإحكام واحد ، وخالق واحد ، تصل الإنسان بما حوله . فإذا أجال بصره ، وسرح طرفه ؛ رجع إليه بما يتجاذب مع فطرته ، ويتوافق مع طبيعته ،

---

(١) عبس ــ ٢٤ ــ ٣٢ .
(٢)الطارق ٥ ــ ٨ .
(٣) الغاشية ١٧ ــ ٢٢ .
(٤) النمل ــ ٦٠ ــ ٦٤ .

ويرضى أمله ، ويشبع نهمه . ويرى الأرض ساجدة ، والسماء مسبحة ، والجبال مؤوبة ، والطيور محمدة . ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده[1] ﴾ ، ﴿ ويسبح الرعد بحمده[2] ﴾، ﴿ يا جبال أوبي معه والطير وألنا لهُ الحديدَ[3] ﴾ يرى الحياة تعانق الحياة ، ويرى الماء يسرى فى الزروع والثمار ، ويجرى فى الأنهار والأجساد ، وينساب فى الجداول والأزهار . ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حى[4] ﴾ يرى ألوان الأزهار تتشابه بألوان الإنسان ، وتتماثل مع أصباغ الجبال والوهاد . ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك[5] ﴾ ، ﴿ وماذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه . إن فى ذلك لأية لقوم يذَّكَّرون ﴾[6]. يحس إخاء العوالم له ، وحنوها عليه ، ومعانقتها له ، فالسحاب يجرى ، والماء ينزل ، والنبات يترعرع ، والثمار تطيب ، والفواكه تجنى مسخرة لإسعاده . ﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفاً أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين[7] ﴾ ، وينظر إلى الأنعام تذلل وتركب ، وتطيب لحما ولبنا ، وتعطى غذاء ودفئا ، فيراها مسلمة النفع عظيمة الخير ، لا تمنع شيئا أو تدخر ، ولا تعصى أمرا أو تتمرد ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون[8] ﴾ .

---

(١) الإسراء — ٤٤ .
(٢) الرعد — ١٣ .
(٣) سبأ — ١٠ .
(٤) الأنبياء — ٣٠ .
(٥) فاطر ٢٧ .
(٦) النحل ١٣ .
(٧) الأنعام : ١٤١ .
(٨) النحل : ٦ .

﴿ أولم يروا أناخلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون[1] ﴾ . ويشاهد البحار مسخرة فتحمل الفلك ، وتتبختر فيها الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام ويزرع فيها اللحم الطرى والغذاء الشهى ويستخرج منها الحلية البهية ، والزينة الشجية ، ولتكون مياهها بردا بالنهار ، ودفئا بالليل ، ومصدراً للخير ، وراحة للنفس وصدق الله ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون[2] ﴾ .

فترى القرآن يهز المسلم من أعماقه ليحرك فكره وحسه وقدراته ؛ ليفهم ما حوله ، ويتعرف على ما يحيط به ، فلا يسير مكبا على وجهه ، ولا منكسا على رأسه ، ولا متمردا على فطرته ممزقا لها ، بل هو صاحب قلب بصير وفكر ذكى ، يخالف بذلك غيره ممن أغلقوا نوافذ الإحساس بالعوالم ، وأوصدوا أبواب الشعور بالأكوان ، أخذوا وتمردوا وأعطوا وعموا ونودوا فصموا .

وصدق الله العظيم ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون[3] ﴾ ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾[4].

---

(١) يس : ٧١ : ٧٣ .
(٢) النحل : ١٤ .
(٣) النحل : ٢٢ .
(٤) الأعراف : ١٧٩ .

المبحث الثالث
التصور الإسلامى للإنسان

ينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة واقعية بديهية فطرية ، ومع أنها كذلك إلا أنها فريدة التصور ، غابت عن كل التصورات الحضارية السابقة ، شاملة الجوانب ، عميقة الجذور ، فينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه جسم وعقل وروح ، يعترف بخصائص كل ، ونوازع كل ، ويقدر مطالبه ، ويستجيب إليه استجابة صريحة مباشرة ، لا مواربة فيها ، ولا إنكار ، فأما الجسم : فهو وشائج اللحم والدم ، وهو النوازع الفطرية ، وهو الشهوة الجامحة التى لا تهدأ ولا تكف ، وهو المطالبة بحفظ الحياة على الأرض ، بالمحافظة أولا على ذاته ، والمحافظة بعد ذلك على النوع ، ولكل وسائله من طعام ، وشراب ، ومتاع ، وحب لذلك ، وسعى فى طلبه ، وكد فى تحصيله ، وحرص عليه ، وكساء ، ومساكن ، ورياش ، ومتاع ، وأما عن الشهوة : فوسيلتها النسل والإكثار وحفظ النوع .

وللحياة قانونها الخاص الذى يجعل نوازع الجسد من العنف والإلحاح بحيث يتعذر أو يستحيل — أحيانا — عدم الاستجابة إليها ، فلا يستطيع الإنسان أن يقاوم الإحساس بالجوع والعطش ، وإذا قاومه أحس أن الحياة تتسرب من بين جنبيه ، ولن يتيسر له أن يحافظ عليها إلا بالاستجابة لقانونها ، والإحساس الجنسى ، لا يحتاج الإنسان فيه إلى التطرف مثل فرويد ، لكى يبين أصالته وعمق جذوره فى النفس البشرية ، وإنما هو واضح بغير هذا التطرف الخارج عن الفطرة والعقل ، وحكمته لذلك واضحة جلية ، لازمة لاستمرار حفظ الجنس والنوع ، وإذا فقد الإحساس الجنسى فقد كل ذلك ، وقد نظم الحق سبحانه هذا الإحساس بالنسبة

إلى الرجل والمرأة فأعطى المرأة منه النصيب الأوفر ، والرغبة الأشد ، لأن نصيبها من تحمل عبئه أكبر من الحمل والولادة والإرضاع ، فكانت رغبتها أقوى ، وشهوتها أشد ، لتقاوم تلك الرغبة وهذه القوة تلك التبعات وهذه المشاق ، وصدق الله العظيم ﴿ زُيِّن للناسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النساءِ والْبنينَ والْقَناطِيرِ المقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ والخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ والأنعامِ والْحَرْثِ . ذلِكَ مَتاعُ الحياةِ الدُّنْيا ﴾ [(١)].

أما العقل : **فمهمته** تبصرة الإنسان ومعاونته فى الحصول على أفضل الطرق لإجابة النوازع الفطرية ، والاختيار بين البديلات ، والتغلب على العقبات التى قد تقف فى سبيله ، والمحافظة على تلك الحياة فى حسن ويسر على أحسن وجه وأوفق حال ، واختيار أفضل الطرق لهناء ذلك الإنسان فى حياته الدنيوية والأخروية ، ﴿ أولئك الذينَ هَدَاهُم اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [(٢)]

أما الروح : — وهى شيء علوى لا طينى ، ترتفع بالإنسان الفاضل ، فيسعد بها وتسعد به ، ومن قديم وروح الإنسان مصدر جدل طويل وشغل شاغل . وقد فَصَّل فى تلك القضية القرآن الكريم ردا على سؤال وجه لرسول الله ﷺ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عنِ الرُّوْحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَما أُوْتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلا ﴾ [(٣)] ونحن لا نحب أن ندخل فى جدل ميتافيزيقى ، وقد حسم القرآن القضية من قديم . وخلاصة القول أن إنكار الروح من المنكرين لايقوم على أساس علمى صحيح ، وإنما هو مجرد تخرُّصات وأوهام تعارض ما يحس به الإنسان ويشعر به شعورا لا يستطيع إنكاره ، لأنه لو أنكره لأنكر حياته ووجوده وشعوره فالروح نفحة عُلوية ولطيفة ربانية ، تتصل بالروح الإلهية والأنوار القدسية ، لأنها نفحة من أسراره القدسية ، أودعها هذا المخلوق البشرى ، وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق ، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشرى المحدود ، والإنسان

---

(١) آل عمران — ١٤ .
(٢) الزمر — ١٨ .
(٣) الإسراء — ٨٥ . .

لايدبر هذا الكون فطاقته ليست شاملة ، إنما وهب منها بقدر محيط ، وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة فى الأرض ، ومهما يبدع الإنسان فى الكون ويكتشف ، لكنه سيقف حسيرا أمام ذلك السر اللطيف ــ وهو الروح ــ لا يدرى ماهو ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يذهب ، ولا أين يكون ، إلا بقبس من التنزيل وبعلم الحكيم الخبير .

النشاط الحيوى للإنسان :

الإسلام يعترف بكل جوانب الإنسان ، ويساير النشاط الحيوى له ، ويوجهه ، حتى لا يطغى على النفس أو على الغير ، والإسلام بهذا يخالف المسيحية التى تبالغ فى فرض القيود على النشاط الحيوى للإنسان ، فتنكر حق مزاولة الفرد لكثير من ألوان النشاط ، بل تنكر عليه مجرد الإحساس والرغبة فيه ، فحين نسمع ما يقول المسيح عليه السلام فيما يردده المسيحيون عنه : « لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون » ، أو يقول : « من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير »[1]، وننظر إلى الإسلام يقول فى كتابه العزيز ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ اللهِ التىٰ أخْرَجَ لِعباده والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْق ، قُلْ هِيَ للذينَ آمنوا فِى الْحَياةِ الدُّنْيَا خالصةً يَوْمَ القيامة[2]﴾ ، ﴿ والْخَيْلَ والْبِغَال والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِيْنَة ﴾[3]، ﴿ يابَنِىْ آدمَ خُذُوا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[4]، ﴿ يا أَيُّها الذيَن آمنوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ ﴾[5]، ﴿ يَسْأَلُونَكَ ماذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لكُمُ الطيِّباتُ ﴾[6]؛ ﴿ كُلوا مِنْ طَيباتِ مارزَقْناكُمْ وَلاتَطْغَوْا فيه ﴾[7]، ﴿ ياأَيُّها الذينَ آمَنُوا لاتُحَرِّموا طَيِّبات ما أحَلَ اللهُ لَكُمْ[8]﴾ . وبهذا

---

(١) انظر كتاب الإنسان بين المادية والإسلام للأستاذ / محمد قطب ص ٨٤ .
(٢) الأعراف ــ ٣٢ .
(٣) النحل ــ ٨ .
(٤) الأعراف ــ ٣١ .
(٥) البقرة ــ ١٧٢ .
(٦) المائدة ــ ٤ .
(٧) طه ــ ٨١ .
(٨) المائدة ــ ٨٧ .

نرى الإسلام صريحا فى الاعتراف بالطبيعة البشرية ، واحترام ميولها ونزعاتها ، ويقرر أنها جزء من طبيعته ، فنرى القرآن يفصِّل ذلك فيقول ﴿ زُيِّنَ للناسِ حُبُّ الشهواتِ مِنَ النساءِ والبَنِينَ والقناطيرِ الْمُقَنْطَرةِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ والخيلِ الْمُسَوَّمَةِ والأنعامِ والْحَرْثِ ﴾ [1]، ويقول ﴿ المالُ والْبَنُونَ زِيْنَةُ الحياةِ الدُّنْيا ﴾ [2].

وهذا شيء على جانب عظيم من الأهمية ، ويلفت النظر لكل باحث ويستوقف كل متأمل ، حيث إن الإسلام يصرف الشهوة والرغبة ويرضيها ، ويتفادى بذلك ما وقع فيه غيره من الكبت والاضطراب النفسى .

أما الكبت :فكما قرر علماء النفس التحليليون — وعلى رأسهم فرويد — : ليس هو الامتناع عن إتيان العمل الغريزى ، الذى تدفع إليه الطاقة الشهوية فى الإنسان ، « وإنما ينشأ الكبت من استقذار العمل الغريزى ، وعدم اعتراف الإنسان فى داخل نفسه بأنه يحق له أن يفكر فى إتيان هذا العمل ، أو يحس الرغبة فى إتيانه ، وذلك إطاعة للذات العليا التى تمثل سلطة الوالد أو الإله ... إلخ ، أى ، طاعة جبرية تحرم على الفرد هذا الإحساس » [3].

فالإسلام لايدع مجالا للكبت أو للعقد ، بل يأخذ الإنسان إلى فطرته ، ويشبع طبيعته بغير تفريط أو إرهاق ، حتى لاينطلق مع شهواته إلى آخر مدى ، فيجنى على روحه ، ويخرج عن إنسيانته وأهدافه العليا ، وحتى لايكون عبدا أسيرا لرغبة جامحة أو نزوة شرور ، تسلمه إلى خواء روحى وعذاب نفسى أخطر وأشد ، وأنكى وأضل .

التصور الحركى للإنسان .

يوجه الإسلام الحركة الإنسانية لتحقيق غايتها فى الحياة ، وتحقيق المقصود منها ، فأما عن تحقيق المقصود منها فما خلق الله هذه الأعضاء وهذه الحواس للإنسان إلا لحكمة يكون فيها إسعاده وعونه وتيسير أمره ، وقد جعلها الله نعما

---

(١) آل عمران — ١٤ .

(٢) الكهف — ٤٦ .

(٣) كتاب الإنسان بين المادية والإسلام للأستاذ محمد قطب ص ٨٦ .

ذكر الإنسان بها ، ومنَّة منَّ بها عليه ، ولا تكون نعم الله وأفضاله هملًا من غير نفع أو غاية وهدف ، يذكر بذلك ربنا سبحانه فيقول : ﴿ واللهُ أَخرَجَكُمْ مِنْ بُطونِ أُمَّهاتِكُمْ لاتَعْلَمُونَ شيئا ، وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدَة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) ، وفرق الله بين الجماد وبين الإنسان النافع بهذه الأعضاء ، وتلك الحواس ، فقال سبحانه فى معرض بيان ذلك ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها ، أَمْ لَهُمْ أذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ﴾ (٢) . إذاً فالحق سبحانه وتعالى خلق نعمه لينتفع بها ، وتؤدى غرض النعمة والمقصود منها ، ويكون ذلك بالعمل والإحسان والنفع . والذين يعطلون نعم الله ولايستفيدون منها قوم آثمون جاحدون مضيعون .

وأما عن تحقيق غايتها فى الحياة :

فقد خلق الله الإنسان لعمارة الأرض : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٣) ، ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الأَرْضِ وإلَيْهِ تُحْشَرُون ﴾ (٤)، ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مايَتَذَكَّرُ فيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النذيرُ ﴾ (٥)، ﴿ ومايُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ولايُنْقَصُ مِنْ عُمُره إلَّا فى كتاب ﴾ (٦)، فكان لابد أن يوجه الإسلام ذلك الإنسان إلى عمارة الأرض ، ولاتكون عمارتها إلا بالجد والعمل والسعى وطلب الرزق ، وجعل الله الدافع على هذا أمران ذكرهما فى كتابه :ـــ

الأمر الأول :فى الأرض .

والأمر الثانى :فى الإنسان .

وقد أجملهما الحق سبحانه وتعالى فى قوله « هُوَ الذىٰ جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ ذَلُولًا ، فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِها ، وَكُلوا مِنْ رِزْقِهِ وإليْهِ النشورُ » (٧)، وهذان الأمران سببان دافعان للإنسان إلى العمل وإلى بذل الجهد .

(١) النحل : ٧٨ .
(٢) الأعراف : ١٩٥ .
(٣) هود : ٦١ .
(٤) الملك : ٢٤ .
(٥) فاطر : ٣٧ .
(٦) فاطر : ١١ .
(٧) الملك : ١٥ .

أما عن الأمر الأول :ـــ

وهو تذليل الأرض للسير فيها بالقدم ، وعلى الدواب ، وبالفلك التى تمخر عباب البحار ، والمذللة للزرع والجنى والحصاد . والمذللة للحياة فيها ، بما تحويه من هواء ، وماء ، وتربة تصلح للزراعة والإنبات ، فالله جعل الأرض ذلولا بألاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة على ظهرها ، منها حجم الأرض ، وحجم الشمس والقمر ، وبعدهما عنها ، ودرجة حرارة الشمس ، وسمك القشرة الأرضية فلو كانت مثلا القشرة الأرضيةأكثر سمكا بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالى لما وجد الأكسوجين الذى بدونه تستحيل الحياة الحيوانية ، ولو أن حجم الأرض كان أقل أو أكثر مما هى عليه الآن ، لاستحالت الحياة فوقها ، فلو أنها كانت في حجم القمر مثلا ، بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلا ، لكانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية ، ونتيجة لذلك لايمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها كما الحال فى القمر ، الذى لايوجد فيه ماء ، ولا يحوطه غلاف هوائى ، لضعف قوة الجاذبية فيه ، كما أنه يترتب عليه اشتداد البرودة ليلا حتى يتجمد كل مافيها ، واشتداد الحرارة نهارا حتى يحترق كل ما عليها ، وعلى العكس من ذلك إذا كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالى يتضاعف جاذبيتها الحالية ، وينكمش غلافها الجوى ويترتب على ذلك أن يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلا إلى ثلاثين من الضغط الجوى ، وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر فى الحياة »[1].

وأما عن الأمر الثانى :

وهو السير فى الأرض الذى وجهنا الحق سبحانه إليه بقوله : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ ؛ فنرى الإسلام يوجهنا إلى الجد والسعى ، فمن مشى أكل ، ومن كان قادرا على المشى ولم يمش كان جديرا ألا يأكل ، فإن الله جعل للحياة قانونا لايخرق لأخرق أو كسول متواكل ، فمن سار على ذلك القانون سار على الإسلام ، فليس فى الإسلام رهبانيـــة ، إنما هو عمـــل روحـــى فى

(١) الإسلام يتحدى ـــ وحيد الدين خان ص ٩٠ ـــ ط دار البحوث العلمية ـــ الكويت ـــ ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين ـــ بتصرف .

الاتصال بالله ، ومادى فى السعى فى الحياة وطلب الحلال وعمارة الأرض ونفع الناس ، ونرى الآثار الإسلامية توضح ذلك ، فيقول القرآن الكريم : ﴿ فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانْتَشِرُوا فى الأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله ﴾[1]، فمن سعى وانتشر فى الأرض مبتغيا رزق الله كان أهلا لأن ينال منه ، ولاتمنعه صلاته واتصاله بالله عن السعى وطلب الرزق بل هو مُقَوٌّ له ودافع وقد روى أن عراك بن مالك ــ رضى الله عنه ــ كان إذا صلى الجمعة وانصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إنى أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك ، وأنت خير الرازقين [2].

وقد روى أن عمر رضى الله عنه ، رأى بعد الصلاة قوما قابعين فى المسجد بدعوى التوكل على الله فعلاهم بدرته ، وقال كلمته المشهورة « لايقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى ، و قد علم أن السماء لاتمطر ذهبا ولافضة ، وأن الله تعالى يقول : ﴿ فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانْتَشِرُوا فى الأرضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله ﴾ . بل جعل الإسلام السعى على المعاش وطلب الحلال بالضرب فى الأرض ، شقيق الجهاد فى سبيل الله ، فقال سبحانه ﴿ وآخَرُون يضْرِبُونَ فى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ الله ، وآخَرُون يُقَاتِلونَ فى سَبِيلِ الله ﴾[3]، وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال « ما من حال يأتينى عليها الموت ــ بعد الجهاد فى سبيل الله ــ أحب إلى من أن يأتينى وأنا ألتمس من فضل الله » ثم تلا هذه الآية ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴾ وإذا نظرنا إلى أحاديث رسول الله ﷺ نجدها توضح هذا وتدعو إليه فى شتى الجوانب ، ولنأخذ مثلا على ذلك فى بعض الجوانب ــ فمثلا فى التجارة والحث عليها يقول ﷺ « التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء » [4].

---

(١) الجمعة : ١٠ .

(٢) رواه ابن أبى هاشم ، وكتب التفاسير فى سورة الجمعة عند تفسير الآية

(٣) المزمل : ٢٠ .

(٤) رواه الترمذى والحاكم بإسناد حسن ــ تحفة الأحوذى ٤ / ٢٩٩ ، والحاكم ٢ / ٦ .

ويقول فى الحث على الزراعة والغرس « مامن مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة » .[1]

ويقول فى الحث على الصناعة والحرف « ماأكَل أحدٌ طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده » [2]، « ومن بات كالًّا مِنْ طلب الحلال باتَ مغفوراً له » [3].

وكان على هذا سلف الأمة يقول الشيخ الشعرانى[4] ــ وهو من دعاة التصوف ــ: « ماأجمل أن يجعل الخياط إبرته مسبحته ، وأن يجعل النجار منشاره مسبحته » فيفضل الصناعة على العبادة مع الكسل ، بل يجعل الصناعة عبادة ، ويفضلها على الانقطاع للعبادة ؛ لأن نفع الصناعة يعود على المسلمين ، ويعف الناس ، ويكون ترجمة لأوامر الله فى الأرض » وسئل إبراهيم النخعى[5] عن التاجر الصدوق : أهو أحب أم المتفرغ للعبادة ؟ ، فقال التاجر الصدوق أحب إلىَّ ، لأنه فى جهاد : يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان ، ومن قبل الأخذ والعطاء فيجاهده .

جاء الإسلام بمفاهيم حضارية قلبت موازين الدنيا المغلوطة ، ورفعت من قيمة العمل والعاملين ، وقد كانت الدنيا آنذاك تعد الحرف والصناعات والعمل مهن دنيئة حقيرة ، يُعَيَّرُ بها صاحبها ، فجاء الإسلام فرفع من قيمة العمل أيا كان نوعه ، وأعلى من شأن العاملين ، وحقَّرَ من شأن البطالة ، وبين أن كسب الإنسان من عمله هو قيمته الحقيقية . روى البخارى عن الزبير بن العوام أن النبى ﷺ ــ قال : لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتى بحزمة حطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه »[6]، وقال ﷺ « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإنَّ نبى الله داود كان يأكل من

---

(١) رواه البخارى فتح البارى ط السلفية ٥ / ٣ .
(٢) رواه البخارى فتح البارى ٤ / ٣٠٣ .
(٣) رواه ابن عساكر عن أنس ورمز له السيوطى فى الجامع الصغير بعلامة الصحة .
(٤) ترجمة الشعرانى .
(٥) ترجمة إبراهيم النخعى .
(٦) رواه البخارى ــ ٤ / ٣٠٤ .

عمل يده »[1] وضرب الرسول ﷺ المثل بنفسه وبالأنبياء ، وأنهم لم يبعثوا عالة على أحد ، فقال ﷺ « مابعث الله نبيا إلا ورعى الغنم ، قالوا : وأنت يارسول الله ؟ قال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة »[2]، وذكر الحاكم من حديث ابن عباس « أن داود كان زرادا يصنع الزرد والدروع ، وكان آدم حراثا ، وكان نوحا نجارا ، وكان إدريس خياطا ، وكان موسى راعيا »[3].

وكان علماء المسلمين وأئمتهم يشتغلون بالحرف والصناعات ، وينفقون منها على أنفسهم ، ويعملون حتى يكونوا مثلا لغيرهم ، مطبقين لهدى الإسلام وتعاليمه ، وكثيرا ما كانوا ينسبون إلى تلك الحرف التي يجيدونها ويشتهرون بها ، ولا نزال نسمع ونقرأ أسماء البزار ، والقفال ، والزجاج ، والخراز ، والجصاص ، والخواص ، والخياط ، والصبان ، والقطان ، وغيرهم من الفقهاء والعلماء الأعلام ، والأفذاذ المتبحرين فى شتى جوانب الثقافة الإسلامية والعربية وغيرها . وكانوا يسافرون فى شتى البقاع ، ويخوضون شتى البحار ، ويقطعون جل الفيافى ، باحثين عن الرزق والخير ، يرددون قول القرآن الكريم ﴿ وَمَنْ يُهاجِرْ فِى سَبِيلِ الله يَجد فى الأَرضِ مُراغَماً كثيراً وَسَعَة ﴾[4] ، وقوله سبحانه « وآخرون يَضْرِبُونَ فى الأَرض يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ الله »[5]، ويسمعون قول الرسول ﷺ « سافروا تستغنوا »[6]. بل نرى أكثر من ذلك وأدعى للعجب والتأمل ، يحضنا الإسلام على السياحة وعلى الهجرة لكل سبب مشروع ، وعمل يسعد الفرد والجماعة الإنسانية . فعن عبد الله بن عمر قال : « توفى رجل بالمدينة ممن وُلدوا فيها ، فصلى عليه رسول الله ﷺ — وقال : ليته مات فى غير مولده ! فقال رجل : ولم يارسول الله ؟ فقال : إنَّ الرَّجُلَ إذا مات غريبا قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة »[7]، وفى رواية وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبر رجل بالمدينة فقال « يَالَهُ لَوْ ماتَ غريبا » .

---

(١) رواه البخارى ٤ / ٣٠٣ — فتح البارى .

(٢) رواه البخارى — فتح البارى ٤ / ٤٤١ .

(٣) رواه الحاكم .

(٤) النساء — ١٠٠ .

(٥) المزمل — ٢٠

(٦) رواه الطبرانى فى الأوسط ورواته ثقات كما قال المنذرى فى الترغيب والترهيب .

(٧) أخرجه أحمد ٢ / ١٧٧ ، والنسائى ٤ / ٨٧ ، وابن ماجه (١٦١٤) وابن حيان ص ١٨٦ .

وقد انطلق المسلمون الأولون فى فجاج الأرض ، ينشرون الفضل ، ويسعدون الناس ، ويلتمسون الرزق ، ويطلبون العلم ، ويجاهدون فى سبيل الله ، وقد سئلت أم سلمة عن تفرق أولادها فى شرق الأرض وغربها ، فمات هذا فى جهة وذاك فى أخرى ، فقالت : باعدت بينهم الهمم .

وهكذا ينظر الإسلام إلى الحركة الإسلامية نظرة دفع وترشيد لعمارة الكون والاستفادة من خيراته المبثوثة ، وكنوزه المكنونة ، لإسعاده وإصلاحه وإعلائه ، فهى تنسجم مع حركة العوالم وفعل الكائنات ، فكل شيء فى حركة دائبة وعمل مستمر ، فوافق عمل الإنسان سير الكائنات ، وواكب هذه الحركة ، واستمد رشدها ممن أرشد الكون ونظم العوالم ، فاتحد إيقاع الكائنات ونبض الإنسان ، وانسجمت دورات الفلك وخطو البشر فى هذه الحياة .

والإنسان مع كل هذا لاتستعبده تلك الحركة ، ولايكون أسيرا لها ، أو خاضعاً لإيحائها ، وإنما يعتنى بها ويرعاها ، لأنها نعمة من نعم الله عليه ، ولأنه مأمور بذلك ، ولأنها أسباب وطريق إلى نفع الناس ، وجلب الثواب ، ولأن بها عمارة هذا الكون الذى هو مستخلف فيه .

مبدأ التكريم الإنسانى فى التصور الإسلامى :ـــ

يختلف التصور الإسلامى للإنسان عن تصور الماديين ونظرتهم إلى ذلك الإنسان ؛ حيث إن الماديين ينظرون إليه على أنه قبضة من تراب هذه الأرض ، أو قطعة من اللحم والدم والأعصاب والغدد والخلايا ، فما العقل إلا غدة معينة تعمل عملها ، وما التفكير إلا مادة أو إفرازات مخصوصة يخرجها المخ كما تفرز الكلية البول ، أو تستخلص الأمعاء العصارات المعروفة ، لا فرق بينه وبين أى كائن حى على وجه الأرض ، مثل : القردة ، والزواحف ، والحشرات . غاية أمره أنه تطور بمرور الزمن ، فاكتسب صفات معينة ، أصبح بها إنسانا ، وكل تقييم له يدور فى فلك المادة وما يتركب منها . وقيمة هذا الهيكل البشرى لا تعدوا عندهم إلا أن تكون تركيبة حللها بعضهم فوجدها :ـــ

قدراً من الدهن : يكفى لصنع ٧ قطع من الصابون .

قدراً من الكربون : يكفى لصنع ٧ أقلام رصاص .

قدراً من الفسفور : يكفى لصنع رؤوس ١٢٠ مائة وعشرين عود ثقاب .
قدراً من ملح المغنسيوم : يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات .
قدراً من الحديد : يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه .
قدراً من الجير : يكفى لتبييض بيت للدجاج .
قدراً من الكبريت : يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التى تسكن شعره .
قدراً من الماء : يملأ برميلا سعته عشر جالونات .

وهذه المواد تشترى من الأسواق بمبلغ من المال يساوى ستين أو سبعين قرشا مصريا !! وتلك هى قيمة الإنسان المادية[1]، أما الروح فشىء أغفله الماديون ، ولم يلتفت إليه الحسيون ، فلا اتصال بعالم علوى ، ولا ارتباط بسر إلهى ، إنما هى قتامة المادة وظلمة الطين وحياة الحيوان البهيمية ، التى لافرق فيها بين الإنسان وبين غيره من الأحياء . وهذا مما دعا بعض الماديين الملاحدة أن يقول : « هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة ! نحن لا نساوى أكثر من أنفسنا ، وكذلك الحشرات ، ونحن لانريد إلا أن نحقق أنفسنا ، وكذلك أيضا الحشرات ! والفرق بيننا وبين الحشرات هو التفوق فقط ، وفرق التفوق بيننا وبين أرقى الحيوانات لايفوق كثيرا فرق التفوق بين أدنى الحشرات وأرقى الحيوان ! » فهذا الباحث الحيوانى الطينى لايستطيع أن يفرق بين نفسه وبين أى حشرة على وجه الأرض ، فالكل عنده كائن مكون من جسد وحركة وإحساس ، غاية مافى الأمر أن الإنسان ترقى وتفوق بعض الشىء عن بنى جنسه من الحشرات ، وهذا فى نظره أمر طبيعى ينسحب على كل الأسرة الحيوانية ، حيث تتفاوت فيما بينها ، ويرتقى بعضها من البعض ارتقاء تفرضه الطبيعة . فالإنسان فى نظره ــ ومن على شاكلته من الماديين سفلى التكوين ، طينى النزعة ، لايعرف الترقى إلى السماء ، ولا يملك مؤهلات السمو الروحى ، فالحيوانية إذاً لبه ولحمته وسداه ، وأصله وحياته وغايته ، لاينفك عنها ، ولا تنفصل عنه ، فأى إنسان هذا ، وأى إيحاء يعطيه هذا التصور ، وأى أثر يخلفه هذا الشعور ، وأى سوء أخطر من هذا على وجدان الإنسان ، أن يرى نفسه مخلوقا هابطا ،

---
(١) نظرات فى القرآن للأستاذ الغزالى .

حيوانيا ــ طينيا سافلا إلى هذا الحد ، وكيف يطلب من هذا الإنسان التطهر والاستعلاء والعفة والشرف والبعد عن الدنايا ، وكيف يستغرب منه الانحدار والإسفاف والتلوث ، وكل ما يوحى إليه ويوسوس له ويلقن به هو الهبوط والضعة والانتكاس إلى الحمأ المسنون ، والحق الواضح الذى لامرية فيه : أن طبيعة الإنسان السوى تريد أن تشعر بإنسانيتها ، وتحيا بخصائصها تريد أن تحس بكرامتها وذاتيتها . يريد الإنسان أن يشعر أن له وزنا وقيمة فى هذا الوجود ، وأن له غايته وهدفاً يسعى إليه ، وأن لحياته قيمة مميزة فى هذا الكون ، حتى يستطيع أن يهيمن عليه ، ويستخرج كنوزه ، ويسخر مافيه ، ويذلل مناكبه . إن الفرد ينشد الكرامة ، وينشد معها القوة ... القوة تجاه الطبيعة وتجاه الأحداث ، القوة أمام الطغيان من الغير أو من الشهوات ، القوة على تحقيق الغايات وأداء الواجبات ، تعوض الفرد عن ضعفه الجسدى وعجزه الخلقى وقصوره الذاتى إزاء مايصعب عليه تخطيه أو اجتيازه ، القوة إزاء الكوارث والنوائب والعقبات والمجهول ، والقوة أمام الظلم والبغى والامتهان والاستعباد ، ومع هذا فالإنسان ينشد شيئا آخر ، لايستطيع أن ينفك عنه ، أو يعيش بدونه لحظة واحدة . ينشد الطمأنينة والسعادة والسرور ، يريد أن يعيش حياته بالأمل المشرق ، يضىء له آفاق حياته ، يريد أن يتمتع بالأمن الداخلى ، يغمر جوانحه ، وبالرضى الذاتى يملأ عليه أقطار روحه ، وهذه أشياء لايحملها الطين فى طياته ، ولا تحققها أخوة الإنسان للحشرات والهوام والقردة والخنازير ، وإنما يحققها شىء آخر . ماهو ؟ ، لنسمع إلى البروفسور « سيشوت » العالم الأمريكى والأستاذ بجامعة « بيل » فى كتابه « حياة الروح » ، حيث يقول : « مسألة حيرت ألباب العلماء منذ عصور موغلة فى القدم ، وهى طبيعة الإنسان المزدوجة الغريبة ، فالجانب المادى منه ــ وهو الجسد ــ يحيا وينمو ثم يموت ، ولكن شيئا لاتدركه الحواس يبدو أنه يحكم هذا الجسد ، وفى مقدور هذا الشىء أن يشعر وأن يفكر، إنه ذلك الجانب الذى تتركز فيه خلاصة كيانه ، فالإنسان يبدو وكأنه كائنان : كائن مادى ، وكائن يقابله غير مادى ، ترى هل كل منهما حقيقى ؟ أو أن أحدهما لا يعدوا أن يكون وهما من الأوهام ! والضلال والانحراف

فى فهم الإنسان ، وتصور حقيقته ، إنما جاء نتيجة لإهمال أحد هذين العنصرين فى كيانه ، أو نتيجة للفصل بينهما ، واعتبار كل منهما منفصلا عن الآخر »[١].

فالإنسان مخلوق فذ فى هذا الكون ، غير مكرر في جميع الخلائق التى عرفناها ، والتى يحدثنا الله عنها كذلك ولانراها ، فهو مخلوق بقدر ، ولم يوجد هكذا مصادفة ولاجزافا ، ومخلوق لغاية ، فلم يخلق عبثا ولاسدى ، يتميز بخصائص لاتوجد فى عالم الأحياء ، ولهذا لم يستطع الداروينيون أن يثبتوا على نظريتهم ؛ بل تراجعوا عنها ، وظهرت بعدها مايسمى بالداروينية الحديثة ، وهكذا نرى « جوليان هكسلى » فى الداروينية الحديثة يتراجع عن كثير من الداروينية القديمة التى قررها « دارون » ، مضطراً أمام ضغط الحقائق الواقعية التى تحتم عليه ذلك ؛ إذ يعترف أن الإنسان « حيوان خاص » له خصائص ، لم تلاحظ فى أى حيوان آخر ، وأن لهذه الخصائص آثار متفردة كذلك ، ويصرح فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » بهذه الحقائق التى لايملك التفلت منها ، فيقول أول خصائص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحا ، قدرته على التفكير التصورى ، ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الإنسان نتائج كثيرة أهمها :ـــ

نمو التقاليد المتزايدة الناشئة من رصيد التجارب الإنسانية ، وأهم مظاهر ذلك مايقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عِدَد وآلات ، وإن العادات والتقاليد لهى الخواص التى هيأت للإنسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية . وهذه السيادة « البيولوجية » فى الوقت الحاضر ، خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة ، ثم يقول فى موطن آخر : والإنسان لامثيل له أيضا كنوع مسيطر . إذ انقسمت كل الأنواع الأخرى المسيطرة إلى مئات وآلاف كثيرة من الأنواع المنفصلة ، وتجمعت فى أجناس وفصائل عديدة ، ومجموعات أكبر ، أما الإنسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام ، ولقد تنوعت سلالات الإنسان فى حدود نوع واحد[٢].

(١) الإسلام والحياة ص ٧٩ ط الدار السعودية للنشر .

(٢) من كتاب « الإنسان فى العالم الحديث » ترجمة حسن خطاب ـــ متفرقات منه .

ثم يقول : وأخيرا ، فإن الإنسان لامثيل له بين الحيوانات الراقية فى طريق تطوره . وكذلك يقول العالم الأمريكى « كريسى موريسون » فى كتابه « العلم يدعو إلى الإيمان » إن القائلين بنظرية التطور « النشوء والارتقاء » لم يكونوا يعلمون شيئا عن وحدات الوراثة « الجينات » .[1]

ثم يقول : لقد رأينا أن (الجينات) متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات فى خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية — وهى تحفظ التصميم ، وسجل السلف ، والخواص التى لكل شىء حى ، كما يلاحظ أن جميع الكائنات الحية ، منفصل بعضها عن بعض بهوات كثيفة ، لا يمكن عبورها ، حتى أن الحيوانات المتقاربة ينفصل بعضها عن بعض كذلك ، والإنسان حيوان من مرتبة الطليعة ....[2] ... ثم يقول : « ولقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبسا من نوره ولايزال الإنسان فى طور طفولته من وجهة الخلق ، وقد بدأ يشعر بوجود مايسميه بالروح ، وهو يرتقى فى بطء ، ليدرك هذه الهبة ، ويشعر بغريزته بأنها خالدة ، ثم يقول وإذا صح هذا التعليل — ويبدو أن المنطق الذى يسنده لايمكن دحضه — فإن هذه الكرة الأرضية الصغيرة التى لنا ، وربما غيرها كذلك ، تكتسب أهمية لم يحلم بها أحد من قبل ، فعلى قدر مانعلم ، قد تولد عن عالمنا الصغير هذا أول جهاز مادى أضيف إليه قبس من نور الله ، وهذا يرفع الإنسان من مرتبة الغريزة الحيوانية إلى درجة القدرة على التفكير ، التى يمكن بها الآن أن يدرك عظمة الكون فى اشتباكاته ، ويشعر شعورا غامضا بعظمة الله ماثلة فى خلقه »[3]

الإسلام يمزق حجب الجهالة :

وجاء الإسلام فمزق حجب الجهالة عن تصور الملحدين والماديين للإنسان ، ذلك التصور الذى نزل به إلى الحضيض وقتل أشواق السمو والرقى النفسى والروحى

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان — ص ١٤٥ ، ص ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق — ص ١٤٢ .

(٣) العلم يدعو إلى الإيمان — ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ .

فى ذلك الإنسان ، جاء الإسلام فكرم ذلك الإنسان ، وأظهر معدنه ، ورفع مكانته ، وأطلق تطلعاته إلى الآفاق العلوية ، وجعله سيد الأرض وخليفة عن الله سبحانه وتعالى ، وعهد إليه عمارة الأرض وصلاحها ، وذلل العوالم وسخرها لتكون طوع أمره ، ورهن بنانه ، وقد ظهر هذا التكريم واضحا صريحا فى كثير من آى الكتاب العزيز ، فأعلن الحق أنه خلقه بيده ، فقال الحق سبحانه مخاطبا إبليس : ﴿ قَالَ يَا إبليسُ مَامَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لمِا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [1]، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له أشرف عنصر ، وهم الملائكة ، فقال تعالى مخاطبا الملائكة : ﴿ فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيه مِن رُّوحى فَقَعُوا له سَاجِدِينَ ، فَسَجَدَ الملائكةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [2]، وأعلن الحق سبحانه وتعالى تكريمه ، وتسخير الأشياء له ، وتفضيله على كثير من الخلق ـــ فقال سبحانه فى ذلك ﴿ ولقَدِ كَرَّمنا بَنِى آدَمَ ، وحَمَلْنَاهُمْ فى الْبَرِّ والْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ، وَفَضَّلناهُمْ عَلَى كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تفضيلا ﴾[3] . والحمل فى البر والبحر يعنى ويدل على تسخير النواميس ، وجعلها طيعة وفق الحياة التى يعيشها ، وزود الإنسان بالاستعداد لهذا التسخير ، بالعقل الناضج والفكر السليم وإلا فكيف تكون الحياة إذا استعصى هذا التسخير ، وشرد هذا التذليل ، وقابل هذا الإنسان الضعيف هياج الطبيعة بجورها وعواصفها وكوارثها وحممها ؟! وما كان هذا التطويع والتسخير إلا إكراما للإنسان وتفضيلا للمسخَّر له على المسخَّر ، ثم تأتى الآية بدليل آخر على هذا التفضيل والتكريم ، وهى عملية الرزق من الطيبات المذكورة فى الآية ، يقول تعالى ﴿ وَرَزَقْناهُمْ مِنْ الطَّيِّباتِ ﴾ والرزق من الطيبات يقتضى ديناميكية معينة ، وعملا مبرمجا من العوالم الخاضعة المنتجة لهذا الرزق الحسن ، تقتضى تبخير البحار بالشمس ، وحمل الهواء للبخر ، وتسيير السحاب بالرياح ، وتلقيحه ، ونزول الماء ، وإعداد التربة ، وتحرك الأرض وإخراج النبت ، وتغذيته ، وإخراج الشهى من الثمار والبديع من الأزهار ، كما يقتضى الرزق من الطيبات ، إيجاد الأنعام وتربيتها ، حتى تكون حمولة وفرشا ، وطعاما ،

---

(١) ص ـــ ٧٥ .
(٢) ص ـــ ٧٣ .
(٣) الإسراء ـــ ٧٠ .

وشرابا ومتاعا ، ولقد لفتنا الحق سبحانه إلى ذلك فى قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُون ، وذَلَّلْنَاها لهم فَمِنْها رَكُوبُهُمْ ومنْها يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فيها مَنَافِعُ ومشارب أَفَلا يَشْكُرونَ ﴾[1] ثم تصرح الآية بتفضيل الإنسان على كثير من خلق الله ، فتقول ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا ﴾ وعناصر هذا التفضيل وحيثياته كثيرة فى القرآن والآثار الإسلامية ، قد ألمحنا إلى شيء منها . ويكفى أن يكون خليفة عن الله فى الأرض ، التى مهدت لأجله ، وجعلت فيها أقواتها وأرزاقها ، ويكفى أن يجعله مختارا طليقا ، ﴿ بَلِ الإنسانُ علىٰ نَفْسِهِ بَصيرَةٌ ﴾[2] ، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَفليكفر ﴾[3] ، قيما على نفسه ، له حرية الاتجاه وفردية التبعة ، خلقه فى أحسن تقويم ، وصورة فى أجمل هيئة ، خلقه لنفسه وخصه بعبوديته ، ولننظر لبعض الآثار الإلهية توضح ذلك :« ابن آدم خلقتك لنفسى ، وخلقت كل شيء لك ، فبحقى عليك لاتشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له » ، « ابن آدم خلقتك لنفسى فلا تلعب » كما نسمع كثيرا من الآيات القرآنية توضح هذا الاهتمام الإلهى الكريم بالإنسان ، كقوله تعالى ﴿ وإذا سَأَلَكَ عِبَادِىْ عَنِّى فإنِّى قَريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دعان ﴾[4] ، وقوله تعالى ﴿ ولله الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾[5] ، ﴿ مايَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، ولا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلا أَدْنىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أين ما كَانوا ﴾[6] ويؤكد الرسول هذا المعنى فى أحاديثه ، فيقول عن ربه سبحانه : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى : إذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرني فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلىَّ شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته

---

(١) يس — ٧٣ .
(٢) القيامة — ١٤ .
(٣) الكهف — ٢٩ .
(٤) البقرة — ١٨٦ .
(٥) البقرة — ١١٥ .
(٦) المجادلة — ٧ .

هرولة »[1]. ومن تكريم الله له أن جعله سميعا بصيرا صاحب عقل ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصارَ والأَفْئِدَةَ ﴾ شرفه الله بالمعرفة ، وفضله بالعلم ، وباهى به الملائكة — وهى من أشرف خلق الله تعالى — يشير إلى هذا القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلى الملائِكَةِ فقالَ أَنْبِئُونى بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إنْ كُنْتُم صادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لنا إلا ماعلمتنا إنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيْمُ الحكِيم * قالَ ياآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلمُ غيبَ السمواتِ والأرضِ وَأَعْلَمُ ماتبدون وما كنتم تكتمون ﴾[2].

فهم المسلمين لهذا المعنى :—

هذه نبذة قصيرة عن مكانة الإنسان كما رسمها القرآن ، وبينتها السنة النبوية . وقد أشاد بهذه المكانة وتأثر بها كل علماء الإسلام وأئمته فى مختلف البيئات والاختصاصات .

يقول الفقيه أبو بكر بن العربى « ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله تعالى خلقه حيا ، عالما ، قادرا ، متكلما ، سميعا ، بصيرا ، مدبرا ، حكيما .

ويشرح الإمام الغزالى ذلك ، ويبينه فى إحياء علوم الدين ، ويذكر أسباب محبة الله تعالى ، ويعدد منها —: المشابهة بين ذات الإنسان وذات الله عز وجل ، وهى مناسبة باطنة ، المقصود منها : التشبيه بصفات الله سبحانه ، ولله المثل الأعلى ، فيقول : « فالذى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها ، بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل « تخلقوا بأخلاق الله » ، وذلك فى اكتساب محامد الصفات التي هي من الصفات الإلهية ، من العلم والبر والإحسان ، واللطف ، وإفاضة الخير ، والرحمة على الخلق ، والنصيحة لهم ، وإرشادهم إلى الحق ، ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة ، فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى » وهناك أمور

(١) رواه البخارى .

(٢) البقرة — ٣٠ — ٣٣ .

ذكر الغزالى أنها من خواص الآدمى ، فقال« وأما مالايجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة التى اختص بها الآدمى ، فهى التى يرمى إليها قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ ربى ﴾ [1]. إذ بين أنه أمر ربانى خارج عن حد عقول الخلق ، وأوضح من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيه من روحى ﴾ [2]، ولذلك أسجد له ملائكته ، ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةَ فى الأرضِ ﴾ [3]، وقوله تعالى : ﴿ إنى جَاعِلٌ فى الأرضِ خلِيفة ﴾ [4]، إذاً لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة ... وإليه يرمز قوله ﷺ : إن الله خلق آدم على صورته ، حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس ، فشبهوا ، وجسموا وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى للإنسان « مرضت فلم تعدنى ! فقال : يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبدى فلان فلم تعده ، ولو عدته لوجدتنى عنده » [5]، ومن ذلك قوله تعالى فى الحديث القدسى « لايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى ينطق به ... » [6]ويقول الإمام ابن القيم : اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه ، بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلقه لنفسه ، وخلق له كل شيء ، وخصه من معرفته ومحبته ، وقربه وأكرمه بما لم يعطه غيره ، وسخر له مافى سمواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته — الذين هم أهل قربه — ، استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته ، وظَعنه وإقامته ... وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسله وأرسل إليه ، وخاطبه وكلمه منه وإليه ... فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات » [7].

---

(١) الإسراء — ٨٥

(٢) ص — ٧٢ .

(٣) ص ٢٦ .

(٤) البقرة — ٣٠ .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه البخارى — إحياء علوم الدين ٤ / ٣٢٧ ط المعرفة .

(٧) مدارج السالكين جـ ١ ص ٢١٠ ، ط السنة المحمدية

وهكذا نرى أن فكرة تكريم الإنسان وتفضيله قد رسخت فى عقول المسلمين ، وأصبحت من بدهيات الأشياء ، انطلاقا من تعاليم دينهم وقرآنهم وسنة نبيهم وسيرة سلفهم الصالح والتابعين لهم بإحسان ، وهذا مما أعطى للإنسانية عزا وشرفا . فالكينونة الإنسانية التى تنبثق من الطين ، والنفخة العلوية التى حلت فيه من روح الله سبحانه من آماد وآفاق لا تحد هى التى فصلت بينه وبين غيره ، وجعلته مخلوقا مميزا ، يستعصى على العقل البشرى فهم كنهه إلا بقبس من نور خالقه سبحانه . وصدق الله ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إذ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرضِ ، وَإِذ أَنْتُم أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم ﴾[1]، ﴿ ألا يعلمُ من خلقَ وهو اللطيفُ الخبير ﴾ [2]وهذا الإنسان مع هذا يظل كائنا يؤلف كل فرد فيه بذاته عالما فذا مفردا ، لا مثيل له فى سائر أفراده . على كل ما يجمع أفراد الجنس كله من الخصائص الإنسانية المشتركة ، وهذا مما يزيد الأمر تعقيدا ، ويزيد دراسة الإنسان صعوبة .

وفى هذا يقول الدكتور كاريل :ـــ

« إن الفردية جوهرية فى الإنسان . إنها ليست مجرد جانب معين من الجسم إذ أنها تنفذ إلى كل كياننا وهى تجعل الذات حدثا فريدا فى تاريخ العالم . إنها تطبع الجسم والشعور ، كما تطبع كل مركب بطابعها الخاص ، وإن ظلت غير منظورة » [3].

منزلة الإنسان بين المد والجزر :

وتاريخ الإنسانية من قديم يتخبط فى تصور الإنسان ، فتارة يعلى الإنسان حتى يصيره ندا للآلهة ، ففى الأساطير الإغريقية كان الإنسان ندا للآلهة ، ينازعها السلطة والمعرفة ، وإن كانت هى تبطش به وتقسوا عليه ، ولكنه لا يستسلم ، ولا يضعف ويذعن لها ، حتى فى حالة انتصارها عليه ، ثم جاء بعد

---

(١) النجم ـــ ٣٢ .

(٢) الملك ـــ ١٤ .

(٣) الإنسان ذلك المجهول ـــ ص ٢٨١

ذلك العهد الرومانى ،فعبد الإنسان شهوته ، وانقلب على الآلهة ولم يسمح لها بالتدخل فى تصريف حياته الأرضية ، وإن كان يسمح لها بالتكهن على ألسنة الكهان ، ويستبقيها كعرف اجتماعى لاضرر منه ، ويستمتع بمباهج الاحتفالات بمواسمها فى إطلاقه من كل قيد ، وتارة يسفل به ، فيجعله خاضعا لعجل أو شجرة أو نار!!.

وجاءت النصرانية فانتكست بالإنسان ، ووسمته بالخطيئة ، ونكست رأسه بالذل ، مع أن النظرة النصرانيــة إلى الإنسان تحمــل تكــريم الله لهذا الجس إلا أن خطيئة آدم ــ كما تصورها الكنيسة ــ قد دمغت الجنس كله بالإثم ، حتى جاء المخلص ابن الإنسان « المسيح » ، « الرب » ، « الابن » ، فكفر عن هذه الخطيئة ، ولكن هدا لم يرفع جبين الإنسان ، ولم يخلصه مما نزل به ، وكان عليه أن يكفِّر بالدل والهوان والتقشف والعذاب طول حياته ، لكى يلحق بالمخلص ، ويتحد فيه ، وينال الغفران .

وفوق ذلك قد اعتبرت ميوله الفطرية رجسا ودنسا ، وعلاقاته الجنسية قذرا ووسخا ، وشعوره بذاته إثما وخطيئة . وكان لهذا رد فعل على الكنيسة ، وعلى التصورات والتعاليم الكنسية ، وعلى المفهومات الدينية كلها بالإجمال ، فقامت الثورة على هذه الأوضاع ، ونظرت تلك الثورة إلى الإنسان نظرة جديدة ، وفتحت الآفاق أمام عقله وفكره ، وتدرج الغرب فى هذه النظرة إلى أن ألَّه العقل فى منتصف القرن التامن عشر الميلادى ، ونسب إلى العقل كل شىء ، فهذا العالم الخارجى من خلق العقل وصنعه ، وللعقل حق السيطرة على جوانب الحياة ، ويقطع فيها برأيه ، ويشرق فيها ويغرب ، وله حرية العمل ، والإنسان هو السيد المطاع فى كل شىء .

ثم انتهت هذه الفترة ، وابتدأ القرن التاسع عشر بضربة قاصمة للإنسان ولعقله وكرامته ، إذ جاءت الفلسفة الوضعية تعلن أن المادة هى الإله ، فهى التى تنشىء هذا العقل ، وهى التى تطبع فى جسم الإنسان ماتراه .!!

ثم جاء دارون بحيوانيته للإنسان ، وأخرج كتابه « أصل الأنواع » سنة

١٨٥٩ ، وجاء بعده كتابه « أصل الإنسان » فى سنة ١٨٧٠ ، وفقد الإنسان بذلك التكريم ، وعاد حيوانا ككل حيوان آخر ، وهو وإن كان له السيطرة اليوم ، فإن هذه السيطرة قد تؤول به إلى قط أو فأر فى يوم من الأيام ، ثم جاءت الضربة القاضية على يد « فرويد » من جانب ، وكارل ماركس من الجانب الآخر ، حيث يرد الأول دوافع الإنسان كلها إلى الجنس ، ويصوره غارقا فيه إلى الأذقان ، والثانى يرد تطورات التاريخ كلها إلى الاقتصاد ، ويصور الإنسان مخلوقا هزيلا سلبيا كالريشة فى مهب الرياح أمام أداة الإنتاج .

وهكذا ظلت قيمة الإنسان تتأرجح بين التفريط والإفراط ، والصعود والهبوط ، ولم تلتزم جادة الاعتدال ، حتى جاء الإسلام ، فأعطى الإنسان ما قدره الله له ، وما تستقيم عليه فطرته ، ويكون به قوامه وقوام الحياة ، وعرفه بنفسه ، وأعلن رفعته ، وأعطاه من التكريم ما فاق به كثيرا من خلقه ، وصدق الله ﴿ لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ فى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [١] ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنى آدَمَ ، وَحَمَلْناهم فى البَرِّ والبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهم عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّن خَلَقْنَا تَفْضِيلا ﴾ [٢].

ثم أرشده إلى ما فيه صلاحه ، وأرسل له هداة مهتدين برسالات الله وكلماته ، رحمة منه ، وبرا ، وصيانة له ، ونصحا ، ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ، ونَحْشُره يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [٣]، ﴿ فَمَنِ تبع هُدَاىَ فَلا خَوفٌ عَلَيْهِم وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . والذينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِأياتِنا أولئك أَصْحَابُ النارِ هُمْ فيها خَالِدُون ﴾ [٤].

---

(١) التين — ٤ .

(٢) الإسراء — ٧٠ .

(٣) طه ١٢٣ — ١٢٤ .

(٤) البقرة — ٣٨ — ٣٩

المبحث الرابع
التصـــور الإســـلامى لغاية الحيـــاة

ينظر الإسلام إلى نهر الحياة المتدفق بقلب مفتوح ، وصدر رحب ، وأمل باسم ، فما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، وما من نظام فى الكون إلا مسير ومنظم لراحة الإنسان وسعادته :﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السماءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحصِيدِ . والنَّخْلَ باسِقاتٍ لهاٰ طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقاً لِلْعِبادِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدةً مَيْتاً ﴾ (١)، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ ممَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أنعاماً فَهُمْ لهاٰ مَالِكُونَ ، وذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُم وَمِنْها يَأْكُلُون ﴾ (٢) ﴿ وَفى الأرض قِطَعٌ مُتَجَاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَ نَخِيلٌ ، صِنْوانٌ وغيْرُ صِنْوانٍ ، يُسْقَى بِمَاءٍ واحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلىٰ بَعْضٍ فِى الأُكُلِ ، إنَّ فى ذٰلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُون ﴾ (٣)، ﴿ هُوَ الذى أَنْزَلَ مِنَ السماءِ ماءً ، لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فيه تُسِيمُونَ ، يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرعَ والزَّيتُونَ والنَّخِيلَ وَالأعنابَ وَمِن كُلِّ الثَّمراتِ ، إن فى ذٰلِكَ لآيَةً لِقَومٍ يَتفكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُم الليلَ والنَّهارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ ، والنجومُ مُسَخَّرَاتٌ بأمرهِ إنَّ فى ذٰلِكَ لآيات لِقَومٍ يَعْقِلونَ ، وَمَاذَرَأَ لَكُمْ فى الأرْضِ مُخْتلِفاً أَلْوانُه ، إنَّ فى ذٰلِكَ لآية لقوم يذكرون ، وَهُوَ الذى سَخَّرَ لَكُمْ البَحْرَ لِتَأْكُلوا مِنْهُ لَحماً طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها ، وَتَرىٰ الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فيه وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُون ، وأَلْقىٰ فى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وأَنْهَاراً وَسُبلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَعلاماتٍ

---

(١) ق ـــ ١١ .

(٢) يس ـــ ٧٢ .

(٣) الرعد ـــ ٤ .

وبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١).

يخرج الإنسان إلى الدنيا ، فيجدها مهادا ورغدا وخيرا ، تحضنه الحياة مع حضن أمه وأبيه ، وتبره مع عطف والديه ، وتعطيه وتمنحه وتحنو عليه كما يفتح أعز الناس له ذراعيه ، ولا شك أن الإسلام يعطى الإنسان هذا التصور ، ليخرج إلى الحياة ومعه إحساس أن العوالم معه ، وليست عليه ، تساعده ، ولا تتعارض معه ، تعطيه ، ولا تأخذ منه ، فى خدمته ، وليس فى خدمتها ، مسخرة له ، وليس مسخرا لها ، فيشعر بالأمان والراحة والأمل ، ويعرف نعمة الله عليه ، فلا يتمزق وترتعد فرائصه ، وتتشعب به الدروب ، وتحتوشه الأوهام .

ثم يلقنه التصور الإسلامى ، أن الإنسان خليفة الله فى الأرض ، وأن هذه الخلافة تقتضى الهيمنة ، والعدل ، والإحسان ، والرحمة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإصلاح فى الأرض ، والمحافظة على الحياة والأحياء ، والسير فيها بقانون الله المستخلف للإنسان .

ويلقنه التصور الإسلامى ، أن الحياة دائمة ، وإن بليت الأجساد ، وفنيت الأجسام ، موصولة بالهناء والصلاح لمن أصلحها وسار فيها بالخير والمحبة والإحسان . غاية الأمر أن للحياة مظهرين : مظهراً دنيويا ومظهراً أخرويا ، والمظهر الأخروى ، كالنتيجة بالنسبة للحياة الدنيا ، وكالثمرة المجنية من الشجرة الأولى ، فما الحياة الدنيا إلا مزرعة للآخرة ، وحرث لحياة طويلة ، فإن أحسن فيها سعد فى الحياتين ، وإن أساء شقى فيهما ، والإنسان يعيش فى دنياه دائما فى زرع حسن ، وعمل طيب ، وطاعة لله؛ لينال ما يحب من غاية ، وما يطلب من هدف . وصدق الله ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ، قالوا : خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فى هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَة ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ المتَّقِينَ ﴾ (٢) وقد عبر عن ذلك التصور بعضهم بقوله:—

خلق الناس للبقاء فضلت ⁂ أمة يحسبونه للنفاد

---

(١) النحل من ١٠ — ١٦ .

(٢) النحل : ٣٠ .

إنما ينقلون من دار أعمال　　　إلى دار شقـــوة أو رشاد

وعلى هذا فإن للإنسان فى هذه الحياة غاية ومهمة ، بينها التصور الإسلامى فى وضوح وجلاء ، فالإنسان لم يخلق عبثا ، ولم يترك سدى ، وإنما خلق لغاية وحكمة ، ولم يخلق لنفسه ، ولم يخلق ليكون عبدا لعنصر من عناصر الكون ، ولم يخلق ليمرح ويتمتع كما تأكل الأنعام ، ويعيش فترة محدودة طالت أم قصرت ثم بعدها يبتلعه التراب ، وتأكله الهوام ، ويطويه النسيان ، وإنما خلق ليبقى طيب الذكر فى دنياه بحياته ، أو بعمله على لسان كل صالح ، وفى مخيلة كل تقى ، خلق ليعرف الله ويعبده ، ويكون خليفة فى أرضه ، ويحمل الأمانة الكبرى فى هذه الحياة القصيرة ، أمانة التكاليف ومسئولية الإصلاح ــ خلق للحياة الباقية الراغدة ، التى ينالها بكفاح الصالحين ، وجهد العاملين ، وتضحية المتقين . وصدق الله ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِىٰ أُورِثْتُموها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُون ﴾[1] ﴿ أَمْ حَسِبْتُم أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَم الصَّابِرين ﴾[2] ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ ﴾[3].

فيعلم المؤمن أن الدار الآخرة هى الحيوان ، وأن الاستعداد لها وظيفة العقلاء فى هذه الفترة الضيقة من أجالهم الدنيوية ، وتصور المسلم فى هذا يخالف تصور غيره الذين يأخذون عن الموت فكرة غامضة مقلوبة مشوهة ؛ حيث يظنونه ختاما لمعنى الحياة ، وابتداء لحالة أخرى لا شعور فيها ولا إحساس ، ينال الإنسان منها ماينال الدواب النافقة والأطلال الدارسة تحت أكوام التراب وطبقات الثرى ، وإنما يعلم المؤمن أن الموت نومة طويلة ، كما أن النوم الذى نعرفه موتة قصيرة ، وقد وضح القرآن هذا المعنى ، وجعل الموت قسيما للنوم ، وجعل الحالتين أعراضا للأنفس ، لا تتأثر كثيرا بها ــ فقال تعالى :﴿اللهُ يَتَوَفَّىٰ الأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِها ، وَالَّتِىٰ لَمْ تَمُتْ فى مَنَامِهْا ، فَيُمْسِكُ التىٰ قَضَىٰ عَلَيْهاْ الموتَ ، وَيُرْسِلُ الأخرىٰ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمَّىٰ ﴾[4].

(١) الزخرف ــ ٧٢ .

(٢) آل عمران ــ ١٤٢

(٣) النساء ــ ١٢٤ .

(٤) الزمر ــ ٤٢ .

ولئن كانت الروح تفارق الجسد إلى حين فإن ذلك لايغير من حقيقة الإنسان شيئا ، فالجسم كالثوب يكتسى الإنسان به ويعرى عنه ، ولا مدخل له فى جوهره ، وبفهم المؤمن لهذه الحقيقة أصبح لايكترث للموت مادام فى طاعة الله ، ولايتهيب الإقبال عليه مادام فى سبيله ، ولاتتوجس نفسه منه خيفة لما يعلم من جزاء وحياة كريمة ، جزاء طاعته لله ورضاه .

أما الماديون ؛ فإنهم يعيشون لدنياهم المحدودة ، يدورون حول أنفسهم فقط ، وحول أهوائهم وشهواتهم ، حول المتطلبات الجسدية والغرائز الحيوانية ، حول الجانب الحيوانى المادى فى الإنسان . يدورون حول أنفسهم كما يدور الحمار فى الرحا . وقد عبر عن ذلك أحد الكتاب الغربيين فى وصفه للوجوديين الذين تدور فلسفتهم حول تحقيق الإنسان لوجوده وذاته فحسب ، فقال : « إن الوجودى مثله مثل الكلب ، الذى يجرى دائما حول نفسه ، ليمسك بذنبه ، فلا هو يدرك ذنبه ولا هو يقف عن الجرى » ويذكرنا هذا التشبيه بالمثل الذى ضربه القرآن للمسلمين عن المعرضين عن آيات الله وهديه ، الذين أخلدوا إلى الأرض وإلى حيوانيتهم : ﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذى آتَيْنَاهُ آياتِنا فانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها ، وَلكِنَّه أَخْلَدَ إلى الأَرْضِ ، واتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُه كَمَثَلِ الْكَلْبِ ، إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث . ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنا ، فاقْصُصِ القَصَصَ لعلهم يتفكرون ﴾ [1] . إذاً ، فالمسلم يعيش حياته لغاية سامية ، وحياة موصولة ، وهدف نبيل ، خليفة عن الله ، يحقق منهجه فى الأرض ، ويدعو إلى صراطه المستقيم ، حتى ينال السعادة الأبدية والنعيم المقيم ، يعتبر نفسه ملكا لخالقه ، يعيش له ، ويموت فى سبيله : ﴿ قُلْ إنَّ صلاتى وَنُسكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِىَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ لاشَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأنا أَوَّلُ الْمُسْلِمينَ ﴾ [2] ﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يَشْرِى نَفْسَه ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رؤوفٌ بالْعِباد ﴾ [3] المؤمن يعيش ليزرع الخير ، ويحمل الخير ، ويعلم الخير . يدعو ربه بما علمه رسوله « اللهم أحينى ما علمت الحياة خيراً لى ،

---

(١) الأعراف ــ ١٧٥ ــ ١٧٦ .

(٢) الأنعام ــ ١٦٢ ــ ١٦٣

(٣) البقرة ــ ٢٠٧

وتوفنى ما كانت الوفاة خيراً لى »[1] .

ولايضجر من حياة ، ولايتمنى الموت ، وحاله كله خير ، إن أصابه سراء فشكر كان ذلك خيرا له وإن أصابه ضراء فصبر كان ذلك خيرا له ، وهو لايحب الحياة حب الحريص على متاعها الأدنى ، أو المتهافت العاشق للذائذها ، بل يحبها للعمل الصالح ، والقيام بحق الله ، والتزود من الخير ، وفى الحديث النبوىّ « خير الناس من طال عمره وحسن عمله »[2] ، « لايتمنين أحدكم الموت ، ولايدعو به قبل أن يأتيه ، وأنه إذا مات انقطع عمله ، وأنه لايزيد المؤمن عمره إلا خيرا »[3] « لا يتمنى أحدكم الموت : إما محسنا فلعله يزداد ، وإما مسيئا فلعله يستعتب »[4] ، فإذا نزل به الموت أو دنا منه الأجل فهو قرير العين ، باسم الثغر ؛ لأنه يقربه من ربه ، « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه »[5] ، وإذا دعى للشهادة ودنا فى سبيل الله أجله هتف من أعماقه : فزت ورب الكعبة ، فحينما أخذ المشركون فى مكة خبيبا ليصلبوه ؛ كان نشيده فى ساحة الموت .

ولست أبـالى حين أُقتـل مسلمـا ... على أى جنب كان فى الله مصرعـى
وذلك فى ذات الإلـه وإن يشأ ... يبـارك على أوصال شِلْـوٍ مُمَـزَّعِ

وكان خالد بن الوليد حينما يرسل إلى القائد من قواد الفرس أو الروم يختم رسالته بعد الدعوة إلى الإسلام والسلام ، بقوله وإلا .. رميتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

وبهذا تستقر نفس المسلم وتهدأ ، ولاتتمزق ولاتضحر ؛ لأنه آمن فى حياته ، آمن فى موته ، لايشعر بوحدة فى نفسه ومعه الله سبحانه وتعالى حافظه وموجهه . أما المادى ، فإنه يشعر بالوحدة فى دنياه ، يكون قصير النظر ، قصير الأمل ، قصير

---

(١) رواه النسائى والحاكم ـ ٣ ٥٤ ـ ٥٥ (١ ٥٢٤)
(٢) رواه أحمد والترمذى ٥ / ٤٠ ، ٦ ٦٢٢ وحسنه .
(٣) رواه مسلم ٤ /٢٠٦٥
(٤) رواه البخارى (١٣ / ٢٢٠ وأحمد ٢ / ٣٠٩)
(٥) متفق عليه فتح البارى ١١ ٣٥٧ ، مسلم ٤ ,٢٠٦٥.

الغاية ، يخاف الحياة ، ويخاف الموت ، يخاف مما هو كائن ، ويخاف مما سيكون ، يخاف الكوارث ، يخاف غدرات الحياة .

قال الفيلسوف الأخلاقى ابن مسكويه [1] : « إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لايدرى الموت على الحقيقة ، ولا يعلم إلى أين تصير نفسه ، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته ، وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور ، وإن العالم سيبقى موجودا ، وليس هو بموجود فيه ، كما يظنه من يجهل بقاء النفس ، وكيفية المعاد ، أو لأنه يظن أن للموت ألما عظيما غير ألم الأمراض التى ربما تقدمته وأدت إليه ، وكانت سبب حلوله ، أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت ، أو لأنه متحير لايدرى على أى شىء يقدم بعد الموت ، أو لأنه يأسف على مايخلفه من المال والمقتنيات وهذه ظنون باطلة لاحقيقة لها » [2] وهذه الظنون هى التى تلازم الماديين ، أما المؤمنون فإن حياتهم مستقرة هانئة ، وهذا ما يأخذ بيدهم فى الحياة ، ويفتح لهم آفاقها .



---

(١) ابن مسكوية هو : أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب مسكوية ، فيلسوف أخلاقى ، وكان قيما على مكتبة ابن العميد له . كتاب « تجارب الأمم » ، يشتمل مادة تاريخية جيدة لاسيما فيما يتصل بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الدولة العباسية ، كان يتمذهب بمذهب أرسطو فى الفلسفة ، وكان مذهبه فى التربية أن يبدأ الإنسان بنفسه ، وكان يدعو إلى التمسك بالشريعة ولزوم وظائفها ، أصله من الرى وتوفى بها سنة ٤٢١ هـ ١٠٣٠ م — له مؤلفات كثيرة وكان من المعمرين

(٢) الإيمان والحياة ص ١٥٨ .

المبحث الخامس
أسس الحضارة الإسلامية

تقوم الحضارة الإسلامية على أسس راسخة وعميقة ، تتمثل فى رصيد ضخم من القيم الإنسانية التى لابد منها لقيادتها ، وهى مع هذا الرصيد الهائل من القيم لاتنكر الإبداع المادى فى الأرض ؛ لأنه يعد من وظيفة الإنسان الأولى منذ أن وجد على ظهر الأرض ، ولكنها ترشده وتنفخ فيه الحياة المطمئنة ، لتحقيق غاية الوجود الإنسانى فى الحياة ، لأن قضية التصور الإسلامى الكبرى والأساسية هى الإنسان ، وقضية وجوده فى هذا الكون ، وقضية علاقته بهذا الكون وما فيه ، وعلاقته بخالق هذه الأحياء ، وقضية علاقة الإنسان بالإنسان وسلوكه على وجه الأرض ، وقضية الخلافة وتحقيقها فى الأرض ويتحقق ذلك فى :

عقيدة واحدة إلهية ، تكون مصدر التجمع والتصور ، ومنبع الفكر ، ومنهج الحياة ، مؤثرة فى المبادىء والشرائع والأنظمة والأوضاع التى تنظم المجتمع المسلم ، أفرادا أو جماعات ، مع نظام مؤثر فى الأخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التى تسود المجتمع ، وتؤلف ملامحه ، مع سيادة القيم الإنسانية ، لا الحيوانية ، واستعلاء الإنسان بقيمه على المادة وضغطها . ويعبر عن هذا فى العرف الإسلامى بالعقيدة والشريعة . عقيدة تنظم صلة الإنسان بالله ، وتعطيه قيما معينة ، وشريعة تنظم الحياة الاجتماعية حسب هداية الله سبحانه ، ولبيان هذه الأسس وتلك الركائز ، نعرض للعقيدة ، والنظام الاجتماعى بإيجاز حتى نكون على ذكر منهما :

أ ــ العقيدة :

الأساس الأول الذى يقوم عليه التصور الإسلامى للحضارة الإنسانية هو العقيدة .

هو شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، هو العبودية لله وحده دون سواه ، والاعتراف بالخالقية والسلطان له سبحانه ، وتنزيهه عن الشريك ويتمثل ذلك فى التصور والإدراك البشرى ، من تلقى الإنسان لحقائق العقيدة من مصدرها الربانى الذى يتكيف به الإنسان فى إدراكه لحقيقة ربه ، وجلاله ، ولحقيقة الكون الذى يعيش فيه غيبته وشهوده ، ولحقيقة الحياة التى يعيشها ، ولحقيقة الإنسان نفسه ، ومن ثم تصبح عقيدة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قاعدة لمنهج كامل ، تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها ، فأركان الإسلام من مقتضياتها ، صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج ، وحدود ، وتعازير ، وحلال وحرام ، وسلوك ، وأخلاق ، والاعتراف بالعقيدةوالدينونةلله رب العالمين ، يقتضى الطاعة لله وحده ، والتسليم لحكمه دون سواه : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [(١)]... وللعقيدة عطاءات معينة منها :

١ـ السمو الإنسانى :

هذه العقيدة تعطى ـ أول ما تعطى ـ الطهارة فى أسمى معانيها ، وأجمل صورها . الطهارة من الشهوات ، فلا تستنزله شهوة ، ولا تطوعه غريزة شرود ، بل تعطيه عقيدته قوة يستعصى بها على أى هوى أو نزوة ، فلا يضعف ، ولا يستكين لعواصف الشهوات وإغراءات المادة وقد يضعف أمام ذلك الكثيرون ، رغم ما أوتوا من علم ، وما بلغوا من حضارة .

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون ﴾[(٢)]

وتعطيه كذلك كرامة يجالد به عبودية الإنسان للإنسان ، وتسلط الطواغيت على حياته ودنياه ، فلا يتخذ ربا إلا الله ﴿ قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون

---

(١) الأنعام ـ ١٦٢ ـ ١٦٣ .
(٢) الجاثية ـ ٢٣ .

الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [1]، ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ [2] تعطيه سموا فى التفكير ، فلا يكون أسيرا لرواسب ماضية ونحل منحرفة ، وقد كان هذا دأب الجاهلين قبل ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان أباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ [3] لأن العقيدة تُعلمه أن يكون مع الحق الذى قام عليه الدليل ، وأثبته النظر والبحث ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ . الإسراء ٣٦

٢ــ التصور الحقيقى للأشياء

تبعث العقيدة فى نفوس أصحابها التصور الحقيقى لقيم الأشياء ، فلا ينطلى عليها غبش الدعايات وبهرج الشبهات ، فإن من يعرف ربه يعرف قيمة نفسه ، ويعرف قيمة إيمانه ، ويعلم تسخير العوالم له ، ويعلم كذلك أن الناس كلهم عبيد الله ، وكلهم من خيره يرزقون ، فلا تزلف لأحد إذاً ؛ لأن الكل مخلوق ، والكل محتاج إلى عطف الله ورضاه ، وإذا استعان صاحب العقيدة فإنما يستعين بالله ، وإذا طلب فليطلب من الله ، ويعلم كذلك أن الضر والنفع من الله . وصدق رسول الله ﷺ فى تعليم ذلك لابن عباس : ﴿ إذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لا ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشىء لا يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ﴾ [4] فالنافع فى الحقيقة والضار هو الله سبحانه وتعالى ، فكل ملتجىء إلى غير الله فى عباد أو خوف ضر ؛ فهو ضال . وصدق الله ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ [5] وكذلك الذين يدعون ابتغاء النصرة والنفع ، ويرجون منهم المساعدة والعون ، عاجزون فى الحقيقة عن نصرة أنفسهم ، وجلب الخير لها : ﴿ لايستطيعون

---

(١) آل عمران ــ ٦٤ .

(٢) التوبة ــ ٣١ .

(٣) البقرة ــ ١٧٠ .

(٤) الترمذى وأحمد .

(٥) الأعراف ــ ١٩٤

وإنما القـوة الحقيقيـة والنفـع المحض إنما هو من الله سبحانـه ﴿ أن القـوة لله جميعا ﴾ (٢)، ﴿ إن الله هو الرَّزَّاق ذو القـوة المتين ﴾ (٣)، ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضلـه ﴾ (٤)، ﴿ ومـا النصر إلا من عنـد الله العزيـز الحكيم ﴾ (٥)بهذه الآيات والأحـاديث يزداد المؤمـن قربـا من ربه ، ويزداد مع هذا شموخه وعلو همته ؛ لأنه يركـن ظهـره إلى ركـن شديـد ،وحصن حصين ، فيثق فى نفسه وفى خطوه ، ويستطيـع أن ينفـذ الخير ويقـف بجانب الحق ، ولا يطأطىء هامته ، أو يحنى صلبه إلا لله سبحانه فيزداد عزة على عزة ، ورجولة فوق رجولة بعقيدته وإيمانه ، ويستطيع بها أن يواجه الدنيـا ، ويقـارع الخطـوب ، فلا يتـوه خطوه أو يضل طريقه .

٣ـ الرجاء وطمأنينة القلب

كم تبعث العقائد فى نفوس أصحابها الرجاء فى الله وطمأنينة القـلب ، وصدق الله ﴿ ومـن يؤمـن بالله يهد قلبـه والله بكـل شىء عليم ﴾ (٦)يربى الإيمان القـلب على كيفية نفسيـة ، قائمـة على الثقـة بالله والرجـاء فيـه ، فهـو فى كل حال يتغـلب على اليأس والقنوط ؛ لأن له من إيمانه كنـز من الآمال الصادقـة ، لا ينفـد ولا يزول ، ولا يزال يزوده برصيـد غير منقطـع من قوة القـلب وطمأنينـة الـروح ، ويلقـى فى روعـه أنه ــ ولـو طرد من كل باب من أبـواب الدنيـا ، وتقطـعت به الأسبـاب الظاهـرة ، وفارقته الوسائل المادية المعلنة ــ فإن الله لن يتخلى عنه ، وهو غير خاذله ، فعليه أن يتذرع بالصبر والجلد والثقة ، حتى يأتيه نصر الله وهو مطلع عليه ، ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنـوا بى

---

(١) الأعراف ١٩٧ .
(٢) البقرة ــ ١٦٥ .
(٣) الذاريات ــ ٥٨ .
(٤) يونس ــ ١٠٧ .
(٥) آل عمران ــ ١٢٦ .
(٦) التغابن ــ ١١ .

لعلهم يرشدون ﴾[1] فرحمة الله واسعة ، وهى قريبة من المؤمنين الصابرين المحسنين لكل أمر ، الساعين فى كل خير ، العاملين فى كل درب . وصدق الله﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾[2]فلا يساور المؤمن العامل المجتهد الصابر شك فى أن الله سبحانه وتعالى محقق رجاءه ، فيبعد اليأس والقنوط عن نفسه وفكره ، لأنه مع الله وفى معينه ، وقد حذره الله من اليأس الذى ينافى الإيمان به سبحانه ، ويخالف طبيعة المؤمن ، ﴿ إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [3]. لايأس من انتصار المؤمن ، ولا يأس من تفريج كربه ، ولا يأس من عدو ، ولا يأس من ذنب ، ولا يأس من خطيئة أو ذلة ، ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ [4] ، ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾[5]. فإذا احتوشه ذنب أو تغلب عليه شيطان أو أغرته شهوة ، فلا يكون أسيرا لها طول حياته ، أو مقيدا بها طول عمره ، بل يستغفر الله ، وينطلق ـ طريقه ، ويذكر الله ، ويستعين به ، ويتقرب إليه فإن فيه النجاة :﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [6]، ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[7] ، ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[8]وهكذا فإن الإيمان إذا دخل القلوب أغناها وأسعدها ، وهداها إلى طريق الصواب ، وأعطاها مالا تجده فى سواه ، وزرع فيها ثقة بغير حدود ، وأعطاها طاقة كأنها شعاع الشمس أو هدير الرعود . وقد رأينا القلة المؤمنة فى ميادين عدة قارعت الخطوب وتغلبت عليها . تغلب إيمان صهيب وبلال على جبروت أمية بن خلف وأبى جهل وعتاة المشركين ،

---

(١) البقرة ـــ ١٨٦ .
(٢) الأعراف ـــ ١٥٦ .
(٣) يوسف ـــ ٨٧ .
(٤) النساء ـــ ١١٠ .
(٥) الزمر ـــ ٥٣ .
(٦) الرعد ـــ ٣٨ .
(٧) الصافات ـــ ١٧٣ .
(٨) الحج ـــ ٤٠ .

كما تغلبت امرأة فرعون ـــ وهى امرأة وحيدة ـــ على جبروت فرعون وجنده ، ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ﴾ [1] تغلب على العادة المستهجنة والطباع الملتوية والنفس الأمارة بالسوء ، ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ [2] ونجد هذا واضحا فى نساء الرسول ﷺ لما خيرهن القرآن الكريم بين متاع النفوس وزهرة الحياة ، وحياة الجد والكفاح ، فقال ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾ [3] فلما قرأ نساء الرسول ذلك قلن :ـــ نختار الله ورسوله والدار الآخرة ، فانتصرت أنفسهن على زخرف الحياة وشهوات النفس بنفس مطمئنة قوية ، وكذلك الإيمان طمأنينة إلى الخير وثقة وهداية .

٤ـــ الجرأة والشجاعة :

تعطى العقيدة صاحبها صفات نفسية غامرة كريمة بغير حدود ، من هذه الصفات الجرأة ، والشجاعة ، والبسالة النادرة . الشجاعة فى كل ميدان من ميادين الحياة ، الشجاعة فى مواجهة النفس ، والتغلب على ثقل الحيوانية ، ولهذا نرى كثيرين من أصحاب العقائد ضربوا أروع الأمثلة فى الاستقامة والقدوة بعد تاريخ طويل فى الجهالة وحب العرض واتباع الشهوات ، واستطاعوا أن يفرضوا الاستقامة ، وأن يعلموا الشعوب الهداية والرجولة ، ونبذ الانحراف ومداواة النفوس ، ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ [4] وأن يؤثروا الثواب الآجل على المتاع العاجل .

---

(١) التحريم ـــ ١١ .
(٢) التوبة ـــ ٢٤ .
(٣) الأحزاب ـــ ٢٩ .
(٤) الكهف ـــ ٤٦ .

الشجاعة فى مواجهة الشدائد : فأصحاب العقيدة لا يخافون الموت ، ويعلمون أنه حق لا مرية فيه ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ [1] فإن عاشوا عاشوا كراما ، وإن ماتوا فإلى جنة يرزقون فيها ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ [2] ومالـه لا يكون شجاعا وقد أعد الله له ما أعد من الثواب والجزاء ، واشترى منه نفسه وماله بالجنة : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ [3] وأصحاب العقائد مع هذا يعلمون أن لكل نفس أجل ، لا تتقدم عنه أو تتأخر ، ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ﴾ ، [4] وأن الاحتراز من الموت إذا هم القضاء غير وارد ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ [5]

ولهذا كان الرجل من أصحاب العقائد يقابل عشرة من غيره ، وإذا نزلت منزلته يكون باثنين — ﴿ ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ ، [6] لأنهم يثبتون حين يفر غيرهم ، ويرابطون عندما تطير قلوب سواهم شعاعا ، ولهذا نرى القرآن يحكى موقف اختبر فيه فئتان : فئة مؤمنة ، وأخرى منافقة ، فى غزوة الأحزاب ، فيقول عن موقف المنافقين الذين خلت قلوبهم من العقيدة : ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك ، تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة

---

(١) الجمعة : ٨ .
(٢) آل عمران : ١٦٩ — ١٧٠ .
(٣) التوبة : ١١١ .
(٤) آل عمران : ١٤٥ .
(٥) آل عمران : ١٥٤ .
(٦) الأنفال : ٦٥ — ٦٦ .

حداد ﴾[1]، ويقول عن المؤمنين ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾[2] وليس هذا لقوم دون قوم ، أو لفئة مؤمنة معينة إنما هو قانون عام من قديم يجرى على سننه أصحاب العقائد وصدق الله ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾[3]

٥ــ الإحاطة والشمول

مما تعطيه العقيدة الإسلامية للمسلم : الإحاطة والشمول ؛ حيث تعترف العقيدة الإسلامية بالكتب السماوية كلها ، حيث يأمر الإسلام بالإيمان بكل كتاب أنزله الله على أحد من رسله ، وكما أنه لا بد للإنسان إذا أراد لنفسه الإسلام ، أن يؤمن بكل واحد من الأنبياء والرسل ، وكذلك لابد له من الإيمان بكل كتاب أنزله على رسله ، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ﴾،[4] ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾،[5] ﴿ قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾،[6] ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[7] وقد ورد فى القرآن أسماء بعض الكتب السماوية صراحة ، وورد

---

(١) الأحزاب : ١٩ .

(٢) الأحزاب ـــ ٢٢ .

(٣) البقرة ـــ ٢٤٩ .

(٤) البقرة ـــ ٤ ـــ ٥ .

(٥) البقرة ـــ ٢٨٥ .

(٦) البقرة ـــ ١٣٦ .

(٧) غافر ـــ ٧٠ ، ٧٢ .

فيه الأمر بالإيمان بها ، والثناء عليها ، ووصفت التوراة بالهدى ، والنور ، والفرقان ، والضياء ، والإمام ، والرحمة (القصص : ٤٣ــ المائدة : ٤٤ ــ الأنبياء : ٤٨ــ الأحقاف : ١٢ــ) . ووصف الإنجيل بالنور ، والهدى ، والموعظة : (المائدة ٤٦) إذن ؛ فمن أصول الإسلام أن يؤمن المسلم بالكتب السماوية ، وبالرسالات المنزلة من عند الله ، جملة بالكتب غير المصرح بها ، وتفصيلا بالكتب المصرح بها ، فما من أمة فى الأرض إلا وقد جاءها رسول وكتاب ، ومن إحاطة الإسلام وشموله أنه جمع شرائع الأمم السابقة وتعاليمها ، وصاغها دستورا قويما لأمة الخلافة والشهادة ، ﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ .[1]

ومن إحاطة الإسلام وشموله ، وبيانه لجوانب الحياة ، صغيرها وكبيرها ، ما صلح منها وما فسد ، من طعام وشراب ، فأحل الطيب وحرم الخبيث ، ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ ،[2] ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات ﴾ ، وبين وجهة الأعمال ما رشد وما شرد ، وما استقام وما اعوج ، ﴿ فَمَن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ، ﴿ من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾ ،[3] ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ ،[4] ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ .[5] فبين الإسلام أن الأعمال هى قوام المسلم ، وهى ميزان بها يصعد ، وبها يهوى ، وبها يسود فى الأرض ، وبها يضيع من قدمه الطريق ، ويختلط

(١) الشورى ــ ١٣ .
(٢) المائدة ــ ٤ .
(٣) النساء ــ ١٢٤ .
(٤) النور ــ ٥٥ .
(٥) ص ــ ٢٨ .

عليه الدروب ، وبها يحاسب عند ربه ، وبها ينال الثواب والعقاب . ثم بين الهداية المضيئة والرشاد السامى ، فأرسل رسله ، وبعث أنبياءه ، وأنزل الكتاب بالحق والميزان ؛ ليقوم الناس بالقسط ﴿ كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ .[1] ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلوا عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ .[2] وتولت هذه الهداية الإنسان صغيرا وكبيرا وقبل أن يولد ، وواكبت خطوة فى حياته غدوه ورواحه ، وليله ونهاره ، وصباحه ومسائه ، تشد من أزره وترفع من همته ، وتعدل من خطوه ، حتى يؤدى دوره فى الحياة ، ويعيشها سعيدة عزيزة فى مرضات ربه سبحانه ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى بعد ذلك ، فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . ومن مظاهر الإحاطة والشمول . الدعوة العامة لجميع البشر ، وعدم التمييز بين جنس وجنس ، ولون ولون ، وفقير وغنى ، بل الكل أمام الله سواء ، والدين لهؤلاء جميعا . والرسول ﷺ بعث للناس كلهم : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ ،[3] ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ،[4] ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ،[5] ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ ،[6] ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ .[7] وبهذا يظهر لكل ذى عينين أن دعوة الإسلام ليست دعوة محدودة ، جاءت قصرا على فئة معينة تدعى ادعاء معينا ، وإنما جاءت غير

---

(١) البقرة — ١١٣ .
(٢) آل عمران — ١٦٤ .
(٣) الأعراف — ١٥٨ .
(٤) سبأ — ٢٨ .
(٥) الأنبياء — ١٠٧ .
(٦) الفرقان — ١ .
(٧) الأحزاب — ٤٠ .

محدودة بزمان ولا بمكان ، ولا بنوع أو جنس ، لتضع الأخوة العامة فى الخلق ، وفى العقيدة ، وفى السلوك والوجهة . وتضع المؤمنين بها عند مسئوليتهم ، وأمام ما تحملوه من هدى ونور ، ليبلغوه للناس ويشيعوه فى الأرض طريقا مستقيما ، وعقيدة لكل القلوب والنفوس ، تأخذ الناس إلى خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ، ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾ . وعقيدة الإسلام بهذا تخالف بعض الديانات والنحل المختلفة ، التى تعتبر الديانة قصرا عليها ، وأن الله فضلهم على الخلق ، وخصهم دون غيرهم بما لم يعطه أحدا من العالمين ، ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبنؤا الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ﴾ .[1] وفرق كبير بين هذا المفهوم المنحرف الأنانى ، وبين المفهوم السوى الحانى الكريم : ﴿ يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] إن التصور الإسلامى للإنسانية يمهد لسلام دائم بينها ، وتعاون متمر على المعروف والخير فى طريقها ، كما يبدد سحب الأحقاد والكراهية والتعالى والظلم من سمائها ، ويوجهها إلى الحب والإخاء .

ب ـــ النظام الاجتماعى

الأساس الثانى للحضارة الإسلامية هو : النظام الاجتماعى المتكامل ، الذى جاء به الإسلام ، وصبغ به الحياة الإسلامية ، وهو نظام ربانى ، اختاره الله للبشرية ؛ لينظموا حياتهم عليه ، وليحييهم به حياة طيبة ، ويسعدهم به فى الدنيا والآخرة ، لا تتداخل معه أهواء البشر الشاردة أو أنظارهم القاصرة ، وإنما هو وحى إلهى رائق ينظم حياة الناس وينسقها ، كما ينظم حركة العوالم ويهندسها ، ويسعد حياة البشر ويهنئها ، كما يخرج أزهار الربيع ويبهجها ، لأن صنعة الخالق فى الجماد أقل منها فى الإنسان ، ولطفه ورأفته بالناس أكثر وأفضل وأعظم منها فى غيره ، وهذا ما يقتضى تكريمه وتفضيله ، ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ ،[3] فناسب

---

(١) المائدة ـــ ١٨ .

(٢) الحجرات ـــ ١٣ .

(٣) الإسراء ـــ ٧٠

أن يكون نظام الحياة الاجتماعية فى الوحى الإلهى مواكبا لهذا التفضيل والتكريم ، ومن أهم أسس هذا النظام:ـــ

١ــ المساواة بين البشر

يقيم الإسلام المجتمعات الإسلامية على قاعدة مهمة مستقيمة ، هى : المساواة التامة بين البشر ، ويقرر المساواة على إطلاقها ، فلا قيود ولا استثناءات ، وإنما مساواة تامة بين الأفراد ، ومساواة تامة بين الجماعات ، ومساواة تامة بين الأجناس ، ومساواة كاملة بين الحاكمين والمحكومين ، لا فضل لرجل على رجل ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لعربى على عجمى ، وذلك لقوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ،[1] قومية عالمية ، ووحدة إنسانية متكاملة ، تكون جماعة دولية ، تمحى فيها الامتيازات القائمة على الاختلاف فى الألوان والأجناس واللغات والحدود الجغرافية . ومن المحال أن تكون حضارة إنسانية عالمية إلا بتحقيق ذلك ، لأنها من جانب تحافظ على فردية الفرد ، ومن جانب آخر تطهرها من كل ما قد يكون فيها من الميول المتناقضة ، والنظام الإسلامى بهذا يقطع الطريق على النظام الطبقى وما يصاحبه من تظالم اجتماعى ، ويفتح الطريق أمام كل فرد لنيل ما يصلح له وبذل ما يقدر عليه من جهود ، موقنا أنه سينال أجره ، ويجنى ثمرة جهاده ، وقد كانت هذه المبادىء التى اعتنقها المجتمع الإسلامى منذ نشأته ثورة اجتماعية هائلة ، بدلت الأوضاع الاجتماعية ، ووضعت الآصار عن المستضعفين ، بعد أن قاست البشرية منذ فجر التاريخ من التفاوت والتظالم الاجتماعى ، ما جعلها ترزح تحت نير العبودية والاستغلال أزمنة متطاولة ، وأحقابا عديدة ، وكانت قضية المساواة ـــ بل حتى تصورها ـــ حلما يبرق كالسراب ، ثم يتوارى عن أعين اللاهثين الحيارى ، فقد استعبد الإنسان أخاه الإنسان ، وشرع لذلك القوانين التى تمنع الترقى والسمو والتطلع إلى آفاق الكرامة ، وحتى الفلاسفة المثاليون قبل الإسلام من أمثال أرسطو وغيره من الذين حاولوا بناء مجتمعاتهم بالعقل والحكمة وقعوا فى مصيدة الاسترقاق والفوارق بين الطبقات ، فقال أرسطو : « إن الله

(١) الحجرات ـــ ١٣ .

خلق فصيلتين من الأناس ، فصيلة زودها بالعقل والإرادة ، وهى اليونان ، وقد فطرها على هذا التقويم الكامل ، لتكون خليفته فى أرضه ، وسيدة على سائر خلقه ، وفصيلة لم يزودها إلا بقوى الجسم وما يتصل اتصالا مباشرا بالجسم ، وهؤلاء هم البرابرة ، أى ماعدا اليونان من بنى آدم ، وقد فطرهم الله على هذا التقويم الناقص ، ليكونوا عبيدا مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة » .[1] وإذا كان هذا قول الحكماء والعقلاء وزعماء الإصلاح قبل ذلك ، فماذا يكون قول غيرهم من الحكام والعامة ، فضلا عن قول المؤلهين من الزعماء ، فالبون شاسع بين فكر الإنسان وهداية الله ، وبين تصور البشر وعدل الخالق سبحانه ، ولهذا نجد أن المفهوم الإسلامى يحمل هذه السمة ، وينطلق من هذه الرحمة ، ويصطبغ بهذا العدل ، أخرج ابن عبد الحكم عن أنس رضى الله عنه أن رجلا من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ياأمير المؤمنين عائذ بك من الظلم ، قال عمر : عذت معاذا ، قال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته ، فجعل يضربنى بالسوط ، ويقول أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر إلى عمرو رضى الله عنهما يأمره بالقدوم ، ويقدم بابنه معه ، فقدم فقال عمر : أين المصرى ، خذ السوط فاضرب ، فجعل يضربه بالسوط ، ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين قال أنس : فضرب ، والله لقد ضربه ونحن نحب ضربه ، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه ، ثم قال عمر للمصرى : ضع على صلعة عمرو ، فقال ياأمير المؤمنين : إنما ابنه الذى ضربنى ، وقد استقدت منه ، فقال عمر لعمرو : مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، فقال : ياأمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى[2].نعم هذا عدل الشرائع وهداية السماء ، لا أدران البشر وخطرات الجاهلية رجل يضرب بسوط فى مصر بعيدا عن المدينة بآلاف الأميال ، يرسل عمر إلى استدعاء من ضربه وإن كان ابن الخليفة ، ويحضر أباه الوالى كذلك ، ويقتص منه أمام الجميع ، ويؤنب والده الوالى ، ويرى الجميع أن عدل الإسلام ومساواته لا يفرق بين أمير وسوقة ، أو فقير وحقير ، وغنى وعظيم ؛ لأن الكل أمام الله سواء ، ومن هذا المنطلق سار الناس بطاقاتهم إلى المجد ، لا يعترضهم جهل أو غرور أو

---

(١) قصة الملكية فى العالم ـــ الدكتور على عبد الواحد وافى ص ٧٢ .

(٢) حياة الصحابة ٢ / ٢٣٥ ط دار القلم .

تسلط ، تتساوى المناكب ، وتصطف الأقدام ، ويسعى الكل ، يعليه عمله ، ويرفعه جهده ، أو يوبقه كسله ، ويقعده ضرره ، ولهذا نرى أن المجتمع الإسلامى برزت فيه طاقات جبارة ، لولاه ما كان لها فى الحياة شأن أو ذكر . لقى عمر بن الخطاب رضى الله عنه نافعا ، وقد قدم للحج ، وكان قد استعمله على مكة ، فقال : من استعملت على أهل الوادى ، فقال : « عبد الرحمن بن أبزى » مولى من موالينا ، فسأله عن حاله ، فقال : إنه قارىء لكتاب الله ، عالم بالفقه والفرائض . فسُرَّ عمر رضى اللهعنه ، وقال : أما إن نبيكم قال : إن الله يرفع بهذا الكتاب قوما ويضع آخرين .

وكان « عطاء بن أبى رباح » مولى لبنى فهر ، تولى أمناء مكة ، وكان ينادى منادى الخليفة الأموى فى موسم الحج : « لا يفتى الناس إلا عطاءُ بن أبى رباح ، وكان على دمامته وسواد شكله وعنصره غير العربى يتصدر أرفع مركز شعبى بين الناس ، وكان طاووس بن كيسان — وهو فارسى — لا يبالى أن يوبخ الخلفاء فى مجال التذكير والإرشاد ، وكانوا يتلمسون رضاه ، وكانت قلوبهم تفيض هيبة له وإجلالا ، وسارت جنازته يوما فوق رؤوس عربية مسلمة مطأطئة ، وكان « واصل بن عطاء» المعتزلى مولى لبنى ضبه ، وكان صدرا فى الأدب واللغة والعلوم .[1] وهكذا انقلب التفاضل بين الناس من الجنس واللون والقبيلة إلى المكتسبات الإرادية ، والأعمال النافعة ، والجهد المبذول فى سبيل ارتقاء الإنسان ، من علم نافع ، وفكر نابه ، وخصائص مميزة تؤهل صاحبها لذلك .

تفاوت الناس

ولا شك أن الناس تتفاوت قدراتهم وخصائصهم ، فلا بد أن تتفاوت أوضاعهم تبعا لذلك ، وهذا شرط طبيعى لتحمل المسؤليات فى الحياة ، ولإعطاء القوامة من يستحقها ويستطيع القيام عليها ، وهذا هو المقصود من قول الحق سبحانه ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ [2] وهذا الأمر كما يكون بين الرجال ، يكون بين الرجال والنساء ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم

(١) معالم الحضارة لعلوان ص ٢٣

(٢) الزخرف — ٣٢

على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، إن الله كان بكل شيء عليما ﴾ .[1] هذا فى مجال الأعمال . أما فى مجال المعاملة والحقوق والكرامة والعدل والحرية والأخلاق والإنسانيات والروابط الأدبية والعبادات والشعائر فالكل سواء .

٢ـ العدالة المطلقة

جاء الإسلام لينشىء أمة ، وينظم مجتمعا ، ويبنى عالما ، ويقيم نظاما ، جاء دعوة عالمية إنسانية ، لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس ، إنما العقيدة وحدها هى الآصرة والرابطة القومية والعصبية والأخوية ، ومن ثم جاء بالمبادىء التى تكفل تماسك الأفراد والجماعات ، واطمئنان الاشخاص والأمم والشعوب ، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود ، جاء بالعدل ، الذى يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل ، لاتميل مع الهوى ، ولا تتأثر بالود أو البغض ، ولا تتبدل مجاراة للصهر أو النسب ، والغنى والفقر ، والقوة والضعف ؛ إنما تكيل بمكيال واحد ، وجاءت آيات العدل فى القرآن حول هذه المعانى قاطعة آمرة :﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾[2] ، والعدل على ماقرره العلماء فى هذا الموطن هو فصل الحكومة على مافى كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ ، لا الحكم بالرأى المجرد والهوى ، فإن ذلك ليس من الحق فى شيء ، إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ، فلا بأس بإعمال الرأى والاجتهاد حسب قواعد الشرع ومقاصده ، من أناس بلغوا درجة الاجتهاد ، وأما الحاكم الذى لايدرى بحكم الله ورسوله ، ولا بما هو أقرب إليهما فهو لا يدرى ماهو العدل ؛ لأنه لايعقل الحجة إذا جاءته ، فضلا عن أن يحكم بها بين عباد الله »[3]

---

(١) النساء ـ ٣٢ .
(٢) النساء ـ ٥٨ .
(٣) فتح القدير للشوكانى ١ / ٤٨٠ ط المعرفة .

وجوب العدل :

وقد ذكر الفخر الرازى ، إجماع العلماء على وجوب الحكم بالحق على الحاكم فقال « اجمعوا على أن من كان حاكما وجب عليه أن يحكم بالعدل : قال تعالى ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾[1] ، والتقدير : إن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، وقال ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾[2] ، وقال ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾[3] ، وقال : ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ﴾[4] وعن أنس عن النبى ﷺ قال : « لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت ، وإذا حكمت عدلت ، وإذا استرحمت رحمت » ، وعن الحسن قال : إن الله أخذ على الحكام ثلاثا : أن لا يتبعوا الهوى ، وأن يخشوه ولا يخشوا الناس ، ولا يشتروا بآياته ثمنا قليلا ، ثم قرأ : ﴿ ياداود إنا جعلناك خلفة فى الأرض ﴾ الآية ، وقرأ ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيُّون ﴾ إلى قوله ﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ﴾[5] ومما يدل على وجوب العدل الآيات الواردة فى مذمة الظلم ، قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وأَزْوَاجَهُمْ ﴾[6] ، وقال عليه الصلاة والسلام « يُنَادِىَ مُنَادِى يَوْمَ الْقِيَامَة : أَيْنَ الظَّلَمة وأَيْنَ أَعْوَانُ الظَّلَمة ، فَيُجْمَعُونَ كلهم حتى من برى لهم قلما ، أو لاق لهم دواة ، فيجمعون ويلقون فى النار » وقال تعالى أيضا : ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الله غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾[7] وقال ﴿ فَتِلْكَ بِيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بمَا ظَلَمُوا ﴾[8] [9]

أقسام العدالة

والعدالة ذات شعب :

أولها ــ العدالة الذاتية أو النفسية :

وهى عدالة تنبع أولا من ذات الإنسان ، بأن يقدر كل إنسان لنفسه من

---

(١) النساء / ٥٨ .
(٢) النحل / ٩٠ .
(٣) الأنعام / ١٥٢ .
(٤) ص / ٢٦ .
(٥) المائدة / ٤٤ .
(٦) الصافات / ٢٢ .
(٧) إبراهيم ــ ٤٢ .
(٨) النمل ــ ٥٢ .
(٩) الفخر الرازى ١٠ / ١٤١ ط طهران .

الحقوق بمقدار ما يقدره لغيره ، على ألا يزيد على الناس فى حق ، وقد يفرض على نفسه الزيادة فى الواجب ، وهذه العدالة تقوى الأواصر بين الجماعة وتزرع الحب بينهم ، وهذه العدالة هى التى عناها الرسول ﷺ بقوله « وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] ، وقوله عليه السلام « عَامِلِ النَّاسَ بِمَا تُحِبُّ أن يُعَامِلوكَ به » ويتمثل ذلك حتى فى النظر ، وحتى فى التحية بين المسلمين ، ينبغى أن يلاحظ المسلم ذلك ، قال تعالى ﴿ وإِذَا حُيِيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدوها ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِ شيءٍ حَسِيباً ﴾[2] ومن أجل هذه اللمسات من العدل فتحت الأرض والنفوس والقلوب أبوابها للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهذا ما جعلهم يقودون موكب الحضارة الإنسانية الصاعد إلى المجد بغير تيه ، أو شرود أو انحراف إلى الهاوية .

ثانيها ـــ العدالة القانونية :

وأول مايطالعنا فى العدالة القانونية هو: المساواة فى القانون ، فلا يكون هناك قانون للأشراف وآخر لغيرهم ، أو يكون قانون المبيض وآخر للملونين ، وأن يكون هناك حصانة لأحد ولا يكون ذلك للآخر ، وقد ابتليت أمم كثيرة بمثل هذه العلل التى نفاها الإسلام ، وأثبت المساواة فى العدالة ، أو عدالة المساواة والأمثلة لذلك فى التراث الإسلامى كثيرة . ومما يروى فى ذلك أن قريش أهمتهم المرأة المخزومية التى سرقت ، وقد اعتزم النبى ﷺ أن يقطع يدها لتكرار السرقة منها ، ولأن حد الله يجب أن يقام ، ولا يحابى أحد لجاهه ، فوسطوا أسامة بن زيد حِبَّ رسول الله ﷺ ليشفع فى ذلك ، فغضب رسول الله ﷺ ، وقال له لائما : « أتشفع فى حد من حدود الله ياأسامة ! » ثم وقف خطيبا وقال : « مابال أقوام يتشفعون فى حد من حدود الله ، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف قطعوه ، وأيم

---

(١) البخارى باب الإيمان ٧ .

(٢) النساء / ٨٦ .

الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[1] . وما لرسول الله ﷺ لايفعل ذلك وتعاليم القرآن صريحة واضحة تأمر بالعدل ، وتحض عليه ، لا تفرق بين قريب وبعيد ، ولا بين غنى وفقير﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ،وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ،إِنْ يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلوا ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُم فَاعْدِلُوا ، ولو كانَ ذَا قُرْبى ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا ﴾[4] وقد تحرى المسلمون العدل فى القضاء ، ورسموا أول قانون للنزاهة والعفة والمساواة بين الخصمين فى كل شىء ، فى المجلس ، وفى النظرة ، والإشارة ، والالتفاتة ، ولقد كان عمر رضى الله عنه يأمر قضاته بالتسوية بين الخصوم فى المجلس والنظر والإشارة والإقبال ، ولقد قال فى كتابه إلى أبى موسى الأشعرى « سَوِّ بين الخصمين فى مجلسك وإشارتك وإقبالك ، حتى لا ييأس ضعيف من عدلك ، ولا يطمع قوى فى حيفك »[5] وهذا مبدأ فريد فى العدالة المطلقة ، فتح الآفاق أمام عدالة إنسانية أراحت الإنسانية من حيف وجور شديد ، ووضعت اللمسات الأخيرة للكرامة الإنسانية والأمان الاجتماعى المنشود .

جرائم الضعفاء

جاء الإسلام بمبدأ عجيب فى التنظيم القانونى ، لم يَسْمُ إليه إلى الآن قانون فى الأرض ، فأكثر القوانين — وإن كان يسير على أساس المساواة القانونية — عند التطبيق نراه يتجه إلى تصغير جرائم الكبراء ، وتكبير جرائم الضعفاء ، فأكثر القوانين لا تفترض أن رئيس الدولة يرتكب جريمة ، ولذلك لا تنص على عقوبة خاصة بجرائمه ، وهذه القوانين كانت إلى عهد قريب تذكر عن الملوك أن ذاتهم مصونه لاتمس ، ومن

---

(١) رواه مسلم ٥ / ١١٤ حدود المختصر ٢٧٩ .

(٢) النساء — ١٣٥

(٣) الأنعام — ٥٢

(٤) المائدة — ٨

(٥) المجتمع الإنسانى أبى زهرة ص ١٢١

المطبقين للقانون من كان يصرح بقوله إذا تحدث عن الملك « الذات المقدسة » ، وحتى فى البلاد التى زالت منها الملكية لا تزال متأثرة بهذه القوانين ، ويظهر هذا التأثر فى الواقع ذاته ، والمنطلق الذى يحاط به هذا الرئيس وبطانته ، والسلطات التى تخول له ، والقوانين التى يتحكم فيها ، ويصدرها ، ويأمر بتنفيذها .

وهذا يخالف التصور الإسلامى والنظرة القانونية فى الإسلام ، فقد أجمع الفقهاء على أن الجرائم التى توجب القصاص لافرق فيها بين الراعى والرعية ، ولا بين الحاكم والمحكوم ، وأن هذا ينطبق على الجميع ، وإذا ارتكب الخليفة ما يوجب الحد كأن يشرب خمرا أو يزنى وجب عليه الحد ، وهذا رأى جمهور العلماء وفوق هذا فقد جاء القرآن بتخفيف العقوبة حال الضعف وحال الامتهان ؛ لأن ضعف الضعيف وامتهانه يسهل عليه ارتكاب الجريمة ، والجريمة مهانة ، وحيث كانت المهانة كانت معها سهولة الجريمة ، فالجريمة تسهل على المهين وتصعب على الكريم ، وذلك المبدأ هو ماقرره القرآن الكريم من عقوبة العبيد بالنسبة لعقوبة الأحرار ، فإنه جعل عقوبة العبد على النصف من عقوبة الحر ، فإذا زنى العبد جلد خمسين جلدة ، وإذا زنى الحر جلد مائة جلدة ، وإذا شرب العبد الخمر جلد أربعين ، وإذا شرب الحر جلد ثمانين ، وإذا رمى العبد امرأة بالزنى من غير بينة يجلد أربعين ، بينما يجلد الحر فى هذه الحال ثمانين جلدة ، والجريمة تسير مع الصغر والكبر سيرا طرديا ولا تسير سيرا عكسيا ، وهذا المبدأ يراعى أحوال وظروف الجريمة ، وفوق ذلك فهو يشدد على الكبير الذى ينظر إليه الناس ، يقتدى به ، فإذا علم الناس أن الكبير يرتكب الفحشاء سهلت على من دونه ، واقتدوا به ، وشاعت الفاحشة فى الذين آمنوا ، أما الضعيف فإنه لايقلده أحد ، وينال ازدراء الناس بما يرتكب ويقترف ويبين القرآن الكريم الحكم فى العقوبة للإماء ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ، فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [1] ، فقد علم الله ما يحيط بحياة الرقيق من مؤثرات تجعل الواحدة — ولو كانت متزوجة — أضعف من مقاومة الإغراء والوقوع فى الخطيئة ، فلم يغفل هذا الواقع ويقرر لها عقوبة كعقوبة الحرة ، ولم يعفها نهائيا من العقوبة بل جعل الأمر وسطا ، وكما بينا فإن الإسلام خالف جميع القوانين فى ذلك ،

(١) النساء — ٢٥ .

وجاء بنظرية إنسانية جديدة ، يجب أن تلتفت إليها الإنسانية ، وأن يدرسها الفقهاء والمشرعون ، فالإسلام لم يجعل من انحطاط درجة الرقيق سببا فى مضاعفة العقوبة ، كما كانت تفعله القوانين البشرية السائدة فى الأرض كلها ، تفرق بين الطبقات المنحطة والراقية ، وبين الوضعاء والأشراف ، تخفف عن الأشراف والطبقات الراقية ، وتقسوا على الضعفاء . فالقانون الرومانى الشهير يشدد العقوبة كلما انحطت الطبقة ، فيقول : « من يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء فعقوبته — إن كان من بيئةٍ كريمة — مصادرة نصف ماله ، وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفى من الأرض »[1] وكان المعمول به فى القانون الهندى الذى وضعه « منو » ، وهو القانون المعروف باسم « منو شاستر » ، أن البرهمى إن استحق القتل فلا يجوز للحاكم أن يحلق رأسه ، أما غيره فيقتل !! وإذا مد أحد المنبوذين إلى برهمى يدا أو عصا ليبطش به قطعت يده ...الخ[2] وكذلك كان اليهود إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذ سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وما تزال القوانين الحديثة تغفر للسادة مالا تغفره للضعفاء الملونين ، وما تزال التفرقة العنصرية تعمل عملها فى وسط المدنية الحديثة التى تدعى التقدم والحرية ، ولكن الإسلام فوق أنه يسوى بين الناس ، إلا أنه يلاحظ الواقع والحالة التى يكون عليها ضعف الضعفاء وامتهان الممتهنين ، فيخفف عنهم ، ويمسح على قلوبهم ، ويأخذ بيدهم ، ويقدر ماهم عليه .

ثالثها العدالة الاجتماعية :

من العدالة الاجتماعية أن تراعى المواهب ، فيمكن كل ذى موهبة أن يعمل بمقدار طاقته ، وتهيأ له الفرص ليستفيد ويفيد ، والإنسانية تعلو دائما بسيادة النابهين وجهد الموهوبين فيها . فإذا عطلت تلك المواهب ، وقيدت هذه السواعد ، انحدرت الأمم إلى هاوية سحيقة ، وساد الجهل ، وحرمت الأمة من كل ابتكار ، فدائما الجيوش تقودها أفراد ، والاختراعات تبزغ فى عقول أفراد ، والحكمة تؤتى أفراداً ، وصدق الرسول ﷺ « النَّاسُ كَإِبِلٍ مَائَةَ لَا تَجِدُ فِيهَا راحلة »[3] ، فمن العدالة

---

(١) مدونة جوستنيان ترجمة عبد العزيز فهمى .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ص ٥٩ ط دار القلم

(٣) مسلم ٧ / ١٩٢ فضائل الصحابة ، مختصر ٤٦٧ ، أحمد ٣ / ٧ ترمذى أداب ٨٣ .

الاجتماعية أن يفسح لكل مجال تظهر فيه تلك المواهب لتؤدى ضريبة هذا النبوغ ، ويظهر خير الله على أيدى عباده الذين منحهم فضله ، ولهذا كان المعطل لهذه المواهب مضيعٌ لنعمة الله سبحانه ، وخائن للإنسانية . قال رسول الله ﷺ « من اِسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَابَةٍ وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَى لله مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ »[1] ومن العدالة الاجتماعية أن يعان الضعيف ، ويسد عجز العاجز عن العمل ، بتسهيل أسباب الحياة له ، فإن كان هناك شيوخ أفقدهم ثقل السنين القدرة على الكفاح ، ونساء ضعفن عن أن يعملن بسبب أنوثتهن ، ويتامى فقدوا العائل ، ومرضى بأمراض مزمنة يعوقهم المرض عن أن يكدحوا فى الحياة ، فمن العدل أن يعطوا مايكفيهم ويسعدهم فى هذه الحياة ، عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ : لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ .. مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً يَوْمِ الْقِيَامَةُ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِما سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةْ »[2] ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَر ﴾[3] ، ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بالدّين ، فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ، ولَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ ﴾[4] ، ﴿ وَالَّذِينَ فى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُوم لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ ﴾ ،[5] ﴿ وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسّائِلِ وَالْمَحْرُوم ﴾[6] فبالعدالة الاجتماعية تعم الأخوة وتسود المحبة ، ويعم السلام والأمن والطمأنينة .

٣ ـــ الحرية :

يقيم التصور الإسلامى المجتمع على أساس الحرية فى أجل معانيها ، وأسمى مقاصدها ، وأروع مظاهرها . من هذه الحريات

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ـــ الترغيب والترهيب ٣ / ٤٦٢ .

(٢) متفق عليه البخارى ٣ / ٩٠ فتح البارى ٥ / ٧٠ ، ٤ / ٣٠٧ مسلم ١ / ٣٩٩ نووى ٦ / ١٦٠ .

(٣) الضحى ـــ ١١ .

(٤) الماعون ـــ ٢ ـــ ٣ .

(٥) المعارج ـــ ٢٥.

(٦) الذاريات ـــ ١٩ .

حرية الاعتقاد :

يقرر الإسلام حرية الاعتقاد ، ويجعل لكل إنسان الحق فى أن يعتنق من العقائد ما يشاء ، وليس لأحد أن يجبره على ترك عقيدته ، أو اعتناق عقيدة أخرى ، ولو كانت هذه هى عقيدة الإسلام . وذلك واضح فى قوله تعالى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾[(١)]، وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[(٢)]، وقوله ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِر ﴾[(٣)] ، وقوله تعالى ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾[(٤)]ونفى الإكراه هنا ، معبر عنه بنفى الجنس ، كما يقول النحويون ، أى : لا إكراه ، أى نفى جنس الإكراه ، ونفى كونه موجودا ابتداء ، بل مستبعد من عالم الوجود والوقوع ، والنفى للجنس أحق إيقاعا ، وآكد دلالة على النفى ، والإسلام — وهو أرقى تصور للوجود والحياة ، وأقوم منهج للمجتمع الإنسانى بلا جدال أو مراء — هو الذى ينادى بأن لا إكراه فى الدين ، وهو الذى يأمر أتباعه بتقرير هذا المبدأ ، وأنهم لا بد أن يلتزموا به ، ويمتنعوا من إكراه أحد على هذا الدين ، فكيف بالمذاهب الأرضية والنظم القاصرة المتعسفة ، وهى تفرض فرضا بسلطان العسف ، ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة ، فإما أن يعتنق مذهب الدولة وهو يحرمه من الإيمان بإله للكون يصرفه ويرعاه ، وإما أن يتعرض للقهر والموت بشتى الوسائل والأسباب ، ولا ولا يخفى على كل منصف ما يقرره الإسلام فى هذا المبدأ الذى يتجلى فيه تكريم الإنسان ، واحترام إرادته ومشاعره ، وترك حريته لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال فى الاعتقاد ، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه ، وهذا هو أخص خصائص التحرر الإنسانى .

---

(١) البقرة — ٢٥٦ .
(٢) يونس — ٩٩ .
(٣) الغاشية — ١٨ .
(٤) النور — ٥٤ .

حرية الفكر :

كما يقرر الإسلام حرية الفكر والتفكر ، ويحض الناس على التأمل والتفكر فى كل شيء ، ولقد قامت الدعوة الإسلامية على تنبيه الفكر ، وإذكاء العقل ، وحث الناس على التأمل والتفكر فى كل شيء ، ولقد قامت الدعوة الإسلامية على تنبيه الفكر ، وإذكاء العقل ، وحث الناس على التأمل والبحث ، واستجلاء الحقائق ، والنظر إلى ما وراء الأشياء ، وإلى غايتها ، ولهذا نرى دعوة القرآن إلى التفكر فى خلق السموات والأرض ، وفى خلق أنفسهم وفيما حولهم مما تقع عليه أبصارهم ، أو تسمعه آذانهم ؛ ليصلوا من وراء ذلك كله إلى معرفة الخالق ، وليستطيعوا أن يميزوا بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ونصوص القرآن كثيرة فى هذا المجال من دلك قوله تعالى : ﴿ قل إنّما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ ٱلسَّمَوَاتِ والأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لّلمُوقِنينْ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُون ﴾ [3] ، وقوله تعالى ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمواتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي ٱلآياتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُون ﴾ [4] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلبَابِ ﴾ [5] إن الفكر فى الإنسان هو حياته وهو كرامته وهو دينه وطريقه إلى ربه سبحانه ، ولأمر ما يقول الله عنه ﴿ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ ؛ وَلِيُنْذَرُوا به وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُو إِلهٌ وَاحِدٌ ، وليذَّكرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾ [6] ، ويقول القرآن مصورا أحاديث أهل جهنم . ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [7] .

---

(١) سبأ ـــ ٤٦ .

(٢) الروم ـــ ٨ .

(٣) الداريات ـــ ٢٠ ـــ ٢١ .

(٤) يونس ـــ ١٠١ .

(٥) آل عمران ـــ ٧ .

(٦) إبراهيم ـــ ٥٢

(٧) الملك ـــ ١٠ .

حرية القول :

كما يقرر الإسلام حرية القول ، ويجعلها حقا لكل إنسان ، بل قد يكون على الإنسان أن يستعمل حرية القول فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ورد الأمر إلى نصابه ، وتنقية المجتمع مما يصيبه من أمراض اجتماعية وخلقية ﴿ وَلْتَكُن مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَر ﴾ ،[1] بل قد يحتم الإسلام على المرء أن ينطق بالحق إذا سكت الناس ، ويجأر به إذا توارت الأصوات ، وخفتت الألفاظ ، وكممت الأفواه ، وذلك نراه فى قول الرسول ﷺ « مَنْ رَأى مِنْكُم مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرهُ بيده ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه ، فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه وَذَلِكَ أَضْعَف الإيمان » ،[2] وقوله ﷺ « أفْضَلُ الْجِهَاد كَلِمَةُ حَقٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِر » ،[3] « سَيِّدُ الشُّهَداءِ حَمْزَة بِنْ عَبْدِ الْمُطَّلِب وَرَجُلٌ قَامَ إلى إمَامٍ جَائِرٍ فَأمَرهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَه »[4] كما نهى الإسلام المسلم عن تحقير نفسه بأسره لرأيه وكتمه لفكره ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لايُحَقِّرنَ أحدُكم نَفْسَهُ قَالُوا : يَارَسُولَ الله ، وَكَيْفَ يُحَقِرُ أحدُنا نَفْسَه ؟ » قال : « يَرَى أَنَّ لله عَلَيْه مَقَالًا ، ثُمَ لَا يَقُولُ فِيهِ ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلّ يومَ القيامة : مَامَنَعَك أن تَقُولَ فى كذَا وكَذَا ؟ فَيَقُولُ خَشيَةُ النَّاس فَيَقُولُ : فَإيايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى »[5] ويعجب الإنسان إذ يرى تعاليم الإسلام هى التى تحض الإنسان على إبداء رأيه وإظهار فكره ، وتنهاه أن يتخاذل أو يستكين أو يغمض عينيه أو يطمس بصيرته ، ويرى بعد ذلك بعض الأديان والنحل تطلب عكس هذا ، فتقول « اعصب عينيك وسر وأنت أعمى » ، ثم تقول « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، وحتى دعاة الحرية الذين يطنطنون بها ، وتجرى بها أنهار الصحف ، وتشع بها نبضات الأثير ، لا

---

(١) آل عمران — ١٠٤ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أبو داود والترمذى ، حسن .

(٤) أخرجه الترمذى والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

(٥) رواه ابن ماجة ورواته ثقات .

يخرجون فى الحقيقة كثيرا عن هذا الإطار . وهذا ما عبر عنه أحد رواد الفكر الاشتراكى الفرنسى فى القرن التاسع عشر عندما قال : « لقد قيل للناس إنهم أحرار ، لكنهم أحرار ليفعلوا ماذا ؟ إن للناس حقوقا أساسية لا يمكن انتزاعها ، ولكن لم يتوافر للناس حق العمل من أجل الخير » ، أعطوا الحرية فى الشيء التافه فكانت كلاما ، ولقد عبر عن هذا المفهوم نفسه (أناتول فرانس) قائلا : لقد كان للناس حرية النوم تحت جسور باريس ،[1] وقد أشار المربون والفلاسفة ودعاة الحرية إلى وجهات نظر متباينة حول تربية الشخصية الحرة ، فرأى « هيجل » أن تكون الحرية عن طريق استبعاد الذات ، ورأى « ميل » أن تكون الحرية من أجل الفردية ، ورأى « ديوى » أن الحرية تتم عن طريق التعاون ، ورأى « روسو » أن الطبيعة وحدها خير معلم ، ولنسمع إليه يقول « إذا كسر طفلك زجاج النافذة فدعه يتألم من البرد ، وإذا خالفك وخرج تحت المطر وتبللت ثيابه فدعه يمرض ، وبالاختصار ، دع الطبيعة تربى طفلك وفق قوانينها ونواميسها »[2]

وإذا نظرنا إلى بعض هذه الأقوال يظهر لنا من أول وهلة أن من يقول إن الطبيعة وحدها هى خير معلم يعبر عن قول مرفوض عقلا ، إذ ربما يأخذ الإنسان من الحياة بعض التجارب ، ولكن أن يترك الإنسان نفسه للطبيعة ، التى هى مجموعة من الغرائز والأهواء ، تسخر نفسه وجسمه معا لإشباع حاجته العضويه ، وأطماعه المادية ، وعرائزه الحيوانية ، ويقول الإنسان : إنها تربية ، هذا مالا يقول به سَوِى ، وأمَّا ما نلحظه من تضارب فى أقوال « هيجل » ، وميل ، وديوى ، وروسو » ؛ فهو نتيجة طبيعية للفردية التى ينطلق فيها هذا التفكير ، فليس عندهم قاعدة اجتماعية صلبة ، أو أرضية دينية رصينة ، يبنى عليها تربية مستقرة سامية ، ولهذا جاءت متضاربة على هذا النحو ، لا تشفى غليلا ، ولا توضح طريقا ، أو تسعف محتاجا .

---

(١) معجزة الإسلام التربوية للدكتور محمد أحمد السيد ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٠ .

أما التربية الإسلامية فترتكز على دعامتين :

الأولى : الحرية فى الأهواء ، فالإنسان يكون حرا فى أن يمارس حريته بشرط أن يكون سيد نفسه ، فلا تستبد به أهواؤه ، أو تستعبده شهواته .

الثانية : عدم تعارضها مع الصالح العام ، فلا تتعارض حرية الفرد مع حق المجتمع بكامله ، فالإنسان حر ، ولكنه مسؤول فى الوقت نفسه عن خير المجموع والصالح العام ، ويعنى هذا أن الحرية الإسلامية ترتكز على قطبين ، أحدهما شخصى ، والثانى اجتماعى ، والعامل المهيمن على ذلك كله هو الأسوة الحسنة ، وخير الناس ، ورضاء الله سبحانه .

ولقد تجلى لنا ذلك فى مثل ضربه رسول الله ﷺ لنا ؛ ليحدد تلك الأسس فى حديثه القائل « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا فى سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا ، ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » ،[1] فتصور الإسلام عن الحرية ليس هو الحرية المتسيبة ، ولكنه الحرية التى تبنى الإنسان والمجتمع ، وتنفع الناس ولا تدمرهم ، ولهذا رأيناهم يستعملون تلك الحرية فى التقويم والإصلاح والنفع : يقف أحدهم أمام الحاكم بكل قوة ليقول له « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بحد سيوفنا » ، والخليفة لم يغضب ، بل حمد الله على ظهور تلك الحرية وبروزها فى الأمة فقال : « الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه »

٤ــ الأخوة

ويقيم التصور الإسلامى المجتمع على أساس متين من الأخوة ، وإخوة الإسلام تعمل فى دائرتين .

---

(١) البخارى والترمذى . البخارى مظالم ٣ / ١٠٢ ، ترمذى . متن ــ ١٣ .

الدائرة الأولى :ـــ

الأخوة الإنسانية العامة : المتمثلة فى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ اَلَّذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجالاً كَثِيراً وَنِسَآءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذى تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيباً ﴾ [١] وهذه الدائرة تتبنى الحياة الجماعية التى تنتفى فيها عبودية البشر للبشر ، كما يبتعد فيها الصراع العنصرى البغيض ، الذى ذاقت البشرية منه ماذاقت ، وما تزال تتجرع منه حتى اللحظة الحاضرة تفريقا فى اللون والعنصر والجنس ، كما يتلاشى الاستعباد الطبقى والحزبى ، الذى يقطع الأمم ، ويغرق الهمم ، ويؤسس العداوات . ولو تذكر الناس هذا التصور القرآنى وهذه الحقيقة لتضاءلت فى حسهم كل الفوارق المصطنعة والطارئة التى نشأت فى حياتهم ، ففرقت بين أبناء النفس الواحدة ، ومزقت وشائج الرحم الواحدة ، وما كان يجوز أن تطغى على مودة الأرحام وحقها فى الرعاية وصلة النفس وحقها فى المودة والأخوة والسلام .

الدائرة الثانية :ـــ وتتكون من دائرتين . الأولى :

دائرة الأخوة الإيمانية المتمثلة فى قوله تعالى ﴿ إِنَّما الْمُؤْمِنونَ إِخْوَةٌ ﴾ [٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُروا إذ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً ﴾ ، [٣] وقوله تعالى ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاة وآتَوُا الزَّكَاة فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ ﴾ ، [٤] ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنا الَّذِينَ سَبَقونَا بالإِيمانِ ﴾ ، [٥] ويقول الرسول ﷺ مؤكدا هذا المعنى « المُسْلِم أَخُو المُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يُسْلِمُه ، وَمَنْ كَانَ فى حَاجَة أخيه كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فى حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ الله عنه كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيامَة ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ

(١) النساء ــ ١ .
(٢) الحجرات ــ ١٠ .
(٣) آل عمران ــ ١٠٣ .
(٤) التوبة ــ ١١ .
(٥) الحشر ــ ١٠ .

يَوْمَ القيامَةِ »[1] .

والدائرة الثانية هى دائرة التجمع على المبدأ ، والدعوة إلى الخير ، وحمل لواء الطهر ، وركيزة الحضارة الإنسانية وتحمل تبعاتها ، فكان لابد إذاً من قيام جماعة تتلاقى على الإيمان بالله ، والأخوة على هذا الإيمان ؛ لتقوى على الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة ، وكلتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذى تقوم به الأمة المسلمة ، والتى اختارها الله للقوامة عليه فى الأرض ، وحمل لوائه ، والدعوة إليه ، وتحقيقه ؛ لتسعد البشرية ، وتحيا حياة جديرة بالاحترام والتقدير ، كما أراد الله لها وصلة الدائرة الثانية بالدائرة الأولى : أن الدائرة الأولى تشعر التجمع المؤمن أنهم لا يفضلون غيرهم إلا بدرجة الإيمان والدعوة إليه ، وأن الدعوة إلى الإيمان يجب أن يلاحظ فيها عنصر الأخوة ، لا عنصر الاستعباد والتعالى والبغى والقهر والظلم ، فإن الرحم موصولة ، والإنسانية تسائل الجميع ، وتحاسبه بالأخوة العامة .

٥ ـــ الاتحاد والتعاون

بعد أن أقام الإسلام المجتمع الإسلامى على أساس الأخوة ، أوجب على المسلمين الاتحاد والالتفاف حول راية القرآن ، وحول غاية واحدة ، وحرم عليهم الفرقة ، فقال جل شأنه :﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ ،[2] وقال تعالى ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ [3] وقوله تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾[4] وأوصى القرآن المؤمنين إن تنازعوا فى شىء أن يردوه إلى الله والرسول ، أى أن يردوه إلى قانون عام ، للتحاكم إليه ، وسماع حكمه ، والنزول على أمره ، والاختلاف من طبيعة

---

(١) أخرجه البخارى ومسلمٌ وقد تقدم فى ص ٢٣١

(٢) آل عمران ـــ ١٠٣ .

(٣) الأنفال ـــ ٤٦ .

(٤) آل عمران ـــ ١٠٥ .

البشر ، وليس عيبا أن يختلفوا وتتعدد آراؤهم ، وإنما العيب أن يورث هذا الاختلاف عداوة تزرع الأحقاد ، وتقطع أوصال الجماعة المؤمنة ، وتلهيها عن غايتها التى تسعى إليها ، وتعمل على تحقيقها ، ولهذا ردهم القرآن إلى عاصم من هذا الزلل ، فقال : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ [1].

والمجتمع الإسلامى لا يسعى إلى الخير أفرادا ، وإنما تتوافر فيه الجهود ، وتجتمع فيه العزائم ، وتتعانق عليه السواعد ، ويتعاون على البر والتقوى ، لا تقاء المحارم ، ومحاربة المنكرات والمفاسد ، ونبذ الإثم والعدوان ، وصيانة بناء المجتمع الإسلامى من كل الأمراض الاجتماعية ، التى تؤدى بالجماعات إلى التحلل والفناء ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ ،[2] ويقول تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ ،[3] وأمة متحدة متعاونة يستحيل أن يداخلها وهن ، أو يختلط بغايتها ضعف ، أو تعرف الهزيمة ، كما يستحيل أن تقاوم فى معركة أو تغالب فى عقيدة ، أو تبارز فى فكر ، وهذا هو ما كانت عليه الأمة المسلمة ، وما تكون عليه كل أمة تسير على طريقها وتنهج نهجها . والقرآن حتى فى مواطن اليأس وساحات النزال يأمر بإصلاح ذات البين وتألف القلوب : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ ،[4] ولقد أخذ المسلمون درسا قاسيا فى أحد ، وكان سبب ذلك العصيان والفرقة ، حيث تلقوا ضربة ولطمة موجعة أفقدتهم من رجالهم سبعين بطلا ، وردتهم إلى المدينة يعانون من مرارة الهزيمة وشماتة الأعداء . وقد وضح القرآن لهم أسباب هذا الابتلاء فقال ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم ، وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ [5]. وظل القرآن يعلم الصحب المؤمن ،

(١) النساء ــ ٥٩ .
(٢) آل عمران ــ ١٠٤ .
(٣) المائدة ــ ٢ .
(٤) الأنفال ــ ١ .
(٥) آل عمران ــ ١٥٢ .

ويدرب عباد الرحمن ، وينقى جند الله ، حتى ذهب حظ الشيطان من نفوسهم ، وتعهدهم رسول الله بالتعاليم ، التى تكون تراثا ضخما للأمة ، تحفظ حرمتها ، وتصون بيضتها ، وتعلى كرامتها إن سارت عليه إلى آخر الدهر ، فيقول الرسول ﷺ : « ستكون هنات وهنات . فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع ، فأضربوه بالسيف كائنا من كان » [(١)] إن الإسلام حريص على سلامة أمته ، وحفظ كيانها ، وهو لذلك يطفىء بقوة بوادر الخلاف ، ويحسم بجد مقدمات الشقاق ، فيد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ فى النار . ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ [(٢)] والإنسان صاحب اللب يدرك — لأول وهلة — أن تعاليم بهذه القوة ، وعقيدة بهذا العمق ، وثقافة بتلك الوضاءة ، تستطيع أن تأخذ بيد البشرية إلى خير يسعدها ، وفلاح يرشدها إلى ما تهوى وتحب .

٦ــ الأخلاق والفضائل .

إذا أراد الإنسان أن يتعرف على الجانب الخلقى فى الحضارة الإسلامية يجد منظومة درية شاهقة تبعد أن تسامى ، وترتفع أن تبارى ، أضوأ من الشمس ، وأطهر من الثلج ، وأنقى من البرد ، فهى ليست تلك الأخلاق المجردة التى انحرفت بالفلاسفة وبعض مفاهيم الحياة الأخرى عن الحياة الواقعية للبشر ، وابتعدت عنها ، وحلقت بهم فى سماء مثاليات جوفاء من القيم الواقعية التى تفرزها الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى واقع الحياة البشرية ، كما أنها ليست الحيوانية البهيمية الشاردة التى نزلت بالإنسان إلى الحضيض ، وجرته إلى أسفل سافلين ، واتبعت نفسه هواها إن التعاليم الإسلامية فى الفضائل والأخلاق جاءت لتنقل البشرية خطوات فسيحات إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب ، فليست الأخلاق فى التصور الإسلامى من مواد الترف ، أو من نافلة القول والعمل التى يمكن الاستغناء عنها ، بل هى أصل الحياة الإسلامية وشعبها التى تكون صرح المجتمع الإسلامى . ولو أحصينا أقوال صاحب الرسالة وأى الكتاب الكريم فى التحلى بالأخلاق الزاكية لخرجنا بسفر جامع ، لا يعرف مثله لأمة من الأمم وشعب من الشعوب وقد التزم ذلك

---

(١) أخرجه مسلم ٦ / ٢٢ مختصر ص ٣٣٤ .

(٢) النساء ـــ ١١٥ .

صاحب الرسالة وصحبه حتى كان مثلا فى ذلك ، حتى قال القرآن فيه ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾[1] ووصفه بالخلق العظيم والنفس النبيل فقال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[2] ، وقال ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ﴾ ،[3] ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[4] وأما عن التوجيهات الأخلاقية لصاحب الرسالة فهى كثيرة ، تبين أصالة هذه الفضائل وصلتها العميقة بالعقيدة الإسلامية ، عن أسامة بن شريك قال : كنا نجلس عند النبى ﷺ كأن على رؤوسنا الطير ، ما يتكلم منا متكلم ، إذ جاءه أناس فقالوا : من أحب عباد الله تعالى قال : « أحسنهم خلقا » ،[5] وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : « لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا ، وكان يقول « إن من خياركم أحسنكم أخلاقا » ،[6] وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى صلى الله قال ما من شيء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يبغض الفاحش البَذِيّ »[7] وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، قال : « تقوى الله وحسن الخلق » ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : « الفم والفرج » ،[8] وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجالسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون و المتشدقون والمتفيهقون . قالوا : يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون » ،[9] وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كرم المؤمن دينه ، ومروءته عقله ، وحسبه

---

(١) الأحزاب ـــ ٢١ .

(٢) القلم ـــ ٤ .

(٣) آل عمران ـــ ١٥٩ .

(٤) التوبة ـــ ١٢٨ .

(٥) الطبرانى ورواته محتج بهم فى الصحيح وابن حبان فى صحيحه متفق عليه .

(٦) متفق عليه

(٧) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

(٨) رواه الترمذى وقال : حديث صحيح .

(٩) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

خلقه » [1] جمعت الأخلاق الإسلامية من الفضل لصاحبها ما رفعه إلى الآفاق عند الله وعند رسول الله وعند الناس ، فقد رأينا الأحاديث الصحيحة تضفى عليه من الصفات الكثير :

١ـ من أحب العباد إلى الله تبارك وتعالى :

٢ـ من أحب الناس إلى رسول الله ، وأكثرهم قربا منه يوم القيامة .

٣ـ الخلق أثقل شيء فى ميزان العبد يوم القيامة .

٤ـ أكثر ما يدخل الناس الجنة ، ويبعدهم عن النار ، وعن عذاب الله سبحانه .

٥ـ من خيار الناس فى الدنيا .

٦ـ الخلق حسب المؤمن الذى يفتخر به ، ونسبه الذى يحرص عليه ، وأصله الذى يرفعه بين الناس والحقيقة أن الأخلاق والفضائل الإسلامية تكون منظومات وبروتوكولات ، شخصية ، واجتماعية وعامية « شعبية » ، كما يسمون ، وتضفى على المجتمع مسحة من الطهر والجلال والكمال والقوة ، وتحلق بالناس فى أجواء من الأخوة الربانية والكرامة الإنسانية .

إيضاح :

نظر الإسلام إلى الحياة بمفهوم جديد ربانى صحيح ، يدرب الإنسان على استعمال ما وهبه الله إياه من حواس وطاقات وتصورات ، يعتمد فى نظره هذا البحث والنظر والتقصى فى طبائع الأشياء ومكوناتها ، وفى خواصها وتطوراتها ، فى خلقها ونشأتها ، فى إبداعها وجمالها وعطائها ، فى تناسقها وبهائها . ولفت الإنسان إلى كل ذلك بوجدانه وروحه وفطرته ، لينظر إلى ما وراء ذلك من حكمة وغاية ؛ لينظر إلى الحقيقة التى يجب أن لا تغيب عن ذهنه أو تفارق خياله ، ولا للحظة واحدة ، وهى أن هذه المخلوقات وتلك الحياة من خلق بارىء ، وصنع حكيم ، وتعريف قدير ، وأن هذا الإنسان وجد فيها صاحب رسالة وحامل أمانة ، ومبلغ وحى ومنفذ تعاليم ، عابد غير معبود ، شاكر وليس بكافر ، نافع وليس بضار ، بحياة

(١) رواه ابن حبان والحاكم والبيهقى ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

محدودة ، وعمر موقوت ، وعمل ملحوظ ، وفعل مجزى به ، ولهذا فهو محسوب خطوه ، معدود أنفاسه ، مرصود قوله ، مكتوب سعيه ، يفهم السعادة بمعنى آخر ، يفهمها فى رضاء ربه ، يعرفها فى فعل الخيرات ، وعمل الطاعات ، وتحصيل القربات ، تزوده من تقواه قبل متاعه ، ومن إيمانه قبل عرضه ، ومن قيمه قبل بطنه ، لا يقعد عن الطيبات ، فما خلقت إلا له ، وما جاءت إلا لمتاعه ، فبينه وبين الخبث حجاب ، والمنكر ستار ، يعمل للدنيا كأنه خالد لا يموت ، ويجتهد لآخرته كأنه يموت للحظة ويفنى لتوه ، ونظر الإسلام إلى الإنسان نظرتين : نظرة تكريم ، ونظرة تقييم . أما نظرة التكريم ، فقد أعطاه فيها كل ما به كرامته ، حفظه من كل ظلم وبغى وعنت ، وجعله بنيان الرب ، وتولى رزقه وعطاءه وتوجيهه وإرشاده ، أطلق حريته ، واحترم إرادته ، وأجاب دعوته .

وأما نظرة التقييم ، فقد نظر إليه بمعيار خلقه ونفعه وعطائه وإيمانه ، ونظر إلى المجتمعات بمنظار ما فيها من قيم ، من مساواة ، وعدالة ، وحرية ، وأخوة ، واتحاد ، وتعاون ، وفضائل ، فإذا كملت هذه الأوصاف ، ووجدت هذه النماذج كان الإنسان متحضرا ، وكان المجتمع كذلك . وإذا فقدت كان المجتمع غير متحضر ، وكان الإنسان فيه غير حضارى ، وإن رفل فى النعيم وطار فى الفضاء ؛ لأن الإسلام يبحث عن حضارة الإنسان ورقيه ، لا عن زخرفته البناء وعلوه ، يبحث أولا عن سعادة المكرم لا زخرفة المسخر ، لأنه منطقى فى نظرته ، واقعى فى حكمه .



الفصل الثانى

المناهج العلمية التى قامت عليها الحضارة الإسلامية

المبحث الأول
تعريف المنهج وتحديد معنى الكلمة

التعريف فى العربية :

عرفت معاجم اللغة ومجامعها الكلمة ، فقال الجوهرى فى الصحاح : المنهج والمنهاج والنهج . هو الطريق الواضح . يقال أنهج الطريق : أى استبان ، وصار نهجا واضحا بينا .

قال يزيد بن الخذاق العبدى

ولقد أضاء لك الطريق وأنهجت   سبل المسالك والهدى قعدى

أى تعين وتقوى ، ونهجت الطريق إذا أبنته وأوضحته . يقال : اعمل على ما نهجته لك ، وفلان يستنهج سبيل فلان ، أى يسلك مسلكه .

وعرف مجمع اللغة العربية بالقاهرة تلك الكلمة بقوله : « المنهج هو خطوات منظمة يتخذها الباحث لمعالجة مسألة أو أكثر ، ويتتبعها للوصول إلى نتيجة » [1].

التعريف فى غير العربية :

أصل كلمة المنهج فى اليونانية تطلق على البحث أو النظر أو المعرفة ، وقد استعملها أفلاطون [2] بهذا المعنى ، وترجم هذا المعنى إلى الفرنسية methode. وإلى

(١) الصحاح فى اللغة والعلوم ـــ إعداد نديم مرعشلى ، أسامة مرعشلى ط دار الحضارة العربية فى مادة ـــ نهج ـــ

(٢) أفلاطون ـــ هو فيلسوف يونانى عاش ٤٢٧ ـــ ٣٤٧ قبل الميلاد ، تتلمذ على سقراط ، وتأثر كثيرا بتعاليم فيثاغورث وبالنظام الأسارطى وبسقراط ، تعد فلسفة أفلاطون نموذج للمذهب المثالى ، وكانت نزعة أفلاطون=

الإنجليزية method، والمعنى الأصلى أصبح بعد الترجمة يدل على الطريق أو المنهج المؤدى إلى خطوات منظمة ، يتخذها الباحث لمعالجة مسألة أو أكثر ، ليؤدى هذا إلى الغرض المطلوب .

ولم يأخذ معناه الاصطلاحى الحالى ، أى بمعنى أنه طائفة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة فى العلم ، إلا ابتداء من عصر النهضة الأوربية ، فى القرن السابع عشر ، فقد تمت الخطوة الحاسمة فى سبيل تكوين المنهج ، فقام بيكون فى كتابه « الأورغانون الجديد سنة ١٦٢٠ بصياغة قواعد المنهج التجريبى ، وديكارت[1] حاول أن يكتشف المنهج المؤدى إلى حسن السير بالعقل والبحث عن الحقيقة فى العلوم ، وألف فى ذلك كتاب « مقال فى المنهج » سنة ١٦٣٧ ، وأتى أصحاب « منطق بور رويال » فى (الطبعة الأولى سنة ١٦٦٢) ، فعنوا بتحديد المنهج بكل وضوح ، وعرفوا المنهج بأنه « التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة ، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين ، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين ، حين نكون بها عارفين »[2].

فثمة إذن نوعان من المنهج : **الأول** : للكشف عن الحقيقة ، ويسمى التحليل أو منهج الحل ، ويمكن أن يدعى أيضا منهج الابتكار أو الاختراع .

والثانى : وَهو الخاص ، بتعليمها للآخرين بعد أن نكون قد اكتشفناها — ويسمى بمنهج التأليف ، ولكنه مع هذا التعريف لوحظ أنه عنى بالمنهج الرياضى الاستدلالى دون المنهج التجريبى ، ولكنه بعد ذلك عدل التعريف ، ليشتمل على المنهج التجريبى ، فصار معناه : الطريق المؤدى إلى الكشف عن الحقيقه فى العلوم ،

= السياسية تدفعه دوما إلى التفكير فى إصلاح المجتمع وإعداد الحاكم الصالح ، وكانت التربية موضوعاً أساسياً فى فلسفته ، وقد تأثر بأفلاطون كثير من أصحاب الفكر من العرب وغيرهم .

(١) ديكارت رينيه — ١٥٩٦ — ١٦٥٠ — فيلسوف فرنسى وعالم رياضى ، تعلم فى المدرسة اليسوعية ، وأقام بهولندا للبحث والتأمل ، ابتكر الهندسة التحليلية، يسمى بأبى الفلسفة الحديثة ، وقواعد ديكارت للبحث عن الحقيقة كانت أساسا للتربية الحديثة التى تهدف إلى تدريب العقل على التفكير المنظم الحر .

(٢) انظر مناهج البحث العلمى عبد الرحمن بدوى ص ٣ ، ٤ ، ٥ ط دار النهضة العربية ١٩٦٨ .

بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحديد عملياته ، حتى يصل إلى نتيجة معلومة [1]

وأصل اشتقاق الكلمة سواء كان فى العربية أو الأوربية ينطلق من الوضوح والاستبانة ، وهو بهذا المعنى يدخل فى التعريف الاصطلاحى الذى جاء بعد ذلك ، حيث أن التعريف الاصطلاحى يقصد به الوضوح والكشف عن الحقيقة ، وقد أخذ الاصطلاح من كلمة لم تبتعد كثيرا عن المعنى المراد ، الذى قصد به فيما بعد إبانة حقائق العلوم المختلفة والاستفادة منها ، كما هو الحال فى العلوم الحديثة اليوم .



(١) المرجع السابق ص ٥ .

المبحث الثانى
أساس المناهج فى الحضارة الإسلامية

لا شك أن المنهج كما رأينا هو : البرنامج الذى يحدد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة ، وقد يكون مرسوما بطريقة تأملية ، أو ربانية مقصودة ، وقد يكون نوعا من السير الطبيعى للعقل ، لم تحد أصوله سابقا ، ذلك أن الإنسان فى تفكيره قد ينظم أفكاره ويرتبها فيما بينها حتى تتأدى إلى المطلوب على أيسر وجه وأحسنه ، على نحو طبيعى تلقائى ، فهذا منهج أيضا ، ولكنه منهج تلقائى . وقد تُحدد أسس هذا المنهج وتنظم أفكاره وترتب خطواته شريعة من الشرائع ، أو عقيدة من العقائد ، تؤدى إلى غرض معين وهدف مقصود ، وإذا كان المنهج كما علمنا هو : البرنامج الموصل إلى نتيجة معلومة ؛ فإن من الممكن أن نفهم المنهج بمعنى عام ، فتدخل تحته كل طرق تؤدى إلى غرض معلوم نريد تحصيله . فثمة على هذا الاعتبار منهج للتعليم ، ومنهج للتربية ، ومنهج للسلوك ، ومنهج للقراءة ، ومنهج للحياة ، ومنهج للدراسات على اختلافها ، ومنهج للوصول إلى نتائج مادية كما هو الحال فى العلوم العملية ، ففى الطب مثلا يوجد منهجان : وقائى من الجراثيم وغيرها ، ومنهج علاجى من الجراثيم والأمراض ، وإذا علمنا ذلك حق لنا أن نقول ما هى أسس المناهج الإسلامية للحضارة .

أساس هذه المناهج

الربانية :

المناهج الإسلامية المختلفة ترتكز على قاعدة إيمانية ، تمد جذورها إلى أعماق الحياة الإنسانية جميعها ، تتغلغل فى العقيدة ، وتسرى فى الأخلاق ، وتختلط بالمادة ، وتظهر فى شئون الحياة ، ولا ريب أن المجتمع المسلم له غاية فى الحياة ، كما له مثل

وقيم ، وأخلاق ومقاييس فى المجتمع ، وأهداف خاصة ، ومزاج نفسى ، منبعث من عقائده وموروثاته ، كما أنه ينظر إلى كل شىء بمنظار معين ، ينظر إلى الإنسان برؤية ، وينظر إلى الحيوان برؤية أخرى ، وإلى الجماد بغير ذلك ، ثم يركز على الإنسان ، فى حياته وفى سلوكه وفى غايته ، وفى هدفه ، فيحرر طاقاته كلها فكرية وعملية ، من الظنون والأوهام والخرافات والأهواء ، كما يخلصه من الجهل والعبودية لغير الله ، ومن سلطان الاستبداد والطغيان والشهوات ، ثم وجه الإسلام الفكر البشرى إلى ما ينفعه وصرفه عما يهلكه ويبدد طاقاته بغير نفع أو فائدة ، أبعده عن دوامة البحث وراء الطبيعة « عالم الغيب » ، وقدم له منهجا كاملا يرضى أشواقه النفسية وحاجاته الروحية . وذلك حتى يفرغ لمهمته فى بناء الحياة ، وتعمير الكون ، وتحقيق العدل والإخاء الإنسانى .

فى مجال العقيدة ، ركز المنهج الإسلامى على هذه القضية ؛ لأنها قضية وجوده ، وقضية حياته ، ومصيره ؛ قضية علاقته بهذا الكون وبالأحياء فيه، قضية تعامله مع هذه الكائنات والعوالم فى هذه الحياة وما بعد الحياة ، فليست هذه العقيدة تصورات نظرية أو فلسفية ، تقوم على الفروض والشطحات ، أو على التصورات والتخيلات التى تتعامل مع الأفكار والظنون ، وإنما تتعامل مع واقع الإنسان ، ومع المجتمعات الواقعية القائمة ، فلابد أن يكون للمسلم ارتباط معين مع ربه ، يشعر فيه ببرد هذا الرباط ، كما يشعر فيه بطلاوة تلك العقيدة ، كما لابد أن يحس أن لهذا الاعتقاد مجال فى حياته اليومية ، يكون له سلطان على نفسه بهذه العقيدة ، وعلى مجتمعه ، وعلى مسيرة الحياة فى محيطه ، على تفكيره على سلوكه ، على ثقافته ، ولهذا كانت الأقوال بغير الأفعال فى مجال الاعتقاد جريمة ومقت ونفاق : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾[1] ، ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾[2]. فلابد إذن من شعور واقعى قوى ، ينطلق بالفرد فيعيش به الواقع والحياة ، ولهذا استغرق زرع العقيدة فى نفوس الرعيل الأول ثلاثة عشر عاما فى مكة ، كانت فترة عصيبة لاقت فيها الأهوال والمحن

(١) الصف / ٢ — ٣ .　　(٢) المنافقون / ١ .

والشدائد والإحن ، فى كل يوم وكل قبيلة وكل مكان من المجتمع الجاهلى فى مكة ، والصحب المؤمن والعقيدة الشابة ترسخ يوما فيوما ، وساعة فساعة ، إلى أن أصبحت كيان الفرد وحياته ، وبنت تلك العقيدة رجالا خاض الإسلام بهم العالم ، وباعوا فى سبيل عقائدهم الحياة الدنيا وزينتها ، إرضاء لربهم ، وحبا فى عقائدهم .

ولهذا كان منهاج التربية العقائدية متأنيا واقعيا ، ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ [(1)] ، ﴿ لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرآناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ﴾ . [(2)]

وكان نبع هذه العقيدة ربانى بحت ، كان هو القران والذكر الحكيم ، الذى يستقى منه الرعيل الأول ويتخرجون عليه ، رغم الحضارات التى كانت تجوب المعمورة آنذاك ، كانت هناك حضارة الرومان وثقافتها على بضع خطوات ، وكانت هناك مخلفات الحضارة الإغريقية ، ومنطقها ، وفلسفتها ، وفنها ، وكتبها ، وقوانينها ، التى ما تزال تنهل منه أوربا وما يزال ينبوعها فى التفكير والأسلوب حتى اليوم ، وكانت هناك على أطراف الجزيرة حضارة الفرس ، وسلطانها ، وتراثها ، وفنها ، وشعرها ، وأساطيرها ، وعقائدها ، ونظم حكمها ، وكانت هناك حضارة المصريين ، وآثارهم ، وفنهم ، وحضارة الهند ، والصين ، وما بلغته من لفت للأنظار ، وسحر للألباب ، وضغط على العقول ، وكل حضارة من هذه الحضارات بلغت من قوة الجند وسطوة السلطان ومن العمارة وزخرف الحياة مافغر الأفواه وسحر العقول وجبر الألباب ، حتى تغنى الشعراء والخطباء والبلغاء بمباهجهم ومآثرهم ومجالسهم ، وتمنى الكل أن يكون من خدامهم أو صنائعهم ، وكانوا إذا غضبوا روعت الدنيا ، وإذا رضوا تبسم الزمان ، وضحكت الأيام ، وانسحب هذا على صنائعهم وخدامهم ، فاكتسبوا من هيبتهم هيبة ، ومن قوتهم قوة . وندلل على بعض ذلك بحادثة طريفة لأحد صنائع الفرس ، وهو النعمان بن المنذر ، مع شاعر العرب الفحل النابغة الذبيانى ، فقد كان النابغة مقرباً من النعمان ، فغضب عليه ، وفر من النعمان وضاقت عليه الدنيا بما رحبت ، وأظلم الكون فى عينيه ، ولم يجد مجيرا من النعمان ومن غضبه ، وظل يمدحه بقصائده حتى ملأ الدنيا ، يترضاه ويستعطفه ، وقد

---

(1) الإسراء — ١٠٦ .

(2) القيامة ١٦ — ١٩ .

وصف حيرته تلك بقوله « وإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع » . ووصف مهانة الخائف الذليل الذى عبَّد نفسه وهو حر ، وخطأ نفسه وهو برىء بقوله .

فبت كأن العائدات فرشن لى   هراسا به يعلى فراش ويقشب

ثم يقول :

فلا تتركنى بالوعيد كأننى   إلى الناس مطلى به القار أجرب

إلى أن يقول :

فإن أك مظلوما فعبد ظلمته   وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب

هذا كان من خوف صنيعة الفرس ، فما بالك بالفرس أو الروم . ومما يلفت النظر ويدعو إلى التفكير كيف لم يقلد المسلمون هذه الحضارات ، ودائما يولع الناس بالنظر إلى القوى ، وتقليد المهاب ، ومجارات صاحب السطوة ، ومما يدعو إلى العجب أن الحضارة الوليدة والإيمان الغض ، يعيب تلك الحضارات ، ويدعوها إلى التسليم ، ورفع الأيدى ، ونبذ الأوهام ، والدخول فى دين الله . نرى ذلك فى كتب رسول الله ﷺ وسلم إليهم .

أرسل النبى ﷺ دحية بن خليفة الكلبى[1] برسالة إلى هرقل عظيم الروم : « من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين ، ﴿ ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [2] ويرسل الرسول ﷺ عبد الله بن حذافة السهمى[3] إلى كسرى ، فذهب إليه عبد الله ، وأعطاه رسالة

---

(١) هو دحية بن خليفة بن فروة بن فصالة بن زيد بن امرىء القيس بن الخزرج الكلبى صاحب رسول الله ﷺ ، وكان جبريل ينزل على صورته أحيانا ، أسد الغابة ٢ / ١٥٨ .

(٢) فتح البارى بشرح البخارى ١ / ٣٢ ، ٣٣ والآية من سورة آل عمران — ٦٤ .

(٣) عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، يكنى أبا حذافة ، أسلم قديما ، وصحب رسول=

رسول الله ، ولم يقبل أن يعطيها غيره ، ونصها « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإنْ أبيت فعليك إثم المجوس[1] . وهكذا نجد أن الإسلام بربانيته أراد أن يعبد الناس لربهم ، وأن يصلهم بخالقهم ، وأن يتركوا تلك الأوهام والأهواء التى أهلكتهم ، وإن سموها ثقافة أو حضارة أو مدنيِّة ، أو أيا من الأسماء التى برزت وتبرز على سطح الأفكار الإنسانية المتقبلة .

ثم يلفت الإنسان ويسترعى انتباهه تلك الديانات التى كانت سائدة فى الأرض وقتذاك : من يهودية ، ونصرانية ، وصابئة ، وقد كانت تعيش فى قلب الجزيرة ، ولها كهنتها ، وسدنتها ، وكتبها ، وثقافتها ، ودندناتها ، وتعاويذها ، لِمَ لَمْ يأخذ عنهم الإسلام ، وتغرف من معينهم العقيدة الإسلامية أليس موسى نبيا ، وعيسى نبيا ، ومحمد نبياً ؟ وَلِمَ لَمْ يخرج محمد ﷺ كما خرج عيسى وأنبياء بنى إسرائيل داعيا ونبيا بالتوارة مبعوثا عليها ، فلم يكن هناك إذن فقر فى الحضارات العالمية والثقافات المحيطة ، حتى يلتفت المسلمون إلى كتاب جديد ونهج جديد ، وإنما كان ذلك لأن الحضارات السائدة والثقافات الموجودة كانت أوهاما ، وأهواء ، ومظالم ، واستعبادا لقوى الإنسان وكرامته ، وكانت الديانات والنحل الموجودة قد ضلت الطريق ، وحادت عن الغاية ، وحرفت الهدى ، وسارت فى نفس الطريق الذى سار فيه المفسدون الضالون الجاهلون ، فاقتضى ذلك أن يرجع الناس إلى النبع الإلهى الصافى ، وإلى الشفاء الناجع ، وأن ينبذ الناس تلك الخرافات والأرجاس ، وأن يقصر الصحب المؤمن على هذا النهج المقصود ، والتصميم المرسوم ، والطريق الواضح ، حتى يتخرج جيل ربانى كريم يملك طاقة إيمانية لو وزنت بأهل الأرض لرجحتهم ،

= الله ﷺ ، وأرسله بكتابه إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام ، وكان فى عبد الله دعاية ، توفى فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، أسد الغابة ٣ / ٢١١ ، ٢١٢ .

(١) أسد الغابة ٣ / ٢١١ ، ٢١٢ .

ويدل على هذا غضب الرسول ﷺ ، وقد رأى في يد عمر بن الخطاب رضى الله عنه صحيفة من التوراة ، وقوله له : « إنه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ماحل له إلا أن يتبعني » كان المقصود إذن تربية جيل خالص القلب . خالص العقل ، خالص التصور ، خالص الشعور ، خالص التكوين ، من أى مؤثر آخر غير المنهج الإلهي ، الذي يوضحه ويفصله القرآن الكريم . وكان المقصود ، أن يكون هناك انخلاع من البيئة الجاهلية ، وعرفها ، وعادتها ، وروابطها ؛ فقد كان الرجل حين يدخل الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية إن كان جاهليا ، وكل رجزه وهزجه ونفثه ودندنته وما يعتقد ويقدس إن كان كتابيا ، ويقف من كل ذلك موقف المستريب التائب النادم ، الذى يرجو غفران الله وتوبته على مافرط منه وبدر من سعيه وعمله ، ثم يقبل على الإيمان ، لايرفع صوتا ، ولايجهر بلفظ ، لأنه في محراب الوحى ﴿ لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ .[1]

شمول الربانية لعالم الغيب :

إن تصور الإسلام للألوهية والوجود الكونى وللحياة وللإنسان ولواقعه في الحياة ، تصور شامل كامل ، واقعى إيجابى ، فإن منهج التفكير والحركة في بناء الإسلام لا يقل قيمة ولا ضرورة عن منهج التصور الاعتقادى ، وكذلك النظام الحيوى ، والواقع المعاش ، لا يختلف في لزوميته عن سابقيه ، فالعقيدة هى آصرة التجمع الأساسية في المجتمع ، وهى صادرة من إله واحد ، تتمثل فيه السيادة العليا للبشر ، وليست نسيج أرباب أرضيين ، أو تأليف آلهة أدبية ، تتمثل فيها عبودية البشر للبشر ، وقهر الإنسان ، واغتصاب ماله وحريته وكرامته ، فالعقيدة في المنهاج الإسلامى ، نور كاشف يصل الإنسان بربه ، كما تعطيه تصوراً كاملاً عن خالقه وعن صفاته ، وجودا ، وخلقا ، وإبداعا ، وإنعاما ، وتفضلا ، ليعرف قدرته ويميز موضع قدمه : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن

(١) الحجرات / ٢ .

أياً ماتدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[1]، ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[2] ومعرفة هذه الأسماء تعطى تصورا لمعرفة صفاته سبحانه ، وما يجب على الإنسان إزاء هذه الصفات ، وهذه الأسماء ودلالاتها ، فمن كان منها على ذكر كان دائما فى معية الربانية ، روى البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة » .

إن حقيقة الذات الإلهية لايمكن للعقول معرفتها ، أو إدراك كنهها ، لأنها لاتحيط بها الفكرة ، أو تدركها النظرة ، فلا يستطيع البشر مهما بلغوا من الذكاء وقوة الإدراك وكثرة الوسائل أن يحيطوا بشيء منها ، وصدق الله ﴿ لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ﴾[3] فكان لابد من وحى إلهى يهدى الضال ، ويرشد الحيران ، أما إذا تركت العقول والأفهام ، بغير علم صحيح ، أو فهم مستقيم ، فإنها تتمزق وتحتار ، وتتخرص وتتخيل ، ويجول فى إدراكاتها أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ، وبعد ذلك تسقط فى شباك شياطين الإنس والجن ، كما أن هناك أشياء لا يستطيع أن يدركها الإنسان ، ومع هذا تشغل حيزا كبيرا فى تفكيره ، وقد يعتبرها غير المؤمن متاهات ، أو طلاسم ، يجب كشف غموضها ، أو يعلم عنها شيئا ، وقد يفنى عمره دون أن يعرف شيئا من حقيقتها : مثل الملائكة ، والجن ، والروح ، والقضاء والقدر ، وهى أشياء يسمع عنها ويخالطها ، وقد يحس بوقعها ، فناسب لاستقرار النفس وهدوء الروح أن توضح ، ويعلم الصحيح من خبرها ، فوضحت العقيدة ذلك ، وأبانت أنهم من خلق الله : ﴿ لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ﴾[4] أعلمهم الله بخلق آدم ، ﴿ وإذا قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إنى أعلم مالا تعلمون ﴾[5] . وأخبرنا أنهم ينزلون إلى الأرض بأمره سبحانه : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ،

---

(١) الإسراء ـــ ١١٠ .
(٢) الأعراف ـــ ١٨٠ .
(٣) سورة الأنعام ـــ ١٠٣ .
(٤) التحريم ـــ ٩ .
(٥) البقرة ـــ ٣٠ .

وما كان ربك نسيا ﴾[1]. ينزلون بالبشرى تارة ، وبغيرها أخرى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى . قالوا سلاما قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت ، فبشرناها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾[2] وأنهم يتفاوتون ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾[3]. عملهم التسبيح لله سبحانه ، ويحملون عرشه : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾[4] رفقاء فى الجنة ، أو خزنة النار : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾[5] ينزلون بالوحى : ﴿ قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لجبريلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ ﴾[6].

كما أخبرنا عن الجن ـــ فقال فى طبيعتهم ، ﴿ والجانَّ خَلَقْناهُ من قبلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ ﴾[7] وأنهم كالبشر ، منهم الصالح ، ومنهم الطالح : ﴿ وأنَّا منَّا المسلِمُونَ ومنَّا القَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فأولئِكَ تحَرَّوا رَشَداً ﴾[8] وأنهم مكلفون كالبشر ﴿ يامَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ ، أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتى وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ، قَالُوا : شَهِدْنا عَلَى أَنْفُسِنا ، وَغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنْيا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كافرين ﴾[9] وأن الرسول ﷺ أرسل إليهم ، وسمعوا منه : ﴿ وإذْ صَرَفْنا إليكَ نَفَراً مِنَ الجنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرآنَ ، فَلمَّا حَضَرُوهُ قالوا : أَنْصِتُوا ، فَلَماَّ قُضِىَ وَلَّوْا إلى قومهم مُنْذِرِينَ ﴾[10] لايعلمون الغيب : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مالَبِثُوا فى العَذابِ المهِين ﴾[11]

(١) مريم ـــ ٦٤ .
(٢) هود ـــ ٦٩ ـــ ٧١ .
(٣) الصافات ـــ ١٦٥ .
(٤) الحاقة ـــ ١٧ .
(٥) المدثر ـــ ٣١ .
(٦) البقرة ـــ ٩٧ .
(٧) الحجر ـــ ٢٧ .
(٨) الجن ـــ ١١ .
(٩) الأنعام ـــ ١٣٠ .
(١٠) الأحقاف ـــ ٢٩ .
(١١) سبأ ـــ ١٤ .

كما أخبرنا الحق عن الشيطان وحزبه ، وعن قصته مع آدم عليه السلام ، وعن عصيانه وتمرده ، وأنه عدو للإنسان : ﴿ إنَّ الشيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[1].

وأخبرنا عن الروح ، فعلمنا أن روح المؤمن طيبة كريمة ، وروح الكافر خبيثة لعينة ، وأن الأولى منعمة فى برزخها ، وأن الثانية شقية فيه ، وأنها سر من أسرار الله سبحانه ، أخبرنا القرآن أن الإنسان مكون من مادة وروح : ﴿ فإذا سَوَّيْتُه وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحى فَقَعُوا لَهُ ساجِديْن ﴾[2].

هذا فى الخلق الأول .

أما فى الخلق الثانى ؛ فإن الروح تنفخ فى الجنين فى بطن أمه عند مائة وعشرين يوما : فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : قال حدثنا رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق « إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعَ خَلْقُه فىٰ بَطْنِ أُمِّه أَرْبَعين يَوماً نطفة ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذلِكَ عَلَقَةً مِثْلُ ذلك ، ثُمَّ يكونُ فى ذلِكَ مُضْغَةً مثلُ ذلكَ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ تَعالى الملكَ فَيَنْفُخُ فيه الرُّوحَ ، وَيُؤْمَرُ بأَرْبَع كلماتٍ : يَكْتُبُ رِزْقَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وشَقِىٌّ أَمْ سَعِيدٌ »[3] وإن تلك الروح تفارق الجسد عند الموت : ﴿ فَيُمْسِكُ التىٰ قَضَى عَلَيْها الْموتَ ، ويُرْسِلُ الأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾[4] فأما الشهداء والصالحون ، فأرواحهم منعمة راضية : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ، فى قبة خضراءَ ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية »[5] وأما القدر ، فقد أبان الحق سبحانه أن علمه سبق به ، وأن ذلك مسطور فى كتاب ، لايضل ربى ولاينسى ﴿ ماٰ أَصَابَ مِنْ مُصيبَةٍ فى الأَرْضِ وَلاَ فِىٰ أَنْفُسِكُمْ إلاَّ فىٰ كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أن نبرأها إن ذلك علىٰ الله يَسيِرٌ لِكَيْلاَ تَأْسَوا عَلَىٰ مَافَاتَكُم ، وَلا تَفْرَحُوا بِما

(١) فاطر — ٦ .

(٢) ص — ٧١ .

(٣) بعض حديث رواه مسلم..

(٤) الزمر — ٤٢ .

(٥) اخرجه أحمد .

آتاكُمْ ، واللهُ لايُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ ﴾ (١).

وليس معنى سبق علم الله به أن الإنسان مجبر ، فإن العلم انكشاف ، وليس تدخلا فى إرادة البشر ، فيما يتعلق بالأمور التكليفية ، أما فى غيرها فهو مسير حسب قضاء الله وقدره وحكمته ، كالموت والحياة وغير ذلك . كما أن القدر : يعطى الإنسان الثقة والقوة ، يعطى الإنسان الثقة فى أن كل شىء فى الوجود يسير حسب حكمة عُليا ، فإذا مسه الضر فلا يجزع ، وإن مسه الخير فلا يفرح ، فالكل إلى قدر مقدور ، واذا برىء الإنسان من الجزع عند الإخفاق والفشل ، ومن الفرج والبطر عند التوفيق والنجاح ، كان إنسانا سويا .

ربانية الشريعة :

وإما كون مناهج الشريعة ربانية ، فهى كذلك فى الحقيقة فى كل رسالة من عند الله تبارك وتعالى ، ولكن شريعة الإسلام امتازت بأنها جامعة ، رائقة ، غضة ، حية ، كما هى من فم الوحى لا تغيير ولا تبديل : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ماوَصَّى بِهِ نُوحاً ، والذى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، وَما وَصَّيْنا بِهِ إبراهيمَ وَمُوسىٰ وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاتَتَفَرَّقُوا فيه ﴾ (٢) وقد بعث الرسول ﷺ على شريعة تنظم شئون الحياة كلها : ﴿ مافَرَّطْنا فى الكتابِ مِنْ شَىءٍ ﴾ (٣). وأمر باتباعها وعدم الحيدة عنها : ﴿ ثُمَّ جَعَلْناكَ علىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فاتَّبِعْها وَلاتَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِيْنَ لايَعْلَمُونَ ﴾ (٤). وقد سمى القرآن من يُحِلُّ ويحرم بغير شرع الله ربا أخذ صفة الألوهية ، فقال فى شأن النصارى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرهبانهم أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ (٥) فقال عدى بن حاتم الطائى : ما كنا نعبدهم يارسول الله ، فقال الرسول ﷺ : أليسوا كانو يُحِلُّونَ لكم وَيُحَرِّمونَ قالَ : نَعَمْ ، قالَ : فَتِلْكَ عِبادَتُهُمْ (٦). والنصارى ما كانوا يتقدمون

(١) الحديد ٢٢ — ٢٣ .
(٢) الشورى — ٣ .
(٣) الأنعام — ٣٨ .
(٤) الجاثية — ١٨ .
(٥) التوبة — ٣١ .
(٦) الترمذى فى أبواب التفسير .

للأحبار والرهبان بالشعائر التعبدية ، وما كانوا يعتقدون ألوهيتهم ، إنما كانوا فقط يعترفون لهم بالحاكمية ، فيقبلون منهم ما يشرعونه لهم بما لم يأذن به الله ، ولهذا جاء القرآن صريحا فى اتباع شرع الله وعدم الحيده عنه ، وعد من يلجأ إلى غيره فى عداد الكافرين بالله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[1].

ويقول فى الذين يتحاكمون أو تميل نفوسهم إلى غيره ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُم أمَنُوا بما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبلِكَ ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ ، وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُروا به ﴾ إلى أن يقول : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لايَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّموا تَسْلِيمًا ﴾[2] ويقـرر ويأتى الرسول مشرعا بعد القرآن ، ليحدد معالم الشريعة ويبينها ويفسرها : ﴿ وَما آتاكُمُ الرسولُ فَخُذُوهُ ، وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا ﴾[3].

ودائما أبدا نجد أمور الشريعة تقترن بأمور العقيدة الربانية ، ولا تنفصم عنها ، بل يكمل كل منهما الآخر ، ويكون عونا له ، وتثبيتا لأركانه ، ويأخذ بعضه بحجز بعض ، ونجد القرآن يوضح ذلك ويقرن كلا بالآخر ، فيقول ﴿ لَيْسَ البرَّ أَنْ تُوَلُّواْ وُجُوهَكُم قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ ، ولكنَّ البرَّ مَنْ آمنَ بَاللهِ والْيَوْمِ الآخر والْمَلائِكَةِ والكتابِ والنبيِّنَ ، وآتى المالَ على حُبِّه ذَوِى الْقُرْبى والْيَتامَى وَالْمَساكِينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفى الرقابِ ، وَأَقَامَ الصلاةَ ، وآتى الزَّكاةَ ، والْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عَاهَدُوا ، والصَّابِرِينَ فى البأْساءِ والضرَّاءِ وحينَ البْأْسِ ، أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المتقون ﴾[4] وهكذا تجمع أية واحدة بين أصول الاعتقاد ، وتكاليف النفس والمال والجهاد ، وتجعلها كُلًّا لا يتجزأ ، ووحدة لا تنفصم ، الإيمان هو محرك النفس ، وباعث الهمم إلى الخير ، فإذا لم تبعث هذه الهمم ، أو توقد تلك العزائم ، كان هذا دلالة على ضعف الإيمان ، أو تلاشيه . والآية تعطى خلاصة واضحة للتصور الإسلامى ، ولمبادىء المنهج الإسلامى المتكامل ، التى لا يستقيم بدونها إسلام ، إذ لابد أن تقترن العقيدة بالعمل لمبادىء تلك العقيدة . وبمبادىء تلك

(١) المائدة — ٤٤ .

(٢) النساء — ٦٠ — ٦٥ .

(٣) الحشر — ٧ .

(٤) البقرة — ١٧٧ .

العقيدة ، لابد وأن تكون ربانية ، موجه إليها من السماء ، من آفاق عالية ، يرفع الله الناس إليها ، ويرسم لهم طريقها واضحا بعيدا عن أهواء الناس وشهواتهم . ينبع أساسا فى كل خطوة من خطواته من العقيدة والتقوى ، فنرى القرآن يتكلم عن القصاص ، وهو أمر من أمور تنظيم الحياة ومنع الجريمة ، ويتكلم عن الوصية عند الموت ، ثم عن شعيرة الصوم ، وشعيرة الاعتكاف ، وغيره ، ويصل كل ذلك بالتقوى التى هى الأساس ، ففى التعقيب على القصاص ترد الإشارة إلى التقوى : ﴿ وَلَكُمْ فى الْقِصَاصِ حَياة يَا أُولِى الأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقونَ ﴾ [1] وفى التعقيب على الوصية : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم إذا حَضرَ أَحَدَكُمُ الموتُ إنْ تَرَكَ خَيْراً الوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ والأَقْرَبينَ بالْمَعْرُوفِ حَقاً علَى المتقين ﴾ [2]. وفى التعقيب على الصيام : ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِيامُ كَما كُتِبَ علَى الذِيْنَ مِنْ قَبلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقون ﴾ [3]. ثم ترد الإشارة بعد الصيام إلى الاعتكاف : ﴿ تلكَ حُدودُ اللهِ فلا تَقْرَبُوها ، كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آياتِه للناسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقون ﴾ [4]. ثم ترد الإشارة فى الطعام إلى التقوى ، ﴿ لَيْسَ على الذينَ آمنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فيما طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوا وآمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وأَحْسَنُوا ﴾ [5] ، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أهلَ القُرى آمنوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَماءِ والأَرْضِ ﴾ [6]، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لايَحْتَسِبُ ﴾ [7] . ثم ترد الإشارة إلى التقوى فى المعاملات وفى التحذير من الربا : ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمنوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مابَقِىَ مِنَ الرِّبا ﴾ [8] ، ﴿ لا تَأْكُلُوا الربا أَضْعافاً مُضاعَفَةً واتَّقُوا اللهَ ﴾ [9] . وترد الإشارة إلى التقوى فى الجهاد والحرب والغلبة

(١) البقرة ـــ ١٧٩

(٢) البقرة ـــ ١٨٠ .

(٣) البقرة ـــ ١٨٣ .

(٤) البقرة ـــ ١٨٧ .

(٥) المائدة ـــ ٩٣

(٦) الأعراف ـــ ٩٦

(٧) الطلاق ـــ ٢ .

(٨) البقرة ـــ ٢٧٨ .

(٩) آل عمران ـــ ١٣٠ .

على الأعداء : ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِروا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الملائِكةِ مُسَوِّمينَ ﴾[1] ، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُم أَذِلَّةٌ فاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾[2] ، ﴿ اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾[3] . كما ترد التقوى فى العدل : ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوىٰ واتَّقُوا اللهَ ﴾[4] ، ﴿ ولاَ تعاوَنُوا علىٰ الإِثْمِ والعُدْوان واتَّقُوا اللهَ ﴾[5] . فَنَرَى أَنَّ الربانية تَحْكُمُ كلَّ الأعمالِ والأفعال التى يقوم المسلم بها ، ويعيش فى جوها ، فلا ينطلق إلا منها ، ولا يصدر إلا من معينها ، لتكون طاهرة خالصة تثرى المجتمع ، وتزكيه ، وترفعه نفسا وروحا ومادة وحياة .



(١) آل عمران ــ ١٢٥ .
(٢) آل عمران ــ ١٢٣ .
(٣) آل عمران ــ ٢٠٠ .
(٤) المائدة ــ ٨ .
(٥) المائدة ــ ٢ .

المبحث الثالث
المنــاهج العلميــة للشــريعة

اعتمدت الشريعة فى مناهجها العلمية على مصدرين : المصدر النقلى ، والمصدر العقلى . وهذا الأخير يدور فى الحقيقة فى فلك المصدر الأول .

المصدر النقلى ــ

مصدر الأحكام فى الشريعة الإسلامية هو الوحى من الله سبحانه ، والرسول ﷺ مبلغ لشرع الله سبحانه ، فإذا أطلق على الرسول ﷺ لفظ الشارع ؛ فإنه باعتبار أن هذه الأحكام لا تعرف لنا إلا عن طريقه ﷺ ، أمّا تسمية عمل المجتهد ــ كما فعل الشاطبى فى بعض المواطن ــ تشريعا ؛ فهو من قبيل التسامح والتساهل ، لأن المجتهد باجتهاده ما هو إلا كاشف مظهر لحكم الله . وفى هذا يقول الشيخ السنهورى حول هذا المعنى : إن الدليل الحقيقى ، والمصدر الوحيد للتشريع الإسلامى ، والفقه الإسلامى بأجمعه ، هو : الوحى الإلهى ، وإن مرد الإجماع والقياس إليه ، وإن المصادر الأخرى ليست مصادر خارجة عن الأربعة ــ الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس [(١)].

المصادر النقلية الموحى بها :

١ ــ **القرآن** : وهو اللفظ العربى ، المنزل على محمد ﷺ ، المنقول

(١) راجع إرشاد الفحول ص ٢٤٥ ، ومقدمة الجزء الأول من موسوعة الفقه الإسلامى فى القاهرة ص ١٧ ، ١٩ .

إلينا بالتواتر ، والمبدوء بسورة الفاتحة ، والمختوم بسورة الناس ، والمجموع بين دفتى المصحف ، المعجز ، المتحدى به . وقد حوى القرآن من المعارف والأحكام والمناهج الخلقية والتربوية ما عجزت عن الإتيان بمثله الإنس والجن ، وفوق ذلك حوى من القصص والعبر ، والأخبار والحوادث ما بصر البشرية بماضيها وحاضرها . كما ذكر كثيرا من الآيات الكونية والخلقية ، فبهر العقول ، وحير الألباب . كما تعرض لأسرار الخلق ، وتطور الأجنة ، والإحياء والإماتة ، والزروع والنبات ، والسحاب والماء ، وأسرار الأرض والسماء ، ودوران الأفلاك والكواكب ، وفتح الآفاق أمام العقول ، وحثها على البحث والنظر .

ـ منهج القرآن فى بيان الأحكام ـ

ـ والأحكام التى جاء بها القرآن متنوعة ـ ، منها : الأحكام والعقائد التى توجه ناحية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويستتبعها الكلام على كثير من الآيات الكونية التى تظهر جلال الله وقدرته وصفاته ، ومنها : ما يتعلق بخلق الإنسان وتكوينه ، ومنها : الأحكام الوجدانية ، التى تعمل على تهذيب النفوس ، وتقويم الخلق ، وإلى ما ينبغى أن يتحلى به الإنسان ، ومنها : الأحكام العملية ، التى تتعلق بما يصدر عن المكلفين من أقوال وأفعال ، التى تتعلق بعلاقاتهم بالله ، أو بعلاقاتهم بعضهم ببعض ، أفرادا وجماعات فى السلم والحرب .

ويستعمل القرآن فى منهجه ـ الترغيب والترهيب ـ والثواب والعقاب ، فى الدنيا والآخرة ، كما يستعمل التنبيه ، وإيقاظ العقل ، واستدرار العواطف ، وإثارة النخوة ، وسوء العاقبة ، من أمثال قوله تعالى ـ ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خلق ﴾[1] ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضعافاً خافُوا

---

(١) الطارق ـ ٥ .

عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللهَ ، وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيْدا ﴾ [١]، ﴿ والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب حَتَّى إذا أَثْخَنتُمُوهُم فَشُدُّوا الوَثَاق فإمَّا مَنًّا بعد وإما فداء ﴾[٣] ،﴿ الزانيةُ والزَّانى فاجْلِدوُا كُلَّ واحِدٍ منْهُما مائةَ جَلْدَةٍ ﴾[٤] ، ﴿ إنَّ الذينَ يُحِبُّونَ أنْ تَشِيعَ الفاحِشَةُ فى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أليمٌ فى الدنيا والآخرةِ ﴾[٥] ، ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين ﴾[٦] . وهكذا فإن أساليب القرآن التكليفية متنوعة ، حسب الأحوال والمواقف والأعمال .

٢ ـــ السنة :

السنة بيان للقرآن ، وتفصيل لمجمله ، وتوضيح لمبهمه ، فهى والقرآن متلازمان ، وهى منه فى جملتها بمنزلة المذكرة التفسيرية للقانون ، وقد عرفها الأصوليون بقولهم : ما صدر عن الرسول ﷺ من قول ، أو فعل ، أو تقرير .

أنواعها :

ومن تعريف السنة التى ذكرناه يبين لنا أنها ثلاثة أنواع .

سنة قولية :

وهى ما يعبر عنها الأصوليون ، بالحديث أو الخبر ، من كل ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام من أقوال تتعلق بتشريع الأحكام ، مثل قوله ﷺ « نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ منَّا حَدِيثاً ، فَحِفِظَهُ وَبَلَّغهُ غَيْرهُ ، فَرُبَّ حاملِ فِقْهٍ ليس بفقيهٍ: ثَلاثٌ لا يُغَلُّ عليهن قلبُ مسلم : إخلاصُ العملِ لله ، ومناصحةُ وُلاةِ الأمرِ ، ولزومُ

---

(١) النساء ـــ ٩ .
(٢) المائدة ـــ ٣٨ .
(٣) محمد ـــ ٤ .
(٤) النور ـــ ٢ .
(٥) النور ـــ ١٩ .
(٦) النحل ـــ ١٢٦ .

الجماعةِ فإنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَاءِهِم »[1].

سنة فعلية :

وهى ما صدر عن رسول الله ﷺ من أفعال ، بقصد التشريع ، مثل : وضوئه ، وصلاته ، وحجه ، وقطعه يد السارق اليمنى ، ومثل ما روى عنه أنه حجز على معاذ مـاله ، وباعه عليه فى دين كان عليه ، ونحو ذلك .

سنة تقريرية :

وهى أن يسكت النبى ﷺ عن إنكار فعل أو قول صدر فى حضوره أو غيبته وعلم به ، أو يوافق عليه ويظهر استحسانه ، مثل ماروى أن النبى قدم المدينة وأهلها يَسْلِفُونَ فى الثمار السنةَ والسنتين . والرطبُ ينقطع فأقرهم على ذلك .

٣ ــ شرع من قبلنا :

شرع الله سبحانه قبل شريعة الإسلام شرائع أخرى ، تناولت أحكاما ، جاء ذكر بعضها فى القرآن والسنة[2].

منها : ما نسخته شريعتنا وأبطلت حكمه ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَعَلَىٰ الذين هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِىٰ ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ والْغَنَمِ حَرَّمنا عليهم شحومهما ، إلا ما حملت ظهورُهما ، أوِ الْحَوايا ، أوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾[3]. وقول الرسول ﷺ : « أُحِلَّتْ لِىَ الغنائِمُ ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ مِنْ قَبلىٰ »[4].

ومنها : ما أمرنا باتباعه ، كقول القرآن : ﴿ كُتِبَ عليكم الصيامُ كَماْ كُتِبَ علىٰ الذينَ مِنْ قَبلِكُمْ .. ﴾[5] ورأى الجمهور أن شرع من قبلنا حجة علينا إذا لم يرد

(١) رواه الترمذى وأحمد واس حبان عن ابن مسعود . وقال العزيزى : صحيح الإسناد ، العزيزى ٣ / ٣٨٣ .
(٢) راجع فى ذلك فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت مطبوع مع المستصفى للغزالى ٢ / ١٨٣ / ١٨٤
(٣) سورة الأنعام ــ ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٤) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى عن جابر بن عبد الله وهو جزء من حديث ، أنظر الجامع الصغير ١ / ٢٤٧ .
(٥) البقرة ــ ١٨٣ .

ما يلغيه ، واستشهدوا بقوله تعالى : ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأُذُنَ بالأُذُنِ والسِّنَّ بالسِّنِّ والجروحَ قِصاصٌ﴾[1] ، فإن الآية تفيد أن حكم التوراة هو هذا ، وقرر الجمهور الاستدلال بها على ثبوت القصاص بين المسلم والذمى ، وبين الرجل والمرأة .

المصادر غير النقلية للشريعة :

هناك بعض المصادر يستند إليها الفقهاء ، أو بعضهم ، فى استنباط الأحكام ، ويعتبرونها مصدرا لهم فى الأخذ والاستنباط .

١ ـــ الإجماع :

الإجماع هو : المصدر الثالث من المصادر المتفق على أصل حجيتها عند جمهرة المسلمين ، وقد اختلفوا فى تعريفه تبعا لاختلاف مفهومه عند كلٍ ، فهو عند جمهرة الأصوليين : اتفاق مجتهدى الأمة الإسلامية فى عصر من العصور بعد عصر الرسالة على حكم شرعى عملى . ومن العلماء من يرى أن الإجماع يتحقق باتفاق أكثر المجتهدين ، ويرى مالك أن الإجماع يتحقق باتفاق فقهاء المدينة ، ونقل عن أحمد بن حنبل القول بإجماع الخلفاء الأربعة .

شروط الإجماع :

لابد لتحقق الإجماع عند جمهرة الأصوليين أمور .

١ ـــ أن يكون الإجماع بعد وفاة الرسول ﷺ ، إذ فى حياته يكون هو مصدر التشريع بالوحى .

٢ ـــ أن يجتمع المجتهدون فى الأمة الإسلامية على رأى ، فلو أجمع غير المجتهدين على رأى لا يكون إجماعا .

٣ ـــ أن يتفق جميع المجتهدين فلا يشذ عنهم أحد .

٤ ـــ أن يكون ما أجمعوا عليه حكما شرعيا قابلا للاجتهاد ، مثل ما يتعلق

---

(١) سورة المائدة ـــ ٤٠ .

بالحل والحرمة ، والصحة والبطلان ، مما لم يرد فيه نص قطعى الثبوت والدلالة .

٢ ــ قول الصحابى :

والصحابى الذى يبحث فى حجية قوله هو : من آمن برسول الله قبل فتح الحديبية ، والتقى به ، وغزا مع المسلمين غزوة أو أكثر ، واشتهر بالفقه والفتوى ، وتوافرت لديه الملكة الفقهية . وإن كان من الأصوليين من قال : إنه من لقى النبى ﷺ مؤمنا ، وطالت صحبته ، حتى أصبح يطلق عليه اسم الصاحب فى عرف الناس[1]. قول الصحابى حين يقول : كنا نفعل كذا ، ونقول كذا فى زمن الرسول ﷺ ، أو وهو بيننا ، أو فينا ، ونحو ذلك ، فإنه يعتبر سنة فى الحقيقة رواها الصحابى . وقد خالف فى حجيته بعض الفقهاء [2].

٣ ــ العرف :

العرف والعادة : هو ما استقر فى النفوس من جهة العقول ، وتلقته الطباع السليمة بالقبول ، أو ما يعتاده الناس ذوو الطباع السليمة فى أهل قطر إسلامى ، بشرط ألا يخالف نصا شرعيا [3].

وقد يكون العرف عمليا ، وهو ما جرى عليه عمل الناس فى حياتهم ، وتعارفوه فى تصرفاتهم ، وقد يكون قوليًّا ، كتقييد لفظ الدابة بذوات الأربع . مع أن الأصل اللغوى لها : كل ما يدب على الأرض . وقد اعتبر الفقهاء العرف الصحيح فى الجملة ، وأخذوا به كدليل يرجع إليه لمعرفة الأحكام الفقهية ؛ إذا أعوزها النص ، ويجب على المجتهد مراعاته . ومن أقوالهم « المعروف عرفا كالمشروط شرطا » .

المصادر العقلية للشريعة :

الأدلة العقلية فى مصادر الشريعة الإسلامية كثيرة ومتنوعة ، نشير إليها إشارة

---

(١) انظر كتاب أصول الفقه لخلاف ص ٩٤ الطبعة التاسعة .

(٢) إرشاد الفحول للشوكانى ــ ٢٢٦ ، وكشف الأسرار للبزدوى ص ٩٢٧ ، المستصفى للغزالى ١ / ٢٦٠ . أعلام الموقعين ٤ / ١٤٠ الموافقات للشاطبى ٤ / ٤١ .

(٣) المستصفى ١ / ١٧ ، والموافقات ٢ / ١٧٩ ، ١٩٩ .

فى هذا المجال ؛ لنبرهن على أن الشريعة الإسلامية مرنة تساير كل زمان ومكان ، لأنها جاءت لكل زمان ومكان ، ترعى مصالح الناس وأحوالهم ، لتصلحها وتزكيها وتطهرها ، لأنها جاءت لإسعاد الناس فى الدنيا ، ورفع الحرج والعنت عنهم ، ومن هذه الأدلة العقلية : القياس ، والاستحسان والاستصلاح ، واستصحاب الأصل ، وسد الذرائع ، والاستقراء ، والاستدلال ، والأخذ بأقل ما قيل ، ونفى الحكم لنفى الدليل ، والإباحة الأصلية ، ودلالة الإبهام ، ونكتفى بتعريف كل .

١ ــ القياس :

عرف الأصوليون القياس بأنه : تسوية واقعة لم يرد نص بحكمها بواقعة ورد نص بحكمها فى الحكم الذى ورد به نص ، لتساوى الواقعتين فى علة الحكم [١]. والقياس هو أول طريق يلجأ إليه المجتهد للتعرف على حكم الشرع فيما لم يرد به نص خاص . وهو أوضح طرق الاستنباط وأقواها ، ومثل ذلك ما ورد فى الحديث : « لا يرث القاتل » ، فإذا تبين أن قصد الشارع منع الوارث القاتل من الميراث لتعجله الإرث قبل أوانه ــ ثم عرضت مسألة أخرى ــ وهى قتل الموصى له للموصى ، فمنع كذلك من أخذ الوصية لتعجله الوصية قبل أوانها ، ولا نطباق العلة عليه فى الواقعة الأولى .

٢ ــ الاستحسان :

وقد عرفه الكرخى من الحنفية وابن رشد من المالكية والطوفى من الحنابلة وغيرهم ، وأجْمع تعريف له هو : « العدول عن حكم اقتضاه دليل شرعى فى واقعة إلى حكم آخر فيها ، لدليل شرعى اقتضى هذا العدول » . وهذا الدليل الشرعى المقتضى هو سند الاستحسان [٢]. مثال ذلك عند الحنفية سؤر سباع الطير كالصقر والنسر والغراب والحدأة نجس قياسا ، طاهر استحسانا ، فالقياس إعطاؤه حكم سباع البهائم كالذئب والفهد ، لأن الكل غير مأكول اللحم ، والاستحسان قياسها

---

(١) المستصفى للغزالى ــ ١ / ١٨٧ ، ١٨٩ .

(٢) المستصفى للغزالى ١ / ٢٧٤ والأحكام للآمدى ٤ / ٢١١ ، كشف الأسرار للبزدوى ٤ / ١١٢٤ التوضيح =

بالإنسان لأنه لا يؤكل لحمه ، وسؤره طاهر ، ووجه الاستحسان أن سباع الطير تشرب بمنقارها وهو عظم طاهر ، أما سباع البهائم فتشرب بلسانها المختلط بلعابها المتولد من لحمها » .

٣ ــ الاستصلاح :

وهو فى اصطلاح الأصوليين : « تشريع الحكم فى واقعة لا نص فيها ولا إجماع ، بناء على مراعاة المصلحة المرسلة ، لأن الشرع لم يأت فيها بدليل اعتبارها أو إلغائها ، ولم يتركه العلماء على عواهنه ، وإنما جعلوا له ضوابط تطلب فى الكتب المتخصصة [(١)].

٤ ــ الاستصحاب :

عرفه الأصوليون بتعريفات كثيرة ، ترجع فى جملتها إلى معنى استبقاء حكم ثبت فى الزمن الماضى على ما كان ، واعتباره موجودا مستمرا ، إلى أن يوجد دليل يغيره . فكل أمر علم وجوده ، ثم حصل شك فى عدم وجوده ، حكم ببقائه استصحابا للأصل والعكس . فمن علم أنه متوضىء ثم شك فى طروء الحدث على وضوئه فإنه يحكم بطهارته وبقاء وضوئه ، استصحابا للأصل ، إذ اليقين لا يزول بمجرد الشك . وذلك بخلاف من شك أنه توضأ أم لا ، حيث يلزمه هنا الوضوء ومن شك فى طلاق زوجته ؛ فإن الحل يلازمه حتى يعلم خلافه [(٢)].

٥ ــ سد الذرائع :

عرفه علماء الأصول بقولهم : ما يتوصل به إلى شيء ممنوع مشتمل على

= لصدر الشريعة ٣ / ٢ التحرير وشرحه لكمال ٤ / ٧٨ ــ مصادر التشريع الإسلامى لعبد الوهاب خلاف ص ٧١ .

(١) انظر رسالة الطوفى طبع مطبعة الأزهر سنة ١٩٦٦ ، وإرشاد الفحول ص ٢٤٢ الطبعة الأولى ، الاعتصام ٢ / ١١١ الموافقات للشاطبى ٢ / ٨٠ ، أعلام الموقعين ١ / ١٩٦ ، ٣ / ١٤ ، ٢٢ .

(٢) المستصفى للغزالى ١ / ٢١٧ ، التحرير وشرحه ٤ / ١٧٦ ، إرشاد الفحول ٢٣٧ الأحكام للآمدى ٤ / ٢٨٥ ط دار الكتب تاريخ التشريع الإسلامى لسلام مدكور ٢٦٥ ط الثانية ، موسوعة الفقه المجلس الأعلى٧ /٦٧

مفسدة . يقول ابن قيم الجوزية « الذريعة ما كان وسيلة وطريقة إلى شيء »[1].
ويلاحظ فى الذريعة أن فيها معنى كونها وسيلة مفضية إلى المقصود بالحكم ، كما أنه لا يلزم فى الذريعة المفضية إلى مفسدة أن يكون وجود هذه المفسدة متوقفاً عليها هى . فالزنا حرام منهى عنه ، والنظر إلى عورة الأجنبية حرام أيضا ؛ لأنه يؤدى إلى الفاحشة ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ ولا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَايخفين مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾[2]؛ إذ مثل هذا وسيلة إلى الافتتان بالمرأة ، وإن كان الافتتان بها لا يتوقف على ذلك الفعل . ومن أراد المزيد فعلية بكتب الأصول .

٦ ـــ الاستقراء :

ويعرفه المناطقه بقولهم : تتبع الجزئيات المتشابهة لاستنباط أمر كلى منها ، ومثلوا له بقولهم : كل إنسان يحرك فكه الأسفل عند المضغ ، إلخ . ثم يقسمونه قسمين : ناقص إذا كان غير مستوعب لجميع الجزئيات ، وتام وهو ما تتبع فيه جميع الجزئيات . ويعرفه الأصوليون بقولهم ـــ الاستدلال بثبوت الحكم فى الجزئيات على ثبوته للقاعدة الكلية[3].

مرونة مصادر الشريعة :

مما قدمنا يتبين لنا أن مصادر الشريعة السمحة مرنة ، تأخذ بالنصوص القرآنية التى جاءت بكليات المصالح ودرء المفاسد ، وجاءت السنة فبينت ووضحت وفسرت فى رحمة ويسر من غير حرج ولا ضرر ولا إعنات نصوص الكتاب وفصلته . ثم أخذت الشريعة بشرع من قبلنا ، مما أقره الكتاب والسنة ، ثم أقر الإسلام الاجتهاد العقلى على طريق تلك النصوص ، وفى ظل هذه المبادى الكلية ، وفى إطار مصالح الناس وحاجياتهم ، بحيث لا تصادم لهم عرفا صحيحا ولا عادة سليمة .

---

(١) أعلام الموقعين ج ٣ / ١٤٧ ، الموافقات للشاطبى ٤ / ١١٣ .

(٢) سورة النور ـــ ٣١ .

(٣) نهاية السول شرح المنهاج ١ / ١٢٠ ، ٣ / ١٣٠ .

ونستطيع أن نلخص أسباب المرونة فيما يأتى :

١ ــ النصوص التشريعية التى وردت فى القرآن ، ليست دلالتها مقصورة على الأحكام التى تفهم من ألفاظها وعباراتها ، بل هى تدل أيضا على أحكام تفهم من روحها ومعقولها ، ولهذا قسمت دلالتها إلى : دلالة النص ، ودلالة المفهوم .

٢ ــ النصوص التشريعية التى وردت فى القرآن جاءت مقرونة بعللها ، وليست أحكاما مجردة عن عللها ، والمصالح التى شرعت لها .

٣ ــ المبادىء التشريعية التى شرعت أحكامها فى فروع القوانين المختلفة من مدنية وجنائية وغيرها جاءت عامة ، وقوانين تشريعية كلية ؛ لتكون هادية للمجتهدين فى التشريع بما يحقق مصالح الناس .

٤ ــ قررت السنة أنه لا ضرر ولا ضرار ، كقوله عليه السلام « يَسِّرُوا ولا تُعَسِّروا » وقول الرسول « إنَّ اللهَ يُحِبُ أنْ تؤتى رُخَصُه ، كما يحب أن تُؤْتىٰ عزائِمهُ » ، وقوله ﷺ « المؤمنون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا » ، وقوله ﷺ « مَنْ حَلَفَ على يمين ورأىٰ غَيْرَها خَيْراً مِنْهٰا فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينـهِ وَلْيَأْتِ الذىٰ هُوَ خَيْرٌ » .

٥ ــ العمل بالقياس والاستحسان والاستصلاح والعرف وغيره من الأمور العقلية التى اعتمد عليها الفقهاء فى التشريع والاجتهاد ، جعل الشريعة الإسلامية جديدة دائما ، تأخذ كل يوم من نبع الكتاب والسنة ، والعقل المؤمن الملتزم بمصالح الناس لا بالأهواء والأضاليل والشطحات التى لا يضبطها ضابط أو برهان .

مقاصد الشريعة :

مما هو معلوم أن الشريعة قصدت من مناهجها ، ومن تشريع الأحكام : تحقيق مصالح الناس الضرورية ، والحاجية ، والتحسينية .

فالأمور الضرورية :

ترجع إلى رعاية خمسة أشياء ؛ الدين ، والنفس ، والعقل ، والعرض ، والمال .

الدين : ـــ فالدين هو : مجموعة العقائد ، والعبادات ، والأحكام ، والقوانين التى شرعها الله سبحانه لتنظيم علاقة الناس بربهم ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، كما شرع لحفظها ومن العدوان عليها : الجهاد ، وعقوبة الارتداد ، وعقوبة الابتداع ، وغير ذلك .

النفس : ـــ وشرع الإسلام لها الزواج للتوالد والتناسل وبقاء النوع ، وشرع لحفظها مايقيم أودها من طعام وشراب ومسكن وملبس ، ولصيانتها القصاص والدية والكفارات ، ودفع الضرر عنها ، وعدم تعرضها للتهلكة .

العقل : ـــ وشرع لحفظه تحريم الخمر وكل مسكر ، وعقاب من يشربها أو ييسرها .

العرض : ـــ وشرع لحفظ العرض حد الزنا ، وحد القذف .

المال : ـــ وشرع الإسلام لتحصيله وكسبه ؛ إيجاب السعى ، وإباحة المعاملات التجارية ، والمضاربة ، وشرع لحفظه حد السرقة ، وتحريم الغش ، والخيانة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وضمان تلف مال الغير ، والحجر على السفية ، وتحريم الربا .

ومن هذا يتبين أن الإسلام أحاط الفرد من كل جوانبه وحافظ عليه ورعاه .

الأمور الحاجية :

الأمور الحاجية هى التى ترفع الحرج عنهم ، وتخفف عليهم أعباءهم ، وتيسر عليهم الحياة وقد رفع الإسلام الحرج فى تكاليفه ، فشرع الرخص تخفيفا عن المكلف ، فأباح الفطر فى رمضان للمسافر ، ولمن كان مريضا ، وكذلك قصر الصلاة الرباعية للمسافر ، والتيمم ، وغير ذلك من الرخص فى العبادات وفى المعاملات ، شرع كثيرا من أنواع العقود والتصرفات التى تقتضيها حاجات الناس ، كأنواع البيوع ، والإجارات ، والشركات والمضاربات ، والسلم ، والاستصناع ، والمزارعة ، والمساقاة .

كما شرع الطلاق لتفريج الكروب عند الزوجين ، كما أحل الصيد ، وأحل الشارع ميتة البحر ، وجعل الدية على العاقلة ، والآيات الكثيرة لدفع الحرج تشير إلى ذلك كقوله تعالى ﴿ ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَليكمْ منْ حَرَجٍ ، ولكنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾[1] وقوله سبحانه ﴿ ما جعلَ عَلَيْكُمْ فى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[2]، وقوله ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾[3] ، ﴿ يُرِيدُ اللهُ أنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وخُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفاً ﴾[4].

الأمور التحسينية :

شرع الإسلام أمورا تحسينية ، ترجع إلى كل ما يجمل حالهم ، ويجعلها على وفاق ماتقتضيه المروءة ومكارم الأخلاق . شرع ذلك فى كل أبواب العبادات والمعاملات والعقوبات ، حتى تكون على مستوى من القبول النفسى والجمالى ، وتعود الناس أحسن العادات ، وترشدهم إلى أحسن المناهج وأقومها . ففى العبادات شرعت الطهارة للبدن والثوب والمكان وستر العورة ، وندب أخذ الزينة والتجمل والتعطر ، وكذلك فى كل عبادة شرعت لها آداب معينة تحفظها ، وتحيط سياجها بالرعاية والجمال : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[5] ، ﴿ والْخَيْلَ والبِغالَ وَالحَميرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً ﴾[6]، ﴿ وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[7]، ﴿ فيه رِجالٌ يُحِبُّونَ أنْ يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ المطَّهِّرِين ﴾[8]، وفى المعاملات : حرم الإسلام الغش ، والتدليس ، والتغرير ، والإسراف ، والتعامل فى النجس ، وفى العقوبات : حرم فى الجهاد قتل الرهبان ، والصبيان ، والنساء ، ونهى عن المثلة والغدر .

---

(١) المائدة ـ ٦

(٢) الحج ـ ٧٨ .

(٣) البقرة ـ ١٨٥

(٤) النساء ـ ٢٨ .

(٥) الأعراف ـ ٣١.

(٦) النحل ـ ٨ .

(٧) المدثر ـ ٤ .

(٨) التوبة ـ ١٠٨ .

إيضاح :

بالنظرة البدهية إلى المنهاج الإسلامى نجد أنه نظر إلى واقع الحياة الإنسانية من ناحيتين .

الأولى : تنظيمها العام الشامل .

الثانية : تنظيمها للجهد البشرى .

فمن ناحية تنظيمها العام ــ قدم الإسلام المنهج الكامل والشامل ، الذى أحاط بكل دقائق الحياة بقانون محيط ، سليم المنبع ، ربانى المصدر ، يبتعد عن الأهواء الشخصية والنزعات النفسية والمظالم البشرية ، والتسلطات الإنسانية ، ويتمشى مع العقل السليم الصحيح المتجرد عن الأطماع والشهوات الجامحة ، وقد راعى هذا المنهج حفظ ضرورات الناس وحاجياتهم ، وأسعدهم ، وجمَّل حياتهم بالجمال الحقيقى والسعادة الكريمة ، فحفظ النفس والأمة من الضياع والتناحر ، وأبعدها عن المظالم والقهر بعدل السماء ، وهداية الرسول ، وفهم الأتقياء ، وجهد الصالحين ، فأحيا موات القلوب ، وبعث همم النفوس ، وأنشأ الحضارة الحقة التى ينعم الناس فيها بالأمن ، ويطعم الناس فيها من جوع ، ويرجع الناس إخوة من ذكر وأنثى ، فتشرق الأرض بنور ربها ، ويدخلون فى السلم كافة ، ويزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا .

نظرة المنهج إلى الجهد البشرى :

المناهج الإسلامية فى أمور الدنيا فجرت طاقات الإنسان العقلية والفكرية ، وأعطته الحرية المطلقة فى التحرك على صعيد تلك الحياة ، وهذا مايتمثل فى قول رسول الله ﷺ : « أَنْتُم أَعْلَمُ بشُئُونِ دُنياكُم » وعن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل ، فقال مايصنع هؤلاء ؟ فقالوا : « يُلَقِّحُونَه : يَجْعَلُون الذكر فى الأنثى فَيَلْقَحْ ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أَظُنُّ يُغْنى ذٰلكَ شَيْئًا ، قال : فَأُخْبروا بذلك فتركوه ، فَأُخْبِرَ رسول الله ﷺ بذلك ، فقال : « إنْ كانَ يَنْفَعُهُمْ ذٰلك فَلْيَصْنَعُوه ، فإنّى إنَّما ظَنَنْتُ ظَنًّا ، فَلا تُؤاخِذُونى

بالظَّنِّ ، ولكنْ إذا حَدَثتكُم عَنْ شيء عنِ الله فَخُذُوا به ، فإنى لَنْ أَكْذِب على اللهِ عز وجل »[1] وفى رواية ذكرها النووى عند شرح الحديث « إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأى فإنما أنا بشر ، وهى رواية عن مسلم ، وهذا على مانرى أعطى استقلالية للعقل والتفكير والتجربة والبحث عن الأسباب التى ترتقى بالأشياء وبالحياة المادية من جميع جوانبها ، ولكنه مع هذا أحاط كل ذلك بالربانية ، فلا يكون العمل للإفساد ، كما لابد أن يكون خالصا من الرياء والنفاق ، ويوجه كذلك إلى ماينفع الناس ويسعدهم ، حتى تصلح الحياة للإنسان ، ويسلم له نتاج فكره وعقله ، ولا يكون عرضة للضياع والإحباط ، ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالحاتِ وَهُوَ مؤمن فلا يَخَافُ ظُلماً ولاهضما ﴾[2] ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرانَ لِسَعْيِه ﴾[3] ، ﴿ ولكل درجاتٌ مِمَّا عَمِلوا وَمارَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُون ﴾[4] أما أصحاب الأعمال الشاردة عن الصراط المستقيم ، الجانحة إلى الإفساد والضلال ، فقد حذرهم الإسلام تحذيرا شديدا ، ﴿ أولٰئِكَ الذينَ لَيْسَ لَهُمْ فى الآخِرَةِ إلَّا النَّارُ ، وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها ، وباطِلٌ ما كَانُوا يَعْمَلونَ ﴾[5] ، ﴿ أَمْ حَسِبَ الذينَ يَعْمَلونَ السيئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُون ﴾[6] ، ﴿ وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلوا مِنْ عَملٍ فجعلناه هباءً منثورا ﴾[7] ، ﴿ كذلٰكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ ﴾[8] وبهذا نرى أن الأعمال تسير وفق قانونٍ ربانى ، وتوجيه إلهى ، يحكم تصرفات الإنسان ، ويأخذ بيده إلى صراط مستقيم .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) طه ــ ١١٢ .
(٣) الأنبياء ــ ٩٤ .
(٤) الأنعام ــ ١٣٢ .
(٥) هود ــ ١٦ .
(٦) العنكبوت ــ ٤ .
(٧) الفرقان ــ ٢٣ .
(٨) البقرة ــ ١٦٧ .

هدف المناهج الإسلامية :

وتهدف المناهج الإسلامية فى جملتها إلى الوصول إلى الحق ، وإسعاد الناس ، كما تهدف إلى استغلال كل طاقة وهبها الله للإنسان وزوده بها ، وانتفاع بكل ما خلق الله فى الأرض ، وأودع فيها من خير ورزق ، واستثمار ذلك فيما يعود عليه بالبر والمعروف ، ومعرفة المنعم والمتفضل ، وشكره سبحانه ، والمناهج الإسلامية بابتعادها عن الأوهام والتخرصات والافتراضات بغير دليل أو علم ، بعدت بذلك عن الجدل العقيم ، والحوار المنهك الذى لا طائل تحته . ينبه القرآن إلى ذلك فيقول : ﴿ هَاْ أَنْتُم هؤُلاءِ حاجَجْتُم فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، فَلِمَ تُحاجُّونَ فيما لَيْسَ لَكُمْ به عِلْمٌ ﴾[1] ، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ الناسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[2] ، ﴿ وَمِنَ الناسِ مَنْ يُجَادِلُ فى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولاهُدًى ولاكِتابٍ منيرٍ ﴾[3] ، ﴿ بِلِ اتَّبَعَ الذينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[4] ولهذا كانت المناهج الإسلامية دائما تهدف إلى الاستفادة من العلم ومن المعرفة ، وإلى كل مايوصل إلى الحق ، ويكشف أسرار المخلوقات لعقل الإنسان وبصره وبصيرته .

سياج هذه المناهج :

وهذه الأهداف والمناهج تحاط بسياج من الأخلاقيات والسلوكيات ، والعلاقات المعينة ، التى تحفظ هذه المناهج عن الانحراف ، حتى تؤدى غرضها ، وتعمل عملها .

فالوصول إلى الحق مثلا يكون بطريق مشروع ، وبأخلاقيات سليمة ، فنجد مثلا الوصول إلى الحق عند المدين المعسر لايكون بخراب بيته ، وتشتيت أطفاله : ﴿ وإنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ ، وأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إنْ

---

(١) ال عمران ـــ ٦٦ .

(٢) الأنعام ـــ ١٤٤ .

(٣) الحج ـــ ٨ .

(٤) الروم ـــ ٢٩ .

كُنْتُمْ تَعْلَمُون ﴾[1] يقول البيضاوى فى تفسير هذه الآية : « أى وإن وقع غريم فى عسرة فالحكم نظرة ، أو فعليكم نظرة ، أو فليكن نظرة ، وهى الإنظار .. وأن تصدقوا ـــ أى الإبراء ـــ خير لكم ، أى أكثر ثوابا من الإنظار »[2]، كما أن المدين يجب عليه أن يؤدى الحق إن كان معه من غير تأخير ، ولهذا ورد فى الحديث « لَيُّ الواجد ظُلْمٌ ، يُحِلُّ عِرْضَه وَعُقُوبَتَه »[3]. كما أن للنية دخلا كبيراً فى الأعمال ، وفى النظرة إلى صلاحها فى المنهج الإسلامى : « إنَّمَا الأعمالُ بالنيَّاتِ ، وَإنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مانَوىٰ »[4]. وتعلق مجلة الأحكام العدلية على التكييف القانونى لهذه القاعدة بقولها : « إن الصورة الحسية التى توجد فى الخارج لأى أمر من الأمور ، لاتؤخذ حكما شرعيا بالاستناد إلى محسوسياتها فقط ، بل للانضمام للمقصد والغرض الذى هو الحامل ـــ الباعث ـــ على إيقاع تلك الصورة وأحداثها »[5]، كما أنه قد ينهى الإسلام صاحب الحق مثلا عن أن يستعمل حقه أو ملكه فى الإضرار بالناس ، أو يمنعه عن الناس إن كانوا يحتاجون إليه : كما ورد فى النهى عن الاحتكار لقول رسول الله ﷺ « لايَحْتكِرُ إلاَّ خاطىء »[6]. والنهى عن بيع حاضر لباد « لا يبيع حاضر لباد »[7].

وقد نهى الإسلام عن الفساد باسم التقدم أو العلم أو الحضارة ، فقال تعالى : ﴿ وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون ﴾[8]، ﴿ وَلَوْ اتبع الحَقُّ أهواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوٰتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَ ﴾[9]، ﴿ وَمِنَ

---

(١) البقرة ـــ ٢٨٠ .

(٢) البيضاوى ص ٦٣ .

(٣) أبو داود فى سننه وأحمد فى المسند . انظر معالم السنن للخطابى .

(٤) رواه البخارى ومسلم .

(٥) شرح الأدلة على محلة الأحكام العدلية ١ / ٨ .

(٦) رواه مسلم وأبو داود والترمذى . الترغيب والترهيب ٢ / ٥٨٢ .

(٧) أخرجه البخارى ومسلم وابن ماجه .

(٨) البقرة ـــ ١١ .

(٩) المؤمنون ـــ ٧١ .

النَّـاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلهُ فِي الحَياةِ الدُّنْيَا ، وَيُشْهِدُ الله علَى مَافِي قلْبِهِ ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وإذَا تولَى سَعَى فِي الأرض لِيفْسدَ فيها ، وَيُهْلِكَ الحَرثَ والنَسْلَ، والله لَايُحِبُ الفَسادَ ، وإذَا قِيلَ له اتق الله أَخَذَتْهُ العِزَةُ بالإِثْمِ ، فَحَسبُه جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ (١)، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَومٍ قَدْ ضَلَوا من قبل وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل ﴾ (٢)ولهذا فإن المقاصد التى تحيط بها الشريعة الإسلامية والمناهج العلمية والسلوكية والإنسانية تعصمها من الفساد والزلل ، وتفرض على الباحث المخلص والعالم الواعى أن يطهر فؤاده ، ويبيض صحائفه ، ويضيء كلماته ، حتى تناسب تلك المقاصد والغايات الربانية السامية .



(١) البقرة — ٢٠٥ .

(٢) المائدة — ٧٧ .

المبحث الرابع
مناهج التلقى

للمناهج الإسلامية خطوات سارت عليها ، سواء كانت هذه الخطوات فى منهاج التلقى عن الوحى أو عن المعصوم ، رسول الله ﷺ ، أو عن الصحابة العدول ، أو مايستنبط من هذه المصادر المعتمدة ، التى سار على نهجها المجتمع الإسلامى فى بناء ذاته ، نفسيا ، واجتماعيا ، وحضاريا . كما أن هذه الخطوات فتحت أفاقا جديدة أمام العقل المسلم ، وأمام المفكر المؤمن ، نظر منها إلى الحياة على أنها مخلوقة لخالق ، وأنها صنعة صانع ، قدر فيها أقواتها ، وأودع فيها أرزاقها ، وبث فيها من كل دابة ، فنمت نظرية السببية والخالقية فى نفس من خلقت له هذه الأرضية ، ومهدت له هذه العوالم ، فانبجست من هذه الدلالات مناهج تجريبية ، فتحت آفاق الأسرار ، ونوافذ المعرفة على كنوز هذه الحياة ، وخزائن هذه الأرض .

١ ــ منهاج التلقى عن الوحى :

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ ؛ ليفرق بين الحق والباطل ، ويبين للعالمين كيف تكون الحياة الإنسانية على ظهر هذا الكوكب : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرقانَ عَلَى عَبْدِه لِيَكُونَ للعَالَمينَ نَذِيَرا ﴾ [١] ، فكان كما حدث الحق سبحانه مباركا طيبا : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ [٢]، شافيا من كل

---

(١) الفرقان ــ ١ .
(٢) الأنبياء ــ ٥٠ .

شرود ، مبرئا من كل علة : ﴿ وَنُنَزِّل مِنَ القُرآن مَا هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمةٌ للمؤْمِنينَ ﴾[1] ، ﴿ قُلْ هُو للذينَ آمَنوا هُدى وَشِفاء ﴾[2] ، ﴿ يَاأَيُّهَا الناسُ قَدَ جاءتكم مَوعِظَةٌ مِنْ رَبكُم وَشِفَاءٌ لِما فِي الصُّدُور وَهُدىً وَرَحمةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] ولهذا أمر المؤمنون باتباعه ، وعدم مخالفة أمره ، والسير على سنته ، .. ﴿ وَهذَا كِتُابٌ أَنْزَلنَاهُ مُبارَكٌ فاتَّبِعُوهُ ﴾[4] ، ﴿ وأَنَّ هَذَا صراطِي مُستقيماً فاتبعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُل فَتَفرق بِكُم عَن سَبِيلِهِ ﴾[5] ، ﴿ وَاتبع مَا يُوحَى إليكَ وَاصْبِر حَتَّى يَحكُم الله وَهُوَ خيرُ الحاكِمينَ ﴾[6] فبالغ المسلمون فى الحرص عليه ، فحفظوه فى الصدور ، وكتبوه فى الرقاع ، وعرفوا أسباب نزوله ، وناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، وتولوا بيانه ومعرفة أحكامه فأما عن حفظهم له فى الصدور ، فقد كانوا يتلقفونه من فم رسول الله ﷺ .

الجمع الأول فى عهد أبى بكر :

كان الأمر لا يقف عند الحفظ من رسول الله ، أو من الصحابة ، فقد كان للرسول ﷺ كتاب للوحى ، ما أن تنزل الآيات حتى تكتب فى الرقاع ، لتسجيلها حال نزولها بإملاء رسول الله ﷺ ، وما توفى رسول الله ﷺ إلا والقرآن قد كمل نزوله : ﴿ اليَومَ أَكْمَلتُ لَكُم دِينكم وأتممت عَليكُم نِعْمَتِى وَرضيتُ لكُم الإسلامَ دِينا ﴾[7] ثم جدت أمور بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وجرت حوادث فى عهد أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ ، فعجل أبو بكر رضى الله عنه فى جمع القرآن من الجريد والرقاع واللخاف والأديم ، وجعله فى قراطيس ، وهذا كان أول جمع للقرآن ، وكلف بهذا الجمع كتاب الوحى ،

---

(١) الإسراء — ٨٢ .
(٢) فصلت — ٤٤ .
(٣) يونس — ٥٧ .
(٤) الأنعام — ١٥٣ .
(٥) الأنعام — ١٥٣ .
(٦) يونس — ١٠٩ .
(٧) المائدة — ٣ .

برئاسة زيد بن ثابت ، على أن يستعين بمن شاء من الصحابة ، ومن الحفاظ للقرآن الكريم ، ثم حفظت الصحف التى جمعت عند أبى بكر ، حتى مات ، ثم عند عمر حتى مات ، ثم عند حفصة بنت عمر .

جمع عثمان وكتابة المصاحف :

إلى أن جاء عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، واتسعت رقعة الأمصار الإسلامية ، واقتضت الحاجة أن تنسخ مصاحف ، وترسل إلى الأمصار ، حتى لا يختلف الناس فى القرآن ، فأرسل عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى زيد بن ثابت صاحب الجمع الأول زمن أبى بكر رضى الله عنه ، كما ضم إليه بعض الصحابة كسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ، وعبد الله بن الزبير ، وأمرهم بنسخ الصحف فى المصاحف ، فنسخت عدة نسخ من القرآن ، قيل أربعة مصاحف ، وقيل : خمسة ، وقيل : سبعة ، ووزعت على الأمصار ، ومازال المصحف بالرسم العثمانى يتداوله المسلمون إلى اليوم ، من غير تبديل أو تحريف ، حتى فى رسم الكتابة ، ومازال كتاب الله مع هذا تحفظه الأمة عن ظهر قلب ، جيلا بعد جيل ، ليكون محفوظا فى الصدور ، موثقا بالكتابة ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وصدق الله ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾ [1].

وهكذا أخذت الأمة منهج الحياة من الوحى رائقا عذبا فراتا سائغا شرابه ، لاتحريف فيه ولا عوج .

٢ ــ منهج التلقى عن المعصوم :

تلقى المسلمون عن رسول الله ﷺ ، قوله وفعله وتقريره ، وسمى ذلك عند المسلمين بعلم الحديث ، وهو اسم من التحديث [2]، أو الإخبار ، كما فى

---

(١) الحجر ــ ٩ .

(٢) انظر ــ هدية العارفين ١ / ٢٢٩ . وإيضاح المكنون ١ / ٢٥١ ، ٣٨٠ .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾(١)، وقوله تعالى ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ﴾(٢) قال شيخ الإسلام ابن حجر فى شرح البخارى : « المراد بالحديث فى عرف الشرع ما أضيف إلى النبى ﷺ » (٣)، فصار اسم الحديث علما على قول الرسول ﷺ ، وفعله ، وتقريره ، أما السنة : فهى — فى الأصل — ليست مساوية للحديث ، فإنها — تبعا لمعناها اللغوى — كانت تطلق على الطريق الدينية التى سلكها النبى ﷺ فى سيرته المطهرة ، لأن معنى السنة لغة : الطريقة ، وعلى هذا فإذا كان الحديث عاما يشمل قول النبى ﷺ وفعله : فالسنة خاصة بأعمال النبى عليه السلام (٤) ومن هذا تفريق بعض الباحثين بين علماء الحديث ، وعلماء السنة ، كقول عبد الرحمن بن مهدى : سفيان الثورى إمام فى الحديث ، والأوزاعى إمام فى السنة ، وليس بإمام فى الحديث ، ومالك بن أنس إمام فيهما جميعا (٥).

ولكن أكثر المحدثين على أن الحديث والسنة مترادفان ، أطلقت السنة فى كثير من المواطن على غير ما أطلق الحديث عليه ، وهل السنة فى الحقيقة إلا الطريقة النبوية التى كان الرسول ﷺ ، يؤيدها بأقواله وأفعاله ، وهل يدور كلاهما إلا حول محور واحد ، ينتهى أخيرا إلى النبى ﷺ فى أقواله المؤيدة لأعماله ، وفى أعماله المؤكدة لأقواله ، وقد تلقى المسلمون سنة رسول الله ﷺ بحب وشوق وإخلاص ؛ لأنهم يعلمون أن الرسول ﷺ لاينطق عن الهوى ، وأنه الهادى إلى صراط مستقيم ، ﴿ وإنكَ لَتَهدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتقيم ﴾ (٦) وأنه الأسوة الحسنة ، والقدوة العظيمة ، والخلق الكَامِل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لكم فى رَسُولِ اللهِ أسوة حسنة لِمَنْ كَانَ يَرجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ، وذَكَرَ اللهَ

---

(١) الطور — ٣٤ .

(٢) الزمر — ٢٣ .

(٣) انظر تدريب الراوى شرح تقريب النووى للسيوطى ص ٤ ط مصر ٣٠٧ .

(٤) انظر الفهرست لابن النديم — ٢٣٠ ط فوجل سنة ١٨٧١ ، ١٨٧٢ م .

(٥) انظر الزرقانى على الموطأ ١ / ٤ .

(٦) الشورى — ٥٢ .

كثيرا ﴾[1]، ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[2] وأن اتباعه ﷺ طاعة لله وحب له : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾[3]، وانتهى العلماء المحققون إلى أن الحديث الصحيح حجة على جميع الأمة ، وأيدوا رأيهم هذا بالآيات القرآنية ، التى تفرض على المؤمنين اتباع الرسول ، والتسليم لحكمه ، وهذا أمر بدهى لا يحتاج فى بيانه إلى كبير جهد . وقد انتهر العلماء كل جاهل عن هذه الحقيقة ، وردوه إلى الصواب ، يرى عبد الرحمن بن يزيد رجلا محرما فى موسم الحج قد ارتدى ثوبا مخيطا ، فيرشده إلى نزع ثيابه ، والأخذ بسنة النبى ﷺ فى لباس الإحرام ، فيقول الرجل لعبد الرحمن : ائتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى . فلا يرى عبد الرحمن خيرا من أن يقرأ عليه قول الله : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[4]. ويصلى الإمام طاووس بعد العصر ركعتين ، فيقول له الصحابى الجليل ابن عباس : اتركهما . فيجيبه طاووس بأن الرسول عليه السلام ، إنما نهى عنها مخافة أن تتخذ سنة ، ولكن ابن عباس يصر على النهى ، ويؤكد لطاووس أن ليس له الخيار فيما جاء به الرسول ، مستندا إلى الآية الكريمة ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾[5] . وهذا هو ما جعل عمران بن حصين يرمى رجلا بالغفلة الشديدة ، لقوله مثل هذا ، وقال له مؤنبا : إنك امرؤ أحمق !! أتجد فى كتاب الله ركعات الظهر أربعاً ، لا يجهر فيها بالقراءة ، ثم سرد له بعض أحكام الصلاة ، ومقادير الزكاة ، وما أشبه ذلك من أركان الإسلام وفرائضه . ثم قال للرجل : أتجد هذا كله مفسرا فى كتاب الله ؟ إن كتاب الله أبهم هذا وأجمله ، وإنما فسرته السنة ، ووضحته ، وبينته[6]. ولهذا حفظت الصحابة سنة نبيهم فى الصدور ، ومن أمن منهم التباس السنة بالقرآن ،

(١) الأحزاب ــ ٢١ .

(٢) القلم / ٤ .

(٣) آل عمران ــ ٣١ ، ٢٥ .

(٤) الحشر ــ ٧ . جامع بيان العلم (لابن عبد البر) ٢ / ١٨٨ .

(٥) الموافقات للشاطبى ٤ / ٢٥ .

(٦) جامع بيان العلم ٢ / ١٩١ الموافقات ٤ / ٢٦ .

وكتب ما سمعه من رسول الله بعد إذنه ، وكان الرسول ﷺ قد نهى عن كتابة الأحاديث ، ولا سيما إذا كتب هذا فى صحيفة واحدة مع القرآن ، مخافة التباس أقواله وشروحه وسيرته ﷺ بالقرآن [١]، وقال : لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج ، ومن كذب عَلَىَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »[٢]. وظل الحال على هذا المنوال فى عصر الخلفاء الراشدين ، ولم يتغير الحال كثيرا ، فأبو بكر رضوان الله عليه يجمع بعض الأحاديث ، ثم يحرقها [٣]. وهذا عمر بن الخطاب لا يلبث أن يعدل عن كتابة السنة بعد أن عزم على تدوينها ، « عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أراد أن يكتب السنن ، فاستشار فى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، فأشار عليه عامتهم بذلك ، ثم عدل عن ذلك »[٤] وجاء عصر التابعين ، فمنهم من كان متشددا فى المنع ، منهم عبيدة بن عمرو السلمانى المرادى ٧٢ هـ ، وإبراهيم بن يزيد التيمى ٩٢ هـ ، وجابر بن زيد ٩٣ هـ ، وإبراهيم النخعى — ٩٦ هـ — ، لقربهم من عصر الصحابة . وما تزال الأخبار عن الخلفاء بمنعه مستفيضة [٥] ثم جاءت بعدهم طبقة بدأت تستسيغ التدوين ، منهم سعيد بن جبير —٩٥ هـ ،الذى بالغ فى الحرص على التدوين[٦]، وسعيد بن المسيب ١٠٥ هـ ، وعبد الرحمن بن حرملة .

ثم جاء عهد عمر بن عبد العزيز — ١٠١ هـ ، فأمر رسميا بالشروع فى تدوين الحديث كما هو المشهور ، فأرسل إلى عامله على المدينة أبى بكر بن محمد بن عمر يأمره « انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ ، أو سنة ماضية ، أو حديث عمرة ، فاكتبه ، فإنى قد خفت دروس العلم ، وذهاب

(١) معالم السنن للخطابى ٤ / ١٨٤ .

(٢) صحيح مسلم ٨ / ٢٢٩ .

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبى ١ / ٥ ط ٣ (١٩٥٥ حيدرآباد) .

(٤) تقييد العلم للخطيب البغدادى للدكتور العش ط دمشق ص ٥٠ ، جامع بيان العلم لابن عبد البر ط المنيرية ١ / ٦٤ ، طبقات ابن سعد ٣ / ١ ص ٢٠٦ ط ليدن .

(٥) جامع بيان العلم ١ / ١٧ والمراجع السابقة .

(٦) جامع بيان العلم ١ / ٧٢ ، تقييد العلم ص ١٠٣ .

أهله »[1]. ثم كتب بعد ذلك إلى أهل الآفاق ، وإلى عماله فى الأمصار بمثل ذلك[2]. ثم بعد ذلك هبَّ الناس فى طلب الحديث ، ورحلوا فى سبيل ذلك إلى الأمصار والبلاد المتباعدة ، ليجمعوه ممن سمعوه من الصحابة الذين سمعوه من رسول الله ﷺ ، أو من التابعين وتابع التابعين .

شروط منهج التلقى عن الرسول :

لم يأخذ المحدثون الأمر على عواهنه ، وإنما كانت لهم شروط معينة فى التلقى عن رسول الله ﷺ ، وكان لهم منهج معين صار فيما بعد مقياسا عاما ، وقواعد متعارفاً عليها فى توثيق الأخبار والحوادث العامة ، التى ساهمت فى ترشيد الباحث المسلم فى بحثه عن الحق والصواب ، وقللت من الاعتماد على الظنون والأوهام بغير دليل ملموس ، أو خطوات مؤكدة تؤدى إلى نتائج منطقية وسليمة ، وبقدر ما تكون المناهج تسير فى طريق صحيح راشد تكون النتائج إيجابية سليمة فى أى علم من العلوم ، فمن منهجهم فى هذا التلقى شرط فى المتلقىَ ، وشروط فى المتلِقى ، « شروط فى السماع ، وشروط فى الراوى » .

شروط الراوى :

جعل المحدثون للراوى شروطا لابد منها لقبول الرواية عنه ، فلو فقدها أو فقد بعضها ردت روايته ، وترك حديثه ، وهى : العقل ، والضبط ، والعدالة ، والإسلام ، فكثرة الغلط تنافى الضبط ، والاتهام فى الحديث يعارض العدالة ، أما الإسلام والعقل : فأمران بديهيان لابد منهما ، والمقصود بعدالة الراوى ، استقامته التامة فى شئون الدين ، وسلامته من الفسق كله وخوارم المروءة . وقد عرف الخطيب البغدادى العدل بأنه « من عرف بأداء فرائضه

---

(١) طبقات بن سعد ٢ / ٢ ص ١٣٤ .

(٢) الرسالة المستطرفة ص ٤ لمحمد بن جعفر الكتانى ط دمشق .

ولزوم ما أمر به ، وتوقى ما نهى عنه وتجنب الفواحش المسقطة ، وتحرى الحق والواجب فى أفعاله ومعاملاته ، والتوقى فى لفظه لها يثلم الدين والمروءة . فمن كانت هذه حالته فهو الموصوف بأنه عدل فى دينه ، ومعروف بالصدق فى حديثه » [1].

والمقصود بضبط الراوى :

سماعه للرواية كما يجب ، وفهمه لها فهما دقيقا ، وحفظه لها حفظا كاملا ، لاتردد فيه ، وثباته على ذلك كله من وقت السماع إلى وقت الأداء ، وإن كان المحدثون يفرقون بين قديم حديث الرجل وجديده ، فقد يضعف ضبط الرجل فى أواخر أيامه ، فيقال فيه تغير بآخرة ، ويعرف ضبط الراوى بموافقة الثقات المتقنين الضابطين إذا اعتبر حديثه بحديثهم ، فإن وافقهم فى رواياتهم غالبا — ولو من حيث المعنى — فضابط ، — ولا تضر المخالفات النادرة — ، وإلا اختل ضبطه ، ولم يحتج بحديثه [2]. وقد حذر عبد الله بن المبارك من كتابة الحديث أو سماعه عن غلاط لا يرجع ، وكذاب ، وصاحب بدعة وهوى يدعو إلى بدعته ، ورجل لا يحفظ فيحدث من حفظه [3].

شروط التحمل :

وصور هذا التحمل ثمانية : السماع ، والقراءة ، والإجازة ، والمناولة ، والمكاتبة ، والإعلام ، والوصية ، والوجادة .

١ــ أعلاها **السماع** ، وهو أن يسمع المتحمل من لفظ شيخه ، سواء أحدثه الشيخ من كتاب يقرؤه أم من محفوظاته ، وسواء أأملى عليه أم لم يمل عليه . وقد

---

(١) الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى ٨٠ ط دائرة المعارف العثمانية -حيدر آباد ١٣٥٧ هـ .

(٢) تدريب الراوى شرح التقريب للنووى (للسيوطى) / ١١٠ ط مصر ١٣٠٧ هـ .

(٣) الكفاية ١٤٣ ويراجع فى هذه الصفحة أقوال العلماء فى ترك الاحتجاج بمن كثر غلطه وكان الوهم غالبا فى روايته .

اصطلحوا على أن ألفاظ حدثنا أو أخبرنا ، أو أنبأنا ، أو ذكر لنا ، أو قال لنا تفيد معنى التحديث [1].

٢ـ **القراءة** ـ وهى قراءة التلميذ على الشيخ حفظا من قلبه ، أو من كتاب ينظر منه ، ويقول التلميذ عند الأداء حدثنا الشيخ قراءة عليه ، « أو » أخبرنا قراءة عليه ، أو سمعت من الشيخ قراءة عليه ، بذكر هذا القيد الأخير إلزاما ، لأن عدم ذكره يوهم السماع .

٣ـ **الإجازة** ، وهى إذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته ، ولو لم يسمعها منه ، ولم يقرأها عليه ، وهذه الإجازة بصرف النظر عن المعترضين عليها من أمثال ابن حزم ؛ فإنها مقبولة ، وقد اعتمدها الجمهور دون تردد ، وهى فى الواقع تؤدى إلى صحة التحمل [2].

٤ـ **المناولة** ـ وهى أن يعطى الشيخ تلميذه كتابا أو حديثا مكتوبا ، ليقوم بأدائه وروايته عنه . وتكون مناولة مع الإجازة ـ كأن يقول له الشيخ قد ملكتك إياه ، وأجزتك بروايته فخذه منى ، وأروه عنى .

٥ـ **المكاتبة** ، وهى أن يكتب بخطه ، أو يكلف غيره بأن يكتب عنه بعض حديثه لشخص حاضر بين يديه ، يتلقى عنه العلم ، أو لشخص غائب عنه ، ترسل الكتابة إليه [3] .

٦ـ **الإعلام** ـ وهو إعلام الشيخ تلميذه بأن هذا الكتاب أو هذا الحديث من مروياته ، أو من سماعه من فلان ، من غير أن يصرح بإجازته له فى أدائه ، وجاز ذلك إذا كانت الثقة بالشيخ متوفرة . لأن الثقة تمنعه من أن يعلم تلميذه بما ليس من مروياته ، وقد منع كثير من المحدثين الرواية بالإعلام إن صرح الشيخ لتلميذه بعدم سماحه له بالرواية عنه [4].

---

(١) التدريب ـ ١٢٩ .
(٢) المرجع السابق ـ ١٣١ ـ ١٣٢ .
(٣) الباعث الحثيث ـ ١٣٨ .
(٤) انظر تدريب الراوى ١٤٨ ، الباحث الحثيث ١٤٠ .

٧ــ **الوصية** ــ وهى تصريح الشيخ عند سفره ، أو على فراش موته بأن يوصى لفلان بكتاب معين ، كان يرويه ، وهى صورة نادرة من صور التحمل ، وحول الوصية كلام ، ليس هذا مجاله فى هذه العجالة .

٨ــ **الوجادة** ــ وهى أن يجد الشخص حديثا بخط شيخ كان قد لقيه فألف خطه ، وعرفه ، ووثق به أو ألم بلغته ، ولكنه استيقن أن هذا المخطوط صحيح النسبة إليه ، وكذلك إذا وجد بعض الأحاديث فى كتب مشهورة لمؤلفين مشهورين . فللشخص الذى تقع يده على شىء من هذا أن يرويه عن الشيخ على سبيل الحكاية ، ويقول : وجدت بخط فلان ، أو يغلب على ظنى أنه خط فلان ، أو وجدت بخط أبى مثلما كان يصنع عبد الله بن أحمد بن حنبل[(١)]

وقد اقتضى هذا ظهور علوم الحديث التى تخدم هذا المنهج ، مثل علم الجرح والتعديل ، وعلم رجال الحديث ، وعلم مختلف الحديث ، وعلم علل الحديث ، وعلم غريب الحديث ، وعلم الناسخ والمنسوخ . وصنف فى الحديث كتب تفاوتت درجاتها فى الصحة والترتيب والتبويب ، كما اقتضى هذا تقسيم الحديث من حيث الصحة والحسن والضعف ، على حسب القواعد المرعية فى هذا الفن .

منهج الدراسات المختلفة :

وكما قلت فقد أثر هذا المنهج المتكامل الصحيح على المعارف الإسلامية ــ فنرى أن عنصر التوثيق دخل تلك المعارف والعلوم ، فنرى الفتوحات رويت كذلك بالروايات ، ونرى الآثار رويت كذلك بالأسانيد ، ونرى الحوادث رويت كذلك بالسلاسل وننظر فى ذلك مصنف ابن أبى شيبة ، ومصنف عبد الرزاق ونرى تاريخ الطبرى والواقدى وغيرهم فى كل فن . وهذا ما أعطى قيمة للعلوم الإسلامية والحوادث والأخبار ، وجعل الباحث الإسلامى ينظر عمن يأخذ علومه ومعارفه ، وجعله يتعود البحث والتصنيف والترتيب والتبويب والتعليق ، لهذا نرى قيمة ما أخرج من علوم تطابق الواقع ، ولا يداخلها التحريف إلا قليلا ، ونجد أن الغرب فى كثير

---

(١) انظر التدريب ــ ١٤٨ .

من أبحاثه يعتمد على كتب الإسلاميين وعلى علمهم ، فى الرحلات وآخبار الأمم ، وعادات الشعوب ، وأحوالهم ، وحوادثهم ، وأخبار الاعتماد على العلماء المسلمين فى الرحلات والعلوم معروفة ومعلومة ، مما سنعرض له فيما بعد إن شاء الله تعالى .



المبحث الخامس
المنـــاهج المــاديــة

طبيعة المناهج العلمية فى الحضارات السابقة :

كانت طبيعة المناهج العلمية فى الحضارات السابقة مخالفة لما عليه تلك العلوم اليوم ، فأسلوب المناهج العلمية عند اليونان وغيرهم كان أسلوب الجدل اللفظى العقيم ، والتخيلات العقلية ، فقد برع مفكروا ذلك العصر فى إقامة الحجج والبراهين اللفظية الخالصة ، وتلاعبوا بالاستدلالات الشكلية ، والمغالطات التى تتخذ فى ظاهرها صبغة منطقية ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى أى منهج فى البحث يعين على معرفة مباشرة ، فالألفاظ كانت عندهم حاجزا يحجب الواقع ، والاستدلال الوحيد المعروف عندهم هو قياس الجديد على القديم ، أى على ماهو معروف من قبل . ومن هنا فإن كتبهم كانت كلها دعما لمعارف قديمة ، أما الكشف الجديد ؛ فلم يكن من المتوقع أن يسعى إليه عصر يؤمن بأن المعرفة كلها قد اكتملت فى عصر من العصور الماضية . وهذا الاهتمام المفرط بالحجج اللفظية الخالصة ـ والاعتقاد بأنك إذا استطعت أن تثبت « بالكلام البحت » شيئا كنت السابق والفائز ـ شيء لا يؤدى إلى نتيجة مرجوة ، وكانت هذه سمة العلم فى العالم وقت ذلك ، إذ كان العالم كله يفهم العلم من خلال معان كيفية ، ذات أصل فلسفى بحت ، كأن يقال مثلا : إن هذا الشيء موجود بالفعل أو بالقوة ، أو أنه مادة أو صورة ، وهذه المادة حارة أو باردة ، ثقيلة أو خفيفة . دون أية محاولة لتطبيق الرياضيات التى كانت قد أحرزت تقدما كبيرا فى الظواهر الطبيعية لاستخلاص قوانينها ، بل كانوا يتصورون أن باستطاعتهم حل مشكلات العالم الكبرى بالتأمل النظرى وحده ، وأنهم قادرون على فهم ما وراء الطبيعة باستخدام مجموعة من الاستدلالات اللفظية التى يتلاعبون بها

ببراعة كبراعة السحرة ، ويظنون أن ما توصلهم إليه هذه الألاعيب اللفظية لا بد أن يكون حقيقة واقعة ، وقد كان تقسيم العلوم عندهم إلى علوم عليا ، وعلوم دنيا ، أو علوم شريفة ، وعلوم وضيعة بحسب قرب العلوم من المنهج العقلى الصرف ، فالفلك مثلا علم رفيع ، لأنه يبحث فى كائنات علوية وهى الأفلاك ، والرياضيات علم رفيع ، لأنها لا تحتاج فى ممارستها وتعلمها إلا إلى العقل وحده ، والكيمياء — مثلا — علم وضيع ؛ لأنه يبحث فى المواد وتفاعلاتها ، بل لم يعتبروه علما على الإطلاق ، ولكن اعتبروه حرفة وصناعة دنيا ، وكانت العلوم محصورة عندهم فى سبعة ، أولها اللاهوت ، والفلسفة ، والمنطق ، وتسمى الثالوث . وأربعة تسمى الرابوع ، وتشمل معارف نظرية أقل من الأولى ، مثل اللغة ، والقانون ، والموسيقى ، أما مانسميه اليوم من علوم ، مثل الطب ، والفيزياء ، والكيمياء ، والهندسة ، والميكانيكا ، فكانت تسمى فى رأيهم حرف وصناعات ، ولم يكن صاحبها أو المشتغل بها والعالم بأسرارها يعد من العلماء ، بل من أصحاب الحِرَف ، وكان أصحاب هذه الصناعات أو الحرف غير جديرين بالاحترام أو التقدير ، وعلى هذا لم يكن لعلم مثل الكيمياء مثلا ، الذى يبحث فى المواد وتفاعلاتها ، لم يكن من الممكن أن يظهر بين اليونانيين ؛لأن موضوعه غير جدير — فى نظرهم — باهتمام العالم أو الشريف ، وعلى هذا ، فما بالنا بعلم الجيولوجيا ، أو علم الحشرات ، أو الجراثيم ، أظن أن المشتغل بهذه العلوم كان سيحق عليه اللعنة ، ومثل هذه التفرقة بين العلوم ومراتبها ، كان من الضرورى أن تغلق العقل والتفكير عن كل تقدم ، وأن تأتى بنتائج سيئة للغاية ، وأن تخلق طبقة من أصحاب الأبراج العاجية والعاطلين والمدجلين ، الذين كانوا يجلسون وليس لهم عمل إلا التلاعب بالأفكار والأفهام ، بغير ما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم .

وهكذا ألحق الفكر اليونانى ضررا بالغاً بمفهوم العلم ، استغرق جهدا كبيرا لإزالته ، ووضع لبنات جديدة بدلا عنه ، ولهذا نرى أن الإسلام حرم الجدل ، والسفسطة ، والتلاعب بالألفاظ ، وتعالم اللسان ، والقول بدون عمل ، والسير فيما لا ينفع الناس ، فضلا عن التغرير بهم واستعبادهم . فى المقابل نجد الديانات التى ظهرت فى جنبات تلك الحضارة تهدم العلم هدما ، وتعتبره حراما ، بل معارضة لقانون

الله فى الكون والناس ، تقول صاحبة كتاب شمس العرب تسطع على الغرب : بينما يحث الإسلام على العلم وعلى أخذ الحكمة ولو من غير شفاه المسلمين ، نجد المسيحية تروى عن ربها فتقول : يقول الرب ، « إن علم الدنيا غباء » ، ويتساءل بولس الرسول ، فيقول كلاما على النقيض من علم المسلمين : « يوجد مكتوب » — « أى فى كلام الرب » — « أريد أن أهدم حكمة الحكماء ، وأحطم عقل العقلاء » ، « إن الغباء الموجود فى الوجود اختيار الله » ، « وهذا يسىء إلى الحكماء » [1].

— الانطلاقة الإسلامية العلمية —

أما انطلاق المسلمين إلى الآفاق العلمية ؛ فإنه ينبعث من أعماق عقائدية ، وتفكير حضارى سليم ، يختلف عن غيره من الثقافات اختلافا كبيرا . فقد ظهر الإسلام فى جزيرة العرب ، فى أعماق الصحراء ، بعيدا عن الحضارات والمدنيات والعلوم والحرف والصناعات التى كانت تقوم عليها الأمم المرموقة فى ذلك الوقت من الزمان ، ولم يكن عند العرب فى ذلك الزمان علم ولا علوم ولا فلسفة ولا فلاسفة ، اللهم إلا بعض الشعراء والخطباء ، الذين ظهروا ونبغوا بحكم تفاخرهم ودفاعهم عن قبائلهم وعشائرهم ، فلما ظهر الإسلام فى هذه المنطقة ، وسط هذه المنطقة ، وسط هذه الرمال الجرداء ، والعقول الصماء ، فَجَّر فيها ينابيع الحكمة ، وأجرى بها أنهار العلوم والآداب ، وأحيا عقولها وأفهامها وبصائرها بعد همود وموت ، كما عبر عن ذلك القرآن : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ، ليس بخارج منها ﴾ [2] ونزل القرآن على المؤمنين فدعا إلى العلم الشامل ، ودعا إلى البحث والنظر والتأمل فى الكون ، ودراسة كل شىء ، دعا إلى البحث عن حقائق الأشياء مادية ومعنوية ، وأمر الناس بأن يدرسوا كل شىء دراسة بحث وتعمق : الأرض وتركيبها ، وما فيها من معادن ، وما ينبت عليها من زرع ،

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب للدكتوره سيجريد هونكه ص ٢٧٤ ط النهضة العربية .

(٢) الأنعام — ١٢٢ .

ويتضمن ذلك كل ما يدخل الآن فى نطاق العلم ، من فيزياء ، وكيمياء ، ورياضيات ، ونبات ، وحيوان ، وفلك ، وطب ، وصيدلة ، وهندسة ، إلى جانب العلوم النظرية المعروفة ، إلى جانب أن الإسلام اعتبر العلم فريضة ، كما اعتبره جهادا فى سبيل الله سبحانه ، فعن رسول الله ﷺ « من جاء مسجدى هذا ، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد فى سبيل الله تعالى » ،[1] واعتبره سبيلا إلى الآخرة لقوله ﷺ « من سلك طريقا يلتمس فيه علما : سهل الله له طريقا إلى الجنة » ،[2] وأعلى رتبة طالب العلم إلى درجة أن الملائكة تخضع له : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل » ،[3] كما أشاد القرآن بالعلماء ، ورفع شأنهم : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ﴾[4] ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾.[5]

المنهج التجريبى :

إن أعظم ما يمكن أن يفخر به العلم الإسلامى فى عصر ازدهاره ، هو أنه أضاف بالتدريج إلى مفهوم العلم معنى جديدا ، لم يكن يلقى اهتماما عند اليونانيين ، وهو استخدام العلم فى كشف أسرار العالم الطبيعى ، وقهر الإنسان للمادة ، والسيطرة عليها ، واستخدم المسلمون الرياضة فى حل المشكلات الواقعية التى تواجه الإنسان ، وبرعوا فى علوم المادة ، واخترعوا علوماً مساعدة لذلك ، فمثلا برعوا فى استخدام الأرقام ووضع أسس علم الحساب ، الذى يمكن تطبيقه فى حياة الناس اليومية ، وكان اختراعهم للجبر ، وتفوقهم فى الهندسة التحليلية ، وابتكارهم لحساب المثلثات ، إيذانا بعصر جديد ، تستخدم فيه الرياضة للتعبير عن قوانين العالم الطبيعى ، وعلى هذا فقد وضحت على يد العلماء الإسلاميين أصول المنهج

---

(١) أخرجه ابن ماجة بإسناد حسن ، وله سند من حديث الترمذى « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى بإسناد حسن « جامع الأصول » .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجة وابن حبان صحيح الإسناد « الترغيب والترهيب » .

(٤) آل عمران ـــ ١٨ . (٥) فاطر ـــ ٢٨ .

التجريبى ، بما يقتضيه من ملاحظات دقيقة دائبة ، ومن تسجيل منظم لهذه الملاحظات ، ثم وضع الفروض لتفسيرها وإجراء التجارب للتحقق من صحة هذه الفروض .

حقيقة المنهج التجريبى وخطواته :

كان لزاما علينا بعد أن ألمحنا إلى دور المسلمين فى وضع أصول المنهج التجريبى ، أن نتحدث عن تعريف هذا المنهج ، وعن ماهية خطواته ، والفرق بينه وبين المنهج الاستدلالى المعروف ، حتى تتضح معالم المنهج بالحقائق لا بالألفاظ .

فالمنهج التجريبى بمعنى عام : هو المنهج المستخدم حين نبدأ من وقائع خارجة عن العقل ، سواء أكانت خارجة عن النفس إطلاقا ، أم باطنة فيه . « والمراد بأنها خارجة عن العقل ، أى عن الاستدلال الرياضى ، » فالمنهج التجريبى موضوعه الوقائع الخارجية ، لا المخلوقات العقلية ، والمنهج التجريبى على هذا يخالف المنهج الاستدلالى الذى موضوعه المخلوقات العقلية .

ـــ خطوات المنهج التجريبى ـــ

للمنهج التجريبى خطوات ثلاث : الأولى : الوصف والتعريف . فعالم النبات ينظر فى أنواع النبات المختلفة ، وأوصاف الأوراق التى يحملها كل نبات ، والأزهار الخاصة بذوات الأزهار ، كما ينظر إلى غذاء كل نبات ، وبعد أن ينظر العالم إلى النبات من هذه النواحى وغيرها يصنفها ويقسمها إلى أسر وفصائل تتفق فى الصفات والفصائل .

الخطوة الثانية : لا تقف عند المشاهدة والوصف ـــ كما هو الحال فى الخطوة الأولى ـــ بل تنتقل منها إلى بيان الروابط ، وافتراض تفسير لتلك الروابط ، ثم امتحان صحة هذا الافتراض ؛ بإجراء التجارب المختلفة على هذا الفرض حتى يثبت صحته

الخطوة الثالثة : إذا ما انتهينا عن طريق التجربة إلى وضع قوانين معينة ، أتينا بخطوة ثالثة ، هى : خطوة تنظيم هذه القوانين الجزئية ، لكى تدخل فى نطاق أعم ، بأن تصبح مبادىء عامة كلية ، فالملاحظة والفرض والتجريب هى إذا الفقرات الثلاث

المكونة لسلسلة المنهج التجريبى ، ولنوضح ذلك بالأمثال ـــ فجليليو كيف توصل إلى قانون سقوط الأجسام : بدأ جليليو بملاحظة سقوط الأجسام ، وازدياد سرعة سقوط الجسم كلما قطع مسافة أطول ، فحاول أن يفسر هذه الظاهرة ، فافترض أن زيادة السرعة نشأت من زيادة المسافة المقطوعة ، ولكنه وجد أن الفرض يؤدى إلى تناقض مع كثير من الوقائع ، فاستبدل به فرضا آخر ، وهو أن تكون نسبة السرعة سائرة مع الزمن ، ثم أجرى تجربة على هذا أثبت فيها ذلك ، وأثبت التماثل بين السرعة والزمن ، فإذا نظرنا إلى المنهج الذى سلكه جليليو من أجل وضع هذا القانون ، وجدنا أن الخطوة الأولى هى أنه ابتدأ من ظواهر مشاهدة ، ثم تلا هذه الخطوة بخطوة ثانية ، هى افتراض أمر معين يكون قانونا ، ثم أجرى تجربته ، وأثبت القانون[1]، ودرج المسلمون على ذلك فى علمهم ، فلم يقتنعوا إلا بالتجربة العلمية ، فى أبسط الأشياء ، وفى أعقدها ، فنرى عندما شرع السلطان عضد الدولة فى بناء مستشفى جديد كلف الطبيب المشهور الفخر الرازى اختيار أنسب مكان وأصحه ، فاستدعى الرازى بعض غلمانه ، وأعطاهم قطعا من اللحم ، وأمرهم بتعليقها فى أماكن متفرقة من نواحى بغداد ، ثم مر بعد وقت على قطع اللحم المعلقة ، واختار المكان الذى لم تتغير فيه قطع اللحم بسرعة ، ولم يعترها التلف ، فبنى فيه البيمارستان ونرى بهذه التجربة البسيطة أن الفخر الرازى اختار المكان الصحى ، الخالى نسبيا من الجراثيم والأجواء الفاسدة ولقد أدرك الحسن بن الهيثم الخطأ الذى وقع فيه العالمان بطليموس وأويقليد . فقد قال كل منهما أن العين ترسل أشعة بصرية على الأشياء المراد رؤيتها ، فأعلن ابن الهيثم خطأ تلك النظرية بعد ملاحظته وتجربته .

وقال إن العين لا ترسل شعاعا ، وإن هذا الشعاع ليس هو الذى يسبب الرؤية ، ولكن العكس هو الصحيح ، فإن الأجسام المرئية هى التى ترسل الأشعة إلى العين ، وإن عدسة العين هى التى تستقبل تلك الأشعة فترى بها الأشياء .

---

(١) انظر مناهج البحث العلمى عبد الرحمن بدوى ـــ ١٢٧ ـــ ١٢٨ ط دار النهضة .

وهذا لأن ابن الهيثم جلس فى حجرة مظلمة فلم [يـر] شيئا ، فسقط شعاع على بعض مافى الحجرة ، فرأى ذلك الشيء الذى سقط عليه الشعاع فقـط . إذا لو كانت العين هى التى ترسل الأشعة لرأينا الأشياء فى الظلام ، ولكننا لانراها إلا إذا وقع عليها الضوء ، وانعكست منها الأشعة ، وأكمل تجاربه ، وأخرج القانون [١] ومن الحقائق التى عرفها المسلمون على طريق المنهج التجريبى أن المكتبات والمختبرات والمعامل والآلات كانت وسائل للدرس والبحث والاستفادة إلى آفاق أوسع ، ومجالات أرحب . فقد يطلع المرء على علوم الأولين والآخرين ، ويبقى مع ذلك جامدا عاجزا عن التفكير والاستنباط والإبداع ، فيظل ببغاء يردد مايقرأ ، ويقرأ مايلقى إليه ، غير قادر على الارتقاء إلى درجة أعلى أو أرفع ، ولكن العرب بعد أن كانوا تلامذة يقرأون علوم الأولين ويبحثون فيها — وإن كان هذا البحث بعقل مفتوح — لم يلبثوا أن تعدوا تلك المرحلة إلى التحقيق والابتكار والتجربة ، ولم يلبثوا أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب ، وأسرع فى التقديم ومعرفة الحقيقة من آلاف الكتب والرسائل وهذا مافهمه المسلمون بذكائهم ، بينما ظلت أوروبا فى القرون الوسطى ألف عام إلى أن اهتدوا إلى تلك الحقيقة على يد بيكن [٢] — الذى اطلع على علوم العرب ، ولولا ذلك لظلت عقولهم مغلقة إلى اليوم . وفى هذا يقول غستاف لوبون [٣] — « إن أول من قام بالتجربة والترصد فى الغرب هو بيكن . ولكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم ، وقد أبدى هذا الرأى مع ذلك جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ، ولا سيما همبولد . العالم الشهير الذى بنى بحوثه على التجربة ، ثم قال : إن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجات العلوم قال : إن العرب ارتقوا فى علومهم إلى هذه الدرجة التى كان يجهلها القدماء تقريبا . وقال مسيو سيديو : إن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب

(٢) بيكن . فرنسيس . فيلسوف وأديب إنجليزى . ولد بلندن ، له مقالات رائعة ، من أروع تراث الأدب .

(٣) غستاف لوبون . عالم نفس واجتماعى فرنسى . كان متعصبا للعصرية ، وهو من الكتاب الغربيين الذين ألفوا عن الإسلام والحضارة العربية ، له فى ذلك كتاب حضارة العرب .

فى البداءة هو روحها الصحيحة التى كانت سائدة لأعمالها .

فكان استخراج المجهول من المعلوم ، والتدقيق فى الحوادث تدقيقا مؤديا إلى استنباط العلل من المعلولات ، وعدم التسليم بما لايثبت بغير التجربة . مبادىء قال بها أساتذة من العرب ، والعرب فى القرن التاسع الميلادى كانوا حائزين لهذا المنهج المجدى الذى استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل ، للوصول إلى أجمل الاكتشافات ، فمنهاج العرب قائم على التجربة والترصد ، وأما درس الكتب والاقتصار على تكرار رأى العلم ، فقد صارت عليه أوروبا فى القرون الوسطى والفرق بين النهجين أساسى ، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفرق[1] »

ونلخص من هذا أمور :

١ــ إن العرب هم أول من استعمل المنهج التجريبى ، واستخرج المجهول من المعلوم ، واستنبط العلل من المعلولات ، ولم يسلموا أبدا إلا بما يثبت بالتجربة والترصد .

٢ــ فحصوا تراث الأغريق العلمى ، الذى انتقل إلى البيزنطيين وغيرهم ، فلم يستفيدوا منه ، أو يمحصوه ، فلما آل إلى العرب خلقوه خلقا آخر ، وأبانوا مافيه من زيف ، وما فيه من علم يستحق التطوير .

٣ــ اعتماد العرب على المنهج التجريبى منح مؤلفاتهم دقة وإبداعا وثقة فتحت آفاقا بعيدة فى العلم .

٤ــ كانت هذه الآفاق الجديدة التى وصلت إليها العرب سببا فى فتح كنوز الأرض وخيرها على العالم .

آثار التعاليم الإسلامية فى المنهج التجريبى[2] :

لقد كان الاتجاه الذى يجمع بين النظرية والتطبيق أمرا طبيعيا فى حضارة المسلمين

---

(١) حضارة العرب عستاف لوبون ــ ص ٥٢٨ ط عيسى الحلبى .

(٢) المرجع السابق ــ ١٠٨ ــ ١٠٩ .

التى قامت على الجمع بين الدين والدنيا ، وارتكزت على شعار : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » وبالفعل كانت تعاليم الإسلام تؤكد على هذا المعنى ، بقوله تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحْسِنْ كما أحْسَنَ الله إليك ﴾[1] ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولًا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴾[2] وفى هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهى القويم ، المنهج الذى يعلق قلب الإنسان بالآخرة ، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط فى هذه الحياة . بل يحضه على هذا ، ويكلفه إياه تكليفا ، وقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس ، وليعملوا فى الأرض لتوفيرها وتحصيلها ، فتنمو الحياة وتتجدد ، وتتحقق خلافة الإنسان فى هذه الأرض ، والمسلم بهذا يحقق المنهج المتعادل المتناسق فى حياة الإنسان ، ويمكنه ذلك من الارتقاء الروحى الدائم ، من خلال حياته الطبيعية ، التى لاحرمان فيها ، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة .

وقد حدثوا أن عمر بن الخطاب رأى قوما قابعين فى ركن من المسجد بعد صلاة الجمعة ، فسألهم : من أنتم ؟ فقالوا : نحن المتوكلون على الله . فعلاهم بالدرة ونهرهم ، وقال : لايقعدن أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وأن الله يقول : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾[3] والمؤمن دائما يسخر الدنيا لنفسه ، ولا يسخر نفسه للدنيا ، أو يتخذها ربا من دون الله وقد كان من الصحابة رضوان الله عليهم زراعا وصناعا وتجارا وحرفيين ، يعملون فى الدنيا بجد وعرق وإحسان ، وقد قال رسول الله وهم يسمعون : « إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها ، فليغرسها »[4]

---

(١) القصص ـــ ٧٧ .

(٢) الملك ـــ ١٥ .

(٣) الإيمان والحياة ـــ ٣٠٩ ط الدار السعودية .

(٤) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد ـــ ورجاله ثقات وأثبات كما قال الهيثمى .

آثار المنهج التجريبى فى تقدم علوم المسلمين:

وانطلق المسلمون بهذه الأفكار الفطرية السليمة المتقدمة إلى الحياة ، ففجروا كنوزها ، واكتشفوا مجاهيلها ، بحيوية وتفتح ، ولهذا يقول برناردشو : إنى أكن كل تقدير لدين محمد ، لحيويته العجيبة ، فهو الدين الوحيد الذى له طاقة هائلة لملاءمة أوجه الحياة المتغيرة ، وهو صالح لكل العصور [1] .

انطلاقة علمية فريدة :

عرف المسلمون قيمة العلم والعلماء والتعلم ، فانطلقوا يبحثون عنه فى كل مكان ، والكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحقُ الناس بها ، فالتهموا تراث اليونان ، وبحثوه بعقل مفتوح وبصيرة ناقدة ، وعرفوا الطيب منه والخبيث ، ولم يتوقفوا عنده ، بل ساروا إلى الاختراع والبحث والتنقيب ، حتى صححوا العلم ، ووجهوه إلى النفع وإلى الإفادة ، وكان منهجهم التجريبى خير مثل على ذلك ، ولهذا تقول الدكتورة سجريد هونكة [2] : « لم يتسلم العرب التراث اليونانى دون تفكير ، بل أخذوه وخلقوه خلقا جديدا » .

وهذا حقيقى أيضا فيما يتصل بالآلات العلمية ، وكذلك مختلف العلوم الأجنبية ، إذ لم يكد العرب يتسلمون هذا التراث العلمى حتى أقبلوا عليه ناقدين فاحصين ؛ لا مؤمنين مستسلمين لما وصل إليه غيرهم من نتائج ، ليبنوا بعد ذلك على أساس سليم ويمتاز التفكير العربى بأنه لم يتقبل المسائل العلمية لحقائق مسلم بها مالم يفحصها ويطبقها ، حتى مؤلفات أرسطو وبطليموس ، فقد عرضوا لها ناقدين فاحصين [3] كما عرف المسلمون كيف يهضمون العلوم والصناعات ويتعلمونها . « أنزل العرب عام ٧٥١م عدداً كبيراً من أسرى الحرب الصينين فى مدينة سمرقند ،

---

(١) الإسلام والحضارة الإنسانية عبد المنعم خفاجى ص ٢١١ .

(٢) الدكتورة سيجريد هونكة ، كاتبة ألمانية معاصرة ، حصلت على الدكتوراه من جامعة برلين ، قامت بعدة رحلات إلى الشرق ، وأعجبت بحضارة الشرق وتراثه ، فألفت فى دلك مؤلفات عدة ــ منها ــ فضل العرب على أوروبا .

(٣) فضل العرب على أوروبا ١٥٤ .

وخيروا الأسير بين العتق أو الرق ، وجعلوا ثمن العتق مباشرة حرفة من الحرف ، فاتضح أن عددا كبيرا من أولئك الأسرى الصينين يجيد صناعة الورق ، فأعتقهم المسلمون ، وشيدوا لهم المصانع الضرورية ، فنشروا صناعة الورق فى العالم الإسلامى ، ومن ثم اقتبست أوروبا هذه الصناعة من المسلمين »[1] وقد طور المسلمون صناعة الورق بعد ذلك وحسنوه ، ولا شك أن المنهج التجريبى الذى اتبعه المسلمون قد فتح آفاقا كثيرا من المعرفة أمام المسلمين ، فظهرت نظرياتهم فى الفلك ، ونبغ فيه من العلماء ، محمد بن موسى وغيره ، ونبغ كثيرون فى الطب ، منهم ابن سينا وغيره ، ونبغ كثير منهم فى الجراحة كالزهراوى وغيره ، بل إن كثرة التجارب والمعارف جعلت كثير من العلماء ينبغ فى أكثر من علم ، ويظهر فى أكثر من فن ، فنرى أن الرازى لم يكن فى طليعة الأطباء فقط ، بل كان من أوائل الكيميائيين أيضا ، فضلا عن أنه كان مفسرا للقرآن ، ومؤلفا فى علوم الدين والأخلاق والسير والعقائد ، ولم يتعارض هذا مع عمله لدينه وعقيدته

ولهذا كان يسير وعينه مفتوحة ، وقلبه منتبه ، وفكره يسجل ويفحص ويخترع ، فعرف مثلا أن الهواء العليل من أحسن الأدوية ، وهو لايقل أهمية عن العقاقير الطبية ، وكان يعرف قيمة التجربة للعقار الجديد ، فكان يجرب ذلك على الحيوانات لمعرفة أثره ومفعوله على الأجسام الحية ، ثم يتدرج منه إلى تقريره للإنسان .

كما عرف ابن سينا البول السكرى ، وعرف قيمة تحليل البول فى معرفة الأمراض ، ووضع لذلك شروطاً خاصة ، يقوم بها المريض حتى يمكن الحكم على عينات البول المأخوذة منه، مثل أن يكون البول أول الصباح ، ويجب ألا يمضى زمن طويل بين الحصول عليه وبين فحصه ، ويجب على المريض ألا يشرب كثيرا عن المعتاد ، أو يأكل شيئا له لون خاص ، مثل الزعفران أو الرمان ، كما يجب على المريض ألا يبذل مجهوداً أكثر من المعتاد ، إلى غير ذلك من التعليمات التى استقاها من التجربة والملاحظة [2]

---

(١) المرجع السابق ٢٨

(٢) انظر فى هذا فضل العرب على أوروبا ــ ص ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ٢٩ .

كما عرف المسلمون بطريقتهم التجريبية تشريح الجثث ، لمعرفة أعضاء الإنسان وأعصابه ، ومدى تأثير الأمراض على هذه الأعضاء ، كما أتقن المسلمون فن الملاحة ، وقد كانوا يسكنون الصحراء ، ولا علم لهم بالبحار ، واخترعوا البوصلة واستعملوها فى الملاحة ، وكان اكتشافا مذهلا ، مكن العرب من خوض غمار البحار ، غير هيابين ؛ لأنهم يعرفون من أين يأتون، وإلى أين يقصدون ، وبهذا اكتسبت علوم المسلمين بالتأمل والبحث والتجربة الثبات ، والاستقرار ، والعمق ، والبقاء ، والدوام ، ولهذا نرى ـــ برونوفسكى[1] يقول : كان محمد ﷺ يؤكد بإصرار على أن الإسلام ليس دين معجزات » .

ولهذا كان الإسلام فى محتواه الفكرى نموذجا للتأمل والتحليل . فالإسلام ـــ خلافا للدينين السماويين السابقين ـــ امتاز بهذا [2]. وقد وضحت الدكتورة سيجريد هونكة فى كتابها شمس العرب تسطع على الغرب الطريقة التجريبية عند العرب فى العلوم ، ومدى تأثير هذه الطريقة على التقدم العلمى ، فقالت : « حاول اليونانى المفكر شرح وتعليل المعرفة عن طريق الفلسفة ، فباشر كيمياء نظرية ، وفلسفة طبيعية ، حيث نلاحظ هذه الحقيقة فى الهللينية الشرقية العلمية المدركة للتجارب التى جمعت ونظمت ، وهذا هو نشأة العلوم الطبيعية . أما العرب فهم أول من ابتدع طريقة الملاحظة ، والملاحظة الدقيقة المنتظمة ، وتحت شروط صناعية ، تتكرر فى كل وقت ، وتتغير وتراقب ، وكان العرب هم سادة هذا الموقف . لقد خلق العرب الكيمياء التطبيقية التجريبية بمعناها المعروف لنا ، ومن ثَمَّ طوروها ، كما يعترف بذلك المؤرخ الإنجليزى (كستوم Custom) ، حتى بلغت مكانة عالية رفيعة ، دفعت إلى اكتشاف الكيمياء العضوية وغير العضوية العصرية ، وذلك بغية الوصول بها إلى المكانة التى بلغتها

---

(١) الدكتور حاكوب برونوفسكى ولد فى بولندا عام ١٩٠٨ ، وانتقل إلى بريطانيا ، وتخرج من جامعة كمبردج متخصصا فى الرياضيات ، عمل فى أمريكا منذ سنة ١٩٦٤ كزميل ثم مدير لجمعية علم الأحياء فى الشئون الإنسانية من مؤلفاته العلم والقيم الإنسانية توفى سنة ١٩٧٤ .

(٢) ارتقاء الإنسان ص ١٢٠ ط الكويت برونوفسكى ـــ عالم المعرفة .

على يد العرب .

وقد بلغ العرب بالكيمياء مرحلة أخرى ، مكنتهم بفضل التجارب العلمية التى قاموا بها من تحقيق تراكيب كيمياوية جديدة ، كما توصلوا إلى طرق كيماوية حديثة ، ففى أواخر القرن التاسع نجد الكيمياء العربية تأخذ فى الصعود ، حتى تبهر أنظار العالم بنورها

جمع العلوم والحكم :

من المسلم به أن المسلمين عرفوا قيمة الحكمة والعلم بما تعلموه من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فقد حض القرآن الكريم على تعلم الحكمة ، فقال :﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ (١). وما كان رسول الله إلا معلما للحكمة : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلوا عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (٢) ، وتاليا لها ، وكان الوحى هو الحكمة : ﴿ واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ (٣) ، وكان أسلوب الإسلام دائما هو الحكمة : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ﴾ (٤)، وجعل الحق سبحانه الحكمة علامة بارزة على كل رسول ، فقال فى شأن عيسى عليه السلام : ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل ﴾ (٥) ، وقال فى شأن إبراهيم وآله : ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما ﴾ (٦) ، وقال فى شأن داود : ﴿ وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ﴾ (٧) ، وقال فى شأن

---

(١) البقرة ـــ ٢٦٩ .
(٢) الجمعة ـــ ٢ .
(٣) الأحزاب ـــ ٣٤ .
(٤) النحل ـــ ١٢٥ .
(٥) آل عمران ـــ ٤٨ ، ٤٩ .
(٦) النساء ـــ ٥٤ .
(٧) البقرة ـــ ٢٥١ .

لقمان : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾[1] ، ولهذا نرى المسلمين يقصدون إلى الحكمة ليأخذوها من أى وعاء خرجت ، غير هيابين ولا وجلين ، ورسول الله ﷺ يأمرهم بذلك بقوله . « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن . فحيث وجدها فهو أحق بها »[2] ، وقال ﷺ « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع »[3] ، وقال ﷺ « العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، ولا خير فى سائر الناس »[4] ، وقال ﷺ « ماااكتسب مثل فضل علم يهدى صاحبه إلى هدى يرده عن ردى ! ومااستقام دينه حتى يستقيم عقله ! »[5] ، وجعل الرسول ﷺ الحكمة هى التى يجب أن يعمل لها الإنسان ، وينافس عليها ، ويحسد عليها ، فقال : لاحسد إلا فى اثنين : رجل آتاه الله مالا ، فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها »[6] ،وقال تعالى ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾[7] .

حركة الترجمة :

ولهذا انطلق المسلمون بغير عقد إلى الخير الموجود ، وإلى الحكمة المبعثرة فى تراث الأمم اللاهية الذاهلة ، فأخذته ، وترجمته ، وأخرجت بعقلها وهضمها نهضة علمية تعتمد كل الاعتماد على العقل المتفتح الفاحص المستوعب ونسمع إلى سيجريد هونكة تقول : إن المخطوطات العربية التى أنقذها العرب لم تخزن فى المتاحف والخزانات ، وحيل بينها وبين الهواء ، بل بعثت بعثا جديدا ، وانتقلت من حال النسيان والإهمال إلى الحياة ثانية فتية قوية ، لقد عادت إلى الحياة ، لتكون فى متناول يد كل فرد ، وبالاختصار

---

(١) لقمان / ١٢ .
(٢) أخرجه الترمذى .
(٣) أخرجه الترمذى .
(٤) أخرجه ابن ماجه .
(٥) الطبرانى .
(٦) أخرجه البخارى .
(٧) الزمر — ٩ .

ترجمت لتحيا بعقل جديد . ثم تقول : ولم تترجم هذه الكتب إلى لغة بعيدة عن تلك المألوفة عند الشعب ، بل نقلت إلى لغة حية مستعملة ، هى لغة القرآن الكريم ، التى يفهمها ويتكلمها الناس ، ويحافظون عليها ، فكان كل مسلم يستطيع أن يغترف من ينابيعها » (1) . وتعلم لغة الأقوام من سنن الإسلام ، وقد سبق رسول الله ﷺ إلى الانتفاع بهذا العلم ، فأمر كاتبه « زيد بن ثابت » بإجادة السريانية . قال زيد : أمرنى رسول الله ﷺ ، فتعلمت له كتاب يهودى بالسريانية . وقال : « إنى والله ما آمن يهود على كتابى . قال زيد : فوالله ما مر لى نصف شهر حتى تعلمته ، وجدت فيه ، فكنت أكتب له إليهم وأقرأ له كتبهم إليه » (2)

وهكذا استعمل المسلمون المترجمين ، وكانوا حلقة اتصال بين المسلمين وبين هذه العلوم ، وعن طريق هؤلاء المترجمين نقلت علوم اليونان والسريان والقبط والفرس والهنود إلى اللغة العربية ، ويستطيع الباحث أن يقرأ عن هؤلاء المترجمين ونتائجهم فى الفهرست لابن النديم ، وفى الباب التاسع من طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، وذكر كرد على فى خطط الشام ٦ /١٨٩ أن خالد بن يزيد سنة ٨٥هـ كان أول من عرفت له مكتبة ، ويقول عنه ابن النديم فى الفهرست سنة ٤٩٧ أنه عنى بإخراج كتب القدماء ، وكان أول ماترجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء ، ثم يقول عنه فى ص ٣٣٨ إنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا ينزلون مدينة مصر ، وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى ، وهو أول نقل لكتب اليونان إلى الإسلام . ويعين ابن النديم مترجما اسمه اصطفن القديم ، ويقول : إنه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة (3) .

---

(1) فضل العرب على أوروبا ص ٢٨٣ .

(2) البخارى

(3) الفهرست لابن النديم ص ٣٨٢ .

وقد وجد المسلمون فى البلاد التى فتحوها علوما ومعارف ومؤلفات ، فلم يحرقوهـا أو يبددوها أو يخافوا منها ، وإنما ترجموها وعلموا ما فيها ، فإن كان خيرا قبلوه وطوروه ، وإن كان شراً نبذوه وطرحوه . وفى هذا يقول غستاف لوبون « وجد العرب فى بلاد فارس وسورية ـــ حينما استولوا عليها ـــ خزائن من العلوم اليونانية ، فأمروا بنقل مافى اللغة السريانية منها إلى اللغة العربية ، ولم يلبثوا أن أمروا بأن ينقل إليها مالم يكن قد نقل ، فأخذت دراسة العلوم والآداب تسير قدما إلى الأمام .

ولم يكتف العرب بما نقل إلى لغتهم ، فقد تعلم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية ، على الخصوص ، ليستقوا منها علوم اليونان ، ثم تعلموا فى أسبانيا اللغة اللاتينية واللغة القشتالية ، كما يشهد بذلك ما فى مكتبة الأسكوريال من المعجمات العربية اليونانية ، والعربية اللاتينية ، والعربية الأسبانية ، التى ألفها المسلمون ، ثم يقول : كانت معارف اليونان واللاتينية القديمة أساسا لثقافة العرب « هذا فى رأيه » فى الدور الأول ، شأن الطلاب الذين يتلقون فى المدرسة ، ما ورثهُ الإنسان من علوم الأولين ، ولكن العرب المفطورين على قوة الإبداع والنشاط لم يكتفوا بحالَ الطلب الذى اكتفت به أوربا فى القرون الوسطى ، فلم يلبثوا أن تحرروا من ذلك الدور الأول ، والإنسان يقضى بالعجب من الهمة التى أقدم بها العرب على البحث ، فإذا كانت هناك أمة قد تساوت هى والعرب فى ذلك فإنك لا تجد أمه فاقت العرب على ما يحتمل ، فالعرب المسلمون كانوا إذا استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد ، وإقامة مدرسة فيها ، فإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة ، ومنها المدارس العشرون التى روى بنيامين التطيلى المتوفى سنة ١١٧٣ م أنه شاهدها فى الإسكندرية ، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد ، والقاهرة ، وطليطلة ، وقرطبة ، على جامعات ، محتوية على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية ، وكل ما يساعد على البحث العلمى ، فكان للعرب فى أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكان فى مكتبة الخليفة ستمائة ألف كتاب . منها أربعة وأربعون مجلدا من الفهارس ، كما روى مؤرخـو العرب ، وقد قيل ، بصدد ذلك ، إن شارل الحكيم لم يستطع ـــ بعد أربعمائة سنة ـــ أن يجمع فى مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمائة

مجلد ثلثهم خاص بعلم اللاهوت »[1].

وهذا يدلنا على مقدار الحركة الثقافية التى كانت فى مختلف البلاد الإسلامية ، ومدى ما أنتجته عقول المسلمين بعد ترجمة تراث ونتاج العقول فى شتى أنحاء المعمورة . وعملية الترجمة هذه كانت تؤدى بعناية ودقة وحماس وحب للعلم والمعرفة ، وتعدى ذلك إلى الرؤساء والخلفاء ، فقد استدعى هارون الرشيد مختلف العلماء الذين يجيدون مختلف اللغات ، وكوَّن منهم هيئة علمية ، تحت إشراف يحيى بن ماسويه ، مهمتها تقدير التعويضات التى يجب أن تدفعها الشعوب المهزومة . وهذه التعويضات يجب أن تكون كتبا .

ثم جاء المأمون ، وكوَّن مجمعا علميا حقيقيا ، للقيام بأعمال الترجمة ، وقد نسج على منواله الذين جاءوا بعده . وكان المأمون الخليفة عالما مثقفا ، أولى النهضة العلمية عناية كاملة ، واتجه إلى أن يحصل على عدد ضخم من كتب الأقدمين ، فوفق بطرق شتى على الحصول على مجموعات نادرة ، وضعها بيت الحكمة « أو خزانة الحكمة » ، وعين خيرة المثقفين والمترجمين لينقلوها إلى اللسان العربى ، ويحفظوها من الضياع . ومن أشهر المترجمين بالخزانة فى ذلك العهد : الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وضين بن إسحاق ، وعمرو بن الفرخان ، وإسحاق بن حنين[2].

وفوق ذلك ، فإن العرب حفظوا للبشرية كثيرا من تراث الأقدمين ، عن طريق ترجماتهم الكثيرة من الكتب ، من الضياع النهائى . وقد كان العالم يجهل هذه المؤلفات جهلا تاما ، إلى أن وجدها فى الترجمة العربية ، مثل : كتاب التشريح لجالينوس ، وكتب القوى المحركة والرياضيات للمؤلفين (هييرون) و (فيلون) و (مينيلاوس) ، ثم بصريات بطليموس ، والموازنة له ، وأخرى حول الساعة المائية ، والأجسام الطافية لأرشميدس ، ثم هناك ثلاث كتب حول قطاع الجُلَّة للمؤلف

---

(١) حضارة العرب لغستاف لوبون ص ٥٢٦ .

(٢) انظر الفهرست ١٧٤ ، ٣٣٩ ، والقفطى ٢٤٢ ، وشمس الله على الغرب ص ٢٨٤ .

(أبو لونيوس) ، والذى أنقذها هو ثابت بن قرة ، الرياضى البارع ، والنطاسى العظيم[1] والكلام فى فضل المسلمين الذين انطلقوا إلى المعمورة بعلمهم وعقلهم وإيمانهم ، لا تحصيه صحائف قليلة ، وإنما يحتاج إلى موسوعات ومطولات ، لإخراج ما يحويه من شواهد ناطقة بفضل هؤلاء العمالقة الكرام ، الذين لم يكتفوا بتحصيل الكتب ، وترجمتها ، والاستفادة منها ، والانطلاق بعدها بعلم يملأ العالم أجمع . بل نشروا هذه المؤلفات ، ولم تكن هناك مطابع أو آلات ، وإنما عن طريق النُّسَاخ فى كل مكتبة ، الذين تلحظ فيهم الدقة والإتقان ، وقلما كانت تخلو مكتبة ذات شأن من هؤلاء النساخ ، الذين كانوا ينسخون الكتب للمكتبات المختلفة ، ولكل راغب فى العلم والمعرفة[2] وكانت حركة الترجمة والتأليف والنسخ والتعليم من المناهج العلمية التى أنشأت حضارة إسلامية سامقة ، بهرت الدنيا ، وطوفت الآفاق ، وأيقظت العالم من سبات على نور المعرفة وشمس الحضارة الحقة .



(١) شمس الله على الغرب ص ٢٨٩ .

(٢) انظر الفهرست ـــ ١٤٤ ، معجم الأدباء لياقوت ٧ / ٤٨٢ بتصريف .

الفصل الثالث

التفسير الإسلامى
للتاريخ الحضارى

المبحث الأول
نظرة الإسـلام إلى التاريخ الحضـارى

ينظر الإسلام إلى التاريخ الحضارى نظرة جامعة . ينظر إلى الإنسان من حيث هو إنسان ، وإلى الأرض والحياة من حيث أنهما مجال ذلك الإنسان ، لأن الدين موضوعه هو الإنسان ، ومجاله الأرض ، يعمل فيها ، ويظهر عليها أثر جهده وفعله ، صالحا كان ذلك العمل أو فاسدا ، فحضارة الإنسان من حيث هو إنسان ، وحضارة الأرض من حيث عمل الإنسان فيها ، وتصرفه فى جنباتها بما ينفعه ، ويضىء له الطريق ، ويوصله إلى السعادة والهناء فى دنياه وأخراه ، ولكن تقييم أعمال الإنسان ومعرفة نوعية أفعاله على تلك الأرض ، وفى جنبات المعمورة للإسلام فيها نظرات ، وله حكمه ومنطقه الكاشف ، المميز للحق والباطل والصواب والخطأ .

الإنسان فى التاريخ :

الإنسان هو قوام هذه الحياة ، وعامرها ، والمتصرف فى خيراتها ، والموجه لكنوزها ، والخليفة فيها ، ومحور النشاط فى الكون ، سخر له مافى السموات والأرض جميعا ، فكل مافى الأرض والكون له ولخدمته ، حقا إن الإنسان شىء ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه وحياة جسمه ، ولكنه من حيث روحه وكيانه المعنوى شىء كبير وحقا إن الإنسان من حيث عمره القصير على الأرض ذرة فى صحراء الأزمنة الجولوجية البعيدة الضاربة فى أغوار القدم ، ولكن المؤمنين ، يوقنون بأن الموت ليس نهاية الإنسان ، ولكنه محطة انتقال إلى الخلود وإلى الدار التى لا نهاية لها .

ولكن هذا الفرد الزائل ، وهذه الذرة التائهة ، وهذا اللقى الضائع ، يملك فى لحظة واحدة أن يتصل بقوة الأزل والأبد ، وأن يمتد كالعملاق طولا وعرضا فى ذلك

الكون الهائل ، وأن يرتبط به فى أعماقه وأمشاجه بوشائج من القربى لا تنفصم . أن يشعر أنه من تلك القوى الهائلة وإليها ، يملك أن يصنع أشياء كثيرة ، وأن ينشىء أحداثا ضخمة ، وأن يؤثر فى كل شىء ويتأثر .. يملك أن يحس الوجود فى الماضى ، والاستقرار فى الحاضر ، والامتداد فى الآتى ، قادر على مواجهة الحياة والأحداث والأشياء بمثل قوتها وأقوى ، فما هو إذاً بالتافه الضائع ، ولا بالفرد العاجز ، والإنسان أرقى نماذج الحياة ، مصوغ كيانه من مادة الكون الأولى ، ونسبه إلى الأرض عريق : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾[1] وأفراد هذا الإنسان بعد ذلك موحدون فى أصل واحد ، متساوون فى نسبتهم إلى هذا الطين : ﴿ كلكم لآدم وآدم من تراب ﴾،[2] كما خلقوا من نفس واحدة : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾.[3] من هذا التناسق فى طبيعة الكون ، وفى ناموس الحياة ، وفى أصل الإنسان ، تستمد الحضارة الإسلامية فهمها للتاريخ .

أصله :

لما كان الإنسان بهذه المنزلة المتقدمة ، وهذه الملكات العليا ، وتلك المكانة المرموقة ، التى يشهد عليها تكريم الله له فى الخلق ، ونفخه فيه من روحه ، وخلقه فى أحسن تقويم ، مع أنه من تلك الأرض ومن هذا التراب : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ، فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحى فَقَعوا لَهُ ساجِدينَ ﴾،[4] اقتضى هذا إلقاء الضوء على نشأته وعلى أصله وحياته ، كما لزم أن يخاض فى أعماق هذا المخلوق ، ومكنون نفسه ، وجوهر روحه وعقيدته ، وتحتم أن تلقى الأضواء على سيرته وخطواته ، أما نشأته وأصله فهى من الأرض ، وكان لابد أن يكون من الأرض التى يدرج عليها ، ويعيش فيها ، ويسير فى جنباتها ، ويأكل من زرعها وثمارها ، حبها ، وعنبها ، وقضبها ، ويشرب من أنهارها وعيونها ، ويركب دوابها ،

---

(١) المؤمنون — ١٢ .

(٢) مسلم وأبو داود .

(٣) النساء — ١ .

(٤) ص — ٧١ — ٧٢ .

ويلبس منها ، ويوارى سوءته ، ﴿ فَامْشُوا فى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾[1] ، ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ إلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الماءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلا ، وَحَدَائِقَ غُلْبا ، وفَاكِهَةً وَأَبًّا ، مَتَاعاً لَكُمْ ولأَنْعَامِكُمْ ﴾[2] وهذا الإنسان فيه نفخة من روح الله كما أبنَّا قبل ، وكان لابد أن يكون كذلك ، لأن هذا الكون بأرضه وسمائه ، بأفلاكه ونجومه بشمسه وقمره ، وبما أودع الله فيه من عناصر ، وأرسى فيه من شوامخ ، وقدر فيه من أرزاق ، وسخر فيه من طبيعة تحتاج إلى قهر وتذليل واستثمار ، يلزم كل ذلك قوى منيرة ، وأضواء كاشفة ، ومؤهلات مدركة ، وعقول مفكرة ، ونفوس عالية ، لا يهبها ولا يشعلها إلا قبس من نور الله وهدايته وتوجيهه ، وهذا كان لابد أن يصاحب الإنسان فور خلقه وبدء تكوينه ، لينزل إلى الدنيا مسلما مزودا بأسباب بقائه وأدوات سعيه ، وهذا ما تعنيه الآية الكريمة ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحى ﴾ ، والآية ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسماءَ كُلَّها ﴾ . وليس كما يقول بعض الناس من المغرضين ، إنه متطور من جنس آخر ، سبقته مراحل معينة ، حتى صار ذلك الإنسان وقد ألمحنا إلى ذلك فى الباب التمهيدى . ووجود الإنسان بهذه الصفات يعنى أنه وجد ومعه بذرة حضارته فى هذه الحياة الدنيا ، من علم ، وعقل ، وسعى ، وحب فى ذلك ، ورغبة فيه ، ووجد كذلك فى الأرض كل مايرضى أشواقه وأحلامه وآماله ، وساعده على ذلك تذليل الأرض وطاعة كل عناصرها لجهده وكفاحه وأفكاره .

أخوته :

ثم تناسلت تلك الذرية من أصل واحد ونفس واحدة : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وخَلَقَ مِنْها زَوْجَها ، وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كثيراً ونِساء ﴾[3] . وساعد على تآلف الإنسان مع أخيه تلك الأسرة الواحدة ، والطباع المشتركة ، والأصل المتفق ، والمنبع المتحد . فليست هناك أسرة من نسل

---

(١) الملك ــ ١٥ .

(٢) عبس ٢٤ ــ ٣٢ .

(٣) النساء ــ ١ .

الآلهة ، وأخرى من سلالة الشياطين ، ولا فرد من طين ، وآخر من عجين ، إنما الكل من ذكر وأنثى ، ويعنى هذا اتفاق فى الميول والنزعات الإنسانية ، وهى ما تجعل مصادر الحضارة الإنسانية متحدة ومتوازية وصالحة لكل إنسان ، ولكل زمان ، ولكل مكان ، وإن اختلفت الأساليب .

تصورات مختلفة للحياة :

إن أى إنسان صحيح فى فطرته ، واسع فى نظره ، إذا ألقى نظرة على هذا العالم وهذه الحياة ، وتفكر فى موضع قدمه بالنسبة لوجوده على سطح هذه البسيطة ، وجد نفسه محاطا بسيل من التساؤلات المحيرة التى تتجاذبها اللذة والألم ، والصلاح والهدم ، هل هو كائن ذو شعور وإدراك يقدر على التأثير ؟ أم أنه كريشة فى مهب الرياح ؟، ولكنه مع كل هذه التساؤلات ، ومهما يكن فيه من أحاسيس متضاربة باللذة والألم ، وأفكار متضارعة بالتفاؤل أو التشاؤم ، ومهما تكن نظرته فى الحياة الدنيا مائلة إلى الإفراط أو التفريط ، فإنه على كل حال يجد نفسه مجبولا على استخدام هذه الدنيا ، والاستمتاع بها فعلا على علاتها ، ومجبولا فى الرغبة على البقاء ، واستخدام قانون حفظ النوع ، وقانون العمل والحرص والاقتناء ، إلا أن طوائف مختلفة من الإنسانية نظرت فى هذا المتحف العجيب فى هذه الحياة من زوايا مختلفة ، ووجهات متعددة ، وقد أعجب كل بناحية خاصة من نواحيها المختلفة ، وكانت سببا من تأسيس فكرة خاصة للحياة الدنيا عنده .

نظرت طائفة إلى ضعف الإنسان وعجزه ، وإلى جبروت القوى الفطرية الأخرى بإزائه ، فاستنتجت من ذلك أن الإنسان إنما هو كائن حقير ضعيف فى العالم ، وأن هذه القوى الفطرية المتسلطة هى النافعة والضارة ، وهى المتحكمة والمهيمنة ، والإنسان معها لا يملك إلا أن يسير حسب إرادتها ، استولت هذه الفكرة على أذهانهم ، بحيث خفيت على أنظارهم الوجهة التى يتمتع منها الإنسان بالشرف وبالفضيلة على سائر الموجودات فى العالم ، وخفيت عليهم كذلك مواهبه وقدراته وطاقاته ، فضحوا بهذه الفكرة بعزتهم وشرفهم وكرامتهم فى سبيل هذا الوهم المسيطر ،

فآمنوا بكل خرافة ، وتوجسوا من كل فأل ، وقد ولدت هذه الفكرة عبادة الأوثان والأصنام والنجوم ، وعبادة النار والأشجار ، وما إلى ذلك من قوى الطبيعة ، وقد أشار القرآن إلى ذلك فى كثير من آياته ، منها ما حكى على لسان إبراهيم مع قومه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ، وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الأَفِلِينَ ﴾[1] ... الآية ، وقوله تعالى عن بلقيس وقومها : ﴿ وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ للشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾[2]، ﴿ ومِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ والشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . لاَ تَسْجُدُوا للشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ، واسْجُدُوا للهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾[3] .

ونظرت طائفة أخرى :

إلى الحياة الدنيا نظرة قاتمة كئيبة ، فلم تر فيها إلا الهدم والخراب والفساد والظلم والآلام ، وأيقنت أن دولاب الحياة لا يجرى إلا ليصب على الناس الآلام والأذى والحزن والغم والهم ، وأن كل ما فى الحياة من الروابط والعلاقات ، إنما هى شبكات نصبت لتوقع الإنسان فى المصائب والكوارث والنوائب والمحن والأهوال ، ألم تر إلى ما يفعله الأخ بأخيه ، والدولة ببنيها ، والأمة بجارتها ، والقوى بالضعيف ، وبعد ذلك وقبله : يخيم الموت والفناء على كل صقع وكل حى ، نباتا كان أو حيوانا ، متحركا أو ساكنا ، فلا يأتى الربيع إلا ويلحقه الخريف ، ليخرب رونقه ، ويعبث بزينته وبهجته ، ولا يورق ولا يثمر فيه شجر الحياة إلا ليتمتع به شبح الموت ، ولا يتزين فيه جمال البقاء إلا وتعبث به رياح الفناء . وهكذا ضاق الفضاء فى عيون هؤلاء ، واغبرت الأجواء أمام أنظارهم ، فلم يروا من الدنيا إلا جانبها المظلم وشقها السيء ، وعلى هذا خنقتهم أفكارهم ، وطاردتهم تصوراتهم ، ولم تترك لهم فيها أية رغبة فى الحياة . ومن ثم

---

(١) الأنعام ــ ٧٤ ــ ٧٨ .

(٢) النمل ــ ٢٤ .

(٣) فصلت ــ ٣٧ .

لم يروا سبيلا للنجاة بأنفسهم إلا فى أن يعتزلوا الدنيا ، ويتوجسوا من كل شىء ، ويكبتوا كل ما فى أنفسهم من أحاسيس ونزوات ، حتى ينجوا من هذا الأخطبوط الجائر .

ونظرت طائفة أخرى :

إلى الحياة على أنها متاع وبهجة ورفاهية ، يجب أن يغتنمها الإنسان ، ويعب منها ، ويقتنص منها ما يستطيع ، فالحياة قصيرة ، والعمر محدود ، فيجب أن ينال منها ما يقدر عليه قبل أن تحيط به الأحزان والآلام ، أو يفترسه الموت ، ولذا قال قائلهم .

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

ويقول القرآن فى الإشارة إلى هذا : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ، مِنَ النِّسَاءِ ، والبَنِينَ ، والقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ ، والأَنْعَامِ ، والحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[1] ثم يعيب القرآن على هذا الصنف فيقول : ﴿ والَّذينَ كَفرُوا يَتَمَتَّعُونَ ويأْكلونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ ﴾[2]. وهؤلاء غالبا وقفت هممهم وعقولهم عند الحياة الدنيا ، ولم يتعدوها إلى غيرها ، فليس عندهم أمل فى حياة بعد الموت ، أو جزاء أو حساب على الأعمال والأفعال ، فهم لذلك يستحلون كل شىء ويستبيحون كل لذة ، قانونهم الوحيد أن يغرق إن استطاع فى الشهوة والمتعة من أى لون ، فالبحث عن الطعام الشهى والمركب الهنى ، والتفسير الجنسى للسلوك الذى يجعل الجنس هو رائد حياة البشرية ، والتفسير الجسمانى للمشاعر الذى يجعل الجسد هو منبع النفس وهو المطلب الأساسى الذى يهدف إليه هؤلاء المفكرون ، هذا التفسير المادى للحياة له دعاته وفلاسفته من الدهريين والوجوديين والحسيين ، الذين مازالوا ينعقون به ، ويروجونه بين الناس ، وصدق الله :

---

(١) آل عمران ــ ١٤ .

(٢) محمد ــ ١٢ .

﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أولياءَ مِنْ دُوْنِ اللهِ ،وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهتدون ﴾ (١) ونبه القرآن فى كثير من الآيات على ضلالهم : ﴿ قُل هل نُنَبِّئُكُم بالأخْسَرِينَ أعْمَالاً . الَّذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَهمْ يَحْسَبُونَ أنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (٢).

النظرة الإسلامية :

تختلف النظرة الإسلامية إلى الحياة عن تلك النظرات التى سبقت فى أمور معينة .

أولها ــ أنه قد روعى ما بين الإنسان وبين الدنيا من علاقة وثيقة ، فليس هذا التصور بالذى يزدرى الدنيا ، ولا بالذى يهيم بها عشقا ، فليست الدنيا تستحق النبذ والازدراء والنفرة والمقت : ﴿ قُلْ منْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أخْرَجَ لِعبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٣)، ﴿ يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ (٤)، وكان من دعاء المسلمين : « اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِى دُنْيايَ الَّتِى فِيها مَعَاشِى ، وأَصْلِحْ لِى آخِرَتِى التى إلَيْها مَعَادِى ، واجْعَل الحَياةَ زيادةً لى منْ كُلِّ خَيْرٍ ، والموتَ راحةً لى منْ كلِّ شَرّ » ، ولا الدنيا بالشىء الذى يستحق أن يولع به الإنسان ، وينسى قيمه ونفسه ، ويصير لها خادما ، وفى سبيلها عبدا ، ﴿ فمن الناس مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِى الدُّنْيا وَمَا لَهُ فِى الآخِرةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ (٥)، ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحياةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ من الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٦)، ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لعبا ولهواً وَغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنْيَا ﴾ (٧)، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَيَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأنُّوا بِها ﴾ (٨)، ﴿ فأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ

---

(١) الأعراف ــ ٣٠ .
(٢) الكهف ــ ١٠٤ .
(٣) الأعراف / ٣٢ .
(٤) المؤمنون / ٥١ .
(٥) البقرة ــ ٢٠٠ .
(٦) البقرة ــ ٢١٢ .
(٧) الأنعام ــ ٧٠ .
(٨) يونس ــ ٧ .

الدُّنيا ﴾[1] ﴿ وأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمأْوَى ﴾[2] فحين يحيا الإنسان حيوانا ، ويعيش دابة بدون قيم أو عقل ، يستحق أن يذهب فعلا إلى الجحيم ، ويكون قد وضع نفسه فى منزلة أسفل من الحيوان ، وأدنى من العجماوات .

إذاً فالدنيا ليست شرا كلها ، ولا هى خير كلها ، ولا يصح اجتنابها ، أو الانغماس فى مفاتنها ، فليست علاقة الإنسان بها كملك فى مملكته ، ولا كسجين فى سجنه ، وإن الإنسان ليس من الذلة والمهانة بحيث يسجد لكل شىء ، وليس من الكبرياء والغرور بحيث يستعلى على كل شىء ، ويحتقر ويزدرى كل شىء ، بل يحترم دنياه كما يحترم قيمه ومبادئه ، يعمل لعيش رغيد ، وفكر سديد ، وخلق قويم ، وآخرة مرتقبة ، وقد علمهم ربهم هذا الدعاء الحبيب : ﴿ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذَابَ النَّار ﴾[3] ﴿ فَآتاهُمْ اللهُ ثَوابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ ، واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسنينَ ﴾[4].

مكانة الإنسان فى الحياة :

ولكن بعد هذا ، ما هى مكانة الإنسان الحقيقية فى الحياة ، وما هى نوعية ما يوجد بين الإنسان وبين الدنيا من علاقة ؟ والإنسان إذا استخدم هذه الدنيا ، وتصرف فيها ، فعلى أى وجه ، وبأى اعتقاد عليه أن يستخدمها ويتصرف فيها ؟ .

والإنسان المسلم يعلم أنه كُرِّم على وجه تلك البسيطة من قِبَل خالقها ، ويعلم تماما أن هذا التكريم لما فيه من صفات تؤهله لهذا التكريم ، ولما عنده من نفس وروح وقلب من هبة الله له : نعم إن للإنسان فضلا وكرامة على سائر المخلوقات ، ولكنه لا يستحق هذا الفضل وتلك الكرامة إلا بأن يكون فى طاعة الله سبحانه ،

---

(١) النجم — ٢٩ .

(٢) النازعات — ٣٨ .

(٣) البقرة — ٢٠٠ .

(٤) آل عمران ١٤٨ .

الذى فضله على العالمين ، بأن جعله خليفة ، وأعطاه ما لم يعط سواه . كما أن المسلم يعتقد أن الدنيا دار عمل ، ومن أضاع عمله أضاع ثروته وأنقص رصيده ، وأن الآخرة دار جزاء على هذا العمل ، ودار بقاء يلاقى فيها ما يزرعه فى دنياه ، وما يغرسه فى حياته ، وأنه يعتقد بأن سعادته أو شقاءه فى الآخرة ، إنما ينحصران فى حسن أو قبح أعماله الشخصية فى الحياة الدنيا ، فعلاقته إذاً بالحياة علاقة طريق بغاية ، فكلما استقام الطريق وضحت الغاية ، ومقدمة بنتيجة ، فكلما سلمت المقدمات صحت النتائج ، ثم إنه لابد أن يعرف كل شخص له أدنى إلمامة بالاسم أن الحضارة الإسلامية حضارة علمية بحتة ، ما دامت على إسلاميتها . فما كانت الدنيا فى نظر أبنائها إلا مزرعة للآخرة ، وكانوا على الدوام يبذلون مساعيهم فى أن لا ينفقوا لحظة من اللحظات فى هذه الحياة الدنيا إلا فى تعهد هذه المزرعة بالسقى والرى والحرث والبذر ، ليكون نصيبهم أوفر ما يكون فى حصاد الآخرة ، وقد استفادوا فى الدنيا ، واستمتعوا بها صالحة ، وتصرفوا فيها على وجه متوسط لاتفريط ولا شطط ، بين الرهبانية والنفعية ، مما لا نعثر له على عين أو أثر فى أية حضارة أخرى فى العالم . كان المسلمون فى عز سطوتهم وعنفوان عزهم عبيدا لله ، وحملة للقيم ، ومشاعل للنور ، وحراسا للحق ، والتاريخ غير بخيل ، حيث يحدثنا بحوادث كثيرة تبين أن الذين كانوا يحكمون عروش القياصرة والأكاسرة ، لما انتصروا على عدوهم خروا لله سجدا ، معفرين جباههم فى تراب الخضوع لله تعالى ، بدل أن يعلنوا صلفهم وعزهم وفراستهم وشدة بأسهم ، وأن الملوك الجبابرة الفاتحين المنتصرين لما هموا بشىء يخالف الشريعة الإسلامية ، قام فى وجههم عبد من عباد الله ينبههم على سوء عاقبة أعمالهم ، فهناك على الفور اقشعرت أبدانهم من خشية ربهم ، وأقلعوا عما عزموا عليه . وحصاد القول : أنك لابد أن تجد جلاء التصور الإسلامى عند كل خطوة فى سير حوادث تاريخ المسلمين القومى ، على رغم طول الزمان ، وعلى رغم ما راج فيهم من تأثيرات الحضارات الأجنبية ، ولو على صور متنوعة ومظاهر مختلفة .

تصور الحدوث والقدم :

تطرق المتكلمون فى مباحث الوجود إلى التمييز بين الحادث والقديم ، وركزوا

اهتمامهم بالدرجة الأولى عند البحث فى أنماط الوجود حول مشكلة تعلق الموجود ، أو لا تعلقه بالزمانية .

وقد اختلفت الفلسفة اليونانية فى مفهومها لهذا التعلق عن آراء المتكلمين ومفهومهم . فكانت ماهية الوجود فى الفلسفة اليونانية تدور حول علل الوجود ومبادئه، فكان الفيلسوف اليونانى ومن تابعه من فلاسفة المسلمين حين يعرضون للوجود ، يقسمونه بين الوجود الواجب (الله) ، والوجود الممكن (العالم) ، أى الوجود بالذات ، والوجود بالغير .

أما المتكلمون ؛ فإنهم حين يعرضون لهذه المسألة ، فإنهم يحاولون استيحاء الفلسفة القرآنية فى ذلك ، ويتكلمون حول زمانية الموجود أو لا زمانيته، أى : أهو قديم خارج الزمان ، أو حادث داخل فيه .

ومن هنا كانت صفة الألوهية الأولى عند هؤلاء الفلاسفة هو وجوب الوجود ، الذى يقتضى ـــ فيما يقتضى ـــ قدم الذات (أى قديم بنفسه ، ولا يمنع ذلك أن يكون هناك قديم بغيره) ، بينما كانت صفة الألوهية فى تصور المسلمين هى القدم الذى لا يشاركها فيه غيرها من الذوات . والذى يقتضى بالضرورة وجوب الوجود ، بمعنى الوجود بالذت [1].

وعلى هذا فإن الميتافيزيقا الأرسطية ، ومن سار على سنتها ، وتأثر بمنهجها ، تنطلق من نظرية وجوب الوجود ، وعلاقته بالإمكان ، بينما تنطلق الميتافيزيقا الإسلامية من نظرية القدم ، وعلاقته بالحدوث ، وهى نظرية زمانية فى جوهرها ، لأن الإسلام يقول بفكرة الخلق من العدم ، وهى فكرة الأديان السماوية التى جاء بها الوحى الإلهى ، ولفت إليها القرآن الكريم فى كثير من الآيات : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُروا إلى السَّماء فَوقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاها وَمَا لَهَا مِنْ فُروج ﴾ [2]، ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ

---

(١) انظر الإشارات والتنبيهات الجزء الثالث ٣ / ٤٣٥ ، ونهاية الأقدام فى علم الكلام للشهرستانى تحقيق الفريد حيوم ص ١١ .

(٢) ق ـــ ٦ .

السَّمٰوٰتِ والأرضَ بالْحَقِّ ﴾ [1]﴿ والذى خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلكِ والأنْعَامِ ما تَرْكَبُون ﴾ [2]، ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأنثى ﴾ [3] وظلت قضية القدم والحدوث قضية جوهرية من قضايا الفكر الإسلامى فى جدله مع الفلسفة اليونانية وتياراتها المختلفة ، ونتج عن ذلك قضيتان شغلت الناس كثيرا ، وهما قضية خلق القرآن ، وخلق العالم ، ونجد كثيرا من المفكرين الإسلاميين نقد تلك النظرية الفلسفية نقدا شديدا ، مبينا ما فيها من عوار وتهافت [4].

ولا يخفى ما فى التصور الإسلامى من عمق ، وخاصة تصور الألوهية وأفعالها . حيث تبين أن الحق سبحانه خارج عن العالم وسابق عليه : ﴿ هُوَ الأوَّلُ والآخِرُ والظاهِرُ والبَاطِنُ وَهُوَ بكلِّ شَىْءٍ عَليم ﴾ [5]، وفى الحديث « كان الله ولا شىء معه » [6] والإله فى مرتبة وجودية أعلى وأسمى ، وهو حر فى أفعاله ، يخلق أو لا يخلق ، والعالم ليس قديما ولا أبديا ، بل هو فى رحلة زمانية محدودة ، لأن الزمن فى التصور الإسلامى يبدأ من الخلق ، وسينتهى بفنائهم ، بل إن الزمن من طبيعة هذا العالم ، ومن عناصره المكونة [7]،قال الله عز وجل « يُؤْذِينى ابنُ آدَمَ ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار » [8]أما تصور الفلاسفة اليونانيين للخلق وللإله وللعالم ؛ فإنه يقوم على أن دور الله فيه منظم ومنسق لمادة قديمة ، ولقد ترتب على ذلك قولهم بأن القدم شامل لكل الوجود ، فلا بداية للزمان .

وقد مال ابن سينا إلى هذا التصور ، وهاجم المتكلمين والفلاسفة الذين أقاموا البرهان على وجود الله ، عن طريق التمييز بين القديم والحادث . وجملة القول : إن

---

(١) الأنعام ــ ٧٣ .
(٢) الزخرف ــ ١٢ .
(٣) النجم ــ ٤٥ .
(٤) انظر كتاب مشكلة الوجود للدكتور حسام محى الدين الألوسى ــ مشكلة الوجود ط بغداد مكتبة الزهراء .
(٥) الحديد ــ ٣ .
(٦) البخارى بدء الخلق ٤ / ١٢٩ .
(٧) الكتاب الذهبى للمهرجان الألفى لابن سينا تحقيق الدكتور الفندى ص ٢٠٠ .
(٨) متفق عليه .

فكرة الزمان إذا كانت فى المقولات الفلسفية اليونانية كانت عرضا يعرض للجوهر ، ولا يتعلق أساسا بماهيته ، بحيث يجوز القول بأن العالم مخلوق وقديم معا .

أما فى المفهوم الإسلامى ؛ فإن مفهوم الزمان حقيقة تتحدبها ماهية الوجود ، بحيث تفرق بين القديم بوصفه خالقا ، والحادث بوصفه مخلوقا . وهكذا انفردت الألوهية فى التصور الإسلامى بالسرمدية ، وصار العالم حادثا ومخلوقا ، وموجوداً وجودا متعلقا بزمن فى رحلة محدودة بين الخلق والفناء ــ وهى رحلة الزمن الدينى ــ فأصبح الزمان من طبيعة هذا العالم ، ومن عناصره المكونة ، ثم انعكس ذلك المفهوم الشامل لزمانية العالم على تصورات المسلمين للتاريخ العالمى . فكان التقويم فى التاريخ بدءا بحادث معلوم ، تفسر على ضوئه كل التطورات التاريخية التالية .

فكرة الإسلام عن التاريخ الحضارى .

يحكى لنا القرآن ألوانا من سير الأمم الدابرة والشعوب الغابرة ؛ لتكون عمقا أصيلا لحضارة المسلم ، وجذورا غائرة لمدنيته ، وتجربة حية على طريقه فى مسيرته ، والقرآن فى عرضه لذلك القصص الواقعى الذى عاش تجربة الحياة ومسيرة التاريخ ، يرويها بأسلوب عملى ، ولم يعرضها عرضا نظريا ، فيعرض لك الأشخاص ، وحركاتهم ، وأخلاقهم ، وأفكارهم ، واتجهات نفوسهم ، وبيئتهم الطبيعية والزمنية ، يعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم ، يعرضها فى غرائز الإنسان : فى حبه ، وجشعه ، وظلمه ، وبغيه ، ورغبته فى العلو ، وجمع المال ، واقتناص الشهوات ، والاستئثار بكل شىء ، كما يصورها فى خطوات الصالحين ، وجهدهم ، وجهادهم ، وتضحياتهم ، وصراعهم مع الباطل ، وجلادهم للظلم ، فى ثبات عجيب ، وصبر عميق ، ونفس مطمئنة . نرى القرآن يتكلم عن درس من دروسه فى قصة هود عليه السلام مع قومه عاد ، حيث يبرز القرآن هذا الحوار الذى يجرى بين الحق والباطل ، بين الفكر الخاطىء والحق المستقيم، بين رسالة السماء التى جاءت بالنور ، وبين أهواء البشر الجامحة الهائجة ، بين الباطل القديم ، والنور الجديد ، كما نرى فى ذلك الدرس كفران النعم والبطر بها ، والفساد الذى تكون بعده النهاية المحتومة : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ ، إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ

أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ ، واتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ، أَمَدَّكُم بأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الوَاعِظِينَ ، إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ ، وَمَا نَحْنُ بِمَعَذَّبِينَ ، فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ، وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[١]. هذا الدرس يعطى جوانب كثيرة لحضارة من الحضارات ، وأمة من الأمم ، لعبت بها الأهواء ، وقادتها المطامع والانحرافات ، حتى نالت عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ودارت عليها الدائرة ، ويلفت القرآن بعد هذه القصة فى سورة الأحقاف قلوب المؤمنين إلى هذا الدرس ، فيقول ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأَبْصَاراً وأَفْئِدَةً ، فَما أَغْنَى عَنْهُم سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُم وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شيءٍ ، إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا به يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[٢]. ولقد تعلمنا الوقوف على الآثار ، والتأمل فى سطور الأيام والليالى من القرآن الكريم ، ومن آياته ، وعظاته ، وأحاديثه عن الأمم والجماعات .

برنامج السير فى الأرض :

نرى الحق سبحانه وتعالى يندبنا إلى السياحة فى الأرض ، والتأمل فى آثار الماضين وذكرياتهم ، فيقول :﴿قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[٣]. ويرسم لنا منهاج التأمل ، فيقول : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فى الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون ﴾[٤] ، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ، فَسِيرُوا فى

---

(١) الشعراء — ١٢٣ — ١٤٠

(٢) الأحقاق ٢٦

(٣) النمل — ٦٩

(٤) الروم — ٩

الْأَرْضِ ، فانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1] .

ويزيد الله عز شأنه فى العبرة ، فيأمر بصفة خاصة أن نتأمل آثار أولئك الذين أنزل عليهم عذابه ، لما فسقوا عن أمره ، فأهلكهم ، وتركوا مساكنهم من بعدهم خلاء : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهاَ ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَلِيلًا ، وَكنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ ﴾[2] نعم كم فيها من عبرة تلين القلوب وتقرح المآق ، ويشير الله إلى المساكن والقصور والآثار ؛ لكى يقف المتأمل وقفة يناجيها ، أو يناجى أهلها الذين عمروها ، ثم خلفوها ، وراحوا وتركوا الأيام تفعل فيها ما تشاء : ﴿ فَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ، فَهِىَ خَاوِيةٌ عَلى عُرُوشِهَا ، وَبِئرٍ مُعَطَّلَةٍ ، وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾[3] ثم يدعوا الحق إلى إنارة البصائر ، وإضاءة العقول ، وشحذ الأفكار ، فيقول : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بهاَ ، أو آذَانٌ يَسْمَعُونَ بها ، فَإِنَّها لاتَعْمَى الأَبْصَارُ ، وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ التى فى الصُّدُورِ ﴾[4].والحق سبحانةوتعالى يذكرنا أن التأمل فى الأيام والليالى والأحوال والأعمال هداية تؤدى إلى حضارة ، وسكينة وسعادة ، فيلفتنا إلى تحصيل الآيات من الديار التى نمشى خلال مساكنها الخاوية الصامته ، فكم فى صمتها من عظة لمن يسمع : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّن القُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَساكِنِهم .. إنَّ فى ذَلِكَ لآيَاتٍ !! أَفَلا يَسْمَعُونَ ﴾[5]

ويبين لنا عز وجل أن هؤلاء الذين أصبحت منازلهم خاوية من بعدهم ، وحل بهم الخراب من كل جانب ، ما حاق بهم غضب الله إلا لأنهم أعرضوا عن معين حياتهم ، وسبب صلاحهم ، وعاندوا ، ومكروا ؛ لإحباط أمره سبحانه ، وأن المؤمنين الذين كانوا يعاشرون هؤلاء ويساكنونهم ، قد أنجاهم بما آمنوا وكانوا يتقون ، وبما ساروا عليه من طريق قويم وعمل سليم ، ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ

---

(١) آل عمران — ١٣٧ .
(٢) القصص / ٥٨ .
(٣) الحج — ٤٥ .
(٤) الحج — ٤٦ .
(٥) السجدة — ٢٦ .

لايَشْعُرُون ، فانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُم أجْمَعِين ، فَتِلْكَ بُيُوتُهُم خاوِيةً بِمَا ظَلَمُوا .. إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وكانُوا يَتَّقُونَ ﴾[1] والقرآن الكريم فى حثه على التدبر والتأمل فى الحوادث والأمم ، إنما يجعلها محاذير ومواعظ ، تكشف للنفس الإنسانية مواضع أقدامها ، وجعلها حجة على الغافلين حين ينزل بهم العذاب : ﴿ وأنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهُمُ العَذَابُ ، فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا : رَبَّنَا أَخِّرْنَا إلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ، نُجِبْ دَعْوَتَكَ ، وَنَتَّبِعَ الرُّسُلَ . أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَالَكُمْ مِنْ زَوالٍ ، وسَكَنْتُم فِى مَسَاكِنِ الذينَ ظَلَمُوا أنفُسَهُم ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعلْنا بِهِمْ ، وَضَرَبْنا لَكُمُ الأمْثَالَ . وقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ، وعنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ ، وإن كَانَ مَكْرُهُم لِتزُولَ مِنْهُ الجبَالُ ، فلا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعدِهِ رُسُلَهُ ، إن اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾[2].

والقرآن يعطى فكرة عن التاريخ الحضارى وغير الحضارى للأمم ، ويذكر تلك العصور بما فيها من حوادث ، ليحكم الإنسان عليها ، ويأخذ العبرة الحية ، وليعلم أن تلك العهود التى جانبت الصواب لم ترحمها السنن ، ولم يفلتها الله سبحانه وتعالى ، وأنه يجب على المؤمن الحى وعلى كل ذى قلب أن يلقى السمع ، ويفتح العين ، ويضيء البصيرة ، ويتلمس الدرب ؛ حتى لايتعثر فى شهواته وأهوائه ، ويندم ، ولات ساعة مندم ، وكثير ممن عصم الله ووفق ، وعوا الدرس وفهموا الحكمة ، فسلموا وكانت تلك أمثلة حية . تحدثهم وتحذرهم أو تحفزهم وتقويهم ، إن كانت علم خير ، وبشير معروف وإنى لألحظ تلك الخلجات التى كانت تنبض فى صدر رسول الله وصحبه عندما مر على ديار الظالمين . خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك ، وفى الطريق إليها تقع مدائن صالح ، أو ديار ثمود ، وهى بيوت خاوية منحوته فى الصخر كما ورد فى القرآن الكريم ، ونحن نعرف شأن هؤلاء قبل أن يبعث إليهم صالح عليه السلام ، وبعد أن بعث إليهم عرفنا عصيانهم لنبيهم ، وتمردهم عليه ، وعلى حكم ربه ، حتى أرسل عليهم صاعقة ، فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

---

(١) النمل ــ ٥٠ .

(٢) إبراهيم ــ ٤٦ .

ولما اقترب رسول الله ﷺ من ديارهم وهى لاتزال ظاهرة إلى اليوم — ثارت ذكرى الظالمين بنفسه ، وهى ذكرى كريهة بغيضة ، فسجى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته — وقال : « لاتَدْخُلوا بيوتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إلَّا وأَنْتُم باكُونَ خَوفاً أَنْ يُصيبَكُم ماأَصَابَهُم » ، وفى رواية الإمام مسلم عن ابن شهاب ، وهو يذكر الحجر مساكن ثمود ، قال سالم بن عبد الله ، إن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : مَرَرنَا معَ رسول الله ﷺ على الحجرِ ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « لاتَدْخُلُوا مساكن الذين ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم إلَّا أن تَكُونُوا باكين ، حذراً أن يصيبكم مثلَ ما أصابَهُم » (١)

ولسنا نرى وصفا أبلغ من هذا فى الدلالة على الوجدان المرهف والطبيعة الحية ، بل لسنا نرى عملا أعظم دلالة على حساسية الشعور من فعله ﷺ .



(١) أخرجه الإمام مسلم — كتاب الظلم .

المبحث الثانى
وجهة هذا التفسير الحضارى

يتجه الإسلام فى تفسيره الحضارى للتاريخ إلى إلقاء الضوء على المعالم الجمالية فى سلوك الأفراد والأمم ، كما يبحث عن الدرر الإنسانية الكامنة والظاهرة فى قلوب مواكب الآدميين ، على مر الأيام ، وكر الدهور ، من عقائد ، وملل ، ونحل ، وأفكار ، وآراء ، وفلسفات ، كما يقيم أعمال الحقب التاريخية ، وأفعال العامة والخاصة ، وأثرها فى نفع الإنسانية أو خيرها ، حتى إنك تجد أنه يضع أعمال الناس فى كفة ، والفضيلة والقيم ونفع الإنسانية فى كفة أخرى ، ثم يحكم على تلك الأمم إن كانت حضارية ، أم فرعونية ، أم همجية وبدائية ، بصرف النظر عن مبانيها ، وصناعاتها ، واختراعاتها ، ومأكلها ، ومشربها ، وملبسها ، فهذه شيء ، وتلك شيء آخر ــ وهذه الأشياء يعتبرها القرآن نعما أنعم الله بها على البشر ، تقتضى الشكر والإصلاح والصيانة ، ولا تتطلب الفساد والعبث والظلم ، وقد ضرب القرآن لذلك مثلا فى قصة سبأ :﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأ فِي مَسْكَنِهِمْ آيةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمينٍ وشِمالٍ ، كُلوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ واشْكُرُوا له ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ، فَأَعْرَضُوا ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ ، خَمْطٍ ، وأَثْلٍ ، وَشَيءٍ مِنْ سِدْرٍ قليلٍ ، ذلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بما كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرى التى بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهرةً ، وقَدَّرْنَا فِيها السَّيْرَ ، سِيرُوا فيها لَيالِيَ وَأياماً آمنين ، فَقالوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فجعلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، ومزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إنَّ فى ذلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ

إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] . فقد كانت سبأ فى مساكن سامقة ، ومراكب فارهة ، وجنان ناضرة ، فأينا وجهت وجهك وجدت الأشجار باسقة ، والزروع ناضرة ، والحدائق غناء ، والزهور فيحاء ، والجداول متفرعة ، والعيون متفجرة ، والمياه عذبة . وقد لايستطيع الإنسان ــ مهما أوتى من بيان وخصوبة فى الفكر وغزارة فى الخيال ــ أن يلاحق الإيحاء القرآنى الجميل فى التعبير عن الخصب ، والوفرة ، والرخاء ، والمتاع الجميل : ﴿ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ، واشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ . ذكروا بالنعمة ، نعمة البلد الطيب ، وفوقها نعمة الغفران ، فكانت سماحة ونداوة فى الأرض بالنعم والرخاء ، وسماحة فى السماء ، وحنانا بالعفو والغفران . فماذا كان من تصرفهم إزاء هذه الطيبات وهذا الرخاء والنعيم ؟ كان الإعراض : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ ، أعرضوا عن الشكر ، وعن الحفاظ عليه ، وعن العمل الصالح ، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم ، فسلبهم هذا الرخاء ، وسلب ذلك النعيم والأمن ، وحل عليهم غضب ربهم ، والمنظور إليه فى القصة . وأما الإعراض والبعد عن الجادة ، والحيدة عن الصراط المستقيم ، فإنه يولد التسيب والظلم والفساد الذى يمحق الأفراد والجماعات ، فجنان بغير قلوب ، ورغد بغير خُلُق ، ووفرة فى الرزق بغير قناعة ، وسيادة بغير حق ، جحيم لايطاق ، وعذاب أليم ، وحياة بئيسة . والحضارة المادية (كما يسمونها) أعجز من أن تمد الإنسان بما يحييه ويصله بالوجود ، وأعجز من أن تمد قلبه بنور ، يرى به لباب الوجود ، وحقائق الحياة . ولقد خلت الحضارات المادية عمليا من كل منهاج ووسيلة لإيقاظ الضمائر ، وتنمية الحواس الباطنة ، لأنها لاتعترف بكيان الإنسان الباطنى ، وماله من خصائص فياضة بالخير والكرامة ، وماله من ملكات تبصر الخلق مسندا إلى الخالق ، وتفترضه حيوانا مغلق الباطن كالآلة الصماء . فكيف تبلغ الإنسانية رشدها ، وتنال حظها من النور والعلم الصحيح ، مادامت تجهل أن الرشد فى القلوب ، لا فى المعدات ، وأن النور فى البصائر ، لافى الأبصار ، وتقدم الإنسانية وحضارتها الحقيقية مرهون بالانتقال من النظر الساذج إلى النظر الفاحص ،

---

(١) سبأ ــ ١٥ ــ ٢٠ .

ومن إهمال الإنسان إلى الالتفات إليه ، ومن الهدم إلى البناء ، ومن الضياع إلى المثل والخلق والحق ، ومن لغة الغاب وزئير الأسود إلى رحمة الأنبياء وهداية السماء .

وما نحسب هذا الكائن الإنسانى قد سعد يوما ، بمثل ماسعد فى الحقبة النورانية التى أتاحها له رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار رضوان الله عليهم ، ولكنه ماكاد يهنأ بها حتى خلف من بعده خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات . فأصابتهم نكسة ارتدوا بعدها أطفالا ، وحرموا الإنسانية من نبع أصيل ، ومعين فياض ، ورحمة غامرة ، كفيلة بأن تعدل المسار المعوج ، وترد الحيوانية الجامحة إلى الفطرة الإنسانية الحانية . ودائما يسير القرآن مع الحوادث التاريخية ، وقصص الأولين ، وأعمال الغابرين ، مؤكدا ومبينا ودالا على مواطن الفساد ، التى كانت سببا فى ضياع حياتهم ، وتعاسة معيشتهم ، وينطلق فى تعليل ذلك من خراب المعتقدات ، ونسف الأخلاقيات ، وظهور الحيوانيات ، واتباع الشهوات . وإذا وقع هذا الخراب فى أمة ، وظهر فيها ذلك الهدم ، أتى على قواعدها ، وزلزل أركانها ، وإن كانت أعتى من الجبال ، وأعز من الشم الرواسى ، وإن بلغ أهلها من العمران مابلغوا ، ومن العلم ماسخروا الجوزاء ، واعتلوا الزهراء ، وملكوا أجواز الفضاء .

وقد نبهنا القرآن إلى هذا الدرس الموجع ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ وَثَمودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بالوادِ . وَفِرعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفسادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[1] . هنا ذكر القرآن فى القصة أن القوم كانوا أصحاب عمارة وفن وهندسة ، تعجز الأفكار من اللحاق بها ، والعاملين أن يتطاولوا إليها ، وأنهم طوعوا الأحجار ، ونقلوا الجبال ، وحفروا الصخور ، وشيدوا المدائن ، وأقاموا الحصون ونصبوا الجبال وبنوا لها مثيلا وشبيها ، ولكنهم فقدوا أنفسهم ، فلم تغن عنهم شيئا ، ولم ترد عنهم محقاً أو هدماً أو ضياعاً ، لأنهم فقدوا ، صفات الإنسانية وظنوا أنفسهم آلهة ، فطغوا فى البلاد ، وركبهم الغرور والكبر ، فظلموا العباد ، ولم تردعهم قيم أو ضمائر ، فأكثروا فيها الفساد ، فكانت

---

(١) الفجر ـــ ٦ .

النتيجة المحتومة والنهاية المرتقبة لفقدانهم الحضارة الحقة والقيمة الأصيلة : ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد ﴾ . ولا يستطيع أحد أن يقول عن فرعون ، الذى كان يعيث فى الأرض فسادا ، ويحطم الناس ماديا ومعنويا ، ويسفك دماء من يريد ، ويحيى من يريد ، لايستطيع أحد أن يكابر ويدعى أنه إنسان حضارى ، إلا أن يكون قد فقد حاسة الإنسانية ، وضاعت منه نفسه وعقله وصدق الله : ﴿ إِنَّ فِرْعونَ عَلاَ فِي الأَرضِ ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ، يَسْتَضْعِفُ طَائِفةً مِنْهُم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّه كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِين ﴾[1] ومن بلغ به الفساد هذا المبلغ ، فغلظ كبده إلى هذا الحد ، ودنست سيرته إلى تلك الدرجة ، لابد أن يكون وحشا أو ذئبا بشريا ، ولا يشفع له عند علماء الحضارة قصر منيف ، أوحديقة غناء ، أو هرم شامخ ، أو رسم ناطق ، أو زخرف بهيج ، سخر فى صنعه البشرية بغير أجر ، وأسال فيه الدماء بغير رحمة ؛ لينعم كشخص ، ويبهج كفرد ، ويتلذذ كشهوة جامحة ، والتصورات الإسلامية فى التاريخ البشرى للحضارة تنطبق تماما على المؤمن الملتزم ، الذى استطاع أن يقهر نفسه ، وأن ينمى فطرته ، وأن يكتسب صفات الخير ، ويعطى الإنسانية ، ولا يأخذ منها ، إلا بقدر مايحل له ، ونرى تلك الصفات وفعلها فى المجتمعات ، ونرى حديث القرآن عنها ، وكذلك حديث رسول الله ﷺ ، ﴿ وَعِبادُ الرَّحْمَنْ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلى الأَرْضِ هَوْناً ، وإِذَا خاطَبَهُمْ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا . والَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ، والَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَان غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً ، والَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلك قَوَاماً ﴾ ، ثم يقول : ﴿ والَّذِينَ لاَيَشْهَدُونَ الزُّورَ وإِذَا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ، والَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً ، والَّذِينَ يَقولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْواجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيِنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾[2] ونرى الرسول ﷺ يقرن العباده بالسلوك ، ويربط السلوك بالحياة وبالمجتمع ، فيقول عن رب العزة : « إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم اليتيم والأرملة ، ورحم المصاب ، ذلك له نور كنور الشمس أكلؤه بعنايتى ،

---

(١) القصص / ٤ .

(٢) الفرقان ـــ ٦٣ ـــ ٧٤

واستحفظه بملائكتى ، واجعل له فى الظلمة نورا ، وفى الجهالة حلما ، وإن مثله فى الناس كمثل الفردوس فى الجنة » . عناصر الخير ، ورجال الحضارة ، وبناة الأمم ، وحملة الصفات الكريمة ، الذين تبحث عنهم الإنسانية ؛ لترتاح من عناء ، وتسعد من شقاء ، إذا دخلوا مجتمعا أناروه ، وإذا فعلوا فعلا وزنوه وقدروه وحسبوه . أصحاب ضمائر حية ، ونفوس كريمة ، وقلوب مزهرة . معهم موازين للأعمال والأفعال ، يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، ويزنون أعمالهم قبل أن توزن عليهم ، سئل رسول الله ﷺ عن الإثم ، وعن الإيمان ، وعن البر ، وهذه أسئلة عن معان دقيقة خفية ، ولكن لسلامة القلوب ونور الأبصار وسلامة الطوية تأتى الإجابة سهلة مشرقة بغير تعقيد . فيقول الرسول ﷺ : « الإثم ماحاك فى صدرك ، وكرهت أن يطَّلع عليه الناس »[1].

والإيمان : « إذا ساءتك سيئتك ، وسرتك حسنتك ، فأنت مؤمن »[2]. إجابة سهلة ، وميزان للسلوك البشرى عجيب ، ترى لو سئل عن ذلك أحد الفلاسفة أو أحد حملة الإجازات العليا من الجامعات الشرقية أو الغربية الكبرى ، فبأى شىء كانوا يجيبون ؟ أما حامل الإجازات والدرجات العلمية ، فكان سيذهب إلى كتب التعريفات ، أو الاصطلاحات ، أو اللغويات ، ليستخرج منها معنى هذا الاصطلاح ، ويقف الساعات حتى يبلوره ويصوغه ، ثم يخرج لك التعريف يظن أنه يرضى ويشفى ، وما أظنه ، إلا زاد الطين بلة ، والحقيقة ضياعا ، أما الفيلسوف فيعرف لك تعريفا تجريديا ، يزيد الأمر عنتا على عنت ، وإبهاما على إبهام ، وقد يتفضل فيملأ الأفق من حولك تحليلات وتخيلات وفروضا وتخمينات ، مما تخرج منه وأنت أشد عجزا وأكثر حيرة ، وكانت هذه الأسئلة دائما تتلجلج فى قلوب المخلصين العاملين السائرين فى طريق الحياة ، وكانوا كذلك يحتاجون فيها إلى ميزان عملى يفهمونه ويطبقونه فى أعمالهم . قال وابصة بن معبد : رأيت رسول الله ﷺ ، وأنا

---

(١) مسلم ٨ / ٧ ومختصره للمندرى ٢ / ٤٧٦ كتاب البر ، والترمذى كتاب الزهد ، ٥٢ والدارمى بيوع ٢ ، مسند أحمد ٤ ٪ ١٨٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) مسند أحمد ١ / ١٨ ، ٢٦ ، ٣ / ٤٤٦ ، ٤ / ١٢ ، ٣٩٨ ، ٥ / ٢٥١ ، ٢٥٢ ، والترمذى فتن ٧ .

أريد أن لا أدع شيئا من البر إلا سألت عنه . فقال لى : ادْنُ ياوابصة . فدنوت منه ، حتى مست ركبتى ركبتيه . فقال لى : ياوابصة أخبرك ماجئت تسأل عنه ؟ قلت يارسول الله أخبرنى : قال : جئت تسأل عن البر والإثم ، قلت نعم ، فجمع أصابعه الثلاث ، وجعل ينكت بها فى صدرى ، ويقول ياوابصة ، استفت قلبك : البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب . والإثم ما حاك فى القلب ، وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك »[1] وهذا التصور الإسلامى للتاريخ الحضارى يعلى الصفات الإنسانية ، ويمحق الحيوانية والوحشية ، وإن تلبس بالبهرج الزائف والسراب الفضفاض .



---

(١) مسلم كتاب البر ١٤ ، ١٥ ، الترمذى كتاب الزهد ــ ٥٢ والدرامى كتاب البيوع ــ ٢ وأحمد ٤ ١٨٢ .

المبحث الثالث
الأنبيــــاء رواد حضـارات

المتتبع للتاريخ ، والسائر والمتأمل فى أحوال الأمم ، يرى مسئولية المجتمعات فى قيام الحضارات أو انهيارها ، حيث أن إمكانية التقدم والنماء والخير والفلاح تتحقق إذا التزم المجتمع المبادىء الأخلاقية والروحية وغيرها مما ألمحنا إليه قبل ذلك ، وجاءت به شريعة الإسلام ، وفصلته تفصيلا ، ومثل هذه المبادىء والمثل تكفل للأمة الوحدة والقوة والسطان ، وتحيطها بسياج من الحصّانة الطبيعية والنظرية ، فلا ينفذ إليها ، وعلى العكس ، فإن انهيار الحضارات الذى يتراءى لكل ذى عينين ينتج عن تخلى مجتمع ما عن أخلاقه ، وعن مثله ، وعن إنسانيته وحمل أمانته فى الحياة . وذلك لا يتم فجأة ، بل بِسُنَّةِ التدرج إلى أن يرسب فى قاع الهاوية تلحّظ هذا فى قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ، وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[1] . والمعنى الذى تشير إليه الآية : أن الحضارات التى زالت لم تسقط فجأة ، وإنما كان الانهيار هو المرحلة النهائية ، بعد تغير طويل الأمد ، تجمعت خلاله الأسباب ، وتفاعلت فيما بينها ، حتى أدت إلى نتيجة محتومة ، ونهاية لابد منها ، كما أن الحضارات لاتقوم ولا ترتفع خبط عشواء ، كما لا تكون وليدة هوى زائل ، يتملك مجموعة من الأفراد أو الجماعات ، إذ لو كان الأمر كذلك لما قامت حضارة ، وإذا قامت تعرضت للتداعى السريع ، وأصبح التطور الاجتماعى يحكمه قانون الصدفة . وما كانت الصدفة أبدا بالعامل المؤثر فى سير التاريخ .

---

(١) الكهف — ٥٩ .

ولكن هناك سنة من سنن الحياة هى التى تتحكم فى قيام الحضارات ، وسيادة أصحابها ، وعزهم ، ومنعتهم ، وهى تدور مع الصلاح الذى فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١) والصالحون كما يقول الشيخ محمد عبده . هم الذين يصلحون لإقامة الحق والعدل وسائر شرائع الله وسننه فى العمران (٢)، وهذا هو مايسميه علماء الاجتماع بقاء الأصلح أو الأمثل فى كل تنازع .

ولابد أن يكون هناك تقابل بين الخير والشر على أوسع الجبهات ، تقابل لابد منه إذا ما أريد للحياة البشرية أن تتجاوز الكسل إلى النشاط ، والفتور إلى التمخض ، والسكون إلى الحركة ، إنه احتكاك فعال لن تأخذ البشرية أو تاريخها بدونه شكلها الإيجابى ، ولا تمضى إلى غاياتها المرسومة إلا به : ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ (٣) على أن الإنسان لم يترك وحده فى هذا الصراع ، فعلى الرغم من أنه قد وهب قدرات العقل والروح والإرادة والنطق والعمل ؛ فإن الوحى ظل يمده بشريعة السماء العادلة ، ويوضح له صراطها المستقيم ، الذى يحيل الحركة البشرية فى العالم إلى حركة متقدمة دائما ، فى خط متوازن صاعد ، لا رجوع فيه إلى الوراء .

وهكذا كان الأنبياء فى هذه الحضارات قمة المثالية الروحية ، والمثالية العملية المؤيدة بالوحى ، والمهتدية بنوره فى صراعها ضد الظلم والشر فى حياة البشرية .

لقد كان الوحى الإلهى فى كل حضارة نورها الهادى ، الذى تنبعث منه ملامح المجتمع الجديد بعد صراع مرير مع قوى الطغيان ، حتى إذا اكتملت مقومات هذا المجتمع الوليد ــ بتمام الرسالة واكتمال البلاغة ــ جد هذا المجتمع فى البناء والتقدم ، ثم لا يلبث أن يكون بعد ذلك ازدهاراً ليغرى الإنسانية بالجنوح إلى نسيان ذاتها ،

---

(١) الأنبياء ــ ١٠٥ .

(٢) انظر تفسير المنار ٥٧٨٩ .

(٣) الرعد ــ ١٧ .

والنكوص عن حمل أمانة الخلافة المنوطة بها ، ثم يتطور النسيان إلى جحود ونكران ، ثم إلى انحراف يؤدى إلى انحلال حضارى لا مفر منه ، ومن هنا تنشأ حاجة المجتمع مرة أخرى إلى رسالة جديدة ، ومبلغ آخر ، يحمل وحى السماء ليحيى به الأرض بعد موتها : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾[1] ، ﴿ ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ، ولٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[2] ومفهوم التاريخ فى القرآن الكريم يقول بهذه الدورات الحضارية المتتابعة ، التى تهتدى كل دورة منها بنور النبوة مدة من الزمان ، ثم يعقب ذلك انحلال تدريجى ، لا يلبث أن يتكشف عن حقبة جديدة ، حتى كانت آخر الرسالات التى يظل معها وحيها محفوظا ، ليكون نورا هاديا إلى يوم القيامة . والأنبياء ــ بهذا المفهوم القرآنى ــ لم يكونوا دعاة عقيدة وشريعة فحسب ؛ بل كانوا مؤسسى حضارة ومدنية واجتماع وأسلوب فى الحياة جديد خاص[3] ولقد كانوا فى تاريخ الإنسانية مظهرا للبطولة والتفانى فى سبيل الإنسانية : ﴿ طَهَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾[4] ، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾[5] ، ﴿ لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلّاَ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[6] ولهذا كان هؤلاء الرواد رحماء ، علمـاء ، فقهاء ، أصحاب حق ومعروف ، يصارعون الباطل ، ويبعدون الخبيث عن تلك الإنسانية المعذبة ، ولذلك فإن هذه الحلقات الحضارية ــ التى أشرنا إليها وألمحنا إلى تتابعها ــ تقوم على ظاهرة الصراع بين الفضيلة والرذيلة . ومغزى التاريخ فى الإسلام ــ فيما يتعلق بهذه المشكلة ــ يقرر أن الحق هو المنتصر فى نهاية الصراع دائمـا ، ولقـد كان هذا المعنى مصدرا لطمـــوح الإنسانيـــة فى الإسلام إلى المثـــل

---

(١) الأنعام ــ ١٢٢ .

(٢) الشورى ــ ٥٢ .

(٣) انظر النبوة والأنبياء فى القرآن للندوى ط المختار الإسلامى ص ٦٤ .

(٤) طه ــ ٢ .

(٥) الكهف ــ ٦ .

(٦) الشعراء ــ ٣ .

العليا ، التى لم تعد عرفا اجتماعيا تمليه ارتباطات معينة بالجماعة أو القبيلة أو الوطن ، وكذلك لم تكن مبدأ فلسفيا يقوم على نظرية من النظريات ، بل أصبحت قيما ربانية فوق كل هذه الأشكال من المسميات الأرضية ، ومن أجل ذلك كانت كل قصة من قصص الكفاح والصراع ضد الباطل ، غراما وعشقا يهيم به أصحاب العقائد والرسالات . وفى النهاية كانت الدائرة تدور على البغى والباغين .

الأنبياء والصفوة المختارة :

تحدث علماء التاريخ الحضارى عن الصفوة المختارة التى تصنع الحضارات ، وتستنقذ الأمم من براثن التخلف ، وأكدوا على أن أى حضارة من الحضارات لا تقوم إلا بهذه الصفوة ، التى تتميز بصفات معينة ، وأفكار مخصوصة ، تستطيع معها تلك الصفوة أن تغير المجتمع ، وتنقله بعيدا عن التخلف والجهل والسفه والحيوانية ، وقد أجمع على ذلك المؤرخون ، من جيانيا تستافيكو إلى أرنولد توينبى ، حتى الاشتراكيون والمركسيون الذين يدعون إلى المساواة التامة بين البشر ، على أساس تقاسم العمل والمسئوليات ، يعلقون أهمية كبرى على دور الصفوة القائدة ، ويقولون فى كتاباتهم : إن القيادة والريادة لا تعطى أصحابها ميزة مادية أو معنوية على غيرهم من أفراد الجماعة ، ولكنهم فى واقع الأمر أشد تمسكا بحقيقة امتياز الفئة القائدة على غيرها[1] »وحين تتصفح صفات هؤلاء الرواد التى تتكون منهم الصفوة المختارة تجد أنها فى مجملها صفات تدل على الاعتدال ، والذكاء ، والنقاء ، فيقولون : يشترط فيهم : العلم ـ والمعرفة ـ والشجاعة ـ والطهارة ـ والذكاء ـ والصدق ـ وسلامة الحس ـ والطموح ـ والقدرة على القيادة ـ والتطلع إلى المستقبل ونحن نقول متعجبين : وهل الأنبياء والرسل إلا مجموعة من الصفات الحسنة العالية ، التى تندر أن توجد فى غيرهم ، حتى قبل أن يبعثوا ، وإذا أردنا أن نضرب لذلك أمثلة من رسول الله ﷺ ومن أخوته الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وجدنا الكثير الكثير .

---

(١) انظر فى ذلك الحضارة لحسين مؤنس ص ١١٢ ط عالم المعرفة الكويت .

أما عن رسول الله ﷺ وعلمه ، فقد أوتى جوامع الكلم ، وملك زمام الحكمة ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾[1]. وأوتى القرآن ومثله معه ، ودعا الله أن يزيده علما على علم ، فقال : ﴿ وقل رب زدنى علما ﴾[2]. وأما عن خلقه ﷺ ؛ فقد مدحه القرآن فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[3] . وقالت عائشة حينما سألها أبو عبد الله الجدلى عن خلق رسول الله ﷺ ، قالت : خلق رسول الله فى أهله : كان أحسن الناس خلقا ، لم يكن فاحشا ولا متفحشا ، ولا صخاباً فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويصفح[4]. وعن أنس قال : خدمت رسول الله عشر سنين ، فما قال لى أف قط ، ولا لم صنعت ، ولا ألا صنعت[5].

وأما عن تواضعه ﷺ ، « فعن عمر رضى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتطرونى كم أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله »[6] ، وعن أنس بن مالك قال : كانت الْأَمَةُ من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فتنطلق به فى حاجتها »[7]. وقالت عائشة ــ لما قيل لها ما كان رسول الله ﷺ يصنع إذا دخل بيته ــ قالت : كان يكون فى مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة خرج فصلى .[8]

وعن أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ يعودُ المريض ، ويشهد الجنازة ، ويأتى دعوة المملوك ، ويركب الحمار ، ولقد رأيته يوما على حمار خطامه ليف » .

---

(١) البقرة / ٢٦٩ .

(٢) طه / ١١٤ .

(٣) القلم ــ ٦ .

(٤) أخرجه ــ أحمد والترمذى وصححه .

(٥) أخرجه البخارى .

(٦) أخرجه البخارى .

(٧) أخرجه البخارى .

(٨) أخرجه البخارى .

وأما عن حيائه ونقائه :

عن أبى سعيد الخدرى قال : كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان إذا كره شيئا عرفناه فى وجهه [١] . وعن أنس بن مالك أن النبى ﷺ رأى على رجل صفرة فكرهها ،وقال : لو أمرتم هذا أن يغسل هذه الصفرة . « قال : وكان لايواجه أحدا فى وجهه بشىء يكرهه » [٢]

شفقته ﷺ :

عن أنس أن النبى ﷺ قال : إنى لأدخل فى الصلاة ، وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبى ، فأتجوز فى صلاتى ، مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه » [٣] . وقال تعالى فى ذلك ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [٤] .

حلمه وصفحه :

عن أنس بن مالك قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ ، وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى ، فجبذهُ بردائه جبذة شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ ، قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مرلى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، ثم ضحك . ثم أمر له بعطاء » [٥] .

جوده وكرمه :

عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم .
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود .
(٣) متفق عليه .
(٤) التوبة ــ ١٤٨ .
(٥) متفق عليه .

فى رمضان ، حين يلقاه جبريل عليه السلام ، وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، قال : فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة »[1] .

شجاعته —

عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وأشجع الناس ، وأجود الناس : كان فزع فى المدينة ، فخرج الناس قِبلَ الصوت ، فاستقبلهم رسول الله ﷺ قد سبقهم ، فاستبرأ الفزع على فرس لأبى طلحة عرى ، ما عليه سرج ، فى عنقه السيف ، فقال : لا تراعوا وقال للفرس : وجدناه بحرا ، أو إنه لبحر »[2] .

وهكذا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، على تلك الصفات الحميدة ، حتى مدحهم القرآن ، وسجل كثيرا من تلك الصفات لهم ، فقال فى إبراهيم عليه السلام ﴿ إنَّ إبْراهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾[3] ، وقال : ﴿ إن إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[4] ونرى القرآن يذكر الأنبياء واحداً واحداً بصفاتهم ، فيقول تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ، إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً ، وَكَانَ رَسُولًا نَبِياً ﴾[5] ، ﴿ واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ، إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ، وَكَانَ رَسُولًا نَبِياً ﴾[6] ، ﴿ واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِياً ، وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا ﴾[7] . وقال فى إسحاق ويعقوب : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾[8] ، وقال فى أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صابراً ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[9] وهكذا نجد الأنبياء والمرسلين قد بلغوا من الصفات الكريمة مبلغا سامقا ، لا يدانيه أحد ، وكانوا أصحاب رسالات ، إصلاح ونقاء وتصحيح لمسار الضالين الباغين من عباد الله سبحانه ، وكان لهم مع الباطل وأهله جولات وجولات ، وجاءوا بتعاليم ربانية هادية ، تأخذ بيد الناس

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .
(٣) النحل / ١٢٠ .
(٤) التوبة / ١١٤ .
(٥) مريم — ٥١ .
(٦) مريم — ٥٤ .
(٧) مريم — ٥٧ .
(٨) مريم — ٥٠ .
(٩) ص — ٤٤ .

إلى السعادة والأخوة والأمان والاستقرار والتقدم والرخاء ، فمن هم الرواد إذا لم يكونوا هم ؟ ومن يكون أهلا للإصلاح بعدهم ؟ ومن جالد الباطل مثل ما جالدوا ؟ ومن حمل عن النقاء والحسية مثل ما حملوا ؟ ولهذا نجد أن المسار الإسلامى فى التفسير الحضارى للتاريخ مسار معجز ، يكشف الحق لكل ذى عينين ، ويقشع الغشاوة عن الأعين ، حتى تعرف الحقيقة ، ويمتاز الحق من الباطل ، والخبيث من الطيب والحضارة الحقة ، والرواد الحقيقيون من السراب الخادع والسحرة الدجالين . وصدق الله ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾[١] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[٢].



(١) الإسراء / ٨٢ .

(٢) الأنبياء / ١٠٧

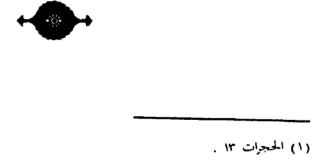
الباب الثانى

صلة الحضارة الإسلامية بغيرها وخصائصها والدور الذى اضطلعت به

الفصل الأول

صلة الحضارة الإسلامية
بغيرها من الحضارات

لاشك أن المجتمع الإنسانى مجتمع واحد ، يشترك فى الصفات الإنسانية ، عقلية كانت أو جسدية ، فهم أبناء أب واحد وأم واحدة : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[1] . كما أن اهتمامات المجتمع الإنسانى الأساسية متفقة ، وطبيعته متحدة ، وميوله تنطلق من فطرة واحدة ، فالاستقرار والسعادة ، والأمن ، والخوف ، والرضا ، والغضب ، صفات ومعانى بشرية ، تتلون بها النفوس على اختلافها وتعددها ، ولهذا فكل شعوب الأرض تجمعها صلات معينة ، وميول وتطلعات وثقافات تتشابه ، أو تتناقل من صقع إلى آخر ، ومن مجتمع إلى سواه ، حسب الأحوال فى الاختلاط ، أو البيئات ، أو التطلعات ، والغايات والاستعدادات ، ولهذا تدور بين الأمم ثقافات وأعراف وعادات مؤثرة أو متأثرة ، حسب ظروف كل أمة وطبيعتها ، تؤثر فى مجرياتها وأسلوبها فى الحياة ، وقد تكون من أسباب تحضرها ونهضتها ، أو من وسائل انحطاطها وذلتها ، وقد لاتؤثر فيها ، لا إيجابا ، ولا سلبا . ولهذا ناسب عند الكلام على حضارة أمة من الأمم أن يبين علماء الحضارة صلة هذه الحضارة وتأثر أصحابها بالحضارات وبالأمم السابقة لها والمتقدمة عليها .



(١) الحجرات ١٣ .

المبحث الأول
صلة الحضارة الإسلامية بالحضارة العربية القديمة

الحضارة العربية القديمة :

لاشك أنه كانت فى الجزيرة العربية حضارات متنوعة ، شأنها فى ذلك شأن الحضارات التى واكبتها فى فارس والروم واليونان ومصر ، وكانت لهذه الحضارات آداب وقوانين وفنون ، كما واكبها تقدم فى العمران والهندسة والمشروعات المختلفة ، وقد قص علينا القرآن الكريم كثيرا من قصص هؤلاء ، كما أشار إلى معالم تلك الحضارات ، وما بلغته من ازدهار وتقدم وريادة فى كثير من نواحى الحياة ، ثم كر عليها الفساد ، فأصبحت أثرا بعد عين ، وأطلالا بعد عز وشموخ ، وقد كشفت الآثار التى دأب المؤرخون على جمعها من تلك الحضارات على نبوغ التفكير والتنفيذ الهندسى ، والعمرانى ، والزراعى ، والإسكانى ، والدينى .

١ ــ عاد وثمود :

من الحضارات التى تكلم المؤرخون عنها فى الجزيرة العربية : عاد ، وثمود ، حيث التقدم العمرانى ، والصناعى ، والزراعى ، والمهنى ، الذى تكلم عنه القرآن الكريم . وقد قدمنا طرفا من ذلك فيما سبق[1] . كما ظهرت دول ونظم منها الدولة المعينية فى الجنوب .

وكانت هذه الدولة فى « الجرف » ، وعاصمتها « معين » ، ويطلق عليها اسم « قرنو » أو « القرن » . اشتهرت هذه الدولة بالزراعة والتجارة ، وكانت لها أعرافها

(١) انظر البحث فى ص ٢٣ ، ٧٠ .

الاجتماعية ، تميل إلى الإرستقراطية ، وإلى احترام الدين ورجاله ، وإلى تكريم المرأة وعدم امتهانها .

٢ـ دولة سبأ ٩٥٠ ــ ١١٥ ق م . وكانت ذات حضارة وعمران ، تكلم عنها القرآن الكريم ، حيث امتاز السبئيون بإجادة البناء ، فبنوا السدود كسد مأرب ، وبنوا المعابد فى مدينة « صرواح » ، كما بنوا القناطر المحمولة على الأعمدة ، حتى يجرى تحتها الماء وفوقها لإرواء المدن وأنشأوا الأحواض ، التى تدل على نبوغ فى فن العمارة ، وهندسة المبانى ، ومعرفة نظام الرى . وركبوا البحر ، وصنعوا السفن العظام ، التى كانوا يمخرون بها عباب المحيط الهندى والبحر العربى للتجارة ، التى ازدهرت فى عهدهم ، وملكوا زمامها .

٣ـ الدولة الحميرية ــ ١١٥ ق م ــ ٦٢٨ م . قامت تلك الدولة على أنقاض الدولة السبئية ــ وجعلت عاصمتها « ظفار » ، واشتهرت بالتجارة شأن كل دول الجزيرة ، وبلغوا فى الصناعة مبلغا لا بأس به ، فسكوا النقود من الذهب والفضة والنحاس ، وصوروا عليها صور الملك وبعض آلهتهم . كما انتشرت فيها الديانة المسيحية واليهودية ، وكانت لهم صلات بالدول حولهم ، وتعرضوا للغزو من الحبشة ، وكان من القواد الغزاة أبرهة الأشرم ، الذى أراد أن يهدم الكعبة فأهلك فى مكة .

دولة الشمال فى الجزيرة :

١ ــ دولة الأنباط ــ ١٦٩ ق م ــ ١٠٥ م . وكانت دولة وثنية فى الجنوب الشرقى لفلسطين ، وكانت لهم آلهة مشتركة مع مكة مثل هبل ، واللات ، والعزى ، بلغت هذه الدولة من التقدم والعمران ما بلغته دول الجزيرة ، فبنوا البيوت والمعابد والقصور من صخور الجبال ، ومازالت ماثلة لليوم ، وضرب أهلها النقود ، ونظموا الملك ،واستوزروا الوزراء ، وقد تطورت الثقافة ، وتقدمت الكتابة المأخوذه من الخط الآرامى إلى الخط العربى ، الذى انتشر فى الحجاز ودون به القرآن ، ثم انتشر فى البلاد العربية والإسلامية بعد ذلك .

٢ ــ دولة تدمر . وهى دولة عربية فى لغتها وجنسها وموطنها . تقع بين الشام

والعراق . تقدمت تجاريا وحربيا ،وكانت تمر بها القوافل التجارية إلى بقاع العالم ، تحمل البضائع ، وكانت لها اتصال بالأسواق المعروفة فى ذلك الوقت ، فى الشام وفى العراق وإيران والهند ، كما كان لها صلة قوية بأسواق مصر وأفريقيا ، كما نبغوا فى فن العمارة ، ومن آثارهم : « هيكل الشمس » ، « هيكل بعل » . وبرعوا فى النحت والتصوير والفنون المختلفة .

٣ ــ دولة الغساسنة . وكانت موالية للروم ، وتحارب إلى جانبهم ، وكانوا يدينون بالمسيحية . وبلغت فى الناحية الحربية مبلغا كبيرا ؛ نظرا لموالاتها للروم وحلفها معها . ولم تؤثر لهم معارف أو علوم ، اللهم إلا بعض المبانى من قصور ، وحصون ، وغير ذلك ، وكانت الروم تستفيد من شجاعتهم فى حربها للفرس ، ورد بعض القبائل العربية التى كانت تغير على الدولة .

٤ ــ دولة المناذرة ــ أسستها قبائل عربية من تنوخ ، على سقى الفرات الأدنى ، تمكنت فى فرض سلطانها على بعض القبائل العربية ، وكانت موالية وصنيعة للفرس ، ومؤازرة لهم على الروم ، وكانوا يعتنون بالناحية الحربية ، ويميلون إلى البذخ والفخر ، ومن آثارهم . قصرى « الخورنق ، والسديم » وقد اشتهرت الدولة بالتجارة ، وتعليم القراءة والكتابة ، وإنشاء القصور ، وكانوا يدينون بالوثنية [1] .

وسط الجزيرة :

١ ــ قريش ــ كانت لقريش منزلة كبيرة عند العرب ؛ لمنزلتهم الدينية ، ومكانهم حول البيت ، وأول من نظم قريش وجعل لها كيانا مستقلا : **هو « قصى »** ، ومن أهم أعماله :

أ ــ إسكان القرشيين فى مكة .

---

(١) انظر فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١ / ٢٣٠ / ١٠٠ ، ط بغداد ٣ / ٥ ، ٣ / ٧١ ، الإسلام والحضارة العربية جواد على ١ / ١١٢ وأصالة الحضارة العربية للدكتور ناجى معروف ص ٩٢ ، ٩٥ ، ٨٦ ط الثقافة بيروت ، وحضارة العرب ص ١١٨ ، تاريخ التمدن الإسلامى جورجى زيدان ١ / ٣٤ ، ٣٥ ، ابن الأثير فى الكامل ١ / ٢١ ط بيروت .

ب ــ ألف مجلسا من رؤسائهم للتشاور فى أمورهم .

ج ــ أسس دار الندوة ، وهى مجلس للشورى ، يقطع فيه فى كل أمر مهم لقريش .

د ــ جعل لنفسه حجابة البيت والسدانة : أى أنه كان بيده مفاتيح الكعبة ، وهو الذى يأذن للناس بدخولها . وربما عدت الحجابة والسدانة منصبين لا منصبا واحدا .

هـ ــ جعل قصى لنفسه أيضا اللواء ، وهو لواء قيادة الجيوش . وهذا يدل على أن قريشا كانت عندها حكومة مؤهلة للقيادة ، وإدارة المصالح العامة . وكانت المصالح مقسمة إلى إدارات أشبه بالإدارات الحديثة ، منها مايأتى .

١ ــ السقاية ، وكانت فى بنى هاشم ، وهى تهيئة الماء العذب فى حياض من أدم فى الكعبة ، ومنى ، وعرفات ، لشرب الحجيج .

٢ ــ الرفادة ، وهى إطعام الحجيج الفقراء ، باعتبارهم ضيوف الله ، وزوار بيته ، وكانت فى بنى هاشم ، وأبقاها الإسلام .

٣ ــ قيادة الجيوش ، وكانت بيد بنى أمية ، وهى إمارة الركب فى القتال والتجارة .

٤ ــ الأعنة : وهى أعنة الخيل ، ويتولى صاحبها الخيل ، ويدير شئونها فى الحرب والسلم .

٥ ــ الأشناق : وهى الديات والمغارم ، وكانت « لتميم » ، وصاحبها إذا أنفق شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه .

٦ ــ القبة : وكانت تضرب إذا خرجوا للحرب نصبوها ، وجمعوا فيها مايحتاجه الجيش من أعتدة وأسلحة .

٧ ــ السفارة : وكان سفيرا يفاوض عن قومه فى الصلح وغيره .

٨ ـــ الحكومة : وهى التحكيم بين الناس والقضاء .

٩ ـــ الأموال المحجرة : أى الموقوفة على الآلهة .

١٠ ـــ العمارة : ويراد به المحافظة على حرمة البيت ، ومنع الرفث فيه ، وصيانة مبانيه ومخصصاته [١] . وقد نجح القرشيون فى التجارة فى إبرام المعاهدات بينهم وبين الفرس والرومان ، لحرية تجارتهم وتنقلاتها بين ربوع ممالكهم ، وكانت العرب تحترمهم ، لأنهم حماة بيت الله الحرام ، والمضيفون للحجيج .

معارف العرب فى الجاهلية وعلومهم :

لاشك أنه كانت على أطراف الجزيرة العربية حضارات وممالك وحكومات ، حكمت حينا من الدهر ، وكان لها تجاربها ونظمها وأفكارها . وقد ذكر بعضا منها القرآن الكريم ، مثل : حضارة عاد ، وثمود ، وسبأ ، ولكن هذه الحضارات مسخت وزالت من الوجود ، ولم يبق منها إلا آثار مبعثرة ، ورسوماً خربة ، تركها الناس ، وبدؤوا فى سلم الحياة من جديد ، وما وجده المكتشفون بعد ذلك إنما هى آثار لأقوام ولأمم خلت كما يقول القرآن : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَاكَسَبْتُمْ ﴾ . وكان الناس فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ينقسمون قسمين :

القسم الأول : قلب الجزيرة ـــ والقسم الثانى : أطرافها ـــ التى كانت تخضع لجهتين : الأولى : المناذرة ، وهم عرب ، ولكنهم كانوا يكونون دولة تابعة للفرس ، وإن كانت تحكم حكما ذاتيا ، والثانية : الغساسنة ، وكانوا يكونون هم الأخرون دوله تابعة للروم ، ويحكمون حكما ذاتيا ، ولكنهم يتبعون للروم فى أى من خطواتهم وتصرفاتهم ، لايخرجون عن إمرتهم أو هواهم . وقد رأينا كيف كانت هذه الولاءات ، وكيف فعل كسرى بالنعمان بن المنذر ـــ لما قبض عليه حين خالفه ـــ وهو ملك الحيرة ، ثم سجنه ، وقتله ، ورماه تحت أرجل الفيله ، وكانت اليمن تابعة كذلك

---

(١) يظر فى ذلك تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان ١ ٣٤ ، ٣٩ ط القاهرة دار الهلال سنة ١٩٥٨ م ، ابن الأثير فى الكامل ١ / ٢١ ط بيروت سنة ١٩٦٥ .

للفرس ، وتحكم من قبلهم إلى أن جاء الإسلام . وكانت علوم هذه الأطراف خليطاً من معارف العرب فى الجزيرة ، وأبهة الفرس والروم فى القصور والعمران ، والحجّاب والخدم والعسكر والحرس والجيوش المنظمة والبلاط والعرش والشعراء والمداحين وغيرهم ، وكانت مهارتهم تظهر فى صناعة الأسلحة وحياكة الملابس ، والبرد اليمانية ، ونحت التماثيل من الحجارة . والمعادن . والخشب . هذا إلى جانب ماسنذكره من العلوم فى وسط الجزيرة . ومما نسب إليهم أيضا اختراع حروف الكتابة العربية .

العلوم وسط الجزيرة :

شاعت عند العرب قبل الإسلام ـــ خاصة فى وسط الجزيرة ـــ علوم كانت ضرورية لهم ، حتمتها ظروف البيئة . ولم يتعلم العرب هذه العلوم فى مدارس ، ولا ألفوا فيها كتبا ، لأنهم كانوا أميين [(١)] لايقرؤون ، ولا يكتبون ، وإنما هى معلومات تجمعت فى ذاكرتهم بتوالى الأجيال ، بالاقتباس والاستنباط ، وتنوقلت فى الأعقاب . وإذا أجلنا النظر فى تلك العلوم المأثورة عنهم ، وجدنا بعضها نشأ عند العرب ، والبعض الآخر أخذ اقتباسا من الأمم الأخرى ، فالعلوم العربية . كالأنساب والشعر والخطابة ، أما العلوم المقتبسة : فهى كالتنجيم ، والطب ، والأنواء ، والخيل ، ومهاب الريح ، والكهانة ، والقيافة وغيرها . وقد ذكر الشهرستانى أنه كان قبل الإسلام أربعة أنواع من الدراسات العربية : علم الأنساب ، والتاريخ ، وتفسير الأحلام ، وعلم التنجيم ، وهذه هى حدود معارف العرب قبل الإسلام . وقد اهتم ملوك الحيرة والغساسنة بحكم مخالطتهم للفرس والروم ، بحروف الكتابة التى انتقلت منهم إلى الجزيرة العربية ، ثم إلى الحجاز ، ثم إلى الكوفة ، حتى أطلق اسم الكوفة على هذا

---

(١) الأمية كانت السمة الغالبة ، وإلا فقد كانت الكتابة والقراءة موجودة بين بعض الأفراد ، وقد رأينا ذلك فى استعمال الرسول الأسرى المتعلمين فى تعليم أطفال المسلمين ، وكان للرسول كتاب للوحى ، وكانت بعض النساء تعرف كذلك القراءة والكتابة ، ولكن هذا كان فى وسط الجزيرة على قلة ، لا تؤثر فى المجتمع ، وفى ثقافته .

الفن[١]. كما كان للعرب علم بالتجارب الطبية ، والعقاقير المستخلصة من الأعشاب ، كما كانوا يستعملون الكى والحجامة والفصد[٢]. وكان العرب يمزجون الطب بالكهانة ، والرقى ، والتعاويذ والعقاقير ، والأعشاب التى كانت فى بلاد العرب ، أو التى يجلبونها من الهند والصين .

صلة الإسلام بالحضارة العربية قبله :

من تلك المقدمة التى تكلمنا فيها عن الدول العربية القديمة ، أو التى كانت قبل الإسلام ، يتبين لنا أن العرب قبل الإسلام كانت لهم معارف حتمتها ظروف البيئة والمعيشة الصحراوية التى كانوا يعيشونها ، وهذه العلوم كانت بمثابة تجارب ومعارف ليست مدونة أو مكتوبة فى صحف أو رسائل ؛ لأن العرب قوم أميون كما هو واقعهم . وكما قال القرآن : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُم ﴾[٣] ، ﴿ لَيسَ عَلينَا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾[٤] . وكان للعرب مع هذا فصاحة ، وبلاغة ، وأشعار ، وحكم ، وأمثال ، وتجارة ، وأسواق للشعر والأدب ، وهذه كانت سجلا لحوادثهم وحروبهم ، وكانت الأشعار بمثابة الصحافة ووسائل الإعلام اليوم ، تسير بها الركبان ، ويتغنى بها الكهول والشباب والصبيان .

واقع العرب :

لا يستطيع إنسان أن يقول : إن واقع العرب قبل البعثة كان خيرا كله ، أو كان شرا كله ، بل كان فيه من كل ، ولكنها كانت جاهلية : صفات الخير فيها

---

(١) انظر فى كل ذلك : الملل والنحل للشهرستانى ج٣ ص٢٧٥ ط الحسين التجارية تعليق أحمد فهمى . والحضارة العربية للخربوطلى ٢٢١ وأصالة الحضارة العربية ناجى معروف ــ ١١٨ ط دار الثقافة بيروت

(٢) انظر عيون الأنباء : ابن أبى أصيبعة ١ ١١٠ ١١٢ وبلوغ الأرب للألوسى ٣ ٣٣٣ ط الرحمانية بمصر سنة ١٩٢٥ .

(٣) الجمعة ــ ٢ .

(٤) آل عمران ــ ٧٥ .

تتلاطم مع جبال الضلال ، يقول خودابخش : « كانت حياة العرب حياة حرية ومرح وسرور ومجون ، وكانت الخمر والنساء والحرب ، هى الأشياء الثلاثة التى يحبها العربى الجاهلى ويهتم بها ، فهو إما أن يستغرق فى الخمر ، أو ينصرف إلى العشق ، أو يستنفد قوته وطاقته فى الحرب القبلية ، أو سلب بعض العشائر[1]. وقد أجاد طرفة ابن العبد فى تصوير الحياة اليوميه حينما قال :

وإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد

ثم قال :

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

وتسمع جعفر بن أبى طالب يقول للنجاشى ، مبينا أمر الجاهلية بالنسبة للإسلام : « أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ؛ ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ؛ لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام »[2]. وقد تحدث القرآن عن كثير من الصفات المرذولة ، ونهى عنها . من ذلك قوله : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى

(١) حضارة الإسلام صلاح الدين خودابخش ترجمة الخربطلى / ١٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٢١٩ .

هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لانكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾.[1]

وأما عن عقائد العرب **الدينية** فكانت متدنية شاذة ، تميل إلى السطحية ، والاتكالية .

أما عن السطحية الدينية ؛ فهى موجودة عند كل وثنى يخضع لحجر ، ويسجد لصنم ، وينقاد لدمية ، لا تسمع ولا تعقل ، وقد كانت بنو حنيفة تصنع صنمها الذى تعبده من عجوة ، وكلما جاءتهم سنة قحط ومجاعة أكلوه ، وسدوا به رمقهم ، وسجل ذلك الشاعر العربى . فقال :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

وأما عن الاتكالية : فقد كانت تتجلى فى الكهانة ، أو التمائم ، والتعاويذ وغيرها من الاتكاليات والإجهاضات المستمرة للفكر الصحيح ، وكانت أيضا تسيطر على الفكر الدينى ، والتأمل العقلى الناضج ، فتراهم إذا فتحت أمامهم نافذة للبحث أو التفكير أو الجد فى التصور الدينى قالوا :

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾[2] . ونرى ذلك أيضا فى قول ثمود قوم صالح : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُواً قَبْلَ هَذَا . أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، وَإِنَّنا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾[3]. وكان العربى يأنف من الحرف والأعمال اليدوية والصناعية والمهنية ، ويعيش فيها عالة على غيره ، وهذا ما جعله يجلب كل ما يحتاج إليه ، ولا يفكر فى صناعته أو إنتاجه ، وكان هذا من الأمور المؤثرة على المد العمرانى والإنتاجى ، فلم يشاهد فى وسط الجزيرة صناعة ذات قيمة ، أو عمارة أو مدن ذات شأن هندسى أو إبداعى ، وإن كان فى أطراف الجزيرة

---

(١) الأنعام ــ ١٥١ ــ ١٥٢

(٢) الأعراف ــ ٧٠ .

(٣) هود ــ ٦٢ .

يختلف الأمر ، لتقليد الفرس أو الروم ، ومجاورتهم لأقوام تحفل بهذا النوع من الرفاة والترف .

المحاسن والمفاخر :

وهذا لايعنى أن العرب كانوا مجردين من الصفات الحميدة والعادات الحسنة ، مثل الشجاعة ، والعزة ، والأنفة ، والبلاغة ، والفصاحة ، والكرم ، والوفاء ، والنجدة ، وصدق العهد ، فإن لهم فى ذلك قصصا وحكايات مشهورة ومتداولة ، وكانت العرب تمتاز عن غيرهم بالذكاء ، والبعد عن الترف والسفسطة والخنوع والذلة ، كما كان العربى محبا للحرية ، عاشقا للفروسية ، لم تصبه أمراض الحضارة الفارسية أو الرومية ، ولم تظهر فى وسطه المذاهب الانحلالية أو الانهزامية ، كأفكار مزدك ، أو مانى ، بل كانوا أوفياء لديانة إبراهيم ، رغم التحريف والتغيير ، يعظمون الكعبة ، ويحجون إليها ، ويدافعون عنها ، ويعتبرونها عزهم ورمزهم ودينهم وعز آبائهم . ويؤيد هذا ما تحدث به أبو حيان التوحيدى « فى الإمتاع والمؤانسة » إلى الوزير أبى عبد الله العارض الحسين بن أحمد بن سعدان ، وزير صمصام الدولة البويهى ، فى مسامرته معه ، فى الليلة السادسة ، عن تفضيل العرب على العجم ، وروى فى ذلك كلاما لابن المقفع ، وهو أصيل فى الفرس ، عريق فى العجم ، وشهادته هى الشهادة . فقال : أقبل علينا ابن المقفع فى مجلسنا ، فقمنا إليه وفرحنا به ، فقال : « أى الأمم أعقل ؟ فظننا أنه يريد الفرس . فقلنا : فارس أعقل الأمم . نقصد مقاربته ، ونتوخى مصانعته . فقال : كلا ، ليس ذلك لها ، ولا فيها ، وهم قوم علموا فتعلموا ، ومثل لهم فامتثلوا واقتدوا ، وبدئوا بأمر فصاروا إلى اتباعه ، ليس لهم استنباط، ولا استخراج . فقلنا له : الروم . فقال : ليس ذلك عندها ، بل لهم أبدان وثيقة ، وهم أصحاب بناء وهندسة ، لا يعرفون سواهما ، ولا يحسنون غيرهما . قلنا : فالصين . قال أصحاب أثاث وصنعة ، لا فكر لها ولا روية . قلنا : فالترك . قال : سباع للهراش . قلنا : فالهند . قال : أصحاب وهم ومخرقة وشعبذة وحيلة . قلنا : فالزنج . قال : بهائم هاملة .فرددنا الأمر إليه . قال : العرب ، فتلاحظنا ، وهمس بعضنا إلى بعض ، فغاظه ذلك منا ، وامتقع لونه ، ثم قال : كأنكم تظنون

فيَّ مقاربتكم ، فو الله لوددت أن الأمر ليس لكم ولا فيكم ، ولكن كرهت إن فاتنى الأمر أن يفوتنى الصواب ، ولكن لا أدعكم حتى أبين لكم لم قلت ذلك ، لأخرج من ظنة المداراة ، وتوهم المصانعة . إن العرب ليس لها أول تؤمه ، ولا كتاب يدلها ، أهل بلد قفر ، ووحشة من الأنس . احتاج كل واحد منهم فى وحدته إلى فكره ونظره وعقله ، وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض ، فوسموا كل شىء بسمته ، ونسبوه إلى جنسه ، وعرفوا مصلحة ذلك فى رطبه ويابسه وأوقاته وأزمنته . وما يصلح منه فى الشاة والبعير ، ثم نظروا إلى الزمان واختلافه ، فجعلوه ربيعيا وصيفيا ، وقيظيا وشتويا . ثم علموا أن شربهم من السماء ، فوضعوا لذلك الأنواء . وعرفوا تغير الزمان ، فجعلوا له منازله من السنة . واحتاجوا إلى الانتشار فى الأرض ، فجعلوا نجوم السماء أدلة على أطراف الأرض وأقطارها ، فسلكوا بها البلاد ، وجعلوا بينهم شيئا ينتهون به عن المنكر ، ويرغبهم فى الجميل ، ويتجنبون به الدناءة ، ويحضهم على المكارم ، حتى إن الرجل منهم وهو فى فج من الأرض يصف المكارم فما يبقى من نعتها شيئا ، ويسرف فى ذم المساوىء فلا يقصر ، ليس لهم كلام إلا وهم يحاضون به على اصطناع المعروف ، ثم حفظ الجار ، وبذل المال ، وابتناء المحامد . كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته وفكرته ، فلا يتعلمون ، ولا يتأدبون ، بل نحائز مؤدبة ، وعقول عارفة . فلذلك قلت لكم : إنهم أعقل الأمم ، لصحة الفطرة ، واعتدال البنية ، وصواب الفكر ، وذكاء الفهم ... »[(١)] والحق أن العرب ــ لهذه الصفات الكريمة التى سادت فيهم ــ كانوا أصلح الأمم لدعوة الإسلام ، وحمل تبعته . وما ظهر فيهم من أمراض استطاع الإسلام أن يستأصلها ، وأن يجتثها ، فصحت الأجساد وقويت ، ونبهت العقول وارتفعت ، وسمت الأخلاق وعظمت ، وصدق الرسول ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ »[(٢)] ، « خِيَارُكُمْ فِى الجَاهِلِيةِ خِيَارُكُمْ فى الإِسْلاَمِ إِذَا فِقِهوُا »[(٣)] ، وفى

---

(١) الإمتاع والمؤانسه ١ / ٧٠ ــ ٧٣ .

(٢) الموطأ بلفظ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ــ حسن الخلقة ــ ٨ .

(٣) البخارى أنبياء ٨ ، ١٤ ، ١٩ حـ ٤ ص ١١٣ ، عيى ٧ / ٣٨٣ عسقلانى ٥ / ٤٣٨ ، مسلم كتاب الفضائل١٦٨ .

هذا يقول ابن المقفع « وقد رأيتهم حين هبت ريحهم ، وأشرقت دولتهم بالدعوة ، وانتشرت دعوتهم بالملة ، وعزت ملتهم بالنبوة ، وغلبت نبوتهم بالشريعة ، ورسخت شريعتهم بالخلافة ، ونصرت خلافتهم بالسياسة الدينية والدنيوية ، كيف تحولت جميع محاسن الأمم إليهم ، وكيف وقعت فضائل الأجيال عليهم من غير أن طلبوها ، وكدحوا فى حيازتها ، أو تعبوا فى نيلها ، بل جاءتهم هذه المناقب والمفاخر ، وهذه النوادر من المآثر عفوا ، وقطنت بين أطناب بيوتهم سهوا رهوا .

وهكذا يكون كل شىء تولاه الله بتوفيقه ، وساقه إلى أهله بتأييده ، وحلى مستحقيه باختياره . ولا غالب لأمر الله ، ولا مبدل لحكم الله . ولذلك قال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ ، تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ المُلكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إنكَ عَلَىَ كُلِّ شَىءٍ قَدِير ﴾ . ولله فى خلقه أسرار تتصرف بها دوائر الليل والنهار ، وتدللها مجارى الأقدار ، حتى ينتهىْ بمحبوبها ومكروهها إلى القرار . عز إلهاً معبودا ، وجل ربا محمودا مقصودا »[1]. وهكذا نستطيع أن نقول : إن أمة العرب كانت وعاء صافيا للإسلام ، وحقلا خصبا ترعرعت فيه أفكاره ومبادئه وحضارته .

عطاء العرب للحضارة :

وأما عن عطاء العرب للحضارة الإسلامية ، فنستطيع أن نقول : إن عطاء العرب للحضارة الإسلامية هو استعدادهم الفطرى ، وصفاتهم ومكارمهم الأصلية ، التى صادفت تعاليم الإسلام ، فتمكنت فيها وأينعت ، هذا هو عطاؤهم إن كنا نسمى هذا عطاء ، وإلا فعقيدة الإسلام غيرت العقائد العربية ، بل قلبت موازين المعتقدات العربية ، وكذلك نظم الإسلام وشريعته ـــ كانت شريعة ربانية لا دخل فيها لبشر أو إنسان ـــ وصدق الله : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَـٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وإنَّكَ لَتَهْدِى إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِراطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾[2]، ﴿ مَا

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٨٠ ـــ ٨٣ .

(٢) الشورى ٥٢ ـــ ٥٣ .

فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ ﴾[1]. فلم يأت الرسول ـــ كما يقرر القرآن ـــ بشيء من عنده فى العقائد والعبادات ، حتى يقتبس من حضارة العرب أو معارفهم ، إن صح أن يسمى ماعندهم معارف وحضارات . كما لم تتأثر تلك الشريعة بالرجال ، ولا بأعراف المجتمع وأخلاطه ، وإنما كانت دستورا بعيدا عن أهواء البشر ، وصراطا مستقيما ، لا عوج فيه ، ولا زيغ معه . نعم قد تتأثر الحضارات فى الماديات من العلوم النظرية والتجريبية ، ولا تتأثر فى العقائد والأخلاقيات ، والروحانيات ، والعباديات ، والتعاليم التى تمثل جوهر الشرائع ، والعرب كما قدمنا لم تكن عندهم علوم ، إلا بعض ما حتمته عليهم ظروف البيئة ، لأنهم قوم أميون ، لا يقرأون ولا يكتبون ، فأى شيء من العلوم النظرية أو التجريبية أخذته الحضارة الإسلامية من الجاهلية . نعم هناك بعض الصفات أقرها الإسلام من عادات العرب ، وهى صفات الشجاعة ، والنجدة ، والوفاء ، والكرم ، ومكارم الأخلاق ، مع شيء من التعديل للغاية التى تقصد بها هذه الأعمال ، والأحوال المستعملة فيها .



(١) الأنعام / ٣٨ .

المبحث الثانى
صلة الحضارة الإسلامية بالحضارات غير العربية

يحسن بنا أن نقدم بين يدى الموضوع فكرة موجزة للغاية عن حال تلك الشعوب ، التى عاشت فى مواطن تلك الحضارات ، التى تحدث عنها التاريخ ، فقد كان القرن السادس والسابع « لميلاد المسيح » من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف . كانت الإنسانية متدنية منحدرة ، تتدرج من سيىء إلى أسوأ منذ قرون ، وفقد المصلحون ــ بدون استثناء ــ أى أمل فى أى قوة على وجه الأرض يمكن أن تمنعها من التردى أو الهلاك ، لأنها فقدت كل شىء ، فقدت عقائدها ، وأخلاقها ، ونظمها الاجتماعية ، وفقدت حتى نفسها ، فتدنت عقليتها إلى أبعد مدى ، وأصبحت تعشق الحيوانية ، وتهيم بالرذيلة ، وتدمن الصعلكة ، وأصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المنحرفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وتأثيرها وقوتها ، حتى أنه لو بعث أصحابها الأولون ما عرفوها ، وما أحسوا نحوها بعلاقة أو سبب .

أصبحت النصرانية مزيجا من أفكار بولس ، الذى طمس نورها ، وأدخل فيها الوثنية التى أحبها ، وجاء قسطنطين فقضى على البقية الباقية منها ، حتى غدت خليطا غريبا من الخرافات اليونانية ، والوثنية ، والأفلاطونية ، والرهبانية ، وهاجرت منها تعاليم المسيح البسيطة الميسرة ، التى جاءت غذاء للروح ، وحفظا للعقل ، وسلوكا مستقيما ، بل أصبحت عبئا على الإنسانية ، وعلى تقدمها وفكرها . وأوغلت اليهودية فى تعصبها وعنصريتها ، وأباحت لنفسها مالم تبحه لغيرها ، وقصرت الديانة على شعبها ، الذى تزعم أنه شعب الله الذى اختاره دون غيره ، يملك الأرض ،

ويستعبد الناس ، وقد تكلم القرآن على تلك النزعة ، فقال : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُه ﴾(١). وأورثهم هذا التعصب والحقد ما جعلهم عرضة للاضطهاد ، والاستبداد ، والنفى ، والجلاء ، والعذاب ، والبلاء ، وتسبب ذلك فى تكوين نفسية غريبة ، وخصائص خلقية ذميمة ، كانت لهم شعارا على تعاقب الأجيال ، منها الخنوع عند الضعف ، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة ، والختل والنفاق فى عامة الأحوال ، والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن الخير ، مما جعلهم لم يكونوا فى يوم من الأيام عاملا من عوامل الحضارة والدين اللذين يؤثران فى غيرهم .

تناحر الأديان :

دائما أبدا كانت الأديان بعد أن فسدت فى شقاق دائم ، وسفك مستمر للدماء ، فعند اقتراب البعثة فى أوائل القرن السابع الميلادى « أوقع اليهود بالمسيحيين فى أنطاكية ، فأرسل الامبراطور فوكاس قائده « أبنوس » ليقضى على تمرد للمسيحيين . فذهب وأنفذ عمله . بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعا بالسيف ، والشنق ، والإغراق ، ورميا للوحوش الكاسرة . وتكرر ذلك مرة بعد مرة بين اليهود والنصارى »(٢) يقول المقريزى فى ذلك : « وفى أيام فوقا ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر ، فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم ، وأتوا إلى مصر فى طلبهم ، وقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سبيا لايدخل تحت حصر ، وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى ، وتخريب كنائسهم ، وأقبلوا نحو الفرس من طبرية ، وجبل الجليل ، وقرية الناصرية صور ، وبلاد القدس ، فنالوا من النصارى كل منال ، وأعظموا النكاية فيهم ، وخربوا لهم كنيستين بالقدس ، وأحرقوا أماكنهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب ، وأسروا بطريرك القدس وكثيرا من أصحابه »(٣).

---

(١) المائدة — ١٨ .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٤٥ — ٤٦ .

(٣) كتاب الخطط للمقريزى ٤ / ٣٩٢ وماذا خسر العالم ص ٤٦ .

الأنظمة السياسية :

كانت تحكم المنطقة المحيطة بالجزيرة العربية دولتان كبيرتان ، هما : الفرس ، والروم ، وكانت كلتا الدولتين زعيمتى العالم المتمدن فى ذلك الوقت ، وكانا ـــ فى نفس الوقت ـــ الحقل الخصب لنشاط كبار الهدامين . الذين عرفهم العالم . فكانت الأسس الأخلاقية منهارة ، وكانت القوانين لعبة فى يد قلة من الناس ، تتحكم فى مصائر البشر كيفما يحلوا لها .

أما فارس التى شاركت الروم فى حكم العالم وقتئذ ، فقد تدحرجت فى الحضيض ، ففسدت أخلاقها ، حتى أن المحرمات النسبية التى تواضع على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة ، كانت تلقى رواجا فى المجتمع ، ولا تجد نكيرا ، بل كان البيت الكسروى نفسه ، يستملح هذا الدنس ، حتى أن يزدجرد الثانى ، الذى حكم أواسط القرن الخامس الميلادى ، كان على رأس القائمة ، فتزوج بينته ثم قتلها ، وأن بهرام جوبين ، الذى تملك فى القرن السادس ، كان متزوجا بأخته .[1] ولقد برر هؤلاء تلك الأعمال المشينة بأنها قربى إلى الله تعالى ، وأن الآلهة أباحت لهم الزواج بغير استثناء ، « ثم ظهر مانى » فى القرن الثالث المسيحى ، نتيجة للنزعة الجنسية ، والتسيب المزرى ، فأحدث ظهوره رد فعل عنيف ، ووجد له أنصارا ، وكان يدعو إلى ترك الشهوة ، وحب العزوبية ، فحرم النكاح لقطع النسل ، واستعجال الفناء ، فثار عليه أصحاب الشهوات ، وأغروا به ، فقتله بهرام سنة ٢٧٦ م ، وقال فى قتله : إن هذا خرج داعيا إلى تخريب العالم ، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شىء من مراده . ولكن تعاليم « مانى » عاشت بعد موته تتصارع فى المجتمع ، وبعد أن انتصرت الشهوة على تعاليم مانى ، ظهر مزدك ، الذى ولد سنة ٤٨٧ فأعلن أن الناس ولدوا سواء لافرق بينهم ، فينبغى أن يعيشوا سواء لافرق بينهم ، ثم تدرج من هذا إلى ما يريد ويقصد ، فقال : ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه وحراسته ، كان ذلك عند مزدك أهم ما

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ / ١٣٨ .

تجب فيه المساواة ، ويكون فيه الاشتراك . قال الشهرستانى : « أحل مزدك النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والكلأ والنار »[(1)] وحظيت هذه الدعوة بموافقة الشباب والمترفين ، وصادفت فى قلوبهم هوى ، وسعدت كذلك بحماية البلاط ، فأخذ قباذ يناصرها ، ونشط فى نشرها وتأييدها ، حتى انغمست إيران فى فوضى خلقية ، وطغيان للشهوات .قال الطبرى : « افترض السفلة ذلك ، واغتنموا ، وكاتفوا مزدك وأصحابه ، وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا « قباذ » على ذلك ، وتوعدوه بخلعه ، فلم يلبثوا إلا قليلا ، حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك شيئا مما يمتنع به »[(2)].

ولم يقف الأمر عند تحطيم الأخلاق ، وإباحة الأعراض والأموال والممتلكات ، بل كانت الأمة تنظر إلى الأكاسرة ـــ ملوك فارس ـــ على أنهم من نسل الآلهة ، يجرى فى عروقهم الدم الآلهى ، « يعتقدون أنهم مقدسون ، فى طبيعتهم أشياء علوية مقدسة ، ولهذا كان الشعب يكفِّر لهم ، وتنشد الأمة الأناشيد بألوهيتهم ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر ، ولا يجرى اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحد فى مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقا على كل إنسان ، وليس لأى إنسان حق عليهم »[(3)] كما كان المجتمع بعد ذلك يرزحُ تحت نير طبقية بغيضة موغلة ، فكانت الوظائف حكرا على طبقة معينة ، لا يرقى إليها وضيع من عامة الناس ، من أرادوا أن يمنوا عليه بالرفعة كان هو الرفيع ، ومن يخفضونه كان الذليل المهين ، وبهذا ضاعت كرامات الناس ، وأهيلت أقدارهم وخمدت مخايل النبوغ فيهم ، فتدنت الدولة ؛

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤٨ بتصرف والملل والنحل للشهرستانى ١ / ٨٦ .

(2) تاريخ الطبرى ٢ / ٨٨ ، انظر موسوعة النظم الحضارية أحمد شلبى ٣ / ٢٨ ، ٢٩ ، وكارل بروكلمان . تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٩١ ط بيروت .، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤٩ .

(3) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤٩ ـــ ٥٠ .

لقصرها القيادة والريادة وتدبير الأمور على طبقة من المترفين الخاملين المتربعين على عرش التقديس ، وإن كانوا لا يفقهون أو يعقلون ، حتى أنهم إذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيرا ولَّوْا صغيرا ، فقد ملكوا عليهم « فرخ زاده خسروا » ابن كسرى أبرويز ، وهو طفل ابن سبع سنين ، وإذا لم يجدوا رجلا ملكوا امرأة ، وقد ملكوا بوران بنت كسرى ، وابنته الثانية أزرمى دخت ، وكانت أمور الدولة تسير من سيىء إلى أسوأ ؛ لفقدان الرجال أصحاب الرأى والعقل والحكمة .

أما الروم : فلم تكن أسعد حالا من الفرس ، حيث كانت المذاهب المتعددة تقطع الدولة ، وكانت المجادلات الكلامية والسفسطة العقيمة تشغل فكر الأمة ، وتستهلك ذكاءها ، وتبتلع قدرتها العملية ، التى تحولت فيما بعد حروبا كلامية ، ثم تدرجت إلى دموية تدميرية ، تحرق الأخضر واليابس ، وتحولت المدارس والكنائس إلى معسكرات متنافسة ، بين حزب الدولة الامبراطورية وحزب الملك ، والبلاد فى جدال حول طبيعة المسيح ، أهى مزدوجة أم ليست كذلك .

أما عن الانحلال الأخلاق والاجتماعى :

فقد « ذابت الفضيلة فى المجتمع ، وانهارت دعائم الأخلاق ، حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ، ليقضوا مآربهم فى حرية ، وكان العدل كما يقول « سيل » يباع ، ويساوم عليه ، مثل السلع ، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع . « يقول جيبون : فى آخر القرن السادس وصلت الدولة فى ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحةٍ عظيمة ، كانت أمم العالم فى حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع الذى لا يزداد كل يوم إلا ذبولا »

ويقول مؤلف تاريخ العالم للمؤرخين : « إن المدن العظمى التى أسرع إليها الخراب ، ولم تسترد مجدها وزهرتها أبدا ، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية فى هذا العهد من الانحطاط الهائل ، الذى كانت نتيجته المغالاة فى المكوس والضرائب ، والانحطاط فى التجارة ، وإهمال الزراعة ، وتناقص العمران فى البلدان »[(١)] وفى هذه

---

(١) المرجع السابق ص ٤١ .

الأجواء الخانقة تكثر المظالم ، والوشايات ، والاضطرابات ، ويروج الكسب غير المشروع ، وتشعر الشعوب باليأس والقنوط ، وتحل الأنانية والاتكالية ـــ فيأتى الخراب من كل جانب فى الأخلاق ، وفى الفضائل ، وفى الأرزاق ، وفى العمران ـــ وتحل بالطبقة الكادحة الأعباء والضرائب ، حيث تتخذ بقرة حلوب لكل العاطلين والمترفعين والحاكمين والمتسلطين ، كما تكسد فى هذه الأجواء أسواق الثقافة والعلوم والفنون ، وتخمد العبقرية والمهارات والابتكارات ، ويتحول الناس إلى قطيع يبحث عن لقمة العيش وعن حماية نفسه وعرضه .

العلوم الاجتماعية والفلسفية والعملية :

بعد هذه الإلمامة الموجزة عن أحوال تلك الأمم والديانات والمذاهب المختلفة ، التى كانت تسود فى هذه الحقبة ، يتبين لنا مقدار ما تستطيع أن تقدمه لنفع نفسها ، فضلا عن نفع غيرها ، ومقدار ما يسود فيها من أخلاق ومبادىء ، تبنى عليها دعوات للإصلاح ، أو تؤسس عليها قواعد للنهوض والسيادة ، فتعاليم زرادشت التى بنيت على قوى الخير والشر ، والنور والظلمة ، وأسست على تصارع الآلهة وتقالبهم ، أصبحت لا تروق المفكرين والمتحمسين ، وظهر بعد ذلك من خلالها المانوية ، وتعاليمها الرهبانية ، ثم ظهر مازدك بتعاليمه الاشتراكية ، ثم تصارعت المذاهب الدينية ، ودخلتها الفلسفات الوضعية ، والشطحات العقلية ، فتفلتت القيم ، وانحلت الروابط ، وأصبحت العلوم تدور فى فلك هذه المتاهات ، ونسى الناس ، وتاهت الأمم عند تلك العلوم التى ورثوها عن الأمم قبلهم ، فقد أخذوا عن الأمة اليونانية كثيرا من العلوم ، مثل علوم الحكمة ، والفضيلة ، والأخلاق ، وفى علوم الطب التشريح ، الذى أخذوه عن المصريين ، وكذلك علوم التحنيط والكيمياء التى نبغ فيها المصريون نبوغا كبيرا ، وكذلك أخذوا من المصريين هندسة المبانى ، وكثيرا من فن النحت ، والتصوير ، وعلوم النجوم ، والزراعة وكذلك ورثوا الفلسفة الأفلاطونية ، وعلوم المنطق ، والطبيعة ، والرياضة ، والأقاصيص التاريخية ، ولكن هذه العلوم جهل ـــ حتى أسماؤها ـــ فى تيارات الفساد والإلحاد والانهيار .

صلة الحضارة الإسلامية بتلك المفاهيم :

وأستطيع أن أقول بغير جهد أو عناء : إن صلة الحضارة الإسلامية فى بدء أمرها بهذه الحضارات كانت الثورة على مبادئها ومخلفاتها وأدرانها ، كان رفض هذه المبادىء الهدامة ، وتلك النحل المنهارة ، التى أشقت الناس ، ودمرتهم ، ومزقتهم كل ممزق : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1]. وكان من أعمال الدعوة الإسلامية كشف هذه المعتقدات الباطلة ، والديانات المحرفة ، التى لعبت بها الأهواء والشهوات ، وأصبحت سندا للمحترفين والدجالين ؛ ليملكوا على الناس عواطفهم وقلوبهم ، ويسلبوهم كل شيء تحت هذه المظلة الخلقه ، وجأر الإسلام بها واضحة فى وجوههم بغير هوادة قائلا : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[2]، ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[3].

كما هدم الإسلام الفوارق بين الطبقات ، وسوى بين الناس ، بين كسرى وبين عبيده ، وبين قيصر وبين خدمه ومواليه ، وهدم تلك الحيوانية المنتسبة إلى الأرباب ، وناداهم بذلك النداء ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ ولا نشرك به شيئا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[4] وقال الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[5] .

---

(١) المائدة — ١٥

(٢) المائدة — ٦٨ .

(٣) البقرة — ٨٩ .

(٤) آل عمران — ٦٤ .

(٥) الحجرات — ١٣ .

والغى الإسلام التناصر والتقاتل بين العقائد وبين المذاهب والفلسفات ، وجاء بخلق عام ، ومبادىء واضحة ، وتعاليم ثابتة ، تعاليم الصفوة المختارة من الأنبياء والمرسلين ، لاتعاليم الفرس والروم واليونان : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَاوَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾[1] ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾[2]. إن تعاليم الفرس والرومان ما حضَّرت حتى كتابها ، ولا من يهرفون بها ، بل كانت سببا فى شقائهم وعنتهم والقضاء عليهم . وإذا أردنا أن نرى هل أخذت حضارة الإسلام من تلك الأمم شيئا ، ننظر إلى تلك العناصر التى تتألف منها كل حضارة ، ونقرر بعد ذلك عن علم ودراسة : هل أخذ الإسلام من هذه الأمم شيئاً . فمن المعلوم أن كل حضارة من الحضارات تحتوى ــ بشكل أو بآخر ــ على العناصر التالية :

١ــ تصور للحياة وغايتها .

٢ــ عقائد ومبادىء أساسية .

٣ــ منهج تربوى .

٤ــ نظام اجتماعى .

وبما قدمنا من عرض لتلك المذاهب والنحل والأفكار ، التى كانت تسود تلك الأمم ، يتبين لنا أن عناصر الحضارة الإسلامية تغاير تماما تلك العناصر التى أشرنا إليها ، فلا شك أن عناصر الحضارة الإسلامية ربانية فى جذورها وأصولها وينابيعها ، فالعقيدة الإسلامية ، وتصور الحياة وغايتها ، ومنهج التربية والنظام الاجتماعى ، كل

---

(١) الشورى ــ ١٣ .

(٢) البقرة ــ ١٣٦ ــ ١٣٧ .

ذلك قرآني فطرى ، قرره محمد ﷺ ، ونزل به الوحى ، وسنعرض لذلك فيما بعد .

المغايرة فى الوسائل والقناعات :

تعتمد الحضارة الإسلامية على وسائل وقناعات معينة ، تغاير غيرها من الحضارات . وسائل تنبع من العقيدة ، وقناعات تعتمد على العلم والعقل والحكمة .

قرر الإسلام وسائل لبناء الحضارة الإسلامية ، وترقية الإنسان وتقدمه فى هذه الحياة ، لينعم بما خلق الله له ، وتتحقق الحكمة من خلقها لنفعه ، وأهم هذه الوسائل ؛ العلم ، والحكمة ، والنظر ، والبحث ، فالعلم فى الإسلام هو الوسيلة الأولى لبناء حضارته ، ولهذا كانت معجزته قرآنا يتلى ، وحكمة تقرأ ، وقانونا ربانيا يتعبد بتلاوته ، وكانت أول آية نزلت منه على محمد ﷺ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] وفرق القرآن بين من يعلم ومن لا يعلم ، فقال : « ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[2] وقال ﷺ ﴿ إِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضاً بِمَا يَفْعَلُ ﴾[3] ﴿ مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فى سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ ﴾[4] » والآثار فى ذلك كثيرة ومتعددة ، وقد بذل المسلمون فى التعليم والتعلم قصارى جهدهم ، حتى أننا نجد الرسول ﷺ يطلق الأسير ، إذا قام بتعليم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة ، وأمر الرسول ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لسان اليهود ، فتعلم زيد هذا بالفارسية من رسول كسرى ، وبالرومية حاجب النبى ، وبالحبشية من خادم النبى ، وبالقبطية من خادمه .

وهذا كان مبدأ تعلم العرب لغات غيرهم . ويروى ابن عساكر أنه كان لعبد الله بن الزبير مائة غلام ، يتكلم كل واحد منهم بلغة غير لغة الآخر ، فكان يكلم

---

(١) العلق — ١ — ٣ .

(٢) الزمر — ٩ .

(٣) رواه أبو داود ٣ / ٣٥٤ — والترمذى — ٧ / ٤٥١ .

(٤) رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن ٧ / ٤٠٥ — ٤٦ .

كل واحد منهم بلغته »[1] وهذا الموقف وهذه الطبيعة الإسلامية فى طلب العلم تختلف اختلافا كبيرا عما حدث فى عصر النهضة فى أوربا ، حيث وقفت الكنيسة موقف المتزمت من العلوم الإسلامية ، التى نقلت إلى اللاتينية . فكانت تحرم كتابات ابن رشد ، وتعتبره ملحدا ، ومن يعتنق أو يقرأ مذهبه من كبار الملحدين ، كما أحرقت القس جوردانوا بروتوا فى أحد الميادين العامة فى روما ؛ لاعتناقه مذهب الجوهر الفرد ، ولأقواله فى العلم بغير المفهوم الكنسى .

وبهذا المبدأ وبهذه التعاليم انطلق المسلمون يبحثون عن كل علم ، ويفتشون عن كل ثقافة ، وهم مأمورون بذلك من دينهم ، ومن تعاليم رسولهم ﷺ « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق الناس بها » ،[2] على أن العلم الذى فتش المسلمون عنه لم يكن قط من عناصر الثقافة والحضارة الإسلامية ، وإنما كانت علوم المادة وعلوم اللسان والعمران ، التى تمثل الهيكل المتداول بين الحضارات ، والظواهر التى تمثل الحاجيات الدنيوية ، والتجارب الإنسانية ، التى تحقق الرفاه فى الماديات ، وحتى هذه العلوم وجهها الإسلام توجيها آخر إلى غاية أخرى ، غير التى كانت فى عقول القائمين عليها ، والسائرين فى ركابها ، وجهها لخدمة أهدافه الإنسانية ، التى تنفع ولا تضر ، وتهدى ولا تضل ، حتى لا تشقى الإنسانية بعمل أيديها ، ونتاج أفكارها .

محاولات ربط الفكر الإسلامى بالتراث الإغريقى :

تجرى محاولات مستميتة من كثير من علماء الغرب ؛ ليثبتوا بغير دليل ولا برهان ، أن الفكر الإغريقى فى التشريع انتقل إلى الإسلام ، وأن التأملات الأولى لفقهاء المسلمين الأولين مليئة بالنظريات المقتبسة من القانون الرومانى ، باعتبار أن القانون الرومانى والتعاليم الإغريقية الفلسفية انتقلت إلى العرب ، أيام الفتح العربى ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل قالوا : « إن الوازع الدينى عند المسلمين ،

---

(١) الإسلام والحضارة العربية . كرد على ص ١٦٣ عن العقد الفريد وتاريخ دمشق لابن عساكر .

(٢) رواه الترمذى علم ــ ١٩ ، وابن ماجه زهد ــ ١٥ .

والإحساس الداخلى بالقيم الإنسانية ، وبما هو عدل وحق ، مأخوذ من الغير »[1]ولا ندرى فى الحقيقة مغالطة توازى هذه المغالطة ، فالعرب المسلمون عرفوا الوازع الدينى ، وأخذوه من الوحى ، لا من المرضى الممزقين بالمذاهب الهدامة ، والتسيب المزرى ، وأقاموا دولتهم على الحق وبالحق ، وطبقوه على نفوسهم ، وانساحوا به معلمين أولئك الذين هضموا الحقوق ، واستعبدوا الناس ، ونصبوا أنفسهم أربابا من دون الله سبحانه ، وليس يجدى فى هذا قول حاقد أو متجنى على التاريخ ، وعلى الحق ، وعلى المصلحين الرواد .

ويعترف هؤلاء الجناة بعدم حجية دعواهم على لسان الدكتور أوليرى . مُقَعِّد هذا الخلط نفسه ، حيث يقول : « يجب أن نعترف أننا ليس لدينا شواهد على أن التأملات الفلسفية واللاهوتية فى سورية فى زمن الدولة الأموية قد أثرت فى العرب ، حيث يبدو أن هذه الأمور لم تجذب إليها العرب يومئذ ، وأن بداية التأمل فى الفلسفة والتوحيد والبحث العلمى بدىء بها فى العراق ، وعلى الأخص فى البصرة والكوفة »[2].

ثم يستأنف الدكتور أوليرى أيضا ـــ رغم اعترافه المتكرر بعدم حجية مايقرر ـــ فيقول : « إن بعض فروع القانون الرومانى وصلت إلى العرب عن طريق اليهود ، وأكثر احتمالا : أن كل القوانين التى تتناول الخراج ، والعقود ، والرهن ، والميراث ، قد جاءت من القانون الذى كان سائدا فى سورية ومصر حين غزا العرب هذه البلاد . ثم يقول : « إن اللاهوت المسيحى قد أوحى إلى المسلمين استعمال لفظ « كلمة » ، التى ذكرها القرآن الكريم فى أصل عيسى فى الآية الكريمة : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ، ألقاها إلى مريم ، وروح منه ﴾[3]. ثم يستأنف مغالطته ، فيقول : إن الصفات التى يوصف بها الله تعالى قد انتحلها الإسلام من تعاليم أفلاطون »[4]، والذى يعجب له الإنسان أن يستمر هؤلاء

(١) انظر مسالك الثقافة لأوليرى . ترجمة الدكتور تمام حسان . طبع القاهرة ص ٢٠٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٠ .
(٣) النساء ـــ ١٧١ .
(٤) مسالك الثقافة ص ٢٠١ ، ٢٠٢ وأصول الحضارة العربية لناجى معروف ص ٤٢٤ .

المفترون — رغم تجردهم من أى حجة — على مايدعون ، بل ورغم قيام الحجج على عكس مايقولون ، أن يواصلوا تجريد المسلمين من كل فضل ، ومن أى أثارة من علم ، يحملهم على ذلك حقد عميق ، وحسد عجيب ، رغم أنهم يعلمون أن صفات الله فى القرآن نزلت فى مكة ، وقوانين الميراث وغيرها ظهرت وتليت فى القرآن قبل أى فتح لأى بلد أو اتصال بأى ثقافة ، وأن الفكر الإسلامى مختلف تمام الاختلاف عن كل مايدعون . ونحن بدورنا نحب أن نسأل : أى وازع دينى كان عند هؤلاء حتى يأخذه المسلمون ؟ أهو استعباد الناس ، والطبقية المقيتة ، واتخاذ الناس بعضهم لبعض أربابا من دون الله ، أم هو الفساد ، والرشوة ، والجنس ، والمذاهب الهدامة ؟ ولنسمع إلى مايقول « ليكى » فى كتاب « تاريخ الأخلاق فى أوربا » عن تلك الفترة : إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما فى أخلاق الناس ، واجتماعهم ، وكانت الدعارة ، والفجور ، والإخلاد إلى الترف ، والتساقط على الشهوات ، والتملق فى مجالس الملوك ، وأندية الأغنياء والأمراء ، والمسابقة فى زخارف اللباس والحلى والزينة ، فى حدتها وشدتها . وكانت الدنيا فى ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى — إن المدينة التى ظهر فيها أكبر الزهاد كانت أسبق المدن فى الخلاعة والفجور ، وقد اجتمع فى هذا العصر الفجور والوهم ، اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته . وقد ضعف رأى الجمهور ، حتى أصبح الناس لايحتفلون بسوء الأحدوثة ، والفضيحة بين الناس ، وكان الضمير الإنسانى ربما يخاف الدين ووعيده ، ولكنه أمن واطمأن ؛ لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عنه جميع أعمال الإنسان . لقد نفقت سوء المكر والخديعة والكذب .. إلى أن قال : « وكان الظلم والاعتداء والنسوة والخلاعة تؤدى إلى انحطاط فى حرية الفكر ، والحماسة القومية »[1] ونقول لهم بعد هذا : أهذا هو الوازع الدينى والخلقى ، وهذا هو القانون الذى أخذه المسلمون واقتبسوه أم ماذا ؟ وما قولكم فيما يقوله المؤرخ « كروبر » فى كتابه طبيعة الثقافة ص ٣٨٨ « إن الإسلام لايخضع للمقاييس التى يخضع لها غيره ، من الظواهر الروحية والاجتماعية ، إذ لم تكن له طفولة أو شباب ، بل انبعث

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة لسيد قطب ص ٦١ .

ظاهرة متكاملة غاية التكامل » [1]، ويقول المؤرخ «كريستوفر داسون فى كتابه قواعد الحركة فى تاريخ العالم ص ٢٥٧ : « إن الأوضاع العالمية تغيرت تغيرا مفاجئا عارما بفعل فرد واحد ظهر فى التاريخ ، هو محمد » [2].

إن الواقع والدراسة والإنصاف يقتضى أن نرد الأمر إلى نصابه والفضل إلى أصحابه ، ولكن لايعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه ، وإنما يحمل المتحاملون على التراث الإسلامى وعلى الحضارة الإسلامية لأسباب معينة ، ولكن الحقيقة التى لامراء فيها : أن هؤلاء كان دافعهم الأكيد على ما يلصقونه بالمسلمين أمور ، منها :

أولا : الحقد ، والحسد ، والبغى ، والعدوان ، وسلب كل خير عن غيرهم ، وإلصاق كل خير بهم ، أو بأصولهم وأصول حضارتهم .

ثانيا : جهلهم بطبيعة الإسلام ، وبمنهجه فى الحياة ، ورسالته الجامعة المحفوظة ، التى جاءت للعالمين ؛ لتحيى رسالة الأنبياء والمرسلين .

ثالثا : تصورهم الخاطىء للمسيحية ، وقياسهم الإسلام كدين على تلك التصورات المسيحية اللاهوتية .

رابعا : اضمحلال الشرق ، وضياع المسلمين ، وتخلفهم ، واستعمارهم ، جعل الكثيرين يستهين بهم وبتراثهم .

خامسا : جهل شعوبهم بالإسلام ، وجهل كثير من المسلمين بحقيقة دينهم ، وبما يحمل من ثقافة وحيوية .

أثر الفكر الإسلامى فى تلك الشعوب :

فتح الإسلام فارس والروم ومصر وأمصار أخرى كثيرة ، كانت أقدم مراكز الحضارة فى العالم بأسره ، ولكنها كانت فى حالة ركود ثقافي ؛ لسوء الأحوال

---

(١) الإسلام والحضارة الإنسانية عبد المنعم خفاجى ص ٢٦٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٥ .

الاقتصادية والاجتماعية والدينية ، ولقد استطاع الإسلام أن يصحح مسار تلك الشعوب ، وأن يفتح لها آفاقا جديدة ، بعد أن طال بها الركود ، فانطلقوا فى صناعة العمران من جديد ، ونهضوا بهمة مختلفة ، وعزيمة فتية ، وتعاليم فطرية سليمة ، رسمت للحياة مثلا أعلى ، يخالف المثل الذى كانت ترسمه تقاليد الجاهلية العربية أو الفارسية أو الرومية ، وذاب الناس فى بوتقة واحدة ، هى بوتقة الأخوة فى الله ، وانطلقوا أمة واحدة ، بكل قوة فى الفكر والملكات والفرص ، لم تحجز بينهم ألوان ، أو أجناس ، أو سلالات ، ولم يكبتهم خوف ، أو وجل ، أو ظلم ، أو أحقاد ، وهذه كانت بداية الانطلاق الحضارية الحقيقية للإنسان ، حيث تغير مفهومه للحياة ، وللحضارة ، وللإنسانية .

فرق بين مفهومين :

نأخذ مثلا فى الفرق بين المفهوم الحضارى عند المسلمين والتخلف الحضارى عند غير المسلمين فى ذلك الزمان ، فى قصة ترويها الشاهنامة عن كسرى أنوشروان ، وموقفه من أحد رعيته ، فتقول : « فى أحد حروبه ضد الروم طال أمد القتال ، ونفد مامعه من القوت والمال ، ولم يكن فى وسعه أن ينتظر حتى تأتيه الأموال من العاصمة ، فأوفد بزرجمهر إلى البلاد المجاورة ؛ ليجمع من أهلها ما يفى بحاجة الجيش السريعة من الأموال ، على أن يردها كسرى بعد الحرب . وكان فى أحد النواحى إسكافى ، عرض خدمته على رسول الملك ، وقدم له أربعة آلاف درهم . ولم يكن الإسكافى يطمع فى شىء نظير هذه الخدمة ، سوى أن يأذن له الملك بتعليم ابنه . فلما علم كسرى بما يطمح إليه الإسكافى رفض أن يحقق له أمنيته ، وأمرهم أن يردوا إليه أمواله ، وكانت حجته فى هذا : أن ابن الإسكافى لايرجى منه لو تعلم أى خير ، وتعلمه قد يتيح له الفرصة للتقدم والرقى ، فيتجاوز بذلك طبقته »[1]، وهو أمر لايسمح به النظام القائم وقتذاك . لأن العلم كان ميزة خاصة ، تنعم بها طبقة

---

(١) فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ـــ د : طه ندا ص ٣٣ ، فلسفة الحضارة الإسلامية ص ١١٧

خاصة ، وتحرم منها بقية الطبقات ، لوضاعتها فى نظرهم ، وعدم أحقيتها فى التقدم ، وإنما هى فى خدمة أسيادها وفقط .



المبحث الثالث
الجهد الإسلامى فى البعث الحضارى لتلك الشعوب

إذا ألقينا الضوء على الفكر الحضارى عند المسلمين ، نرى مايبهر الألباب ، ويستحق الإجلال والإكبار ، ويظهر الفرق واضحا جليا بين المفاهيم الصالحة والآسنة .

نزل القرآن وجاء العلم ، فلم يحجب عن سيد ولا عبد ، ولاعظيم ولا حقير ، ولا رفيع أو سوقة ، وإنما كان كالشمس والهواء لكل مستنشق ومستدفىء ، واغترف الكل من العلم ، الموالى قبل السادة ، والعبيد قبل الأحرار ، وانطلقت الصحابة فى الأمصار ، تعلم الناس العلم ، فانطلق عبد الله بن عباس إلى مكة يعلم الناس التفسير والحديث والفقه والأدب فى بيت الله الحرام ، وجاء بعده من مدرسته من التابعين مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاووس بن كيسان ، واستمرت هذه المدرسة تتلقى العلم فيها طبقة عن طبقة . وأما مدرسة المدينة فكان فيها على ، وعمر ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، ومن بعدهم : سعيد بن المسيب ، وعروة ، والزبير بن العوام ، وغيرهم . ونزل العراق بالكوفة على رضى الله عنه ، وعبد الله ابن مسعود ، ثم جاء علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة بن الحارث ، وعمرو بن شرحبيل . ونزل فى البصرة عدد من الصحابة منهم أبو موسى الأشعرى ، وأنس بن مالك ، ثم جاء بعدهم الحسن البصرى ، وابن سيرين . ونزل فى مصر اعدد من الصحابة أشهرهم : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وجاء من بعده يزيد بن حبيب ، والليث بن سعد وغيرهم . وأما فى الشام فقد بعث عمر بن الخطاب لهم من

يعلمهم ، ويفقههم من الصحابة ، منهم معاذ بن جبل ، وعبادة ، وأبا الدرداء، وعبد الرحمن بن غنم ، ثم كان بعدهم من التابعين أبو إدريس الخولانى ، ثم مكحول الدمشقى ، وعمر بن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوه ، ثم جاء بعدهم الأوزاعى وغيره من الفقهاء والمحدثين والأدباء[1] . وعملت هذه المدارس وغيرها فى البلاد نهضة علمية جامعة .

العلم للجميع :

كان كبار الفقهاء وصغارهم لايأخذون على تعليم العلم أجرا ، حتى ولو كانوا فقراء لايجدون مايقتاتون به ، وقد كان من هؤلاء أبو العباس الأصم ، وهو من كبار علماء خراسان ، لايأخذ على العلم أجرا رغم فقره ، إنما كان يورق ويأكل من كسب يده ، ورفض الحارث بن محمد أن يأخذ الرزق الذى رتبه له عمر بن عبد العزيز ، حينما أرسله ليعلم الناس فى البادية ، وقال :« ماكنت لآخذ على علم علمنيه الله أجرا »[2] وكان تعليم الأطفال ــ كل الأطفال ــ بدون أجر ، وكان العلماء يذهبون فى رحلات طويلة لجمع الأحاديث والعلم ، وتحصيل شتى العلوم ، ويتكلفون فى ذلك مبالغ باهظة ، ويأتون ليعلموا الناس العلم بدون مقابل ، ابتغاء ثواب الله تعالى ، روى أبو بكر الجوزى فقال : « أنفقت فى الحديث مائة ألف درهم ، وما كسبت به درهما واحدا »[3] . وكان إجلال العلم سنة المسلمين وسنة خلفائهم ، واحترام العلماء وتقديرهم عرف وعقيدة .

---

(١) انظر مقدمات ومباحث فى حضارة العرب والإسلام لعمر كحالة ص ١٣٦ إلى ١٥٥ ط الحجاز بدمشق .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٦٧ ، تاريخ التربية الإسلامية للدكتور أحمد شلبى ص ٢٢٤ ط النهضة العربية .

(٣) طبقات الشافعية ٢ / ١٦٩ ، تاريخ التربية الإسلامية أحمد شلبى ص ٢٣٥ .

العلم قبل الملك :

قال أبو الأسود الدؤلى : « ليس شىء أعز من العلم : الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك »[1] وقد قيل لأحد الخلفاء : قد حقق الله لك كل مرغوب ومأرب ، فهل بقيت لك لذة أو بغية لم تنلها ؟ فقال نعم : بقيت لذة واحدة ، هى أعلى من جميع مانلته ، وأفخم من كل ماباشرته ، بل لم تقرب منها — فضلا عن أن تساويها — لذة من لذات الدنيا ، ولا مرتبة من مراتبها ، ولا الخلافة ، وهى أن أجلس مجلسا كمجلس مشايخ الحديث ، فأملى وأشرح وأفيد[2] ، وكان الملك الأفضل ينزل من قصره فى قلعة دمشق ، يتأبط كتابه ، ويأتى دار أستاذه الكندى ، فى درب العجمى ، وربما تأخر الدرس الذى يتقدم درسه ، فينتظر إلى أن تأتيه نوبته »[3] أما عن احترام العلماء — رغم حالهم وأحسابهم — فقد كان آية فى الود والتقدير والتبجيل ، « يحكى أن أبا معاوية العالم الأعمى كان يتغذى مرة مع الرشيد ، فلما انتهى الغذاء ، وأراد العالم أن يغسل يديه على عادة المسلمين ، قدم له شخص ما الطشت والإبريق ، وصب عليه ، ولما انتهى العالم الأعمى من غسل يده شكر ذلك الذى أولاه هذه العناية ، وصب عليه الماء ، ولكنه اكتشف أن الذى فعل ذلك هو الرشيد نفسه ، على كثرة خدمه ، فقال العالم : يا أمير المؤمنين ، إنى أعتقد أنك فعلت هذا تكريما للعلم ، فأجابه الرشيد : هو كذلك »[4].

حجم النهضة العلمية :

انتشر العلم ، وتفتحت الأذهان ، وأسست المدارس العلمية المختلفة ؛ لتسهم فى تعليم الأمة . وأحب أن ألحق جدولا توضيحيا لبعض المدارس المختلفة فى بعض الأمصار ؛ ليكون دليلا على مانقول .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

(٢) تاريخ التربية الإسلامية أحمد شلبى ص ٢٢٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣١ .

اسم المـدرس	التاريخ الهجرى للوفاة	المدرسة النظامية التى كان يعمل بها	المرجع الذى ذكر ذلك
أبو إسحاق الشيرازى	٤٧٥	بغداد	ابن خلكان جـ ١ ص٦
أبو البركات الأنبارى	٥٧٧	بغداد	ابن خلكان ١ /٣٩٤ ، ٣٩٥
أبو الخير اسماعيل القزوينى	٥٨١	بغداد	ابن الأثير ١١ /٣٤٤
أبو الفتح بن برهان	٥١٨	بغداد	طبقات الشافعية ٤ / ٤٢
أبو القاسم العلوى الدبوسى	٤٨٢	بغداد	ابن الأثير ١٠ / ٦٧
أبو المناقب الزيخانى	٦٥٦	بغداد	طبقات الشافعية ٥ / ١٥٤
الشيخ أبو النجيب	٥٦٣	بغداد	ابن الأثير ١١ / ١٠٠
أبو بكر الشاسى	٤٨٥	عرات	تاريخ الوفاة ذكر تبعا للسبكى فى طبقات الشافعية ٣ / ٧٩ ـ ٨٠ ، ولابن العمـاد فى شذرات الذهب ٣ / ٣٧٥
أبو بكر محمد بن ثابت الخوجندى	٤٨٣	أصفهان	ابن الأثير ١٠ / ٢٥١
أبو حامد الغزالى	٥٠٥	بغداد ـ نيسابور	مقدمة ـ كتاب الإحياء
أبو زكريا يحيى الخطيب البزيزى	٥٠٢	بغداد	معجم الأدباء ٧ / ٢٨٧
أبو سعيد أحمد بن أبى بكر	٥٥١	أصفهان	ابن الأثير ١١ / ٣٥

اسم المـــدرس	التاريخ الهجرى للوفاة	المدرسة النظامية التى كان يعمل بها	المرجع الذى ذكر ذلك
أبو سعيد البزار	٥٢٠	بغداد	طبقات الشافعية ٤ / ٣٢٣
أبو طالب المبارك بن المبارك	٥٨٥	بغداد	معجم الأدباء ٦ / ٢٣٠
أبو عبد الله الطبرى	٤٩٥	بغداد	ابن الأثير ١٠ / ١٢٣
أبو محمد عبد الوهاب الشيرازى	٥٠٠	بغداد	ابن الأثير ١٠ / ١٢٣
أبو نصر الصباغ	٤٧٧	بغداد	تاريخ آل ــ سلجوق ص ٧٥
أحمد الغزالى	٥٢٠	بغداد	ابن خلكان ١ / ٣٩
أحمد الميهنى	٥٢٧	مرو	طبقات الشافعية ٤ / ٢٠٣
الكيا اهرسى	٥٠٤	بغداد	كشف الظنون ١ / ٤٥
إمام الحرمين أبو المعالى يوسف الجوينى	٤٧٨	نيسابور	ابن خلكان ١ / ٤٧
بهاء الدين بن شداد	٦٣٢	بغداد	Hittip. 411
رضى الدين القزوينى	٥٧٥	بغداد	ابن جبير ٢١٩
شرف الدين الشهرستانى	٦٩١	معبد ببغداد	تاريخ علماء بغداد ص ٣٧
شرف الدين يوسف الدمشقى	٥٥٧	بغداد	ابن الأثير ١١ /١٧٤
شمس الدين الكيشى	٦٦٥	بغداد	الغزاوى ١ / ٢٦٣
عبد الله بن مأمون	٤٩٨	بغداد	ابن الأثير ١٠ / ٩٦

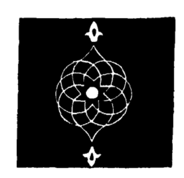
اسم المدرس	التاريخ الهجرى للوفاة	المدرسة النظامية التى كان يعمل بها	المرجع الذى ذكر ذلك
على بن محمد بن على الفصيحى	٥١٦	بغداد	معجم الأدباء ٥ / ٤١٥
مجد الدين أبو على يحيى بن الربيع	٦٠٦	بغداد	ابن الأثير ١١ / ٣٤٤
مجد الدين بن جعفر	٦٨٢	بغداد	
محمد بن ثابت الشافعى	٤٨٣	أصفهان	سعيد نفيس ص٢
محمد بن على بن حامد	٤٩٥	عرات	ابن قاضى شهبة ١٦٥أ (خط)
محمد بن يحيى	٥٤٨	نيسابور	بادجار « صحيفة فارسية »
محيى الدين أبو حامد	٥٨٦	الموصل	الدكتور داود حلبى ــ مخطوط الموصل ص ١٠
معين الدين سعيد بن الرزاز	٥٣٨	بغداد	الروضتين ١ / ١٨٥ وشذرات الذهب ٤ / ١٣٢
موهوب بن أحمد الجواليقى	٥٣٩	بغداد	معجم الأدباء ٧ / ١٩٨
ناهد الدين الفاروق	٦٧٢	بغداد	الغزاوى ١ / ٢٧٥
نجم الدين الباذرائى	٦٥٥	بغداد	النعيمى ١ / ٢٠٥
يحيى بن القاسم	٦١٦	بغداد	معجم الأدباء ٧ / ٢٨٩
يوسف الدمشقى	٥٦٣	خورستان	ابن الأثير ١١ / ٢١٩

هذا مثل من النهضة العلمية فى بغداد وما حولها وقد قامت نهضات علمية مماثلة فى جميع الأصقاع الإسلامية المفتوحة ، فقامت فى المغرب العربى أول جامعة علمية فى العالم ، بناها المسلمون سنة ٢٤٥ هـ ، ففى مدينة فاس أقيم مسجد كبير ، وكباقى المساجد لم يخصص للعبادة فقط ، بل كان داراً للعلم ، يتلقى فيه الطلبة من كافة الأنواع وشتى البلاد مختلف العلوم ، التى لم تقتصر على القرآن الكريم ، وعلى الحديث والتفسير والفقه ، وإنما كان يدرس فيها علوم الرياضة ، والفلك ، والجغرافيا ، وقد أطلق على هذا المسجد اسم جامعة القرويين ، وهو من أول الجامعات الإسلامية ، التى كانت تدرس فيها مختلف العلوم لكافة المراحل ، بل إنه أول معهد علمى أقيم فيه مساكن للطلبة الغرباء ، وفى ذلك يقول « ولفان » أحد رجال الغرب :ـــ إن جامعة القرويين تعتبر أول مدرسة فى الدنيا ، وإن أقدم جامعة فى العالم ليست فى أوربا ، كما كان يظن العالم ، بل فى أفريقيا فى مدينة « فاس » عاصمة المغرب ، وقد تخرج فى هذه الجامعة الأم عشرات من الطلبة الأوربيين من غير المسلمين »[(١)] ، كما كانت مثل هذه النهضة فى مصر وفى مساجدها ، وعلى رأسهم الجامع الأزهر ، حيث كان المنارة المشعة للعلم والعرفان ،وهو غنى عن التعريف والبيان ، وغير ذلك فالحضارة الإسلامية قد استطاعت فرض الأسلوب العلمى ، وإشاعة الفكر التأملى المنطقى ، وأسست أخلاقا ، وعادت ، وأعرافا جديدة ، أثمر فى ظلها البحث العلمى ، ونهضت فى جنباتها الثقافة ، فالحق هو هدف الجميع ، والجدل والمراء لا يأتى بخير ، والتأمل والوصول إلى حكمة الله فى الأشياء وإلى ما أودع الله فى الكائنات من أسرار ، مطلب إسلامى ، والحجة والدليل والشاهد والتجربة ، علامة الصحة والثقة والطمأنينة ، واستعمال العقل وشحذ الفكر أداة من أدوات الوصول إلى الحقيقة ، ومصباح من قناديل المعرفة ، والعقيدة المبنية على المعرفة الصحيحة ، والبحث السليم ، والفكر الواعى ؛ محضوض عليها فى القرآن والسنة .

كان لكل هذا أثره فى إرجاع الإنسان إلى طبيعته وفطرته ، كما كان له فعله فى

(١) الإسلام والثقافة العربية عبد الفتاح مقلد ص ٢١٠ .

تعرف الإنسان من جديد على خصائصه العليا ، التى منحه الله إياها ووهبها له خالقه سبحانه ، فقامت حضارة جديدة ، بمعايير مختلفة ، ومفاهيم سليمة مستقيمة ، استطاعت أن تنتشل البشرية من وهدتها وعبوديتها إلى مكانتها التى أرادها الله لها ، وحريتها التى منحها الله إياها .



المبحث الرابع
اتصال الحضارة الإسلامية بتراث الحضارات

نعلم ويعلم كل منصف أن الفكر الإسلامى قام على النظر ، والتفكير ، وإعلاء أمر العقل ، ورفع شأنه ، وإزالة العوائق من طريقه ، حتى يلتقى مع الفطرة ، ويتصل بالوحى والحقيقة واليقين ، وجاء القرآن الكريم فسار بالفكر البشرى قدما إلى الأمام ، معتمدا على فطرة الإنسان ولطيفته الربانية التى أودعها الله إياه ، والذى يدرس قواعد الإسلام وأحكامه وأصوله وآدابه وشرائعه ، يرى أنها تتطابق مع مقتضيات الفطرة البشرية ، ومع قوانين العقل وإدراكاته وأنواره ، ولهذا حرص الإسلام على تزكية العقل ، وإفساح المجال أمامه ؛ ليكون أكثر قدرة على استيعاب الحقائق ، وإدراك الخلق ، وتفهم ماأودع الله فيها من أسرار ، ولهذا تكرر لفظ العلم ومشتقاته فى القرآن الكريم حوالى (٧٦٥ مرة) ، كما حث القرآن على النظر فيما يتعلمه الإنسان من آيات كثيرة ، ولهذا أثبت البحث والتقدم الفكرى أن القرآن دعا صراحة إلى دراسة مختلف العلوم ، وأنه حوى أصول هذه الدراسات فى مختلف قطاعات العلم ، وبلغ عدد الآيات الكونية فى القرآن حوالى (٧٥٠ آية) ، تشتمل على مختلف العلوم ، مثل علم الفلك ، والطبيعة ، والجغرافيا ، والحيوان ، والصحة الغذائية ، وخلق الإنسان ، وعلم الطب النفسى ، وعلم الوراثة ، والكائنات الحية ، وما وراء الطبيعة وعلم الإشعاع الذرى ، كما تكلم عن الكواكب ، والزمن ، والحساب ، فى كثير من الآيات العلمية التى يزخر بها القرآن الكريم . كما دعا الرسول ﷺ إلى العلم وإلى التعلم والأحاديث فى ذلك كثيرة قدمنا طرفا منها قبل ذلك .

ولقد استجاب المسلمون لدعوة ربهم وأحاديث نبيهم ، فأقبلوا على العلم ،

وتعلموا القراءة والكتابة ؛ لينشروا دينهم ولغتهم ، وتعلموا لغات أعدائهم ؛ ليأمنوا مكرهم وشرهم ، وبحثوا عن أى علم يفيدهم وينفعهم ؛ لأنهم يعلمون أن هذا جهاد فى سبيل البشرية كالجهاد بالسيف لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، حيث يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء يوم القيامة ، ومن هنا انطلق المسلمون يبحثون عن تراث الأقدمين ، وعن علمهم فى الأمم اللاهية ، التى لم تستطع الاستفادة أو الإفادة منه . ويجب أن يعلم أن العلوم التى اتصل بها المسلمون واستفادوا منها ، كانت بعيدة عن العقائد والعبادات وعلوم الشريعة ؛ لأن هذه كانت لها مصادرها الموثقة عند المسلمين ، التى لا تقبل الإضافة أو التبديل والتغيير ، وإنما هى العلوم التى تدخل تحت قول الرسول ﷺ « أنتم أعلم بشئون دنياكم » وانطلق المسلمون يأخذون كل مفيد ، ويتعلمون كل نافع ، فترجموا كتب الأقدمين فى الطب ، والهندسة ، والكمياء ، والفلك ، والحكمة ، والجغرافيا ، والحيوان ، والنباتات . وكانت معرفتهم معرفة تمحيص ، وليست معرفة تبعية أو تقليد ، وإنما كانت المعارف المأخوذة من غيرهم تعرض على العقل والتجربة والاختبار والتمحيص ، يعدَّل منها ما يقبل التعديل ، ويقوَّم منها ما يحتاج إلى تقويم ، ويضاف إليها ماتحتاجه من إضافات ، حتى تكونت عندهم ملكة ودربة وثقافة ، مكنتهم — فيما بعد — من تذوق العلوم المختلفة ، والنبوغ فيها ، واكتشاف العديد من فروعها .

وكان أول من عمل بالترجمة فى العصر الأموى خالد بن يزيد بن معاوية الأموى المتوفى سنة ٨٥ هـ ، فبعد أن غلبه على الخلافة مروان بن الحكم ، انصرف خالد إلى العلوم ، ولاسيما الكمياء ، فاستقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية ، لتعليم الكمياء ، ونقلها إلى العربية ، منهم « اسطيفان القديم » وكانت تلك أول ترجمة من لغة غير عربية إلى عربية فى الإسلام ، وتوالت الترجمة بعد ذلك ، إلى أن جاء العصر العباسى ، فالتجأ للترجمة فى بغداد كثير من علماء الأعاجم ، فقربهم الخلفاء ، واستعملوهم فى ترجمة الكتب ، وأغدقوا عليهم الأموال الطائلة ، وكان أول من شجع الترجمة فى الدولة العباسية أبو جعفر المنصور ، الذى دعا إليه جماعة من علماء الطب والرياضة والفلسفة ، فترجموا له كتبا فى فنونهم ، وترجمت فى عهده بعض

كتب أبقراط الطبيب اليونانى ، وكتاب بطليموس فى اللحون الثمانية . كما ترجم ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفارسية ، وهو كتاب هندى الأصل ، نقل إلى الفارسية ، ومنها إلى العربية ، كما ترجم ابن المقفع كتاب المقولات ، وتحليل القياس لأرسطو ، وكتاب إيساغوجى ، ثم جاء عصر المأمون ، فازدهرت فيه الترجمة ، وبلغت شأوا بعيدا وسنعرض لذلك فى فصول أخرى إن شاء الله تعالى[1].



---

(١) انظر مقدمات ومباحث حضارة العرب والإسلام — لكحالة ص ١٩٤ ، ١٩٥ ط الحجاز دمشق .

الفصل الثانى

الدور الحضارى الذى اضطلع به المسلمون

من يريد أن يعرف الدور الذى اضطلع به المسلمون فى إنارة العالم ، وبعث الهمم ، وإحياء الضمائر ، وإزكاء العقل ، فليقرأ القرآن الكريم فى بيان ذلك البعث البشرى : ﴿ اسْتَجِيبُوا للهِ وللرسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[1] وتعبير القرآن بالإحياء فى الاستجابة للفكر الإسلامى يوحى بأن النقلة الإسلامية لهذه الشعوب الشاردة على وجه الأرض كانت كبيرة وعميقة وجوهرية ، بحيث اعتبر المقابل لها مواتاً وضياعاً ، ويزيد القرآن ذلك المعنى وضوحا ، حيث يصف أولئك المعرضين بأنهم فقدوا صفات البشرية ، ومميزات الآدمية ، فيقول ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾[2]. ثم يعقد القرآن مقارنة واضحة ، ويضرب الأمثال التوضيحية ، لبيان الفرق بين الصنفين : المؤمن وغيره ، فيقول ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ ، وَلا الظُّلُمَاتُ ولا النُّورُ ، ولا الظِّلُّ وَلا الحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِى الأحياء ولا الأَمْواتُ ، إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يشاءُ ، وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فى القُبُورِ ﴾[3]

إن دعوة الإسلام فى الحقيقة دعوة لإحياء القلوب والعقول ، وإطلاقها من أوهام الجهل والخرافة ، ومن ضغط الوهم والأسطورة ، ومن الخضوع المذل والعبودية القاهرة لغير الله سبحانه ، كما أن الإسلام دعوة إلى تحرير الإنسان وتكريمه ، فى ظل أخوة عامة ، وشريعة ربانية كريمة ، كما يدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم ، والثقة بدينهم وبربهم ، والانطلاق فى الأرض كلها لتحرير الإنسان بجملته . والحقيقة أن مجمل ما يدعو إليه الإسلام هو الدعوة إلى الحياة بكل معانيها ؛

---

(١) الأنفال ـــ ٢٤ .

(٢) الفرقان ـــ ٤٤ .

(٣) فاطر ـــ ٢٢ .

لأنه منهج حياة كاملة ، لا مجرد عقيدة مستترة . منهج واقعى تنمو الحياة فى ظله وتترق . ومن ثم فهو دعوة إلى الحياة فى كل صورها وأشكالها ومجالاتها ودلالاتها ، ويحسن بنا ـــ لبيان الدور الحضارى الذى قام به المسلمون ـــ أن نلقى الضوء على تلك الخطوات التى انطلق منها شعاع المد الإسلامى الحضارى .



المبحث الأول
جهود المسلمين فى إحياء التراث العلمى للحضارات القديمة

بعد أن أشرقت شمس الإسلام على الإنسانية ، وحمل المسلمون التعاليم الربانية لإحياء الإنسان بتعاليم السماء ، روحيا ، وعقليا ، ونفسيا ؛ ليكتمل وجوده الجسدى والروحى ، ويعيش الحياة بقدراته مجتمعة ، حثهم الإسلام على النظر ، والتدبر ، والعلم ، والفهم ، والاستفادة من كل نافع ، وطلب كل مفيد ، فانطلق المسلمون ينظرون فى كل شىء ، ويبحثون فى كل فج ، ويستفيدون بكل حديث وقديم ، ينقبون عن كل علم ، ويسيرون وراء كل حكمة ، يأخذون العبرة من الماضى ، وينطلقون للمستقبل يستفيدون من القديم ويبنون الجديد . وكانت لهم جولات وصولات فى كل ناحية من نواحى الحياة ، فى العلم ، فى الحكمة ، فى الأخلاق ، فى الفلسفة ، فى الطب ، فى الهندسة ، فى الجغرافيا ، فى الفلك ، فى الصناعة ، فى الكيمياء ، فى الصيدلة ، فى الزراعة ، فى التاريخ ، فى القصص ، فى اللغة ، فى الحيوان ، فى الفيزياء ، فى الأحجار والمعادن .

ولم يدخر المسلمون جهدا فى البحث عن تراث الأمم السابقة فى العلوم المختلفة ، رغم صعوبة ذلك ، لتقادم العهد بها ، وعدم معرفة قدرها عند مقتنيها ، وإهمالها ، وكثرة الحروب والفتن . وكلما طالت الشقة فى الزمان بين عصر المصنف وعصر الباحث زادت الصعوبة وتضاعف الجهد .

« فقد قضى البيرونى أكثر من أربعين سنة ، وهو يفتش عبثا عن نسخة من كتاب مانى « سفر الأسرار » ، إلى أن وفق أخيرا فى الحصول عليها »[1] ومن ذلك ما

---

(١) مناهج علماء المسلمين فى البحث العلمى للدكتور فرانتز روزنتال ترجمة أنيس فريحة ص ٥١ .

قام به حنين بن إسحاق فى البحث عن كتاب « جالينوس فى النبض ، الذى ناقض فيه أرخيجانس » وقيل : إنه موجود فى حلب ، ولكن الجهود فى البحث عنه لم تجد نفعا ، رغم طول المدة ، وظل يفتش عن كتاب « البرهان » ، وشملت جهوده العراق وسورية وفلسطين ومصر ، بما فى ذلك مدينة الأسكندرية ، غير أن تلك الجهود لم تجد أيضا نفعا ، ثم واصل البحث إلى أن وجد مخطوطة غير كاملة ، عثر عليها فى دمشق وقد توصل حنين إلى إكمال الأجزاء الباقية من المخطوطات اليونانية بعد جهد »[1]

« وقد نقلت الروايات أن أبا بكر الإخشيد رغب فى الحصول على بعض الكتب ، ومنها كتاب « الفرق بين النبى والمتنبى » ، وعندما خرج حاجا إلى مكة استأجر مناديا ينادى فى عرفات ، يسأل الناس عن هذا الكتاب ، ولكنه بعد طول العناء لم يعثر له على أثر ، بالرغم من أن الحشود فى الحج كانت هائلة ويجتمع فيها المسلمون من كل بلد وقطر ، على اختلاف مشاربهم الثقافية والعلمية »[2].

وقد اضطلع المسلمون رغم ما عانوه من جهد بنشر الثقافة اليونانية القديمة ، والفارسية والهندية وغيرها من الثقافات ، التى نما إلى علمهم أنها موجودة فى أى صقع أو قطر ، رغم اختلاف اللغات ، وتعدد اللهجات ، وصعوبة المواصلات . ولكنهم قاموا بذلك بأمانة وشرف وحرص ورجولة ، وكان لهم فى هذا النقل آداب وقوانين ، منها التثبت من نسبة الشيء إلى صاحبه ، وعدم الزيادة أو النقص فى النص ، أو تعديله إلا بإذن صاحبه ، ومراجعة الترجمة والتثبت من صحة النقل ، إلى غير ذلك من الشروط التى تحمل شرف العلم وأمانة تحمله ، وقد وضعت فى ذلك رسائل عدة ، كانت مقياسا لكل طالب علم . وكانت جهود العرب هذه ، سببا فى بعث الحياة العقلية والثقافية والنفسية للعالم . يقول المسيو ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون »[3] ، ويقول الفيلسوف نيتشه الألمانى : « حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة ، ثم حرمتنا بعد ذلك من

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٣ .

(٣) الإسلام والحضارة الإنسانية لعبد المنعم خفاجى ص ١٦٥ .

الإسلام » (١).

وتقول الدكتورة سيجريد هونكة : « لقد عرفت أوربا تراث العالم القديم عن طريق العرب فقط ، فترجمة العرب للمخطوطات اليونانية ، والشروح التى وضعها العرب عليها ، والكتب التى ألفها العرب ، كل هذه كانت العامل القوى فى النهضة العقلية الجرمانية ، وفى تغذيتها ودفعها إلى الحركة العلمية دفعا » (٢).

وعلى هذا ، فيجب أن نقدم بعض الشواهد بين يدى الموضوع دلالة على تلك الجهود العلمية ، التى اطلع بها المسلمون لإحياء التراث الحضارى القديم . وقد أحصينا طرفا من ذلك ، يشتمل على أسماء بعض المشاهير فى الترجمة ، وبعض الكتب التى ترجموها ، واشتركوا فى إظهارها ونقلها إلى العربية .



(١) المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٢) شمس الله على الغرب سيجريد هونكه ص ١٢١ .

اسم الناقل	عهده	اسم الكتاب أو نوعه
آل ثابت الحرانى	العباسيون	نقلوا إلى العربية كثيرا من الكتب فى الطب والفلسفة
آل مار سرجويه	العباسيون	نقل إلى العربية كتاب أهرون ، كان ذلك فى أيام دولة بنى أمية ، كان طبيبا له كتاب فى الغذاء ، وكتاب فى العين — المرجع — عيون الأنباء فى طبقات الأطباء
آل نوبخت ، الفضل بن نوبخت — الحسن بن نوبخت	المأمون والرشيد	عملوا فى خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، ونقل من الفارسى إلى العربى . الفهرست ٣٩٩
إبراهيم بن الصلت	المنصور	كان متوسطا فى التنقل ، يلحق بسرجيس الرأسى — عيون الأنباء ١ / ٢٠٥
إبراهيم بن عبد الله		
ابن أبى الحريش	المأمون	كان فى خزانة الحكمة
ابن أبى رابطة	المأمون	من النقلة إلى العربية
ابن شهدى الكرخى	المأمون	نقل من السريانية كتاب الأجنة لبقراط
أبو بشر متى بن يونس	المأمون	من النقلة فى الطب
أبو زكريا يحيى بن البطريق	المأمون	من النقلة فى العلوم
أبو زكريا بن يحيى بن عدى التكريتى	المأمون	عمل مترجما فى بيت الحكمة نقل من السريانية
أبو زكريا يوحنا بن ماسويه	الرشيد	ترجمة الكتب الطبية للرشيد — القفطى ص ٣٨٠

اسم الناقل	عهده	اسم الكتاب أو نوعه
ـو سهل الفضل بن نوبخت		كان يعمل فى خزانة الحكمة للرشيد
ـو عمر يوحنا بن يوسف	هارون	نقل كتاب أفلاطون فى أدب الصبيان
ـو نصروى بن يعقوب	هارون	من النقلة
ـبو نوح بن الصلت	هارون	من النقلة فى الفلسفة
ـحمد بن يوسف المصرى	هارون	ترجم لبطليموس كتاب جغرافيا المعمورة ، من نقلة كتب اليونان — ابن أبى أصيبعة ١ / ٢٠٤
ـسحاق بن حنين	المأمون	ترجم للمأمون كتب الطب والفلسفة .
ـسطاث وجيرون بن رابطة	المأمون	من النقلة فى الطب
ـصطفن بن باسيل	المتوكل	كتب لجيلانوس فى الطب ودفروديس اليونانى — عيون الأنباء ٣٠٤
ـاصطفن القديم	خالد بن يزيد	كتب الصفة وغيرها ، وكتاب الحشائش لديسقوريدس
الحجاج بن مطر	المأمون	المجسطى وأقليدس من بعثة بلاد الروم — عيون الأنباء ٣٠٤
الحجاج بن يوسف	المأمون	أحد البعثة العلمية إلى ملك الروم ، لانتقاء الكتب ، ونقلها إلى العربية ، وأصول الهندسة لإقليدس
الكندى — يعقوب بن إسحاق	العباسيون	كان يراجع ما ترجمه العاملون فى الترجمة — فى بيت الحكمة — الفهرست ص ٣٨٣ ، ابن أبى أصيبعة ٢ / ٢٧٧ ، القفطى ص ٣٦١ ، والبرى علوم اليونان ص ٢٦٠

اسم الناقل	عهده	اسم الكتاب أو نوعه
أيوب بن القاسم الرق		كتاب إيساغوجى
أيوب وسمعان	محمد بن خالد بن يحيى	فسر زيج بطليموس
باسيل المطران	المأمون	نقل من اليونان إلى العربية ـــ عيون الأنباء ١/ ٢٠٤
تزارى ومسيون	العباسيون	مترجم إلى العربية فى الفنون
تررس السنقل	العباسيون	مترجم إلى العربية
تيوفلى شملى	العباسيون	مترجم العربية
ثابت بن قرة الحرانى	المعتضد	كتاب الحجة المنسوبة لسقراط ، وإبطال الحركة ، أصول الهندسة لمنالاوس
ثابت بن قمع	المعتضد	مترجم فى الفلك وغيره
جريس بن بختيشوع وأولاده	المنصور	ترجم كتب أبوقراط ، وكتاب بطليموس فى اللحون الثمانية ، وغيره من كتب الهندسة والمنطق ـــ الفهرست ٤٢٦
حبيب بن بهريز مطران	المأمون	فسر للمأمون عدة كتب .
حبيش بن قره	الرشيد	شارك فى النقل من كتب الهندسة .
حبيش الأغسم الدمشقى	المأمون	الفهرست ٣٩٨ ـــ كتاب الزيج المأمونى
حنين بن إسحق وأولاده	المأمون ـــ ترجم عشرين كتابا لجيلانوس	رئيس المترجمين فى عهده ، ورئيس البعثة إلى ملك الروم ، لجمع الكتب . ترجم ٧٢ مؤلفا ـــ منهم كتاب الفرق لجيلانوس . وطب العيون ـــ عيون الأنباء ١ / ٢٠٠ ، القفطى ص ١٧١

اسم الناقل	عهده	اسم الكتاب أو نوعه
داريع الراهب		مترجم إلى العربية فى الفلسفة والفنون
دار يشوع	إسحق بن سليمان	مترجم إلى العربية فى الطب والفنون
ذربى بن مانجوه الناعمى الحمصى	العباسيون	نقل كتب الطب وغيرها من اللسان اليونانى ــ عيون الأنباء ١ / ٢٠٤
سالم « أبا العلاء »	كتاب هشام بن عبد الملك	رسائل أرسطاليس
سعيد بن هارون الكاتب	المأمون	بيت الحكمة ــ ترجم فى الفلسفة
سلام الإبراشى	البرامكة	السماع الطبيعى
سلم	المأمون	صاحب بيت الحكمة ــ ينقل من الفارسية إلى العربية
سهل بن هارون	المأمون	كاتب ومترجم فى بيت الحكمة
صلبيا وأيوب الرهاوى	المأمون	كتاب المقولات وتحليل القياس لأرسطو ، إيساغوجى
عبد الله بن المقفع	العباسيون	ترجم من الهندية ومن اليونانية كثيرا من الكتب
عبد المسيح عبد الله الحمصى	المأمون	كتاب ــ المواليد ــ التزويج ــ الهيلاج ــ ابتداء الأعمال لذورثيوس

اسم الناقل	عهده	اسم الكتاب أو نوعه
علان الوراق الشعرى	الرشيد والمأمون	ينسخ فى بيت الحكمة
عمر بن فرخان الطبرى	العباسيون	ترجم إلى العربية
عيسى بن أسيد النصرانى	المعتضد	ناقل من السريانية إلى العربية ـــ كتاب جوابات ثابت لمسائل عيسى
عيسى بن نوح	العباسيون	ترجم فى الفلسفة والطب
عيسى بن يحيى الدمشقى بن قرة	الرشيد	نقل من اليونانية إلى العربية ـــ عيون الأنباء ١ / ٢٠٤
قسط بن لوقا البعلبكى	المأمون	من نقلة كتب اليونان إلى العربية ، ومراجعة المجسطى لإقليدس ـــ عيون الأنباء ٢٠٤
قويرى واسمه إبراهيم ويكنى أبا اسحق		نقل إلى العربية من اليونانية فى الطب
محمد بن موسى الخوارزمى	المأمون	رئيس بيت الحكمة فى زمن المأمون
موسى بن خالد	المأمون	نقل كتبا كثيرة من الستة عشر لجيلانوس ، عيون الأنباء ٢٠٤
مرلاخس هلال بن أبى هلال الحمصى		كتاب المخروطات لإبلونيوس . وغيره من الكتب ـــ عيون الأنباء ٢٠٤
هيا بثيون		نقل كثيرا من الكتب إلى العربية
يحيى بن أبى منصور الموصلى	المأمون	يعمل فى بيت الحكمة ، أحد الرصاد المشهورين

اسم الناقل	عهده	اسم الكتاب أو نوعه
يحيى بن عدى		مترجم
يحيى بن ماسرية	المأمون	رئيس مدرسة الترجمة فى عهده
يوحنا البطريق	المنصور والمأمون	نقل كثيرا من الكتب القديمة من بعثة اليونان ـــ بيت الحكمة ـــ عيون الأنباء ٢٠٥
يوسف الخروى		مترجم إلى العربية



(١) انظر المراجع فى الصفحة الآتية .

المراجع للنقلة من الإغريق والهند إلى اللغة العربية

تاريخ الحكماء للقفطى ص ٣٨٠ ، ٣٠ ، ٣١ ، ١٧١ ، ٣٨٠ ، ٣٦١ ، ٢٢٠

عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ١ / ١٨٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٣٠٤ ، ٢ / ٢٧٧ ، ١ / ٢٠٤ ، ١٩٨

أخبار الحكماء ٢٨٠

أصالة الحضارة لمعروف ناجى ص ٤٣٥ ، ٤٥٣

الفهرست لابن النديم ، ٣٨٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٥ ، ١ / ١١٨

علوم اليونان والبرى ، ص ٢٦٠

لسان الميزان ، ١ / ٢٩٦ ، ٣ / ٣٦٦

مناهج علماء المسلمين فى البحث ص ٤٩

معجم الصنفين للتونكى ٣ / ٢٦ ، ٢٨

منهج المقال لمرزه محمد ١٧ ، ١٨

سيرة النبلاء للذهبى ــ مسالك الممالك ــ ١٤٥

تاريخ التراث العربى ص ٣ عن الطب مادة حنين .

تاريخ العرب العلمى لطوقان ٢٦١

مقدمات ومباحث فى حضارة العرب لكحالة ص ١٩٣ وما بعدها

العلم عند العرب لألدوميلى ــ ١٢٦ ، ١٣٣ ، ٤٥٧ ، ٤٨٤

مناهج علماء المسلمين فى البحث لفرانتر روزنتال ص ٤٩ وما بعدها



أسماء النقلة من الهند إلى اللغة العربية :

اسم الناقل	في عهد	اسم الكتاب أو نوعه
آل نوبخت	المأمون	من المترجمين
أبان اللاحقى	الرشيد	كليلة ودمنة ، سيرة الرشيد ، حلم الهند ، بالوهر وبردانية . الفهرست لابن النديم ١ / ١١٩ ، معجم المصنفين للتنوكى ٣ / ٢٦ ــ ٢٨ ، منهج المقال مرزه محمد ١٧ ، ١٨
ابن المقفع ١٠٩ هـ ــ ١٤٥ هـ ٧٢٧ م ــ ٧٦٢ م	العباسيين	التاج فى سيرة أنوشروان ، الأدب الكبير والصغير ، خد نيامه ، كليلة ودمنة ، آيين ــ سيرة النبلاء للذهبى ــ الفهرست ١ / ١١٨ تاريخ الحكماء للقفطى ٢٢٠ ، لسان الميزان ٣ / ٣٣٦
ابن دهن	العباسيين	من المترجمين
البلازرى	العباسيين	كتاب استنكر الجامع ــ صفوة النجح ، فهرست ٤٣٥
أحمد بن محمد	المأمون	بيت الحكمة ــ المرجع ــ لسان الميزان ١ / ٢٩٦
أحمد بن يحيى بن جابر	المأمون	من النقلة
إسحق بن يزيد	المأمون	نقل كتاب سيرة الفرس المعروف باختيار نامه
الحسن بن سهل	العباسيون	
المريد الأسود	المتوكل	نقل كتاب السندباد الكبير والصغير
بهرام بن مروان شاه	المتوكل	من النقلة

اسم الناقل	فى عهد	اسم الكتاب أو نوعه
جبلة بن سالم	كاتب هشام	من النقلة
زادوية بن شاهويه الأصفهانى		من النقلة
زبيع الشهريار		من النقلة
عبد الحميد بن راحق الرقاشى		نقل كتاب كليلة ودمنة شعرا
عبد الله بن على		كتاب سريك ـــ الفهرست ٤٣٥
عمر بن الفرخان		من النقلة
محمد بن إبراهيم الفزارى	المنصور	كتاب السندهند ، نقله من الهندية
محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهانى		من النقلة
محمد بن الجهم البرمكى	الرشيد	الفهرست ٢٩٦ من النقلة
منكه	إسحاق بن سليمان	من النقلة من السبطية إلى العربية
موسى بن عيسى الكردى	إسحاق بن سليمان	أسماء عقاقير الهند ـــ فهرست ٤٣٥
موسى ويوسف بن خالد	المتوكل	ينقلان للمتوكل من الفارسية إلى العربية كما نقلوا كتب لجيلانوس
هشام بن القاسم	المتوكل	من النقلة

أسماء النقلة من النبط

اسم الناقل	فى عهد	اسم الكتاب أو نوعه
ابن دهن الهندى	البرامكة	وكل إليه بمارستان البرامكى
ابن وحشيه		نقل من النبطيه إلى العربية عدة كتب
منكه الهندى	إسحق بن سليمان	نقل له من النبطية إلى العربية(١)



(١) انظر فى هذا الباب ــ كتاب الفهرست لابن النديم ــ ٣٥٤ وما بعدها. ط الاستقامة بالقاهرة. ومقدمات ومباحث فى حضارة العرب لكحالة ص ١٩٣ وما بعدها. ط الحجاز بدمشق ــ تاريخ الحكماء للقفطى ص ٣٧٩ . مناهج علماء المسلمين فى البحث لفرانتز روزنتال ص ٤٩ وما بعدها ــ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ١٩٨ ط مصطفى وهبة ــ تاريخ التراث العربى ــ ج ٣ عن الطب العربى مادة حنين وخلافة .

هذا وقد بلغت العناية بالترجمة مبلغا جعل المأمون وغيره يعيدون مراجعة التراجم مرات ومرات ، لضمان سلامتها من الأغلاط العلمية واللغوية .

وقد أنشأ المأمون مدرسة ببغداد للترجمة ، أطلق عليها « بيت الحكمة » ، يتعلم فيها أبناء العرب اللغات المختلفة ، حتى يجيدوا النقل عن تلك اللغات ، وقد جعل النظر فى أمر هذه المدرسة وترتيبها إلى طبيب نسطورى ، هو يحيى بن ماسويه المتوفى سنة ٢٤٣ هـ ـــ ٨٥٧ م ، وكان على علم بالسريانية والعربية ، وملما إلماما واسعا بالإغريقية ، هذا وقد جعل المأمون يوما فى الأسبوع يجتمع فيه المترجمون بعلماء اللغة ، ليطلع هؤلاء على عملهم ، وينظروا ؛ ليصححوا ما ورد فيه من أخطاء ويقروه ، وقد كان يبذل فى سبيل الترجمة أموالا ضخمة ، كانت تغرى العاملين فى الترجمة على مواصلة الجهد ، ليلا ونهارا ، وتحفز كثيرا على تعلم اللغات ، والإقبال على مدارسها ، حتى تخرج جيل يحيط بتلك الألسن ، وخرجت المدارس أعداداً من العرب الذين يتقنون الترجمة والنقل ، وتبارى الجميع فى إخراج الثقافات المختلفة ، وهضمها ، وتقييمها ، حتى نقل هذا الحشد من العلماء والمتخصصين والمترجمين إلى العربية بضع مئات من الكتب فى الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات ، ففى الفلسفة نقل ثمانية كتب لأفلاطون ، وتسعة عشر لأرسطاليس . وفى الطب نقل عشر كتب لأبقراط ، وأربعة وستون لجالينوس ، وغير ذلك كثير ، فى زمن يسير .

وأما الكتب التى ترجمت عن الفارسية فى الفترة الأولى من الترجمة فهى نحو عشرين كتابا فى التاريخ والأدب ، ونحو ثلاثين عن اللغة السنسكريتية ، وأكثرها فى الرياضيات والطب والنجوم .

ونحو عشرين عن السريانية والنبطية ، وأكثرها فى الطلسمات ، وهناك بضع كتب عن اللاتينية والعبرانية والمصرية [١].

---

(١) راجع كتاب مقدمات ومباحث فى حضارة العرب والإسلام لكحالة ص ١٩٦ .

النهضة العلمية على الطريق الشعبى :

وهذه النهضة العلمية لم تقتصر على الخلفاء والوزراء وأصحاب النفوذ ، بل شارك فيها الأفراد والعائلات ، وبذلوا فيها عن سعة ، وأول من يذكر فى هذا المقام هم البرامكة ، ويذكر بعدهم كثير من بيوتات المجد ، « أمثال أولاد شاكر الذين جدوا فى طلب العلوم القديمة ، وبذلوا فيها الرغائب فى سبيل نقل هذه العلوم إلى العربية ، وممن ساهم كذلك فى نقل هذه العلوم محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ ألفى دينار فى الشهر ، ومنهم أيضا على بن يحيى ، ومنهم إبراهيم بن موسى الكاتب »[1]، وغيرهم ، حتى كانت السمة الثقافية والعلمية فى المجتمع الإسلامى هى صاحبة المكانة الرفيعة والسامقة .



(١) المرجع السابق ص ١٩٦ .

المبحث الثانى
تراث المسلمين العلمى

بعد أن هضم المسلمون علوم الأولين ، وأعطتهم العقيدة دفعة علمية عالية ، انبرى العلماء فى كل فن ولون من ألوان المعرفة ، يفتحون مجاهيله ، ويخوضون عبابه ، ويستخرجون كنوزه ، ويقطفون ثماره ، فأخرجوا للعالم فى برهة من الزمان ما يشبه المعجزات ، ويبهر الأبصار . وللنظر إلى صاحبة كتاب شمس الله على الغرب تقول : « إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء ومن العدم ، لمن أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى . فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة من نوعها ، وإن الإنسان ليقف حائرا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة ، هذه المعجزة العربية التى لا نظير لها ، والتى يحار الإنسان فى تعليلها وتكييفها . إن هذا الشعب الصحراوى حمل لواء النهضة العلمية الفكرية فى العالم وبسرعة البرق ، وقبض على صولجان السيادة الثقافية فى العالم ، وظل أبناء الصحراء حاملين لهذا الصولجان دون منازع ، مدة لا تقل عن ثمانية قرون ، كما أن الثقافة العربية قد تفتقت وازدهرت وأينعت أكثر من الثقافة اليونانية ، كما أن العرب أخصب وأقوى من اليونان »[1]. وهذا ما أثبته التاريخ ، وسطره بحروف من نور ، وما زالت هذه الحضارة وتلك الثقافة تحمل الخاتم العقلى والعلمى لأولئك الرواد العمالقة النابهين . هذا بالقياس إلى تلك الأمم التى كانت تدعى الحضارة والمدنية ، ومع هذا لا تدرى من أمرها شيئا ، ولا تعرف من تراثها إلا الإهمال والضياع ، حتى « يحكى أن الروم أحرقت من كتب أرشميدس خمسة عشر

---

(١) شمس الله على الغرب ص ١٥٧ ــ ٢٥٩ .

حملا »[1] ، فى حين أن المسلمين كانوا يزنون الكتاب المترجم من كتب هؤلاء بالذهب الخالص ، احتراما للعلم ، ونفعا للإنسانية ، واستفادة بكل أثارة من علم ، أو برقة من معرفة . ونحب أن نلقى الضوء على هذا التراث الضخم ، ونجلى جوانب من هذه الثقافة ، كمثال على ما يحمل من أصالة وعبقرية فذة فى كل علم من العلوم ، أو فن من الفنون ، التى تنفع الناس ، وتكشف المجهول ، وتجلى الحقائق فى الكون المحيط والحياة المعاشة . وأكبر برهان على صحة الأقوال هى الأعمال ، وأعظم دليل على صدق الدعوى هى الأفعال والآثار ، وسنذكر بعضا من جهود علماء المسلمين الأوائل التى أدت إلى قيام تلك الحضارة ، ونشر العلم فى المعمورة ، وإيقاظ العالم على أنوار المعرفة وشمس الهداية الربانية .

ونبدأ بأسماء بعض الأعلام الإسلامية فى الطب ، والصيدلة ، وجهودهم فى هذا الميدان .



(١) الفهرست لابن النديم ٣٨٦ .

الرياضيات

إبراهيم السوبينى ٨٠٠ هـ ــ ١٣٩٨ م

الكامل فى شرح الشامل فى الجبر والمقابلة

الضوء اللامع للسيوطى ١ / ١٠٠ ، كشف الظنون ١٣٦

أحمد بن ابراهيم ٥٥٢ هـ

عالم بالرياضة من آثاره الفصول فى الحساب

بروكلمان ١ / ٤٧١

أحمد الكرابيسى القرن ٦ هـ

الحساب الهندسى ، مساحة الحلقة ــ حساب الدور

تاريخ الحكماء ٢٧٩ ، الفهرست ٢٨٢

الحسن بن الصباح القرن ٣ هـ

كتبه الأشكال والمساحات ــ الكرة والعمل بذات الحلق

تاريخ الحكماء ٥٩ ، الفهرست لابن النديم ١ / ٧٦

جابر بن إبراهيم القرن ٤ هـ ــ قرن ١٠ م

إيضاح البرهان على حساب الخطين

بروكلمان ١ / ٢١٩ ، ٣٨٦

جمشيد بن مسعود الكاشى ٩١٩ هـ

المفتاح فى الحساب ــ أشكال المتقدمين فى الأبعاد والأجرام

كيفية صنع الآلات

كشف الظنون ٨٩٥

أبو جعفر الخازن ٥١٥ هـ ــ ١١٢١ م

* المسائل العددية ــ زيج الصفائح ــ سر العالمين فى الهيئة ــ تفسير المقالة العاشرة من إقليدس ، ميزان الحكمة .

* الفهرست ١ / ٢٨٢ ، تاريخ الحكماء ــ ٣٩٦ ــ

كشف الظنون ١٣٨ ، ٩٨٨

جعفر بن على بن محمد المكى قرن ٣ هـ ، ٩ م

* رسالة فى المكعب وكتاب فى الهندسة
* تراث العرب العلمى لطوقان — الفهرست ٢٨٢

تقى الدين بن عز الدين الحنبلى

الحاوى — واللباب فى علم الحساب

بروكلمان ١١ / ١٥٦

حسن بن محمد النيسابورى ٨١١ هـ

الشمسية فى الحساب — شرح التذكرة للطوسى فى الهيئة

كشف الظنون ٣٩١ لولى الدين ١٣٣

حسن بن موسى بن شاكر ٢٥٩ هـ

الشكل المدور والمستطيل — حركة الأفلاك الأولى

تاريخ الحكماء ٣١٥ الفهرست ١ / ٢٧١

حسن بن الهيثم —

فى الرياضيات والبصريات — تربيع الدائرة — وغيره نشر بالألمانية

تاريخ الحكماء ١٦٥ — تراث العرب العلمى لطوقان : ٢٦١

عبد الله بن محمد بن موسى الخوارزمى

أقدم الرياضيين العرب الجديرين بالذكر ، عمل فى بيت الحكمة، له مباحث فى الرياضيات ، وترجم « الكيونى » كتابه إلى الفرنسية سنة ١٨٣٨

على بن أحمد المجتبى الأنطاكى ٣٧٦ هـ

التخت الكبير فى الحساب الهندسى ، الحساب على التخت

بلا محو ــ تفسير الأرثماطيقى ، شرح إقليدس ، الموازين العددية ، استخراج التراجم

تاريخ الحكماء للقفطى ٢٣٤ ــ تراث العرب العلمى لطوقان : ٢٢٣

على بن أحمد النسوى ٤٢١ هـ ــ ١٠٣٠ م

المقفع فى الحساب الهندسى فى العراقين العربى والفارسى ــ رسالة فى المدخل إلى علم المنطق ، التجريد فى أصول الهندسة

تراث العرب العلمى لطوقان ٢٥٧ ــ ٢٦٠

عمر الخيام ــ ٤١٧ هـ

رسالة فى شرح ما أشكل من مصادرات إقليدس .

عمر الخيام ٩ / ٣٣

يعقوب بن إسحاق الكندى ــ ٢٥٢ هـ

له ١١ كتاب فى الحساب ، ٢٣ فى الهندسة ، ٨ فى الكريات ، ٨ فى الأبعاديات ــ وشى به إلى المتوكل العباسى فضربه وأخذ كتبه ، ثم ردها إليه

مروج الذهب ٨ / ١٧٦ ، تاريخ الحكماء للقفطى ٣٦٦ ، لسان الميزان ٣٠٥ ــ معجم المؤلفين ١٣ / ٢٤٤

كوسيار بن لبان الجبلى (أبو الحسن) ٤٥٩ هـ

مهندس فلكى رياضى ، خالف بعض المهندسين فى تكوين المريخ .

له كتاب إصلاح تعديل المريخ

المراجع كشف الظنون لحاجى خليفة ٩٦٨ ، هدية العارفين للبغدادى ١ / ٨٣٨

محمد بن محمد بن يحيى البوزجانى ٣٢٨ ــ ٣٨٨ هـ

كتاب فى الجبر والمقابلة ــ كتاب مطالع العلوم فى علوم الأوائل والحساب ــ وكتاب ما يحتاج إليه العمال والكتاب من صناعة الحساب

ابن العبرى فى مختصر الدول ٣١٥ ــ تاريخ الحكماء الإسلامى ٨٤ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ١٠٦ ، وكشف الظنون ١٤٧٢

الفلـك

إبراهيم بن حبيب الفزارى

أول من عمل أسطرلابا ــ له كتاب القصيدة فى علم النجوم ــ العمل بالأسطرلاب ــ القياس للزوال ــ

تاريخ الحكماء ٥٧ ، الفهرست ١ / ٢٧٣ ــ كشف الظنون ٩٦٤ ، ١٣٤٥ ــ معجم المصنفين للتونكى ٣ / ٩٩

محمد بن أحمد بن رشد (محمد بن أحمد) ٥٢٠ هـ

كتاب إصلاح نظام بطليموس الفلكى ــ نظرية ابن رشد فى الكواكب

عالم الفكر ٩ / ٣٧ ــ عيون الأنباء ٢ / ٧٥ ــ الوافى ٢ / ١١٤

أبو الريحان البيرونى

التفهيم لأوائل صناعة التنجيم ــ القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم

عالم الفكر ٩ / ٣٦

أبو الوفى محمد اليوزجانى ٣٢٨ هـ

الكامل فى حركات الكواكب ــ كتاب المجسطى ــ مطالع العلوم

تاريخ حكماء الإسلام ٨٤ ز مختصر الدول ٣١٥ ،
الخالدون العرب ٨٩

أبو القاسم أحمد بن عبد الله الصفار ٤٢٦ هـ

العمل بالأسطرلاب ــ زيج مختصر

عيون الأنباء ٢ / ٤٠ ز ، تراث العرب العلمى ٣٠٣ .
عالم الفكر ٩ / ٣٥

أبو بكر بن أبى المعالى اليمنى ٧٩٤ هـ

فلكى له مدخل التعليم

بروكلمان ــ ١١ / ٢٥٣

أبو على محمد بن جابر البتانى ٣١٧ هـ

الفلك فى ٣ مجلدات ــ معرفة مطالع البروج

عيون التواريخ ١٢ / ٢٣ ، وفيات الأعيان ٢ / ١٠٥ ــ
مرآة الجنان لليافعى ٢٠ / ٢٧٤

أبو جعفر الخازن ٥١٥ هـ

له سر العالمين فى الهيئة ــ زيج الصفائح المسائل العددية

فهرست ١ / ٢٨٢ ، تاريخ الحكماء للقفطى ٣٩٦ ،
كشف الظنون ١٣٨

أبو معْشر بن محمد البلخى ــ ١٧٢ هـ ــ ٢٧٣ هـ

له فى الفلك والنجوم ٣٥ كتابا منها ــ النكت فى سنى العالم ــ
هيئة الفلك واختلاف طلوعه ــ إثبات علم النجوم ــ المدخل
الكبير

الفهرست ١ / ١٧٧ ــ وفيات الأعيان ١ / ١٤٠ ، تاريخ
الحكماء ١٥٣ ، كشف الظنون ١٨ ، ٥١ ، ٩٦٥ ، إيضاح
المكنون ١ / ٨٨

الحسن بن الخطيب

المدخل إلى علم الهيئة ـــ تحويل سنى العالم

الفهرست ٣٩٩

الحسن بن سهل بن نوبخت

الأنواء

الفهرست ٣٩٩

أحمد بن محمد الطيب ٢٨٦ هـ

المدخل إلى صناعة النجوم

سيرة النبلاء للذهبى ٩ / ١٠٥

أحمد بن محمد الفرغنى ٢١٨ هـ

المدخل إلى علم الهيئة ـــ الأفلاك وحركات النجوم

تاريخ الحكماء للقفطى ٧٨

الحسن بن الصباح قرن ٣ هـ

الأشكال والسائح ـــ الكره ـــ العمل بذات الخلق

الفهرست ٢٧٦ ـــ تارخ الحكماء ٥٩

الحسن بن على المنجم ٣٥٧ هـ

أحكام النجوم والطوالع

كشف الظنون ٢١٧ ، ١٦٤٢

العباس بن سعيد الجوهرى

من أصحاب الأرصاد ـــ كتاب الأشكال

الفهرست لابن النديم ٣٩٣

الماهانى ـــ أبو عبد الله محمد بن عيسى ٢٦٠ هـ (١)

عروض الكواكب ـــ كتاب فى النسبة ـــ كتاب فى الأشكال

حبيب بن عبد الله

أبعاد الأجرام ــ الرخائم والمقاييس

الفهرست ٣٨٨

حسن بن موسى بن شاكر ٢٥٩ هـ

كتبه الشكل المدور المستطيل ، حركة الأفلاك الأولى

الفهرست ١ / ٢٧١ ، تاريخ الحكماء ٣١٥ ، ٣١٦

ثابت بن قرة بن مروان ٢٢١ ــ ٢٨٨ هـ

إبطال الحركة فى فلك البروج ــ المسائل الهندسية ــ تحليل مياه البحار

الفهرست ١ / ٢٧٢ ، عيون الأنباء ٢١٥ ، البداية ١١ / ٨٥

جابر بن حيان بن عبد الله الكوفى ١٢٠ هـ ــ ١٩٨ هـ

تأليف فى عمل الأسطرلاب

الفهرست لابن النديم ١ / ٣٥٣ ، الخالدون العرب ١٥ ــ ٢٤

حبيش بن عبد الله

أبعاد الأجرام ــ الرخائم والمقاييس

الفهرست ٣٣٨

سند بن على

كتاب المفصلات والمتوسطات ــ الحساب الهندسى

الفهرست ٣٩٧

سهل بن بشر

كتاب الأوقات ــ الأمطار ــ الرياح ــ والكسوفات

الفهرست ٣٩٧

عطارد بن محمد

تركيب الأفلاك والمرايا المحرقة

الفهرست ٣٩٧

على بن إبراهيم بن محمد بن الهمام بن الشاطر (٧٠٤ ـــ ٧٧٧ هـ)

الأشعة اللامعة فى العمل بالآلة الجامعة ـــ نزهة السامع فى العمل بالربع الجامع ـــ النفع العام فى العمل بالربع التام لمواقيت الإسلام ـــ الثمار اليانعة من قطوف الآلة الجامعة ، وكشف المغيب فى الحساب بالربع المجيب

شذرات الذهب ٦ / ٢٥٢ ، كشف الظنون ١٠٥ ، ٣٦٦ ، ٩٠٧ ، ٩٢٢ ، ٩٦٥ ، ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٨٨

على بن أبى الرجال ٤٠٦ ـــ ٤٥٤ هـ

من تصانيفه البارع فى أحكام النجوم والطوالع

كشف الظنون لحاجى خليفة ٢١٧

على بن على بن عمر المراكشى القرن ٧ هـ

تلخيص العمل فى رؤية الهلال ـــ وجامع المبادىء والغايات فى علم الميقات .

تراث العرب العلمى

عمر بن الفرخان

اتفاق الفلاسفة واختلافهم فى خطوط الكواكب

الفهرست ٣٩٥

عمر بن محمد المروروذى

كتاب تعديل الكواكب

الفهرست ٤٠٠

عمر بن يوسف بن رسول ٦٩٦ هـ

التبصرة فى علم النجوم

كشف الظنون ٣٢٦ ، ٣٣٨ ، ٣٦٢

كوسيار بن لبان الجبلى ٤٥٩ هـ

خالف بعض المهندسين فى تكوين المريخ ــ وله كتاد
تعديل المريخ ــ المدخل فى صناعة أحكام النجوم ــ مجم
فى أحكام النجوم ، واللامع فى أمثلة الزيج اللامع

كشف الظنون ٩٦٨ ، هداية العارفين للبغ
٨٣٨

محمد بن محمد بن يحيى البوزجانى ٣٢٨ ــ ٣٨٨ هـ

الكامل فى حركات الكواكب

ابن العبرى فى مختصر الدرر ٣١٥ ــ تاري
الإسلامى ٨٤

محمد بن يوسف الخوارزمى

العمل بالأسطرلاب ــ كتاب الرخان

الفهرست ٣٩٧

يحيى بن منصور

كتاب الأرصاد

الفهرست ٣٩٨

الميكانيكا والآلات

ابن خلف المروزى

صناعة آلات الرصد للمأمون

الفهرست ٤١٠

أبو سهل ويحيى بن رستم

كتاب صنعة الأسطرلاب

الفهرست ٤١٠

أبو عبد الله محمد الحسن الشلوى

كتاب عمل الرخامة المطبلة وصنعة البنادق

الفهرست ٤١٠

الحسين بن على

كتاب عمل الساعات

الفهرست باب الصناعات ٩ / ٤٠

ابن موسى بن شاكر

أول من اشتغل بالميكانيكا فى الإسلام

الفهرست باب الصناعات أو عالم

محمد وأحمد والحسن

لهم فى ذلك كتاب الحيل وكتاب معرفة الحيل الهندسية

الأحجار والمعادن

ابن زهر الأندلسى

خواص الأشياء

عيون الأنباء ٦٤ ـ شذرات الذهب لابن العماد ٢ / ٧٤ ـ إيضاح المكنون للبغدادى

أبو القاسم عبد الله بن محمد بن طاهر الكاشانى

عرايس الجواهر وأطايب النفائس

عالم الفكر ٩ / ٤١

أبو سعيد بن مضر بن يعقوب الدينورى

له فى الجواهر والمعادن جهود

عالم الفكر ٩ / ٤١

أحمد بن عبد العزيز الجوهرى

رسالة فى الجواهر

عالم الفكر ٩ / ٤١

البيرونى

الجماهر فى معرفة الجواهر

مرت مراجعة قبل ذلك وعالم الفكر ٩ / ٤١

الكندى

الجواهر والأشباه ـــ أنواع الحجارة ـــ الأحجار والمعادن

ذكرت مراجعة قبل ذلك وعالم الفكر ٩ / ٤١

عطارد بن محمد

منافع الأحجار

هداية العارفين للبغدادى ١ / ٦٦٥ وعالم الفكر ٩ / ٤١

محمد بن زكريا الرازى

علل المعادن ـــ الجواهر والخواص

ذكرت مراجعة قبل ذلك وعالم الفكر ٩ / ٤١

هذا وقد اشتهرت بعض البلاد الإسلامية بالصناعات المختلفة فى كل فن

مراكش

سخر أهلها الماء فى تسيير الرحى والطواحين

البكرى ص ١٦٢

نهاوند

صناعة الطواحين التى تطحن بالريح

مروج الذهب للمسعودى ٤ / ٢٢٧

سمرقند ومصر

صناعة الورق

لطائف المعارف ٦٢٦ جغرافيا اليعقوبى ٣٣٨

الأطباء ومؤلفاتهم فى عصر النهضة

إبراهيم الفزارى

ابن الخطيب

كتاب الدفاع عن نظرية العدوى وانتقالها

الطب الإسلامى ٩٨ .

ابن النفيس

مكتشف الدورة الدموية الصغرى

الطب الإسلامى ، النجوم الزاهرة ٧ / ٣٧٧ البداية ٣ / ٣١٣

ابن زهر ١١١٣ ــ ١٠٦٢

مكتشف داء الجرب ووصف مكروبه

الطب الإسلامى ٩٩ ، ٣٣ ، ٧٦ ، ٧٧

ابن سينا ٩٨٠ ــ ١٠٣٧ م

القانون فى الطب فى ثلاثة مجلدات

القانون مطبوع ط بولاق ــ الطب الإسلامى ٢١٤ عالم الفكر ٩ / ٢٠

ابن محمود القاسم متوفى سنة ١٥٢٥

زاد المسير فى علاج البواسير

الطب الإسلامى ٧٩ .

أبو بكر ربيع بن أحمد الأخوين ٣٧٣ هـ

هداية المتعلم فى الطب

الطب الإسلامى ــ ٧٧ .

أبو زكريا يحيى بن ماسوية

الإسهال ــ علاج الصداع الحوامل ــ العقم

الفهرست ٤٢٥

أبو منصور القمرى

طبيب الجزام ــ ألف : الغنى والمنى

الطب الإسلامى ٩٩

أبو موسى عيسى بن قسطنطين

كتاب البواسير عللها وعلاجها

الفهرست لابن النديم ٤٢٧

أبو البيان ابن المدور

طبيب صلاح الدين ، له كتاب مجريان فى الطب

ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء ٢ / ١١٥

أحمد بن إبراهيم الجزار ٣٩٥ هـ

من كتبه زاد المسافر فى علاج الأمراض ــ الاعتماد فى الأدوية المفردة والمركبة

عيون الأخبار لابن شاكر ١٢ / ١٢٥ ، عيون الأنباء ٢ / ٣٨

أحمد بن عثمان القيسى ٦٥٧ هـ

نتيجة الفكر فى علاج البصر

كشف الظنون لحاجى خليفة ١٩٢٦ خليفـــــة ١٩٢٦

أحمد بن أسعد بن العالمة ٥٩٣ ــ ٦٥٢ هـ

الإرشادات فى الأدوية المفردة كفاية الطبيب

عيون الأنباء ٢ / ٢٦٥ ، كشف الظنون ١ / ٩٦ ـــ ٣٨٢

أحمد بن محمد الطيب ٢٨٦ هـ

المدخل إلى الطب

سيرة النبلاء للذهبى ٩ / ١٠٥ ـــ عيون الأنباء ١ / ٢١٤ ـــ
الفهرست ١٤٩

أحمد بن يوسف الطيقاشى ٥٨٠ هـ

الوافى فى الطب الشافى

الديباج لابن فرحون ٧٥ ـــ كشف الظنون ٧٢ ـــ ٢٣٣ ـــ ٦٢٠

إسحق بين حنين ٢١٥ هـ

له الأدوية المفردة ـــ تاريخ الأطباء

عبون الأنباء ١ / ٢٠٠ ـــ تاريخ حكماء الإسلامى ١٨ ، ١٩ ،
البداية ١١ / ١١٦

إسحق بن عمران

ألف ١١ كتاباً فى الطب ، منها : كتاب المالنخوليا

الطب الإسلامى ١٧١

إسحق بن سليمان ٣٢٠ هـ

كتاب الحميات ـــ الأغذية والأدوية .

عيون الأنباء ٢ /٣٦ ، إيضاح المكنون للبغدادى ٢ / ٢٧٥

أسعد بن إلياس ٥٨٧ هـ

الأدوية المفردة ـــ بستان الأطباء

معجم الأطباء ١٣٥ ـــ كشف الظنون ٢٤٣ ، ١٣٨٨

إسماعيل بن الحسن الجرجانى ٥٣١ هـ

زبدة الطب ـــ التذكرة فى الصناعات الطبية ـــ الأجوبة الطبية .

تاريخ الحكماء ١٧٢ ، إيضاح المكنون ١ / ٦١١ .

البغدادى

علم التشريح

الطب الإسلامى ٤٠ .

الزهراوى : أبو القاسم بن عباس

كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف

عيون الأنباء ٢ / ٥٢ بغية الملتمس للضبى ٢٧١ ، الصلة ١ / ١٦٦

القلشندى سنة ٤٠٠ هـ

مكتشف مرض النوم

الطب الإسلامى ٣٤

الحسن بن محمد الوزان ٩٠١ هـ

القاموس الطبى

حياة الوزان لمحمد المهدى

بختشيوع بن جبريل

فى عهد الرشيد ـــ الحجامة على طريق المسألة والجواب

عيون الأنباء ١٣٨ ـــ تاريخ الحكماء ١٠٢ نجوم الزهرة .

ثابت بن قرة بن مروان ٢٢١ هـ ـــ ٢٨٨ هـ

الزخيرة فى علم الطب

الفهرست لابن النديم ٢٧٢ ـــ عيون الأبناء ١ / ٢١٥ ـــ تاريخ الحكماء ١١٥

ثابت بن إبراهيم الحرانى ٢٨٣ ـــ ٣٦٩ هـ

جوابات مسائل فى الطب

تاريخ الحكماء ١١١ ـــ عيون الأنباء ٢٧٢ الفهرست ١ / ٣٠٢

جبرائيل بن عبيد الله بن بختشيوع ٣١١ ـــ ٣٩٦ هـ

الكافى فى الطب ٥ مجلدات ـــ رسالة فى عصب العين

عيون الأنباء ١ / ١٤٤ ـــ تاريخ الحكماء ١٤٦ .

حبيش بن إبراهيم التفليسى ٦٠٠ هـ

تقويم الأدوية ـــ لباب الأسباب ـــ تحصيل الصحة ـــ كامل التدابير

بروكلمان ١ / ٨٩٣

حبيش بن الحسن الأعسم ٢٦٤ هـ

إصلاح الأدوية المفردة ـــ كتاب الاستسقاء ـــ الأغذية

عيون الأنباء ٢٠٢ ـــ تاريخ الحكماء ١٧٧ ، الفهرست ١ / ٢٩٧

حسن بن الهيثم

طب العيون

الطب الإسلامى ـــ ٦٩

حامد بن سمجون

الأدوية المفردة ـــ الأقربازين

عيون الأنباء ٢ / ٥١ ـــ ٥٢

حنين بن إسحاق

طب العيون ـــ المسائل فى الطب ـــ تولد الحصوة

عيون الأنباء ١٩٨

خضر بن على الخطاب

شفاء الأسقام ودواء الآلام

الطب الإسلامى ٢٠٨

خلف الطولونى ٣٠٢

النهاية والكفاية فى تركيب العين

عيون الأنباء ٢ / ٢٨٥ معجم المؤلفين ٤ / ١٠٥

على بن أبى الحزم القرشى (ابن النفيس ٦٨٧ هـ)

الشامل فى الطب ـ بغية الطالبين وحجة المتطببين

النجوم الزاهرة ٧ / ٣٧٧ ـ البداية ١٣ / ٣١٣

على بن أحمد بن باهل ٥١٥ هـ

طبيب ـ طب المختار فى ٤ مجلدات ، الطب الجمالى

ابن أبى أصيبعة ١ / ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ، أنباء الرواة ٢ / ٢٣١

على بن زين الطبرى ٨٥٠ م

كتاب فردوس الحكمة ـ منافع الأطعمة والعقاقير وعلم الأجنة

عيون الأنباء ١ / ٢٠٩ ـ تاريخ الحكماء ٢٣١ ـ الفهرست ١ / ٢٩٦

على بن عباس القرن ٤ هـ

طب العيون ـ الجدرى ـ الأمراض الجلدية ـ الزهرى

الطب الإسلامى ٩١

على بن عيسى الكحال ٣٥٠ هـ

تذكرة الكحالين ـ استعمال التخدير فى عمليات العين .

عيون الأنباء ١ / ٢٤٧ ـ كشف الظنون ٣٩٠ ـ بروكلمان ١ / ٨٨٤

عمر بن يوسف بن رسول ـ ٦٩٦ هـ

الجامع فى الطب ـ الأدوية المفردة

كشف الظنون ٢٣٦ ، ٣٣٨ ، معجم الأطباء لأحمد عيسى .

يوحنا بن ماسويه ٢٤٣ هـ

دفع مضار الأغذية ـ علاج العقم تركيب طبقات العين

عيون الأنباء ١ / ١٧٥ ، مختصر الدول ٢٢٧ ـ هدية العارفين ٢ / ٥١٥

الصيدلة والعقاقير

إبراهيم بن عباس

كتب فى العقاقير والطب

الفهرست ٤٥٤

ابن البطريق

كتاب أجناس الحشرات — كتاب السموم

الفهرست ٤٥٤

أبو بكر بن البيطار

كتاب الصيدلة الشهير « الجامع لمفردات الأدوية » ، ترجم إلى الفرنسية والألمانية فى ٤ مجلدات

نشر فى القاهرة ١٢٩١ هـ

ابن بكلاش يونس بن إسحق

كتاب المستعينى فى الأدوية المفردة

الطب الإسلامى ١٩١

ابن جميع

كتاب الإرشاد فى العقاقير

الطب الإسلامى ١٨٣

ابن داود

كتاب تذكرة ابن داود — البهجة والدرة غاية المرام فى أصلام الأبدان

الفهرست ٤٥٤

أبو الأعلى زهير الأشبيلى

ألف كتب عدة فى الأدوية والعلاجات والأغذية منها « التذكرة »

عالم الفكر ٩ / ٢٧

أبو المنى بن أبى نصر

منها الدكان ودستور الأعيان

الطب الإسلامى ١٨٣

أبو منصور موفق بن على الهروى

كتاب الأبنية فى العقاقير الطبية

الطب الإسلامى

أحمد الغافقى

أكبر عالم فى الصيدلة ، له كتب كثيرة فيها .

طبع منها فى طب القاهرة ـــ الكراسة الأولى والثانية سنة ١٩٣٢ م والثالثة سنة ١٩٣٨ م ـــ عالم الفكر ٩ / ٢٧

إسحق بن حنين

الأدوية المفردة ـــ الأدوية المسهلة

عيون الأنباء ١ / ٢٠١

الإدريسى ـــ الرحالة

نظرات فى الصيدلة ـــ كتب عنها ماكس مايرهوت

عالم الفكر ٩ / ٦٩

البيرونى

كتاب الصيدلة

طبع فى باكستان ـــ عالم الفكر ٩ / ٦٩

الرازى

كتاب الصيدلة

الفهرست ٤٥٤ ـــ عيون الأنباء ١ / ٣٠٩

السديد بن أبى البيان

كتاب الأقربازين فى تركيب الأدوية من أقراص وسفوفات وأدهان

الطب الإسلامى ١٨٤

الكندى

كتاب السمومات ودفع ضرها

الفهرست ٤٥٤

المفضل بن سلمة

كتب فى العطر والعقاقير والمعادن

الفهرست ٤٥٤

حبيب العطا

كتاب العطر وأجناسه

الفهرست ٤٥٤

رواق الصيدنانى

كتاب الصيدنة

الفهرست ٤٥٤

قسطا بن لوقا

كتاب السمومات

الفهرست ٤٥٤

موسى بن ميمون

معجم فى شرح أسماء العقاقير وفوائدها

نشر فى القاهرة سنة ١٩٤٠ عالم الفكر ٩ / ٢٨

نطاح

كتاب السمومات وتركيبها

الفهرست ٤٥٤

نجم الدين محمد بن إياس الشيرازى

الحاوى فى علم التداوى

عالم الفكر ٩ / ٢٦

هبة الله بن التلميذ

كتاب الأقربازين

عالم الفكر ٩ / ٢٦ مخطوط للآن

يحيى بن خالد

كتاب فى العطر والعقاقير

الفهرست ٤٥٤

الحيوان والطب البيطرى

أبو بكر البيطار

طبيب بيطرى له كتاب ــ كشف الويل فى معرفة أمراض الخيل

بروكلمان ــ ١١ / ١٣٦ ــ ١٦٩

ابن قتيبة

فصول فى كتابه ــ عيون الأخبار ــ عن الحيوان

المرجع نفسه مطبوع ــ دار الكتب فى القاهرة

أبو حيان التوحيدى

فصول فى كتبه عن الحيوانات

الإمتاع والمؤانسة

إسحق بن على بن سليمان

كتاب فى البيطرة وعلاج الدواب

الفهرست ٤٥١

الجاحظ

كتاب فى علم الحيوان

المرجع نفسه مطبوع

الأصمعى

له مؤلفات فى الأحصنة والجمال

أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٤٤

الدميرى

الحيوان للدميرى ـــ حياة الحيوان

الكتاب مطبوع

المتوكل

ألف له كتاب البيطرة كتاب علاج الدواب ـــ كتاب بطرة الفرس ـــ الخيل

فريز

بيطرة الجمال عند العرب فى العصور الوسطى

كتب طبعت حديثا

دمولرز

دراسة فى تربية الصقور

كتب طبعت حديثا

همر بور جشتال

الجمل

طبع فى فينا



نظرية الإسلام الطبية :

ينطلق الإسلام فى نظريته الطبية من تكريم الإنسان وتشريفه ، والمحافظة عليه . فأما من ناحية تكريمه وتشريفه ؛ فقد وردت الآثار الكثيرة بذلك ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُم فى البَرِّ والبَحْرَ ، وَرزقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً ﴾[1] ومن ذلك التكريم حفظ حياة هذا الإنسان ، ومنع الاعتداء عليه ، وحرمة ذلك وشناعته ، بما يرد فى قوله تعالى : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَل النَّاسَ جَمِيعاً ﴾[2]، وقول الرسول ﷺ « كُلُ المُسْلِمِ عَلى المُسْلِمِ حَرامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ »[3]، ولهذا حرص الإسلام على صيانة ذلك الإنسان بأمور :

١ ـــ دفع الضرر عنه :

سواء كان هذا الدفع من الشخص نفسه : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أنفُسَكُمْ ﴾[4]، « إنَّ لِبَدَنِكَ عَلَيكَ حَقا »[5].

أو كان ذلك الدفع من المؤمنين ومن المجتمع ـــ لقول الرسول ﷺ : « المُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُ بَعْضُهُ بَعْضاً »[6]، ومن ذلك عزل الأذى عن طريق المسلمين : « وَتَنْحِيَتُكَ الأَذَى عَن الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ »[7]، « المُسلِمُ أَخُو المُسلِمِ ، لايَظْلِمُه ، ولايُسْلِمُهُ ، ومَن كَانَ فِي حَاجَةِ أخيه كَانَ اللهُ فى حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدُنْيا فَرَّج اللهُ عنهُ كُربةً مِنْ كُربِ يَوْمِ القِيَامَةِ »[8].

---

(١) الإسراء ـــ ٧٠ .

(٢) المائدة ـــ ٣٢ .

(٣) مسلم ٤ / ١٩٨٦ عيسى الحلبى .

(٤) النساء ـــ ٢٩ .

(٥) البخارى فتح البارى ٥ / ٢١٨ ط السلفية

(٦) البخارى فتح البارى ٥ / ٩٩ ط السلفية .

(٧) مسلم بلفظ تميط الأذى عن الطريق ـــ ٢ / ٦٩٩ عيسى الحلبى .

(٨) مسلم والبخارى ٥ / ٩٧ فتح البارى ط السلفية .

« لَيسَت الرَّحْمَةُ أنْ يَرْحَمَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ ، إنَّمَا الرَّحْمَةُ أنْ يَرحَمَ النَّاسَ جَمِيعاً » [1].

٢ ــ حب العافية وطلبها واعتبارها من النعم :

حب العافية مطلب للمؤمن ، يسأل الله إياه ، ويسعى إليه ــ لقول الرسول ﷺ : « اسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ ، فإنه مَاأُوتِيَ أحَد بَعْدَ يقِينِ اللهِ خَيْراً مِنْ مُعافاةٍ »

٣ ــ أمره بالوقاية وحثه عليها :

وذلك يتمثل فى أمور عدة ، وتعاليم كثيرة ، حثنا عليها رسول الله ﷺ فى كثير من الأحاديث ، منها « لَايَبُولَنَّ أحَدُكُمْ في المَاءِ الدَّائِم » [2] ، « انْظُرْ مَايُؤْذِي النَّاسَ فاعْزِلْهُ » [3] « لا يَحِلُّ الممرضُ على المُصِحِّ ، وَليحِلُّ المُصِحُّ حَيْثُ شَاءَ » [4] بل إن المسلم ملزم باتباع قواعد الحجر الصحى كما نعلم ، كما أنه ملزم بدفع الأخطار المتوقعة عن نفسه وأهله ، لقوله تعالى : ﴿ ولا تُلْقُوا بأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ ﴾ [5] ، وقوله ﷺ « لاتَتْركوا النَّارَ في بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ » [6] .

٤ ــ مساعدة المريض واحترام ضعفه :

يوجب الإسلام على المسلم أن يساعد المريض ويغيثه ، لقول الرسول ﷺ « المُسْلِمُ لِلْمُسْلِمِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً » [7].

كما ينبغى أن يواسى المريض ، ويطلب رضاه ودعاءه ، لقول الرسول ﷺ فى الحديث القدسى : « إنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيامَةِ : يااْبْنَ آدَمَ ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعدْنِى قال : يَارَبُّ وَكَيْفَ أعُودُكَ وَأنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ ؟ قَالَ : أمَا عَلِمْتَ أنَّ

---

(١) الطبرانى مجمع الزوائد ٨ / ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) البخارى الفتح ١ / ٣٤٦ ط السلفية .

(٣) أخرجه أحمد ٤ / ٤٢٣ .

(٤) موطأ مالك ٢ / ٩٤٦ ط عيسى الحلبى .

(٥) البقرة ــ ١٩٥ .

(٦) البخارى فتح البارى ١١ / ٨٥ ط السلفية .

(٧) البخارى الفتح ٥ / ٩٩ ط السلفية .

عَبْدِى فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لوجَدْتَنِى عِنْدَه » [1]، وقوله : « إِذَا دَخَلْتَ عَلى مَرِيضٍ فَمُرْهُ يَدْعُو لَكَ ، فَإِنَّ دُعَاءَهُ كَدُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ » [2].

٥ ــ الأمر بالتداوى :

أمر الإسلام بالتداوى والعلاج ، وكلف المسلم بذلك ، لصحة جسده وسلامة بدنه ،فقال ﷺ ــ عندما سئل من رجل عن دواء يتداوى به ، هل يرد من قدر الله شيئا ــ فقال الرسول : « هِىَ مِنْ قَدَرِ الله » [3]، وقول الرسول : « يَاعِبَادَ الله تداووا . إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنزِل دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ ، فَإِذَا أَصَابَ الدَّاءُ الدَّوَاءَ بَرِىءَ بِإِذْنِ الله » [4].

٦ ــ نفى الخرافات والأوهام فى الطب :

يقرر الإسلام أن المرض من الله سبحانه ، وأن شفاءه ــ كما أوضحنا ــ يجب أن يبحث عن دوائه فيما خلق الله من أشياء وعناصر ، وليس المرض ناتجا عن شيطان أو أرواح شريرة ، كما كان يعتقد قديما أصحاب الحضارات الهالكة ، ومن على شاكلتهم ، من الجهلة ، كما لايبحث لهذا عن دواء عند السحرة والعرافين والكهان . ولهذا منع الإسلام هذه الخرافات ، وحرمها ، وحذر منها ، ولهذا قال الرسول ﷺ : « مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » [5]، ويقول : « مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ » [6]، « لا طَيْرَةَ ، وَيُعْجِبُنِى الفأل الصالح : الكلمة الحسنة » [7] « الرقى والتمائم والتِّوَلَةُ ، شرك » [8] .

(١) مسلم ٤ / ١٩٩٠ ط عيسى الحلبى .
(٢) سنن ابن ماجه ١ / ٤٦٣ عيسى الحلبى .
(٣) سنن ابن ماجه ٢ / ١١٣٧ .
(٤) مسند أحمد ٤ / ٢٧٨ ، أبو داود ٤ / ١ عون المعبود .
(٥) ابن ماجه ١ / ٢٠٩ ط عيسى الحلبى .
(٦) أخرجه أحمد ٤ / ١٦٥ .
(٧) أخرجه البخارى بلفظ لاعدوى ولا طيرة فتح البارى ١٠ / ٢١٤ ط السلفية .
(٨) ابن ماجه ٢ / ١١٦٧ ط عيسى الحلبى .

بهذه النظرية الطبية أخذ العلم الطبى مجاله من البحث ، والدراسة ، والتجربة العلمية ، والتحليل الميدانى ، الذى أكسبه فتحا جديدا ، ومعرفة خصبة فى كل ناحية من نواحيه ، وتمكن العلماء المسلمون من تركيز جهودهم على الكشف عن الأمراض والعلل ، واختراع أدوية نافعة ناصعة ، وتدوين ذلك علميا ، وتجربته عمليا ، وأسسوا عيادات ومستشفيات ومدارس طبية كثيرة ، تخرج منها الكثير فى هذا المجال . فبعض مضى قرن من الزمان ، كان فى بغداد ستة آلاف دارس للطب ، وحوالى ألف ممارس للطب ، ثم انتشرت المستشفيات والمدارس فى مراكز أخرى من أنحاء العالم الإسلامى ، فى دمشق ، وفى القاهرة ، وفى المغرب العربى ، وكانت تلك المستشفيات تضم عدة أبنية ، وحدائق واسعة ، وقد زودت بالموسيقى لراحة المرضى ، كما كان يدفع للمريض الذى يستشفى بالمجان خمس قطع ذهبية ؛ ليتمكن من مراعاة صحته خلال فترة النقاهة ، ويتضح من ذلك أن المستشفيات كانت ابتكارا إسلاميا ، انتشر فى العالم الإسلامى ، ثم انتقل بعد ذلك إلى أوربا والعالم .

كذلك نشأت فى العالم الإسلامى أولى الصيدليات والمعامل الكيماوية ، وكانوا يعدون بالمئات فى قرطبة وبغداد والقاهرة وكثير من المدن الأخرى ، وقد كانت الأدوية تركب على يد مختصين ، وكانت الأعشاب تجلب من جميع بقاع العالم ؛ لصناعة الأدوية والعقاقير ، وكانت تزرع لذلك خصيصا ، حتى تكون بالوفرة اللازمة لصناعة الأدوية التى يحتاجها الأطباء فى علاج المرضى .

منزلة الطب الإسلامى :

كان لليونان طب علمى طبيعى مزاجى ، وكان للهنود طب شخصى روحانى نفسى ، وكان اليونان يأنفون من الأخذ بأسلوب الهنود عند التطبب ، كما كان الهنود لايحفلون بالطب اليونانى . ولكن العرب المسلمين أخذوا الصحيح الصالح من طب هؤلاء وأولئك ، ثم أضافوا إليه ماعرفوه هم بالتجربة ، وما كانوا أيضا قد عرفوه من جيرانهم الكلدانيين والبابليين وغيرهم ، فكان الأطباء العرب من أجل ذلك أبرع من سائر الأطباء الذين سبقوهم فى تاريخ الحضارة . وكان للمسلمين فى التطبب براعة لم تكن لسواهم : عرفوا المراقبة السريرية — مراقبة سير المرض يوما بعد يوم — وعرفوا

انتقال المرض بالعدوى ، ثم عرفوا طرق انتقال العدوى . وعرف الرازى أربعة أشياء فى ذروة العبقرية الطبية : فرق بين الجدرى والحصبة ، وعرف انتقالهما بالعدوى ، وأشار إلى الطرق التى تحول دون التشوهات بهما ، ثم نصح بأن يكون للإنسان طبيب واحد يعالجه ؛ لأن الوقوع فى خطأ طبيب واحد أفضل من الوقوع فى خطأ عدد من الأطباء ــ ومادام كل طبيب يراك للمرة الأولى ، فإنه يلجأ إلى التجربة فيك ــ وترك الرازى خياطة الجروح بخيوط من القنب أو القطن أو الكتان ، واستخدم خيوطا من مصارين الحيوان ؛ لأن هذه الخيوط يمتصها الجسم . كما عرف الرازى أن الدواء لايتفاعل فى القنينة ، ولكن يتفاعل فى معدة المريض ، فنصح الأطباء بأن يدرسوا أجسام مرضاهم قبل أن يصفوا لهم الأدوية .

وكان على بن عباس صاحب الكتاب الملكى ــ عالما بصناعة التوليد ، فذكر أن الجنين يخرج من تلقاء نفسه ؛ لأن تقلص الرحم ــ أى الطلق ــ هو الذى يخرج الجنين ، ويدفعه إلى الخروج ، ولا يجوز أن يتدخل فى إخراجه إلا فى حالة الضرورة .

كما عرف العرب التغذية الصناعية عن طريق شق البلعوم بالحقن أيضا ؛ كما عرف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى . وأما ابن سينا فقد عرف خصائص العدوى فى السل ، وفى الأمراض التناسلية ، وعلل الميول الشاذة فى الإنسان ، ودرس أحوال العقم ، وعرف العقم العارض من تنافر الأحوال الطبيعية والنفسية بين الزوجين ، كما عرف الأسباب الثابتة التى لادواء لها ولا علاج ، كما ذكر ابن سينا الورم الخبيث ، ووصفه ، وتكلم على أعراضه ، وعلى علاجه بالمسكنات ، ثم قال : إن شفاء المأمول يكون بالجراحة فى أدوار المرض الأولى ، على شرط أن يكون الاستئصال واسعا كبيرا ، وعلى أن يعقم الموضع جيدا ، ومع ذلك فإن الشفاء غير أكيد . وعرف المسلمون ــ كما ذكرنا قبل ــ المستشفيات معرفة صحيحة . وكان الخلفاء والوزراء والأغنياء يتنافسون فى بناء المستشفيات وتجهيزها بالآلات والأدوات . وكان لكل مرض بناء خاص به . كما أن المستشفى الواحد كان يضم أجنحة خاصة بالرجال ، وأخرى بالنساء ، وغيرها للأطفال .

كما كانت المستشفيات تدفأ فى الشتاء ، وتبرد فى الصيف ، وكان المرضى

ـــ وخصوصا فى أدوار النقاهة ـــ يوضعون فى قاعات تعزف فيها الموسيقى ، وتعرض فيها التمثيليات الفكاهية ، أو تقرأ لهم فيها القصص المفرحة ، وكان المريض إذا غادر المستشفى أعطته الدولة مبلغا يكفيه شهرين ؛ كيلا يعمل فى أثناء ذينك الشهرين عملا مجهدا ينكسه فى المرض من جديد .

ووضع المسلمون البيمارستان المحمول ، أو المستشفى النقال ، الذى يحمل الأدوية والأغذية والأطباء البارعين إلى أطراف البلاد الإسلامية ، كما أن كبار الأطباء كانوا يقيمون فى القرى الصغيرة ، وفى بلدان الحدود ؛ لأن كثيرون من المرضى لايستطيعون الحضور إلى المستشفيات البعيدة ، وكان الأطباء المسلمون ينتشرون بالآلاف فى أرجاء الوطن الإسلامى لراحة المرضى وعلاجهم ، وهذا مما امتازت به البلاد الإسلامية ، وتناقلته عملا وعلما الأقطار الأخرى ، فى شتى بقاع العالم ، ونسجوا على منواله .

ثم نعرج بعد ذلك على الرياضة والفلك والمعادن والصناعات ، فنذكر طرفا منها ؛ لنكون على قدر من هذا الجهد الذى بذله المسلمون فى سبيل الإنسانية والتقدم العلمى .

نظرية الإسلام الرياضية والفلكية :

تبنى النظرية الفلكية الإسلامية على حقائق منها :

١ ـــ النظر والكشف والبحث فى العوالم ، يرشدنا إلى هذا القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرض ﴾ [١] ، ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [٢] .

٢ ـــ العلاقة بين تلك الأجرام والكواكب بعضها ببعض ، ويرشدنا إلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [٤] ، وقوله تعالى : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ [٥] .

---

(١) يونس / ١٠١ (٢) ق / ٦ . (٣) يس / ٧٩ . (٤) لقمان ١٠

(٥) يس / ٤٠ .

٣ ـــ الكشف عن أسرارها ، ومعرفة ماوراء تلك الأسرار ، وما تدل عليه ، وارتباط ذلك بحياة الإنسان على وجه الأرض يرشد إلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ،لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[(١)] ، ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[(٢)] ، ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[(٣)]

ابتكار وإبداع :

بهذا المنطق الإسلامى ، وتلك النظرة الفاحصة التى حثهم عليها خالق الأرض والسماء ، ومنشىء القانون ، ومسخر العوالم ، عمل المسلمون جاهدين على النظر والكشف والبحث فى تلك العوالم ، واكتشاف أسرارها ، وإجلاء غوامضها ، والاستفادة من معطياتها . وانسحب ذلك على علوم الحساب والرياضة ، فارتفعت وتقدمت ، وعملت فيها العقلية الإسلامية عملها ، يقول « برونوفسكى » صاحب كتاب ارتقاء الإنسان : « كانت العمليات الحسابية متعة لانهاية لها بالنسبة للعلماء العرب المسلمين ، فقد أحبوا المسائل الحسابية والرياضية ، وكانوا يتلذذون باكتشاف طرق عبقرية جديدة لحلها . وفى بعض الأحيان كانوا يحولون هذه الطرق إلى أجهزة ونماذج ميكانيكية . ثم ظهر الحاسب التنجيمى أو الفلكى ، وهو أداة حاسبة سريعة ، أكثر ارتقاء وتطورا من الأسطرلاب القديم ، وكان هذا الحاسب بمثابة تقويم آلى « يحسب أوتوماتيكيا » ، وقد صنع أيام الخلافة فى بغداد خلال القرن الثالث عشر ، ورغم أن الحسابات التى يجريها لم تكن عميقة ، إلا أنه يعتبر شهادة على المهارة الفنية لأولئك الذين صنعوه قبل سبعة قرون . ودليلا على ولعهم باللعب بالأعداد .

ولعل أهم ابتكار أنجزه العلماء العرب المتصفون بالحماس وحب البحث العلمى والتسامح ، كان فى مجال كتابة الأعداد . فقد كانت أوربا تستعمل فى ذلك

---

(١) البقرة / ١٦٤ .
(٢) الأنبياء ـــ ٣٢
(٣) الحج ـــ ٦٥ .

الوقت الطريقة الرومانية غير الأنيقة فى كتابة الأعداد ، بحيث يعبر عن المدد بوضع أجزائه المؤلفة بجانب بعضها . فمثلا إذا أردنا أن نكتب رقم ١٨٢٥ نكتب بالأرقام الرومانية على النحو التالى mdccc XX V لأن مقدار M= ١٠٠٠ و D= ٥٠٠ و C+ C+ C= ١٠٠ + ١٠٠ + ١٠٠ و X + X = ١٠ + ١٠ و V = ٥ ، أما الإسلام فقد استبدل بهذه الطريقة العشرية الحديثة ، التى لاتزال نسميها الطريقة العربية حتى الآن »[1] وهذه الطريقة العربية تطلبت ابتكار الصفر ، ليترتب عليه النظام الذى يحدد مقدار العدد ، بمنزلة الرقم الذى يوفر رمزا للمنزلة .

هذا ويعرف الجميع فضل الخوارزمى على علم الجبر ، حيث وضع له المصطلحات والقواعد ، وجعله علما قائما بنفسه ، مستقلا عن الحساب والهندسة ، وجعله قابلا للتعليم ، ثم سماه « علم الجبر والمقابلة » ، وأخذ الأوربيون هذا العلم عن الخوارزمى ، وتركوا اسمه « الجبر » ، كما كان الخوارزمى قد سماه ، ثم سموا الحسبان كله « الفورزموسى » ، اعترافا بفضل الخوارزمى . ومثل الجبر فى تاريخ الثقافة علم الكيمياء .

ويظهر فى هذا الميدان جملة من العلماء الأفذاذ ، على رأسهم جابر بن حيان ، الذى وضع أساس علم الكمياء ، وهو علم قائم على معرفة خواص المواد والعناصر ، وعلى التفاعل بينهما . ثم جاء الرازى وصنف تلك المواد ثلاثة أصناف : يرانية أو ترابية ، « ونحن نقول اليوم : غير عضوية » ، ثم نباتية وحيوانية ، ونحن اليوم نجعل هذين الصنفين صنفا واحداً ، فنقول : « عناصر عضوية » . ثم إن الرازى وصف الآلات والأدوات والمواد التى تدخل فى التجارب فى المختبر ، ونصح بإعادة التجربة الواحدة مرة بعد مرة . فاستتم له بذلك وضع علم الكمياء ، نقصد الأسس الضرورية لعلم الكيمياء ، وأخذ الأوربيون هذا العلم عن العرب ، وكان المصريون قديما قد عرفوا علم الكيمياء ، ولكنهم كانوا يكتمونه ، ويعدونه من علوم الكهنة فى الهياكل ، لايطلع أحد عليه ، ومن ذلك وصلت إلينا نتائج الكمياء عن

---

(١) ارتقاء الإنسان لبرونوفسكى ترجمة ــ د : موفق شخاشيرو ص ١٢٣ ط المعرفة الكويت .

المصريين ، ولم تصل إلينا الكيمياء أو تعرف عنهم تعليما أو استخداما ، فالأوربيون أخذوا الكيمياء عن المسلمين ، ولم يأخذوها عن المصريين ، ولم يكن فضل المسلمين على الكيمياء أنهم جعلوها علما ، كما كانوا من قبل قد جعلوا الجبر علما ـــ فقط ـــ بل لأنهم أيضا قد قدموها إلى من جاء بعدهم هدية منهم إلى الحضارة الإنسانية ، لإغناء الثقافة ، وإثراء الحضارة بالتقدم العلمى ، ونذكر ابن الهيثم الذى صنع فى علم المناظر أو البصريات ماصنعه الخوارزمى فى الجبر ، وجابر والرازى فى الكيمياء ، فإن جميع القواعد الأولى فى علم البصريات قد وضعها ابن الهيثم : قواعد انعكاس الضوء ، وانعطاف الضوء ـــ انكساره كما يقال اليوم ـــ وحسبان زوايا السقوط ، وزوايا الانعكاس . وابن الهيثم هو الذى اكتشف أن الضوء جسم مادى ، يسير بسرعة عظيمة جدا ، ومع ذلك فهو يحتاج إلى زمن لقطع المسافة ، وهو القائل بأن للشعاع الواحد من النور طولا وعرضا . وهو الذى نبه على انتكاس الخيال إذا مر فى الغرفة المظلمة ذات الثقب ، وذلك أساس آلة التصوير . ودرس ابن الهيثم العين ، وأشار إلى طبقاتها الضرورية فيما يتعلق بالبصر . ويدهشنا قول ابن الهيثم : « إن العين طريق للرؤية ، تنقل أشباح الأشياء إلى الدماغ ، والدماغ هو الذى يرى ، أى يفسر تلك الأخيلة التى هى أشباح تلك الأشياء المنظورة » . كما يرجع إليه الفضل فى تنظيم البحث العلمى فى التجربة والاستقراء .

وجاء الأوربيون فأخذوا ذلك كله عن ابن الهيثم ، وليس ذلك إلا مجداً لتلك العقول المؤمنة .

كما نبغ فى الفلك علماء كثيرون ، وكان لهم كشوف مذهلة ، منهم أبو الوفا اليوزجانى ، الذى اكتشف إحدى المعادلات الضرورية لتقويم مواقع القمر . كما أنه صنع زيجا سماه الزيج الشامل ، ولم يظهر فضل هذا الفلكى العظيم إلا فى القرن الماضى ، حينما عثر المستشرق الفرنسى « سيديو » على مخطوطات ، تثبت أن بعض الاكتشافات الفلكية التى نسبها المؤرخون إلى علماء القرن السادس عشر قد سبق واكتشفها اليوزجانى قبلهم بستة قرون : وقال « غستاف لوبون » : إن آلات الرصد التى اعتمد عليها اليوزجانى كانت على جانب عظيم من الدقة ، فإنه رصد الميول

بربع دائرة نصف قطرها ٢١ قدما ، وذلك مالا يسهل على الفلكيين فى يومنا هذا . ومن المشاهير أيضا فى هذا الفن أبو الحسن على بن أبى سعيد بن يونس ، وهو الذى اخترع الربع ذا الثقب ، وبندول الساعة الدقاقة ، ورصد كسوف الشمس ، وخسوف القمر ، وأثبت عنهما تزايد حركة القمر ، وحسب ميل دائرة البروج ، فجاء حسابه أقرب ماعرف ، إلى أن اكتشفت آلات الرصد الحديثة .

هذا ، وقد اكتشف على بن رضوان نجما جديدا فى عام ١٠٠٦م فى الفسطاط ، عندما كان يدرس فى القاهرة ، وعين مركزه بدقة بالنسبة إلى النجوم الأخرى ، وحدد موقعه فى برج العرب بالتفصيل ، وظلت تلك المعلومات إلى أن اكتشفت هذه المخطوطة فى أحد الأديرة بأسبانيا ، وقام بترجمتها إلى الإنجليزية « برنهارد غولدشتين » ، أحد أساتذة التاريخ فى جامعة بال ، فى الولايات المتحدة الأمريكية .

هذا . وقد نبغ العرب فى الفلك ، واكتشفوا أمورا كثيرة خلدت إلى اليوم ، فهم أول من اكتشف حركة الشمس فى الأوج ، وعينوا مبادرة الاعتداليين بدقة فائقة ، كما اكتشفوا الاضطرابات التى تحدث للقمر وهو فى عرضه الأقصى . علاوة على ذلك بينوا اضطرابات السيارات فى أفلاكها ، وحسبوا عبور عطارد على سطح الشمس بالضبط ، وأصلحوا قيمة مبادرة الاعتداليين ، ومقدار ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء ، وغير ذلك من الكشوف .

هذا . وقد قامت فى أوربا فى أوائل القرن الثالث عشر جمعيات عدة ، عكفت على ترجمة الكتب العربية إلى اللغة الأوربية ، منها جامعة نيولى ، وجامعة طليطلة ، وغيرها ، وترجموا الأزياج العربية فى علم الفلك من الأشياء المترجمة . هذا . ولا تزال أسماء النجوم التى ترجع إلى أصل عربى تسمى بأسماء عربية لليوم ، برهانا ساطعا على فضل الحضارة الإسلامية الزاهرة » . (١)

---

(١) العرب رواد علم الفلك . محاضرة ألقاها نقولا شاهين أستاذ الجامعة الأمريكية فى بيروت ، الفكر الإسلامى العدد ٤ / ص ٨ بيروت .

أبرز الاختراعات لعلماء المسلمين

قام العرب بمجهود علمي ضخم فى شتى المجالات والميادين ، رغم أن المؤرخين يجمعون على أن كتب العرب قد ضاع معظمها عند هجمات المغول والصليبيين ، خاصة فى الأندلس بعد ضياعها . ولكن رغم هذا الضياع وهذه الخسارة العلمية ، التى تحسر عليها العلماء كثيرا ، عرف عنهم اختراع كثير من الأشياء ، ووضع قواعد لكثير من العلوم والمخترعات . نذكر منها أمثلة ؛ لنكون منها على ذكر .

١ ـ الفيزياء والميكانيكا :

١ ـ المرايا المحرقة ، وأعطونا فكرة عن حرارتها ، ومحل الصور فى المرايا ، وانحراف الأشياء ، وجسامتها الظاهرة .. إلخ .

٢ ـ اخترع العرب الساعة الدقاقة ، وقد أهدى هارون الرشيد ساعة منها إلى شارلمان ، كما اخترعوا الساعة ذات الأثقال ، التى تختلف كثيرا عن الساعة المائية ، كما اخترعوا رقاص الساعة ، الذى كان له دخل كبير فى اختراع الساعة بعد ذلك بما عليه الحال إلى يومنا هذا [١].

٣ ـ وقد قرروا فى الميكانيكيات سقوط الأجسام ، وكان لهم رأى جلى من جهة طبيعة الجاذبية ، ورأى سديد فى القوى الميكانيكية ، وقد اصطنعوا فى ثقل الموائع وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النوعية ، وكتبوا معادلات فى علوم الأجسام وغرقها فى الماء [٢].

٢ ـ الكيمياء :

١ ـ اكتشف العرب من المركبات المهمة : الكحول ، وزيت الزاج « الحامض الكبريتى » ، وماء الفضة ، وما إلى ذلك ، كما اكتشف العرب أهم الأسس الكيميائية ، وهى التقطير .

---

(١) انظر حضارة العرب غستاف ٥٧١ .

(٢) انظر الحضارة الإسلامية حنبكة ص ١٦٣ .

٢ ـــ اكتشف جابر بن حيان أن المعادن مركبة من عناصر كثيرة ، اكتشف منها الكبريت ، والزئبق ، والزرنيخ .. إلخ .

٣ ـــ اكتشف جابر بن حيان ـــ كثيراً من المركبات ، مثل ماء الذهب البوتاسى ، وملح النشادر ، وحجر جهنم « ماء الفضة » ، والسليمانى ، والراسب الأحمر [١].

٤ ـــ واكتشفوا كذلك المواد الصابغة ، وصنع الفولاذ ، ودباغة الجلود ، وكثيراً من الأشياء التى تترتب على الاكتشافات الكيميائية ، وكانوا يأخذون من هذه الاختراعات القواعد اللازمة لكثير من الصناعات ، وقادهم ذلك إلى اختراع أدوات التصفية ، والتبخير ، ورفع الأثقال ، ودعاهم إلى استخدام الموازنة فى الكيمياء ، مما خصوا به دون سواهم ، وهيأ لهم صنع جداول للجاذبية النوعية ، وفتح لهم باب تحسين عظيم فى قضايا وحساب المثلثات ، واختراع الجبر ، واستعمال الأرقام فى الحساب [٢].

٥ ـــ وقد اخترع العرب البارود ، واستعملوه فى الأسلحة النارية التى اخترعوها لذلك ، ولم تعرف أوربا هذا الاختراع إلا بعد أن أخذته من العرب المسلمين بعد ذلك بكثير ، كما اخترع العرب المدافع ، والقذائف التى تطلق منها ، وقد ذكر المؤرخون أن العرب استعملوا ذلك فى حروبهم مع أعدائهم قبل الفرنجة بمائة عام على الأقل . كما اخترع العرب القنابل وذخيرة المدافع ، ووصفوا نسبها ، فقالوا : « تؤخذ عشرة دراهم من ملح البارود ، ودرهمان من الفحم ، ودرهم ونصف درهم من الكبريت ، وتسحق حتى تصبح كالغبار ، ويملأ منها ثلث المدفع فقط ، خوفا من انغزاره ، ويضاف إلى ذلك إما بندق ، وإما نبل ، ثم تشعل .

٦ ـــ كما تعلم المسلمون صناعة الورق ، وكانت قاصرة على الصينيين ، وطوروها وعمموها ، وصنعوا منها الورق الجيد ، وطوروا صناعته ، وصنعوه من أشياء أخرى غير

---

(١) انظر حضارة العرب غستاف ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، حضارة الإسلام حنبكة ص ١٦١ .

(٢) المرجع : انظر الحضارة الإسلامية حبنكة ص ١٦٢ ، انظر الإسلام والحضارة العربية محمد كرد على .

ماكان يصنعه منها الصينيون ، وكان صنعه قاصرا على الحرير ، فاخترعه العرب من الأسمال البالية ، كما صنعوه من القطن ، وصنعوه من ورق الأشجار [1].

٧ ـــ كما اشتهرت فى القرون الوسطى الأوانى الزجاجية الملونة التى صنعها العرب ، كما صنعوا القيشانى ، وغيروا طريقة صنعه وأشكاله ، واخترعوا المصابيح العربية الملونة ، التى انتقلت من الشام إلى معامل البندقية ، ونسج الكل على منوالها ـــ كما تعلم أهل البندقية من العرب صنع المرايا ، وكانت تصنع فى مدينة صور ـــ ومن البندقية انتقلت إلى أوربا .

٨ ـــ كما صنعوا السيوف وطوروها ، وصنعوا الأقمشة ، ومنها الدمقس نسبة إلى دمشق ، ومنها الموسلين نسبة إلى الموصل ، وهى الشفوف ، ونقل الغرب بعد ذلك هذه الصناعات عن المسلمين .

العلوم الطبيعية :

١ ـــ علم العرب كثيرا من الحقائق الطبيعية ، مثل نشأة الجبال التى وصفها ابن سينا ، فقال : تنشأ الجبال عن سببين : إما أن تكون نتيجة ارتفاع قشرة الأرض بفعل إحدى الزلازل الشديدة ـــ مثلا ـــ أو غيرها ، وإما أن تكون نتيجة عمل الماء ـــ وشرح ذلك .

٢ ـــ كما عرف أصل المعادن ، فقال وللمعادن أصل مثل الجبال ، ولابد من انقضاء أدوار طويلة لحدوث جميع هذه التحولات .

٣ ـــ تحول المناخ :ـــ رأى ابن سينا أن تحولات الكرة الأرضية لم تنشأ عن الطوفانات كما كان يعتقد « كوفيه » ، وإنما هى نتيجة تطورات بطيئة ، تمت بتعاقب القرون ، كما أثبت ذلك علم الأرض الحديث .

٤ ـــ كما قال المسلمون بكروية الأرض منذ ابتداء نهضتهم ، كما أن الشريف الإدريسى كان أستاذ الجغرافيا الذى علم أوربا هذا العلم . وأصبح معلما لها مدة ثلاثة قرون ،

---

(١) انظر حضارة العرب غستاف / ٥٨٠ .

ولم يكن لأوربا مصور للعالم إلا مارسمه الإدريسى ، وهو خلاصة علوم المسلمين فى هذا الفن . ولم يقع الإدريسى فى الأغلاط التى وقع فيها بطليموس فى هذا الباب .[1]

الطب : (٢)

كما اكتشف المسلمون فى علم الطب النظرى والتجريبى غير ماقدمناه سابقا .

١ ـــ طور المسلمون الطب التجريبى ، وهو طب العقاقير والحبوب ويقول غونيه فى حديثه عن المسلمين والطب « وقد أغنوا العلم ، ولاسيما علم النبات ، بمسائل جديدة كثيرة ، ومعظم المستحضرات والأدوية المستعملة كالأشربة ، والدهون ، والمراهم ، والكحول ، واللعوق ، والسنامكى ، والرواند ، والخياشنبر ، وجوزالقى ، وهم الذين كشفوها ، كما استلزمت أصول تداويهم أن يعمدوا إلى استعمال الفتائل ، وإلى الحجامة فى أمراض الصرع ،واستعمال الماء البارد فى الحمى الدائمة ، واستطاع جراحوهم تفتيت حصاة المثانة ، كما استخرجوا من العين الجريم العدسى الشفاف ، وعرفوا البنج » .

٢ ـــ وكان المسلمون فى الأندلس يعرفون الجراثيم ، حتى كانت وقايتهم من الأمراض تشبه الوقاية المعروفة الآن ، وكذلك كان الحال فى المشرق .

٣ ـــ كما نبغوا فى علم الجراحة والتمريض ، وقد قدمنا طرفا من ذلك ، فارجع إليه إن شئت .

العمران :

وكان للمسلمين نشاط عجيب فى ميادين العمران وتخطيط المدن ، وهذه آثار حضارتهم العمرانية تراها شاهدة لهم فى الشام ، والعراق ، ومصر ، وبلاد المغرب العربى ، وأسبانيا ، وإيران ، وتركيا ، والهند ، وسائر البلاد الإسلامية . وقد وصف

---

(١) انظر الحضارة الإسلامية حنبكة / ١٥٦ .

(٢) انظر ص ٤١٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٨ من هذا البحث .

المقدسى ميناء عكا ــ التى بناها جده أبو بكر البناء المهندس لابن طولون ــ والطرق التى استعملها فى هندستها ، حتى تدخل إليها المراكب آمنة ، حتى عد هذا الميناء من العجائب .

ويقول « ريسون » فى كلام له عن المسلمين : « وكنت تراهم حين نزلوا يمهدون السبل ، ويعمرون المرافىء ، ويصلحون الفنادق الرباطات ، ويرتبون سير القوافل ، وكانت المدن الإسلامية أوساطا تجارية كبرى » .(١)

وذكر المؤرخون أنه كان فى حى من أحياء دمشق وحدها ، وهو حى الصالحية « جبل مشرف على دمشق القديمة » ــ قرابة ٣٦٠ مدرسة ، .لتدريس مختلف العلوم ، من مختلف الاختصاصات التى كان لها شأن يومئذ وهذه المدارس داخلة فى نطاق الأوقاف الإسلامية ، يضاف إليها المستشفيات ، والبيمارستانات ، والملاجىء التى يأوى إليها ذوو العاهات وأصحاب الحاجات ، وكانت هذه المنشئات الخيرية والتعليمية أحسن حالا وأمتن وآنق من قصور الأثرياء ، وذوى الجاه والسلطان آنئذ .

وكانت عمارة المسلمين للمساجد لاتضارعها فى زمنها عمارة ، ومازالت تلك المساجد شاهدة على ذلك ، يقصدها السواح من كل صوب وحدب . وكذلك القلاع والحصون والقصور ، مما يشهد بعمران واسع كبير ، كما صاحب ذلك فنون جمالية معينة ، كانت روعة ، ومازالت عجيبة من العجائب فى كل مكان ، يظهر ذلك من المحاريب ، والنوافذ ، والقباب ، والمنابر ، والمقنطرات ، والأقواس ، والمقلبات ، والمصابيح ، والمآذن وما إلى ذلك من الفنون الجميلة .

ومما قدمنا تظهر لنا هذه الحضارة العملاقة فى مجال الاختراع والإبداع فى كل مجال من مجالات الحياة ، حضارة ، ومدنية ، وتقدم علمى وعقلى وفكرى ، إن دل فإنما يدل على أمة قادرة ، استطاعت أن تبعث العالم من رقدته ، وتسلمه مقاليد رسالة فتحت مغاليق القلوب والعقول ، وفتحت مغاليق الطبيعة بأرضها وسمائها

---

(١) انظر أسس الحضارة الإسلامية حبنكة ص ١٦٧ .

وعوالمها ، بجهد هؤلاء العابدين القانتين ، الذين جاءوا إلى الدنيا بالخير والنور ، ولن يستعبدوا ، أو يرهبوا ، أو يستذلوا أحداً ، وإنما نادوا بالأخوة والسلام والأمن والطمأنينة ، فكانت ــ حقا ــ هى الحضارة ، وكانت ــ حقا ــ هى الدواء . وما أجدرنا إلى بعثها من جديد ، ونشرها هداية ربانية كريمة .



التاريخ ومؤلفاته

اسم المؤلف	الكتاب
ابن الأثير	الكامل فى التاريخ
ابن العبرى	تاريخ مختصر الدول
ابن القيه الهمدانى	البلدان
ابن بطوطة	تحفة النظار وعجائب الأسفار
ابن خلدون	العبر وديوان المبتدأ والخبر
ابن خلكان	وفيات الأعيان
ابن سعد	الطبقات الكبرى
ابن شاكر	عيون التواريخ مخطوط دار الكتب ١٤٩٧
ابن عساكر	تاريخ ابن عساكر
ابن قتيبة	عيون الأخبار
ابن مسكوية	تاريخ الأمم والملوك
أبو الفداء ابن كثير	البداية والنهاية
ابن هشام	التيجان فى أخبار ملوك حمير
أبو حنيفة الدينورى	الأخبار الطوال
أبو الفرج الأصفهانى	الأغانى
البلازرى	أنساب الأشراف ـــ فتوح البلدان
البيرونى	الآثار الباقية عن القرون الخالية
الثعالبى	غرر أخبار ملوك الفرس
الخطيب البغدادى	تاريخ بغداد أو مدينة السلام
الدينورى	الأخبار الطوال
السخاوى	الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ

اسم المؤلف	الكتـاب
الطبرى	تاريخ الأمم والملوك
القزوينى	آثار البلاد وأخبار العباد
المقرى	نفح الطيب
النويرى	نهاية الأدب فى أخبار الفرس
عبد الله	المسالك والممالك
موسى بن عقبة	المغازى
ياقوت الحموى	معجم البلدان
المقريزى ٧٦٩	المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
	المراجع :
	الضوء اللامـــع للسخـــاوى ٢ / ٢١ ـــ
	شذرات الذهب لابن العماد ٧ / ٢٥٥



أسماء بعض الجغرافيين ومؤلفاتهم وجهودهم

الاسم	المؤلفات
ابن بطوطة	الرحالة ــ وكتابه « تحفة النظار » يصف المدن التى طاف بها حول العالم ومواقعها .
ابن حوقل	حقق مواقع مدن الدلتا ، وضمنها خرائط هامة .
ابن خلدون	ومؤلفاته فى الخطط والرحلات ودراسة المدن والحضارة والعمران
أبو الفداء	تقويم البلدان ــ اشتمل على جداول شملت العالم الإسلامى وجغرافيا المدن
أبو سعيد المغربى	فى بسط الأرض وإنشاء جداول للمدن . كما يهتم بالمدن الحادثة والجديد منها
الإدريسى	اعتمد على التقسيم السباعى للعالم ، واهتم فى داخل كل إقليم بالمدن والحصون ، وصور كل ذلك على كرة مجسمة ، وقد اشتهرت خريطته بذلك .
الاصطخرى	اهتم بمواقع المدن وإثباتها على الخرائط
البكرى	الجغرافيا الأندلسى ، يهتم بجغرافيا المدن ، وآثارها ، ومواقعها
البيرونى	حقق أطول المدن وعرضها ، وله « الآثار الباقية عن القرون الخالية » و « تاريخ الهند »
الخوارزمى	حدد الظواهر الجغرافية داخل كل إقليم ، ومنها المدن الساحلية للدلتا
المسعودى	له « مروج الذهب » وغيره من الكتب ، « والمسعودى » رحالة العالم الإسلامى

الاسم	المؤلفات
المقدسى	له أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ــ وضح فيه الطرق وقواعد الأسفار
المهلبى	له جهود فى قياس المسافات بين المدن ، ووضع ذلك فى كتابه « العزيز » عن مصر
عبد اللطيف البغدادى	له جهوده المعروفة فى تقسيم المدن ، ووصفها ، كما له رحلات وأسفار عدة
ياقوت الحموى	صاحب معجم البلدان



العلوم النظرية عند المسلمين

علم التاريخ والجغرافيا والأدب

إن علم التاريخ والجغرافيا والأدب علمه المسلمون أول ماعلموه من قرآنهم — فقد قص عليهم قصص الأولين ، وذكر أحوالهم فى الأزمنة الغابرة الخوالى — قص عليهم قصص عاد وثمود وفرعون والنمرود ، وقص كثيرا عن اليهود والنصارى ، وعن أحوالهم ، كما وصف البلدان ، وأمر بالسير فى الأرض ، ومعرفة أحوال الأمم ، بما لايخفى على أحد .

وجاء القرآن فصيحا معجزا ، فحفظ البلاغة ، وأزكى الأدب ؛ وأثرى الخيال ، وعلم البراعة ، ولئن نبغ المسلمون فى العلوم الرياضية ، والطبيعية ، والهندسية ، وعلوم الإنسان ، فقد نبغوا كذلك فى علم التاريخ والجغرافيا ، فأبو جعفر الطبرى — سيد المؤرخين — قد جمع فى كتابه كل الروايات التى وصلت إليه بأسانيدها — كما يفعل أهل الحديث — وهى طريقة فى التحرى والدقة لم يعرفها العالم قبل ذلك ، وقد كان الرومان يبنون تاريخهم على الخرافات والأقاصيص الخيالية — وكأن الطبرى قال بعمله هذا للذين جاءوا من بعده : خذوا هذه المادة الخام ، وأجيلوا فيها عقولكم ، ثم احكموا على الأحداث .

ثم جاء العملاق ابن خلدون ، فوجد الكثير من المؤرخين يهتم بأخبار الملوك والمعارك والحوادث ، فأدخل التاريخ فى البيئة الاجتماعية وتطورها ، وكان للتاريخ عنده مجرى كبير واسع ، تخوضه الأمم على مراتبها فى الرقى الحضارى ، وقيم حوادث التاريخ بمقدار مايكون فيها دالا على عمل حضارى معين .

والحقيقة أن تراث المسلمين فى هذه العلوم يحتاج إلى مؤلفات طوال ، ومجلدات ضخمة ، لإلقاء الضوء على تلك الروائع ، وهو مالا يتسع له المجال فى بحثنا هذا ولكننا فى معرض ضرب الأمثلة وإيراد الشواهد على مانقول وما نحتاج إليه لإثبات حجتنا .

سوق العلوم الإسلامية

كانت الأمة الإسلامية الضخمة ـــ من أقصاها إلى أقصاها ـــ تمثل سوقا كبيرا للمعرفة والاختراع والبحث فى جميع المجالات والعلوم . عرض لها القرآن صحائف الكون فى أرضه وسمائه ، ومائه وهوائه ، وجماده ونباته وحيوانه ، وحثها على النظر والتفكير فيما خلق ، وتعرف أسراره فيه ، فتتخذ منها مايقوى إيمانها ، كما تتخذ منها وسائل رقيها فى الحياة المادية ، التى تكون برقيها عزتها وسعادتها ، وبذلك جمع لها بين حظى الجسم والروح ، وجعل حياتها الكاملة فى استيفاء متعة المعرفة واليقين ، ومتعة المادة والعمل ، وصدق الله العظيم ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَافِى الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾[1] ، ﴿ أَلَمْ تَرَوا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِى السَّمٰوٰاتِ وَمَافِى الأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[2] ﴿ الله الذى سخر لكم الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيه بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَمَافِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] .

وقد أرشدنا القرآن إلى التأمل فى كنوز الأرض ، والاستفادة منها ، والمحافظة عليها ، وأرشدنا إلى كثير من أصول الثروات الاقتصادية التى يحتاجها الإنسان فى رقية المادى والحضارى ، فقال تعالى : ﴿ والأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[4] ، ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، والنَّخْلَ وَالزرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ، وَ الزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهاً وغيرَ مُتَشَابه ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَر ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[5] ، ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها ، وَتَرى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ

---

(١) البقرة ـــ ٢٩٠ .

(٢) لقمان ـــ ٢٠ .

(٣) الجاثية ـــ ١١ .

(٤) النحل الآية ـــ ٥ .

(٥) الأنعام ـــ ١٤١ .

تَشْكُرُونَ ﴾[1]، ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ، وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[2].

هذه هي منطلقات الإنسان المسلم فى الحياة ، وعلاقته بالكون ، سيد ينظر ويستخدم وينفع فى مادته وروحه . وفهم المسلمون ذلك بعمق وأصالة وحيوية ، فجاهدوا فى كل نواحى الحياة ، وتفتحت لهم كنوزها ، ثم هاجر إليهم الكثير من كل أمة ، يغترفون من الحضارة والعلم والمعرفة والمدنية .

كتب جورج الثانى ملك انجلترا إلى هشام الثالث الخليفة الأموى بالأندلس يقول : « لقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع به معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة ، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل ؛ لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثركم ، لنشر أنوار العلم فى بلادنا ، التى يسودها الجهل من أربعة أركان » . ولقد أرسل الملك وفدا برياسة وزيره الأول إلى الأندلس ، وكان ملك بلغاريا قد أرسل وفدا إلى الأندلس فى عهد هشام الأول ؛ لدراسة نظم الحكم ، ومناهج التعليم ، وأساليب الإدارة . وعند عودة البعثة أمر الخليفة بأن يرافقها مستشارون وخبراء من الأندلس ، ليساعدوا الملك فى كل مايريد ، ثم أخذ ملوك أوروبا ينسجون على منوال ملك بلغاريا »[3] .

إيضـــاح

بعد هذا الجهد الذى رأيناه من أوائل العلماء المسلمين فى نواحى كثيرة من المعرفة ، نرى أن هذه الصفحات المشرقة من تاريخنا وحضارتنا يراد لها النسيان والاندثار ، والبعد عن سماء المعرفة ، حتى لاتكشف المغتصبين والسارقين والأدعياء الحاقدين ، وساعد على هذا انشغال المسلمين بأنفسهم ، بعدما ذهبت هيبتهم ، ومحيت شخصيتهم ، وافترستهم الأيام الجياع ، والليالى الحوالك ، ومزقهم الباطل الذى

---

(١) النحل — ١٤ .

(٢) فاطر — ٢٧ .

(٣) الإسلام والثقافة العربية ص ١٩٢ .

طالما أزهقه حقهم الغالب ، وحجتهم المحرقة ، فلقد أحصينا العلماء فى الطب ، فوجدناهم آلافا مؤلفة فى شتى أقطار العالم الإسلامى ، وما اخترناه منهم إنما هو مجرد مثل على هذه الكثرة الكاثرة التى زخر بها تاريخ المسلمين ، وكنت أحب بعد جهدى الذى لا أخفى صعوبته ؛ لإهمال المراجع وتناثرها وكثرتها ، أن يدون كل هذا الجمع فى أسفار خاصة ، ومعاجم معينة ، وموسوعات متخصصة ، لفتاً للمسلمين إلى هذا التراث العجيب الضخم العملاق ، وإخراجا لهذا العلم الذى استفادت منه الدنيا فى عصرها الحديث ، وكان سببا فى نهضتها ونبوغها وهيمنتها ، وإظهارا لحقيقة معينة يجب أن تشاع فى العالم اليوم : أن القيم العليا لاتمنع العلم من التقدم والوصول فى كل يوم إلى اكتشاف جديد ، بل إن هذه القيم العليا هى التى كانت الدافع الوحيد الذى دفع بسكان الصحراء إلى هذا الفهم العلمى والحضارى المتكامل فى روحه ومادته ، وخلُقه وزخرفته ، وإنسانيته وزينته ، وأن هذه القيم العليا هى التى أخرجت للدنيا حضارة لها غاية وهدف إنسانى نبيل ، تفتقده اليوم الحضارة الحديثة ، وقد أصبحت بدونه عرجاء قلقة ، تصيب الإنسان بالعقد والأمراض النفسية والاجتماعية الماحقة .



المبحث الثالث

معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا

١ ــ الحروب الصليبية

نشأت اتصالات ثقافية بين العالم الإسلامى من جهة ، والعالم الأوربى المسيحى من جهة أخرى ، كانت لها نتائج طيبة ومثمرة على العالم الأوربى ، من هذه الاتصالات وتلك المعابر : الحروب الصليبية ، فيمكن أن يقال : إن الأوربيين الذين جاءوا إلى البلاد الإسلامية فى موجات متلاحقة ، ولغت فى سفك الدماء ، وخاضت فى دماء الأبرياء ، بدون رحمة أو شفقة ، حتى إذا جوبهت بالجند المسلمين رأت سيوفا معلمة ، وقلوبا مؤدبة ، ونفوسا رحيمة ، تسير برجولة وخلق وحق ، ليست من رسالتها الاستعباد والقهر والظلم واستعراض القوى ، وإنما تطهير البلاد من البغى والجور والعنت وسفك الدماء ، وإرجاع بلاد المسلمين ، حتى ينعم الناس بما كانوا ينعمون به فى ظل رسالة سماوية ، لاتبديل فيها ، ولا تحريف ولا شطط ، فرأى الصليبيون المساواة والعدل والإخاء ، فثاروا على نظام الإقطاع ، وأمتهان الإنسان عندهم ، وأنكروا تسلط الكنيسة وجبروتها ، وكافحوا انتقال الثروة إلى أيدى بعض الأمراء وسماسرة الملوك ــ واغترفوا ماوجدوه من علم وفن وحضارة . فانتقلت إليهم كثير من الصناعات ، والنباتات ، والعقاقير ، والأصباغ ، وفن العمارة ، والهندسة ، وبناء الحصون والقلاع ، كما انتقلت كثير من التقاليد الإسلامية فى الملبس ، والمأكل وفى الأسرة إلى أوربا ، ورجع الصليبيون ، وكأن صعقة كهربائية نبهتهم إلى سوء حالهم ، وجهالة فكرهم ، وضآلة مجتمعهم ، فانتفضوا يبحثون عن العلم والمعرفة ، ويبغون الإصلاح الاجتماعى ، والتقدم الفكرى والصناعى والخلقى .

٢ ــ لقاء صقلية

كانت صقلية هى المعبر الثانى لانتقال حضارة الإسلام وثقافته إلى غرب أوربا ، عن طريق صقلية ، فلما استولى الفاتحون من العرب على صقلية وجنوب إيطاليا ، تركوا لأهلها عاداتهم وقوانينهم وحريتهم الدينية المطلقة ، واكتفوا بأخذ قليل من المال لحفظ الأمن والدفاع ، وأعفوا من ذلك الرهبان والنساء والأولاد ، وحافظوا على جميع الكنائس التى وجدوها ، وعمدوا إلى الزراعة والصنائع ، فأحيوها ، وأنشأوا فيها مصانع الورق والحرير والأقمشة ، وعرفوا مناجم الجزيرة ، وأصلحوا نظام الرى ، وبنو القناطر والسدود ، ونقلوا كثيرا من الزراعات ، كما ازدهرت الأعمال الهندسية والعلمية والرياضية ، وكثرت مظاهر المدنية ونعم الناس بالأمن والسلام والحق ، وأبقى العرب فى الجزيرة كثيرا من عاداتهم ، وتركوا ألفاظا كثيرة من لغتهم فى اللغة الصقلية والإيطالية ، وفى اللغة العامية فى جميع المدن الإيطالية ، التى كانت تتجر مع الشرق وصقلية ، فدخلت بذلك كلمات كثيرة فى اللغة الإيطالية ، ولقد اضطرت مدينة « جنوة » إلى أن تؤسس مدرسة عام ١٢٠٧ م ، وذلك لتعليم وتدريس اللغة العربية لغة الحضارة العالمية . ويدل على ذلك وجود كلمات عربية كثيرة فى لغة هذه المدينة ، وفى اللغات العامية فى جميع المدن الإيطالية ، التى لها علاقة بالشرق الإسلامى يقول « ريبالدى » : إن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية فى اللغة الإيطالية ، والتى تفوق الحصر ، قد دخلت إلى اللغة الإيطالية عن طريق الاستعمار والغزو ، كما هو فى العصر الحديث[١].

وأما عن الثقافة فى الأدب والشعر والرواية والهندسة والطب وغير ذلك ؛ فقد اقتبس الغرب منها الكثير ، وحسبك فى هذا أن العرب المسلمين أنشأوا المدارس المختلفة لتعلم تلك الفنون ، منها أول مدرسة للطب ، التى ماعهد مثلها فى جميع أوروبا ، بل إن مدارس الطب فى الغرب أنشئت بعد مدرسة صقلية الإسلامية بأعوام ، ومن تلك المدرسة انتشر الطب فى البلاد الإيطالية والأوروبية .

---

(١) الإسلام والثقافة العربية ص ٢٠٢ .

٣ ــ لقاء الأندلس :

كان للأندلس الفضل الأكبر فى دفع حركة النهضة الأوروبية إلى الأمام ، فقد قامت بدور يفوق كل الأدوار ، وكانت حركة نقل العلم الإسلامى إلى العالم المسيحى أعمق تغلغلا وأشد قوة ، فقد دامت مدة أطول عهدا من كل مكان آخر ، كما تحقق هناك التطور الحاسم ، الذى كان لابد أن يعتمد عليه تجديد العالم الأوروبى . ذلك أن الأندلس كانت موطنا للعلوم والعلماء ، وفد إليها كثير من طلاب العلم فى أوروبا بأعداد غفيرة فى كل فن وعلم ، فى الطب ، والصيدلة ، والكمياء ، والنبات ، والرياضيات ، والفلك ، والفلسفة ، وكانت جامعة قرطبة ومكتبتها مركزا للعلوم ، يشع منها العلم إلى كل أرجاء القارة الأوروبية . ولقد قام العلماء ــ بتشجيع من الخلفاء ــ على مواصلة البحث العلمى ، والتأليف ، والترجمة ، حتى بلغ عدد الكتب الموجودة فى مكتبة جامعة قرطبة وحدها : نصف مليون كتاب ، وضع لها فهرس مكون من أربعة وأربعين مجلدا .

وكان شغل الأمراء والخلفاء وعظماء الدولة هو جمع العلماء المؤلفات من شتى الأقطار ، واقتناء الكتب ، ومواصلة البحث ، وعقد الندوات العلمية ــ ولهذا بلغت النهضة العلمية والحضارية فى بلاد الأندلس مبلغا دعا إلى الدهشة والإعجاب ــ وقال كثير من علماء الغرب : إن الخدمات العلمية التى أداها المسلمون للعلوم غير مقدرة حق قدرها من المؤرخين ، وإن البحوث الحديثة دلت على اغترافنا من العلم العربى فى العصور الوسطى ، بينما كانت أوروبا غارقة فى ظلمات الجهالة .

تقول الدكتورة سيجريد هونكة : « إن أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربية ، وإن الدين الذى فى عنق أوروبا وسائر القارات للعرب كبيرا جدا ، وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع من زمن بعيد ، لكن التعصب الدينى ، واختلاف العقائد ، أعمى عيوننا ، وترك عليها غشاوة ، حتى أننا نقرأ ثمانية وتسعين كتابا من مائة ، فلا نجد فيها إشارة لفضل العرب وما أسدوه إلينا من علم ومعرفة »[1] .

---

(١) شمس الله على الغرب ــ المقدمة ص ١ .

ثم تقول : « إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها أبناء الصحراء — ومن العدم — من أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى . فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة من نوعها ، وإن الإنسان ليقف حائرا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة . هذه المعجزة العربية ، التى لا نظير لها ، والتى يحار الإنسان فى تعليلها وتكييفها ، إن هذا الشعب الصحراوى حمل لواء النهضة العلمية الفكرية فى العالم ، وبسرعة البرق قبض على صولجان السيادة الثقافية فى العالم »[1] ويقول الفيلسوف الألمانى « نيتشه » : حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة التى حرمتنا بعد ذلك من الإسلام »[2].

والحضارة الإسلامية فى الأندلس وفى غيرها من البلاد الإسلامية فرضت نفسها ، بفضل مالها من خصائص ومقومات ، لاتشاركها فيها أية حضارة أو ثقافة أخرى ، وبهذا أصبحت المدن الإسلامية — ومنها الأندلس — منارات علمية ، وحضارية متقدمة ، ولم تتجه أوروبا إلى الأندلس أو صقلية وحدها ، بل اتجهت إلى جميع البلدان الإسلامية ، وقامت سفارات أوروبية إلى العواصم الإسلامية ، وأولع الشباب بالثقافة الإسلامية ، إلى أن هجر الشباب فى أوروبا لغته القومية ، وثقافته الدينية ، وفكره اللاهوتى ، وعشق اللغة العربية والثقافة الإسلامية . وقد ارتفعت أصوات الرهبان بالشكوى من جراء ذلك ، لأن الشباب وجد من أخلاق المسلمين ومعاملتهم وعلمهم مأأسر لبهم ، ولفت انتباههم إلى هذه الحضارة الإسلامية السامية ، وهذا الفكر الصافى المنير .



(١) المرجع نفسه ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٢) الإسلام والحضارة عبد المنعم خفاجة ص ٢٠١

النقلة من اللغة العربية إلى الأوروبية

بعد أن هضم المسلمون علوم الأولين ، وتراث المعرفة القديم ، وأعملوا فكرهم الذكى ، وعقلهم النابه ، فيما تحت أيديهم ، وفتحوا عيونهم على واقع الحياة وما فيها ، فنظروا إلى الأرض وما تحوى ، وإلى السماء وما تحوى ، وإلى الأحياء وما يجرى عليها ، وإلى الجمادات وماينتج فيها ، وساروا وراء الأسباب ليصلوا إلى المسببات ، ووراء الأعراض ليبلغوا الجواهر ، وعلموا أن للكون أسراراً لاتفتح لجاهل ، ولا تظهر لغر ، ولا تنكشف لكسول ، فشدوا المئزر ، وشحذوا العزائم وفتحوا العيون ، وواصلوا الليل بالنهار ، فأعطاهم العلم مفاتيح كنوزه ، ومقاليد أسراره ، فحملوا رايته فى كل ميدان ، وخاضوا به غمار كل معركة . فأنتجوا وأخرجوا مابهر العالم ، وشرف الإنسانية ،ووضعها على طريق الحضارة والمعرفة الحقة ، وسطعت شمسهم فى سماء الدنيا الحائرة الشاردة ، فتوافد وتهافت كل محب للنجاة ، وطالب للحقيقة ، إلى هذا النبع وذاك المعين ؛ ليروى غلته ، وبدأ بعد أن أشبع نهمته ينقل مايقدر عليه إلى بنى جلدته ، فبدأ المترجمون الغربيون ينقلون العلوم الإسلامية إلى أممهم فى شتى البقاع ، فرأينا المترجمين من الأسبانيين ، أو القطونيين — أمثال يوهانس ، وهسبالنس ودومينيكوس جنذير ألفوس ، ويسمى الأول يوحنا الأشبيلى ، وابن داود ، وكان يهوديا اعتنق المسيحية ، وكان يترجم من العربية إلى القشتالية ، وكان شريكه دومنجو يترجم من القشتالية إلى اللاتينية .

واشتغل بالترجمة كل من :

أوجودى سانتلا ، وكان مختصا بالنجوم والكيمياء .

روبرت أوف تشتر ، وكان فى حوالى فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى

وهومان دالماتا : وهو من أعظم المترجمين

دانيل دى مورلى — ترجم كثيرا من الكتب العربية .

أفلاطون دى تيفولى : ولد سنة ١١٣٤ — مترجم إلى الإيطالية ، عاش فى برشلونة مدة ، ترجم الكتاب الفلكى للتبانى ، والنص العربى لكتاب بطليموس ، كما

ترجم كتاب الجبر لإبراهيم برحيا .

جيرا ردودى كريمونا — مترجم إيطالى ، مولود حوالى سنة ١١١٤ ، وترجم المجسطى عن أصل عربى .

سارطون — ترجم كتبا فى الفلك والنجوم والطب والفلسفة ، بلغت العشرين كتابا .

أبو إسحاق إبراهيم بن الماجد المولود فى غرناطة سنة ١١٢٠ ، وقد أنجز عملا ضخما فى الترجمة إلى اللاتينية .

صمويل بن يهود بن طبون ، سنة ١١٥٠ ، عاش مدة طويلة فى الأندلس ، وتوفى فى مرسيلية سنة ١٢٣٠ ، وترجم كثير من الكتب العربية ، منها دلالة الحائرين . وثلاثة كتب لابن رشد .

موسى بن صمويل سنة ١٢٤٠ — ١٢٨٣م ، ترجم كثيرا من الكتب إلى العبرية ، حوالى ٣٠ كتابا ، منها شروح ابن رشد فى الفلسفة .

يعقوب بن ماهر بن طبون ، ولد سنة ١٢٣٦ فى مرسيلية ، ترجم كثيرا من الكتب العربية إلى القطلونية وغيرها .

اصطفان السرقسطى الذى كان حيا سنة ١٣٣٣ ، ترجم كثيرا من الكتب العربية .

بطرس جاليقوس المتوفى سنة ١٢٦٧ ، ترجم كثيرا من الكتب العربية .

ابن حسداى الداعية ترجم كثيرا من الكتب العربية .

يعقوب الأناضولى : قضى ردحا من الزمان فى خدمة فريدريك الثانى ملك صقلية ، ترجم شروح ابن رشد ، ومن الملوك الذين ساهموا فى النقل من العربية .

الملك ألفونس الحكيم ، الذى كان عالما ونصيرا للعلماء والمترجمين ، وشجع كثيرا على الترجمة فى عهده .

الملك دنييس الذى حكم بالبرتغال سنة ١٢٧٩ — ١٣٣٥ ، وساعد على نمو الثقافة فى قطره ، وأنشأ جامعة برشلونة سنة ١٢٩٠ ، وأمر بترجمة كثير من الكتب

العلمية والأدبية إلى البرتغالية ، وكان من المترجمين فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى .

أرمنجويهود بن موسى الكاهن : ترجم كثيرا من الكتب العربية .

صمويل اللادى أبو العافية : ترجم الكثير من الكتب إلى الأسبانية .

إسحاق سيدها حزان ترجم إلى اللاتينية كثيرا من الكتب العربية .

إبراهيم الحكيم الطليطلى : ترجم كثيرا من الكتب العربية إلى الأسبانية واللاتينية .

سليمان بن يوسف بن أيوب السفردى : ترجم كثيرا من الكتب العربية .

شمطوب بن إسحاق : ترجم من العربية كثيرا من الكتب .

زرحيا بن إسحاق بن شلتيل جراسيا : ترجم من العربية .

ناثان المثوى : كان من المترجمين من العربية .

شمطوب بن يوسف فلفيرا : ترجم كثيرا من الكتب العربية .

ليوناردوا بيزانوا : كان عالما مجددا فى علوم الرياضيات فى الغرب ، ولد سنة ١١٧٠ ، ترجم من العربية .

أرنالدوس فيلا نوفانوس سنة ١٢٣٤ ، ١٢٥٠ ، قام برحلات إلى أسبانيا وإيطاليا وفرنسا ، وترجم من العزبية كتبا ، منها كتب جيلانوس ، والكندى ، وقسطا بن لوقا ، وابن سينا .

ريمون لول سنة ١٢٣١ ـــ ١٢٣٥ ،قام برحلات إلى البلاد الإسلامية ، وتوفى بها ، وترجم من العربية كثيرا من الكتب لابن رشد ، وكثيرا من كتب الرياضة والطب والفلسفة والكيمياء (١) .

---

(١) انظر فى دلك المراجع الآتية ـــ العلم عند العرب للدوميلى ١٢٦ ، ١٣٣ ، ٤٥٧ ـــ ٤٨٤ ، الأدب العربى وتاريخه لمحمود مصطفى ٢ / ٢٤٣ ـــ ٣١٠ الترجمة فى الإسلام عبد العزيز عزت ـــ الرسالة ٦ : ٧٤٠ =

الترجمة فى القرون الحديثة :

هذا . وقد ظلت ترجمة الكتب العربية مستمرة إلى القرن العشرين ، ونحب أن نذكر طائفة من الكتب المترجمة ومترجميها فى العصر الحديث .

يوليوس روسكا : ترجم كتاب « الكيميائيون العرب » ، للألمانية سنة ١٩٢٤ ، ترجم كتب جابر بن حيان ، ونظر فيها .

مارسلان برتيلو : توفى سنة ١٩٠٧ ، ترجم كتب جابر بن حيان من اللاتينية إلى الفرنسية ، وأثبت أن جابر بن حيان يعرف من الكتب اللاتينية أكثر من الكتب العربية . ويظهر أن ذلك كان لضياع كثير من كتبه .

يوليوس روسكا : ترجم كتاب « سر الأسرار » لأبى بكر الرازى ، كما كتب عدة مقالات عن الرازى رائد الكيمياء جديدة فى مجلة عمود ١١٧ ـــ ١٢٤ .

المستشرق الروسي v.L..Karmov ـــ نقل كتاب « سر الأسرار » للرازى إلى اللغة الروسية فى طشقند سنة ١٩٥٧ .

باول كراوس : نشر فهرست كتب محمد بن زكريا الرازى عن مخطوط فى ليدن برقم ١٣٣ إلى الألمانية سنة ١٩٢٣ .

ف . برونر : طب العيون عند الرازى ، رسالة دكتوراه برلين ١٩٠٠ .

جرتشيشف : طب العيون عند على بن عباس ، مع ترجمة إلى الألمانية . رسالة دكتوراه برلين سنة ١٩٠٠ .

ى . هرشبرج : ترجم التذكرة فى طب العيون ، لعلى بن عيسى الكحال ـــ إلى اللغة الألمانية .

تشارلز . د . أوملى : ترجم لاتينية لابن النفيس ، تتعلق بمشكلة الدورة الدموية ص ٦١٧ ـــ ٧٢٠ ، من المجلد الثانى من أعمال المؤتمر الثامن الدولى لتاريخ

= ٧٣٤ ، ٧٨٣ ، ٨٧٤ الترجمة والمترجمون ـــ مجلة الشرق ٣٠ / ٢٨٩ ـــ ٢٩٦ الهلال ٣٣ : ١٠٢٤ ـــ ١٠٢٥ ـــ كتاب مقدمات ومباحث فى حضارة الإسلام ص ١٩٧ ـــ ٢٠١ .

العلوم فرنسته ٩/٣ سبتمبر سنة ١٩٥٦ .

ماكس مايرهوف : طبع كتاب « الصيدلة » للبيرونى فى المعهد الفرنسى بالقاهرة كما طبع فى باكستان سنة ١٩٧٤ ، كما ترجم كتاب « الجامع فى مفردات الأدوية والأغذية » لابن البيطار إلى الألمانية .

ب ــ رلبر برج : كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى ــ رسالة دكتوراه فى جامعة برسلاو سنة ١٩٠٨ .

ب ــ ليفين : نشر كتاب الدينورى عن النبات فى السويد سنة ١٩٥٣ .

جيرد والكريمونى : ترجم كتاب « مختصر من حساب علم الجبر والمقالة » للخوارزمى إلى الفرنسية سنة ١٨٣٨ .

رمزى رايت : ترجم إلى الإنجليزية كتاب « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم للبيرونى سنة ١٩٣٤ .

هـ ــ سوتر : ترجم سنة ١٩١٠ ــ استخراج الأوتار فى الدائرة بخصوص الخط المنحنى عند البيرونى .

ى . ل . هيبرج : ترجم إلى الألمانية كتاب « المرايا المحرقة بالقطوع » للحسن بن الهيثم سنة ١٩١٠ .

يوليوس روسكا : ترجم ونشر كتاب « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » للتيفاشى سنة ١٩١٢[١] .

هذه نماذج قليلة ، ذكرتها واقتصرت عليها خوف الإطالة ، وإلا فذلك يحتاج إلى مجلدات ، تذكر فيها تلك العلوم المنهوبة قديما وحديثا من حضارة المسلمين الزاهرة ، التى أكلها الجاحدون ، ونسبوها إلى أرضهم الجدبة ، وذواتهم الجاحدة ، فكانت مفاتيح المعرفة لهم ، وينبوع الخير لبلادهم ، وزيت الضياء لمصابيحهم ، وقد

(١) المراجع السابقة مع مجلة الفكر . أبحاث المستشرقين فى تاريخ العلوم عند العرب : الدكتور عبد الرحمن بدوى ٩ / ١٣ .

اعترفت قلة منهم بهذا الفضل وذاك التراث ، ولم تستطع كتم المعروف طويلا ، فاعترف السير هيولنستن ــ رئيس الاتحاد الدولى للصيدلة ــ فى المؤتمر الصيدلى العربى ، الذى أقيم فى القاهرة سنة ١٩٦٢م ، بفضل العلماء العرب والمسلمين فى الطب والصيدلة ، وقالت الدكتورة شوار نزهب ــ وزيرة الصحة بجمهورية ألمانيا الاتحادية ــ فى افتتاح المؤتمر الدولى ــ للبلهارسيا ــ بالقاهرة : « إن الغرب لن ينسى أبدا أنه مدين للعرب بدراسة الطب ، وأن مؤلفات ابن سينا ، والزهراوى ، والرازى ، كانت هى الكتب الوحيدة التى تدرس فى جامعة (بالرمو) ، التى تضم أشهر مدرسة للطب فى العالم الغربى ، وكانت هذه الكتب قد ترجمت إلى اللغة اللاتينية . كما أسوق ما قاله (الدكتور غريسيب) ــ مدير جامعة برلين ورئيس فرع الطب فيها ــ حيث قال فى حفل : « أقامه الطلاب المسلمون بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف » : « أيها الطلاب المسلمون ، الآن قد انعكس الأمر . فنحن الأوربيين يجب أن نؤدى ماعلينا تجاهكم ، فما هذه العلوم إلا امتداد لعلوم آبائكم ، وشرح لمعارفهم ونظرياتهم ، فلا تنسوا أيها الطلبة تاريخكم ، وعليكم بالعمل المتواصل ؛ لتعيدوا مجدكم الغابر ، طالما أن كتابكم المقدس عنوان نهضتكم ، مازال موجودا بينكم ، وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم ، فارجعوا إلى الماضى ؛ لتؤسسوا للمستقبل ، ففى قرآنكم علم وثقافة ، ونور ومعرفة ، وسلام عليكم ياطلابنا إن كنا فى الماضى طلابكم » (١) .

هذا وقد خصصت جامعة (برنستون) الأمريكية أفخم ناحية فى أجمل أبنيتها لمآثر المسلمين فى الطب والعلوم ، وأطلقت عليه اسم الرازى ــ أحد أعلام الطب المسلمين ــ كما أنشأت أجنحة لتدريس العلوم العربية ، والبحث عن المخطوطات ، وإخراجها ونقلها من العربية إلى الإنكليزية ، ليتمكن العالم من الوقوف على تلك العلوم ، التى مازالت حية يستفاد منها فى الحضارة والتقدم العلمى .

ويبقى اليوم أن نسأل أنفسنا ، ونسأل شبابنا : ماذا يعرفون عن علوم أجدادهم ، وعن معارف أسلافهم ، وتراث أوائلهم ؟ ونسأل جامعاتنا : هل تفعل

---

(١) أثر العلماء المسلمين ــ أحمد على الملا ص ١٤٣ ط الفكر .

اليوم مايفعله غير المسلمين من الاستفادة بعلوم الأولين من آبائنا وأجدادنا . وهل تلقن طلابها هذه الأصول العلمية ، ليعرفوا ماضيهم ، فيبنوا عليه حاضرهم ، ويكون كالجذر للشجرة ، وكالأساس للبناء ، وكالعمق للنبع ، يعطى ثقة ورسوخا ودفعا وريا للحاضر الظمآن والواقع الصدى .



الفصل الثالث

خصائص تلك الحضارة وأهدافها

من المستحيل أن ينكر عاقل أن النفس الآدمية تظهر أفكارا عديدة ، وصنوفا من التفكير ، فى حدود ذاكرة الإنسان وقدراته . وهذا ينطبق بالضرورة على الجماعات وعلى الأمم ، وفى هذه الحالة فإن التقاليد العامة ونتاج المجتمع الفكرى يوضح الذاكرة والقدرة الجماعية ، التي تحفظ جميع صنوف التفكير فى المجتمع ، وبالتحديد فإن الذى يميز بلدا عن آخر هو التقاليد العامة ، والفكر الجماعى للمجتمع .

وتسرى تلك القاعدة على النطاق الجغرافى ، أو الجنسى ، أو نطاق السلالات القومية ، وكذلك يمكن سريانها أيضا على المدنيات .

وبهذا نستطيع أن نحدد أطر كل من المدنية[1] والحضارة . فيظهر لنا أن المدنية هى مجموع التطورات فى المجتمع بالنسبة للعلوم النظرية والتطبيقية ، وفروع الصناعة والعلوم الاجتماعية والأدب والفنون ، وأى أنشطة فكرية أخرى . هذه هى المدنية ، ولكنها ليست الحضارة ، فالحضارة لا تقوم على الفكر المكتسب ، ولكنها هى الحالة المعنوية ، أو هى حالة دائمة لها آداب فردية وقيم اجتماعية ، فالحضارة مفهوم أخلاقى بحت . وهى ملكة معنوية كلية غير ملموسة ، على الرغم من وضوح آثارها حسيا ، وظهورها فى المجتمع . وهى تتكون فى النفس أو فى المجتمع بواسطة الأفكار والأحداث المستمرة ، وتبعا للمبادىء الأخلاقية .

والمدنية : هى التربة الخصبة التى تستطيع الحضارة بواسطتها أن تؤدى عملها

---

(١) البعض يسمى تطور العلوم مدنية ، وهو أكثر شيوعا ، والبعض يسميه « تقدم علمى » ، ويجعل المدنية مرادفة للحضارة ، ونحن إن كنا نميل إلى الرأى الأخير إلا أننا راعينا فى هذه الفقرة الشيوع ؛ لإيضاح الفرق بين الحضارة وغيرها .

على خير وجه ، وإن كانت الحضارة فى استطاعتها أن تعيش بغير المدنية ، وأن توجد بدونها ، وقد يكون على العكس من ذلك ، فإن الشخص أو المجتمع قد يبدى درجة عالية من الحضارة بلا مدنية . وهذا مانطلق عليه عموما : الآداب الإنسانية . ونستطيع أن نضرب بعد ذلك أمثلة توضيحية لهذا الذى ذكرناه ، فنقول :

إن اختراع الطائرات ، وأقلام الحبر ، والأمصال المضادة للسموم ، والتلفاز ، والمذياع ، والآلات الحديثة ، مدنية ، واستخدام الطائرات فى نقل المصل الواقى من السموم للمحتاج ، وإغاثة المرضى والملهوفين حضارة ، واستخدام الأقلام والتلفاز والمذياع والآلات الحديثة فى تربية الفضيلة ، ونفع الناس ، وإشاعة الأمن والطمأنينة ، حضارة . هذا . وقد توجد الحضارة بغير طائرات وبغير تلفاز أو مذياع . فإغاثة الملهوف ، وعمل الخير ، والعطاء الإنسانى ، لا يتوقف على طائرة أو مذياع ، أو وسائل اتصال حديثة ، ولكن هذا — لاشك — يسهلها ويعممها ويساعدها . وقد توجد مدنية ولا توجد حضارة ، إذا استعملت الطائرات فى ضرب الآمنين ، وإبادة الحرث والنسل ، واستعمل المذياع والتلفاز للإفساد والضلال والانحراف . وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الحضارة تنهض على أركان ثلاثة ، قوامها الإنسان ، وهى :

١ — الوجود — وهى الساحة الحضارية .

٢ — الإنسان — وهو الفاعلية الحضارية .

٣ — العمران — وهو الهيكل الحضارى .

فالوجود ، هو الحياة التى تظهر فيها الأعمال الحضارية ، والإنسان ، وهو الذى يستغل الوجود ، ويعمل فى إطاره وتظهر فيه دلالات تلك الحضارة ، والعمران ، الذى هو نتيجة استعمال العقل فى الخير والنفع ، وسعادة الإنسان ، كل ذلك مركزه الإنسان ، ومداره مابداخله ، وما حوله من عقائد وتصورات وغايات . ولهذا لكل حضارة من الحضارات لا بد لها أن تحتوى بشكل أو بآخر على العناصر التالية :

١ — عقائد ومبادىء أساسية .

٢ — نصور للحياة وغايتها .

٣ ــ منهج تربوى .

٤ ــ نظام اجتماعى .

ولهذا إذا أردنا أن نتكلم على خصائص الحضارة الإسلامية ، فلا بد لنا أن نبين خصائص مناهجها فى هذه العناصر السابقة ، ولكمال الفائدة نعمد إلى مقارنتها بالحضارة الغربية .



المبحث الأول
العقائد والمبادئ الأساسية للحضارة الإسلامية

التوحيد :

طبيعة هذا الدين وعقيدته تقوم على الألوهية الواحدة ، فكل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير . وهذا الأصل العظيم يشمل الحياة كلها ، ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها .

والاستسلام لهذا الأصل ابتداء هو مقتضى الإيمان ، ومتى استقرت عقيدة « لا إله إلا الله » فى الأعماق استقر معها — فى نفس الوقت — النظام الذى ينبثق منها ، وينبع من معينها ، كما أن هذا ليس نظرية تتعامل مع الفروض ، بل هو منهج فطرى ، يتعامل مع الواقع ، ويسير مع طبيعة البشر ، بغير شطط ولا تقصير ، فعقيدة الإسلام شاملة للدنيا والآخرة ، للفرد والجماعة ، للجسد والروح ، للسلم والحرب ، للحاكم والمحكوم ، فلا يكون الإنسان مسلما وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ، أو الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلما لأنه روح تنكر الجسد ، أو لأنه جسد ينكر الروح ، أو لأنه يصحب إسلامه فى حالة ويدعه فى حالة أخرى ، وليس الإنسان مطالبا ليكون مسلما بأن يكون رهينة وساطة بينه وبين السماء ، يتولاها فى المعبد سدنة موكلون بالوساطة بين الخالق والمخلوق ، وبين العابد والمعبود ، ولكن المسلم تعلمه عقيدته أنه لا واسطة بينه وبين ربه ، ولا حجاب يستره عن خالقه ، وصدق الله ﴿ وإذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ ﴾[1] ،

---

(١) البقرة — ١٨٦ .

﴿ مَايَكُونُ مِنْ نَّجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، ولا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهم ، ولا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ ولا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَاكَانُوا ﴾[1]

ولهذا يعرض القرآن قضية الرسالة ، ويحصرها فى التبليغ ، فيقول القرآن : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ ﴾[2] ، ويقول ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظاً . إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ ﴾[3] .

وأما الطاعة والاقتداء ، فيقول القرآن فى ذلك ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَاحُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَاحُمِّلْتُمْ ﴾[4] ، ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[5] .

وعقيدة الإسلام تمتاز بأنها لا تصادم الفطرة ، بل تسير سهلة تتخلل جوانح النفس : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾[6]. لا تسلط فيها أو إعنات ، ولا بغى فيها ولا إرهاق ، بل انطلاق ورحمة وهداية ، نقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾[7] ، ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[8] ، ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُم ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾[9] ، ﴿ يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾[10].

---

(١) المجادلة ــ ٧ .

(٢) الكهف ــ ١١٠ .

(٣) الشورى ــ ٤٨ .

(٤) النور ــ ٥٤ .

(٥) الأحزاب ــ ٢١ .

(٦) الروم ــ ٣٠ .

(٧) ق ــ ٤٥ .

(٨) آل عمران ــ ١٥٩ .

(٩) التوبة ــ ١٢٨ .

(١٠) الزمر ــ ٥٣ .

عقيدة جامعة :

تجمع بين الدنيا والآخرة ، فلا تحتقر المادة لافى صورة « النظرية » ــ باعتبارها هى التى يتألف منها هذا الكون ، الذى نعيش فيه ، ونتأثر به ، ونؤثر فيه ــ ولافى صورة « الإنتاج المادى » ، فالإنتاج المادى من مقومات الحياة ، ولكنه لايعتبر فيها القيمة العليا التى تهدر فى سبيلها خصائص الإنسان ومقوماته ، ويفقد بسببها حريته وكرامته وعرضه ، وصدق الله ﴿ وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[1] . ومن هنا لم يذهب الإسلام مذهب التفرقة بين مالله وما لقيصر ، لأن الأمر فى الإسلام كله لله : ﴿ بلْ للهِ الأمْرُ جَمِيعاً ﴾[2] ، ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، ولاتَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، واحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾[3] . ومن هنا كانت التفرقة بين مالله وما لقيصر تفرقة الضرورة ، التى لايقبلها المتدين ، ولا تقبلها عقيدة ، وهو قادر على تطويع قيصر لأمر الله ، وهذا التطويع هو الذى أوجبته العقيدة الشاملة ، وكان له الفضل فى صمود الأمم الإسلامية لطوق الاستعمار ، وإيمانها الراسخ بأنه دولة زائلة ، وحالة لابد لها من تحول . وقد أبت هذه العقيدة على الرجل المسلم أن يطيع الحاكم بجزء منه ، ويطيع الله بغيره ، وأبت على الإنسان جملة أن يستريح إلى الفصام الوجدانى ، ويحسبه حلا لمشكلة الحكم والطاعة قابلا للدوام .

كما أن العقيدة تعترف بحقوق الجسد ومتطلبات الروح : « إن لبدنك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ، ولربك عليك حقا ، » فإن الاعتراف بحق الجسد لايستلزم إنكار الروحانية ، ولا الحد من إشراقاتها ، إذ لايوصف بالشمول دين ينكر الجسد ، كما لايوصف به دين ينكر الروح : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ ، وَلا تعثَوْا فى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[4]، ﴿ يَاأَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلالاً

(١) القصص ــ ٧٧ .

(٢) الرعد ــ ٣١ .

(٣) المائدة ــ ٤٩ .

(٤) البقرة ــ ٦٠ .

طِيِّباً ، ولَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطانِ ﴾[1]، ﴿ يَاأَيُّها الذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ ، واشْكُرُوا للهِ إِنْ كُنتمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[2] كما تخاطب العقيدة العقل والوجدان . وفى خطاب العقل إحياء لنور فى الإنسان يجب أن يضيىء ، وبصيرة يلزم أن تنتبه ، وليس فى عقيدة الإسلام عصب العيون ، وطمس القلوب ، ووأد الإدراك : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾[3] ، ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمواتِ وَالأَرْضِ ، ومَاتُغْنِى الْآيَاتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لايُؤْمِنُونَ ﴾[4]، ﴿ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَتَفكَّرُونَ ﴾[5]، ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَانُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[6].

عقيدة واقعية ، جاءت لتعمل فى الأرض . جاءت للبشر ، وبأسباب أرضية ، لا بطريق المعجزة ، ولا بطريق كلمة « كن » الإلهية ، إنما تتحقق تلك العقيدة وهذا المنهج بالجهد البشرى فى حدود الطاقة البشرية : ﴿ إِنَّ اللهَ لايُغَيِّرُ مابِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[7] وهذه الحقيقة شاء الله تعالى أن يعلمها للمسلمين عمليا فِى غزوة أحد ، فقال القرآن ردا على سؤال المسلمين : ﴿ أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، ثم قال القرآن معقبا : ﴿ وَمَاكَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾[8]، ثم قال سبحانه مفصلا ذلك : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُم وتَنَازَعْتُم فِى الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِنْ بَعْدِ مَاأَراكُمْ ماتُحِبُّونَ ، مِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا ، وَمِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾[9].

---

(١) البقرة — ١٦٨ .
(٢) البقرة — ١٧٢ .
(٣) سبأ — ٤٦ .
(٤) يونس — ١٠١ .
(٥) البقرة — ٢١٩ .
(٦) النحل — ٤٤ .
(٧) الرعد — ١١ .
(٨) آل عمران — ١٧٩ .
(٩) آل عمران — ١٥٢ .

عقيدة للخلق كلهم :

العقيدة الإسلامية للناس كلهم ، ليست للسادة المتسلطين دون الضعفاء المسخرين ، ولاهى للضعفاء المحرومين دون السادة المنعمين ، ولكنها رسالة تشمل بنى الإنسان من كل جنس وملة : ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ، الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[1] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾[2] عقيدة جامعة وشاملة ، لاتخص بنعمة الله أمة دون أمة ، لأنها من سلالة مختارة دون سائر السلالات ، لفضيلة غير فضيلة العمل والصلاح : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ ، لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[3] ومن تعاليم الرسول ﷺ للمؤمنين : « لافضل لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى »[4] وليس للإسلام طبقة يؤثرها على طبقة ، أو شخص على آخر ، فالناس درجات يتفاوتون بالعلم والأخلاق والأعمال .

ربط القيم العليا بالأعمال :

ليس فى الإسلام فصام بين القيم العليا والأعمال ، بل تنبثق الأعمال عند المؤمن من قيمته ، وتنبع من عقيدته ، وقد ربط الإسلام بين الإيمان والاستقامة فى كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث رسوله العظيم فقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا

---

(١) الأعراف ــ ١٥٨ .
(٢) سبأ ــ ٢٨ .
(٣) الحجرات ــ ١٣ .
(٤) أحمد ٥ / ٤١١ .
(٥) المجادلة ــ ١١ .
(٦) النساء ــ ٩٥ .
(٧) الزمر ــ ٩ .

رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائِكَةُ أَلَّاتخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾[1] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾[2]، ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾[3]، ﴿ ولا تَزرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىَ ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلِي حمْلِهَا لَايُحْمَلْ مِنْهُ شَيءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَى لِنَفْسِهِ ، وإِلى اللهِ المَصِيرِ ﴾[4] وقال ﷺ للسائل عن تعاليم الإسلام وعقيدته : « قل آمنت بالله ثم استقم »[5].

إن العقيدة الإسلامية جاءت لتغير معتقد الإنسان ، وتغير بذلك نظامه الاجتماعى ، حسب نظام تلك العقيدة وتعاليمها ، وهذا النظام ينظر إلى جميع مصالح الحياة من وجهة نظر الأخلاق والقيم ، لامن منطلق الأهواء والشهوات والغرائز ، وإن كان لايغفلها أو يتناساها ، ولكنه يهذبها ويجعلها للإنسان لا عليه ، وفى سبيل سعادته لا تعاسته ، وقد قدر الإسلام قيمة الإنسان بمقدار تمسكه بالقيم العليا ، والعمل على تحقيقها ، لأنه لن يكون إنسانا حقا بغير ذلك . وإن دعوة الفصل بين القيم والأعمال لهى من أعجب ماجاء به الغرب اليوم — وما أشبهها بقول العربى قديما :

خذ من كلامى ولا تنظر إلى عملى   اجن الثمار وخل العود للنار

فما أشبه الليلة بالبارحة وكأن الزمن يعيد نفسه ، وإن الغرب الذى أقر هذه النظرية ، هو نفسه الذى يبطلها بعد أن ثبت فسادها ، « فتأتى أمريكا بلد الحرية الشخصية ، وتفصل ٣٣ موظفا من أعمالهم فى وزارة خارجيتها ، لإصابتهم بالشذوذ

---

(١) فصلت — ٣٠ .

(٢) الكهف — ١٠٧ .

(٣) طه — ٨٢ .

(٤) فاطر — ١٨ .

(٥) مسلم ١ / ٢٧ الإيمان والنووى ١ / ٣٧٦ .

الجنسى وقيل فى بيان سبب فصلهم : إن هؤلاء لايمكن ائتمانهم على أسرار الدولة » [1].

وتأتى انجلترا فى هذه الأيام ، وتفصل وزيرا بارزا فى حكومة تاتشر المحافظة ، لأنه كان يتخذ خليلة له على زوجته ، وتقرر أنه بهذا لايؤتمن على مصلحة بلده .

والقوانين أو النظم التى لاتربط أفعالها وأقوالها بقيم عليا ترجع إلى شرعة الغاب رويدا ، وإن ادعت غير ذلك ، « فحين كان الجنود الإنجليز فى الحرب الماضية يعتدى أحدهم على الآخر ، فيتلاكمان ، فمن انتصر فهو صاحب الحق ، وعلى الآخر أن يعتذر بصرف النظر عن المسيىء الحقيقى ، وبهذا يكون قانون الغاب هو الذى احتكموا إليه ، أما حين يشكو المصرى إلى عمر أن ابن عمرو بن العاص ضرب ولده بغير وجه حق . فيقول عمر للمصرى : اضرب ابن الأكرمين ؛ يكون قانون الإنسانية هو الذى يحكم ، وشرعة الحق والعدل هى التى تقرر وتتصرف [2].

عقيدة وحضارة :

العقيدة الإسلامية هى قوام حضارة ذات رسالة ، وجدت **أولا** : لتبعث الركام الإنسانى الزاهل ، وتعيد له الحياة : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فى النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُه فى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾[3] وإحياء الإنسان قد يكون بشفاء عقله وإبراز إنسانيته ، وقد يكون بإحياء المعانى الآدمية فى تصرفاته وأعماله ، والبعد به عن الحيوانية والبهيمية والوحشية ، ﴿ يَاأَيُّهاَ الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهداءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتَّقْوَىَ واتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون ﴾ [4].

---

(١) انظر جاهلية القرن العشرين ص ١٩٧ ط دار النور .

(٢) انظر الإنسان بين المادية والإسلام ـــ محمد قطب ـــ ص ٢٩١ ط الرابعة بيروت .

(٣) الأنعام ـــ ١٢٢ .

(٤) المائدة ـــ ٨

﴿ إنَّ الله يَأْمُرُكُم أنْ تُؤدُوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وإذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بالعَدْلِ ﴾ [1].

ثانيا : لتحرير الناس تحريرا شاملا من داخلهم ومن خارجهم ، فمن داخلهم بتحريرهم من نزعاتهم وأهوائهم ، ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إِلَّا مَارَحِمَ رَبِّى ﴾[2] ، ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مَنْ رَبِّه كَمَنَ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [3] ، ﴿ وإنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[4] ، ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ باللهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [5]ومن خارجهم بدفع الظلم عنهم ، وفك أسرهم ،وعدم تعبيدهم إلا لله سبحانه وتعالى ، فما خرج أصحاب العقائد من المسلمين ليؤسسوا امبراطورية عربية أو قرشية ، ينعمون فى ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الفرس والروم إلى حكم العرب ، أو إلى حكم أنفسهم . وإنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده . كما قال ربعى بن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد : « إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » : « الناس لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » وفى ظل هذه الرسالة وتلك العقيدة — استطاعت الأمم والشعوب المضطهدة والمغتصبة فى القديم أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكم ، وأن تساهم فى صنع حضارة سعدت بها الدنيا عصورا متطاولة ، وآمادا مديدة . ولم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر فى جميع النواحى من هذا الدور ، الذى تعاونت فيه قوة الروح ، والأخلاق ، والدين ،

---

(١) النساء — ٥٨ .

(٢) يوسف — ٥٢ .

(٣) محمد — ١٤ .

(٤) الأنعام — ١١٩ .

(٥) الأعراف — ٢٠٠ .

(٦) القتال فى الإسلام — ٢٥ .

والعلم ، والأدوات المادية ، فى تنشئة الإنسان الكامل وسعادته .

التصور العقائدى للحضارة الغربية

التصور الاعتقادى ــ كما أبنا ــ هو أداة التوجيه الكبرى للحياة ، إلى جانب النظام الواقعى ، الذى ينبثق منه ويقوم على أساسه ، ويتناول نشاط الفرد كله ، والنشاط الجماعى كله ، فى شتى حقول النشاط الإنسانى . وقد قدمنا التصور الإسلامى المستمد مباشرة من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وتكيفت عليه الجماعة المسلمة الأولى ، ذلك التكيف المذهل ، وتسلمت به قيادة البشرية ، وقادتها تلك القيادات الفريدة ، التى لم تعرف لها البشرية ــ من قبل ولا من بعد ــ نظيرا ، وحققت فى حياة البشرية ــ سواء فى عالم الضمير والشعور أو فى عالم الواقع العملى ــ نموذجا فذا لم يعهده التاريخ ، به عاشت ، وعليه اعتمدت فى الدرجة الأولى .

وكان لحمة هذا النظام وسداه هو القرآن الكريم والسنة . وإذا انتقلنا إلى التصور الاعتقادى للحضارة الحديثة ، وبحثنا عن أصوله وجذوره ، وجدناها هى خلاصة التصورات الأوروبية القديمة وعليها مزيد !! فهى رواسب من التصورات اليونانية ، والرومانية ، ومسيحية القرون الوسطى المحرفة ، مضافا إلى كل ذلك مزيد جاءت به القرون الحديثة ، على يد فلاسفة الحضارة الحديثة وعلمائها ، من اليهود ، ومن المتأثرين بالنظرة العقلية والحسية . وكان يتصور أن تكون الحضارة الغربية قائمة على أساس عقائدى ، نظراً لأن الديانة المسيحية كانت شائعة فى بيئة هذه الحضارة ، ولكن صورة الدين الكنسى الذى صاحب تلك الحضارة وخالطها كان منفردا وغير صالح للحياة . فعلى الرغم من التهذيب الروحى الذى تدعو إليه المسيحية ، والتواضع ، وعدم الاستكبار ، والتسامح ، والارتفاع على متاع الجسد ومتاع الأرض ، فإن المبالغة والتحريف الذى خالط تلك التعاليم ، وتوجيهات الكنيسة ، التى حلت محل الشعائر والتعاليم الصحيحة ، وجعلت الديانة عبء على الحياة . إن المبالغة التى فرضتها الكنيسة فى صورة الرهبانية لم تكن صالحة للحياة السوية ، فضلا عن الفساد الذى

أدت إليه فى الأديرة والأماكن المخصصة للعبادة ، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَاكَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وفضلا عن ذلك فإن الطغيان الذى مارسه رجال الدين الكنسى باسم الدين والذى تمثل فى :

١ ـــ طغيان روحى ، يطالب الناس بالتسليم المطلق ، وعدم المناقشة فى عقائد اخترعوها ، ماأنزل الله بها من سلطان ، ولا يستطيع العقل أو الواقع أن يستسيغها ـــ يقول الأستاذ الندوى فى عجائب الرهبان « ظل تعذيب الجسم مثلا كاملا فى الدين والأخلاق إلى قرنين . وروى المؤرخون من ذلك عجائب . فحدثوا عن الراهب مكاريوس : أنه نام ستة أشهر فى مستنقع ، ليقرص جسمه العارى ذباب سام ، وكان يحمل دائما نحو قنطار من الحديد . وكان صاحبه الراهب يوسيبيس يحمل نحو قنطارين من الحديد ، وقد أقام ثلاثة أعوام فى بئر نزح ، وقد عبد الراهب يوحنا ثلاث سنين قائما على رجل واحدة ، ولم ينم ، ولم يقعد طول هذه المدة ، فإذا تعب جدا أسند ظهره إلى صخرة ، وكان بعض الرهبان لا يكتسى دائما، وإنما يستترون بشعرهم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وكان أكثرهم يسكنون فى مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ، ويأكل كثيرا من الكلأ والحشيش ، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ، ويتأثمون عن غسل الأعضاء ، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم : أبعدهم عن الطهارة ، وأوغلهم فى النجاسة والدنس ، يقول الراهب أتهينس : إن الراهب أنتونى لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره ، وكان الراهب إبراهام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة !! ... إلى أن قال : وكان الرهبان يتجولون فى البلاد ، ويختطفون الأطفال ، ويهربون بهم إلى الصحراء والأديار ، وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ، ويربونهم تربية رهبانية ، والحكومة لا تملك من الأمر شيئا [٢].

---

(١) الحديد ـــ ٢٧ .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٥ ط دار القلم .

٢ ــ طغيان سياسى ، يلزم الناس بالخضوع للأهواء السياسية للبابوات والكرادلة ، ومن تمرد على ذلك الطغيان وتلك الأهواء يتعرض لقسوة البابوات المحرقة ، وإن كان إمبراطور ، يحكى صاحب كتاب معالم تاريخ العصور الوسطى ، فيقول : « ومن قسوة البابا أن يعلن حرمان امبراطور ، فيضطر أحيانا إلى الوقوف ببابه ثلاثة أيام ، حافى القدمين ، عارى الرأس ، بين الثلوج والأمطار ، حتى يأذن له البابا ، ويغفر له ذنوبه ، كما فعل الإمبراطور « هنرى الرابع » ، حين حرمه البابا عام ١١١٧ .. كما أنه فى عهد البابا « أرنسست الثالث » أعلن غضبه على الملك « جون » ــ ملك انجليزى ــ ثم أنزل نقمته على انجلترا كلها ، وأعلن عليها حربا صليبية ، وحرض ملك فرنسا « فيليب أغسطس » على مهاجمته ، وضم انجلترا إليه ، فاضطر عندئذ ملك انجلترا إلى طلب الغفران من البابا ، فغفر له ، وقدم له الملك « هدية » ، على أن يكون تابعا للبابا ، وأقسم له يمين الولاء على ذلك »[١].

هذا بالنسبة للملوك والرؤساء ، فما بال العامة والمفكرين والضعفاء ومن لايملكون حولا ولا قوة . كانت هناك محاكم التفتيش التى يعرف خبرها القاصى والدانى ، والتى سارت بذكرها الركبان ، من ظلم ، وقهر ، وبغى على الأرواح ، والأجساد ، والدماء ، وكان الناس ينتظرون من الدين العدل والرحمة والسكينة ، ولكنْ هيهات هيهات .

٣ ــ طغيان مالى ــ يلزم الناس بدفع عشور أموالهم للكنيسة ؛ لكى يكتنزها رجال الدين ، ويغرقوا أنفسهم فى الشهوات المحرمة ، وأصبحت الرهبنة مكسبا ومتجرا ، يتجر فيه أهل المنفعة ، ويفوز به كل منحرف .

يصف « ليكى » فى كتابه تاريخ أخلاق أوروبا ، وما وصلت إليه الرهبانية من تجارة وبلاء ، فيقول : « زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة ، وعظم شأنهم ، واستفحل أمرهم ، واسترعوا الأنظار ، وشغلوا الناس ، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة ، ولكن مما يلقى الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية ، ماروى المؤرخون

---

(١) معالم تاريخ العصور الوسطى ص ١٤٨ ، ومعالم الحضارة لعلوان ص ٤٠ .

أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفا من الرهبان ، وفى القرن الرابع المسيحى كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب ، وكان الراهب « سرابين » يرأس عشرة آلاف ، وقد بلغ عددهم فى نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر »[1] ويسائل كل باحث نفسه : من كان ينفق على هؤلاء ، ومن كان يأتيهم بالمال ، ومن كان يرزأ بخدمتهم وتسلطهم وبغيهم وإرهابهم ، وهم على تلك الصورة المجافية للواقع ، والفطرة ، لاشك أنهم كانوا عبئا ثقيلا جدا على كاهل الأمم والشعوب .

٤ ـــ طغيان علمى ، يلزم الناس بأفكار معينة عن شكل الأرض ، وعمرها ، وعمر الإنسان فوقها . رغم أن العلم النظرى والتجريبى يكذبها ، وكانت تَصِمُ كل علم لايأتى عن طريقها بالغباء ، فيروون عن الرب قوله : « إن علم الدنيا غباء » ، ويقول رسولهم بولس : « يوجد مكتوب : أريد أن أهدم حكمة الحكماء ، وأحطم عقل العقلاء ، ثم يقول : « إن الغباء الموجود فى الوجود اختيار الله . وهذا يسىء إلى الحكماء» .[2]

ولهذا ثارت الكنيسة على كل رأى حر ، وفكر جديد ، وعقل مفكر ، وحكمت على كثير من المفكرين بالإعدام والحرق فى الساحات العامة ، « فقد أحرقت الكنيسة كثيرا من العلماء وهم أحياء كأمثال « جون هسى » سنة ١٤١٥ ، و « جيروم البراجى » ، و « جان دارك » ، و « برونو » سنة ١٥٩٨ ، ومئات غيرهم ، وسجنت منهم من سجنت ، من أمثال « أبيلارد » ، و« روجر بيكون »، « وجاليليو » ، ومئات أمثالهم ، قضى منهم من قضى فى سجنه ، وأحرق منهم من أحرق بعد موته ، وشرد منهم من شرد » [3].

نبذ الدين ومعاداته :

هذه الألوان المكثفة من الطغيان الكنسى ، بالإضافة إلى الفساد الروحى

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) شمس الله على الغرب ص ٢٧٤ .

(٣) معالم الحضارة علوان ص ٤٦ ، ٤٥ .

والفكرى والخلقى لرجال الدين ، ومصادمة تعاليم الكنيسة للطبيعة البشرية السوية ، للحياة والمعاش والكون ، حرض بعض المفكرين على نبذ الدين الكنسى ، ومجافاته ، ومعاداته ، ومحاربته ، ومفاصلة كل مايتصل به من قيم صحيحه أو محرفة ، والبحث عن أسلوب آخر للحياة لا يتصل بالدين .

وابتدأت الثورة فى القرن السادس عشر ضد طغيان الكنيسة ورجالها ، ثم انتهت فى القرن الثامن عشر بثورة ضد الديانة المسيحية وعقائدها ، « ففى القرن السادس عشر قال « لوثر » فى بيان وجهه إلى البلاد الألمان : أليس من المزرى أن يطلب البابا لنفسه حق التصرف فى الإمبراطورية ؟ فهل نسى قول سيده — « يعنى المسيح » إن الملوك هم الذين يسودون الأرض ؟ ولكن شأن البابا ليس كشأن الملوك ، فلينزل إذا قسيس روما عن حقوقه المزعومة فى مملكته نابولى وصقلية ، فإن حقه هناك لايزيد عن حقى أنا — « لوثر » — وليؤد البابا فريضة الصلاة ، ليذر الأمراء يحكمون الممالك .. »[1] وهذه الثورة لا يسأل عنها « لوثر » ، ولا « جاليلو » ، ولا « فولتير » ، وأمثاله من المصلحين والعلماء والأدباء ، وإنما يسأل عنها أوغسطين ، وغريغورس ، وأرنيست ، وأمثالهم من القديسين والأحبار والرهبان والآباء ، الذين أفسدوا الكنيسة ، وغيروا ، وبدلوا ، واستحلوا دماء الناس وأموالهم وأعراضهم . ولقد كانت أمام أوروبا فرصة — لو أرادت — أن تخرج من ضلال الكنيسة إلى نور الإسلام ، ولكن الكنيسة كانت قد سدت الطريق بين أوروبا والإسلام ، حين عمت على الناس وأضلتهم ، وأبعدتهم عن الصواب ، فأوعزت إلى كتابها فى العصور الوسطى أن يكتبوا ضد الإسلام وتعاليمه ، وأن يصموه بكل نقيصة ، ويشوهوا صورته فى نفوس الأوربيين ، ولذلك فإن أوربا حين خرجت من قرونها الوسطى المظلمة ، وبدأت تبنى نهضتها — اعتمدت على تصورين :

١ — تصور اعتقادى : تستمد منه أصول نهضتها ، وقد رجعت فيه إلى التصور الإغريقى والرومانى .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢ .

٢ ـــ تصور علمى تجريبى : تبنى عليه منهجها العلمى التقدمى ـــ ورجعت فيه إلى المسلمين ، واقتبسته منهم ، وقد سبق الكلام على المنهج العلمى للمسلمين ونحن الآن بصدد بيان التصور الاعتقادى الذى ترجع إليه أصول الحضارة الأوربية .

حقيقة التصور الاعتقادى للحضارة الأوربية :

يرجع المفكرون والباحثون وعلماء الحضارات التصور الاعتقادى للحضارة الغربية إلى ينابيع معينة ، ترجع إلى الحضارة الإغريقية والرومانية وأخلاط أخرى ، وذلك لأنهم وجدوا أن الحضارة الأوروبية فى التصور الاعتقادى تشترك مع تلك الحضارات فى أمور ، منها :

١ ـــ الإيمان بالمحسوس .
٢ ـــ قلة الاعتداد بالدين ، أو الاهتمام به ، بل العداء له .
٣ ـــ النزعة العرقية ، والتشبث بها .
٤ ـــ الميل إلى اللذة والمتاع ، والهيام بالحيوانية .

والحقيقة أن سند هذا التحليل قوى ، يتجه فى كثير من الأحيان إلى اليقين والجزم ، لأن الأمة الإغريقية كانت أمة وثنية ، تعدد الآلهة ، وتجسدهم ، وتصنع لهم التماثيل ، « فمثلا » « جوبيتر أوزفس » ـــ وهو أب الآلهة ـــ يجلس على عرش ، ويحمل بيده وميضا من البرق ، ويقف إلى جانبه نسر ، و « نيتواوبوسيدون » ويحكم البحر ، ويركب فى عربة تجرها خيول ، ويحمل بيده صولجانا ، و « فولكان أوهافيستوس » وهو إله النار ، وهو حداد أعرج ، يشتغل على كور فى كهف[1] وهكذا ، كما كانت الأمة الإغريقية تعتقد أن العلاقة بين الإله والإنسان علاقة عداء وكراهية ، فهى لذلك تصورهم بأبشع صورة وأكرهها ، فيقولون عن « جوبيتر ـــ رب الأرباب ـــ أنه حقود لدود ، مشغول بشهوات الطعام والغرام ، لايبالى من شئون الأرباب والمخلوقات إلا مايعينه على حفظ سلطانه ، والتمادى فى

---

(١) انظر تاريخ العالم ـــ هلير ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ بتصرف ط دار الأديب دمشق .

طغيانه ، وكان يغضب على « استولاب » ـــ إله الطب ـــ لأنه يداوى المرضى ، فيحرمه جباية الضرائب على أرواح الموتى ، الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية ، وكان يغضب على « بروميثيوس » إله المعرفة والصناعة ـــ لأنه يعلم الإنسان أن يستخدم النار فى الصناعة ، وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب ، وقد حكم عليه بالعقاب الدائم ، فلم يقنع بموته ، ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهه ، بل تفنن فى اختراع ألوان العذاب له ، فقيده إلى جبل سحيق ، وأرسل عليه جوارح الطير ، تنهش كبده طوال النهار ، حتى إذا جن الليل عادت سليمة فى بدنه ، لتعود الجوارح التى نهشتها بعد مطلع الشمس ، ولايزال هكذا دواليك فى العذاب الدائم ، مردود الشفاعة ، مرفوض الدعاء .

ومما رواه الشاعر الفيلسوف « هزيود » عن علة غضب الإله على « بروميثيوس » : أنه قسم له نصيبه من الطعام فى وليمة الأرباب ، فأكثر فيه من العظام ، وأقل فيه من اللحوم والشحوم .(1)

كما كانت الحكايات تسير بها الركبان ، ويحكيها القصص عن عشق الآلهة ، وخياناتهم ، وهيامهم بالغلمان الحسان ، وشربهم الخمر فى سهرات حمراء بين تمايل الرؤوس والكؤوس ورحيق الشفاه . وهذه السمة الفاجرة للآلهه لاشك أنها تذهب أثر العقيدة فى عالم الواقع ، وتوزع إشعاعاتها السامة فى المجتمع ، لأن العقيدة هى الحياة !! سواء صحت هذه العقيدة أم خالطها الفساد والبوار ، فهى تلقى ظلها على الحياة البشرية كلها .

ولهذا ، فقد انطبع المجتمع الإغريقى بطابع عقيدته ، وكان شعاره « المادية » ، وقد كان ذلك ناطقا فى كل مايتصل بتلك الحضارة .

وجاءت بعد ذلك الحضارة اليونانية ، فكانت الوارث الوحيد لتراث الإغريق ، فنسجت على منواله ، وسارت فى دربه ، فعددت الآلهة ، ونحتت لها التماثيل ، وبنت

---

(1) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ٥٩ ـــ ٦٠ ط دار الكتاب العربى بيروت .

لها المعابد ، ونسجت حولها الأساطير والخرافات وصوروا معانيهم الشهوانية فى صورة الآلهة ، فللحب إله ، وللجمال إله .. الخ . وقد أقر العلماء الأوربيون بغلبة المادية فى الحضارة اليونانية ، وقد حاضر فى ذلك الدكتور (هاس) ، فقال : « المدنية اليونانية هى مركز المدنية الغربية الحاضرة ، وكان المهم عند رجالها نشوء قوى الإنسان نشوءاً متناسبا ، وكان المثل الكامل عندهم الجسم الجميل المتناسب .

وليس هذا إلا اعتداداً بالمحسوسات اعتدادا كبيرا ، وكان أكبر عنايتهم بالرياضة البدنية ، والألعاب الرياضية ، والرقعى ، وغيره وكان التثقيف الذهنى يحتوى على الشعر ، والغناء ، والتمثيل ، والفلسفة ، وعلوم الطبيعة ، لا يتجاوز حدا خاصا ، حتى لايكون ارتقاء الذهن على حساب الجسم ، وكان الدين خلوا من الروحانيات المعنوية ، لم يكن فيه علم الدين ، ولا طبقة رجال الدين . أما اللون الروحى الذى فى تقاليد « أزفس » وغيرها ، فإنما هو مستعار من الشرق ، ولا يصح أن ينسب إلى « المدنية اليونانية »[(١)] وقد سرت فكرة التعدد والحسية هذه إلى الديانات المحيطة باليونان ، كاليهودية ، والمسيحية ، فصورة « يهوه — إله شعب إسرائيل — هى صورة بعيدة عن الوحدانية ، يشترك معها آلهة كثيرون ، تعبدها الأمم التى جاورت العبرانية فى أوطان نشأتها ، وأوطان هجرتهم ، ولكن « يهوه » يغار منهم ، ولايريد من شعب إسرائيل أن يلتفت إليها »[(٢)] وقد كان يهوه إلها حسيا ، يراه اليهود ، ويجالسهم ، ويعرفون تحركاته ، ولهم فى وصف ذلك قصص وأحاديث ، « وقد وصفوه فى كتبهم المقدسة ، فقالوا عنه مرة : إنه يحب ريح الشواء ، وقالوا عنه مرة أخرى : إنه يتمشى فى ظلال الحديقة ليتبرد بهوائها ، وقالوا عنه غير هذا ، وذلك : أنه يصارع عباده ، ويصارعونه ، وإنه يخاف من مركبات الجبال كما يخافها جنوده ، وغبروا ردحا من الدهر ، وهم يسوون بينه وبين عزرائيل شيطان البرية ، فيتقربون إليه بذبيحة ، ويتقربون إلى الشيطان بذبيحة مثلها »[(٣)].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٧٥ ط دار القلم .

(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٦٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨ .

أما فى المسيحية فقد داخلها ــ مثل اليهودية ــ التحريف والتبديل ، فتارة تدعى أن عيسى هو الإله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [1] ، وتارة تدعى أنه ابنه ﴿ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا ﴾ [2] ، وتارة يقولون : إنه ثالث ثلاثة ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾ [3] ويقول الباحثون : إن أول التحريف الذى دخل فى المسيحية كان فى عهد بولس ، ثم كان التحريف الثانى فى عهد قسطنطين . يقول « درابر » : « دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين ، الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية فى الدولة الرومانية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوما من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين ، فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا فى آخر عمره (٣٣٧) م » [4].

أسباب هذا التصور :

مما قدمنا يتضح لنا أن الانحراف فى التصرف الاعتقادى للحضارة الغربية ، ونفرتها من الدين ، كان له سببان : أحدهما ظاهر جلى ، والآخر مستتر خفى .

فأما السبب الظاهر ؛ فقد تمثل فى خروج الكنيسة على العقل والواقع وكل مفهوم للحركة والتطور ، وفى حربها للعلم والعلماء ، خوفا على سلطانها التقليدى أن يزحزحه القلم عن مكانه ، ويستبدل به سلطانا آخر لا تكون الكنيسة طرفا فيه . فلما جاهدت الحركة العلمية والعقلية ، وصبرت ، وكافحت ، وانتصرت ، كان طبيعيا أن تعادى الكنيسة وتمقتها ؛ لأنها عوقتها ، وأثخنتها بالجراح ، ولطختها بالدماء ، وما ارتفعت الحركة العلمية هذا المرتقى إلا على أشلاء الضحايا ، والمشردين ، وصرعى محاكم

---

(١) المائدة ــ ١٧ .

(٢) مريم ــ ٩٠ ــ ٩١ .

(٣) المائدة ــ ٧٣ .

(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٨٣ .

التفتيش ، وكان طبيعيا أن تكسب النهضة الفكرية الجولة الحضارية ، وتثبت فشل الكنيسة وتخلفها ،وتنحيها عن ميدان الحياة غير مأسوف عليها .

وأما السبب الخفى ؛ فهو ذلك الميراث الذى حمل فى طياته الكثير والكثير من ميثاق الثقافة الإغريقية والرومانية ، الضارب فى أعماق الضمير الأوروبى الوثنى ، والذى لم تحاول النصرانية أن تؤثر فيه ، بل تأثرت هى به ، وداخلها كثير من أوزاره وشروره ، وتحكمت فى أمور الناس ، وأوقفت نبوغهم ، وتصورهم للحياة الصحية .

وعلى كل ، فقد انصرف الغرب إلى المادية ، وغرق فيها حتى الأذقان ، وكان تصرفه تمثيلاً حيا لها ، وبعثا جديدا لروح آبائه الإغريق والرومان ، وقد حدث هذا التحول على فترات وبتدرج ، حتى استوت المدنية الغربية بعد حين على عرشه ، وتسلمت مقاليده ، وجحدوا كل شيء وراء الحركة والمادة والحس .

مظاهر هذا التصور المادى :

افتتنت أوربا بالتقدم المادى ، ولم يصاحب هذا التقدم إيمان عاصم ، أو عقيدة موجهة ، فكان هذا دافعا قويا إلى الغرور بالنفس والعقل وصدق الله : ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ، فادعى لنفسه ماليس لها ، ونسب إليها القهر ، والحكمة ، والعلم ، والإبداع ، وظهرت فى الغرب المؤلفات التى تمجد الإنسان وترفعه ، من أمثال تلك الكتب ـــ الإنسان يصنع نفسه ، Man makes himself والإنسان يقف وحده Man Stop Alone أى دون أى معونة من الله ، ودون أى وصاية من الله ، ليكون سيد الأرض وقاهرها ، والمسيطر على الطبيعة .

وساعد على تثبيت تلك النزعة فى نفوسهم أقوال كبار المثقفين فيهم ، ومن اكتووا بنيران الظلم والبغى الكنسى ، من أمثال « فولتير » ، و « جان جاك روسو » ، حيث يقررون : « أن الديانات والقوانين ماهى إلا منظمات مستحدثة ، وأعراض طارئة على البشرية . يقول : « فولتير » : إن الإنسانية لابد أن تكون قد عاشت قرونا متطاولة فى حياة مادية خالصة ، قوامها الحرث والنحت والبناء والحدادة

والنجارة ، قبل أن تفكر فى مسائل الديانات والروحانيات .. بل قال : إن فكرة التألية اخترعها دهاة ماكرون من الكهنة والقساوسة ، الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء »[1] ثم يعلق الدكتور محمد عبد الله دراز على هذه الفقرة ، فيقول : « إن هذه النظرة الساخرة للأديان والقوانين ليست مبتكرة ، وإنما هى ترديد لصدى مجنون قديم يتفكه به أهل السفسطة من اليونان ، وكانوا يروجونه فيما يروجونه من المغالطات والتشكيكات . فقديما زعم هؤلاء السفسطائية أن الإنسان كان فى أول نشأته يعيش بغير رادع من قانون ، ولا وازع من خلق ، وأنه كان لايخضع إلا إلى القوة الباطشة ، ثم كان أن وضعت القوانين ، فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ، ولكن الجرائم السرية مابرحت سائدة منتشرة « فهنالك فكر بعض العباقرة فى إقناع الجماهير بأن فى السماء قوة أزلية أبدية ، ترى كل شىء ، وتسمع كل شىء ، وتهيمن بحكمتها على كل شىء .. »[2] وهكذا تبرز آثار الثقافة اليونانية الملحدة من خلال زعماء النهضة إلى تلك الشعوب التى فقدت الثقة بالتدين المحرف ..

الإنسان عابد بطبعه :

ولكن هناك حقيقة يجب أن ندركها ، أن الإنسان عابد بطبعه ، نعرف هذا من استقراء التاريخ البشرى ، ومن أحوال الأمم ، ومن قول القرآن : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[3] ولكن منهم من آمن ، ومنهم من كفر ، والإنسان ولد وفى فطرته آثار الخضوع ، وبصمات العبودية ، فإذا لم تكن لله كانت لشىء آخر . وليس الفرق بين إنسان وإنسان فى العبادة : هو أن إنساناً يعبد ، والآخر لا يعبد ، بل الفارق هو أن إنسانا يعبد الله ، والآخر يعبد إلها آخر غير الله . قد يكون صنما أو وثنا ، أو يكون هوى . كما يقول تبارك وتعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾[4] ، أو يكون أى معبود آخر ، ولكن الإنسان فى النهاية لابد أن يكون عابدا لمعبود ما .

---

(١) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٨١ .
(٣) فاطر / ٢٤ .
(٤) الجاثية ــ ٢٣ .

يقول معجم « لاروس » للقرن العشرين : « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية » .

ويقول هنرى برجسون : (لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد جماعة بغير ديانة) [1].

وقد تبدو الحضارة المادية الآن استثناء من تلك الحقيقة المدركة من استقراء الأمم والتاريخ ، ولكنها فى الحقيقة تأكيد لها ، فكل مافى الأمر أن هذه الشعوب لم تعد تعبد الله ، ولكنها تعبد آلهة أخرى ، تسميها الدولة أحيانا ، أو الحزب أحيانا أخرى ، أو المذهب ، أو تسميها المصلحة العليا ، أو تسميها المجتمع ، أو تسميها العقل ، أو العلم ، أو التقدم المادى ، أو تسميها سيطرة الإنسان على المادة ، أو تسميها العرق ، أو تعبد الشهوات : شهوة الجنس ، أو المال ، أو السلطان ، أو القوة ، أو التفوق .

يعبر عن هذه الحقيقة فى وضوح وصراحة الأستاذ الألمانى ، الذى أسلم فيما بعد ، « محمد أسد » فى كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » فيقول : « لاشك أنه لايزال فى الغرب أفراد يعيشون ويفكرون على أسلوب دينى ، ويبذلون جهدهم فى تطبيق عقائدهم بروح حضارتهم ، ولكنهم شواذ . إن الرجل العادى فى أوروبا ، ديمقراطيا كان أو فاشيا ، رأسماليا كان أو اشتراكيا ، عاملا باليد أو رجلا فكريا ، إنما يعرف دينا واحدا ، وهو عبادة الرقى المادى ، والاعتقاد بأنه لاغاية فى الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل ، وبالتعبير الدارج « حرة مطلقة » من قيود الطبيعة . أما كنائس هذا الدين . فهى المصانع الضخمة ، ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية ، ودور الرقص ، ومراكز توليد الكهرباء ، وأما كهنتها : فهم رؤساء الصيارفة ، والمهندسون ، والممثلات ، وكواكب السينما ، وأقطاب التجارة والصناعة ، والطيارون ، والمبرزون الذين يضربون رقما قياسيا .

ونتيجة هذه النهامة للقوة والشره واللذة ، النتيجة اللازمة : ظهور طوائف

---

(١) المصدر السابق ٣٢ ـــ ٨٣ ط دار القلم .

متنافسة ، مدججة بالسلاح والاستعدادت الحربية ، مستعدة لإبادة بعضها بعضا إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها ، أما فى جانب الحضارة ، فنتيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة فى الفائدة العلمية ، والمثل الكامل عنده ، والفارق بين الخير والشر ، هو النجاح المادى[1] ونسمع قول الصحفى الأمريكى المشهور John Gunlhev فى كتابه « داخل أوروبا » يقول : « إن الإنجليز إنما يعبدون بنك انجلترا ستة أيام فى الأسبوع ، ويتوجهون فى اليوم السابع إلى الكنيسة »[2]، أى للترفيه والتسرية عن النفس فقط .

وبهذا نعرف أنه لاأثر للرقابة الإلهية ، ولا للوازع الدينى ، أو الإيمانى فى تلك القلوب ، وأن أمر الغيب عندهم أصبح من المثبطات أو المتاهات ، التى خلصوا أنفسهم منها ، فضلا عن العبادة والشعائر العبادية ، التى صرحوا أنها مضيعة للوقت ، وتعطيل للإنتاج ، وللأسف ، فإن تلك العدوى تنتقل إلى كثير من الأمم الشرقية الآن .

آثار هذا التصور :

لانريد أن ندخل فى جدل واسع مع تلك التصورات ، ويكفينا مانراه من آثار هذا الفساد الشامل على وجه الأرض ، ومن الشقوة التى تصب على البشرية من جراء تحكم هذه الأهواء ، التى لاتحكمها رحمة أو قيم أو مبادىء ، وإنما تقودها المصلحة والرغبة والتسلط ، نعم قد تصل تلك الحضارة إلى حقائق كثيرة فى العلم المادى وتطبيقاته العملية ، وتبنى على ذلك صرحا من المدنية شاهق البناء ، ولكن ذلك لايورثهااستقراراً ، أو يعوضها مافقدته من الحق الأكبر فى حياتها ، ومن الخواء الروحى الذى أصابها بعبادتها غير الله سبحانه . لايعوضها كرامتها الإنسانية ، وأمنها ، وشفاء جوعتها النفسية والروحية . لايعوضها إفلاسـا فى عالم القيم التى لايمكن أن تنمو الحياة الإنسانية بدونها نموا سليما ، وتترقى رقيا سليما صحيحا .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٤٧ ، ٤٨ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق ـــ ٢٠١ .

وهذا واضح الآن فى تلك الحضارات الغربية ، التى لم يعد لديها ماتعطيه للبشرية غير الشقوة والخوف من الدمار والتسلط والإرهاب ، بل لم يعد لديها مايقنع ضميرها باستحقاق الوجود بعد ما انتهى دورها الإنسانى إلى مايشبه الإفلاس ، وكثرت عندها العقد والأمراض النفسية والاجتماعية ، وعمت حالات الانتحار والجنون والقتل والانحراف ، وكذلك الحال فى المعسكر الشرقى . فالنظريات التى أبرزها فى سوق الإنسانية ودبج لها من المقدمات والتفسيرات والأمنيات ، ما لبثت أن تراجعت هى الأخرى تراجعا واضحا ، إما لعدم إمكانية التطبيق ، أو مصادمتها للحياة والفطرة الإنسانية ، أو تسلطها وانتهاكها للحريات وأبسط المعانى الإنسانية ، حتى أصبحت لاتنمو إلا فى مناطق الصراع ، أو فى البيئات المحطمة والمطحونة من النظم الدكتاتورية فترات طويلة ، حتى فقدت شخصيتها ، ونسيت عقلها وتفكيرها . كما فشلت اقتصاديا وماديا — وهو الجانب الذى كانت تقوم على حتميته وتتبجح به — فظهر فى داخلها الكسل والاتكالية ، وتناقصت غلاتها بعد أن كانت فائضة فى عهد القياصرة ، وأصبحت تستورد القمح والمواد الغذائية ، وتبيع مالديها من الذهب لتحصل على الطعام ، بسبب فشلها فى مزارعها الجماعية ، وفشل نظامها الذى يصادم الفطرة البشرية . ولم يبق من تلك النظرية إلا الإلحاد ، وإقامة نظام العبودية للحزب لا لله سبحانه ، ورجوع الفاعلية فى حياة هذا الوجود إلى المادة ، أو الطبيعة ، ورجوع الفاعلية فى حياة الإنسان وتاريخه إلى الاقتصاد أو أدوات الإنتاج حتى أصبحت هى الأخرى المعبود الثانى للشيوعية ، وقد أهدرت بذلك خصائص الإنسان وقيمه العليا ، وحصرتها فى المأكل والملبس والمسكن والجنس ، وحرمته فى العقيدة فى الله وحرية اختيارها فكانت بذلك الوجه الثانى للعملة الرومانية ، والشقيق الشرعى للمتاهة الحضارية الغربية .

يقول فيلسوف الإسلام محمد إقبال : « إن الرأسمالية والشيوعية فرعين من درجة المادية ، وأسرتين للحضارة الغربية إحداهما : شرقية ، والأخرى : غربية ، تلتقيان على النسب المادى ، والتفكير المادى ، والنظر المحدود إلى الإنسان ..... ويقول بلسان جمال الدين الأفغانى — فى رحلة تخيلها واجتمع به فيها — « إن الغربيين فقدوا القيم الروحية والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح فى المعدة ، والروح ليست قوتها

وحياتها من الجسم . والشيوعية ــ كذلك ــ لاشأن لها إلا بالمعدة والبطن ــ وديانة ــ « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون »[1].

إيضاح ومناقشة :

قد يرد فى مخيلة كثير من الناس أسئلة ، منها : لم توصم الحضارة الغربية الآن بأنها مادية ، وهى تدين بالمسيحية ، وهى عقيدة تعترف بالله .

وأقول ردا على هذا السؤال ؛ إن الدين المسيحى والعقيدة المسيحية لم تقم بحضارة ، ولم يؤسس عليها مدنية ، وإنما كانت معوقة لها وقاتلة ومثبطة ، ولم تقم الحضارة الغربية إلا بعد نبذ المسيحية ، وعدائها ، والتمرد عليها . فهى إذاً لم تبن حضارتها من نصوصها وآياتها وأحكامها وتصوراتها . وإنما قامت تلك الحضارة بتعاليم روادها ، وتوجيهات علمائها ، وأصحاب الفكر فيها ، الذين تمردوا على الفكر الدينى ، واعتبروه خرافة من أمثال فولتير ، وروسو ، الذين اعتبروا أن فكرة التأليه إنما هى خرافة اخترعها دهاة ماكرون ، وصدقهم الحمقى والسخفاء ، وقد ألمحنا إلى ذلك قبل . فالحضارة الغربية إذاً لم تقم على دين أو عقيدة ، ولم تأخذ من تعاليم المسيحية شيئا ، حتى يقال : إنها بنت عليه حضارة ، أو أسست عليه نهضة .

وفى هذا يقول محمد أسد . الذى اعتنق الإسلام ــ فى كتابه الطريق إلى مكة ــ أو الطريق إلى الإسلام : « المهمة الرئيسة لكل دين أن يبين للإنسان لا كيف يحس ، ويشعر إحساسا وشعورا صالحين فقط ، بل كيف يحيا حياة صالحه أيضا ، وبشعور غريزى بأن دينه قد خيب أمله بطريقة ما ، فقد الإنسان الغربى ــ خلال القرون ــ كل إيمانه الحقيقى بالمسيحية . وبفقده هذا الإيمان فقد الإقناع بأن الكون إنما كان تعبيرا لقوة واحدة منظمة ، وأنه كان لذلك يشكل كلا عضويا واحدا . وبسبب من أنه فقد هذا الإقناع يعيش الآن فى فراغ روحى وأخلاق ، لقد رأيت فى ترك الغرب التدريجى للمسيحية وانصرافه عنها ، ثورة ضد ازدراء الحياة التى نشر بها بولس ، والتى

---

(١) انظر روائع إقبال ــ للندوى ص ١١٣ ــ ١١٤ .

أبهمت — قديما جدا وتماما جدا — تعاليم المسيح . فكيف إذاً يستطيع المجتمع الغربي أن يستمر في إدعائه أنه مجتمع مسيحي » [1]. ثم يقول في كتابه الإسلام على مفترق الطرق : « نخطىء خطأ فادحا إذا اعتقدنا أن المدنية الغربية نتاج نصراني ، إن الأسس الفكرية الحقيقية في الغرب يجب أن تطلب في فهم الرومان القدماء للحياة ، على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراق مطلق ... وهكذا تكون نسبة نتاج المدنية الحديثة إلى النصرانية خطأ تاريخيا عظيما » [2] .

فنحن حين ندرس حضارة من الحضارات إنما نبحث عن جذورها ، وعن مصادرها ، وأقوال روادها .

وبدراستنا لكل ذلك ، لم نجد الحضارة الغربية اعتمدت على المسيحية ، لا في قليل ، ولا كثير . كما أن المسيحية لم تقم لها حضارة ، حتى نقول : إن الحضارة الغربية بنت عليها ، كما أن أقوال روادها تلغى تماما صلتها بالمسيحية ، بل كانت الصلة بينهما صلة عداء وكره وتمرد وعصيان ، وأما مايقال عن التدين الحالى ، فهى رسوم باهتة ليس لها تأثير في الحياة أو المجتمع ، وإن وجد ذلك التدين عند بعض الأشخاص فهو ميول شخصية ، لا صلة لها بالمجتمع أو الحياة أو الإنتاج أو السلوك العام .

كما قد يقال : إن للحضارة الغربية أخلاقيات وأسلوبا اجتماعيا . فأقول : إن تلك الأخلاقيات وهذا الأسلوب الاجتماعي نابع من اجتهادات إنسانية ، وليس من عقائد ربانية أو تعليمات إيمانية . فهم يقولون : إن الأخلاق والقيم ينبغى أن تنموا نموا حرا لكى . تكون دائما مثمرة ، ولا ينبغى أن تكون مفروضة فرضا من مصدر له قوة قاهرة ، أى أنها لاينبغى أن تكون مفروضة من عند الله ، ولا آتية من مصدر الدين .

— وعلى هذا فالأخلاقيات والاجتماعيات وأسلوب الحياة بعيد كل البعد كذلك عن العقائد والأديان . وقد يقول قائل : إن مانراه من فساد الآن في الحضارة

---

(١) الطريق إلى الإسلام محمد أسد ترجمة البعلبكى ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص ٤٠ .

إنما هى إنحرافات عن الفكر الدينى المسيحى وفى المسلمين اليوم مثله .

أقول : لا . إن الفساد الذى فى الحضارة الغربية اليوم ليس عن انحراف ، إنما هو عن اعوجاج فى نفس البنية الحضارية . التى تقوم على المادة ، وعلى الشهوات ، وعلى الأثرة والقوة وحب الذات والعنصرية ، وقوانين تلك الحضارة خير شاهد على ذلك ، وإهدارها للقيم العليا ، وتعاملها مع البطن وحيوانية الإنسان — بغض النظر عن روحه — يرد على ذلك ، يقول الكسيس كاريل : إن الحضارة الغربية هى المنحرفة ، والناس هناك لايفسدون لأنهم ينحرفون عن الخطوط الأصيلة للحضارة الغربية ، ولكن لأنهم — على وجه الدقة — يسيرون على خطوط تلك الحضارة ويتبعونها بصدق »[1] .

أما فساد المسلمين ؛ فإنه خروج عن المنهج والتعاليم الإسلامية ، وليس الفساد أصيلا فى تعاليم الحضارة الإسلامية . فالحضارة الإسلامية إذاً منه براء .

وما قدمناه كله عكس الحضارة الإسلامية . حيث أن الحضارة الإسلامية قامت :

١ — على الإسلام ، وبتعاليمه الربانية ، وما كان للمسلمين حضارة بغير التعاليم الإسلامية .

٢ — لم تتمرد الحضارة الإسلامية على التعاليم الإسلامية ، بل كانت ثمرة من ثماره .

٣ — آى القرآن وأقوال الرسول والرواد الأوائل جاءت لتأسيس العقيدة والحضارة معا .

٤ — القانون الأخلاقى للحضارة الإسلامية ، والاجتماعى ، والتربوى ، ينبع من العقيدة ، ويقوم عليها .

٥ — فساد المسلمين كان لخروجهم عن المنهج ، وتقليدهم للحضارة الغربية ، وليس لاعوجاج فى المنهج أو عيب فيه .

---

(١) التطور والثبات ص ٢٨١ .

المبحث الثانى
تصوير للحياة وغايتها

دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة الوجود ، والنظر فى أنفسهم ، وفيما حولهم ، وفتح البصر والبصيرة ؛ ليتصوروا مايحيط بهم فى كل خطوة وخلجة ، فى كل عمل يقوم به الإنسان أو يتوجه إليه ليتصور بنفسه الأشياء ، ويعرف ماتؤول إليه . فقال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إلَى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبَّاً ، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ، فأَنْبَتْنَا فيها حبًّا ، وَعنباً وقضْباً ، وَزَيْتوناً وَنَخْلًا ، وحَدَائِقَ غُلْباً وَفاكِهَةً وَأَبّاً ﴾[1] ، ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[2] ، ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَواتِ والأَرْضِ ﴾[3] ، ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ، كَيْفَ بنيْناها ، وَزَيَّنَّاهَا وما لها مِنْ فُرُوجٍ ﴾[4] .

ثم دعا القرآن بعد النظر بالعين إلى النظر بالبصيرة ، وعاب على أقوام أغلقوا منافذ الأنوار الفكرية فى كيانهم ، وعطلوا أدوات الإدراك العقلى فى رؤوسهم : ﴿ وَلَقَدْ مكنّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَىءٍ ﴾[5] .

---

(١) عبس — ٢٤ .
(٢) الطارق — ٥ .
(٣) الأعراف — ١٨٥ .
(٤) ق — ٦ .
(٥) الأحقاف — ٢٦ .

الإنسان فى الحياة :

مازال الإنسان منذ وجد على وجه الكرة الأرضية — وإلى اليوم — مأخوذا بسوء الفهم عن نفسه ، يميل إلى جانب الإفراط حينا ، فيرى أنه أكبر وأعظم كائن فى العالم ، فيمتلىء أنانية وغطرسة وكبرياء ، ولا يرضى بأن يرى أى قوة فى العالم نداً له ، فضلا عن أن يراها فوقه ، وقد سمعنا القرآن يتكلم كثيرا عن هذا الصنف من البشر ، فيقول ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوة ﴾ [1] ، ﴿ أَنَا رَبُّكُم الأَعْلَى ﴾ [2] ، ﴿ مَاعَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى ﴾ [3] . وعلى هذا ، فهو يربأ بنفسه أن يكون مسؤولا أمام أحد ، أو أن يكون عليه نوع من التبعة ، ويتحول بهذا إلى القهر والجبروت والبطش والظلم والطغيان . وقد يميل هذا الإنسان إلى جانب التفريط حينا آخر ، فيظن أنه أدنى وأرذل كائن فى العالم ، فيطأطىء رأسه أمام شجر ، أو حجر ، أو جبل ، أو حيوان ، ولا يرى لنفسه السلامة إلا فى أن يسجد لشمس أو قمر أو نجم أو حيوان .

وقد أشار القرآن إلى ذلك ، ونهى عنه ، فقال : ﴿ لَا تَسْجُدوا للشَّمْس وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾[4] ، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آذَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً ﴾[5] ، ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ، قَالُوا : وَجَدْنَا آبَاءَنا لَهَا عَابِدِينَ ، قَالَ : لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[6] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ ﴾[7] ، ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾[8] . وقد ألمحنا إلى طرف من ذلك قبل . وبشىء من الإيجاز نعرض إلى التصور الإسلامى للحياة بما فيها ومن فيها ، ثم لمآلها وعاقبتها ثم لغايتها وتصور تلك الغاية .

---

(١) فصلت / ١٥ .
(٢) النازعات / ٢٤ .
(٣) القصص / ٣٨ .
(٤) فصلت — ٣٧ .
(٥) الأنعام — ٧٤ .
(٦) الأنبياء — ٥٢ .
(٧) الأعراف — ١٥٢ .
(٨) البقرة — ٩٣ .

حقيقة الإنسان فى القرآن :

يبطل الإسلام التصورات المتطرفة والمنحرفة ، ويعرض ذلك التصور المعتدل الذى تستقيم به الحياة ، ويستقر به البشر . فليس الإنسان بالحقير المهين الذى لايؤبه له ، كما أنه ليس بالجبار الذى لايقهر ، ولا بمسلوب الإرادة الذى لا حول له ولا قوة ، وليس هو المتصرف المهيمن فى الكون ، الذى يخرق الأرض ، ويبلغ الجبال طولا ، يأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فيغير نواميس الحياة ، وإنما هو بين هذا وذاك ، وسط ، حيث لا إفراط ولا تفريط .

خلقه :

خلق الإنسان من طين ، ولكنه ذو نفخة علوية ونفحة ربانية ، فإن أراد أن يتمرد ويأخذه الغرور نظر إلى التراب والطين ، وإن اعتراه ضعف أو خور تذكر الروح الربانية والتكريم .

١ ـ ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْب والتَّرَائِبِ ﴾ (١) ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مَنْ نُطْفَةٍ فَإذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبينٌ ، وضَرَبَ لَنَا مثلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ (٢) ، ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جعل نسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ (٣) .

٢ ـ ﴿ وَإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ . فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين ﴾ (٤).

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سلالةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ ﴾ (٥).

---

(١) الطارق ـ ٥ ـ ٧ .

(٢) يس ـ ٧٧ .

(٣) السجدة ـ ٧ ـ ٩ .

(٤) ص ـ ٧١ ـ ٧٣ .

(٥) السجدة ـ ٩ .

وإذا تصور الإنسان أنه صانع أو فاعل أو رازق ، فيتذكر أنه مخلوق ومرزوق . وإذا تصور أنه كالجماد أو النبات أو الحيوان أو أى خلق آخر ، فليتذكر أنه فضل على كثير من المخلوقات ، وأن الله قد كرمه وأسجد له ملائكته .

١ ـــ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَاتُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُون ﴾[(١)].

أَفَرَأَيْتُمْ ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ المَّاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ . لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِى تُورُون . أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ . نَحْنُ جَعِلْنَاهَا تَذْكِرةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِين ﴾[(٢)]

٢ ـــ ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَافِى الأَرْضِ جَميعاً ﴾[(٣)] ، ﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ [(٤)].

﴿ وإذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾[(٥)]

كما أنه إذا ظنَّ أنه دائم باق ؛ فليتذكر الموت ، وإذا هلع من قصر عمره وذهاب تعبه ونعيمه وكده ؛ فليتذكر أنه منقول إلى دار باقية ، ونعيم لا يزول .

١ ـــ ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يدركُّمُ المَوتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُروجٍ مُشَيَّدةٍ ﴾[(٦)] ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوتِ ، وَنَبْلُوكُمْ بالشر و الخير فِتْنَةً ، وإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[(٧)].

---

(١) الواقعة ـــ ٥٨ .
(٢) الواقعة ـــ ٦٠ ـــ ٧٤ .
(٣) البقرة ـــ ٢٩ .
(٤) النحل ـــ ٨١ .
(٥) البقرة ـــ ٢٤ ، الإسراء ـــ ٦١ ، الكهف ـــ ٥٠ ، طه ـــ ١١٦ .
(٦) النساء ـــ ٧٨ .
(٧) الأنبياء ـــ ٣٥ .

٢ــ ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ الله ثَوابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ (١)

﴿ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

﴿ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيل ﴾ (٣).

مكانته فى الأرض :

فالإنسان ــ كما هو واضح مما قدمنا ــ ليس من علو المكانة وارتفاع المنزلة بحيث يميل إلى جانب الإفراط ، ولا هو من الدناءة والمهانة والحطة حيث يوضع فى جانب التفريط . بل هو فى منزلة وضعه الله فيها ، ترفعه ولا تطغيه ، وتعليه ولا تهلكه ، وهى منزلة الخلافة عن الله سبحانه ، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَة إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٤).

﴿ يَادَاوِدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ ﴾ (٥)، ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ ﴾ (٦).

وهذا يدلنا على حقيقة المكانة الإنسانية فى الأرض ، وهى أن الله سبحانه جعل الإنسان خليفته ، أى نائبا عنه فى أرضه ، وأعطاه أسباب ذلك ومؤهلاته ، من العلم ، والعقل ، والسمع ، والبصر ، والحس ، والإرادة ، والحرية ، مايجعله كامل التصرف فى الإصلاح ، ويكون جديرا بتحمل أعباء الخلافة ، فإذا سار على أمر الله ؛ حقق تلك الخلافة ، وإذا خرج عن أمره سبحانه ؛ تولى وأكدى وفسد حاله . ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَاى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَاهُمْ يَحْزَنُون ، والذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولئِك أصحابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون ﴾ (٧).

---

(١) النساء ــ ١٣٤ .
(٢) الأنعام ــ ٣٢ .
(٣) التوبة ــ ٣٨ .
(٤) البقرة ــ ٣٠ .
(٥) ص ــ ٢٦ .
(٦) الأنعام ــ ١٦٥ .
(٧) البقرة ــ ٣٨ ــ ٣٩ .

فالإنسان — على هذا — خليفة وليس بملك . خليفة لمالك ، ونائب عن خالق ، فليس من حقه أن يتصرف على حكم شهوته وهواه ، وإنما عن حكم من استخلفه وولاه ، فلا يتصرف فى شيء من الدنيا إلا حسب أوامر الله سبحانه وأحكامه .

سعادته وشقاؤه :

وسعادة الإنسان فى الأرض موكولة باستقامته على منهج ربه ، وإحسانه فيما ولاه الله إياه ، واستخلفه فيه : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[1]، ﴿ يَوْمَ يأت لَاتَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِه ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السموٰات والأرض إلا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الجَنَّة خَالِدِينَ فِيهَا ﴾[2] ولأن الإنسان حر فى وكالته ؛ فهو مسؤول عن عمله ، ومحاسب على فعله ، تقع عليه تبعته ، ويفوز بخيره وفضله : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَه سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى ﴾[3] وسعادته فى الآخرة معلقة بسعادته وحبه لمنهج ربه فى الدنيا ، وكذلك بالنسبة إلى شقائه ﴿ وَمَنْ كَانَ فِى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الآخِرةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[4] .

تصور الحياة :

الحياة مخلوقة لخالق فى التصور الإسلامى .

الحياة سر عميق يجليه الله لمن يشاء من أصحاب العقول والقلوب ، وصدق الله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ ، وَفِى أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ ﴾[5] بحار تزخر ، ونجوم تزهر ، وأرض ذات فجاج ، وسماء ذات أبراج ،

---

(١) الحديد — ٧ .
(٢) هود — ١٠٥ : ١٠٨ .
(٣) النجم — ٣٩ — ٤٢ .
(٤) الإسراء — ٧٣ .
(٥) فصلت ٥٣ .

وزروع ونخيل وأعناب ، صنوان وغير صنوان ، وجبال ووهاد ، وجداول وأنهار ، وهواء وأنوار ، وشموس وأقمار ، وإنسان وحيوان ، ووحوش وسباع ، وحشرات وهوام ، وزواحف وطيور ، وممالك وأمم ، وجزر وقارات ، وأشكال وألوان ، وألسن ولغات ، وعادات وأعراف ، وعبادات وطقوس ، وملل ونحل .

كل ذلك من القوى العليا والدنيا ، والعظيمة والحقيرة ، المنظورة والمغيبة ، تخضع لقانون مهيمن ، وقوى محركة ، فى نظام فريد وإحكام عجيب . يرى ذلك ويحس به وينتفع كل من على وجه الأرض ، تردده الفطرة ، وتستبينه النظرة ، وتلحظه الفكرة . يدعونا القرآن إلى التدبر فيه والنظر إليه ، وبعد كل هذا التناسق تجد فى العالم عدة مظاهر للهدم والبناء ، وسلسلة غير متناهية للفناء والبقاء ، تحت هذا القانون المهيمن الشامل ، فالقانون الذى يخلق بموجبه شىء ، هو الذى يهلك ذلك الشىء ، ويقضى عليه بالفناء والزوال . وإنك لتحسب أن هناك شيئا بمنأى عن هذا القانون ، فإذا بك تجده يسرى فى أوصاله ، ويتخلل لحمته وسداه . لذلك فإن الإنسان لا تستديم سعادته أو شقوته بشىء ، لأن البناء بجانب الهدم ، والخلق بجانب الفناء ، والصحة بجانب المرض ، والحياة بجانب الموت . وهو لايملك من أمر ذلك شيئا كل هذا أوحى للفطرة أن لهذا الكون مسيراً ومسيطراً ومنظماً ، وأن الحياة مخلوقة لخالق ، ومملوكة لمالك مريد قادر .

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ، أَإِلَـٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ، أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ، وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ، أَإِلَـٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَـٰهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَاتَذَكَّرُونَ ، أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَإِلَـٰهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَمَنْ يَرْزُقُكُم ، مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَإِلَـٰهٌ مَعَ اللهِ . قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَايَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ . وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

يُبْعَثُونَ ﴾ [1].

دار عمل ومزرعة للآخرة :

ويعلم المؤمن أن الدنيا دار عمل ، فلا يتركها ولا يهملها ، ولكنه يحصل فيها الخير والبر ، ويعلم كذلك أن إصلاح الدنيا من واجبات المسلم ، وإن كانت دار ممر ومعبرا إلى مقر .

والحصيف يصلح دابته التي يركبها إلى غرضه ، ويقوى ممره الذى يعبر عليه إلى مسكنه ، ولهذا جاءت تعاليم الإسلام تحث على استغلال الصحة والمحافظة على الوقت ، يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [2]. إن عمر الإنسان هو رأس ماله الضخم ، وسيسأل كيف تصرف فيه ، قال ﷺ : « لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل فيه » [3]ومن كلمات الحسن البصرى رضى الله عنه : « مامن يوم ينشق فجره إلا وينادى منادى من قبل الحق : ياابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود منى بعمل صالح ، فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » ، فهى إذن مزرعة للآخرة ، فمن أضاع دنياه أضاع أخراه ، ولهذا يحرص عليها المؤمن كوسيلة لغاية .

غاية الحياة :

إن لغاية الحياة ارتباطا وصلة بتصورها ، حيث أن التصور للحياة الدنيا هو الذى يحدد غايتها ، ويكشف عن أهدافها ، وأهداف الإنسان على صعيدها .

وغاية الحياة عند كل أمة هى التى تلقى الضوء على كل حضارة من الحضارات ؛ لمعرفة درجتها من الصلاح والفساد ، والحسن ، والقبح ، والخير والشر ،

---

(١) النمل — ٦٠ — ٦٥ .

(٢) القصص — ٧٣ .

(٣) الترمذى — القيامة — ١ رقم ٢٤١٦ جـ ٤ ص ٦١٢ ط حلبى .

فالإنسان بحكم فطرته التى فطر عليها ، لا يتوجه بإرادته ومساعيه إلا إلى هدف قد جعله غاية يرنو إليها ببصره وبصيرته ، ويتمنى الوصول إليها فى حياته ، فبصلاح هذا الهدف أو فساده تتصرف أعماق الإنسان ونفسيته ، وتتوجه أعماله ، وأخلاقه ، وآدابه ، وحياته الاجتماعية والتربوية والمدنية والاقتصادية . وجملة القول : إن غاية الإنسان فى حياته هى التى تحدد طريقه ، وتحكم تصرفاته ، وتوجه جهوده العقلية والفكرية .

وعند بحث كل حضارة من الحضارات الإنسانية المتعددة لوضعها فى ميزان النقد العلمى ؛ فإنه لابد من البحث فى غايتها التى تدعو الناس لبلوغها والطموح إليها .

مفهوم هذه الغاية :

تكاد آية واحدة من كتاب الله تعالى ، أو بضع آيات ، تحدد المفهوم الفعلى لغاية المسلم فى الحياة ، نسمع ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا ، واسْجُدُوا ، واعْبُدُوا رَبَّكُم ، وافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ ، وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُم إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وتكونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، واعْتَصِمُوا بِاللهِ ، هُوَ مَوْلَاكُم ، فَنِعْمَ المَوْلَى ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾(٢)، ويرتكز هذا المفهوم على ثلاث ركائز :

---

(١) القصص — ٧٧ .

(٢) الحج — ٧٨ .

الأولى : عبادة الله وابتغاء الدار الآخرة .
الثانية : إصلاح الدنيا والعمل فيها حسب منهج للصلاح والخير .
الثالثة : نظام للدعوة إلى منهج الحق والدفاع عنه .

وغاية المسلم هذه جعلت لحضارته صورة مستقلة مخصوصة ، تختلف عن صورة سائر الحضارات القديمة والحديثة فى الحياة اختلافا أساسيا ، كما أنها قد جعلت نظامها للعقائد والأعمال مختلفا عن نظم سائر هذه الحضارات للعقائد والأعمال ، اختلافا أساسيا أيضا .

هيكل هذه الغاية :

نستطيع أن نرسم إطاراً لغاية الحضارة الإسلامية فى الحياة الدنيا بما يأتى :

١ ـــ الحياة موجودة لغاية وحكمة :

يعلم المؤمن أن الحياة وجدت لغاية وحكمة . وأنه مكلف بتحقيق تلك الغاية ومراعاة هذه الحكمة ، وأن الجد أصيل فى خلقه وخلق العوالم من حوله ، وقد لفت القرآن إلى تلك القضية ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . لَوْ أَرَدْنَا أن نَّتخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[١]فقد خلق الله الكون لا لعبا ولا لهوا ، ودبره لغاية وحكمة ، لاجزافا ولا عفوا ، فيجب على المسلم أن لايهدر أو يبدد هذه الدنيا ، سهوا أو ضياعا وانحرافا .

٢ ـــ الحياة وسيلة لا غاية :

يتصور المسلم الحياة لا على أنها غاية أو معبود ، بل على أنها وسيلة إلى غاية ، وعابدة وخاضعة لخالق : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهِ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰات ، وَمَنْ فِي الأَرْضِ ، والشَّمْسُ ، والقَمَرُ ، وَالنُّجُومُ ، والجِبَالُ ، والشَّجَرُ ، والدَّوَابُ ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾[٢]فهو على هذا ، يعلم أن الحياة بعيدة عن غايتها ، وعن منهجها

---

(١) الأنبياء ـــ ١٦ ـــ ١٧ .
(٢) الحج ـــ١٨ .

الربانى ، وعن تصورها بالحق وفى الحق ، لاتؤدى المقصود منها ، ولا توصل إلى الهدف المراد من وجودها .

٣ ــ قيمة الحياة والإنسان فيها بما يحققانه من قيم عليا :

لابد للمسلم فى الحياة من قيم يعيش بها ولها ، ولابد لصاحب العقيدة أن يتعامل مع الكون الكبير على أساس هذه القيم ، وأن يتعامل مع خالق الكون على أساس العبودية له والطاعة لأوامره ، ولايحصر نفسه ونظره وتصوره واهتمامه فى عالم المطالب الشخصية ، والأغراض الدنيوية ، والنزعات الحيوانية ، بل لابد له من التسامى فوق تلك الأثقال ؛ ليؤدى دوره اللائق به كصاحب عقيدة ، وهو دور شاق ، يصطدم بأهواء الناس وأطماعهم ، ولكن الحياة بدونه لاتعد حياة ، والإنسان متجرد عنه ، لا وزن له ولا فائدة من وجوده ــ وصدق الله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنونَ باللهِ ﴾[1] إذاً ، فالأعمال فى هذه الحياة هى التى تحدد العظمة الإنسانية ، أو الهبوط الحيوانى ، وبالمقياس نفسه تتحدد عظمة الحياة أو حقارتها .

٤ ــ الحياة موقوتة ووراءها حياة أخرى :

حقيقة مركوزة فى نفس المؤمن وحسه ، تشعر بها فطرته ، ويقرؤها فى كتابه ، ويعلمه إياها دينه : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وزِينَةٌ ، وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ، وتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يهيجُ فتراهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ، وفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُور ﴾[2].

والقرآن ــ بوصفه الدنيا بهذا الوصف ــ لايقصد بذلك العزلة فى الحياة أو عنها فى الأرض ، وإهمال عمارتها ، وتطليق زهرتها ، وترك خلافتها التى أعطاها الله للإنسان ، وإنما يقصد تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية للإنسان ،

---

(١) آل عمران ــ ١١٠ .

(٢) الحديد ــ ٢٠ .

والاستعلاء على غرور المتاع الزائل ، وجاذبية الأرض المقيدة والمهلكة . وهذا الاستعلاء وهذا السمو هو الذى يصلح الأرض ، ويمنع الانحطاط ، ويحتاجه أصحاب الرسالات ؛ ليحققوا به إيمانهم ، وينتصروا به على شهواتهم وأطماعهم . وهو الذى يفرق بين عبادة الدنيا وعبادة الله سبحانه ، وهو الذى يفصل بين مناهج الأرض ومناهج السماء ، وهو الذى يميز بين صاحب الدين وعابد الطين . وهو الذى عليه الثواب والعقاب يوم القيامة بعد انقضاء هذه الحياة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ .[1]

خصائص هذا الغاية :

والإسلام بعد تقرير هذه الغاية للحياة الإنسانية ، إنما يختار طريقا واحدا ــ من عدة طرق ــ لقضاء عمره فى الدنيا .ويلزم الإنسان أن لايضيع حياته ، ويفنى عمره فى سلوك طريق غيره . ويضع الإسلام نظاما مستقلا لغايته ، ويطالب الإنسان أن يتقيد به ويلتزمه ، ويسمى هذا النظام « الدين » ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ ﴾[2]، ويقول جل شأنه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾.[3]

والإسلام قد أقام امتياز الناس فى الحياة على أساس الكفر والإيمان فى العقائد ، وأقام تقسيم الحلال والحرام والمباح والمستحب والمكروه فى الشريعة على أساس بعد الإنسان أو قربة عن منهجه ، وأداء ماعليه من واجب الأمانة والخلافة فى الأرض . ليقاس الإنسان فى دنياه بمقاييس منضبطة فى العقيدة والشريعة والحياة .
ولهذه الغاية خصائص امتازت بها وبرزت فيها ، نذكر منها ما يلى :

---

(١) النازعات ــ ٣٧ ــ ٤١ .

(٢) آل عمران ــ ١٩ .

(٣) المائدة ــ ٣ .

١ـــ التجاوب والتوافق بين الناموس والفطرة :

الفطرة تحس بالنواميس ، وتشعر بها ، ولا تصادمها ، أو تتعارك معها . الحياة موقوتة ، والإنسان موقوت ، الحياة مسيرة والإنسان خاضع مثلها للناموس ـــ وهكذا : ﴿ وَلَهُ مَنْ فى السَّمَٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ ،[1] ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾[2] قانون شامل تسير عليه كل الموجودات فى الحياة .

٢ ـــ التوافق بين الفكر والعمل :

إذا كان الإنسان لايقصد فى حياته إلا مجرد إرواء شهوته ؛ فإنه من المحال أن يحظى بشىء من التوافق بين فكره وعمله ؛ لأسباب منها : أن الشطط فى الشهوات والمطالب والأفكار يكون حادا ومهتاجا ، ويستحيل أن تتبعها الأعمال أو تلحق بها ، ومنها : أن الشهوات تكون متقلبة ، والأفكار لاتثبت على حال ، وما يصلح غاية لذلك الإنسان فى وقت قد لايصلح غاية له فى وقت آخر :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فى البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُون إِلَّا إِيَّاه ، فَلَمَّا نَجَّاكُم إِلَى البَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾[3] ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فى الفُلْكِ دَعَوْا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[4].

أما المسلم فإيمانه مع عمله واعتقاده موافق لفعله ، لانفاق ، ولا خداع ، ولا شطط : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالَا تَفْعَلُونَ ﴾[5].

٣ ـــ وحدة الجماعة الإسلامية :

مافى الدنيا من الغايات المادية يتعذر أن يجتمع عليها اثنان باستقرار قلبى

---

(١) الروم ـــ ٢٦ .

(٢) آل عمران ـــ ٧٣ .

(٣) الإسراء ـــ ٦٧ .

(٤) العنكبوت ـــ ٦٥ .

(٥) الصف ـــ ٢ ، ٣ .

وهدوء نفسى ، ولذلك يحاول أحدهما دائما أن يفوز على الآخر ، ويتغلب عليه بطرق شتى ، وأسباب متنوعة ، ولهذا ينشأ التباغض ، والتحاسد ، والقهر ، والاستعباد ، ولايكون هناك مساواة أو استقرار . أما الغايات الإسلامية والقيم العليا وإرضاء الله ، ففيه متسع للجميع ، وفوق ذلك ، فإن المساواة من أصول المنهج الإسلامى وصميم قيمه العليا فى الحياة .

وصدق الله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِل ؛ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .[1]

٤ ــ الجمع بين الغايات الجسدية والروحية :

فإذا كان الإنسان فى دنياه يحب العافية والرفاه والرخاء والأمن والاستقرار النفسى ، والمادى ، يجد ذلك كله فى الإسلام الذى يحفظ عقله ونفسه وماله وعرضه ، وإذا كان يحب السمو الروحى والرقى الفكرى ، ويعشق القيم والفضائل ، يجد ذلك كله فى دينه : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ [2]، ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [3]، ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ويخْلُقُ مَالا تَعْلَمُونَ ﴾[4]، ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ، والَّذِينَ يَبِيتُونَ لَرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾ [5]

الحياة وغايتها فى تصور الحضارة الغربية :

تدين الحضارة الغربية اليوم لأرباب شتى ، ونقصد بالأرباب : العوامل المؤثرة والموجهة لمسيرة الإنسان فى الحياة وفى المجتمع ، والمصطلح الإسلامى لاينكر هذه التسمية ، بل استعملها : فحينما قرىء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اتَّخَذُوا

---

(١) الحجرات / ١٣ .
(٢) النحل ــ ٩٠ .
(٣) الأعراف ــ ٣٢ .
(٤) النحل ــ ٨ .
(٥) الفرقان ــ ٦٢ ــ ٦٤ .

أَحْبَارَهُم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم ﴾(١)، فسمع ذلك عدى بن حاتم الطائى ـــ وهو جالس فى مجلس رسول الله ﷺ ـــ فقال : يارسول الله ، ماكنا نعبدهم ، فقال ﷺ : « أليسوا كانوا يحلون لكم ويحرمون ؟ قال : نعم « قال : فهذه عبادتهم » (١)، ولاشك أن العوامل المؤثرة فى الحل والحرمة عند الغرب الآن كثيرة ، وقد صدر عنها من القوانين ماسارت عليه الأمم ، مثل قانون حل الخمر ، قانون الجنس ، قانون الربا ، قوانين عزل الروحانيات عن المجتمع ، قوانين تفسخ الأسرة ، قوانين إذلال الشعوب ، قوانين إنتاج أسلحة الدمار ، وقد أوضحنا ـــ قَبْلُ ـــ التصور الاعتقادى للحضارة الغربية ، ولاشك أن كل تصور للحياة فى أى أمة ينبثق من التصور الاعتقادى لها ، فإذا اختلف التصور الاعتقادى لأمة ما اختلفت بذلك نظمها وقوانينها عن الأمة الأخرى . وقد رأينا أن التصور الغربى يخالف التصور الإسلامى جملة وتفصيلا . وبهذا تختلف الأصول الحضارية والتربوية والاجتماعية لكل منهما .

• فبينما نجد أن تصور الدين فى الإسلام هو تصور لقانون الحياة الإنسانية ، نجد أن تصور الدين فى الغرب شيء لا وجود له ، وإن وجد فهو تصور لعقيدة شخصية ، لا علاقة لها بالمجتمع . ونجد أن الإسلام من أول مقتضياته : الإيمان بالله وبالغيب ، ولكن الوجود الإلهى فى الغرب ، وكذا الغيب ، ليس بشيء ثابت أو معترف به فى الحياة . ونجد كذلك أن الإسلام يقوم نظامه وحضارته على الإيمان بالوحى والرسالة ، وأن الوحى هناك شيء مرتاب فيه ، وأن الرسالة والنبوة من جانب الله أمر مشكوك فيه وليس له رصيد فى العقل أو الحياة ، ونجد أن الإيمان باليوم الآخر حجر الأساس لنظام الأخلاق بكامله عند المسلمين ، وهذا النظام والأساس لا وجود له فى الغرب المادى ونجد أن العبادة والأعمال والشعائر التى بنى الإسلام عليها هى عند الغربيين من تقاليد العصور الوسطى الجاهلية المظلمة ، ولا فائدة منها ، بل هى مقومات للعقل والفكر والنشاط الإنسانى . والحقيقة أن هذه الحضارة انبعثت من أمة لم تكن تملك نبعا صافيا من الحكمة الإلهية . نعم كان بينها زعماء

---

(١) انظر سنن الترمذى كتاب التفسير باب سورة التوبة ٥ / ٢٧٨ .

دينيون — كما أوضحنا قبل — **ولكنهم كان ينقصهم أشياء أساسية لابد منها :**

أولا : الحكمة والبصيرة النافذة ، وضبط النفس ، وعدم التكالب على الدنيا بحب المال والسيطرة .

ثانيا : العلم ، والمعرفة ، والثقافة ، والنظر فيما حولهم من تطور أصبح من المستحيل أن يصبر على الجهل طويلا .

ثالثا : القانون الإلهى الصحيح الخالى من الدخل والأهواء والأباطيل التى تعارض العقول والواقع المعاش .

وإنما كان أقصى مايملكونه هو نظرية دينية مخططة ، لم تكن لترشد النوع البشرى إلى الطريق السوى من سبل الفكر والعمل ، مهما شاء أصحابها أن تفعل . وكل ماكان لهذه النظرية أن تفعله هو أن تحول دون تقدم العلم والحكمة والمعرفة ، فوقعت فى أخطاء تسببت فى نبذ الناس لها ، والثورة عليها .وانطلق المد الهائج إلى كل فج ، يبحث عن الدنيا التى حرم منها طويلا ، حتى وصل إلى الجذور الإغريقية والرومانية ، ثم رأى حصاد الفكر التجريبى عند المسلمين ، فقام قومته التى اعتمدت على ثلاثة أشياء ، ليس منها الإيمان أو العقيدة ، وهى :

١ — المشاهدة والملاحظة .
٢ — القياس والاستقراء .
٣ — التجربة وإثبات النتائج .

وهذه الأشياء ، أو الأدلة الثلاثة ، فتحت أمامهم آفاقا ما كانت تحلم بها تلك الأمم ، فهاموا بها ، وَتَاهُوا دلًّا وفخرا ، ولكنها أورثتهم تصورا دنيويا معينا ، أساسه الجسد والحس والمادة ، لا الروح والنفس والقيم ، **وكان من أبرز هذه التصورات الدنيوية :**

١ — النظر إلى الكون ، لا على أنه مخلوق لخالق أو صنع حكيم مدبر .
٢ — المادية والاهتمام بالجسد ، لا بالروح والنفس .
٣ — النظر إلى الحياة الدنيا على أنها الحقيقة الكبرى التى لاحقيقة وراءها .

وسنبسط القول قليلا فى هذه النقاط الثلاث ؛ لبيان هذه التصورات للكون والحياة .

١ ـــ النظر إلى الكون لا على أنه مخلوق لخالق :

قدمنا أن المسيحية فى نظرتها الواهمة إلى الحياة الدنيا كانت مجافية للعقل والواقع ، فزعمت أن الحياة الدنيا ، وهذا الوجود البشرى المتكون من اللحم والدم ، مبعث الآلام ، وموطن الشقاء للإنسان ، وأن هذا الكون ماهو إلا سجن وعذاب للمؤمن ، يجب أن يتخلص فيه من ذلك الجسد ، وأن كل مايفتقر إليه الإنسان فى هذه الحياة من الرغبات والشهوات والمطالب العديدة المتنوعة ، إنما هى أغلال هذا السجن وأصفاده المثقلة ، ولا سبيل إلى النجاة إلا أن يطلق الإنسان هذه الدنيا ، ويلعن هذا الكون ، وتلك الحياة ، وما فيها من رغبات .

نظرة قاتمة ، عطلت الحياة ، وأوقفت سيرها ، وكانت هى وأسباب عديدة ـــ أوضحناها ـــ سببا للثورة ونبذ الدين وفكرته ، وقد سبب ذلك انتكاسا إلى الجانب المعاكس تماما ، حتى رأينا رواد الحضارة يطلقون فكرة التدين والخالقية .

يقول فولتير : إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء »[١] وانطلقوا يهرفون بأنه لاخالق لهذا الكون ، ولا بارىء له أصلا ، وإن كان فلا صلة له بحياة البشر ، ولا سلطان له عليها ، وإنما البشر نوع من الحيوان ظهر إلى الوجود مصادفة ، ولا يعرف إن كان هناك من خلقه وأظهره من العدم ، أم أنه خلق من غير خالق ، وظهر بنفسه إلى مسرح الوجود ، ومهما يكنْ فى الأمر ، فذلك لايغنى المتمسك بهذا الطريق الفكرى فى قليل ولا كثير وقد وقر فى عمقهم وحسهم أن هذا الكون وما يحيط به من نظام مبدع لاغاية ولا مصلحة من وراء وجوده ، وإنما برز إلى الوجود بالمصادفة أو أى شىء آخر ، ولايعرف له من دافع ـــ وهو هكذا ـــ سائر فى طريقه من غير روية ولا

(١) الدين ـــ الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٠ .

قصد ، وأنه صائر إلى الانقراض لا محالة ، من غير أن تكون له غاية أو يأتى بنتيجة ، وهم بهذا يريدون الفرار من فكرة الألوهية ، وسيطرتها على الكون والحياة ، ويشعرون أن الخضوع لله — فى زعمهم وحسب تجربتهم — يورث نفوسهم السلبية ، والعجز ، وعدم الفاعلية . وأنه لايثبت الإنسان ذاته ، ولا يمارس فاعلية فى الأرض ، إلا بالتمرد على الله وعصيان أوامره ، ولقد قال هذا صراحة كاتب غربى معاصر . هو « جوليان هكسلى » فى كتابه : « الإنسان فى العالم الحديث » حيث قال : « إن الإنسان كان يخضع لله ؛ لأنه كان جاهلا وعاجزا أمام قوى الطبيعة واليوم بعد أن تعلم وسيطر على الطبيعة ، فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل فى عصر الجهل والعجز على عاتق الله ومن ثم يصبح هو الله !! .. » (١).

٢ — المادية والاهتمام بالجسد لا بالروح :

انطلق الفكر الأوروبى بعد فراره من الروحانية إلى المادية الجامحة فى كل شيء ، فمثلا فى خلق الكون : قرر كثير من علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية أنه ليس هناك قوة وراء الطبيعة والمادة تحكم هذا العالم وتصرفه ، وصاروا يفسرون الظواهر فى الحياة بطريقة ميكانيكية ، توافق منطلقهم المادى والحسى ، حتى قال بعض مفكريهم : نحن لانؤمن بإله إلا إذا ظهر تحت المجهر ، أو لمسته أيدينا . وأما عن الوحى والنبوة ، فإن منهجهم التفكيرى والعلمى والسلوكى لا يتفق مع الوحى والنبوة والحياة الآخرة ، لأنه لاشيء من ذلك يقع تحت الحس والاختبار . وهذا المنطلق هو منطلق كل فكر حسى مادى من قديم : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حياتُنا الدُّنْيَا نموتُ ونحيَا وما نحنُ بمبعُوثِين ﴾ (٢).

نتاج الحضارة الغربية من المذاهب والنظريات :

أفرزت الحضارة المادية الغربية نظريات ومذاهب مادية ، تماما كما أفرزت

---

(١) Juiian Huxiey, Man in the modern world

(٢) الأنعام — ٢٩ .

الحضارة الرومانية والفارسية المزدكية والمانوية . من هذه النظريات ، نظرية دارون فى أصل الأنواع ، حيث قررت حيوانية الإنسان ، ونفت عنه تلك النفحة الإلهية ، التى رفعته عن مستوى الحيوان ، فأصابت الكنيسة بزلزال ماحق . ومن هذه الفلسفة المادية نشأت كل النظريات الغربية الحديثة ، وكل الفلسفات المسيطرة عليها . نشأت منها شيوعية كارل ماركس فى الشرق ، وفلسفة فرويد فى أوربا ، والوجودية فى فرنسا ، والبراجماتزم فى أمريكا ، ولا أريد أن ألقى الضوء على كل هذه النظريات ، فلها مجال آخر ، وإنما أردت أن أشير إلى الحسية والحيوانية التى انغمست فيها هذه المذاهب المتعددة ، السائدة فى العصر بدون استثناء ، ويكفى أن نلقى ضوءا على ظلها فى المجتمع وفى الحقل الذى نشأت فيه وسادت .

أسس هذه النظريات المادية :

بنت هذه النظريات الحسية السابقة أسسها على ثلاثة مبادىء :

الأول : الذهاب بكرامة الإنسان ، ورفعته ، وشفافيته .

الثانى : اعتبار رعاية الله وتكريمه للإنسان خرافة نشأت من الخرافة الكبيرة المتصلة بخلق آدم .

الثالث : غرائز الإنسان امتداد طبيعى لغرائز الحيوانات السابقة .

محصلة هذه النظريات :

أنتجت هذه النظريات محصلات ثلاث ، أحدثت الانقلاب الإلحادى والحسى والجنسى فى المجتمع .

أولها : الإنسان مجموعة من الغرائز يسعى لتحقيقها ، لا يرتفع عن واقع الأرض المادى ، ولا ينطلق فى طريق الروحانيات ، إلا إذا وقف فى طريقه عائق مادى .

ثانيها : الضمير الخلقى خرافة ، يضحك الإنسان بها على نفسه ، وإنما الضمير الموجود حقيقة هو الضمير النفعى ، وهو ينفى بالضرورة كل قيمة خلقية .

ثالثها :التقاليد والأخلاق والآداب سخف ، ينبغى أن يزول ؛ لينعم الإنسان

بالسعادة ، وفى هذا يقول فرويد « إن الأخلاق تتسم بطابع القسوة ، حتى فى درجتها العادية »[1]

مظاهر هذه المادية :

انطلقت الأقلام ووسائل الإعلام والألسن تنادى بنبذ كل قديم ، وبناء المجتمع على أفكار هؤلاء العباقرة المجددين ، وانتهى الأمر إلى تحطيم الحواجز والقيم والأعراف ، وحل روابط الأسرة ، والانسلاخ الكامل من تراث الأجداد وأخلاقهم وتقاليدهم ، فى سبيل تحقيق ذاتية الفرد الكاملة ، وبناء شخصيته المستقلة ، وتخليته من العقد . فليفعل الإنسان كل ما يبدو له شخصيا أنه حق ، ولو خالف كل ما اصطلح عليه الناس ، وانطلق الناس إلى الجنس وسعار الشهوات ؛ ليتحرروا من القيود والعقد . فأسست السينما العارية ، وسادت أفلام الجنس ، وخرجت المرأة بجسدها وحريتها ، وخرجت الصحف الخليعة والكتب الداعرة ، وانقلب الضمير إلى :ضمير نفعى ، كل ما يأتى بالغُنْم يرضى الضمير ويسكنه ، وكل ما يأتى بالغُرْم يؤرق الضمير ويتعبه .

وسادت الجبرية النفسية ، فالإنسان ليس حرا فى تصرفاته ، لأنه يخضع لجبرية نفسية ، لا يملك لها كباحا ، فالإنسان مسير ؛ لأن غريزته تسيطر عليه ، وتوجه سلوكه ، ولا تدع له مجالاً للاختيار ، إذاً، فيجب إفساح المجال له ، وإعطاء غريزته الجنسية كل ما تشتهى ، وإلا فالكبت المدمر للأعصاب والعقد والهلاك .

٣ــ النظر إلى الحياة الدنيا على أنها الحقيقة الوحيدة :

بعد هذه المنظومة الحسية ، التى اجتهد فى صياغتها عباقرة الحضارة الحديثة ، نظرت الجموع الفارغة من العقيدة والروح والخلق بعد هذا إلى الدنيا ، فلم تجد فيها إلا اللذة والمتعةوالبهجة والسرور ، وقرروا أن الإنسان لا حياة له بعد حياته الدنيا ، فعليه أن يستنفد كل جهده ؛ ليتمتع فى هذه الدنيا بأكبر وأوفر ما يمكن من فرص اللذه

---

(١) كتابه The egoond theid. P. 80

والنعيم والترف ، خاصة وأن الحياة فيها أسباب وافرة للذة الإنسان ، وبهجته ، ورغده ، وتنعمه ، وترفه ، ورفاهيته ، وقد زالت الحدود والقيود ، فَلِمَ لا يمرح ويغتنم ، والفرصة محدودة ، والعمر كما يقولون « لو تدرى قصير » وقد ساعدت عوامل معينة على تثبيت تلك النظرة ، وترسيخها فى أعماق تلك المجتمعات ، منها ..

١ـــ الفراغ الروحى والعقائدى والخواء الأخلاق ، وقد أشرنا إلى طرف منه .

٢ـــ نجاح العلم التجريبى فى كشف كثير من أسرار الكون ، وإيجاد كثير من المخترعات الحديثة الجبارة ، شجعهم على أن يجربوا فى كل شىء ، ولو كان لا يقبل التجربة ، ولم يلتفتوا إلى أن الميدان الطبيعى للعلم التجريبى هو المادة ، فراحوا يدخلون التجربة المعملية فى المعنويات ، ليصلوا فيها إلى حقائق موضوعية ثابتة ـــ فى رأيهم ـــ تحسم الجدل ، وتقطع السبيل على المناقشات الفلسفية الفارغة ، وقد ساعد هذا فى زعزعة المعنويات أو ضياعها .

٣ـــ مخالفة الحقائق المادية المكتشفة للحقائق الكنسية الدينية ، عن الأرض والأفلاك .

فمثلا أعلن القديس فيلا سطوريوس « أن الله يجلب الأجرام السماوية من خزائنه كل ليلة ؛ ليعلقها فى السماء »[1] وقال غيره ؛ « إن الأجرام السماوية محلات تسكنها الملائكة ، وأن الملائكة تحركها ، أما البناء السماوى عامة فهو قبة صلبة القوام ، ركبت فوق الأرض . وأن الأجرام السماوية أضواء معلقة فيها »[2].

وبعد ..

فهل هناك فرق كبير بين الردة الحديثة وبين الجاهلية الحائرة والحسية القديمة أيام أبى جهل وأبى لهب ؟ ألم يكن من تعاليمهم ومن غايتهم الاستمتاع الهائج بغير حدود أو قيود ، وعبادة هذه الدنيا والهيام بها ، وعدم تصور حياة أخرى غير هذه

---

(١) بين الدين والعلم مظهر ص ٣٢

(٢) المرجع السابق ص ٣٢ .

الحياة ؟ ﴿ هيهات هيهات لما توعدون . إنْ هِىَ إلّا حَيَاتُنا الدُّنْيَا نموتُ ونحيا وما نَحْنُ بِمَبْعُوثِين ﴾ ،[1] ﴿ وَلتجدَنَّهم أحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حياة ﴾[2] وقد عابَ القرآن عليهم هذا المسلك ، ووصمهم بالقصور العلمى والضلال : ﴿ فَأعْرِض عَن مَّن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ، وَلَمْ يُرِدْ إلاَّ الحياةَ الدنيا . ذلكَ مَبْلَغُهم مِنَ العلمِ ، إنَّ رَبكَ هُوَ أعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أعْلَمُ بِمن اهْتَدى ﴾[3] فأصل الإسلام هذه الحيوانية الدنيوية من أول يوم ، ورد للإنسان كرامته المعنوية والخلقية ، وأقام حضارته على فطرة الإنسان وطبيعته ، بجسده وروحه ، ودنياه وأخراه . فإذا انتكست الإنسانية مرة أخرى إلى تلك الحمأة ، ووقعت فى هذه الوهدة ، نعلم أنها ليست حضارة ، وإن تزينت بأزياء فضفاضة من التقدم العلمى والتكنولوجى . ونعلم كذلك أنه لا كاشف لهذه القتامة إلا بنهضة حضارية وبعثة إسلامية صادقة ، تتمثل قول الحق سبحانه : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيُده ، وعْدا عَلَيْنَا إنَّا كُنَّا فَاعِلين ﴾[4] ، فكما أزالت الحضارة الإسلامية الغشاوة ، وقشعت الظلام ، وأحيت الأمم من قبل ، فهى على استعداد اليوم — وقرآنها محفوظ ، وسنتها باقية ، وتاريخها حى — أن تعيد الأمر إلى نصابه ، لو حملها المسلمون كما حملها الصدر الأول ، وصاروا بها كما سار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .



(١) المؤمنون — ٣٧ .

(٢) البقرة — ٩٦ .

(٣) النجم — ٢٩ ، ٣٠ .

(٤) الأنبياء / ١٠٤ .

المبحث الثالث
منهـــج تربـــوى

نظرية الإسلام التربوية هى انعكاس صادق للنظرية الإسلامية ، أو هى الترجمة التربوية والنظرية التطبيقية للإسلام ـــ كل الإسلام ـــ فكرا ، وروحا ، وتطبيقا فى مجالات الحياة المختلفة : السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والإنسانية ، والخلقية .

وللنظرية الإسلامية منهج متكامل ، يعتمد على أساليب ثلاثة :

١ ـــ فروض ومسلمات تستند إلى الإسلام كنظرية اجتماعية كبرى مصدرها القرآن والسنة .

٢ ـــ أسلوب تاريخى فى دراسة جذور المشكلات التربوية ، وفى دراسة التجارب التربوية التى طبقت فى الجماعة الإسلامية ، وفى القصص القرآنى ، والتى طبقت فى العصور الإسلامية القويمة ، والتى طبقت وطرحت من قبل المفكرين المسلمين والعلماء عبر التاريخ الإسلامى .

٣ ـــ أسلوب علمى تجريبى فى دراسة الخبرات والمواقف التربوية ، « والحكمة ضالة المؤمن » ، فى إطار المسلمات والمبادىء والقيم الإسلامية ، التى تكوِّن الإطار الفكرى الإسلامى .

والواقع الذى لا يشك فيه مؤمن أن الرسول ﷺ بعث فى الأمة الإسلامية فى الدنيا ؛ ليوضح ثلاثة عناصر متماسكة ، وضحها القرآن فى قوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُم رسولاً منكُم ، يتْلُو عليكُم آياتنا ، وَيُزَكِّيكُمْ ، وَيُعَلِّمُكُم الكتابَ

والحكمةَ ، ويعلمكم مالَمْ تكونُوا تَعْلَمُون ﴾ [1].

فكان العنصر الأول ، وهو الآيات والتعاليم الربانية ، والعنصر الثانى ، وهو التزكية ، والعنصر الثالث ، وهو الحكمة ، والقرآن ، وعلوم الدنيا الشاملة ، كل هذه العناصر تكون أساسا لمنهج تربوى متكامل عجيب . ونستطيع أن نبرمج النظرية التربوية الإسلامية فى بناء متكامل ، يقوم على المفاهيم والمبادىء والمضامين والأسس الآتية :

١ ـــ مفاهيم عامة ومسلمات كلية :

أ ـــ التوحيد : ﴿ اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هو الحَىُّ القيُّومُ ، لا تأْخُذُهُ ، سِنَةٌ ولا نومٌ ﴾ [2]
﴿ هو اللهُ الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ﴾ [3].

ب ـــ الخالقية : الإنسان والكون والوجود مخلوق لخالق وصفة الحكيم : ﴿ افلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ [4].
﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ من سلالةٍ من طين ﴾ [5] ، ﴿ والأنعامَ خلقها لكم فيها دفْء ومنافعُ ومنها تأكلون ﴾ [6].

جـ ـــ المساواة :﴿ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى ، وجَعَلْنَاكُم شعوباً وقبائلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [7].

د ـــ دار للجزاء :﴿ وكلَّ إنسان أَلزَمْنَاهُ طائِرَهُ في عُنُقه ، وَنُخْرِجُ لهُ يومَ القيامة

(١) البقرة ـــ ١٥١ .
(٢) البقرة ـــ ٢٥٥ .
(٣) الحشر ـــ ٢٣ .
(٤) ق ـــ ٦ ـــ ٧ .
(٥) المؤمنون ـــ ١٢ .
(٦) النحل ـــ ٥ .
(٧) الحجرات ـــ ١٣ .

كتاباً يَلْقَاهُ منشوراً ، إقرأ كتابك ، كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوم عليكَ حَسِيباً ﴾[1]

هـ ـ المسئولية الشخصية ﴿ فمن يعملْ مثقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[2].

﴿ ولا تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَل مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾[3]

و ـ دستور إلهى ﴿ وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بما أنزَلَ اللهُ ، ولا تَتَّبعْ أهواءهُم ، واحْذَرْهُم أَنْ يفتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أنزلَ الله إليكَ ﴾[4].

ز ـ احترام الطهارة النفسية وتقدير النيات ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصّدُور ﴾[5]، « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنيات » .

٢ ـ أسس وركائز يقوم عليها :

وهى مجموعة من القيم والمبادىء التى صاغها الإسلام على أساس الفطرة البشرية فى الطبيعة الإنسانية ، حسب علمه تعالى ـ وأهمها :

أ ـ الصدق : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدقِهِم ﴾[6]

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ... ليجزى اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمِ ﴾[7]

---

(١) الإسراء ـ ١٣ .
(٢) الزلزلة ـ ٧ ـ ٨ .
(٣) فاطر ـ ١٨ .
(٤) المائدة ـ ٤٩ .
(٥) غافر / ١٩ .
(٦) الأحزاب ـ ٨ .
(٧) الأحزاب ـ ٢٣ ـ ٢٤ .

ب ــ الأمانة :﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِها ﴾ [1] عن أنس قال ما خطبنا رسول الله إلا قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » [2] ، « فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » [3]

ج ــ الوفاء : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ واتقى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِين ﴾ [4]
﴿ يوفُون بالنذْر وَيَخافُون يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرا ﴾ [5]
﴿ وَأَوْفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولا ﴾ [6] .

د ــ الإخلاص : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُم لِوَجْهِ الله ، لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءاً وَلاَ شُكُورا ﴾ [7]
﴿ هُوَ الحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فادعُوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [8]
﴿ كذلك لنصرفَ عنه السُّوءَ والفحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِين ﴾ [9] .
﴿ فاعْبُدِ الله مخلصاً لَهُ الدِّين ﴾ [10] .

هـ ــ العــزة :﴿ وَللهِ العزة ولرسولِهِ وللمؤمنين ﴾ [11]
﴿ إنَّ الَّذِينَ توفَّاهم الملائكةُ ظالِمِى أنفسهم قالُوا فِيمَ كُنْتُم ؟ قالُو : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأرضِ قَالُوا : أَلَمْ تَكُن أرضُ الله واسِعَةً

---

(1) النساء ــ ٥٧ .
(2) رواه أحمد ٣ / ١٣٥ ، ١٥٤ .
(3) رواه البخارى كتاب العلم .
(4) آل عمران ــ ٧٦ .
(5) الإنسان / ٧ .
(6) الإسراء ــ ٣٤ .
(7) الإنسان / ٩ .
(8) غافر ــ ٦٥ .
(9) يوسف ــ ٢٤ .
(10) الزمر ــ ٢ .
(11) المنافقون ــ ٨ .

فَتُهَاجِرُوا فيها ، فأولئك مَأواهم جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيرا ﴾ (١)

يوضح هذا قول عمر : أحب من الرجل إذا سيم خطة خسف أن يقول بملء فيه : لا .

٣ ــ أهداف عليا :

يستهدف الفرد والمجتمع تحقيقها فى الحياة وفى الإنسان ، فردا كان أو جماعة ، ويتلخص ذلك فى تبعات الخلافة عن الله فى الأرض وأهمها :

أ ــ تخليص الناس من ظلم البشر وتعبيدهم لله سبحانه وتعالى :

﴿ يَاأَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلىَ كلمة سواءٍ بيننَا وَبينَكُم ، أَلَّا نَعْبُدَ إلا الله ، ولا نُشْرِكَ به شيئاً ، ولا يَتَّخِذَ بعضُنَا بَعْضاً أرباباً مِّن دُون اللهِ ﴾ (٢) .

ب ــ تطويع الناس لمنهج الله تبارك وتعالى ، وإقامته فى الأرض :

﴿ ادْعُ إلى سبيلِ رَبِكَ بالْحِكْمَةِ والموعِظَةِ الحَسنَةِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَنْ أحْسنُ قولاً ممن دعَا إلى اللهِ ، وَعَمِلَ صَالِحاً ، وقال إنَّنِى مِنَ المُسلِمينَ ﴾ (٤).

جـ ــ الدعوة إلى الخلق والمعروف ، والبعد عن الفسق والمنكر والفجور :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أمةٍ أُخْرجَتْ للناس ، تأمُرُون بالمعروفِ ، وَتنْهونَ عَنِ المنكر ، وتُؤمِنُون باللهِ ﴾ (٥) ﴿ أَقِمِ الصلاةَ ، وأْمُرْ بالمَعْرُوفِ ، وانْهَ عَنِ المُنْكَرِ ، واصْبِرْ عَلى مَا أصَابَكَ ﴾ (٦) .

---

(١) النساء ــ ٩٧ .
(٢) آل عمران ــ ٦٤ .
(٣) النحل / ١٢٥ .
(٤) فصلت ــ ٣٣ .
(٥) آل عمران ــ ١١٠
(٦) لقمان ــ ١٧ .

د ـ الدفاع عن شرعه ودينه :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يقاتَلُونَ بأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وإنَّ الله عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[1]

هـ ـ ابتغاء ثواب الدنيا والآخرة ، وما عند الله خير وأبقى للمتقين ، جزاء صالح أعمالهم :

﴿ فآتاهُم الله ثَوابَ الدُّنيا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخرةِ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾[2] .

﴿ وَالبَاقِيَاتُ الصالِحاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِكَ ثَواباً وخيرٌ أملا ﴾[3] .

٤ ـ مضمون ومحتوى من المفاهيم ، والمسلمات ، والمبادىء ، والقيم ، والاتجاهات ، التى تبنى أيضا على أساس الفطرة الإنسانية :

ومن خصائص هذه المبادىء الإنسانية أنها تعتبر إجابة منطقية وواقعية لقضايا فكرية ، وقضايا اجتماعية ، وقضايا نفسية ، يطرحها العقل الإنسانى ، وتطرحها تفاعلات الحياة فى وسط الجماعة البشرية ، والاحتكاكات الآدمية ، وهى أشياء كثيرة ومتنوعة ، وضحها الإسلام فى تعاليمه ، ويُربَّى عليها الفرد المسلم كقاعدة ومنظومة ، تعيش معه فى الحياة . نذكر منها على سبيل المثال .

١ ـ مقدار الحرية التى ينبغى أن يمارسها الإنسان أثناء إشباعه لمطالبه وحاجياته الحيوية والنفسية والعقلية والاجتماعية مع بنى جنسه من البشر .

٢ ـ حقوق الإنسان الأساسية ، وكيف يحصل عليها ، وواجباته ، وكيف يؤديها .

٣ ـ منظومة من المفاهيم التى تسير فى إطار الفطرة ، وتمثل قاعدة المسلمات التربوية مثل :

حق الوالدين	حقوق الزوجة	حقوق الزوج
حق الولد	حقوق الأقارب والأرحام	حق الجار

(١) الحج / ٣٩ .

(٢) ال عمران ١٤٨ .

(٣) الكهف : ٤٦ .

وفى آداب المعاملات :

منع البيع على بيع أخيه	منع الخطبة على الخطبة
منع الغش والخداع	النصح والحب
آداب المجلس	آداب الاستئذان
آداب النظر والعورة	احترام الضعفاء وإعانتهم
الوصية بالنساء	رحمة العجماوات
إغاثة الملهوف	عيادة المريض

والأمثلة على ذلك كثيرة فى آى القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ ، وكتب الآداب والأخلاق ، وفى آثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان . وقد انفردت بذلك كتب معينة وفصول مطولة . يرجع إليها من شاء[١].

٥ ــ وسائل وطرائق وأساليب وتشريع لتحقيق هذا البناء فى الواقع الاجتماعى .

يمثل هذا التشريع الإسلامى ــ الذى هو سياج الجماعة ، وحارس مبادئها ، ومهيمن على القيم والمثل العليا ــ المبادىء الأساسية التى تنتظم فى الإطار الفكرى للإسلام ، ويتمشى مع روح الجماعة الإسلامية التى استقت تعاليمها من الوحى ، ولاحظت جميع إمكانات الفطرة البشرية ، ففى التشريع الإسلامى : لاتتغير القوانين ، ولا التشريعات السماوية ، لسبب بديهى هو : أن القيم والمثل العليا والمبادىءالأساسية فيه قائمة على فطرة الإنسان ، وفطرة الإنسان نفسها لم تتغير منذ خلق الله الإنسان : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٢].

والتشريع الإسلامى ــ كأى تشريع ــ يمثل الضابط الاجتماعى الخارجى

---

(١) ارجع إلى ــ إحياء علوم الدين ــ مصنف عبد الرزاق ــ كنز العمال ــ مصنف ابن أبى شيبة . الآداب الشرعية .

(٢) الروم ــ ٣٠ .

لسلوك الإنسان فى الجماعة والتربية . والإيمان هو البانى للضابط الداخلى للسلوك الإنسانى . فإذا توافق الضابط الداخلى مع الضابط الخارجى استقامت النفس والفطرة والتعاليم ، وتعاون الكل فى سعادة المجتمع وحفظه وترقيته . وإذا تنافرت وتباينت تمزق الإنسان ، وتفسخ المجتمع ، « فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، ﴿ ياأيُّها الذينَ آمنوا ، أطيعُوا اللهَ ، وأطيعُوا الرَّسُولَ ، وأولى الأمْر مِنكُم ، فإن تَنازَعتُم فى شيء فردُّوه إلى اللهِ والرسول ، إن كُنتُم تؤمنُون باللهِ واليومِ الآخر ﴾[1] . ومن هذا ندرك أن النظرية التربوية تلَعب دورا هاما فى باب التشريعات والقوانين ، كما أن التشريعات تلعب نفس الدور فى التربية وبناء السلوك للفرد والجماعة ، فكل منهم يكمل الآخر ، ويأخذ بيده فى التشريع الإسلامى . أما تشريع الأفراد ــ الذى يختلف مع الفطرة ــ فقد يشرع لحماية طبقة أو شهوة أو مستعمر ، وبذلك يصادم الحقوق الأساسية للأفراد والجماعات . ويشاق التربية السليمة القويمة للإنسان .

٦ ــ عناصر كاملة للتقويم والعلاج المستمر :

وتتمثل فى التربية والتعليم والتفقه والتطبيق ، فقد جاء الإسلام من الله سبحانه لتربية البشر على مسلماته ومفاهيمه ، كما تكفل بالإجابة على الأسئلة الكبرى التى تصادف الإنسان فى حياته ، باعتباره إنسانا مفكرا . ولهذا كانت برامج الإسلام العبادية مناهج تربوية من الدرجة الأولى ، لبناء الإنسان فكريا واجتماعيا ونفسيا . ولسنا فى حاجة إلى إظهار ما فى الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد ــ الجهاد الحربى والنفسى ــ من جوانب تربوية ، فكل ذلك معروف لعوام المسلمين ــ كما أن الآداب والقيم الإسلامية والتراث الضخم فى ذلك ، يكون مادة ومنهجاً للتربية والتعليم والتثقيف ، وعلاج النزعات الإنسانية التى تبرز من خلال الممارسات اليومية فى المجتمعات .

---

(١) النساء ــ ٥٩ .

خصائص النظرية :

ونستطيع أن نوضح خصائص نظرية التربية الإسلامية فى عدة نقاط :

أ ـــ تمتاز النظرية الإسلامية بالتكامل والشمول والوضوح المنطقى ، كما تمتاز بعدم التناقض فى كل من مسلماتها ، ومفاهيمها ، وأسسها ، وركائزها ، وأهدافها ، ومضامينها ، ووسائلها ، وتشريعاتها ، وأساليبها التقويمية ، سواء فى كل منظومة منها على حدة ، أم بينها جميعا كوحدة كلية ، أم بين أساسها النظرى وأساسها التطبيقى .

فحينما تتناول الإنسان بالتربية والتنشئة والتعليم تتناوله ككل ، جسما ، وعقلا ، ونفسا ، وروحا . فتبنيه كشخصية متكاملة ، بواسطة منهج تربوى متكامل الخبرات ، شامل لكل العناصر ، فلا تضحى بجانب فى سبيل جانب آخر . فإذا غلب الجانب الروحى ربت لنا رهبانية ، « ولا رهبانية فى الإسلام » ، وإذا غلب الجانب العقلى انحرف الإنسان عن جادة الصواب وكان جدليا لفظيا ، وهكذا نستطيع أن نرد الانحرافات الفكرية والاجتماعية ـــ التى حدثت فى تاريخ الإسلام ـــ إلى الانحراف عن هذه الخاصية الأساسية فى الإسلام ، وعن منهجه التربوى .

ب ـــ تستند تلك النظرية فى الثقافة والتربية والتعليم إلى الطبيعة والفطرة البشرية التى فطر الله الناس عليها . فلا تستند إلى موقف إنسان ، أو شهوته ، أو حبه ، أو كرهه ، أو بغضه ، أو مصلحته .

جـ ـــ تبنى هذه النظرية على أساس التوازن ، وبذلك لم تُضَحِّ بأى طرف من أطراف القضايا الإنسانية والحياتية المختلفة ، ولم تقلل من شأنها على حساب الآخر ، فلا كبت للغرائز ، ولا إطلاقا لها ، ولا تبذير للأموال ولا إمساكا لها ، وهو ما تسميه بالوسطية : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾[1] .

---

(١) البقرة / ١٤٣ .

د ــ العمومية والعالمية ــ فالنظرية لا تقوم على الجنس أو اللون أو الأرض ، وإنما تقوم على العالمية : ﴿ ولا يَجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾[1]، ﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾[2].

﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾[3]، وقول الرسول ﷺ : « من آذى ذميا فقد آذانى »[4].

هـ ــ المثالية والواقعية ــ ولهذا نجد الأخلاق الإسلامية ــ مثلا ــ ليست تلك الأخلاق المجردة ، التى انحرفت بالفلاسفة ، وببعض مفاهيم الأديان الأخرى ، عن الحياة الواقعية للبشر ، وحلقت بهم فى سماء المثاليات الجوفاء من القيم غير الواقعية ، التى لا تفرزها الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى واقع المجتمعات البشرية ، وإنما نجد أن المبادىء الإنسانية والاجتماعية التى يصوغها الإسلام تبنى على أساس الواقع الحيوى والنفسى والاجتماعى والعقلى والروحى ، فنجد مثلا التشريعات والقوانين الإسلامية أمورا واقعية ، بنيت على أساس مكونات الإنسان فى الجماعة ، وإمكانات نموها ، وصيغت فى إطار من الواقعية والقيم والمبادىء العليا السامية ، وهى فى نفس الوقت مثاليات عليا : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾[5].

المناهج التربوية الغربية :

لاشك أن لكل تعليم نظام يترجم فى تعاليم ومبادىء ، تتمثل فى هيكل له روح وجسد كالكائن الحى . وروح كل تربية وتعليم إنما هى ظل لعقيدة مجتمعه ، أو عقيدة واضعيه ، ونفسيتهم ، وغايتهم من التربية ومن التعليم ودراسة فى الكون ،

---

(١) المائدة ــ ٨ .

(٢) النساء ــ ١٣٥ .

(٣) الحجرات ــ ١٣ .

(٤) رواه داود ــ كتاب الأقضية ٢٥ .

(٥) الدعوة إلى الإسلام ترجمة حسن إبراهيم ص ٨٥ والآية النحل / ١٢٦ .

ووجهة نظرهم فى الحياة وفى الأخلاق وفى المبادىء ، وذلك ما يمنح نظام التعليم فى كل أمة شخصية مستقلة ، وروحا خاصة ، وضميرا ذاتيا ، وهذه الروح هى التى تسرى فى جميع نظم المجتمع وتعاليمه ، وتوجه ثقافته فى جميع العلوم فى الآداب والفلسفة والتاريخ والفنون والعلوم العمرانية ، حتى فى الاقتصاد والسياسة ، بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح فيما بعد .

والحضارة الغربية — كما أوضحنا — لها فلسفتها فى الحياة ، وفى الكون ، وفى العقيدة . فلا بد أن تصطبغ برامجها التعليمية بهذه الفلسفة التى آمنت بها ، ولسنا هنا فى معرض تفصيل تلك البرامج التعليمية لهذه الفلسفة الغربية ، وإنما نعرض للخطوط العريضة لتلك التربية ، لتظهر المقارنة بين المقاصد والغايات للحضارة الإسلامية وغيرها ، ونستطيع أن نبرمج النظرية التربوية الغربية فى بناء متكامل ، يقوم على المفاهيم والمبادىء والأسس الآتية :

١ — الإلحاد والمادية ، فالدين خرافة ، والوحى والنبوة أمور مشكوك فيها ، لم تثبت بالدليل المحسوس . وقد قدمنا طرفا من ذلك قبل .

٢ — النظر إلى الكون لا على أنه مخلوق لخالق ، وعلى فرض وجود ذلك الخالق ، فلا دخل له فى الحياة ، ولا فى توجيه مسار الناس .

٣ — لا إيمان بالدار الآخرة ، ولا بالجزاء والحساب والغيبيات .

٤ — العنصرية ، والإيمان بتفضيل بعض الأجناس والألوان ، وهذه العناصر الأربعة سبقت الإشارة إليها قبل .

٥ — توجيه الأخلاق والآداب وجهات معينة ، تخدم رغبات الأشخاص أو الأمم ، فالسياسة خدعة ، والغاية تبرر الوسيلة ، والحق هو مصلحتى أو نفع أمتى ، والعهود تحترم إذا أدت إلى مكسب أو أتاحت فرصة ، أما أن يكون الحق للحق ، بغض النظر عن مصلحتى أو مصلحة أى إنسان ؛ فهذا لا يوجد إلا فى الإسلام . يقول ت . و . أرنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » « سجل أبو عبيدة فى المعاهدة التى أبرمها مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة : إن منعناكم فلنا الجزية وإلا

فلا » ... ثم قال : فلما علم أبو عبيدة قائد العرب بتجهيز هرقل لمحاربته ، كتب إلى عمال المدن المفتوحة فى الشام ، يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبى من المدن ، وكتب إلى الناس يقول : إنما رددنا عليكم أموالكم ، لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لانقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم »[1]، ﴿ ولا يَجرمنكُم شنئانُ قومٍ عَلى ألَّا تَعْدِلُوا . اعدِلُوا هوَ أقرَبُ للتَقْوَى ﴾[2]

هذه هى صفات الإنسانية المستقيمة ، التى تشعر بالأخوة لهذه البشرية ، وتشعر بالانتساب إليها . ولكن إذا طوع الحق للمصلحة وللشهوات الشخصية ، كيف يكون حقا . إن الجندى الروسى الذى يقتل الأفغانيين بالنابالم والقنابل السامة وقنابل الجراثيم : هو مواطن صالح ، يسير على الحق ، فى عرف الدولة التى أرسلته ، ليرتكب تلك الجرائم فى أفغانستان ، وفى عرف العالم الشيوعى كله وما يدور فى فلكه ، والأمريكى الذى يمد إسرائيل بالسلاح ، لسحق شعب بأسره ، وأخذ حقوقه ، وسفك دمائه ، هو فى نظر الفكر الأمريكى مواطن صالح فى عرف السياسة الأمريكية ، وحينما كان ينزل هؤلاء المتحضرون أرض الآمنين العزل ، ليقتلوا ، ويسلبوا ، ويأخذوا الأطفال والنساء ، ويحرقوا القرى ، كان هذا منتهى العدل والاستقامة والوطنية فى نظر من أرسلوهم .

فحينما دخلت فرنسا أرض المغرب العربى مُغتصبة فعلت الأهوال والأعاجيب وما يندى منه جبين كل حر . يقول المارشال « سان ارنو » عن أعماله وجنوده : « إنهم يخربون ، ويحرقون ، ويهدمون البيوت على أصحابها ، ويقطعون الأشجار ، ولقد تركت بعد مرورى حريقا هائلا فى كل القرى ، فقد كانت القرى كلها وهى قرابة مائتين ، قد أحرقت وعاث الفساد فى بساتينها ، وقطعت أشجار الزيتون » . ويقول

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ترجمة حسن إبراهيم ص ٨٥ .

(٢) المائدة ــ ٨ .

الكلونيل « فوريه » سنة ١٨٤٣ : « انطلقت بسبع كتائب من « مليانا وتشرشل » ، بغية أن تعيث فى الأرض الفساد ، وتخطف أكثر ما تستطيع من القطعان ، ولا سيما من النساء والأطفال ، لتبعث الرعب فى قلوب الناس ، بإرسال هذه الغنائم إلى فرنسا » وكان الكولونيل يسمى هذا العمل « الصيد بذكاء وهناء » ، ويقول مادحا « لامورسيير » : إن هذا الجنرال الشاب ، الذى لايقف فى وجهه عائق ، هو الذى اخترق الموقع فى لمحة من الزمان ، واقتلع العرب من مخابئهم فى دائرة خمسة وعشرين ميلا ، وسلبهم جميع ما يملكون من نساء وأطفال وقطعان وماشية ... الخ (١ شباط سنة ١٨٤٢) . ثم يقول : وفى منطقة « مسكرة » ١٧ كانون سنة ١٨٤٢ لاحقنا العدو ، وانتزعنا منه النساء والأولاد والماشية والقمح والشعير .. ثم يقول : وفى ١١ شباط سنة ١٨٤٢ كان الجنرال « بودو » حلاقا ممتازا ، كان ينتزع النساء والأطفال بالقوة ، ويأخذ الماشية ، وكل ما يقع عليه عينه »[1]. وبعد أن استيقظت الجزائر ، وأرادت أن تأخذ أرضها وخيرها ، فقدت مليون ونصف من شبابها وأهلها على مذابح الحرية .

وبعد :

فما هو شعور الضمير الفرنسى آنذاك ؟ أكان يعتبر هذه الأعمال خلقا وبطولة وشرفا عسكريا وحقا مكتسبا أم ماذا ؟ وإذا كان يعتقد هذا ، ويبرره فى أخذ خيرات البلاد ، ونهب ثرواتها ، فماذا يقول فى إحراق القرى ، وأخذ النساء والأطفال ، وذبح الأعراض بدون ذنب أو جريرة ؟. وأين هذه الأعمال من عدل الإسلام وحضارته وخلقه .

يروى مسلم عن بريدة فيقول : « كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية ، أوصاه فى خاصته بتقوى الله عز وجل ومن معه من المسلمين

---

(١) انظر رسائل الجنرال (سان أرنو) ط ص ١٤١ ، ٣١٣ ، ٣٢٥ ، ٣٨١ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ الجزء الثانى ص ٨٣ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ، وحملات أفريقية للكولونيل (موره) ص ٣١٠ ، وغارودى ص ٧٢ ، ٧١ .

خيرا ، ثم قال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا فلا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا .... »[1].

هذه هى الحضارة الإنسانية ، التى جاءت لرحمة العالمين ، لا تحمل حقدا ، ولا حسدا ، ولا بغضاء ، ولا وحشية ، حتى عدوانها وقتالها ؛ لأنها تعاليم خالق الناس : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[2] ﴿ يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ، وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِين ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾[3] . هذا فى الحقيقة هو عدل الإنسان ، لا عدل الحيوان الشره ، الذى يحب أن يستأثر بكل شىء ، يستحوذ على كل خير دون سواه .

ومن توجيهاتهم الأخلاقية أيضا : فصل السلوك الجنسى عن الأخلاق والآداب ، فتهتك النساء ، وبيع الأعراض ، وممارسة الدعارة ، والشذوذ الجنسى ، وفعل الفواحش ، شىء لا ينافى الأخلاق ولا الفضيلة ، والصحافة الداعرة ، والإعلام الجنسى ، والأفلام الخليعة ، وبيعها ، وترويجها ، وعصابات الجنس ، وبيع الرقيق الأبيض ، وعصابات تيسير الطلاق التى توقع الأزواج والزوجات فى جريمة الزنا ، وتضبطهم متلبسين ، لتيسر على الطرف الآخر طلب الطلاق ، لا تنافى الآداب العامة أو الكرامة والأخلاق .

٦ ـــ لا أهداف عليا فى الحياة : نعم هناك غايات ، وما أكثرها ، ولكنها فى الحقيقة ليست أهدافا عليا ، وإنما هى رغبات وأهداف سفلى .

فمن أهداف الحضارة الحديثة مثلا ، الغلبة ، والقوة ، والسيطرة ، والتحكم ،

---

(١) مسلم رقم (١٧٣١) فى الجهاد باب تأمير الأمراء على البعوث والترمذى رقم (١٦١٧) فى السير باب ماجاء فى وصيته ﷺ ، وأبو داود رقم (٢٦١٢) .

(٢) المائدة ـــ ٨ .

(٣) النساء ـــ ١٣٥ .

والرفاه ، وتطويع الناس لمناهج أرضية ، تخدم أغراضا معينة ، وتبيح لهم مايريدون ، بصرف النظر عما إذا كانت هذه الرغبة تتحقق بفتح بلاد الغير والسيطرة على خيراتها ووسائلها ، أو بالاستيلاء على تجارتها وصناعتها . وهذه الغاية وهذا الهدف يكون سببا للشقاء بين الأفراد وبين الأمم ، لأن رغبات الناس متضاربة ، فكل يحب أن يتفوق ، ويغلب ، ويسيطر ، فيقوم صراع بين الأفراد ، وحروب بين الأمم ، ويكون هناك تجاذب وتعارض ، يؤدى فى النهاية إلى ذهاب التقدم والحضارة .

٧ ـــ نظم وقوانين اجتهادية ، ليس لها علاقة بوحى منزل أو رسول معصوم . ولهذا جاءت هذه النظم فى كثير من أحوالها مخالفة للفطرة . فمثلا حق الإنفاق على الوالدين ، وحقوق الرحم ، وصلة الأقربين ، والنصح للغير ، والإيثار ، وحقوق الزوجة ، وحقوق الزوج ، كل هذه الحقوق مشوشة فى تلك النظم الاجتهادية ، لأن هذه النظم تقوم على النظرة المصلحية البحتة ، ولا تراعى القيم العليا. ويقيمون حججهم فى تبرير ذلك بدعاوى مردودة عليهم . فمثلا يقولون : إن التربية الحقة ينبغى أن تكون متحررة من القيود ، أى قيود ـــ « يقصدون بذلك أن الوحى والتعاليم الدينية قيود على العقل » وهم يريدون أن يتحرروا منها . والحقيقة أنهم تحرروا فعلا من تعاليم الوحى الإلهى والتعاليم الربانية ، ولكن ليقعوا فى قيود الشهوات والغرائز والمعبودات الأخرى التى عبدوها من دون الله . من ذلك حب النفس ، والسيطرة ، والبغى ، وغير ذلك من الآلهة التى عبدوها ، فكانت قيودا وقيودا ، ولكنها ليست قيودا لصالح الإنسان ، وإنما قيود لجره وسحبه إلى الهاوية والجحيم . فأى القيود أفضل ، وأيها أحق أن يطاع .

٨ ـــ فقدان العنصر الروحى فى التربية ، وفقدان العنصر الروحى فى التربية يصيب الإنسان بالخواء النفسى المهلك ، ومستحيل أن ينكر الإنسان روحه ، وتستقيم معه الحياة كما ينبغى أن تكون حياة الإنسان السوى . ويكفى أن نرى آثار ذلك فى المجتمع المادى المتناحر ، فى صورة أمراض عصبية واجتماعية ونفسية ، وأن نرى شيوع العته والجنون والشذوذ والانحراف والجريمة .

يقول الدكتور الكسيس كاريل[1] العالم الأمريكى الأوربى ــ: « إن الحضارة لم تفلح حتى الآن فى خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلى ، وترجع القيمة الروحية المنحطة لأغلب بنى الإنسان ــ إلى حد كبير ــ إلى النقص الموجود فى جوهم السيكولوجى ، إذ أن تفوق المادة ، ومبادىء دين الصناعة ، حطمت الثقافة والجمال والأخلاق ..... » ثم يبين جناية هذه الحضارة على الجيل الحاضر فى أمريكا ، فيقول « ففى عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠,٠٠٠ مجنون ، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين فى المصحات الخاصة ٨١,٥٨٠ ، وكان عدد مطلقى السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠,٩٣٠ ، ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التى تعالج فى المستشفيات الخاصة . وعلاوة على المجانين يوجد فى البلاد كلها ٥٠٠,٠٠٠ شخص من ضعاف العقول . ولقد كشف الفحص الذى تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية ، عن أن ٤٠٠,٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء ، إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار فى المدارس العامة ، والإفادة مما يتلقون من علم . وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقليا أكثر من ذلك بكثير ، ويقدر أن عدة مئات من الآلاف ــ لم تشملهم الإحصاءات الرسمية ــ مصابون باضطرابات نفسية . وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب . وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشكلات التى يواجهها المجتمع العصرى ، فإن أمراض العقل خطر داهم : إنها أكثر خطورة من السل ، والسرطان ، وأمراض القلب ، والكلى ، بل والتيفود ، والطاعون ، والكوليرا . فيجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها ، لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب ، بل لأنها ستضعف التفوق الذى

---

(١) ولد الدكتور كاريل بالقرب من ليون بفرنسا ، وحصل على إجازة الطب بها ، كما حصل على إجازة العلوم من ديجون ، وبعد أن مارس التدريس فى جامعة ليون عدة أعوام رحل إلى الولايات المتحدة ، واشتغل فى معهد روكفلر للأبحاث العلمية بنيويورك ، وبقى به قرابة ثلاثين عاما حتى اعتزل العمل به سنة ١٩٣٩ ، ثم عمل فى وزارة الصحة الفرنسية ــ منح جائزة نوبل سنة ١٩١٢ لأبحاثه الطبية الفذة .

تتمتع به الأجناس البيضاء حاليا ... على أنه يجب أن يكون مفهوما أنه صحيح أن عددا كبيرا ممن يعانون من النقائص العقلية موجود فى السجون . بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعى الثقافة مازالوا مطلقى السراح »[1] وواضح من هذه الدراسات ــ التى أجراها كاريل وغيره ــ أن فقدان العنصر الروحى فى التربية وفى المجتمعات جعلها تعيش فى جحيم وقلق واضطراب وتخبط ، يدفعها إلى كارثة حقيقية ، تجر البشرية وراءها إلى الهاوية ، وخلاصة القول : إن حضارة بهذه الصفة ، وتربية على تلك الفلسفات والمبادىء ، لا تناسب الإنسان ، ولا تتوافق مع أشواقه وتطلعاته وفطرته وطبيعته ، وفى هذا يقول كاريل : « إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا . لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ، ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة **لحجمنا وشكلنا ...** »[2]. **وعدم ملاءمة الحضارة لنا نشأ** من أسباب عديدة ، منها : فقدانها للقيم ، ومعاملتها الإنسان على أنه جسد وبطن وفرج وآلة ، بدون روح أو نفس أو قلب . إذن فقد فقدت تلك الحضارة التوازن المطلوب لراحة الإنسان وسعادته ؛ لأنها ضحت بروحانية الإنسان لتبقى على حيوانيته .

٩ ــ الفصل بين اللذة الجنسية فى علاقة الجنسين وبين أهدافها العليا ، فما اللذة الجنسية فى نظر الإنسان السوى إلا رباطا وسكنا ؛ لإنشاء المحضن الآمن النظيف الواعى ، المتخصص لإنتاج صناعة البشر ، وهى أثمن وأعز وأغلى صناعة فى الوجود ، وصدق الله : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[3] ، فما العلاقة بين الجنسين إلا نواة لأسرة كريمة ، وقرة لعين سعيدة ، ولذة لعلاقة ظاهرة

(١) انظر الإنسان ذلك المجهول ص ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٨ .
(٣) الروم ــ ٢١ .

فى الدنيا والآخرة ، وصدق الله ﴿ لهم فيها أزواج مطهرة ، وندخلهم ظلا ظليلا ﴾[1]، ﴿ وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ﴾[2].
فالطهارة هى قطب الرحى فى العلاقة الإنسانية بين الزوجين : الذكر والأنثى . أما أن تتبدل تلك العلاقة الطاهرة إلى سعار حيوانى ؛ فهذا انحراف ، يؤدى إلى رجوع البشر إلى الهمجية والحيوانية ، وهو ما تفعله الآن الحضارة الحديثة بكل ما فى الكلمة من معنى . وتعلمه فى دور العلم عندها ، تحدثت إحدى الفتيات الأمريكيات فى معهد المعلمين « جريلى كولورادو » — فى أثناء مناقشة عن الحياة الاجتماعية فى أمريكا — عن العلاقة بين الجنسين فى الحضارة الحديثة ، مع المقارنة بما عليه الشرقيون ، فقالت : « إن مسألة العلاقة بين الجنسين مسألة بيولوجية بحته — وأنتم — الشرقيين — تعقدون هذه المسألة البسيطة بإدخال العنصر الأخلاقى فيها — فالحصان والفرس ، والثور والبقرة ، والكبش والنعجة ، والديك والفرخة ، لا يفكر أحد منها فى حكاية الأخلاق هذه ، وهو يزاول الاتصال الجنسى ، ولذلك تمضى حياتهما بسيطة مريحة !! »[3] نعم فالحصان ، والثور ، والكلب ، والحمار ، لا يشعر بالحرج ، ولا يفكر فى الأخلاق ، لسبب بسيط جدا : وهو أنهم حيوانات !! ثم أين المحضن الآمن لإنجاب الأطفال ، وهل يشعر الأب بالسعادة والأسرة بالطمأنينة ، وهى لا تعرف إن كانت الأولاد من صلبهم أم من ماء حيوانات إنسانية أخرى . ليجرب أب أو أم — هل يرضى ذلك الأب أو تلك الأم أن يستبدل بولدهما الذى من صلبهما ولدا آخر ، مهما كان فيه من الجمال والبهاء ، وهل تقر بِهِ عيونهم ، نفس القضية ونفس التعاسة يشعر بها الآن هؤلاء الناس ، ولعل السبب الرئيسى فى هذه الحيوانية يرجع إلى الانحراف الروحى والخواء العقائدى ، الذى يملك على هؤلاء الناس أقطارهم » . كانت إحدى المدرسات فى المعهد المركزى لتعليم اللغة الإنجليزية للغرباء بمعهد ويلسن للمعلمين بواشنطن ، تلقى على مجموعة من طلبة أمريكا اللاتينية —

---

(١) النساء — ٥٧ .
(٢) آل عمران — ١٥ .
(٣) الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٧٦ ط دار الشروق .

الذين يعدون فى هذا المركز لتلقى الدروس بالإنجليزية ـــ درسا فى تقاليد المجتمع الأمريكى . وفى نهاية الدرس سألت طالبا من جواتيمالا عن ملاحظاته على المجتمع الأمريكى . فقال لها : لقد لاحظت أن فتيات صغيرات فى سن الرابعة عشرة ، وفتيانا صغارا فى سن الخامسة عشرة ، يزاولون علاقات جنسية كاملة ... وهذا وقت مبكر جدا لمزاولة هذه العلاقات .. وكان ردها فى حماسة .

« إن حياتنا على الأرض جد قصيرة . وليس هناك وقت لنضيعه أكثر من الرابعة عشرة ... !! » [١].

هذه هى التربية فى المعاهد التعليمية ، وهذه هى توجيهات المدرسين والمدرسات . والسبب فى ذلك فقدان الروح والعقيدة ، وعدم الوثوق بحياة أخرى ، والاهتمام باللذة كقيمة عليا فى المجتمع . يهيم بها ، وهذا الخواء هو الذى أنشأ هذا التدنى ، كما أنشأت فى الإنسان صراعا رهيبا بين الفطرة والواقع ، وبين التسامى والتدنى ، فنشأ نوع من الإحباط الفعلى للإنسان السوى ، وفقد التوازن ، وأصيب بالإرهاق والعلل ، وتبعه على هذا الدرب المجتمع الذى يعيش فيه والحضارة التى يفرزها .

إيضاح :

قد يقول قائل : إن المسلمين اليوم فى واقعهم المعاش ، وفى تربيتهم المتطورة ، وفى أخلاقهم الملموسة ، قد بلغوا من التدنى مبلغا جعل حديثهم عن فساد غيرهم ضربا من العجب والسخف . فهم يسلكون فى تعاملهم سلوكا أبعد ما يكون عن أى تربية ، كما أنهم يمارسون ألوانا من ضيق الأفق ، تدعو إلى النفور والاشمئزاز ، ثم يتبع هذا القائل حديثه قائلا ؛ انظر إلى فلان العابد القانت ، يفعل كذا وكذا ، انظر إلى فلان وفلان لا يتحدثون إلا فى الإيمان ، ولا يتكلمون إلا بالمواعظ ، وهم أول المنافقين وأفحش المنتفعين ، إلى غير ذلك من الأمثلة والنماذج . وقد يستشهد مستشهد بجهد

---

(١) المصدر السابق ص ٧٦ .

العاملين فى الغرب ، وإتقانهم للعمل ، وخبطهم للحياة ، على سلامة هذه التربية وجدواها ، وبعكس ذلك عند المسلمين على فساد تربيتهم وخطئها .

ويحق لنا ونحن نسمع هذا الكلام ، ونصغى إلى هذا الحديث ، أن نسأل محدثنا سؤالا ، هو من حقنا عليه ، وهو : هل هؤلاء المسلمون يؤدون تعاليم الإسلام ، ويعيشونها حقيقة وفعلا ، أو أنهم خارجون عن هذه التعاليم ، متنكبون لطريقها ؟ وهل هؤلاء نماذج صحيحة للتربية الإسلامية ، أفرزتهم تعاليمها ، وربتهم مناهجها ، أو أنهم صرعى الانحطاط والشهوات والتدنى والشرود ؟.

وهل هناك من تعاليم الإسلام ومن مناهجه ما يشير إلى تلك التربية ، أو يدعو إليها ، أو يجيزها ، أو أن تعاليم الإسلام تنكرها ، وتحذر منها ، وتعاقب من يسير عليها . وهل هذه النماذج الحديثة المشار إليها فى المسلمين بينها وبين الرعيل الأول الذى فتح الدنيا توافق أو تنافر .

ثم لما كان الصحب الأول والرعيل الأول قمة سامقة ، وهؤلاء سفوحاً هابطة فى كل شيء ؟ ألِأن هؤلاء نفذوا منهج الإسلام ، وهؤلاء تنكروا له ، وساروا على سنن غيرهم ، ودرب سواهم !! والحقيقة قد يكون المسئول عن ذلك الحضارة الغربية ؛ لأنهم إليها ينتسبون بالتقليد تارة ، وبالانصياع إليها تارة أخرى ، فكانوا مسوخا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . والإسلام على أى حال ليس مسئولا عن هؤلاء ولا أولئك ؛ لأن الإسلام هو ما أنزل الله فى كتابه ، وما علمه رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله ، وربى عليه أصحابه رضوان الله عليهم ، حتى صاروا خير أمة أخرجت للناس ، فعلا ، وعملا ، وقولا ، وليس مجرد انتساب ، أو كلمة تقال باللسان ، وإنما هى كلمة على اللسان ، وعقيدة فى الوجدان ، وسلوك مشهود فى العيان ، ومنهج حياة كامل يطبع المسلم بطابعه ، ويربيه على مقتضاه . فالمسلمون اليوم ليسو هم الإسلام أو تعاليمه أو حضارته ، بعكس الغربيين فهم حضارتهم وتعاليمهم ومنهجهم .



المبحث الرابع
النظـــام الاجتمـاعى فى الإســـلام

ينطلق النظام الاجتماعى فى الإسلام من قاعدة صلبة ، تتضمن ما قدمنا من عقيدة راسخة قوية ، وتصور للحياة وغايتها ، ونظام تربوى متكامل ، مستمد من تعاليم ربانية خالدة ، لأن الإسلام — وهو يتولى تنظيم الحياة الإنسانية جميعها — لم يعالج نواحيها المختلفة جزافا ، ولم يتناولها أجزاء متفرقة ، وإنما تناولها وتصورها نظاما كليا متكاملا عن الألوهية والكون والحياة والإنسان .

ونظام الإسلام الاجتماعى متوازن ، لا يشبع غريزة على حساب أخرى ، أو يميل إلى الفرد ويتناسى الجماعة ، أو العكس ، فإذا كان من الظلم الاجتماعى الذى يتنافى مع العدالة أن تطغى ملامح الفرد ومطامعه على الجماعة ، فإنه من الظلم أيضا أن تطغى الجماعة على الفرد وتحطمه . فكان لابد من نظام تستقيم به الحياة ، لايغفل حق الفرد فى انطلاق نشاطه فى الحدود التى لا تضاربها الجماعة ، ولايضاربها هذا الفرد ذاته ، ولا يصطدم بأهداف الحياة العليا . فالحياة تكافل وتعاون فى نظر الإسلام ، لا حرب ونزاع وخصام ، كما أنها إطلاق للطاقات الفردية والعامة ، فى كل ما هو مباح ، فى حدود منهج الله وشرعه سبحانه . وهذا النظام من طبيعته أن ينظر إلى وحدة الروح والجسد فى الإنسان ، وإلى وحدة الماديات والمثل فى الحياة ، كما ينظر إلى وحدة الهدف بين الفرد والجماعة ، وبين الجماعات المختلفة فى الأمة الواحدة ، ووحدة الغاية بين الإنسانية جمعاء . ووحدة الهدف بين الأجيال المتعاقبة على اختلاف الأزمان والأماكن .

﴿ والذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى

صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾(١) .

ونستطيع أن نقرر أسس هذا النظام فيما يأتى :

١ ــ التحرر الوجدانى .

٢ ــ الأخوة ــ التكافل الاجتماعى .

وسنلقى بعض الضوء على كل عنصر من العناصر السابقة .

١ ــ التحرر الوجدانى :

لتحقق العدالة الاجتماعية لابد من وجود قناعة نفسية ووجدانية بتلك العدالة ، وبحاجة الفرد والمجتمع إليها . وهذه القناعة لا تتولد إلا بحرية نفسية ومذاق سليم ، خال من المؤثرات والضغوط والإيحاءات المهيجة أو المتلفة لحاسة النضج فى الفطرة ، ولهذا كان لابد من قواعد لتحرر وجدانى سليم ، لتحقق تلك العدالة . وهذا ما قرره الإسلام فيما يأتى :

أ ــ تحرير الوجدان من عبادة غير الله .

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾(٢) .

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ﴾(٣) .

﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾(٤)، ﴿ قل إنما أدعو ربى ، ولا أشرك به

---

(١) الحشر ــ ٩ ــ ١٠ .

(٢) البينة ــ ٥ .

(٣) آل عمران ــ ١٤٤ .

(٤) آل عمران ــ ١٢٨ .

أحدا . قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ﴾[1]

وهذا التحرر الوجدانى من عبادة غير الله له نتائج وثمار معينة منها :

١ ـــ التحرر من سلطان البشر ، وتسلط الجبابرة :

﴿ قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾[2].

٢ ـــ التحرر من الخوف على الحياة ـــ أو على الرزق :

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ﴾[3]، ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ﴾[4]، ﴿ لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[5].

أما عن الرزق فقد قال الله تعالى :

﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم ﴾[6]، ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾[7]، ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾[8].

﴿ قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ﴾[9]

ب ـــ التحرر من عبودية الأعراف والمصطلحات الفاسدة .

---

(١) الجن ـــ ٢٠ ـــ ٢٢ .
(٢) آل عمران ـــ ٦٤ .
(٣) آل عمران ـــ ١٤٥ .
(٤) سورة التوبة ـــ ٥١ .
(٥) يونس ـــ ٤٩ .
(٦) العنكبوت ـــ ٦٠ .
(٧) الأنعام ـــ ١٥١ .
(٨) التوبة ـــ ٢٨ .
(٩) الأنعام ـــ ١٤ .

حرر الإسلام الإنسان من عبودية الأعراف الخاطئة ، والقيم الاجتماعية الجائرة ، قيم المال ، والجاه ، والحسب ، والنسب ، قيم الآباء ، ومصطلحات الأجداد ، وموروثاتهم الجاهلية ، حتى لايستشعر انقيادا وانصياعا لأى مصطلح من هذه المصطلحات : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين . قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾ [١]

﴿ أنى يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال . قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ [٢].

﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا ، إنَّ هذا لشىء عُجَاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إنَّ هذا لشىء يُراد . ما سمعنا بهذا فى المِلَّة الآخِرَة إنْ هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا . بل هم فى شك من ذكرى ، بل لما يذوقوا عذاب . أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾ [٣]. كما يظهر ذلك قصة الرجلين فى سورة الكهف ﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴾ [٤] حيث يبرز اعتزاز المسلم بإيمانه ، واستهانته بتلك القيم الفاسدة ، وبعده عنها ، كما يوضح ذلك قصة قارون ، حيث يقول المؤمنون العالمون له : ﴿ لاتفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندى ﴾ [٥].

---

(١) سبأ ٣٥ — ٣٧ .

(٢) البقرة — ٢٤٧ .

(٣) ص — ٥ — ٩ .

(٤) الكهف ٣٢ — ٤٤ .

(٥) القصص — ٧٧ .

حـ ـــ التحرر من الشهوات والأهواء .

الإسلام ليس دعوة إلى الزهد ، وترك الطيبات ، ولبس المرقع من الثياب ، والبعد عن الزينة والمتاع : ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ﴾[1] وإنما هو دعوة إلى التحرر ، والانطلاق من ضعف الشهوات والغرائز ، ودعوة إلى شكر النعمة واستعمالها فيما يعود على الإنسان وعلى مجتمعه وعلى الإنسانية بالخير ، ودعوة إلى إصلاح الناس ، ورحمتهم بالنعم ، لا إلى الفساد واستعبادهم بها : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أؤنبكم بخير من ذلكم . للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ﴾[2].

بهذا يعرض الإسلام مع المتاع الدنيوى متاعا أخرويا أفضل وأدوم ، ليقوى الضعف البشرى لحب العاجلة ، والفتنة بها ، والخداع بزهرتها ، وترك الأعمال الصالحة التى عليها قوام الحياة الاجتماعية . فإذا أحب المال وافتتن بجمعه بخل به ، ومنعه عن المحتاج ، وعن نفع الناس ، وإذا انحرف وراء الشهوات قد لاينظر من حلال هى أم من حرام ، فيهدم قيم المجتمع وأهدافه العليا ومثله السامية .

د ـــ الحرية فى الكلمة وفى التعبير عن الحق .

يتمثل هذا فى كثير من المواقف التى حكاها القرآن الكريم ، نرى من ذلك حوار فرعون مع المؤمنين ، حيث يريد أن يجهض الإيمان والحق فى صدورهم ونفوسهم : ﴿ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى . قالوا : لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات

(١) الأعراف ـــ ٣٢ .

(٢) آل عمران ـــ ١٤ ـــ ١٥ .

والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا : إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر . والله خير وأبقى ﴾[1].

﴿ يأأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾[2].

« سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر ، فأمره ونهاه ، فقتله »[3]. ومن ذلك باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وذلك باب كبير فى الإسلام يرجع إليه فى غير هذا الموضع .

٢ ــ المساواة الإنسانية :

بعد أن قرر الإسلام التحرر الوجدانى ، أسس للمساواة باللفظ والنص والقانون ، ليكون كل شىء واضحا مقررا منطوقا ، فمنع بذلك خرافة التعالى الكاذب ، حيث كان بعضهم يدعى أنه من نسل الآلهة ، وبعضهم يروج بأن الدماء التى تجرى فى عروقه ليست من نوع دماء العامة ، وإنما هو الدم الملوكى العالى النبيل ، وقد ولغت فى ذلك بعض الملل والنحل ، حيث كان منهم من فرق الشعوب إلى طبقات ، خلق بعضها من رأس الآلهة ، فهى طبقة مقدسة ، لا يرقى أحد إليها ، وخلق بعضها من قدميه ، فهى منبوذة ، ومنهم من خص نفسه بالبُنوة دون سائر الناس ، فقال : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾[4]، فجاء الإسلام قمة عالية ، ووثبة مرتفعة ، لم يعرف لها التاريخ شبيها أو نظيرا ، جاء ليقرر وحدة الجنس البشرى من المنشأ والمصير : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾[5]، فى المحيا والممات ، فى

---

(١) طه ــ ٧١ ــ ٧٣ .
(٢) النساء ــ ١٣٥ .
(٣) رواه أبو داود فى سننه .
(٤) المائدة ــ ١٨ .
(٥) طه ــ ٥٥ .

الحقوق والواجبات ، أمام القانون وأمام الله ، فى الدنيا والآخرة ، لاتفاضل إلا بجهد وعمل صالح ، ولا كرامة إلا بقلوب وقر فيها التقوى .

وعلى هذا نستطيع أن نقرر معالم المساواة الإسلامية وأسسها فيما يأتى :

أ ـــ المنشأ والمصير .
ب ـــ فى الشعور والكرامة .
جـ ـــ فى القانون : فى الحقوق والواجبات .
د ـــ بين الذكر والأنثى .

وعلى هذا تتحقق المساواة وتسود العدالة وينعم الناس بالاستقرار .
ونبين ذلك فيما يأتى :

المساواة فى المنشأ والمصير :

هدم الإسلام ـــ كما قدمنا ـــ فكرة النسب المقدس ، والدم الملوكى ، ونسب الناس كلهم إلى أصل واحد ، فتبرأ بذلك من العصبية القبلية والعنصرية ، كما رد عصبية النسب والأسرة ، فقال سبحانه : ﴿ مِنْها خَلَقْنَاكُم وَفِيهَا نُعِيدُكُم وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارةً أُخْرى ﴾[1] .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قَرَارٍ مَكِيْنٍ ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنا الْمُضْغَةَ عِظاماً ، فَكَسَوْنا الْعِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثم إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[2] .

﴿ وَقالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمـٰنُ وَلَدَاً ، لَقَد جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ، تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الأرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدا .

---

(١) طه ـــ ٥٥ .
(٢) المؤمنون ـــ ١٢ ـــ ١٥

وَمَايَنْبَغى للرَّحمٰنِ أنْ يَتَّخِذَ وَلَدا . إنْ كُلُّ مَنْ فى السَّمواتِ والأرْضِ إلاَّ آتِى الرَّحمٰنِ عَبْداً . لَقَدْ أحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيامَةِ فَرْدا ﴾ [1].

وقد أعلن الرسول تلك المساواة الجامعة على رؤوس الأشهاد فى خطبة الوداع ، حيث قال : « إنَّ الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وتفاخرها بالآباء والأجداد . الناسُ لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » [2].

وقد أصبح المجتمع الإسلامى يتعامل بتلك الصفات ، ويطبقها ، وينسى تلك العصبية البغيضة ، فحين باع حكيم بن حزام داره ، وخاطبه فى ذلك بعض الناس ، يثيرون فى نفسه نخوة الأمجاد الموروثة والشرف المستمد من العشيرة والنسب ، فاجأهم الرجل بقول جديد فى المجتمع العربى ، يعكس اتجاهاته ، ويصور قيمه الإسلامية تجاه مبدأ المساواة ، فقال : « يأأيها الناس ، لقد أصبح الشرف اليوم بالتقوى ! » [3].

المساواة فى الشعور والكرامة :

يشعر الإسلام الإنسان بأن له حرمة مصونة ، رفعه الله إليها بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَد كَرَّمْنا بَنِى آدَمَ ، وَحَمَلْناهُمْ فِى الْبَرِّ والبَحْرِ ، وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلا ﴾ [4].

فالكل متساو فى تلك الحرمة ، لا يقل فيها أحد عن أحد ، فهم فيها سواء ، ويتبع الإسلام كل ناحية من حياة الناس : الوجدانية ، والاجتماعية ، والنفسية ،

---

(١) مريم — ٨٨ — ٩٥ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) المجتمع الإسلامى د : مصطفى عبد الواحد ص ٨٤ ط الأمل — الكويت .

(٤) الإسراء — ٧٠ .

ليؤكد فيها معنى المساواة والكرامة ؛ لأنه يريد حياة إنسانية كاملة ، لا عقد ولا أمراض للنفس ولا نجاسة فيها .

﴿ يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ، لايَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ، عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُم ، ولا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ، عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ، ولا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُم ، وَلا تَنابَزُوا بالأَلْقابِ ، بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُون ﴾ (١).

المساواة فى القانون والحقوق :

مادام الناس من أب واحد وأم واحدة ، وخالقهم ورازقهم واحد ، وكرامة كل موفورة ؛ فلابد أن يكون قانونهم واحد ، يستظل بظله القوى والضعيف ، والفقير والغنى ، والحسيب وغيره . ولهذا نرى الإسلام يفرض ذلك ويوضحه ويحض عليه .

نرى الرسول ﷺ تعرض أمامه قضية سرقة درع يتهم فيها يهودى ، وهو برىء ، والسارق أحد المسلمين ، فينزل القرآن ، يفصل فى القضية : ﴿ إِنَّا أَنْزَلنا إِلَيْكَ الكتابَ بالْحَقِّ ؛ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بما أَراكَ اللهُ ، وَلا تَكُنْ لِلْخائِنينَ خَصِيما . واسْتَغْفِرِ اللهَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيمَا . وَلاتُجادِلْ عَنِ الَّذينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لايُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيما ﴾ (٢). وظهرت براءة اليهودى ، وأدين المسلم ، : ﴿ يأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ ، شُهَدَاءَ ، بالْقِسْطِ ، وَلايَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أن لا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتَّقْوى ، واتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُون ﴾ (٣). وأرسى الإسلام حقائق العدل المجردة . لا تخضع لجنس ولا للون ولا لدين ، لأنها من رب العالمين . وقد اقتص الرسول ﷺ من نفسه فى غزوة بدر ، فقد وجد سوادا خارجا عن الصف . فقال له : « استو ياسواد » ،

---

(١) الحجرات — ١١ .
(٢) النساء — ١٠٥ — ١٠٧ .
(٣) المائدة — ٨ .

وطعنه فى بطنه ، فقال له سواد : « أَوْجَعْتنى يارسولَ الله » ، فكشف الرسول ﷺ عن بطنه ، وقال له : « إسْتَقِدْ مِنِّى » !! . هكذا بلا حقوق مقدسة ، وبلا حصانة ، وبلا هيبة مصنوعة ، فالكل فى مجال الحق سواء . وقد نادى الرسول ﷺ فى الناس قبل وفاته ، قائلا : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى ... ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالى !! » .

وهو القائل لأسامة لما جاءه شفيعا فى حدّ : « أتشفع فى حد من حدود الله يأأسامة : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها »[(1)].

ونرى أبا بكر يقول فى خطبته : « الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحقَّ له ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه » .

المساواة بين الذكر والأنثى :

كفل الإسلام للمرأة مساواة تامة مع الرجل ، من حيث الجنس والحقوق الإنسانية ، ولم يقر الإسلام التفاضل إلا فى بعض المسائل المتعلقة بالاستعداد أو الدربة أو التبعة ، وكل ذلك لايؤثر على حقيقة الوضع الإنسانى للجنسين ، أو على التأثير الوجدانى والقيمى فى الحياة . ونوضح ذلك فيما يأتى :

التساوى فى الناحية الدينية :

ساوى الإسلام بين الجنسين فى الأعمال والجزاء عند الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيْرا ﴾[(2)] ، ﴿ مـن عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ

---

(1) البخارى كتاب الحدود ٨ / ١٥ عينى ١١ / ١٣٦ عسقلانى ١٢ / ٨٣ .
(2) النساء ـــ ١٢٤ .

مُؤمِنٌ ، فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً ، وَلَنجزِيَنَّهُم أجرَهُمْ بِأَحْسَنِ ماكانوا يَعْمَلونَ ﴾[١]، ﴿ أنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾[٢].

التساوى فى الأهلية :

للذكر والأنثى حق الملك والتصرف الاقتصادى ، حيث يتساوى كل مع الآخر ، ولكل منهم ذمة مالية تتملك المرأة بموجبها كل شيء ، وليس هناك دخل للرجل فى مالها : ﴿ لِلرِّجالِ نَصِيْبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيْبٌ مِمَّا تَرَكَ الوالِدانِ والأَقْرَبُونَ ﴾[٣]... ﴿ لِلرِّجالِ نَصِيْبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ، ولِلنِّساءِ نَصِيْبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾[٤] وأما زيادة الرجل فى الميراث عن المرأة فيقابلها النفقة على المرأة ، وعلى المنزل ، والأولاد ، والاضطلاع بأعباء الحياة .

وأما أن الرجال لهم القوامة ، فذلك للاستعداد والدربة والمرانة ، فالرجل بقوته العضلية ، وقيامه بالأعمال ، والدربة فيها ، وإنفاقه ، وضربه فى الأرض ، أكثر خبرة فى هذه الأمور ، ولذلك يتولى تبعتها فى حدود الفضيلة والمعروف ، وأما تفضيل الرجل فى الشهادة على المرأة ، فأمور تتعلق بمعرفة الرجل ، وطبيعة عمله ودربته ، وأمور تتعلق بالمرأة ، وهو عاطفتها ، وشغلها ، وعدم اطلاعها على كثير من الأمور ، وتحققها من ذلك . على أن هناك أموراً تختص المرأة فيها بالشهادة دون الرجل ، فيما تكون فيه أكثر اطلاعا ومعرفة مثل الشهادة فى أمور النساء ، ولا يطلع عليه الرجال . فهذه الأمور كما يقولون أمور ميدانية ، ليس لها علاقة بالتفضيل أو النقص ، إنما لها علاقة بإظهار الحق وإقامة الحقوق بين الناس ، والوصول إلى الدليل والصواب ، وقد يُفَضَّل شهادة أهل الحرف فيما يطلعون عليه ، ولا يعد هذا نقصا عند الآخرين . وقد يؤخذ بشهادة أهل الخبرة ، وترد شهادة من عداهم ، وهذا كله سبيله الوصول

---

(١) النحل ـــ ٩٧ .
(٢) آل عمران ـــ ١٩٥ .
(٣) النساء ـــ ٧ .
(٤) النساء ـــ ٣٤ .

إلى خير الإنسان نفسه ، ومصلحته ، وحفظه ، وسعادته ذكرا كان أو أنثى .

وحسب المساواة أنها مساواة فى الكرامة ، والكسب ، والمال ، والدين ، والرأى ، فلا تنكح المرأة مثلا إلا برضاها دون إكراه أو إجبار — : « لا تنكح الثيب حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن ، وإذنها الصموت »[1] ، وفى مهرها : ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾[2] ، وفى العشرة : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[3] . وقد عصم الإسلام المرأة من الابتذال ، وصانها من الهوان ، وفرض لها من النفقة والرعاية ، ماكفل لها الكرامة والعزة ، وما خرجت المرأة فى الغرب للعمل إلا بعد أن نكل الرجل عن كفالتها وإعالتها ، إلا أن يقتضيها الثمن من عفتها وكرامتها !! عندئذ اضطرت المرأة أن تعمل .

ولقد ظلت أوروبا وبخاصة فرنسا إلى عهد الجمهورية الرابعة بعد الحرب الأخيرة ، لاتمنح المرأة حق التصرف فى مالها — كما يعطيها ذلك الإسلام — إلا بإذن وليها ، على حين منحتها حق الدعارة علانية أو سرية وهذا الحق الأخير هو الذى منعه الإسلام عن المرأة ؛ صيانة لها ، وعفة وحفظا للقيم العليا فى المجتمع !!!

٣ — التكافل الاجتماعى :

كما قدمنا ، يقرر الإسلام الحرية الفردية فى أعلى درجاتها ، والمساواة الإنسانية فى أجل معانيها ، ولكنه مع ذلك لايترك الأمر فوضى ، تختلط فيه الأمور وتتضارب ، فللإنسانية حقوقها ، وللمجتمع اعتباره ، وللأهداف العليا مكانتها ، فلا يعتدى كل على الآخر ، ولا يتضارب ، وإنما يتعاون ويتآزر ، ولهذا فهو يقرر مبدأ المسئولية الفردية فى مقابل الحرية الفردية ، ويقرر إلى جانب ذلك التبعية الجماعية التى تشمل الفرد والجماعة بتكاليفها . وهذا مايسمى بالتكافل الاجتماعى .

ويشمل التكافل الاجتماعى الإسلامى الأمور الآتية :

---

(١) البخارى ٨ / ٥٩ ، عينى ١١ / ٢٢٧١ عسقلانى ١٢ / ٣٠٠ ، ١٠ / ١٣٢ .

(٢) النساء — ٢٤ .

(٣) النساء — ١٩ .

أ ـــ التكافل بين الفرد وذاته .
ب ـــ التكافل بين الفرد والأسرة .
جـ ـــ التكافل بين الفرد والجماعة .
د ـــ التكافل بين الأمة والأمة .
هـ ـــ التكافل بين الجيل والأجيال المتعاقبة .

وهذا مايجعل الإنسانية فى رباط وأخوة ، على اختلاف أفرادها ، وتعدد أماكنها ، وتباين أزمانها .

التكافل مع النفس :

فأما تكافل الفرد مع ذاته ؛ فهو مكلف أن يرعى نفسه ، وأن يختار لها الخير ، ويزكيها ، ويطهرها ، وأن يبتعد بها عن مواطن الهلكة . ﴿ ولاتُلْقُوا بِأيْدِيكُمْ إلَىٰ التَّهْلُكَةِ ﴾[1] ، ﴿ كُلُوا واشْرَبُوا ، وَلاتُسْرِفُوا ، إنَّه لايُحِبُّ المُسْرِفِينَ ﴾[2] ﴿ قَد أفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ، وَقَد خَابَ مَنْ دَسَّاها ﴾[3] وبذلك يقف الإنسان مع نفسه موقف المحاسب الرقيب الراعى ، يمنحها ويحاسبها ، ويعطيها ويأخذ منها . وهكذا يقيم الإسلام فى كل فرد شخصين ، يتحاسبان ويتراجعان ويتكافلان .

التكافل مع الأسرة :

وقيمة التكافل مع الأسرة أنه المادة التى تمسكها ، والسياج الذى يحميها ، والقوة التى تدفعها لتؤدى عملها فى الحياة .

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسانا . إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُماَ فَلاَ تَقُلْ لَهُما أُفٍّ ، وَلَاتَنْهَرْهُمَا ، وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً ، واخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمةِ ، وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَما رَبَّيانِى صَغِيرا ﴾[4] ، ﴿ وأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ

---

(١) البقرة ـــ ١٩٥ .
(٢) الأعراف ـــ ٣١ .
(٣) الشمس ـــ ٧ ـــ ١٠ .
(٤) الإسراء ـــ ٢٣ ـــ ٢٤ .

أولى ببَعْضٍ فى كِتابِ اللهِ ﴾[1]، ﴿ وَعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بالْمَعْرُوفِ ﴾[2]، كما أن من مظاهر التكافل العائلى فى الإسلام التوارث للثروة بين الأسرة : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فى أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾[3]... الخ .

التكافل بين الفرد والجماعة :

يوجب لكل منهما حقوقا ، ويفرض عليهما تبعات ، حتى تنصهر الجماعة فى الفرد ، وينصهر الفرد فى الجماعة ، وتوحد المصلحة بين الرغبتين.فكل فرد مكلف أن يرعى مصالح الجماعة ، كأنه حارس لها ، موكل بها ، وكذلك الجماعة بالنسبة للفرد . وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلا لهذه المسئولية ، فَقَالَ : « مَثَلُ القَائِمِ فى حدود الله والواقع فيها ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا فى سفينةٍ ، فأصابَ بَعْضُهم أعلاها وَبَعْضُهم أسْفَلَهَا ، فكان الذين فى أسفلها إذَا اسْتَقَوْا مَرُّوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا !! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »[4]﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ اليتيمَ ، وَلا يَحُضُّ على طَعامِ المِسْكِين ، فَوَيْلٌ للمصلينَ ، الَّذينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهون ، الَّذينَ هُمْ يُراءونَ ، وَيَمْنَعُونَ الماعُونَ ﴾[5]، ﴿ واتَّقوا فِتْنَةً لاتُصِيبَنَّ الَّذينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾[6]فالأمة لابد أن تتحمل تبعتها ، وتقف عند مسئولياتها ، وإلا كانت كلها مشاركة الهلاك والبغى والظلم : ﴿ لُعِنَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ بَنى إسْرائيلَ عَلَى لِسانِ دَاودَ وعيسى ابنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ ، بِمَا عَصَوْا وَكانوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لايَتَناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوه ، لَبِئْسَ ماكانوا يَفْعَلون ﴾[7] ،

---

(١) الأحزاب — ٦ .

(٢) البقرة — ٢٣٣ .

(٣) النساء — ١٧٦

(٤) البخارى ٣ / ١٠٢ عينى ٦ / ١٧٩ ، عسقلانى ٥ / ٩٤ ، ٤ / ٣٤٧ .

(٥) الماعون .

(٦) الأنفال — ٢٥ .

(٧) المائدة — ٧٨ — ٧٩ .

﴿ الْمُؤْمِنُونَ والْمُؤْمِناتُ بَعْضُهم أَوْلياءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[1].

واجب الجماعة المؤمنة التناصح ، والتكاتف ، والطهر ، والتعاهد عليه ، ورعايته ، ونشره بين الناس ، هذه من مهامهم ، وهذا من رسالتهم فى الحياة ، شعور واحد ومصلحة واحدة . كما أنها مكلفة برعاية المحتاج ، وإعطاء المحروم ، وكفالة اليتيم ، لأنهم أعضاء فى جسدها الكبير ، ولبنات فى صرحها الشاهق ، ولهذا فرض الإسلام الزكاة ، وحض على الصدقات ، ورعاية الضعفاء والأرامل والمساكين ، وفى الحديث : « أيُّما أهلُ عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى »[2].

التكامل بين الأمة والأجيال المتعاقبة :

تبنى الأمم الناهضة للأجيال اللاحقة ، كما يدخر الرجل لكبره ، وكما يؤسس الوالد لولده ، فالأعمال مردودة عليهم ، وإن تناسى الإنسان فعلها ، أو جهل عملها ، تثمر ثمرتها ، حلوة كانت أو مرة ،وتعود بالنفع على الأجيال ، أو بالخسران والبوار عليهم ، ولهذا كان الإنسان مسئولا عن عمله فى زمنه ، وعن رجع صداه بعد زواله من الوجود : « مَنْ سَنَّ فى الإسلام سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُها وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يَوْمِ القيامة ، ومن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يوم القيامَةِ »[3]، ﴿ والَّذينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُم ذُرِّيَّتُهُمْ بِإيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَىء ﴾[4]، ﴿ إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَىٰ العَالَمينَ ، ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[5]، ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذينَ لَوْ تركوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خافُوا عَلَيْهِم ﴾[6].

---

(١) التوبة ـــ ٥١ .
(٢) مسند الإمام أحمد تحقيق شاكر رقم ـــ ٤٨٨٠ .
(٣) مسلم ٢ / ٣٠٦ نووى ١٠ / ١٤٦ أحمد ٤ / ٣٥٧ .
(٤) الطور ـــ ٢١ .
(٥) آل عمران ـــ ٣٣ ـــ ٣٤ .
(٦) النساء ـــ ٩ .

وسائل العدالة الاجتماعية فى الإسلام :

للعدالة الاجتماعية فى الإسلام وسائل تتعلق بتنظيم تلك العدالة ، ورعايتها ، والقيام عليها . من هذه الوسائل : سياسة الحكم الذى يحفظ تلك العدالة المبندة فى قوانين معينة ، لأن فكرة العدالة الإسلامية لم تكن نظريات مجردة ، بل أخذت طريقها إلى واقع الحياة ومعايشتها ، وقد حفظ الواقع التاريخى لتلك العدالة مكانتها ، وفرض الإسلام فروضا لهذا الحكم يسير عليه ، كما فرض على الناس الطاعة لهذا النظام : ﴿ يَاأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَطِيْعُوا اللهَ ، وَأَطِيْعُوا الرَّسُولَ ، وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُم ﴾[1].

كما أن سياسة المال فى الإسلام أدخل شىء فى وسائل العدالة الاجتماعية . لقد جعل الإسلام حق المال هو الزكاة ، وهو مايقاتل عليه الإمام الناس إن منعوه ، وجعل الإسلام للإمام أن يأخذ بعد الزكاة مايمنع به الضرر ويصون به المصلحة لجماعة المسلمين والملكية الفردية حق للفرد مادامت بالوسائل المشروعة ، ومادام يؤدى حق الله فيها ، وحق المحتاج : ﴿ والَّذينَ فِىْ أَموالِهِمْ حَقٌ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ والْمَحْرُومِ ﴾[2] والزكاة حق الجماعة فى عنق الفرد ؛ لتكفل للمحتاج مايقيم أوده : ﴿ كَيْلا يَكُونَ دُوْلَةً بَيْنَ الأَغنياءِ مِنْكُمْ ﴾[3]، والجماعة — كما قلنا قبل ذلك — جسم واحد ، بعقيدة واحدة ، وأخوة واحدة ، فلابد أن تتواسى فى السراء والضراء : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه »[4] كما أن للزكاة مصارف عالجت جوانب كثيرة فى المجتمع ، وكانت وقاية من المهانة والمسكنة ، وضمانا وظهيرا للعاجز ، وقاعدة للمجتمع المتكافل المتضامن ، الذى لايحتاج إلى ضمانات الإقراض الربوى فى أى جانب من جوانبه ، ويحسن أن نلقى الضوء سريعا على وسائل الحكم والمال والآداب .

---

(١) النساء — ٥٩ .

(٢) المعارج — ٢٤ — ٢٥ .

(٣) الحشر — ٧ .

(٤) متفق عليه البخارى ١ / ٨ عينى ١ / ١٩٤ عسقلانى ١ / ٥٤ مسلم ١ / ٢٨ ، نووى ١ / ٣٨٨ .

أ ــ الحكم :

حاول الإسلام أن يحقق العدالة الاجتماعية كاملة ، ويرتفع بها عن أن تكون عدالة اقتصادية محدودة ، أو عدالة تشريعية محصورة ، وإنما زاوج بين هذه العدالات وبين قوة الإيمان ، وسلطان الضمير ، وروعة التعاليم ، وأشواق الترغيب ، فبعض الناس يردعها الإيمان ويريها ، وبعضها لايردعها إلا القانون ويثبتها ، كما يقول عثمان بن عفان رضى الله عنه : « إن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » ، وما أصدق قول القائل :

بعض الأنام إذا رأى نور الهدى عرف الطريق ولم يضل المهيعا
ومن البرية معشر لاينثنى عن غيه حتى يخاف ويفزعا !!

وسياسة الحكم فى الإسلام نظام قائم بذاته ، االمشرع فيه والمقرر هو الله سبحانه وتعالى :ــ

ولهذا ، فإن قاعدة النظام الإسلامى تختلف عن كل نظام فى الأرض يعطى حاكميته للإنسان ، فليس الإسلام امبراطوريا ، ولا ديمقراطيا ، ولا شيوعيا أو اشتراكيا ، لأن للإسلام تصوره الخاص الذى يستمد من عقيدته ومنهجه ، من هذه التصورات .

١ ــ تصور للألوهية وللعدل الإلهى، فى الكون والحياة ، والإسلام مع هذا لايكره أحدا على اعتناقه ، أو يبيح ظلمه لعقيدته : « لهم مالنا وعليهم ماعلينا » ، ﴿ لا إكراهَ فى الدِّينِ ﴾[(١)].

٢ ــ تشريع للأجناس كلها ، لافرق بين جنس وجنس ، وقطر وقطر ، ﴿ وأنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أنزلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءهُمْ ﴾[(٢)] عدل للناس كلهم ، قريبهم وبعيدهم ، فى القول والعمل : ﴿ وَإذا قُلْتُمْ فَاعْدِلوا ، وَلَوْ كانَ ذَا قُرْبى ﴾[(٣)] ،

(١) البقرة / ٢٥٦ .
(٢) المائدة ــ ٤٩ .
(٣) الأنعام ــ ١٥٢ .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا ﴾ (١) ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (٢).

٣ ــ نظام للشورى بين الحاكم والمحكوم : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (٤).

٤ ــ إطار لسلطات الحاكم ومسئولياته وتصرفاته ، يتمثل هذا فى قول الرسول ﷺ لعشيرته الأقربين : « يامعشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يابنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنها من الله شيئا . وياصفية عمة رسول الله ، لاأغنى عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد ، سلينى ماشئت من مالى ، لاأغنى عنك من الله شيئا » (٥) ، وقوله ﷺ « لايحل لى من غنائمكم هذه إلا الخمس ، والخمس مردودٌ عليكم » (٦).

٥ ــ جهاز لضمان الأمن والسلامة وحراسة القيم ، بإقامة شرع الله وتنفيذ الحدود ، ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ ، وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (٧) ، ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ، ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٨)

٦ ــ قاعدة للتحرى والتثبت ، وعدم الأخذ بالظنة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ (٩) ، ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) المائدة ــ ٨ .
(٢) النساء ــ ٥٨ .
(٣) آل عمران ــ ١٥٩ .
(٤) الشورى ــ ٣٨ .
(٥) البخارى ــ ٣ / ١٧٥ عينى ٦ / ٤٩٣ ، مسلم ١ / ٧٦ نووى ٢ / ٢١٦ .
(٦) أبو داود وجهاد ــ ٢ .
(٧) المائدة ــ ٤٥ .
(٨) النور ــ ٤ .
(٩) الحجرات ــ ١٢ .

آمنوا ، ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ؛ أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ ، فَتُصْبِحُوا عَلَى مَافَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾[1] .

ب ـــ المال :

ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، ويحرم منه الفقراء والعاجزون والمحرومون : ﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُوْلَةً بَيْنَ الأَغْنِياءِ مِنْكُمْ ﴾[2] .

وهذا جاءت قاعدة الزكاة :

﴿ إِنَّمَا الصدَقَاتُ لِلفُقَراءِ ، والمَساكِينَ ، والعَامِلِينَ عَلَيْها ، والمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي الرِّقابِ ، والغَارِمِينَ ، وفى سَبيـلِ اللهِ ، وابْـنِ السَّبِيـلِ ﴾[3] ، ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِـمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ، وَتُزَكِّيهِمْ بِها ﴾[4] ، ﴿ والَّذين يكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ، وَلا يُنْفِقُونَها فى سَبِيلِ اللهِ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعذابٍ أليمٍ ﴾[5]

ثم كانت قاعدة الصدقات :

ثم كانت قاعدة الصدقات والحض عليها ، والترغيب فيها ، لتدفع طواعية إذا لم يكن هناك ضرورة ، أما إذا كان هناك ضرورة فإنها تتعين عند المجاعات والقحط الشديد . قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر . فقلت : لبيك يا رسول الله . فقال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال كذا وكذا ـــ عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه ـــ وقليل ماهم ، ثم قال : « يا أبا ذر . « فقلت : نعم يا رسول الله ـــ بأبى أنت وأمى ـــ . قال : « ما يسرنى أن لى مثل أحد أنفقه فى سبيل الله أموت وأترك منه قيراطين ، قلت : أو قنطارين يا رسول الله قال : بل قيراطين ، ثم قال : « يا أبا ذر ، أنت تريد الأكثر ، وأنا أريد الأقل »[6] .

---

(١) الحجرات ـــ ٦ .

(٢) الحشر ـــ ٧ .

(٣) التوبة ـــ ٦٠ .

(٤) التوبة ـــ ١٠٣ .

(٥) التوبة ـــ ٣٤ .

(٦) البخارى ٧ / ١٢٨ ، عينى ١٠ / ٤٩٧ ، مسلم ١ / ٢٧٢ زكاة .

تحريم الربا :

الجهد للعمل ، أما القاعدون الكسالى من المرابين ومن على شاكلتهم فإنهم يمنعون من أكل دماء الناس وعرقهم بغير حق : ﴿ الّذينَ يأْكلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الذى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطانُ مِنَ المَسِّ ﴾[(١)] ، ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا ، وَيُرْبِى الصَّدقاتِ ﴾[(٢)] .

تحريم الاحتكار :

لأن الاحتكار وسيلة لإذلال الناس ، والتحكم فى رقابهم ، واستغلال المحتاجين والفقراء والكادحين .

تحريم السرف :

الإسلام لايحب الشظف والحرمان ، وإنما يدعو إلى الاستمتاع بالطيبات ، ويستنكر تحريمها والصد عنها ، ولكنه مع هذا يحرم التبذير والإسراف والترف ، فيقول : ﴿ يَابَنِى آدَمَ ، خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلوا وَاشْرَبُوا ، وَلا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لايُحِبُّ المُسْرِفينَ ﴾[(٣)] ، ﴿ إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانوا إِخْوانَ الشَّيَاطِينِ ﴾[(٤)] ، ﴿ وإذا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ، فَفَسَقُوا فِيها ، فَحَقَّ عَلَيْها القَوْلُ ، فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً ﴾[(٥)] .

ويلحق بهذه التعاليم منظومة مالية منها :

١ ــ اعتبار المال الصالح قوام الحياة ، « نعم المال الصالح للرجل الصالح »[(٦)] .

---

(١) البقرة ــ ٢٧٥ .
(٢) البقرة ــ ٢٧٦ .
(٣) الأعراف ــ ٣١ ــ ٣٢ .
(٤) الإسراء ــ ٢٧ .
(٥) الإسراء ــ ١٦ .
(٦) أحمد ٤ / ١٩٧ ، ٢٠٢ .

٢ ـــ العمل لكل قادر : ﴿ وَقُلِ اعمَلُوا ، فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ ﴾[(١)] ، ويقول ﷺ : « ماأكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده »[(٢)] .

٣ ـــ الكشف عن منابع الثروات : ﴿ أَلَمْ تروا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافى السَّموات ومافى الأَرْضِ ، وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[(٣)] .

٤ ـــ تحريم الكسب الخبيث ، وتحريم موارده ، مثل القمار والسرقة ، والغش ، وثمن الخمر ، والمخدرات ، وكل المحرمات ، والخبائث .

٥ ـــ حرمة المال ، واحترام الملكيات : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » .

٦ ـــ عدم استعمال المال والذهب والفضة فيما يلهى ويتلف ، مثل استخدام الذهب والفضة فى الأوانى والأدوات الخاصة ، وتعطيل ثروة الأمة ، كما يحرم استعماله للرجال .

ج ـــ حفظ الأدب والقيم :

١ ـــ محاربة مايتلف العقل والروح والجسد ، مثل الخمر والمخدرات .

٢ ـــ منع الرذيلة ، والقضاء على الفتنة ، وصيانة الأعراض والحرمات .

٣ ـــ مقاومة العادات الضارة اقتصاديا وخلقيا ، والخروج على الآداب الإسلامية .

٤ ـــ تيسير العبادات ، ومعاقبة المقصرين فيها .

٥ ـــ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

---

(١) التوبة ـــ ١٠٥ .

(٢) البخارى ٣ / ٨ عينى ٥ / ٤٢٠ عسقلانى ٤ / ٢٥٩ .

(٣) لقمان ـــ ٢٠ .

٦ ــ المحافظة على حقوق الجار ، ومراعاة شعور الآخرين ، والتخلق بأخلاق الإسلام .

٧ ــ الحرص على سلامة البدن ، وإعداد المسلم إعدادا روحيا وجسديا .

٨ ــ التضامن الاجتماعى بين الحاكم والمحكوم بالرعاية والطاعة معا .

٩ ــ إيجاد القدوة الحسنة ، واحترام أهل الفضل ، وعدم توقير السفهاء .

١٠ ــ جعل التفاضل بالعمل والسلوك الحسن والتقوى .

كل هذه وغيرها من الآداب والقيم ، المسلم مطالب بها ، ومطالب كذلك بتحقيقها ، والمحافظة عليها ، كما فصلها النظام القرآنى ، وقد ورد ذكرها جميعا فى القرآن ، وبينتها بيانا شافيا أعمال النبى ﷺ وأصحابه والذين اتبعوهم بإحسان فى بساطة ووضوح . وقد بلغ المجتمع المسلم بهذه التعاليم منزلة رفيعة من الحضارة الإنسانية ، التى عاش الناس فى ظلها قرونا عدة ، واقتبست الدنيا من رحيقها ، بما رقق حاشيتها ، وهذب أخلاقها ، وحسن طباعها ، وأخذوا من هذه التعاليم ، وصاغوا حقوقا للإنسان ، وحقوقا للأسرة والمجتمع ، وغير ذلك مما نسبوه لأنفسهم ، وتناسوا فيه فضل الإسلام والمسلمين .

النظام الاجتماعى فى الحضارة الغربية :

تحسب قوة الأمم وأعمارها ، وهبوطها ، وصعودها ، بموازينها الاجتماعية ، وتقدر حالتها الاجتماعية بعقائدها ، وخصائصها الإنسانية ، وأخلاقها الشخصية والقومية ، فكم من أمة سادت وعلت وارتفعت ، ثم هوت ، وذهبت ، وبادت بانحلال عقدها الاجتماعى والأخلاقى والروحى ، وإننا لنرى اليوم على كل بقعة من بقاع الأرض آثار الأمم التى سبقتنا ، وقد خلفت تلك الأمم من آيات حضارتها ، وتمدنها ، وصناعاتها ، وحذقها ، وكمال فنونها ، وبراعة يدها ، مايدل على أنها لم تكن ذاهلة العقل ، أو بليدة الفكر ، ولكنها ضلت طريق الصواب ، فشرد العقل ، وضل الفكر ، وتفسخت الأمة ، وانحل المجتمع ، وقد صور القرآن كثيرا من هذه المواقف وبين خطرها ، فقال : ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَاأُتْرِفُوا فِيهِ ، وَكَانُوا

مُجْرِمِينَ ﴾(١) ، ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ، وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَوْعِداً ﴾(٢). وخط الحياة الاجتماعية فى الحضارة الغربية اليوم يمضى فى نفس الطريق ، يمضى فى تدمير خصائص الإنسان ، وتحويله إلى آلة من ناحية ، وإلى حيوان من ناحية أخرى .

وإذا كان الخط الخطر لم يصل إلى نهايته بعد ، وإذا كانت نتائج هذا الدور التاريخى لم تظهر آثارها ظهورا كاملا اليوم ، فإن الذى ظهر منها حتى اليوم أقوى من دليل على تلك النهاية المرقوبة ، وقد ظهرت هذه الأدلة فى أمور منها .

١ ــ عدم احترام خصائص الإنسان .

٢ ــ نمو الخصائص الآلية والحيوانية .

٣ ــ الخواء الروحى والنفسى .

٤ ــ تمزق الرباط الأسرى .

٥ ــ قياس التقدم الإنسانى بالمقاييس المادية .

وقد سبب هذا التحول ، وقاد إلى هذا الطريق ، جهل مطبق بالإنسان ، على الرغم من سعة علم القائمين بالحضارة نسبيا بالمادة ، وصدق الله : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾ ، ومن ثم فقد تسبب هذا الجهل فى قصور أدى إلى تخبط فى التشريع لهذا الإنسان ، وقد ساعد على هذه الحيرة تلك المفاصلة بين النهضة الحديثة ، وبين الأديان المحرفة ، التى أدت إلى قطيعة وحرب ، أغلق البحث والتطلع إلى قانون ربانى صحيح ، يضع المنهج الملائم لصلاح الإنسان ، وهوايته ، وتنمية خصائصه ، وترقيها ، حتى تتكافأ مع الدور المقسوم لهذا الكائن على وجه الأرض فى عمارتها واستغلال كنوزها وطاقاتها لصالح الإنسان وسعادته والارتقاء به روحيا وماديا .
وإذا أردنا أن نلقى ضوءا على هذا النظام الاجتماعى ؛ فإنه يجدر بنا أن نتكلم عن

(١) هود ــ ١١٦ .
(٢) الكهف / ٥٩ .

عناصر ثلاثة .

الأول :التحرر الوجدانى

الثانى: المساواة الإنسانية

الثالث: التكافل الاجتماعى

وهذه العناصر تمثل أسس كل نظام اجتماعى من حيث الجوهر والمضمون . وسنعرض لكل منها على حدة .

التحرر الوجدانى :

عرفنا ـــ قبلُ ـــ أن العدالة الاجتماعية لأى أمة من الأمم إذ نبعت من داخلها ، وتجاوبت مع أعماقها ، كانت عدالة كاملة ، يضمن لها البقاء ، ويحق لها الاستمرار ، حيث تكون كشجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وبعكس ذلك : إذا تنافرت تلك العدالة مع طبيعة النفس الإنسانية ، أو تصادمت معها ، أو كانت فى واد وتلك فى واد آخر ، وذلك لأن العدالة فى الحالة الأولى كانت انطلاقا للوجدان ، وتعبيرا عنه ، وامتدادا لتطلعاته ، أما فى الحالة الثانية فإنها كانت كبتا له ، وحبسا لتطلعاته ، وقهرا لأمانيه ورغباته .

تذهب المسيحية الكنسية أو المأخوذة من المجامع المقدسة ، وكذلك البوذية ، إلى التحرر الوجدانى ، ولكنها تطلبه فى ترك لذائذ الحياة وشهوتها ، واحتقار الحياة الدنيا ، والتوجه إلى ملكوت الرب فى السماء ، وهذا يخالف الطبيعة البشرية ، حيث أن دوافع الحياة لا تقهر أو تقتل ، وإنما تنظم وتعدل وتوجه إلى الخير للإنسان ، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق تلك الدوافع عبثا ، ولم يخلقها ليعطلها ويستقذرها ، فهذه النظرة أخذت جانبا ، وتركت آخر ، وضحت بجانب لحساب جانب آخر .

وتذهب الشيوعية : إلى التحرر الاقتصادى ، وتظنه وحده الكفيل بذلك التحرر الوجدانى ، ونظريتها فى ذلك ، أن الضغط الاقتصادى على الفرد هو الذى يجعله يطأطىء رأسه للقوانين الجائرة التى تحرمه من العدالة والمساواة . وهذا يكون صوابا إذا صاحبه تحرر للضمير والوجدان الداخلى للإنسان ، ولبّى جانب الروح والنفس .

وذهبت المدنية الحديثة ــ كذلك ــ إلى أن التحرر الوجدانى يكون فى انطلاق الغرائز ، وإشباع الجسد ، والتحرر من القيم والأهداف العليا ، فغرق الناس فى حمأة الجنس بتأثير هذا التحرر الكاذب ، ثم نسوا بذلك أنهم ينحرفون عن الأخلاق ، ويصبحون عبيدا للشهوة الحرام ، فراحوا يقولون : إن الجنس عملية « بيولوجية بحتة ، لا علاقة لها بالأخلاق ، ثم سحبوا ذلك على كل شىء ، على السياسة ، وعلى التجارة ، وفى العلاقات الإنسانية ، حتى تجرد كل شىء عن الأخلاق ، وعن الصفات الإنسانية ، وأصبحوا بذلك مجردين من كل قيمة ، عبيدا لكل شىء إلا الله .

وبعد ، فإن التحرر الوجدانى الحق لا يوجد إلا فى الإسلام والحضارة الإسلامية ، حيث تنطلق من فطرة الإنسان نظمه وتعاليه ، لأنها من عند خالق الفطرة ، وصدق الله : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها ﴾ (١) ، كما أن الإسلام يحرر الوجدان من كل شىء إلا من عبادة الله سبحانه وتعالى ، وصدق الله : ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ (٢).

المساواة الإنسانية :

برىء الإسلام من العصبية بشتى أنواعها ، قبلية كانت أو عنصرية ، إلى جانب عصبية النسب والأسرة ، فبلغ الإسلام بذلك مستوى لم تصل إليه أية حضارة ، ولم تقترب منه الحضارة الغربية إلى يومنا هذا ، فهى لا تعترف بالمساواة ، ولا تعترف فى كثير من الأحيان بحق الآخرين فى الحياة ، فمثلا تبيح تلك الحضارة للضمير الأمريكى إفناء عنصر الهنود الحمر إفناء تاما ، تحت سمع الدنيا وبصرها ، ولا تعترف لهم حتى بالحياة ، وما هذا إلا لأنهم ليسوا من الجنس الأبيض ، الذى يستحق البقاء والرفاه ، كما تبيح تلك التفرقة المقززة بين الأبيض والأسود . والعالم اليوم

---

(١) الروم ــ ٣٠ .

(٢) آل عمران ــ ٦٤ .

يعيش تلك القضايا ، ويرى كيف تبيح الحضارة لحكومة جنوب أفريقيا أن تجهر بالقوانين العنصرية ضد الملونين ، وهى الدخيلة عليهم ، المالكة لأرضهم وثرواتهم ، كما تبيح لحكومة روسيا والحبشة والفلبين وإسرائيل وغيرها إفناء المسلمين بالجملة ، وملاحقتهم فى كل مكان ، ولا غرابة فى ذلك أو عجب ، وعلماء الحضارة الغربية أنفسهم يقسمون الشعوب تقسيما حضاريا معينا ، ويدعى أغلبهم أن الجنس النورماندى والآرى هو الجنس الحضارى العبقرى ، الذى تنبثق منه كل الحضارات ، وقد قدمنا طرفا من ذلك من قبل .

وحقيقة العالم اليوم بعد غياب الحضارة الإسلامية عن الواقع المعاش ، ينقسم قسمين : بعضهم يصرح بتلك التفرقة ، وبعضهم يورى ويخدع وهو أصيل فيها ، أما الذى يصرح ولا يتورع من الإظهار ، فهى الحضارة الغربية سلوكا وفعلا وعملا . حيث تستعبد الشعوب ، ولا ترى لهم حقا إلا بقدر ما يعود عليها ، ويخدم مصالح جلدتها ، ويسمح به تسلطها .

وأما من لهم ظاهر وباطن فى تلك التفرقة ، فهم اليهود والشيوعية ، فأما ظاهر اليهود فإن التلمود يحكى عن ذلك ، فيقول : « إن الأمميين هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار » ويقول التلمود : (إذا أدخلك الرب إلهك الأرض التى أنت صائر إليها لترثها ، وأسلمهم الرب إلهك ، وضربتهم فأبسلهم إبسالا ، لا تقطع معهم عهدا ، ولا تأخذك بهم رأفة ، ولا تصاهرهم ، لأنك شعب مقدس للرب إلهك)[1] وقد قدمنا طرفا من ذلك ، وأما نشاطهم الخفى فهو يتمثل فى أفكار ودعاوى ، تطلق هنا وهناك ، تجمع الناس حول هدف براق وفكر مبهرج ، لتسخرهم فى خدمة تلك العنصرية ، وفى تنفيذ مخططاتها ، وذلك مثل الماسونية[2] التى تدعى أنها تدعو إلى الإنسانية ، ومحبة البشر كلهم بلا تمييز ، بل تدعى أنها عقيدة الأنبياء والمرسلين والقديسين والفلاسفة والصالحين ، فيقول محمد رشاد فياض — رئيس محفل الشرق العالى ، الملقب عندهم بالقطب الأعظم —

---

(١) الإصحاح ٧ — ٢٠ من سفر التثنية —

(٢) انظر أسرار الماسونية لجواد رفعت ص ٢٨ .

« كانت الماسونية عقيدة الأنبياء ، والقديسين ، والفلاسفة ، والصالحين ، فى جميع العهود »[1] ثم يقول فى موضع آخر من كتابه « النور الأعظم » : « الميمات الثلاث فى الموسوية والمسيحية والمحمدية يجتمعون فى ميم الماسونية ، لأن الماسونية عقيدة العقائد ، وفلسفة الفلسفات ، إنها تجمع وتوحد المتفرقات والمتشتتات ، وإن باء البوذية والبرهمية يجتمعان فى باء البناء ، بناء هيكل المجتمع الإنسانى الصالح ، المنزه من العمالة العنصرية والعملاء . إن وَرَّثـه الآباء الصالحون للأبناء هو مبادىء الحرية والمساواة والإخاء ، ونحن نزيد عليها المحبة والعدالة والعطاء »[2]

وهذا واضح ، أنهم يحبون أن يضعوا طعما للجماهير ، ليقودوهم إلى أغراضهم ، وليملكوا رقابهم بهذه الشعارات المبهرجة ، وأما عن الشيوعية ، فإن نعمة المساواة شعار من شعاراتها ، ولكن حقيقة الأمر غير ذلك ، حيث العبودية للمادة والآلة والطبقة والحزب ، وسنتعرض لشىء من ذلك بعد .

ولقد نتج عن عدم المساواة ، والاعتـداد بالجنس ، وبنـاء الغايـات على التعـالى والعصبية ، كثير من الحروب والانحرافات . سمع الناس شعارات النازية والفاشية والإنجليزية ، فقال الألمان : ألمانيا فوق الجميع ، وقالت إيطاليا : إيطاليا فوق الجميع ، وقال الإنجليز : سودى يابريطانيا واحكمى ، وقال الإسلام : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ ، لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3] وتسابقت كذلك الأديان المحرفة ، ودخلت ميدان العنصرية ، فقالت اليهود والنصارى : « نَحنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَاؤُهُ » ، وقال الإسلام : ﴿ ليس بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانيِّ أَهَلِ الكتابِ . مَنْ يَعْمَلْ سوءً يُجْزَ بِهِ ، ولا يَجدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ﴾[4] .

---

(١) النور الأعظم ص ٤ .
(٢) المصدر السابق ص ١١٢ .
(٣) الحجرات ــ ١٣ .
(٤) النساء ــ ١٢٣ .

التكافل الاجتماعى :

كما وقع التخبط والتطرف والهزات العنفية فى الحضارة الغربية بين الإنسان وفطرته واستعداداته ، وقع فى النظر إلى المرأة وعلاقة الجنسين ، ووقع كذلك فى النظم الاجتماعية ، والتكافل الاجتماعى ، والتكافل الاجتماعى فى حقيقته عطاء من الفرد لأخيه ، ومن الفرد لأسرته ومجتمعه ، ومن المجتمع للفرد ، عطاء يبدو فى ظاهره إيثاراً ومنحةً وتبرعا ، عن طيب نفس ، وسلامة طوية ، وفى باطنه سعادة للجميع ، وطمأنينة وهناء . ولكن الحسيين لاينظرون إليه إلا بمقياس العاجلة المنظورة ، والأثرة المنهومة ، كل شيء عندهم بثمن ، اللفتة بثمن ، والضحكة بأجر ، والكلمة بعطاء ، تماما كما عبر القرآن : ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وإِنْ لَمْ يُعْطَوْا منْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[1]

وقد يقول قائل : إن التكافل الاجتماعى فى الغرب طوف الآفاق ، وبلغ الجوزاء . يقول هذا مأخوذا بالدعاية عن المساعدات المالية فى بعض الحالات ، وعن دور الرعاية للعجزة والمسنين ، وما إلى ذلك . وهذا فى الحقيقة من الرعاية الاجتماعية التى توافق منهجهم الحسى والجسمانى والحيوانى . فهم يعاملون الإنسان العاجز ، سواء كان كبير السن أو صاحب عاهة ، على أنه حيوان ، لا يحق له إلا أن يأكل ويشرب فى تلك الملاجىء ، إلى أن تأتيه منيته ، هذا على أفضل الأحوال ، وقد يبلغ بالإنسان الاشمئزاز ؛ إذا علم أن بعض الدول كانت تتخلص من هذا الصنف بأسباب عدة ، لتفرغ منهم ؛ لأنهم عبء على الدولة والمجتمع .

ويحسن بنا أن نضرب بعض الأمثلة ، لبيان هذا التكافل الاجتماعى الأعرج القاسى .

فى مجال الأسرة : تقصى الأسرة أبناءها من سن السادسة عشر ــ ذكرا كان أو أنثى ، يصارع الحياة ، فتخرج البنت لاتجد أحدا بجانبها ، يحنو عليها ، أو يحميها ، أو ينفق عليها ، فى مجتمع لا يعترف بهذه القيم ، ولا يؤمن بها ، بل يعتبرها ضعفا إنسانيا يجب التخلى عنه ، فتضطر إلى أن تأكل وتعيش ، إما بذراعها ، أو بجسدها ، أو من أى طريق ، أما فى الإسلام فإن نفقة البنت واجبة على الأب إلى أن

---

(١) التوبة ــ ٥٨ .

تتزوج ، فإذا طلقت رجعت نفقتها على الأب ثانية ، حتى لاتتعرض للذئاب أو للانحراف والضياع . وإنما تجد دائما بجانبها من يحميها ، ويرد عنها عاديات الزمن ، ويعامل الولد أباه وأمه فى الغرب بمثل ماعومل من قِبَلِهِم ، وكأنه يرد لهم هذا الضياع . فإذا ضعف الأب ، وأصابته علة أو جائحة ، فلا يجد الأب إنفاقا أو إعالة عند ولده ، وإنما تتولى الدولة إسكانه داراً للعجزة أو المسنين ، يأكل تماما كما تأكل الخيول والحيوانات ، وكأن الإنسان ليس فيه إلا بطن فقط ، ولا يحتاج إلى العطف والرعاية والحنان ، ولكن يظهر أنهم يتعاملون فى الشر بالمثل القائل : « كما تدين تدان » ، وأن المعاملة بالمثل واردة فى مثل هذه المجتمعات ، فالوالد يقسو على ولده صغيرا ، ولا ينفق عليه ، والولد يرد ذلك كبيرا ، فلا ينفق على الأب ، ولا يحنو عليه ، أو يرحم شيخوخته . وأين هذا من الإسلام حين يوصى بالوالدين ، فيقول : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك ، إلىَّ المصير ﴾[1] ﴿ إما يبلغـن عندك الكبر ، أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾[2] .

وفى مجال الميراث : لا مال لأحد . الأب حر التصرف ، يعطى من يشاء ، ويحرم من يشاء ، قد يوصى لولد دون الآخر ، وقد يوصى للكلاب والخنازير ، ويحرم أولاده ، وفى هذه الحالة تكثر العداوات ، وتتمزق الأسرة ، فمثلا الولد الذى أوصى له الأب وترك إخوته ، يتمنى موت الأب ، وقد يدبر اغتياله ، خوفا من الأب أن يغير رأيه ويبدل الوصية ، وحبا فى حيازة المال وهو معبوده ، والأخوة الذين لم يوصِ الأب لهم يقدمون فى أحيان كثيرة على قتل الابن الموصى له ، حسدا عليه ، وإبطالا للوصية ، أو قد يلجؤون إلى قتل الأب نفسه ، لخشيتهم من تبديد المال ، أو الوصية به إلى كلب أو قطة أو ملجأ ... إلى غير ذلك من الصراعات الخفية والمتكررة ، التى تكون سببا فى شقاء الأسرة ، وتمزقها بالأحقاد والأضغان .

أما الميراث فى الإسلام ؛ فهو حق ثابت عادل حسب نظام ربانى كامل ،

---

(١) لقمان / ١٤ .　　　(٢) الإسراء / ٢٣ ــ ٢٤ .

وإذا أراد الأب أن يحرم ولدا من الميراث فلا يستطيع ، وإذا أراد أن يحرم الورثة فلا يستطيع ، وإن كان له أن يتبرع فالثلث ، والثلث كثير ، ولا دخل للأحقاد والأضغان والأهواء ، وصدق الله العظيم : ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ، إن الله كان عليما حكيما ﴾ . فإن فطرة البشر تتأرجح بين الهوى وبين الاعتدال ، فكان لامناص من التسليم فى هذا الأمر الشائك إلى حكمة الله سبحانه وتعالى فى ذلك التقسيم ، فالله أعلم بالنفع والضر ، وقد يظن الإنسان أن هذا ينفعه ، فإذا به يؤذيه ويضره ، وقد ينفعه اليوم ويميته غدا ، فلزم من ذلك أن لا يجعل للشيطان والنفس مدخلا ، فكان عدله فى الميراث وحكمته سبحانه . وهكذا استطاعت المدنية أن تقضى على الأسرة ، وأن تمزقها وتحرمها من العطف والحنان والمودة ، بأعراف خاطئة وقوانين جائرة ، فشقى الإنسان ؛ لأنه يعيش ضد طباعه ، وضد فطرته ؛ لأن الأسرة نظام فطرى إنسانى ، يلزم سلامة الإنسان واستقراره . ولقد حاولت الشيوعية أن تقضى كذلك على الأسرة ، بحجة أنها تنسى أحاسيس الأثرة الذاتية وحب التملك ، والشيوعية تريد شيوع الثروة ، وشيوعية ملكية الدولة للأفراد ... ولكنها — فيما يبدو — قد فشلت فى ذلك فشلا تاما ، لأسباب عدة ، منها : أن الشعب الروسى شعب عائلى ، للعائلات جذور عميقة فى تاريخه ، فوق أن الأسرة نظام بيولوجى ونفسى ، لا نظام اجتماعى فحسب ، « فتخصيص امرأة لرجل أصلح بيولوجيا ، وأفلح لإنجاب الأطفال وقد لاحظ العلماء أن المرأة التى تكون فراشا لعدة رجال تصاب بالعقم بعد مدة معينة ، أو قد لايصح نسلها . أما من الوجهة النفسية ، فمشاعر المودة والرحمة تنمو فى جو الأسرة خيرا مما تنمو فى جو أى نظام آخر ، وتكوين شخصية صالحة يتم فى هذا المحيط ، خيرا مما يتم فيه أى نظام آخر . وقد أثبتت تجارب الحرب الأخيرة ، بين أطفال المحاضن ، أن الطفل الذى تتناوبه عدة حضانات تختل شخصيته ، وتتفكك ، ولا تنمو فيه مشاعر الحب والتعاون . كما أن الطفل الذى لا والد له يعانى مركب النقص ، ويهرب من هذا الواقع بالتخيل »(1) .

---

(1) انظر بتصرف كتاب أطفال بلا أسر » تأليف أنافرويد ودرثى برمنحهام وترجمه الأستاذين : محمد بدران ، ورمزى يس ، كما ينظر العدالة الاجتماعية فى الإسلام ص ٦٥ ، ٦٦ .

أسباب الفساد الاجتماعي :

وأسباب هذا الفساد الاجتماعى كثيرة ومتعددة :

١ ـــ منها فساد فى الحكم .

الذى يبنى على القوة ، ويمجدها ، وينسى القيم ، ويخطط لاستغلال الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده ، وفى سبيل الترفيه عن فئة ممتازة قاسية القلوب ، لاتعرف الرحمة أو القيم العليا .

٢ ـــ كبت الروح ، لإعلاء التقدم المادى والمتاع الجسدى ، حتى وصلت إلى مايشبه الحيوان فى صلات الناس بعضهم ببعض ، من استغلال ، وتسلط ، وهبوط خلقى وروحى فى مجال القيم .

٣ ـــ الفصل بين القيم العليا وبين واقع الحياة ، فمثلا فصلت السياسة والاقتصاد عن القيم الروحية ، وأصبحت شئون الجنس ينظر إليها بمعزل عن الأخلاق ، وشئون الدنيا بمعزل عن الآخرة ، وشئون الحياة بمعزل عن الدين .

٤ ـــ حرية فردية ، لا يحدها حد أو قيد ، وفكر مادى ، يتخبط فى نظريات حيوانية ومادية للكون والحياة .

٥ ـــ نظام مادى رأسمالى ، لايتمثل فقط من المظهر البارز ، الذى يتحكم فى الأرزاق ، وتسخير الشعوب والحكومات لمصالح أصحاب رؤوس الأموال ، وإنما يتمثل كذلك فى نظام ربوى ، وطبقة من المرابين القابعين فى الظلام لامتصاص الجهد البشرى كله ، وتوجيه الجماهير إلى استهلاك الكماليات والمهلكات ، التى تدر الربح، وتفسد الأخلاق ، وتجلب البلاء ، كمصانع السلاح والسينما الداعرة ، والموضات والأزياء ، وآلات الطرب ، والترف والزينة ، وخمور ، ومشهيات ، وجنس . وفنادق ، وصالات ، ومسارح ، ومهجات .

٦ ـــ ترسيخ أفكار ثقافية خاطئة فى عقول الناس وأعماقهم ، توحى لهم بأن التقدم البشرى يقاس بالتقدم المادى ، لا الخلقى والروحى والإنسانى .

وكانت نتيجة هذا الانحراف تصادم هذه التعاليم مع الفطرة ، فأورثها الصراع المدمر ، والعنف ، والشد والجذب فى داخل النفس ، بصورة تتلف المشاعر ، وتمرض الأعصاب ، فوصلت حوادث الجنون والانتحار وضغط الدم والأمراض العصبية والنفسية إلى درجة لا مثيل لها فى التاريخ ، حتى فزع المتعقلون من العلماء ، وهالهم هذا التدمير ، فقال الدكتور الكسيس كاريل . عن هذه الحضارة — « إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب ؛ لأنها لا تلائمنا ، لقد نشأت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ، ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشأت بمجهوداتنا ؛ إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا »[(١)] ويقول ليوبولد قابس « محمد أسد » فى كتابه الإسلام على مفترق الطرق : « إن الأوربى الحديث بما انطوى عليه من جهود ، فإنه يهمل النفس على أنها حقيقة عملية — فلم يبق لهدف الحياة عنده أهمية عملية ما . لقد ترك التأمل المطلق والاعتبار فى الحياة وراء ظهره ... إن المدنية الحديثة لاتقر الحاجة إلى خضوع ما ، إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية . إن معبودها الحقيقى ليس من نوع روحانى ، إنما هو الرفاه ، وإن فلسفتها الحقيقية المعاصرة إنما تجد قوة التعبير عن نفسها من طريق الرغبة فى القوة »[(٢)] .

ولهذا اختل ميزان حضارة الإنسان ، وظهرت حضارة المادة ، وفقد الناس الهداية والرشاد ، وساروا كعجلة فى ترس ، يدور ويتآكل ، ولا يدرى من أمره شيئا ، فهل تتداركهم عناية الله بالإسلام . نسأل الله ذلك .

الإسلام والاشتراكية

يحسن بنا — وقد تكلمنا عن الحضارة الغربية — أن نتكلم عن الاشتراكية والإسلام ، أو بمعنى أصح عن المقارنة بين التصور الإسلامى — حول الإنسان ، والتاريخ ، ونظرية الخير والشر ، ومفهوم القانون والعدل ، والنظرة القومية ، ومبادىء

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٣٨ .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق تعريب عمر فروخ ص ٣٤ ، ٣٥ .

العلاقات الدولية —وبين الاشتراكى حول هذه الأمور الحضارية ، ولم أقل التصور الشيوعى ، لأن الشيوعية للآن غير مطبقة فى الواقع العملى ، وإنما المطبق هو الاشتراكية ، ونكون بهذا الإيضاح قد أجبنا على أسئلة تطرح وتلح على البعض بين الحين والآخر . من هذه الأسئلة . هل يمكن التفاهم بين الإسلام والاشتراكية ؟ وهل يمكن أن يجتمعا فى مكان واحد ، على مبدأ واحد ، فيتعاون الواحد مع الآخر ؟ وإذا تيسر هذا الاجتماع بينهما ، فهل يكون له فائدة ، وما مقدارها ؟ ونستطيع أن نوضح ذلك بإيجاز ، ونشير إلى بعض الأمور البارزة التى تفرق بينهما ، وتجعل التلاقى بينهما ضربا من المستحيلات ، منها .

١ — الإسلام يحارب النظرة المادية للحياة ، ويثور عليها ، لأنه يدعو الناس إلى المنهج الربانى ، الذى جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

أما الاشتراكية ؛ فهى نتيجة الحضارة المادية ، وهى تنادى بالنظرة المادية للحياة ، وتقوم بتنفيذها فى المجتمع ، ولا صلة لها بالمنهج الذى جاء به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

٢ — عقيدة التوحيد حقيقة أساسية ورئيسة فى نظر الإسلام والمسلمين ، فإن الإيمان بوجود الله ، ووحدانيته ، وحاكميته ، وربوبيته ، حقائق ثابتة ، يقوم عليها نظام الإسلام الاجتماعى والفردى ، الذى يهدف إلى الخضوع لله وحده ، وعبادته دون سواه .

أما الاشتراكية ؛ فإنها ترفض وجود الله تعالى ، وتحل المادة المحل الأول ، وتعتبرها أقدم من كل شىء . إنها لاتؤمن بوجود قوة خارقة وراء الطبيعة ، ولا تسمح لأى تأثير لها فى نظامها الذى تضعه للحياة .

٣ — وجهة نظر الإسلام الأساسية هى الأخلاق والقيم العليا فى الحياة ، فالإسلام يزن كل قول وعمل فى ميزان الخير والشر الذى قرره الله فى شريعته ، وهو يوافق الفطرة والضمير الاجتماعى للإنسانية جمعاء .

أما الاشتراكية ؛ فترى أن الأخلاق نتاج ظروف طبقية خاصة ، فلا تعترف

بقيم مستقلة ، لأنها تنظر إلى كل شيء بمنظار الصراع الطبقى ، كما أنها لا تقيم للقيم الخلقية وزنا ما ، فضلا عن أنها لاتعترف بأولويتها وتفوقها ، وإنما الأخلاق فى نظرها شيء نسبى وحسب .

٤ ـــ الطريق الصحيح للحياة مقرر من قبل الخالق الحقيقى فى نظر الإسلام ، والدين هو الطريق ، ولكن لا يمكن اختيار مناهج صحيحة والعثور عليها اعتمادا على مجرد العقل والتجارب . فشريعة الله عند المسلم هى مقياس كل خير وشر ، وحسن وقبح ، ومعنى ذلك أن حياة السعادة والنجاح ،هى ما توجه وتحكم به الشريعة فى أمور الحياة كلها ، سواء كانت اجتماعية أو فردية ، اقتصادية كانت أو سياسية أو اجتماعية ، متعلق بالسلم أو الحرب ، أو بالعلاقات الداخلية والخارجية ، والحيدة عن هذا الطريق يؤدى إلى خراب الدنيا وخسارة الآخرة .

أما فى الاشتراكية ؛ فإن العقل هو المقياس الأول للتمييز بين الخير والشر ، ولا يحتاج إلى أى هداية من الخارج . ثم إن الدين عندهم أفيون للشعوب ، فيجب أن يوجه الإنسان للفرار منه ، لأنه يمهد للنفعية والانتهازية ، ويصبح إلهٰ الاستغلال للطبقات المسخرة ، إنه يعلم الاقتناع بالظلم والصبر على الحرمان ، كما أنه يحرص على إقامة نظام إنتاجى خاص ، ويحتفظ بمنافع خاصة بعد مايميت الضمير الإنسانى ، ولذلك لايرجى فى ظله أى صلاح أو سعادة ، ولهذا يجب القضاء عليه .

٥ ـــ يعترف الإسلام بمكانة الفرد ، ويحافظ على حقوقه الأساسية ، كما يدعم النظام الاجتماعى ، ولكنه لا يلغى الفرد ويغمط حقوقه ، بل يسهل له التقدم والنمو ، ويجعله مسئولا عن أعماله فى الدنيا والآخرة . يذوب الفرد فى النظام الاشتراكى فى المجتمع ، لأنه جزء منه ، ولهذا يستوجب عليه العمل للنفع الاجتماعى ، لأن فكرة النفع الجماعى هى التى تسيطر على النظام الاشتراكى ولهذا يستوجب عليه العمل للنفع الاجتماعى ، ولهذا يجب على الفرد أن يذوب فيه حتى لا تبقى له مكانة ما .

٦ ـــ منهج الإسلام فى التربية والإصلاح يتركز فى الإيمان بالله قبل كل شيء ، حيث يربى الفرد على ذلك ، ثم على التعاليم التى تنبثق من النظام الربانى . والإصلاح

الاجتماعى يعتمد على إصلاح الفرد ، ويتحاشى الإكراه والإجبار والقهر ، كما أنه لا يعتقد أن مجرد إصلاح المجتمع يكفى لإصلاح الفرد ، وإنما يرى أن إصلاح الفرد وإصلاح المجتمع يجب أن يتزامن ، كما يعير الإسلام نية الفرد وباطنه أهمية كبرى ، لأنه بدون تغير الباطن لا يتغير الخارج ، ولأن الإنسان توزن أعماله بأعماقه ونواياه : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

أما الاشتراكية ؛ فإنها كما قدمنا لا تعترف بالإيمان ، كما أنها تحارب الإصلاح عن طريق التربية ، وإنما تدعو إلى الثورة ، وتفضل الإجبار والإكراه على التربية والحسنى والاختيار . وأفضل طريق فى نظر الاشتراكية لتغيير الفرد وإصلاحه يأتى من تغيير النظام الاجتماعى ، فإذا تغير النظام تغير الفرد لا محالة . كما ترى أن طريق الإصلاح التدريجى لا جدوى منه ، ولا فائدة ، وإنما الأصل هو التحضير للثورة وليس غير .

٧ ـــ يعتبر الإسلام الدولة والقانون من أهم ضرورات الحياة الاجتماعية ، وكل من الدولة والقانون مسخر لخدمة أهداف عليا ، كما أن منح حرية الرأى وأخذ الناس بالرحمة أسلوب محترم فى القانون الإسلامى ، كما أنه من وظائف القانون العدالة فى شتى نواحيها ، ومراعاة الآداب والحقوق ، وحفظ الأموال والأعراض والقيم ، وقد سبق وأن قدم الإسلام الحكم العادل برهانا على نظريته .

أما الاشتراكية ؛ فإنها تعتبر الدولة والقانون آلتين للظلم الاجتماعى ، والاضطهاد ، والاستغلال ، وتؤيد استخدام القوة ، بل تحبذها ، فى الفترة الانتقالية ؛ للقضاء على طبقة معينة من المخالفين والمعارضين ، كما تزعم أن قيام المجتمع الأمثل لا يمكن إلا بالقضاء على الدولة والقانون .

٨ ـــ يدعو الإسلام فى المحيط الاجتماعى إلى الحفاظ على العفة فى الأسرة ، والمساواة الإنسانية ، والأخوة ، والتعاون ، والتضامن الاجتماعى . كما يقوم بنظامه الاجتماعى على أساس القيم التى بينها الكتاب والسنة ، كما يؤسس حضارته على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

أما الاشتراكية ؛ فإنها تؤكد على أن الصراع الطبقى والنزاع أهم حقيقه فى الحياة . أما نظام الأسرة فإنه جزء من الملكية الفردية فى نظرها ، فلابد أن يلقى حتفه على مذابح الاشتراكية . أما أولاد الرجل والأسرة ؛ فهم ثروة المجتمع ، لا يملكهم الوالدان ، والقيم كلها تقرر فى ضوء التقسيم الطبقى ، ولا مكان لأى قيمة من القيم إلا فى ظلال هذا النظام .

٩ — يسمح الإسلام بالملكية الفردية فى المجال الاقتصادى والتعامل التجارى ، وممارسة الحرية فى السعى والاختيار . ولكنه يعتبر الثروة فى يد الإنسان أمانة ، يجب أن يحدد استعمالها ، وتعين فيها حقوق الفرد والمجتمع ، التى لا تزكى الثروة بدون أدائها ، كما تستعمل الحياة الاقتصادية بأجمعها لتحقيق العدالة ، ولا تقدم المصالح الاقتصادية وحدها على المصالح الأخلاقية والاجتماعية والروحية .

أما فى الاشتراكية فإن الوضع الاقتصادى هو الأساس الذى تعتبره الاشتراكية قوتها الأصلية ، وتعتقد أن تأميمها علاجا لكل مشكلة ، وهذا النظام الاقتصادى لا يميز بين الحلال والحرام ، ولا يقوم على فكرتها ، وإنما يعد الجبر والإكراه من أساليبه بدلا من الاقناع والحرية . كما أنه يقضى على حرية الفرد وملكيته ، ويعتبر ذلك من القضاء على الطبقات ، فيقع بعد ذلك فى طبقة أدهى وأمر .

ومما تقدم يتبين لنا أن البون شاسع جدا بين الإسلام وبين الاشتراكية ، كالفرق مابين الإلحاد والإيمان ، ولهذا يتبين مقدار الخطأ الذى يقع فيه بعض الناس عند طرحهم فكرة الاقتباس من الاشتراكية ، مثل اقتباس منهجها الاقتصادى ، وضمه إلى النظام الإسلامى ، أو إظهار الجانب الاقتصادى فى الإسلام ، وتسميته بالاشتراكية الإسلامية ، لأن الكل يعلم أن النظام الاقتصادى فى النظام الاشتراكى لا يمكن فصله عن فلسفته المادية والاجتماعية . وأن الروح التى تهيمن على النظام الاقتصادى ، والعقلية التى تنفذه ، والأسس التى ينبثق منها ، والمجتمع الذى يهيأ لتلقى هذه النظم ، يخالف كل ذلك تماما النظام الإسلامى ، والبيئة الإسلامية ، والتعاليم السائدة فى الفرد والجماعة ، بالإضافة إلى أن نظام الإسلام الاقتصادى لا يلتقى مع النظام الاشتراكى ؛ لأن له جذوره الخاصة ، وفلسفته ، وقيمه المعينه ،

وأهدافه التى يسعى إلى تحقيقها ، والوصول إليها ، كل ذلك يخالف النظام الاشتراكى . فلا يصح أن يسمى لهذا نظام الإسلام الاقتصادى باشتراكية الإسلام .

وهذا النوع من التفكير إنما أفرزته ظروف معينة تعددت بواعثها ومراميها ، ولكنها فى النهاية تدل على خطأ فادح ، وقع فيه هؤلاء وأولئك .



الباب الثالث

التحدى الحضارى الإسلامى ومستقبله وحاجة الإنسانية إليه

الفصل الأول : التحدى الحضارى الإسلامى ومظاهره .

الفصل الثانى : مستقبل الحضارة الإسلامية

الفصل الثالث : حاجة الإنسانية إلى تلك الحضارة .

يتميز الإسلام بخصائص سامية ، وتعاليم سامقة ، وطبيعة أخاذة ، وقوانين فطرية ، ومنهج ميسر ، وجاذبية فريدة ، تسحر الألباب ، وتقهر الظلمات ، وتصرع الباطل ، وتخلص إلى قلب الإنسان السوى ، فتكون طهورا ، وحياة ، وحركة ، واستقامة ، تعمر الأرض وتظلها ، وتزرعها وتسقيها ، حتى تكون ربيعا مثمرا ، ونورا مزهرا ، ومنهج كهذا لابد أن تعلو نبتته ، وتنضج ثمرته ، ويطيب جناه ، ولا بد أن يسطع نوره ، وتظهر رايته ، ويطلع فجره ، لأن الإنسانية القلقة تحتاج إلى هدايته ونوره ، وروحها الجوعى تشتاق إلى ثمره وجناه ، وخطواتها الحائرة تتطلع إلى منهجه وهداه ، وشهواته الجامحة ترنو إلى طهره وعلاه .

فهو قانون يعمل عمله لأنه ناموس الحياة ، ويؤدى دوره لأنه حياة الحياة ، وإنسانية الإنسان ، وفطرة الفطرة ، وهداية النفحة ، وسر النفخة ، ونور الإدراك ، وبصيرة البصر ، وفقه القلب ، وسر الله .

الفصل الأول

التحدى الحضارى الإسلامى ومظاهره

الفصل الأول

التحـدى الحضارى الإسلامى ومظاهره

يوم ظهرت رسالة الإسلام أول مابرزت إلى الوجود ، وقف فى طريقها واقع ضخم من السدود والقيود ، واقع الجزيرة الوثنية ، واقع العادات والتقاليد والأعراف ، واقع الكرة الأرضية ، ووقفت كذلك فى وجه الدعوة الإسلامية عقائد ، وتصورات ، ومذاهب ، ومبادىء ، وأنظمة ، وأوضاع ، ومصالح ، وعصبيات . كانت الأمواج متلاطمة بالمظالم ، والطرق متزاحمة بالطواغيت ، والأجواء متلبدة بالمخازى والشهوات ، وكانت النقلة بعيدة بين الإسلام وبين واقع الزمان والمكان والأفكار ، وهذا الواقع كان يستند إلى أحقاب من التاريخ ، وأغوار من الدهور والعصور ، وأعماق من الطبائع والأعراف ، تقف كلها سدودا وقيودا أمام الرسالة الوليدة ، والهداية الغضة ، والتعاليم البكر ، التى جاءت بغير ذلك الكم الهائل من الأنظمة والأوضاع والشرائع والقوانين والأعراف والعقائد والعادات ، تتحدى العالم الشارد ، والأوضاع الفاسدة القلقة ، وتصارع الضلالات والتجاوزات والحيوانيات التى تنغص الحياة ، واستطاعت أن تهزمها وتقهرها . وهرع إلى تعاليم الإسلام القاصى والدانى ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وفرح المؤمنون بنصر الله سبحانه .

كانت المعتقدات الفاسدة والمحرفة ترين على ضمير البشرية ، وكانت الآلهة الزائفة تزحم فناء الكعبة المشرفة ، كما تزحم تصورات الناس وعقولهم وقلوبهم ، وكانت المصالح القبلية والاقتصادية تقوم على كواهل هذه الآلهة المزعومة ، وما وراءها من كهانة ، وسدانة ،ومن أوضاع فى حياة الناس تعلقت بهذه الرواسب الباطلة ، فجاء الإسلام ليواجه هذا الواقع كله بلا إله إلا الله ، ويخاطب الفطرة التى لاتعرف لها إلها

إلا مِنْ خَلْقِها ، جاء ليعرف الناس بربهم الحق ، فقال : ﴿ قل : أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ﴾ (١) .

كان هناك واقع اجتماعى محطم ، يقوم على الطبقية والعنصرية المادية والمعنوية ، استنامت له النفوس ، وذلت له الرقاب ، وخضعت له العادات ، حتى أصبح حقيقة من حقائق الناس السائدة ، لأن المنتفعين به لا يسأمونه ، والرازحين تحته لا ينكرونه!!

كانت قريش تسمى نفسها « الحمس » ، وتفرض لنفسها حقوقا ليست لسائر العرب ، وكانت فى الحج تقف بمزدلفة ، بينما يقف الناس بعرفة ، وكانت الأرض كلها من جانب قريش تعج بالتفرقة العنصرية القائمة على اختلاف الدماء والأجناس والألوان والأحساب .

وكانت فارس عريقة فى التفرقة ، يزعم أكاسرتها أنه يجرى فى عروقهم دم إلهى . وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة ، يكفرون لهم ، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم .

وكان المجتمع الرومانى يقوم على الطبقية وعلى الترف للأسياد والأشراف — الذين يمثلون نسبة ضئيلة — على حساب الكثرة المستغَلَّة المستعبدَة الممتَهَنة ، فلا ينالون من الحقوق مثل ماينال الأسياد ، ولا يعاملون فى القانون على سواء ، فقد جاء فى مدونة جو ستنيان الشهيرة : « من يستهوى أرملة مستقيمة أو عذراء فعقوبته — إن كان من بيئة كريمة — مصادرة نصف ماله ، وإن كان من بيئة وضيعة فعقوبته الجلد والنفى من الأرض »(٢) وأما المجتمعات الهندية وحضارتها التى ازدهرت قبل ميلاد

---

(١) الأنعام ١٤ — ١٦ .

(٢) مدوّنة جستيان القانونية ترجمة عبد العزيز فهمى ص ٣١٧ .

المسيح بثلاثة قرون ؛ فكانت أسوأ حالا من غيرها ، حيث قسمت الأمة إلى طبقات ، أعلاها فى رتبة الآلهة ، وأدناها فى رتبة الحيوانات ، وكانت على النحو الآتى :

١ ــ البراهمة : طبقة الكهنة ورجال الدين ، وخلقوا من فم الإله ، وهم صفوة الله ، وملوك الأرض ، وإن مافى العالم ملك لهم ، فهم أفضل الخلائق وسادات الأرض .

٢ ــ شُتْرَى ــ رجال الحرب ــ وخلقوا من سواعد الإله ، فعليهم حراسة الناس ، وهم أقل من البراهمة ، وليس لهم حقوق ــ وإن كانوا أعلى ممن تحتهم .

٣ ــ ويش رجال الزراعة ، ورعى السائمة ، والقيام بخدمتها لأسيادهم ، وقد خلقوا من أفخاذ الإله .

٤ ــ شودر ــ المنبوذون ــ رجال الخدمة ، وخلقوا من رِجْل الإله ، وليس لهم إلا خدمة الطبقات الثلاث ، وهم أحقر من البهائم ، وأذل من الكلاب [1] . إذاً فما هذه الصرخة العاتية ، واللمسة الجبارة ، التى غيرت هذا الركام والضلال ، وما سر ذلك !! ولو أنه قيل لكائن من كان ــ فى ذلك الزمان ــ : إن هذا الدين الجديد الوليد الذى يحاول هذا كله ، فى وجه ذلك « الواقع » الهائل التى تسنده قوى الأرض كلها ، هو الذى سينتصر ، وهو الذى سيبدل هذا الواقع ، ويزيح هذا الظلام ، ويربى هذه الأمم ، ويعلم هذه البشرية السلوك والخير والبر ، فى أقل من نصف قرن من الزمان ، لما لقى هذا القول إلا السخرية والاستهزاء والاستنكار !!

ولكن الحقيقة الجلية لا تلبث أن تظهر للعيان . وسرعان ما يتزحزح هذا الواقع الضخم عن مكانه ، ليخليه للوافد الجديد . وسرعان ما يتسلم القيادة أبناء الصحراء الأتقياء البررة المعلمين ، ويأخذون مفاتيح الأمم ، وزمام الحل والعقد فى الممالك المترامية الأطراف ، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ويقودوها بشريعة الله

---

(١) ينظر فى ذلك ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين بتصرف ــ ص٥٨ الى ٦٠ ط دار التعلم

تحت راية الإسلام وبجنده . كيف استطاع رجل واحد هو : محمد بن عبد الله ﷺ أن يواجه الدنيا وحده ، وأن يصارع تلك التصورات والعقائد والقيم والموازين والأنظمة والأوضاع والمصالح والعصبيات فى جزيرة العرب ، وفى مخلفات الديانات المنحرفة ، وفى سماء المذاهب المترهلة ، دون أن يتملق عقيدة أو تصوراً ، أو يداهن مشاعر أو أحاسيس وعواطف ، أو يهادن آلهتهم وقياداتهم أو قبائلهم ، ولكن واجههم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ ياأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾ [(١)] ، كما لم يبهرهم بسلطان أو ملك ، ولم يستحلهم بمزايا يمتلكها غير بشرية : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إنى ملك . إن أتبع إلا ما يوحى إلىَّ ﴾ [(٢)] ، كما لم يوزع الوعود والمناصب المغانم لمن يتبعه وينصره على مخالفيه . قال ابن إسحاق : كان النبى ﷺ يعرض نفسه على القبائل فى الموسم ـــ موسم الحج ـــ يقول : « يابنى فلان ، إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى ، وتمنعونى حتى أبين عن الله مَا بعثنى به . » قال ابن إسحاق : وحدثنى الزهرى أنه أتى بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه . فقال رجل منهم ، يقال له بحيرة بن فراش : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر لله يضعه حيث يشاء » . قال له : أفتهدف نحورنا للعرب ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .[(٣)] كيف إذن وقع الذى وقع ، وكيف قوى ذلك الرجل الفرد على قهر كل هذا الوقع الغريب ! إنه لم يقهره بمعجزة لاتتكرر ، فقد أعلن ﷺ أنه لا يعمل فى هذا الحقل بخارقه ، وإنما بمنهج واضح صريح بيِّن .

---

(١) سورة الكافرون .

(٢) الأنعام ـــ ٥٠

(٣) الروض الأنف ٢ / ١٧٤ للسهيلى ط الكليات الأزهرية .

كما لم يقهرهم بأحلاف ومعاهدات ومداورات ، كما يفعل المحترفون من الساسة وطلاب الدنيا . ولم يتغلب عليهم بنعرة قومية أو قبلية أوثارات ، إنما وقع ذلك القهر وفق سنة دائمة باقية ، تتكرر كلما أخذ الناس بها ، واستجابوا إليها . لقد وقع الذى وقع من انتصار الإسلام وغلبة هذا المنهج ؛ لأنه تعامل مع رصيد الفطرة الهائل المكنون ، وهو رصيد ضخم عملاق ، لا يغلبه هذا الغثاء الظاهرى ، حين يستنفر ويجمع ويوجه ، ويطلق فى اتجاه مرسوم !! هذا الرصيد الهائل الضخم مازال يعمل عمله ، ويؤدى دوره ، ويتحدى العوائق ، ويقهر الظلمات ، بما فيه من حيوية غامرة ، وتعاليم قاهرة ، وعقيدة سامية ،ورصيد من القيم لا يبارى أو يدانى. ونستطيع أن نلقى الضوء على شىء من هذا الرصيد الضخم ، وهذه المبادىء والقيم ، التى تقف كالطود ، تعمل عملها ، وتتحدى أعاصير الفساد الظلم والطيران والهوان .

عناصر هذا التحدى :

يعمل هذا التحدى داخل الإنسانية وخارجها ، وفى أعماق البشرية ومن حولها ، يراقب النفس ويهديها ، ويسجل العلة ويشفيها ، يقدم الحلول للمعضلات ، ويعرض هديه فى المشكلات ، ويأخذ بيد الإنسان — فى يسر ومن غير إعنات — إلى ما يصلحه ويرضى طموحه ، ويبعد عنه الأذى والبلاء . وهذا التحدى يتمثل فى أمور منها :

عقيدة :

عقيدة لا تنشىء انفصاما ، أو تحدث تمزقا فى نفس الإنسان ، وإنما تجمع شتاته ، وتؤلف متفرقه ، وتطهر حواشيه ، تصل الكائن الفانى بقوة الأزل والأبد ، وتمنح الفرد الضعيف العون والسند ، تصغر فى عين صاحبها قوة الجاه والمال ، وقوة المركز والسلطان ، وقوة الحديد والنار ، وتصبره على الحرمان والأذى فى سبيل قيمه العليا وغاياته الكبرى ، وتقدره على الصبر والكفاح ، وتدفعه إلى الموت الذى يخلق الحياة ، والفناء الذى يمنح الخلود والتضحية التى تورث النصر .

عملها فى نطاق الفرد والجماعة :

ومن ثم فإن قيمتها الكبرى فى حياة الأفراد والجماعات سواء ، تتفاعل فى نفس الفرد كما تتفاعل فى كيان الجماعة ، وتعمل فى ضمير الأشخاص كما تتحرك فى محيط الأمم ، لأنها قوة هائلة فى سماء الأفق الإنسانى كله ، وعميقة فى ضميره أيضا ، لا تتخلى عن صاحبها فى زحمة الصراع أو معترك الحياة ، كما أنه لا يتزحزح عنها أو يتفلت منها ؛ لأنها خالطت دمه ، وتفاعلت مع كيانه وواقعه . يروى ابن كثير فى السيرة : « أنه لما أسر خبيب بن عدى ، وأخذه المشركون ليقتلوه ، فقال له أبو سفيان حين قُدِّمَ ليقتل : أنشدك بالله ياخبيب ، أتحب أن محمدا الآن عندنا تضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنى جالس فى أهلى . قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا قال : دعونى حتى أصلى ركعتين ؛ ثم قال :

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع[(١)]

عقيدة تخالط الحياة :

وهى عقيدة تخالط الحياة ولا تنعزل عنها ، وتؤثر فيها ولا تتأثر بها ، تسرى فى التعامل كما تختلط بالعبادة ، تقوِّم الروح ، وتصلح الجسد ، وتطهر الحياة . تعيش مع التاجر فى تجارته ، وتراقب البائع فى بيعه ، فى كيله ، فى ميزانه ، فى شرفه التجارى ، فى ذمته ، وضميره الصرفى والنقدى .

﴿ ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[(٢)] ، ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾[(٣)] ، ﴿ أوفوا

---

(١) انظر فى ذلك سيرة ابن كثير جـ ٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ تحقيق د مصطفى عبد الواحد .

(٢) المطففين ـــ ١ ـــ ٥ .

(٣) الإسراء ـــ ٣٥ .

الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾[1].

تدخل فى عقوده ووعوده ومواثيقه : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾[2]، ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾.[3]

كما تدخل العقيدة فى تصرفاته فى المجتمع ، وفى سلوكه الاجتماعى والأدبى ، فى قوله ولفظه ، وابتسامته وعبوسه ، ورقته وغلظته ، ومنحه ومنعه : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ، ويمنعون الماعون ﴾.[4]

عقيدة تشع الحياة والأمن والمعروف والسلام والرحمة ، تزرع الخير ليحصد الخير ، وتسقى الحياة لتستمر الحياة ، وتضىء الدنيا لتسعد الدنيا . « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة ، وبصرك للرجل الردىء لك صدقة[5] » عقيدة تبنى على الواقع ، ولا تعتمد على التهاويل والرؤى ، وإنما تقوم على أسباب مدركة ، وعلى قواعد ثابتة ، وصدق الله : ﴿ إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[6]، ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[7].

---

(١) الشعراء ـــ ١٨١ ـــ ١٨٣ .

(٢) الإسراء ـــ ٣٤ .

(٣) المؤمنون ـــ ٨ .

(٤) الماعون ـــ ١ ـــ ٧ .

(٥) الترمذى ـــ كتاب البر ٣٦ .

(٦) الرعد ـــ ١١ .

(٧) الأنفال ـــ ٥٣ .

عقيدة تغرس الثبات والوثوق والطمأنينة ، التى لا تزعزعها العواصف ولا النكبات والمحن : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾[1]، ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ﴾[2]، ﴿ ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[3].ولا شك أن عقيدة بهذا الرسوخ وهذا العمق وهذا الاتصال الفطرى بالإنسان وبالحياة ، تملك الإحساس بالوجود فى الماضى ، والاستقرار فى الحاضر ، والامتداد للآتى ، وتتصل قوتها بالقوة الكبرى التى لا تنضب ولا تخسر ولا تضعف . تستطيع مواجهة الحياة والتأثير فيها . ولاشك أن الإنسان يواجه فى حياته صراعا ضخما فى الداخل والخارج ، وقوى هائلة متكتلة أكبر من طاقته المجردة ، فإذا وجد ملاذه فى عقيدة بهذا الحجم تكون حصنا له ووقاية ودرعا ، وتعطيه القوة والسلاح والهيمنة والطمأنينة ، لا يلبث أن يرتمى فى أحضانها ، ويهرع إليها . نعم ، إن بعض النظم الأخرى قد تقدم بعض الحلول لبعض المشكلات فى بعض الأحيان ، ولكن قيمة العقيدة الإسلامية ليست فى مجرد تقديم الحلول الوقتية لبعض المشكلات الوقتية ، وإنما قيمتها الحقيقية تتمثل فى تقديم الحلول الناجعة القاطعة ، مع القوة الضامنة لتحقيقها وحمايتها واستمراريتها، لأن قوة العقيدة الدينية هى قوة الدفع الفطرى الهائلة ، ذلك الدفع الذى تتقاصر عنه أى فكرة فلسفية أو مذهب اجتماعى أو اقتصادى ، لأن أمراض النفس البشرية وعوائقها الحياتية أكبر من مستوى المذاهب البشرية ، وأعمق من تلك الحلول العقلانية ، ولأن جوعة الفطرة الإنسانية أقوى من سطحية القوانين الفكرية والتقسيمات الاجتماعية الآدمية . وكم يخطىء الذين يخدعون أنفسهم بهذه النظريات والأفكار حيث يحسبون أنهم يستطيعون ملء فراغ نفوس الأفراد والجماعات بمذاهب فلسفية أو نظريات اقتصادية أو أفكار اجتماعية ، وسرعان ما تنكشف لهم الحقيقة ، وتظهر الأمراض والعلل فى تلك الفلسفات والنظم ، وتنعكس على الأفراد والجماعات

---

(١) الأنفال ـ ١٢ .

(٢) محمد ـ ٣٥ .

(٣) آل عمران ـ ٢٢٠ .

التى تعيش تلك الأخطاء والصراعات المختلفة . وصدق الله : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾[1] ، ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[2] إذاً فالعقيدة الإسلامية هى المثال الفريد الذى عرفته الإنسانية فى تاريخها الطويل فى هذا المجال ؛ لأنها العقيدة التى تحيط بالإنسان كإنسان ، جسدا وروحا ، ونشاطاً وحياة ، فلا تقتصر مهمتها على حقل ولا على اتجاه دون اتجاه ، لأنها لا تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وإنما ما لقيصر وقيصر ذاته فى العقيدة الإسلامية كله لله ، ومن هنا كان تأثير العقيدة الإسلامية ، وكانت جاذبيتها الخارقة ، التى تلبى رغبات الإنسان ، وتعلى همته ، وتشفى قلبه وتحقق سعادته وصدق الله ﴿ من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾[3]

رصيد إنسانى واجتماعى :

يملك الإسلام رصيدا إنسانيا واجتماعيا ضخما ، استطاع أن يلفت عنق الإنسانية إليه ، وأن يجذب انتباه الأفراد والشعوب والأمم ، رصيدا يتعامل مع الأحاسيس والأرواح ، كما يتعامل مع الأجساد والبطون ، رصيدا يغذى الفطرة ، ويصنع الحيوية ، ويزكى الأشواق والتطلعات . يقول برنارد شو : « إن الدين الإسلامى هو الدين السامى ، بسبب حيويته العظيمة ، فهو الدين الذى يلوح إلى أنه الحائز على أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون صالحا لكل زمان ومكان ... ويضيف فيقول : « إن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا فى الغد القريب ، وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم »[4] ويقول ولز : « الدين الحق الذى يساير المدنية هو الإسلام . وحسبك القرآن ، وما فيه من نظريات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع ، فهو كتاب علمى اجتماعى تهذيبى خلقى »[5] . حضارة ونظم

---

(١) طه — ١٢٤ ،

(٢) القصص — ٥٠ ،

(٣) الكهف — ١٧ .

(٤) الإسلام والثقافة العربية عبد الفتاح غنيم ص ١٩٤ .

(٥) الإسلام والحضارة الانسانية عبد المنعم حفاجى ص ١٤٠ .

وقوانين وحياة تشق طريقها بثبات وسط الإنسانية ، ووسط الأيام والتاريخ ، مر
أذهلته ، ومن تأمل فيها سحرته ، ولهذا عرفها أشبلنجر بالحضارة السحرية ،
الصراع بين النور والظلام ، طابعها اللامحدود واللامتناهي » [1]ولا أريد أن أ
أتكلم عن التكافل الاجتماعي في الإسلام ، فقد سبقت الإشارة إليه ، وإنما أرد
أعرج على مافيه من رصيد اجتماعي هائل ، يفتح الآفاق أمام القلوب وا
والأحاسيس ، ويدعو الإنسانية إلى إنقاذ نفسها من بحور الوهم والضلال التي
فيها ، واستسلمت لأمواجها العاتية ، لقد حاولت المجتمعات اليوم التعرف على
وعلى إنسانيتها ، وشعرت بالقطيعة الهائلة التي بين أفرادها وبين أجناسها
وأقطارها ، فحاولت وتحاول أن تتغلب على هذا النقص بمؤسسات وهيئات ،
المتحدة وكمجلس الأمن ، وغيرها من المؤسسات التي تحاول في كل مجال أن
أو تدعو إليها ، تعليمية كانت كاليونسكو ، أو اقتصادية كالبنوك الدولية ،
ذلك ، ولكن هذه المؤسسات وهذه الهيئات لم تؤد ما قدر لها ، لسبب بسيط
المؤسسين لها والقائمين عليها تخلوا من زمن عن إنسانيتهم ، واعتنقوا مبادىء
والتمييز ، وتربوا على حب الذات ومنطق الغلبة والقهر ، واعتبروا القيم والأخلاق
من أساليب الضعفاء أو من رواسب الماضي ، فكيف إذن يتواءمون مع أ
للإنسانية أو للتجمع الإنساني ، وكيف يدعون إلى ماتنهى عنه وتبغض ف
اللهم إلا إذا كان لهم من وراء هذه الدعوات قصد أو غرض ، قد يكون
بأسلوب أو بآخر على الأمم بربطها برباط واحد تسهل من القيادة ، قد يكو
الأمم واستغلال الشعوب بترتيب قانوني ، قد يكون ، وقد يكون ، وإلا ف
الأحلاف والتجمعات خارج تلك المنظمات ، وما ضرورة الأحلاف العسك
معسكر وكل قوة ، كحلف وارسو ، وحلف الأطلنطي ، وغير ذلك .

وهل منعت هيئة الأمم أو غيرها دولة كبرى من ابتلاع دولة صغ
منعت نهب خيراتها واغتيال ثرواتها ، وهل سمعنا أن دولة ناصرت دولة أ
تعالى ، أو لسواد العيون وجمال النواظر ، أما الإسلام فإنه أول مبدأ يقر الحق

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية د ـــ عفت الشرقاوي ص ١٩٩ .

ويقوم بالعدل للعدل ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾[1]،﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما ﴾.[2]

يقول مستر « جب » فى كتابه « حيثما يكون الإسلام » : « ولكن الإسلام مازال فى قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحا باهرا فى تأليف الأجناس البشرية المتنافرة فى جهة واحدة ، أساسها المساواة ، فالجامعة الإسلامية العظمى فى أفريقية والهند وأندونيسيا ، بل تلك الجامعة الصغيرة فى الصين ، وتلك الجامعة الضئيلة فى اليابان ، لتبين كلها أن الإسلام مازالت له القدرة التى تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات ، فإذا ما وضعت دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلابد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع[3] » والمنصفون والمتجردون من الغربيين فى العلوم الاجتماعية والحضارية لا يَعْدُون هذه الحقيقة الكبرى ، وهى أن الإسلام له جاذبيته الخاصة ، وأسلوبه المميز الفريد فى قيادة الأمم والشعوب ، والتأليف بينها ، ومعاملتها بالحسنى ، رغم اختلاف اللون والعنصر والدين ، وسحر هذه التعاليم وهذه المبادىء قديم ، وتحديها للظلم والبغى والقهر عريق .

يقول : « سيرت . و . أرنولد » فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » : ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن ، وعسكر أبو عبيدة فى محل ، كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون : يامعشر المسلمين ، أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا » وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم »[4]. وهل رأى الإنسان ، أقواما تحب الاستعمار « بالتعبير الحديث

---

(١) المائدة / ٨ . (٢) النساء / ١٠٥ . (٣) انظر السلام العالمى ص ١٤٢ .

(٤) انظر كتاب الدعوة الإسلامية ترجمة إبراهيم ص ٥٣ ومابعدها وكتاب المجتمع الإسلامى والتيارات المعاصرة لعمر بهاء الأميرى ص٢٦ ط دار الفتح والمرجع السابق ص ١٣٩ .

اليوم » وتسارع إلى إخراج أبناء جلدتها ودينها ، لتدخل فيه وتستظل بلوائه ، ولكنه التحدى الإسلامى الذى اقتحم على الطغاة مخادعهم ، ليخلص المظلومين من جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الظلم إلى رحابة العدل ، ومن القطيعة والاستعباد إلى الأخوة والحب والإيمان .

إنها الثورة على الفساد وعلى الاستعباد ، ولكنها ثورة النور والعدل ، لغرس الفضيلة والحب والإيمان . ثورة الشفاء من اللوث والبرء من الداء والحصانة من المرض . ثورة ينتظرها العالم اليوم ، ويرجوها ، ولكن أين هى ، وأين رجالها وحملة مشاعلها ؟

قيم ومثل ومبادىء :

لا شك أن المثل والقيم الإنسانية تشكل ضرورة لاستقرار المجتمعات والأفراد ، وتستهوى أمانى وتطلعات البشر ، وعلى مدار التاريخ الإنسانى لم تشعر البشرية باستقرار تلك القيم ، وتنفيذ هذه المثل ، إلا بظهور الدعوة الإسلامية فى القرن الأول الهجرى ، حيث قدمت رصيدا جديدا وعظيما فى تاريخ الأديان والأخلاق ، وكانت ظاهرة جديدة فى عالم السياسة والاجتماع . انقلب به تيار المعرفة والأصالة الإنسانية ، والفهم الحضارى للحياة ، واتجهت الدنيا اتجاها جديدا فى فهم العلاقات الإنسانية والأواصر البشرية ، جعل الدنيا تحس أنها جوعى إلى هذه التعاليم ، وأنها لا تجد نفسها إلا فى ظلال هذه المعانى وبين أحضان هذه المثل .

وكان هذا يمثل محنة جديدة وقاسية للجاهلية والحيوانية ، لم تعهدها من قبل ، ولم تعرف كيف تخرج منها ، وظلت فى حيرتها إلى أن غمرتها أضواء التعاليم السامية ، وأشعة الرسالة الهادية ، فبددت ظلامها ، وكشفت أرجاسها ، وأزالتها من الواقع ، وعزلتها فى زوايا النسيان . ويظل الإسلام كذلك بما له من خصائص قاهرة ومميزات غلابة . يعبر عن هذا العالم الألمانى المسلم ، حيث يبين الخصائص الإسلامية القاهرة ، ووصَفَها فى الإسلاَم وصفا دقيقا . فيقول :

إن الإسلام لاينظر — كالنصرانية — إلى العالم بمنظار أسود ، بل هو يعلمنا أن لا

نسرف فى تقدير الحياة الأرضية ، وأن لا نغالى فى قيمتها مغالاة الحضارة الغربية الحاضرة . إن المسيحية تذم الحياة الأرضية وتكرهها ، والغرب الحاضر خلاف الروح النصرانى ، يهتم بالحياة كما يهتم النهم بطعامه ، هو يبلعه ، ولكن ليس عنده كرامة له . والإسلام بالعكس ، ينظر إلى الحياة بسكينة واحترام ، هو لا يعبد الحياة ، بل يعدها كمرحلة يجتازها فى طريقه إلى الحياة العليا ، وبما أنها مرحلة ـــ ومرحلة لابد منها ـــ فليس للإنسان أن يحتقرها ، أو يقلل من قيمة حياته الأرضية ، إن مرورنا بهذا العالم فى سفر الحياة لابد منه وقد سبق به تقدير الله ، فالحياة الإنسانية لها قيمتها الكبرى ، ولكن لاينبغى لنا أن ننسى أنها ليست إلا واسطة وآلة ، وليست قيمتها إلا قيمة الوسائط والآلات ، الإسلام لا يسمح بالنظرية المادية القائلة « إن مملكتى ليست إلا هذا العالم » ، ولا بالنظرية المسيحية التى تزدرى الحياة ، وتقول : « ليس هذا العالم مملكتى » ، وطريق الإسلام طريق وسط بينهما ، والقرآن يرشدنا أن ندعوا : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة [1] ﴾ . فالتقدير لهذا العالم وأشيائه ليس حجر عثرة فى سبيل جهودنا الروحية الخصبة ، والرقى المادى مرغوب فيه مع أنه ليس غاية فى نفسه . إن غاية جهودنا ينبغى أن تكون إيجاد أحوال وظروف شخصية واجتماعية ، والمحافظة عليها ـــ إن وجدت ـــ تساعد فى ارتقاء القوة الخلقيـــة فى الإنسان ، مطابقة لهذا المبدأ .

الإسلام يهدى الناس إلى الشعور بالمسئولية الخلقية فى كل عمل يعمله ، كبيرا كان أو صغيرا . إن نظام الإسلام الدينى لا يسمح أبدا بمثل ما أمر به الإنجيل قائلا : « اعطوا مالقيصر لقيصر ، واعطوا مالله لله » ؛ لأن الإسلام لا يسمح بتقسيم حاجات حياتنا إلى خلقية وعملية ، ليس هناك إلا خيرة واحدة فقط ، خيرة بين الحق والباطل ، وليس شىء وسط بينهما ، لذلك هو يلح على العمل لأنه جزء لازم للأخلاق لا غنى عنه ، ينبغى لكل فرد مسلم أن يعد نفسه مسئولا شخصيا عن المحيط الذى يحيط به وكل ما يقع حوله ، وهو مأمور بالجهاد لإقامة الحق ومحق الباطل فى كل وقت وفى كل جهة ، فإن القرآن يقول : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون

---

(١) البقرة ـــ ٢٠١ .

بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله﴾[1] . هذا هو المبرر الخلقى للحركة الإسلامية الجهادية ، والفتوح الإسلامية الأولى ، والاستعمار الإسلامى ، فالإسلام استعمارى ، إن كان لابد من هذا التعبير ، ولكن هذا النوع من الاستعمار ليس مدفوعا بحب حكومة ما للاستيلاء ، وليس من الأثرة الاقتصادية للقومية فى شىء ، ولم يكن لحفز المجاهدين الأولين إلى الجهاد طمع فى خفض من العيش أو رخائه على حساب الناس الآخرين ، ولم يقصد منه إلا بناء إطار عالمى لأحسن ما يمكن للإنسان من ارتقاء روحى ، كما أن العلم بالفضيلة ــ حسب تعاليم الإسلام ــ يفرض على الإنسان تبعة العمل بالفضائل ونشرها والدفاع عنها .

الإسلام لا يوافق أبدا على الفصل الأفلاطونى ، والتفريق النظرى البحت بين الفضيلة والرذيلة ، بل يرى أنه من الوقاحة والرذيلة أن يميز الإنسان نظريا بين الحق والباطل ، ولا يجاهد لارتقاء الحق وإزاحة الباطل ، فإن الفضيلة ــ كما يقول الإسلام ــ تحيا إذا جاهد الإنسان لبسط سلطانها على الأرض ، وتموت إذا خذلها ، وتقاعد عن نصرتها .[2]

وهكذا فالتعاليم الإسلامية حية لا إرهاق ولا تفريط ، مواتية وملائمة للطبائع ، لاتغفل ناحية وتسهب فى أخرى ، وإنما هى دائما معتدلة الميزان ، مستقيمة الخطو ، كما أنها دائمة العطاء ، تعطى كل يوم جديدا ، وكل موقف زادا ، وكل مشكلة حلا ، لم يجف لها نبع ، أو يفسد لها ثمر ، أو يذبل لها ورق ، أو تذهب لها خضرة . هذه حقيقة على مدار التاريخ ، يعلمها كل عاقل مطلع على تراث الإسلام وحضارته ، يعلم أن الإسلام دائما معطاء وأنه شامخ فى تحد على مدار التاريخ ، يعلم أن الكل محتاج إليه لحياته ولإنسانيته ولسعادته .

يقول الرئيس الفرنسى العملاق « ديغول » لمراسلى الجرائد الفرنسية ــ ردا على سؤال عن ميله **الملحوظ نحو العرب والعالم الإسلامى وتراثه** ، ورأيه فى توطيد علاقة

---

(١) آل عمران ــ ١١٠ .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٣٣ ، والإسلام على مفترق الطرق للعالم الألمانى المسلم محمد أسد « ليو بولو قابس » ص ٣٠ ط العلم للملايين بيروت .

فرنسا معه ــ فكان من جملة جوابه عن ذلك إن فرنسا وكل البلدان الراقية المتقدمة تكنولوجيا فى حاجة إلى ربط الصلة الوثيقة بالمجتمعات العربية الإسلامية ، أكثر منها حاجة إلى الاحتكاك بالحضارة الغربية والأمريكية الباهرة ، ذلك أن مجتمعاتنا الأوروبية فقدت شيئا ثمينا جدا تحت وطأة تقدمها الضخم ، ألا وهو الإنسانية ، وأعنى بالإنسانية القيم الروحية البشرية العليا .

فقد قطعت حضارتنا تلك الصلة الخفية التى تربط البشر بعضهم ببعض ... لقد جفت شعورنا ، وتجمدت قيمنا الأخلاقية وانحلت .. ويزيد الرئيس ديغول : « وأعتقد أن اتصالنا بالمجتمعات العربية والإسلامية ، التى حافظت على تلك الروح الإنسانية ، سينقذنا من مغبات حضارتنا ، وسيفيدنا كثيرا ، لهذا السبب أتمنى أن لا تقطع فرنسا صلتها بالعالم العربى والإسلامى ، بل أن تعمل على تنميتها وتوثيقها »(1) .

أما المستشرق الأسبانى « فيلا سبازا » فيقول : « إن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جديرة بكفكفة دمعة واحدة ، ولا خلق ابتسامة واحدة ، وليس أجدر من أمم الشرق العربى المحتفظة بالثقافة العربية ، والقائمة على إذاعتها بوضع حد نهائى لتدهور الغرب المشؤوم إلى هوة التوحش الاقتصادى(2) » ولهذا لا نجد عجبا إذا رأينا روجيه جارودى يقرر فى محاضرة الاشتراكية والإسلام « أن الإسلام يتمشى مع الصيغ الإنسانية الجديدة » ، كما نجد أن « الدكتور بيرنارد فيرشل » ــ الفيلسوف الألمانى ــ يقرر فى محاضرته فى أندونيسيا فى الشهر الأخير من عام ١٩٧٢ فى معهد البحوث الإسلامية فيقول :« إن الإسلام اليوم يسيطر على الأفكار الغربية ، وإن كثيرا من علماء الغرب قد قادهم اهتمامهم الكبير بالإسلام إلى أن يصبحوا علماء فى الديانة الإسلامية ، حبا فيها ، واحتراما لها »(3) وهكذا يعمل التحدى الحضارى

---

(١) انظر المجتمع الكويتية عن محاضرة للأستاذ عمر بهاء الأميرى أستاذ الحضارة بجامعة المغرب . العدد ١٩٨ ــ ٣٠ / ٤ / ١٩٧٤

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ١٩٨ ــ ٣٠/ ٤/ ١٩٧٤ ص ٣٣ .

الإسلامى فى نفوس الناس الكثير والكثير ، لأنه شىء مبهر حقا ، فهو هندسة جديدة للكون ، ونبع صاف للفطرة ، وانبثاق لها ، وانطلاق فى آفاق الدعوة والتبشير ومواجهة الحياة فى بساطة ويسر ، والتماس للحكمة ، وتمسك بالاعتدال مع شمول وتوفيق ، وتوسط فى كل شىء، ووصل وتوثيق للروابط الإنسانية الشخصية والاجتماعية ، وإقامة الحياة على أسس من القيم السامية ، والأخلاق الإنسانية العامة ، فى مشاركة يمارس الفرد فيها ذاته فى نطاق الجماعة ، وتؤدى الجماعة عملها مراعية للفرد ، فالحضارة الإسلامية على هذا كون كامل مستمر الزمان ، ممدود المكان ، غلاب الصفات والسمات ، قاهر الأفكار والآيات ، ومن أبرز ذلك التحدى الهادىء تلك الصفات :

١ـ الملاءمة الإنسانية من جميع نواحيها ، بحيث تصلح تعاليمه للبشر ، وتصلحهم ، بمستوى لا يرقى إليه سواه .

٢ـ عبقرية الاستيعاب . فالفكرة الإسلامية ليست بنظرية دينية وحسب ، بل هو قانون شرعى وأخلاق ، ومنهج تربوى واجتماعى وثقافى ، علاوة على دعوته المتسعة ، وسيطرته العامة على كل الأفكار والمذاهب ، وبعثه للأفراد والأمم ، وإعطائها حيوية غامرة يقول : « أيزنهاور » **رئيس الولايات المتحدة الأمريكية** فى أول خطاب له أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة : « إنى عندما أنظر إلى المستقبل أرى دولة عربية تبرز ، وتسهم فى أمور هذا القرن إسهاما يفوق مالا نستطيع أن ننساه لأسلافهم الماضين . إننا مازلنا نذكر أن علم « الحساب » وعلم « الجبر » الحاليين مدينان بالكثير إلى العلوم الرياضية العربية ، كما نذكر أن العرب قد وضعوا أسس العلوم الطبية والفلكية ، التى يتمتع بها الغرب الآن »[(١)] . ونقول كم فى المسلمين من عقول وأفهام تمتاز بإصرار عجيب ، وإيمان عميق ، تستطيع صنع حضارة متصلة بنبعهم الربانى الأصيل ، لولا مانراه من إحباط وإجهاض لكل فكر وكل طاقة وعزم ، لأمور عدة يستطيع الباحث العادى أن يضع يده على أسبابها المتعددة . لولا هذا السد المنيع بين الأمم الإسلامية وقرآنها ونبعها وتراثها ، ويبدو أن البروفسور « جب » يدرك معنا الهدف الشيطانى

---

(١) كفاح دين للغزالى ص ١٠٥ .

للاستعمار ، والسائرين فى فلكه ، فى إبعاد المسلمين عن قرآنهم ، إذ يقول : « لابد للحركة الحيوية من أن تنبعث فى الأمة الإسلامية ، عاجلا أو آجلا ، شريطة أن يبقى القرآن قوة حية فى حياة الأمة الإسلامية بكاملها »(١)

٣ـ مرونة التكاليف التى تأخذ بيد الإنسانية ، وتحفظ لها الحياة ، ولعل من أنسب ما يذكر فى مثل هذا المجال وهذا الصدد قرار مؤتمر الفقه الإسلامى ، الذى عقد فى كلية الحقوق بجامعةالسربون بفرنسا ، فى يوليو سنة ١٩٥١ ، وجاء فيه :

١ـ إن مبادىء الفقه الإسلامى لها قيمة حقوقية تشريعية لا تبارى .

٢ـ وإن اختلاف المذاهب الفقهية فيه ينطوى على ثروة هى مناط الإعجاب ، وبها يتمكن الفقه الإسلامى من أن يستجيب لجميع مطالب الحياة والتوفيق بين حاجاتها (٢).

٤ـ .قوة الارتباط والانضباط ، بحيث نجد أن إنسان هذه الحضارة مايزال يتحرك بها ، ويحرص عليها ، ويجاهد فى سبيلها بمقدار لا تستطيع أية مذاهب أو دعاوى أخرى أن تصل إلى جزء منه ، ولاغرو ، فهو بهذا يمارس أصالته وينطلق من جذور ذاته . وقد تمثل هذا فى مظاهر كثيرة ، رغم الضعف والهوان الذى لاقاه فى العصر الحديث وقبله ، فى بعدهم وضياعهم عن منهجهم وكتابهم وطريقهم ، وتراثهم ، مما سنعرض لطرف منه إن شاء الله .

مظاهر هذا التحدى :

بقوة عملاقة ، ودفعة هائلة ، حركت العقيدة الفطر المؤمنة ، والقلوب المسلمة ، وزودتها بصمود عجيب ، وتحد فريد ، فى مواجهة كثير من العواصف المدمرة والزلازل الماحقة ، التى واجهت الوجود الإسلامى والكيان الحضارى والعمرانى لدولته ، فى وقت فقدت فيه كثيرا من مكونات وجودها وعناصر بقائها ، بإخلادها

(١) المجتمع الإسلامى والتيارات المعاصرة ص ٣٩ .

(٢) محاضرة الدكتور محمد سلام مدكور فى مجلة المجتمع الكويتية العدد ١٩٧ ـ ٢٣ أبريل سنة ١٩٧٤ بعنوان التشريع الإسلامى والمجتمع المتطور ، وكتابه المدخل إلى الفقه الإسلامى .

إلى الأرض ، واتباعها للشهوات ، وجريها وراء الملذات ، ونومها عن أهدافها ورسالتها ، وتركها لأسلحتها وقوتها . ونستطيع أن نقرر بغير تردد ، فنقول :

إن الإسلام هو الذى حمى الوطن الإسلامى فى الشرق من هجمات التتار وتحدى زحفهم ، بعد أن سقطت أقنعة أخفت وراءها قوى هزيلة وأفكارا عفنة ، تخلت عن منهجها ورسالتها ، فتسببت فى تدمير هائل للقوى المادية والبشرية فى العالم الإسلامى .

هبت العقيدة الإسلامية بقيادة إسلامية روحية خالصة — قادها العز بن عبد السلام ، وابن تيمية ، وغيرهم ممن قادوا التعبئة الروحية ، وقاتلوا فى مقدمة الصفوف — حتى استطاعوا أن يدحروا الغازيين المتبربرين على أعقابهم لم ينالوا خيرا .

والمماليك الذين حموا هذه البقعة وردوا هذه الموجة التترية ، لم يكونوا من جنس العرب ، إنما كانوا من جنس التتار !! ولكنهم صمدوا فى وجه بنى جلدتهم الغازين ، حمية للإسلام ، وانتصار للعقيدة ، لأنهم كانوا مسلمين صمدوا بإيحاء من العقيدة الإسلامية ، وبوازع من الإيمان بالرسالة السماوية ، ولقد حمى صلاح الدين بالعقيدة البلاد والعباد ، من المطامع الصليبية والأحقاد الإفرنجية الزاحفة ، بعد أن تجمعت ملوك أوربا استجابة لأمر البابا ، وسارت فى حملة تجردت من كل صفة للإنسانية ، تسفك الدماء ، وتقطع الأشلاء ، فقتلت فى معرة النعمان وحدها مائة ألف نسمة ، وزحفت إلى بيت المقدس ، فقتلت فى القدس كل من وجدوه ، ولم يسلم منهم طفل أو شيخ أو امرأة وارتكبوا من الأعمال الوحشية ما يندى له الجبين . ولقد بلغ عدد القتلى فى بيت المقدس وحده — ٧٠ ألف نسمة [١] ، ولقد كان الإسلام يتحدى مع المقاتلين تلك الهمجية والعنصرية ، كما كان الإسلام المحرك الأول لضمير المظفر قطز والظاهر بيبرس فى كفاحهم للتتار والمخربين .

ولقد صمد الإسلام وصمد ، وما يزال يصمد لما هو أعنف وأقسى من هذه

---

(١) انظر فى ذلك معارك العرب الحاسمة صبحى عبد الحميد ص ١٦٤ .

الضربات الوحشية ، يتحدى ويجالد ، ويقف كالطود ، رغم المحاولات المستميته المدمرة التى توجه اليوم إلى طلائع البعث الإسلامى فى كل مكان ، ورغم المؤامرات التى تحيكها دول وعقول ، وقوى وتهاويل ، إلا أن الإسلام هو الإسلام ، والعقيدة هى العقيدة ، والتحدى هو التحدى ، فى كل ميدان ، فالإسلام هو الذى كافح الفرنسيين فى الجزائر على يد ابن باديس ، وحارب الطليان فى ليبيا بساعد عمر المختار . والإسلام هو الذى هب فى السودان فى ثورة المهدى الكبير ليجالد الإنجليز ، ويقلق الاستعمار البريطانى ، والإسلام هو الذى نازل الإنجليز فى القنال وأقض مضاجعهم . والإسلام هو الذى نازل العصابات اليهودية فى فلسطين ، ولقنهم درسا مازال فى أسماعهم للآن ، ويعملون له ألف حساب وحساب ، والإسلام هو الذى يكافح فى الفلبين وإرتريا ، والإسلام الآن هو الذى يقف أمام روسيا فى أفغانستان ، ويلوى عنان وذيل أعتى دولة فى العالم ، ويذهلها ، ويحيرها ، وينتصر عليها ، رغم قلة زاد الأفغان ونذرة سلاحهم وعتادهم . حتى روى شهود عيان كيف يستسلم الجنود الروس الذين يركبون الدبابات والعربات المصفحة إلى المجاهد الأفغانى المسلم ، بمجرد أن يهجم عليه بالعصا مكبرا لله سبحانه ، وعندما كان يسأل الروس عن سبب إنكسارهم كانوا يقولون أن معهم سلاحا جديدا اسمه : الله أكبر ، إذا نادوا به أحاطوا بنا وغلبونا على أمرنا . وكم للإسلام من تحديات وتحديات ، تظهر فى قوله تعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ [١] ، ﴿ وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ [٢] .

وفى قوله تعالى : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ [٣] ، وفى قوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ، وأنتم الأعلون ، والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم ﴾ [٤]، وقوله تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون

---

(١) آل عمران ـــ ١٢٦ .
(٢) الأنفال ـــ ١٠ .
(٣) البقرة ـــ ٢٤٩ .
(٤) محمد ـــ ٣٥ .

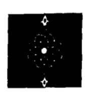
إن كنتم مؤمنين ، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ (٢) ، وفى قول الرسول ﷺ : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » (٣) ، وقوله ﷺ « تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهادا فى سبيلى وإيمانا بى وتصديقا برسلى ، فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه ، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة ، والذى نفس محمد بيده ما من كلم يكلمه فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئة حين كُلِم ، لونه لون دم ، وريحه ريح مسك . والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، وشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » (٤) . إن عنصر القوة كامن فى طبيعة الإسلام ، فى بساطته ، ووضوحه ، وشموله ، وأنفته ، وعزته ، وملاءمته للفطرة البشرية ، وتلبيته لحاجاتها الحقيقية كامن فى استعلائه عن عبودية العباد ، وعبوديته لله سبحانه ، فى رفضه التلقى إلا منه والخضوع إلا لله رب العالمين ، كامن فى قيمه العليا وفضائله وأخلاقه ، كامن فى روحانيته ، وثباته المذهل ، وسلطانه الخارق ، وتصريفه العجيب ، وحكمته البالغة .

ولهذا فإن أعداء الحق يعرفون قوته ، ويخبرون جبروته وسطوته ، وهم لهذا لا يهدءون من حربه ، ولا يستريحون من إطلاق حملات القمع والإبادة لمعتنقيه

---

(١) آل عمران ١٣٩ .
(٢) آل عمران ـ ١٤٦ ـ ١٤٧ .
(٣) مسلم ٢ / ١٠١ جهاد ، النووى ٨ / ١٢٥ .
(٤) مسلم ٢ / ٩٥ النووى ٨ / ٩١ جهاد أمارة .

والمنتسبين إليه ، كما أنهم لا يجتمعون من فرقه ، ولا يتحدون بعد شتات ، إلا لحربه والقضاء عليه ، ولكن هذا المناضل العنيد بخصائصه الفريدة يخنقهم ، ويسخر منهم ، ويهزأ بهم ، كما فعل ذلك بالأولين من المجرمين الكافرين ، وسنسمع من جديد قوله تعالى ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (١) .



(١) الصف — ٨ .

الفصل الثانى

مستقبل الحضارة الإسلامية

مستقبل الحضـــارة الإســـلامية

فى جو القرن العشرين ، وفى رحاب الحضارة الحديثة ، التى طوفت المشارق والمغارب ، وحكمت الأشخاص والجماعات والأمم ، واستولت على الحياة ، وأنشبت أظفارها فى كل شىء ، وَخلقت ألف واقع جديد ، وألف عرف مستحدث ، وحولت الأفكار ، وطوعت الأقلام ، وسخرت الإعلام ، وفى أجواء التقدم العلمى المذهل الذى كشف عن كثير من الأسرار ، وحول كثيراً من المجهول إلى المعلوم ، ومن المستور إلى المنظور ، ومن الخفى إلى الجلى ، وفى ظل أمم بلغت من العلم والفهم والعمق المادى مبلغا يظن بعض الناس أنه الكمال ، وقهر المحال ، وبلغت من القوة ماهيأ لها أنها ملكت الأرض ، واستولت على أجواز الفضاء ، ينظر الرائى لحال المسلمين وواقعهم ، وماهم عليه من فكر وعلم وتقدم ، فيحكم بالمقدمات على النتائج ، وبالمنظور على المجهول ، وباليوم على الغد ، فيخرج بنتيجة مظلمة ، ونظرة قاتمة ، عن المسلمين ومستقبلهم ، ولكن كثيراً ما تخدع البروق عن الحقائق ، والمظاهر عن المخابر ، فالحضارة التى بهرت الكثيرين ، وأخذت بألبابهم وعقولهم ، بما قدمت من زخرف وزينة وقوة وقهر وعلم وكشف ، لم تستطع أن تسعد الناس أو تحل الأمن والطمأنينة ، أو تحمى القيم وتحافظ على الخصائص الأساسية للإنسان فى الأرض ، بل كانت سوط عذاب على الإنسان ، وعلى حياته فى الأرض ، فلم تسعد أصحابها ، ولم ترحم جيرانها ، ولهذا كفر أصحاب العقول بها ، ونفض المصلحون أيديهم منها ، واكتوى بسعيرها الحاملون للوائها . وتفلت الناس من حميمها ، وأصبحوا يبحثون عن بديل يأوون إليه أو ملجأ يحتمون به .

وأما عن حال المسلمين البئيس وواقعهم الأليم ، فهو يحجب الرؤية ، ويعمى على معدن الإسلام الثمين وبياضه الأخاذ ، ولكن هذا لا يخدع الغواص عن درر

الإسلام المستقرة فى واقع الحياة ، ولا عن لآلئه المكنونة فى تعاليمه ، ولا عن سلطانه فى أعماق الفطر ، ولا عن بلسمه فى قواريره الشافية ، ولا عن أضوائه فى تلك الشموس المتوارية تحت السحب ، ولايضره ذهول المسلمين ونومهم ، أو يؤثر فيه انصرافهم ولهوهم ، ولكنهم هم الخاسرون والنادمون ، وإذا لم يصح هذا الكم النائم ، أو يرعو هذا الركب الذاهل ، فستنقشع بإذن الله سحبه ، وتزول قتامته، وتظهر للمستقبل رجاله ، وتعلوا رايته ، وتتقدم مواكبه ، وصدق الله : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[1] . وإنها لفترة أو غفوة ، لايلبث بعدها العملاق الحضارى أن يتحرك من جديد ، ويعمل عمله ، ويؤدى دوره فى الحياة . وقد سبق له ذلك ، واستقبلته الإنسانية بشوق وإعزاز ، وهى اليوم إليه أحسن وأشوق وأحوج ويقولون متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريبا .



(١) محمد ـــ ٣٨ .

المبحث الأول
بشـــريـــات

هناك تعاليم وآيات وبشريات ، هى كالنواميس الكونية التى لاتتخلف أو تتبدل ، لأنهما متفقان فى المصدر ، متوازيان فى الأثر ، متلاقيان فى العمل . عرفها المسلمون وآمنوا بها ، ولمسها أصحاب الحقائق ، ونظروا إليها ، من هذه البشريات وهذه الآيات : نصوص قرآنية . وأحاديث نبوية ، توحى بمستقبل هذا الدين ، وظهور نجمه ، وبزوغ شمسه ، واستجابة الفطر له ، وانقيادها لتعاليمه . من هذه الآيات قوله تعالى :

١ ـــ ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (١).
٢ ـــ ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (٢) .
٣ ـــ ﴿ ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (٣).
٤ ـــ ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئا ﴾ (٤).
٥ ـــ ﴿ اعملوا على مكانتكم إنى عامل ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ،

---

(١) التوبة ـــ ٣٣ .
(٢) الصف ـــ ٨ .
(٣) آل عمران ـــ ١٣٩ .
(٤) النور ـــ ٥٥ .

ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ (١).
٦ ـــ ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ (٢).
٧ ـــ ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾(٣).

كل هذه الآيات تبشر بظهور الإسلام ، وعلو شأنه وبزوغ نجمه ، وسيادة دعوته ، كما تنبىء بامتداد رقعته ، وكثرة أمته ، وهيمنة رجاله ، وقوة جنده ، وارتفاع شوكته ، فأما عن الآية الأولى وما بعدها من آيات ، فقد أوقفتنا على حقائق معينة ، منها قوله تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ﴾

الحقيقة الأولى : وهى إرسال الرسول بالهدى ، وتلك الحقيقة تحمل فى طياتها طبيعة هذا الدين وهى الهداية ، كما تحمل فى طياتها أمر الله بتلك الهداية ، فتكون قد جمعت الحقيقة بين الهداية فى المنهج وبين الإرادة الإلهية المصاحبة لها .

الحقيقة الثانية : وهى أنه دين الحق . دين الحق الذى تنتهى إليه الحقيقة فى كل شىء ، فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة . دين الحق الذى يلجأ إليه المظلومون والتائهون ، دين الحق الذى يفصل بين النور والظلام ، ويثوب إليه الناس هربا من هجير الباطل وحمأة الأهواء والشهوات .

الحقيقة الثالثة:﴿ليظهره على الدين كله ﴾ تبشر هذه الحقيقة مع ماسبقتها بظهور الإسلام على غيره من الديانات ، وعلو شأنه المستتبع لسيادة تعاليمه وعزة أمته ورفعة رايته ، يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ .

الحقيقة الرابعة : ﴿ ولو كره المشركون ﴾ ، وهو توكيد لقوله تعالى : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ فنور الله الذى قرر أن يتمه هو دعوة الإسلام ودعوة الحق والهداية ، وإذا أراد الله شيئا فلا راد

(١) الزمر ـــ ٣٩ .
(٢) الصافات ١٧٣ .
(٣) البقرة ـــ ٢٤٩ .

لحكمه ، فى الوقت الذى يشاء والزمان الذى يريد ، ومعارضة المشركين والكافرين لإرادة الله — المتمثلة فى هذا الدين ، وفى تلك الهداية — لا وزن لها ، ولا جدوى من عنادها ؛ لأنها محكوم عليها بالفشل . يعرف ذلك المسلمون والواثقون ، وقد بينه رسول الله ﷺ فى خطابه لهم قائلا : ﴿اعملوا على مكانتكم ، إنى عامل ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم﴾. وبعد هذه الحقائق ، فليست هذه نهاية المطاف ، وليست فترة من الزمن انقضت ومرت ، لأن وعد الله قائم ينتظر العصبة المسلمة التى تحمل الراية وتمضى لترى ذلك وتسمعه وتعيشه إن شاء الله .

ماورد من بشريات فى أحاديث الرسول :

ماسبق من آيات تبين إرادة الله فى هيمنة الإسلام وهدايته على الأديان كلها. وقد يظن ظان أن ذلك قد تحقق فى عهده ﷺ ، وعهد الخلفاء الراشدين ، والملوك الصالحين ، وليس كذلك ؛ فإن الذى تحقق إنما هو جولة من الجولات ، وجزء من وعد الله الصادق الذى لايتخلف ، وإن ما بين الحق والباطل من جولات مستمر مابقى الليل والنهار ، ومابقيت الحياة حياة ، يؤيد هذا ماأشار إليه رسول الله ﷺ حين قال : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقالت عائشة : يارسول الله : إن كنت أظن حين أنزل الله ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ أن ذلك تامًا ، قال : إنه سيكون من ذلك ماشاء الله »[1]

وقد وردت أحاديث أخرى عن رسول الله ﷺ توضح مبلغ ظهور الإسلام ، ومدى انتشاره ، بما لايدع مجالا للشك فى أن المستقبل للإسلام ولتعاليمه . منها :

أولا : قول الرسول ﷺ : « إن الله زوى (أى جمع وضم لى) الأرض ، فرأيت

---

(١) رواه مسلم فتن ٢ /٣٦٨ ، ونووى ١٠ / ٤٢٢ انظر تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد ص ١٢٢ .

مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها » [1].

فى هذا دليل على أن مشارق الأرض ومغاربها وأقطارها ووديانها ستكون إسلامية ، وستدخل تحت راية الإسلام ، وتسير بمنهجه ، وتحت كنفه . يؤيد هذا ويعضده قول الرسول ﷺ :

« ليبلغن هذا الأمر مابلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل به الكفر » [2].

ومما لاشك فيه أن بلوغ الإسلام هذا المبلغ يستلزم رجالا قادرين على تبليغ دعوته ، وحمله ، والجهاد فى سبيل الله ، وشرحه للناس ، كما يقتضى أن يعود المسلمون أقوياء فى معنوياتهم ومادياتهم ، حتى يكونوا جندا للحق ، يتغلبون على قوى الكفر والطغيان ، هذا إلى جانب تعاليم الإسلام ومبادئه ، التى تفتح مغاليق القلوب ، وتنفذ إلى خفايا الصدور ، وتعمل عملها فى الفطرة .

ثانيا : بشرى رسول الله ﷺ بالفتح والنصر الذى تحقق بعضه ، ومازال البعض الآخر ينتظر التحقيق .

وقد وردت فى ذلك آثار عدة عن رسول الله ﷺ ، سواء كان ذلك فى بدء الدعوة أو بعد انتصارها . فما حدث الرسول ﷺ به فى بدء الدعوة ما رواه البخارى فقال : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا بيان وإسماعيل ، قالا سمعنا قيسا يقول : سمعت خبابا يقول : أتيت النبى ﷺ وهو متوسد ببردة ، وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله ، فقعد وهو محمر وجهه ، فقال : « لقد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه

---

(١) الحديث رواه مسلم (٨ /١٧١) وأبو داود (٤٢٥٢) والترمذى (٢ / ٢٧) وصححه . وابن ماجه(رقم ٢٩٥٢) وأحمد (٥ / ٢٧٨ ، ٢٨٤) من حديث ثوبان وأحمد أيضا (٤ / ١٢٣ من حديث شداد بن أوس) .

(٢) رواه ابن ماجه فى صحيحه (١٦٣١ ، ١٦٣٢) وأبو عرنة فى المنتقى من الطبقات (٢ / ١٠ / ١) والحديث صحيح صححه العلماء وصححه الألبانى فى تحذير الساجد ص ١٢١ .

من لحم أو عصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه ، فيشق اثنتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، ما يخاف إلا الله عز وجل » وفى رواية والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » (١)

أخبر الرسول ﷺ ـــ وهو فى بدء أمره ـــ بظهور الإسلام ، واتساع أمره ، وعلو شأنه ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله عز وجل ، » وقد تحقق ذلك ، وفتحت البلاد ، وعم السلام والأمن .

ومن ذلك ما رواه ابن إسحاق والبيهقى وابن جرير عن الرسول ﷺ فى غزوة الخندق ، لما اعترضت صخرة ، فضربها رسول الله ﷺ ، فبرقت منها برقة ، ثم ضربها ثانية فبرقت برقة أخرى ، ثم ضربها ثالثة فبرقت أخرى ، فلما سئل عن ذلك قال : أما الأولى فإن الله فتح علىّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح علىّ بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح علىّ بها المشرق (٢).

وقد كان ذلك ففتح الله على المسلمين كل هذه الديار ، وقد كانت تلك البشرى فى شدة وضيق فى غزوة الأحزاب ، حيث تجمعوا على المؤمنين من كل حدب وصوب ، وتقوّل المنافقون ، وظنوا بالله الظنونا ، وقال القرآن حاكيا ذلك : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا (٣) ﴾ ، وقد كان الموقف جد شديد ، ذهبت الحلوم ، وزلزلت فيه الأقدام : ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا (٤) ﴾ ، وفى وسط هذه الزلازل التى لا يتماسك فيها الفرد تستبعد الوعود ، وتضيع الكلمات والأمانى ، ولكن هناك صنف يعتقد فى تلك الكلمات النبوية وضمها إلى النواميس التى لا تتخلف أو تحيد أو تبيد ، ﴿ ولما رأى المؤمنون

---

(١) رواه البخارى فضائل ٤ / ١٨٥ ، عينى ٧ / ٦١٤ ، عسقلانى ٧ /٤١ ، قسطلانى ٦ / ١٢٣ وأبو داود جهاد ـــ ٩٧ ، وأحمد ٥ / ١٠٩ ، ١١١ ، ٦ / ٣٩٥ .

(٢) رواه ابن كثير فى السير جـ ٣ / ١٩١ ، ١٩٢ تحقيق مصطفى عبد الواحد .

(٣) الأحزاب ـــ ١٢ .

(٤) الأحزاب ـــ ١١ .

الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، ومازادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾[1].

ومما روى عن رسول الله ﷺ من بشريات تحقق بعضها ومازال بعضها ينتظر التحقيق .

عن أبى قبيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل أى المدينتين تفتح أولا : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولا : أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مدينة هرقل تفتح أولا » ، يعنى قسطنطينية ،[2]« ورومية هى روما كما فى » معجم البلدان ، « وهى عاصمة إيطاليا اليوم ، وقد تحقق الفتح الأول ــ وهو القسطنطينية ــ على يد محمد الفاتح العثمانى كما هو معروف ، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبى ﷺ بالفتح ، وسيتحقق الفتح الثانى بإذن الله تعالى ولابد ، لإخبار الرسول ﷺ بذلك ، وقد تحقق الشطر الأول من نبوءته ﷺ ، ونحن نرقب ، وكذلك الإسلام يرقب تحقيق الشطر الثانى ، وهو هذا الفتح لرومية ، ولتعلمن نبأه بعد حين . ومن تلك البشريات التى بشر بها الرسول ﷺ قبل وجودها ، وتحققت بعده ، وكانت من معجزاته ﷺ : حديث مع أم حرام رضوان الله عليها ، فيما أخرجه مسلم عن أنس رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرامٍ بنت مِلْحَان ، فتطعمه ، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوما ، فأطعمته ، ثم جلست تفلى رأسه ، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك ، قالت : فقلت ما يضحكك يارسول الله ، قال : « ناس من أمتى ، عرضوا علىَّ غزاة فى سبيل الله ، يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأَسِرَّةِ ، أو مثل الملوك على الأَسِرَّةِ » ، « يشك أيهما قال :

---

(١) الأحزاب ــ ٢٢ .

(٢) قول عبد الله هذا أبو زرعة أيضا فى تاريخ دمشق (٩٦ / ١ وفيه دليل على أن الحديث فى عهده ﷺ) .

قالت : فقلت يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم فدعا لها ، ثم وضع رأسه فنام ، ثم استيقظ وهو يضحك ، قالت : فقلت : ما يضحكك يارسول الله ؟ قال : « ناس من أمتى عرضوا علىَّ غزاة فى سبيل الله » كما قال فى الأولى ، فقلت يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : « أنت من الأولين » ، فركبت أم حرام بنت ملحان البحر فى زمن معاوية ، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت[1] وقد تحقق ذلك عند غزو قبرص زمن معاوية . ويقول النووى عن هذا الحديث « فيه معجزة للنبى ﷺ ، منها إخباره ببقاء أُمَّتِهِ بعده ، وأنه تكون لهم شوكة وقوة وعدد ، وأنهم يغزون ، وأنهم يركبون البحر ، وأن أم حرام تعيش إلى ذلك الزمان ، وأنها تكون معهم ، وقد وجد بحمد الله تعالى كل ذلك ، وفيه فضيلة لتلك الجيوش ، وأنهم غزاة فى سبيل الله »[2].

وتظهر العظمة فى تلك المعجزة حين يتأمل الإنسان ، فى قول أم حرام لرسول الله ﷺ ـــ حين رأى الغزاة فى المرة الأولى ـــ ادع الله يارسول الله أن يجعلنى منهم ، فدعا لها أن تكون منهم ، ثم رأى الغزاة ﷺ فى المرة الثانية ، فقالت : ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال الرسول ﷺ لها : أنت من الأولين ، ولم يرض أن يدعو لها أن تكون من المجاهدين فى المرة الثانية ، لسبب يظهر عظمة الرسول ، وصدق نبوءته ، وهى أنها تموت فى المرة الأولى ، فكيف تخرج فى المرة الثانية مع المجاهدين ، ولو كان النبى ممن يوزع الوعود ، أو يعلل بالأمانى ، كما نرى من يفعل ذلك من أرباب الدنيا ومن مكفوفى البصيرة ، لقال لها وأرضاها بقوله أنت من الثانية ، وماذا يضيره من ذلك ، ولكن كلام النبوة يحمل من البصيرة ما يرى به ظهر الغيب ، وما يكون معجزة مثمرة كدعوته ، ممتدة كنوره وهديه ، يحفظها الزمان ، وتترسمها الأيام .

ثالثا : حديث رسول الله فى الأمراء ، وفيه يخبر رسول الله ﷺ أن حكم

---

(١) رواه أحمد (٢ / ١٧٦) والدارمى (١ / ١٢٦) وابن أبى شيبة فى المصنف (٤٧ / ١٥٣ / ٢) وأبو عمر الدانى فى السنن الواردة فى الفتن (١١٦ / ٢) والحاكم (٣ / ٤٢٢ ، ٤ / ٥٠٨) وعبد الغنى المقدسى فى كتاب العلم (٢ / ٣٠ / ١) وقال « حديث حسن الإسناد » وصححه الحاكم ووافقه الذهبى وهو كما قالا .

(٢) النووى على مسلم ١٣ / ٥٨ جـ ١ المطبعة المصرية .

المسلمين سيؤول بعد تشتت ، وملك عّاض ، وبغى ، وظلم ، إلى خلافة صالحة تستمر وبها يهتدى الناس ، وهذه الأجواء هى التى تصلح لدخول الناس فى دين الله أفواجا ، وتكون مثلا يحتذى ونورا يضاء به المشارق والمغارب . نرى الرسول ﷺ يبين ذلك فى خطبته فيما تحدثنا به كتب الحديث : روى الإمام أحمد قال : حدثنا سليمان بن داود الطيالسى ثنا داود بن إبراهيم الواسطى ثنا خبيب بن سالم عن النعمان بن بشير قال : كنا قعودا فى المسجد ، وكان بشير رجلا يكف حديثه ، فجاء أبو ثعلبة الخشعمى فقال : يا بشير بن سعد ، أتحفظ حديث رسول الله ﷺ فى الأمراء ؟ فقال حذيفة : أنا أحفظ خطبته . فجلس أبو ثعلبة ، فقال حذيفة : قال رسول الله ﷺ « تكون النبوة فيكم ماشاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إن شاء يرفعها ، ثم تكونْ خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت[1] » .

وهذا الحديث يبشر بوحدة المسلمين بعد فرقة ، وصلاحهم بعد شرود ، كما يبشر بأن الخلافة الإسلامية ستستمر بعد تلك الأطوار السابقة التى بينها الرسول ﷺ ، وهذا ينبىء عن مستقبل زاهر لتعاليم الإسلام وقيمه ، وعن خضوع ورضى بخلافته وحكمه ، وحب لعدله ومنهجه ، ولهذا تستمر خلافته ولا تتعرض للفتن والمنغصات ، دلالة على أنها ستستمتع بصفات البقاء والدوام ، لأنها محروسة بالعدل والحب والتوازن العقلى والفطرى والإنسانى .

رابعا ــ مبشرات بمستقبل اقتصادى ومادى زاهر للمسلمين ، لاستكمال قوتهم ، وعلو شأنهم ، فأرضهم القاحلة ستصبح مطمح الناس ، ومنبت الخير ،

---

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٧٣) ، ورواه الحافظ العراق فى محجة القرب إلى محبة العرب (١٧ / ٢) وقال هذا حديث صحيح ، وإبراهيم الواسطى وثقة أبو داود الطيالسى وابن حبان ، وباقى رجاله محتج بهم فى الصحيح . والحديث فى مسند الطيالسى (رقم ٤٣٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ١٨٩) رواه أحمد والبزار أتم منه والطبرانى ببعضه فى الأوسط ، « ورجاله ثقات » .

ومبعث النماء والاستثمار ، ومحط الرخاء ، وجنة الأرض ، عنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، نرى ذلك فيما يرمز إليه رسول الله ﷺ بقوله :

« لاتقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا [1] » ، والنماء والرخاء والسعادة المادية دائما تصحب الاستقرار والإصلاح والأمن ، كما أن وجود ذلك فى بلاد المسلمين تحقيقا لأخبار رسول الله ونبوءته يدل دلالة واضحة على أن تلك الأمة ستكون مرضيا عنها من الله ، وليس ذلك إلا باتباع منهجه ، والسير فى طريق طاعته ورضاه . ومعنى ذلك أنه ستكون للمسلمين حضارة زاهرة ، ومستقبل رغيد ، ترجع الناس إلى أنوار الحضارة الأولى ، تلك التى آثارت العالم ، وكانت مثالا فريدا مازالت فى ذاكرة الزمان ترانيمه وأهازيجه ومراعيه ، وأما ما ورد من أحاديث فى الفتن والشرور ، فيجب أن تفسر فى ضوء تلك الأحاديث . فمثلا من أحاديث الفتن : قول الرسول ﷺ « لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم [2] » ، فهذا الحديث ليس على عمومه ، بل هو على العام المخصوص ، يمثل فترة من الزمان ، وهى فترة الفتن التى صاحبت الخلافة الأولى ، وكانت فترة عصيبة ، حملت فى طياتها الكثير ، وصاحبت فترة أخبر الرسول عنها فى حديث الأمراء ، وهى فترة الملك العاض وأمثالها ، مما أشار الرسول ﷺ إليها ، فلا يجب أن تسحب على باقى الزمان ، وإن من يريد أن يعممها إما مسلم لم يملك الدراية الكافية ، أو عدو يريد أن يلقى فى قلوب المسلمين الوهن ، ويلفتهم عن عقيدتهم وحضارتهم وتعاليمهم ، لأنه يعلم أنها إن ظهرت لن تبقى للباطل دولة ، أو تذر للبغى صولة ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ﴾ [3] صدق الله العظيم .

الفرق بين المعجزات والتهاويل

يحس الإنسان العليم بالتاريخ أن هناك فرقا كبيرا بين المعجزات التى تتحقق للأنبياء ، وبين التهاويل التى يطلقها الزعماء والرؤساء والقادة على مر العصور ،

---

(١) رواه مسلم (٣ / ٨٤) وأحمد (٢ / ٧٠٣ ، ٤١٧) والحاكم (٤ / ٤٧٧) من حديث أبى هريرة .

(٢) رواه البخارى فى الفتن من أحاديث أنس مرفوعا .

(٣) الإسراء / ٨١ .

ويرفعونها كشعارات أو حسابات بشرية . يرى تحقق الأولى وصدقها ، وكذب الأخرى وتهافتها ، وإذا أردنا أن نتصفح التاريخ ، ونقلب صفحاته ، لنتحقق من صدق تلك النظرة وصواب هذا الواقع ، نرى أن عددا كبيرا من أذكياء الناس وعباقرتهم قد جرؤوا على أن يتنبأوا عن أنفسهم أو عن غيرهم ، ولكننا نعرف كذلك من التاريخ أن الزمان لم يصدق هذه النبوءات مطلقا ، بل جاء يكذبه بكل قسوة ، رغم ماكانوا فيه من فرص مواتية وأحوال مساعدة ، ورغم كثرة الأعوان والأعتدة والجند . وندع التاريخ يضرب لنا الأمثلة على ذلك .

١ ـــ كان نابليون بونابارت من أعظم قواد الجيوش فى عصره ، وقد دلت فتوحاته وانتصاراته على أنه صاحب موهبة فذة ومقدرة عجيبة على القيادة والإدارة ، تجعله ندا لقيصر ، والاسكندر المقدونى ، وكبار قادة التاريخ . وترتب على ذلك أن تسرب إليه الغرور ، وأخذته العزة بالإثم ، فأصبح يتوهم أنه ملك الدنيا بيمينه ، والقدر بشماله ، وازداد هذا الشعور لديه حتى ترك مستشاريه ، وادعى وتنبأ أنه سيملك العالم ، وأنه لن يقف أمامه شيء ، وأنه لا يعرف المستحيل . وماذا كان من أمره بعد ذلك ؟ لم يمض على نبوءته هذه إلا القليل ، وبالتحديد ستة أيام ، حتى كان طريد البؤس والشقاء والحرمان . ننظر إلى التاريخ يحدثنا عن ذلك ، فيقول : « سار نابليون يوم ١٢ من يونيه سنة ١٨١٥ مع جحفله وجيشه العظيم ، ليقضى على أعدائه ، ويملك الدنيا كما تنبأ ، ولم تمض ستة أيام حتى ألحق به « دوق ولنجتون » شر هزيمة فى معركة « ولتر » ، وفر نابليون هاربا بعد القضاء على جيشه ، متوجها إلى أمريكا ، ولكنه قبض عليه على الشاطىء ، ونفى إلى جزيرة « سانت هيلينا » ، ومات بها طريح البؤس والشقاء والوحدة والاحتقار .

٢ ـــ وأودلف هتلر الذى قال فى خطابه الشهير ، الذى ألقاه بميونخ فى ١٤ مارس سنة ١٩٣١ : « إننى سائر فى طريقى ، واثقا تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبا لى »[١] . وماذا كان بعد ذلك ؟ كان ما يعرفه العالم كله ، أن ذلك الجنرال العظيم

Astudy of History Abridgment) P.447.

كان مصيره الهزيمة والانتحار ، ووقوع أمته أسيرة ، ومازالت تعانى الأسر والتقسيم إلى اليوم .

٣ ــ كارل ماركس الذى كتب فى مايو سنة ١٨٤٩ قائلا : « إن الجمهورية الحمراء تبزغ فى سماء باريس ! » ورغم مرور ــ ١٣٧ عاما على تلك النبوءة ؛ فإن شمس الجمهورية الحمراء أبعد ما تكون عن فرنسا وباريس . ونحن نرى كل يوم نبوءة لزعيم أو رئيس يأبى الزمان إلا أن يردها على أعقابها ، فنرى من يقول أن العام عام رخاء أو عام الاستقرار ، فإذا به يكون عام القحط أو عام القلاقل والمصاعب وما إلى ذلك ، وكأنها نبوءات مسيلمة أو سجاح .

فأين هذه النبوءات من نبوءات الأنبياء وأصحاب الرسالات أمثال رسول الله ﷺ ، وأين هذه من نبوءات القرآن الكريم ، تلك النبوءات التى برزت فى وقت كان المسلمون فيه بينهم وبين النصر كما بين السماء والأرض ، لا يملكون من أسباب النصر إلا الإيمان الذى فى قلوبهم المنيرة . أما ما عدا ذلك من الأسباب الأرضية فلا يوجد منها شىء يلوح فى الأفق ، لا أمن ، لا رجال ، لا جيش ، لا دولة ، لا مال ، لا حرية . ووصل المسلمون إلى مرحلة اضطر الرسول أمامها أن يأمر أصحابه بالهجرة إلى جهات مختلفة ، فرارا من العذاب والجوع ، وأن يأكل ورق الشجر هو ومن معه ، وأن يسمع أنين المعذبين فى سبيل الله ، وأن يراهم يسحبون على وجوههم فى حر الرمضاء ، ويرى أثر الحديد المحمى على ظهور أصحابه ، ثم يقول بعد ذلك مبشرا ، « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يكون الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » . وتتحق تلك الوعود رغم كل ذلك ، ويحدثه القرآن بأنه ظاهر على الدين كله رغم كل العوائق والقيود والسدود : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ ،[1] ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾[2]. ويتحقق ذلك ، وينتصر

(١) الصف ــ ٨ ، ٩ .
(٢) المجادلة ــ ٢١ .

الإسلام ويغلب ، وسيظهر إن شاء الله على الدين كله ولو كره المشركون .

ويتعدى الأمر هذا النطاق ، فيبشر القرآن المسلمين بانتصار الروم على الفرس فى بضع سنين ، ويواكب هذا النصر نصر آخر للمسلمين فى بدر ، ليفرح المؤمنون بنصر الله . وقد جاءت البشارة بانتصار الروم على الفرس فى وقت كانت الروم مهزومة هزيمة منكرة ، أيأستها وأزالت كل أمل لها فى الوجود ، فضلا عن النصر . فقد أخذ الفرس العراق والشام ومصر وآسيا الصغرى ، وتقلصت الامبراطورية الرومانية فى عاصمتها ، وسدت الفرس عليها جميع الطرق فى حصار اقتصادى قاسٍ ، وَعَمَّ القحط ، ومشت الأمراض الوبائية فى الشعب الرومانى ، وبدأ الفرس عُبَّاد النار يستبدون ويستعبدون الروم للقضاء على المسيحية ، فأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ من المسيحيين المسالمين ، ودمروا الكنائس ، وأقاموا بيوت النار فى كل مكان ، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار ، واغتصبوا الصليب المقدس ، وأرسلوه إلى المدائن » . ويمكن قياس الذل والهوان والاستعباد الذى آل إليه هرقل الروم بشيئين — كمثل على هذا الضياع — :

أولهما : خطاب وجهه كسرى فارس إلى هرقل الروم من بيت المقدس الرومى ، قال فيه : « من لدن كسْرى ، الذى هو أكبر الآلهة ، وملك الأرض كلها ، إلى عبده اللئيم الغافل هرقل :
إنك تقول : إنك تثق فى إلهك . فلماذا لا ينقذك إلهك المقدس من يدى »[(١)]

ثانيهما : شروط الصلح التى كانت بين الروم والفرس ، التى رضى الفرس أن يعفوا بمقتضاها عن الروم ، ويكفوا عن مهاجمة ما بقى تحت أيديهم ، وهى :

« أن يدفع ملك الروم » ألف تالنت « التالنت ٢٦ كيلو جرام » من الذهب ، وألف تالنت من الفضة ، وألف ثوب من الحرير « الثوب ثلاثة أمتار » ، وألف جواد ، وألف فتاة عذراء[(٢)] ولهذا استبد القنوط واليأس بهرقل من هذه

---

(١) الإسلام يتحدى — لوحيد الدين خان ص ١٩٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٨ .

الأحوال السيئة ، وحاول الفرار وترك الامبراطورية ، وبعد لأى واستعطاف باسم المسيح والدين من كبير الأساقفة رضى هرقل أن يلغى فكرة الهروب . فى هذا الجو الكئيب ، يبشر القرآن أتباعه بغلبة الروم ، بل ويتحدى المشركين بذلك فيقول : ﴿الٓمٓ غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾[1].

« يروى ابن جرير بإسناده عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم فلما نزلت : ﴿الٓمٓ غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين﴾[2]قالوا : يا أبا بكر ، إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين . قال صدق . قالوا : هل لك أن نقامرك « أى نراهنك » ، فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شىء ، ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : ما بضع سنين عندكم قالوا : دون العشر ، قال : « اذهب فزايدهم ، وازدد سنتين فى الأجل » . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس . ففرح المؤمنون بذلك[3] » وكان النصر للروم ، وكان تحقيق وعد الله سبحانه الحتمى ، لأن هذا الوعد طرف من الناموس الأكبر الذى لا يتغير ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ولو بدا فى الظاهر أنهم علماء ، وأنهم يعلمون الكثير الذى يتعلق بظواهر الحياة ولا يتعمق أسرارها وسننها الثابتة ، فهذا النصر الذى كان مستحيل التحقق بعيد المنال لما تعلق بوعد الله سبحانه صار حقيقة فى عالم الواقع والحياة ، يوثق بها ، ويركن إليها ، ويراهن عليها ، ونظر بأسبابها ، بغير تعارض مع المشيئة والنواميس التى تصرف هذا الوجود . فقد أرادت المشيئة أن تكون كلمات الأنبياء ووعود الوحى قوانين لا

---

(١) الروم — ١ — ٦ .

(٢) الروم — ١ : ٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٢٣ ط المعرفة بيروت .

تتخلف ، لأنها صادرة من علم كاشف ، ونور باهر ، وإرادة قادرة . فأين هذا من وعود المغرورين المغفلين ، الذين يعلمون ظواهر الأشياء وقشورها ، ولا ينفذون إلى لبابها وأعماقها ، ولهذا ، كانت الأولى صادقة لا تتخلف ، لأنها تصدر عن علم وفهم وقدرة ، والأخرى كاذبة قاتمة ، لأنها بغير نور ولا هدى ولا علم .

أمة غلابة :

هذه الأمة هى قدر الله الغالب ، وأمره النافذ ، وسنته الباقية . وصدق الله ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[1].

هذه الأمة طبيعتها الغلبة والهيمنة والريادة والتميز : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾[2]. وملامح هيمنة هذه الأمة تتمثل فى عناصر معينة ، منها : أنها **غلابة بوحدتها** :

فهى أمة واحدة ، متماسكة البنيان ، قوية الأركان ، واضحة الغاية ، جيدة الأحاسيس ، علمت ذلك من قرآنها فى قوله تعالى : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾[3].

إذا فوحدة هذه الأمة ترتكز على ثلاث عناصر :

الأول ــ وحدة فى الغاية والوجهة والهدف .
الثانى ــ وحدة فى الأفكار والمفاهيم والثقافة .
الثالث ــ وحدة فى المشاعر والأحاسيس .

وقد ربط الحق سبحانه هذه الوحدة بسياج ربانى ، جمع بينها بعد فرقة ، وألف بينها بعد عداوة ، فقال سبحانه : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ،

---

(١) الصافات ــ ١٧٣ .
(٢) آل عمران ــ ١١٠ .
(٣) المؤمنون ــ ٥٢ .

واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾[1]. وقد وصف الرسول ﷺ المشاعر المشتركة بين المسلمين فى قوله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر »[2].

عالمية رسالتها :

أمة تحمل رسالة عالمية ، فليست أمة قومية أو إقليمية ، بل أمة عالمية جامعة ، وضعها الله ميزانا للبشرية ، فى السلوك ، وفى الخلق ، وفى العدل ، وفى العلاقة الربانية . وصدق الله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[3] .

عالمية بقوتها :

أمة رهبانيتها الجهاد ، ورزقها تحت رمحها ، مجندة للحق ، مدافعة عنه ، مزهقة للباطل ، ماحقة له ، اشترت الجنة بالنفوس والأموال : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[4]، تجارتها فى الدنيا وغايتها وحياتها وعملها ؛ الثواب والمجد ورضاء الله : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت ﴾[5]. « انتصرت قديما بما لا يخفى على أحد ، وضعفت بتركها لمنهجها ، ولكنها تحمل روح المقاومة والتحدى ، تراها إذا نزلت بها النوازل القاصمة أشد ما تكون قوة وأصلب ما تكون عودا ، حتى أن الناس ليظنون بها الظنون ، ويحسبونها فى عداد الهلكى ، فإذا هى فى فترة وجيزة ، تتغلب على عوامل الضعف المحيطة بها ، بروح القوة المكنونة فى أعماقها ، فيرون انتصارا بعد انكسار ، واجتماعا بعد شتات ، وحياة وحركة بعد جمود وهمود . رأينا ذلك فى

---

(١) آل عمران ــ ١٠٣ .

(٢) مر تخريج هذا الحديث .

(٣) البقرة ــ ١٤٣ .

(٤) التوبة ــ ١١١ .

(٥) الأنعام ــ ١٦٢ .

حروب الردة ، ورأيناه فى الحروب الصليبية ، ورأيناه فى حروب التتار ، ورأيناه حديثا فى الجزائر ، وفى إرتريا ، وفى الفلبين ، وفى أفغانستان ، وهذه إرهاصات لقيام العملاق وتحرك المارد ، تتمثل فى الحركات الإسلامية المتململة المنتفضة ، التى تكون طلائع لابد منها لبلورة الفكر العملى والحركى للإسلام ، ولهذا نجد جانبا من المستشرقين والدارسين والمتخصصين لطبيعة ديننا وخصائص أمتنا ومذخور طاقتنا يدركون بعض تلك الحقائق الموجودة فى طبيعة هذه الرسالة ، وفى أعماق تلك الأمة ، فيحسبون لها ألف حساب ، بل يساورهم وهم مفزع من خشية انطلاقها فى يوم من الأيام .

يقول البروفيسور « جب » فى كتابه « وجهة الإسلام » : « إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة ، تدعو إلى الدهشة . فهى تنفجر انفجارا مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة فى أمرها . إن الحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة ، لا ينقصها إلا صلاح الدين من جديد [(١)].

وكتب الرحالة الألمانى « بول شيمتز » كتابا خاصا بهذا الموضوع سماه « الإسلام قوة الغد » ظهر سنة ١٩٣٦ ومما قال فيه :

« إن مقومات القوى فى الشرق تنحصر فى عوامل ثلاثة » :

١ ـــ فى قوة الإسلام كدين ، وفى الاعتقاد به ، وفى مثله ، وفى مؤاخاته بين مختلفى الجنس واللون والثقافة .

٢ ـــ وفى وفرة مصادر الثروة الطبيعية فى رقعة الشرق الإسلامى ، الذى يمتد من المحيط الأطلسى على حدود مراكش غربا إلى المحيط الهادى ، على حدود أندونسيا شرقا ، وتمثل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ، ولاكتفاء ذاتى ، لا يدع المسلمين فى حاجة مطلقا إلى أوربا أو إلى غيرها ، إذا ما تقاربوا وتعاونوا .

---

(١) الأمة القطرية ، العدد الأول السنة الأولى ص ١١ .

٣ ــ وأخيرا أشار إلى العامل الثالث ، وهو خصوبة النسل البشرى لدى المسلمين ، مما جعل قوتهم العددية متزايدة . ثم قال : فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث ، فتاخى المسلمون على وحدة العقيدة ، وتوحيد الله ، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم ، كان الخطر الإسلامى خطرا منذراً بفناء أوربا ، وبسيادة عالمية فى منطقة هى مركز العالم كله ... »

ثم يقول ويقترح لصد هذا الخطر الذى صوره ماحقا لأمته : أن يتضامن الغرب المسيحى شعوبا وحكومات ، ويعيدوا الحرب الصليبية فى صورة أخرى ملائمة للعصر ، ولكن فى أسلوب نافذ حاسم (١). « وقال روبرت بين فى مقدمة كتابه « السيف المقدس » : « علينا أن ندرس العرب ، ونسبر أفكارهم ، لأنهم حكموا العالم سابقا ، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى ، سيما والشعلة التى أضاءها محمد لاتزال مشتعلة بقوة ، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ . ولهذا ألفت هذا الكتاب لكى يقف القراء على أصل العرب ، وسميته باسم السيف ذى النصلين ، الذى ناله محمد فى موقعة بدر ، تذكارا لانتصاره ، لأن السيف أصبح رمزا لمطالب الامبريالية (٢).

هذه ملامح تلك الحضارة التى ترهب الباطل ، وتبعث الأمل فى نهضة جديدة على الحق وللحق ، وفى الخير وللخير ، ليرتاح المكدود ، ويستظل من هجير الصراع ، ولكن الباطل يدبر ولا ينام ومعه الأهوال من العناد ، وقد عودنا الإسلام التحدى والغلبة فى النهاية . إن الله لقوى عزيز .

---

(١) انظر الكتاب الذى ترجمه من الألمانية إلى العربية الأستاذ الدكتور محمد عبد الغنى شامه تحت عنوان « الإسلام قوة الغد العالمية » نشر مكتبة وهبة القاهرة . وقد أخذت هذه الفقرة من محاضرة الدكتور محمد البهى ومن ترجمته .

(٢) السيف المقدس » ص ١٧ من الكتاب الإنجليزى ، وقد نقل هذه الفقرة الدكتور القرضاوى فى بحثه عن الأمة الإسلامية » .

المبحث الثانى
حاجة الإنسانية إلى الرقى

تحتاج الإنسانية إلى الرقى النفسى والروحى ، كما تحتاج إلى الرقى المادى ، بل إن الرقى النفسى ألزم للإنسان وأفضل ، بل هو حياته الآدمية وقيمته البشرية ، فبقدر رفعته ورقيه الروحى والنفسى تكون قيمته ، ويكون أيضا سروره وسعادته ، والإنسانية اليوم جوعى إلى الرقى الروحى والنفسى ، تبحث عنه أكثر مما تبحث عن الطعام ، لأنها تريد أن تعيش حياتها بطبيعة الإنسان ، لا بِنَهم الحيوان ، وبشفافية الروح ، لا بقتامة الطين ، والنظام الذى يحقق لها توازنها واتزانها ، فلا يهمل الجسد ، ولا يتخلى عن الروح ، ولا يطلق الشهوات ويقيد القيم ، وإنما يساير الفطرة ، ويرعى الطبيعة ، هو الذى سيسود ويبقى ، ويرسخ ويثمر ، ويؤتى أكله .

والحضارة الحديثة اليوم — وباعتراف أبنائها وعلمائها — لم تعط العلوم الإنسانية أو القيم الروحية أو النزعة الخلقية الاهتمام اللازم لحفظ الإنسان وسعادته ، بل زادته حيرة وتعقيدا وشرودا ؛ لأنها نباتات أهواء لا جذور لها ، مبتوتة الصلة بالعقائد والديانات ، فلم تنبثق لذلك من نبع صاف ، ولم تأت من معين سليم ، بل قامت على أساس مناقض للعقائد والروحانيات ، فصادمت فطرة الإنسان وفطرة الحياة معا ، ولم تراع فى الأسس التى قامت عليها ، ولا الوسائل التى اتخذتها ، ولا فى الطريق التى سارت فيه .. لم تراع فى هذا كله احتياجات الإنسان الحقيقية المنبثقة من طبيعة تكوينه ، وأصل خلقته ، وحقيقة فطرته ، وأهملت إهمالا شنيعا أهم مقوماته التى صار بها الإنسان إنسانا — بل طاردتها فى جفوة وعنف واشمئزاز ، واحتقرتها وسفهت معتنقيها ، ولهذا فهى لا تلبث أن تحمل عصاها وترحل إنْ عاجلا

أو آجلا ، لانتهاء دورها التى خدعت به الكثيرين وأذاقتهم العلقم والصاب .

ولهذا يقول الفيلسوف الإنجليزى « برتراند رسل » :

« لقد انتهى العصر الذى يسود فيه الرجل الأبيض . وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانونا من قوانين الطبيعة . وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياما رضية كتلك التى لقيها خلال أربعة قرون » . وبصرف النظر عن الأسباب التى دعت « برتراند رسل » لأن يلقى هذا القول ، ويتنبأ بهذا التنبؤ ، فإن الحضارة الغربية قد استنفذت أغراضها المحدودة القريبة ، ولم يعد لديها ما تعطيه للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادىء وقيم ، تصلح لقيادة البشرية ، وتسمح لها بالنمو والترق الحقيقى للعنصر الإنسانى ، وللقيم الإنسانية ، وللحياة الإنسانية . لقد أصيبت بالعقم بعد ما ولدت من أفكار التحرر ضد العبودية والاستغلال والإقطاع والتسلط ، من أمثال الثورة الفرنسية ومبادئها ، ومبادىء الحرية الفردية ، وحقوق الإنسان ، وأمثال ذلك من مبادىء انتهى دورها الآن ، بعد عبودية الإنسان واستغلاله بطرق أخرى مختلفة ومتنوعة ، اقتصادية ، ونفسية ، وحزبية ، وعرقية ، وغير ذلك . انتهى دورها لأنها كانت قيما وقتية محدودة ، تروج فى فترة خاصة ، وتواجه حالات محدودة ، وأوضاعا خاصة ، ولم تكن تلك الأفكار رصيدا متجددا لبنى الإنسان لصنع غاية ، وهدفاً يصلح للبقاء مدة أطول من الفترة التى عاشتها تلك الأفكار الموقوتة ، وقد يشبهها الإنسان بالجماعات التى تقوم بشعارات معينة لأهداف محدودة فى ذلك الزمان ، كالاستقلال ، والحرية ، والديمقراطية ، وما إلى ذلك . فإذا خرج الاستعمار ، ونالت الحرية ، وحكمت بالديمقراطية — ولو شكلا — فلا يحق لها بعد ذلك أن يكون هذا هو شعارها الدائم ، أو هدفها الوحيد ، خاصة إذا انقلبت هى مستعمرة ، ورائدة للحريات ، وحامية للقهر والظلم والبهتان .

العناصر الحقيقية للرق والسيادة :

هناك عناصر حقيقية للرق والتقدم والسيادة والقوة ، هى بمثابة عصب لكل أمة ناهضة ، وقلب لكل شعب متقدم ، وتلك العناصر الحقيقية تتمثل فى المبادىء

التى تقوم عليها حضاراتها ، ورسوخ هذه المبادىء فى القلوب ، وهيمنتها على الأعمال ، وهذه العناصر الثلاثة هى : باستقامة المبادىء ، والإيمان القوى بها ، وهيمنتها الكاملة على الحياة العملية ، هى فى حياة الأمم بمكان الأس المتين ، والجدار القوى ، والعماد المحكم البناء . فالأمة التى توفرت فيها هذه الأمور ، تصبح سامقة البناء ، سليمة الأرجاء ، قوية متقدمة حضارية ، ممتدة التقدم والرقى . ومقاييس الأمة القوية الغالبة المسيطرة ليست منازلها ، ولا ملابسها ، ولا مراكبها ، ولا مرافق حياتها الناعمة ، ولا فنونها اللطيفة ، ولا مصانعها ، ولا كلياتها فحسب ، بل مبادئها ، وغاياتها ، وقناعتها ، وأعمالها على وفق مبادىء سليمة وغاية واضحة وقيم عليا ، بذلك تعلو كلمتها فى الأرض ، وينبسط نفوذها بين الأمم ، وإن كانت تسكن الأكواخ ، وتلبس الأسمال ، وكان أفرادها ضامرى البطون من إلحاح الفاقة ، ولم تكن فى مدائنها كليات أو مصانع أو قصور ، فإن كل هذه الأشياء التى يعدها البعض أسبابا للرقى ومظاهر للتقدم إذا فقدت المقاييس الصحيحة ، تكون بمثابة نقوش وألوان وتهاويل وأغطية لبناء منهار خرب ، لا يمنعه هذا المظهر الخادع من السقوط والانهيار .

الإسلام والعناصر الحقيقية للرقى :

هذه العناصر الحقيقية للرقى والريادة لا توجد كاملة إلا فى الإسلام ، حيث يحمل بين ثناياه استقامة فى المبادىء ، وإيمانا قويا بها وبتحقيقها ، ينتج هيمنة على الحياة العملية هيمنة كاملة ، تصنع مُثُلا ونماذج دائمة العطاء ، غزيرة الإشعاع ، قوية الإرادة ، تستطيع بناء الحضارات وتحمل أعبائها ، هذه حقائق ثابتة راسخة بنى عليها القرآن الكريم منهجه الحضارى الإنسانى ، ولهذا وصفت مبادىء الإسلام بأنها توافق الفطرة الثابتة المستقيمة التى فطر الله الناس عليها ، ومن أجل هذا تمكنت تلك المبادىء فى القلوب ، وأشربتها الصدور ، وأقام المسلم حياته عليها ، ماتركت من صغيرة ولا كبيرة إلا وضحتها وبينتها . قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ . ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُون ﴾ [1] ، ﴿ وَمَاأُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين حُنَفَاءَ ،

---

(١) الروم — ٣٠ .

وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ . وذلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ ﴾[1]، ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾[2] ﴿ قُلْ إنَّ صَلاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيايَ وَمَماتِى للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وأناْ أَوَّلُ المُسْلِمِينَ ﴾[3] ومنهج القرآن فى تربية الأمة المسلمة . واضح وميسر ومستقيم وناجح ، يقصد إلى القلب والنفس والروح ، فيعالجهم ، فتستقيم بهم الأعمال والأفعال والحياة ، فمثلا لم يعرض القرآن على المسلمين ـــ لكى يكونوا مسلمين ـــ منهجا صناعيا أو عمرانيا أو علميا أكاديميا ، كما لم يأمرهم أن يؤسسوا الشركات والجامعات ، ويصنعوا السفن ، ويفتحوا المصارف ، أو يحاكوا الأمم الراقية فى اللباس والعادات . وإنما أعطاهم مفتاح ذلك كله ، وأسباب هذا جميعه ، وهو الإيمان والعمل الصالح . أعطاهم الإسلام وتعاليمه وقيمه ، أعطاهم قوانين الفطرة ؛ ومفاتيح الإنسانية التى بها يكون الإنسان إنسانا ، ويكون مع ذلك مسلما وحضاريا ، فإذا تحلى بها واتبع قوانينها تحقق إسلامه وحضارته ، وإن لم يكن يملك شيئا ما عدا الإسلام ، وبالعكس من ذلك ، إن هو تحلى بكل ما يُعَدُّ من زينة الحياة الدنيا ، ولكن لم يعمر قلبه الإيمان ، ولم يشربه نفسه ، ولم تتميز حياته باتباع قوانين الإسلام ، فقد يكون مهندسا عظيما ، أو طبيبا بارعا ، أو قائدا شجاعا ، أو صانعا ماهرا ، ولكنه لا يملك أن يكون مسلما أو حضاريا .

ومن ثم لا يكون الرقى أو الحضارة أو التقدم الحقيقى إلا بتحقق تلك المعانى والقيم ، التى بدونها لا يكون الرقى رقيا ، أو التقدم تقدما واستقرارا . وما يريده الإنسان من صناعة أو عمران أو علم سيكون ثمرة لتلك التعاليم ، ونتيجة لهذه المقدمات ، ولكنها ستكون ثمرة مباركة ، ونتيجة طيبة ، لأنها من شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وليست من شجرة اجتثت

---

(١) البينة ـــ ٥ .
(٢) النور ـــ ٥٥ .
(٣) الأنعام ـــ ١٦٣ .

من فوق الأرض مالها من قرار ، ولهذا كانت حضارة الإسلام جيدة النوع ، ممتازة الثمر ، حلوة الطعم ، هنية المذاق ، وكان غيرها مرا حنظليا خبيثا واهنا ، لأنها تعتمد على القوى المادية فقط . والذين يعتمدون على القوى المادية فقط إنما يعتمدون على أشياء لا قوة لها بنفسها ، ويفضى هذا الاعتماد على شيء لا قوة له ، إلى ضعف ووهن وضياع ، ويصبح كل ما يفعله الإنسان من قوة ، ونظم ، وتعاليم ، وزخرف ، وحضارة ، واهنا كبيت العنكبوت ، وصدق الله : ﴿ مَثَلُ الذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ كَمَثِلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وإنَّ أَوْهَنَ الْبُيوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمون ﴾ [١].

عناصر البقاء فى الحضارة الإسلامية :

كون الرسول ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وإخبار الله عن ذلك فى القرآن الكريم بقوله سبحانه ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أبا أَحَدٍ مِن رجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [٢]، وكونه بعث للناس كافة ، ولم يبعث للعرب خاصة ، كما أوضح هذا القرآن الكريم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً للنَّاسِ بَشيراً وَنَذِيراً ﴾ [٣] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعَالَمين ﴾ [٤] ، وكون شريعته ﷺ جمعت رسالات الأنبياء والمرسلين : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ ماوَصَّىٰ بِهِ نُوحاً والَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَماوَصَّيْنَا بِهِ إبراهيمَ وَمُوسى وَعيسى أَنْ أَقِيموا الدِّينَ وَلا تَتفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [٥] ، وكونه تعالى تأذن بحفظ الشريعة والرسالة ، بحفظ القرآن الكريم : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلنَا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [٦] ، وكون معجزة القرآن العقلية باقيةً تتحدى الإنس والجن إلى يوم القيامة ، كل ذلك يدل دلالة واضحة أن هذه الرسالة جاءت لتبقى ، وصيغت تعاليمها لتدوم ، وأن هذه الرسالة تحمل بين طياتها أسباب هذا البقاء ، وخصائص هذا الدوام ، ومن تلك الأسباب والخصائص : كونها دينا للحياة الكريمة .

---

(١) العنكبوت — ٦١ .
(٢) الأحزاب — ٤٠ .
(٣) سبأ — ٢٨ .
(٤) الأنبياء —١٠٧ .
(٥) الشورى — ١٣ .
(٦) الحجر — ٩ .

منهج حياة متكامل :

منهج الإسلام منهج حياة متكامل ، يربط الفطرة بالوجود ، ويفتح النوافذ بين الوجود والفطرة ، ويدع هذا الوجود الهائل يغمر الفطرة ، ويحيطها بسياج من الجلال والروعة ، ولهذا يكثر فى القرآن الكريم الحث على التطلع والنظر فى الكون والعوالم وتدبر صنعة الله فيها ، إن المنهج الإسلامى لا يقدم للفطرة جدلا لاهوتيا ذهنيا نظريا كلاميا ، ولا يقدم إليها فلسفة عقلية أو حسية ، إنما يقدم لها هذا الوجود ، تتفاعل معه ، وتتأمل فيه ، وترتبط به ، وتستدل بعظمته ، وتسترشد بروعته ، يقدم التفسير الكامل للوجود ، وعلاقته بخالقه ، ومركز هذا الإنسان فيه ، فالله الذى خلق هذا الكون وسخره ، وخلق هذا الإنسان وبصره ، هو الذى أخضع الإنسان لنواميسه التى أخضع لها الوجود الكونى ، وهو سبحانه الذى سن للإنسان « شريعة » لتنظيم حياته الإرادية تنظيما متناسقا مع حياته الطبيعية . ولهذا جاء منهج الإسلام متناسقا مع ميول الإنسان ورغباته الخيرة ، دافعا لها إلى الكمال والجلال والسمو ، جاء بتعاليم جديدة ، رسمت للحياة مثلا أعلى ، يخالف المثل الذى كانت ترسمه تقاليد الجاهلية وتقاليد فارس والروم والأديان المحرفة .

احترام العقل :

الإنسان خلق وله عقل : إذا فلابد أن يحترم هذا العقل وأن يناقش فى القضايا ، كبيرها ، وصغيرها ؛ ليمارس مهمته ، ويؤدى ما خلق من أجله : ﴿ وَلَا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أولئك كانَ عَنْهُ مَسْئُولا ﴾ [1] يناقش حتى فى مجال الربوبية : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، أَرُونى ماذا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهَمْ شِرْكٌ فى السَّمواتِ ؟ ائتونى بِكتابٍ مِنْ قَبْلِ هَذا ، أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُم صادِقِين ﴾ [2] ، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ [3] ، ﴿ وإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بى ما لَيْسَ لَكَ بِهِ

---

(١) الإسراء ـــ ٣٦ .
(٢) الأحقاف ـــ ٤ .
(٣) الحج ـــ ٨ .

عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾[1] من حقه أن يناقش كيف خلق ، وكيف خُلِقَ هذا العالم ، وكيف وُجِدَت هذه الحياة من حوله : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرائبِ ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾[2] ، ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسانُ إِلى طَعَامِهِ ، أَنَّا صَبَبْنا الماءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنا الأَرضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا ، وَعِنَباً وَقَضْباً ، وَزَيْتوناً وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْباً ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ، مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾[3] ، ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ، كَيْفَ بَنَيْنَاها ، وَزَيَّنَّاهَا ، وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ . وَالأَرْضَ مَدَدْناها ، وَأَلْقَيْنَا فِيها رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾[4] ، ﴿ إِنَّ فِى السَّمواتِ وَالأَرضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنينَ . وفى خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آياتٌ لِقَومٍ يُوقِنُونَ ، واخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آياتٌ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ ﴾[5] ، إذاً ، هذا العقل خلق للحياة وليعيش به الإنسان ، فكيف يتجاهله منهج من المناهج ، وكيف لايرشد هذا العقل ويستثمر ، وكل منهج لا يرعى ذلك لا يكون منهج حياة . ولهذا جاءت تعاليم الإسلام مبنية فى كل شيء على أساس هذا العقل . فلا تكليف إلا بالعقل وبرشده ، لقول الرسول ﷺ ـ « رُفع القلم عن الصغير حتى يبلغ »[6] .

والقاعدة الفقهية : لا عقاب إلا بكمال العقل وسلامته ، فالصبى غير محاسب حتى يرشد ، والمجنون غير مؤاخذ حتى يفيق ، والنائم غير آثم حتى يصحو . إذاً فلابد لكى يقوم الإسلام ويسود ، لابد له من العقل ، ولكى تنفذ أحكامه لابد لها من العقل أيضا ، ولهذا حرم الإسلام كل مايستر العقل ، فحرم الخمر وكل مايغتال العقل ويكبله ، وكل مايلهيه ويصرفه ، وكل مايلغيه ويستبدل به الخرافات ، قال تعالى : ﴿ إِنَّما الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ

---

(١) العنكبوت ـ ٨ .
(٢) الطارق ـ ٥ ـ ٨ .
(٣) عبس ـ ٢٤ ـ ٣٢ .
(٤) ق ـ ٦ ـ ٨ .
(٥) الجاثية ـ ٣ ـ ٥ .
(٦) رواه أحمد ١ / ١١٦ ، أبو داود ـ حدود ١٧ .

تُفْلِحُونَ ﴾[1]. فمنهج بهذا القدر من السمو ، يحافظ على العقل ، ويحترمه ، وينشطه ، ويرشده ليؤدى دوره فى حياة وهب الله فيها الإنسان قوة ميزته وكرمته على سائر خلقه ، ويتفاعل معه ، ويتحد فى كل جانب من جوانب شريعته وعقيدته ، يستحق هذا المنهج البقاء والخلود والاستمرار والغلبة .

عطاء هذا المنهج :

يوصف هذا المنهج بأنه منهج عطاء بغير حدود ، لا يستعبد أحدا ، بل يتعاون مع الناس ويتآخى ، ولا يَبْغِ على أحد ، بل يتواد معه ويتحاب . حب إنسانى خالص ، ورحمة إنسانية مبرأة ﴿ يَاأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها ، وَبَثَّ مِنْهُما رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَاءً ، واتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَساءَلُونَ بِهِ والأَرْحامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقيباً ﴾[2] ، « لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا »[3]. فهذا المنهج لا يقر العنصرية ، ولا يعترف بالعصبية ، ولا يفرق بالألوان والأجناس ، ولكن يدعو إلى أخوة عامة عادلة رحيمة معطاءة لبنى الإنسان ، وأين هذا من تلك المناهج التى تقسم الجنس البشرى ــ ظلماً ــ إلى مبتكرين ، ومحافظين ، ومخربين ، أو إلى آريين ونورمانديين ، وغير ذلك من الأقسام التى سبق أن تكلمنا عنها ، يقصدون بذلك استباحة غيرهم ، وأخذ إمكاناتهم ، والسيطرة عليهم ، وهضم حقوقهم ، والحقيقة أن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب ، هذا المنهج يأمر بإعطاء المحتاج ، ومساعدة الضعيف ، ومواساة المرضى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذى يُكَذِّبُ بالدِّينِ ، فَذَلِكَ الَّذى يَدُعُّ اليَتِيمَ ، ولا يَحُضُّ على طعام المِسْكِينِ ، فَوَيْلٌ للمُصَلِّينَ ، الَّذينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ ﴾[4] هذا المنهج دستوره العدل فى كل شىء ،

---

(١) المائدة ــ ٩١ .

(٢) النساء ــ ١ .

(٣) متفق عليه بخارى ٧ / ٨٣ ، عينى ١٠ / ٣٧٨ ، عسقلانى ١٠ / ٤٠٣ ، ٩ / ٥٨ مسلم ٢ / ٢٧٨ ، نووى ١٠ / ١٠ .

(٤) الماعون .

وشرعته الإحسان ، وتعاليمه الطهر والفضيلة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسانِ وإيتاءِ ذِى الْقُرْبى ، وَيَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْى ﴾[1] . هذا المنهج روحه الوفاء والصدق : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلا تَنْقُضُوا الأَيمانَ بَعدَ تَوْكيدِهَا ... ﴾[2] ، ﴿ يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[3] . هذاالمنهج عنوانه الرحمة الغامرة للعدو والصديق ، للكبير والصغير : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمةً لِلعَالَمين ﴾[4] ، ﴿ وإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتى يَسْمَعَ كلامَ اللهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[5] . فهو منهج معطاء للأمانة ، للخلق ، للمثل ، للقيم العليا ، معطاء للإنسانية بغير حدود ولا قيود ، لأنه من الله .

حضارة للإنسان :

ليس من طبيعة المنهج الإسلامى أن ينحصر فى جزء من الإنسان أو من الحياة ويدع الجزء الباق ، ليس من طبيعته أن ينحصر فى المشاعر والأحاسيس الوجدانية ، أو الأخلاقيات والمثل التجريدية ، أو الشعائر التعبدية ، أو الصدقات الخيرية ، أو ما إلى ذلك من الأفعال والأعمال المحدودة . فهو لا يعالج مشكلات الحياة الإنسانية أجزاء وتفاريق ، ولا يقيم كلا منها على أصل لا علاقة له بسائر الأصول . إنما هو يرجعها كلها إلى نقطة ارتكاز واحدة ، ويديرها كلها حول محور جامع واحد ، تشدهــا إلى هذا المحور خيوط ظاهرة أو دقيقة ، ولكنها قائمة على كل حال ، تؤلف من مسائل هذا الدين وقضاياه وحدة كلية جامعة ، مردها إلى فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان . كما أنه ليس من طبيعـة هذا المنهج أنْ يحرك عواطـف النـاس إلى الآخرة وإلى الفردوس والجنان والحور العين والنعيم المقيم ، دون أن يمر بالدنيا عن طريق العمل فى الأرض وعمارتها والخلافة عن الله فيها ، وفق منهج ارتضاه رب العالمين .

---

(١) النحل — ٩٠ .
(٢) النحل — ٩١ .
(٣) التوبة — ١١٩ .
(٤) الأنبياء — ١٠٧ .
(٥) التوبة — ٦ .

ليس من طبيعة هذا المنهج الانقطاع عن الحياة .وازدرائها واحتقارها والعكوف على الأوراد والتسابيح ، فقد حرم الرهبانية ، فلا رهبانية فى الإسلام ، كما أنه ليس من طبيعته عبادة الدنيا ، والالتفات إلى البطون ، وترك العقول ، وإيثار المادة وتزكية الحيوانية ، وبغض الروحانية ، وفصل الحياة عن القيم ، والالتفات إلى العاجلة ، وترك الباقية .

وإنما طبيعة هذا الدين إصلاح الدنيا للوصول بثوابها إلى الآخرة ، والعمل فيها حسب منهج الله وأمره ، لرضائه والجنة ، أرشد إلى ذلك القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ .اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلا تنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا ، وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلا تَبْغِ الفَسَادَ فى الأَرْضِ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) . طبيعة هذا المنهج تطهير الأرض ، ومطاردة المنكر ، وتعليم الخير . وصدق الله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ ، تأْمُرونَ بالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وتُؤمِنُونَ باللهِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَجَاهِدُوا فى اللهِ حَقَّ جِهادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبراهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وفى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (٣) . طبيعة هذا المنهج إشباع البطن من حلال ، وتحصيل المال ، وإعطاء حق الله الذى هو حق الفقير فيه ، وإنفاق الخير فى المعروف بغير إسراف ولا تقتير ، والاستمتاع بالزينة من غير إتلاف للنفس أو لهو عن الصالحات الباقيات ، مع تطهير للذيل ، ومعرفة لله ، وعبادته ، وشكره ، وابتغاء مرضاته ، وتقواه .

إذن فطبيعة هذا المنهج متوازنة ، تربى الإنسان المتوازن ، فلا هو بالحيوان ، ولا هو بالملك ، بل إنسان ربانى ، يعيش فى الأرض ، يمشى فى مناكبها ، ويأكل من رزقها ، ويتصل بالسماء ، ويرتبط بها بسبب ، فهو أرضى سماوى ، حيوانى روحى ، شهوانى قيمى . إذاً فالرجل الذى يعيش حياته مقبلا على المال ، منافسا على المادة ،

---

(١) القصص — ٧٧ .

(٢) آل عمران — ١١٠ .

(٣) الحج — ٧٨ .

مستغرقا فى مطالب البدن ، مشغوفا بالجاه الفارغ ، والمظاهر الخادعة ، مسخراً إدراكه الحسى والقلبى لهذا المتاع الباطل ، رجل مفتون عن حقيقة نفسه ، محجوب عن رؤية لب الحياة ، أراد له منهج الله أن يرقى إلى أفق أعلى ، فانسلخ من تلك الكرامة ، وأخلد إلى الأرض .

والرّجل الذى يقبل على مطالب روحه ، فيقضى نهاره صائما ، وليله قائما ، معرضا عن طيبات الحياة ، وعن أعمال الخير ، وعن إصلاح الحياة وابتغاء ما فيها ، فلا يلبس إلا الخشن ، ولا يأكل إلا اليابس الجاف ، تضعف قواه ، وتعظم على حسابها قواه الروحية ، أو ينزوى ببعض التسابيح وبعض الأوراد ، تاركاً العمل الصالح والسعى وراء ظهره ، رجل جاهل أيضا بحقائق المنهج ، غافل عن سنة الله ، مضيع لحقوق بدنه ودينه ، أو بمعنى آخر مضيع لإحدى ناحيتيه ، وكفى بذلك خسارة وتعطيلا لأمر الله فيه .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « جاء ثلاثة رَهْطٍ إلى بيوت أزواج النبى ﷺ ، يسألون عن عبادة النبى ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تَقَالُّوها ، فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ ، قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا . وقال آخر : أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا اعتزل النساء ، فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله ﷺ ، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا . أما والله إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى »[1]. بهذا الحكم الأصيل رسم لنا رسول الله ﷺ . منهاج الحياة السليم الصحيح ، فَبَيَّنَ أنَّ الإفراط مذموم ، ولو كان فى إقبال العبد على حياته الروحية ، فإن الله لا يقبل من عبده أن يعطل سنته ، ثم يزعم أنه يعجل إلى مُرضاته . ولهذا أمره بالسعى والابتغاء من فضل الله ، كما أمره بالعبادة ، فقال سبحانه : ﴿ يَاأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا نُودِيَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ ، وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ . فإذا قضيت الصلاةُ

(١) البخارى باب فضل النكاح ٧ / ٣ ومسلم ٩ / ١٧٥ شرح النووى وابن حيان ١ / ١٣ بنحوه .

فانْتَشِرُوا فى الأَرْضِ ، وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴾..[1] .

وقت للعبادة وتزكية الروح التى هى حقيقة فى الإنسان لاصلاح له بدونها ، ووقت آخر للسعى ، وإشباع البطن ، وحفظ الجسد ، وإصلاح الدنيا : ﴿ هُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً ، فَامْشُوا فى مَنَاكِبِها ، وَكُلوا مِنْ رِزْقِهِ . وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[2].

كما أن من طبيعة هذا المنهج الحرية :

الحرية بأجل معانيها ، الحرية فى العقيدة : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الْغَىِّ ﴾[3]. الحرية من القهر والاستعباد والتسلط تحت أى شعار أو ملة أو مذهب : ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ . فإنْ تَوَلَّوْاْ فقولوا اشْهَدُوا بأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[4].الحرية من القوانين الجائرة ، أو من الأهـواء المقننـة لطبقـة السادة ، ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بما أَرَاكَ اللهُ ، ولا تَكُنْ لِلخَائِنينَ خَصِيما ، واسْتَغْفِرِ اللهَ إنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ، وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهم ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أثيماً ﴾[5] . الحرية من الشهوات والأدناس والأهواء : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدَى مِنَ اللهِ ﴾[6] ، ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾[7]، ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، والرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾[8]. ومنهج بهذه الواقعية وهذا السمو والطهر والتوازن هو

---

(١) الجمعة — ٩ .
(٢) تبارك — ١٥ .
(٣) البقرة — ٢٥٦ .
(٤) آل عمران — ٦٤ .
(٥) النساء — ١٠٥ — ١٠٧ .
(٦) القصص — ٥٠ .
(٧) الجاثية — ٢٣ .
(٨) المدثر — ٤ — ٥ .

طلبة البشرية اليوم ، وأملها ، وغايتها ، وحياتها ، ومستقبلها ، وهداها ، وصدق الله : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ واللهُ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ ﴾ .[1]



---

(١) التغابن — ١١ .

الفصل الثالث

حاجة الإنسانية إلى تلك الحضارة

حاجة الإنسانية إلى تلك الحضـــارة

كما يحتاج الإنسان إلى فطرته وإلى استقراره وسعادته ، يحتاج إلى الحضارة الإسلاميـة ، فليست حاجـة الإنسان إليها مجرد رغبـة تنـقضى أو تبقـــى ، وإنما هى طبيعة ، وضرورة ملحة ، واستقرار ، وحتمية لابد أن يصل إليها ، إن عاجلا أوآجلا، لسبب بسيط : وهى أنها من خالقه ، ومنظم الحياة ، ومدبر الأمر كله .

والواقع المعاش والشقوة التى فى العالم اليوم نتيجة حتمية لبعده عن هذا المنهج ، وهذه الحيرة وهذا الضياع الذى أحس به أهل الحضارة الحديثة قبل غيرهم ، دليل على هذا الجفاء وهذه القطيعة ، وهذا الإهدار للقيم الذى يهدد خصائص الإنسان ، والاهتمام بالمادة التى تصير الإنسان آلة صماء ، لاتعى أو تحس ، وهذه الجفوة والقسوة ، وهذا الخواء والوحشية التى اختارت الصواريخ وآلات الدمار ، لتكون مخالبها وأنيابها فى افتراس الآمنين ونسف المظلومين ، كانت كل هذه التجاوزات وغيرها أجراس الخطر ، ونواقيس الإنذار ، التى تدعو كل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن يجد فى البحث عن الخلاص والمخلص ، ولهذا نجد رجلا غربيا مثل الدكتور الكسيس كاريل يمقت تلك الحضارة الغربية ، ويحذر منها ، فيقول « إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا ، فقد نشأت دون أى معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة لحجمنا وشكلنا »[1] ثم يبين عوار تلك الحضارة فيقول :

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ترجمة شفيق أسعد ط المعارف بيروت ص ٣٨ .

« يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شيء . ولكن الواقع هو عكس ذلك ، فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته ، ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية ... فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة ، لا بالنسبة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا .. إننا قوم تعساء ، ننحط أخلاقيا وعقليا .. إن الجماعات التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لا تدرك ذلك ، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها .. وحقيقة الأمر أن مدنّيتنا مثل المدنيات التى سبقتها ، أوجدت أحوالا معينة للحياة ، من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ، وذلك لأسباب لاتزال غامضة ... إن القلق والهموم التى يعانى منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية »[1] وهذا كلام لاشك قوى ومدروس ، يحمل خبرة معاناة طويلة ، وتفاعلات تجربة مريرة ، صاغها الرجل دراسات ، وشخصها عللا ، وقدمها نصائح وتحذيرات قبل مرور الوقت وضياع الزمان ، كثيرا ما يَرُدُّ الرجل بعينى البصر والبصيرة الفاقه المجرب ، على تساؤلات قد تجد مجالا عند بعض الناس من المفتونين بزخرف التقدم العلمى ، ووهج الاختراعات المرفهة ، فيظن ذلك البعض أن الإنسان يعلو ويرتفع ويسعد ويهنأ كلما كثرت هذه الاختراعات وتنوعت ، ويظن كذلك أنه باستطاعته أن يستعيض عن المعانى الإنسانية والروحية والخلقية فى الحياة بهذا البهرج وتلك المغريات ، يرد كاريل على هذه التساؤلات وغيرها فيقول : « إننا لن نصيب أية فائدة من زيادة عدد الاختراعات الميكانيكية ، وقد يكون من الأجدى أن لا نضفى مثل هذا القدر الكبير من الأهمية على تلك الاكتشافات الطبيعية والفلكية والكيميائية ، فحقيقة الأمر أن العلم الخالص لا يجلب لنا مطلقا ضررا مباشرا ، ولكن حينما يسيطر جماله الطاغى على عقولنا ، ويستعبد أفكارنا فى مملكة الجماد ، فإنه

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤ .

يصبح خطرا ، ومن ثم يجب أن يحول الإنسان اهتماماته إلى نفسه وإلى السبب فى عجزه الخلقى والعقلى . إذاً ما جدوى زيادة الراحة والفخامة والجمال والمظر وأسباب تعقيد حضارتنا ؛ إذا كان ضعفنا يمنعنا من الاستعانة بها فيما يعود علينا بالنفع ؟ حقا إنه لما لا يستحق أى عناء أن نمضى فى تجميل طرق حياة تعود علينا بالانحطاط الخلقى ، وتؤدى إلى اختفاء أنبل عناصر الأجناس الطيبة»[1]. ونحن نستطيع أن نقول : إن تأخر علوم البشر من أخلاقيات ومعاملات إنسانية ليست ظاهرة تلقائية ، كما قد يحسب البعض ، وإنما هى نتيجة طبيعية ومنطقية ، وتكاد تكون حتمية لتقدير قيمة الإنسان ودوره فى التطور المنحرف ، الذى قامت عليه الحضارة الغربية ، حين جعلت هناك فصاما بين طبيعة الإنسان المادية والروحية ، وحين افترقت فى نشأتها عن التصور الاعتقادى الصحيح ، الذى يحمل تكريم الإنسان ، ويقدر خصائصه ، ويصله بالله ، ويجعله خليفة عنه فى الأرض وحين ارتضت الأنظمة الاقتصادية والصناعية والمادية كبديل عن حاجات الإنسان الحقيقية ، وليست مواكبة لها ومواءمة لطبيعتها . وكما أحس الدكتور كاريل بالخطر على كيان الإنسان وخصائصه ، أحس كذلك مستر دالاس ، وزير خارجية أمريكا ، بالخطر نفسه ، وتحدث فى كتابه ، « حرب أم سلام » فى فصل بعنوان « حاجتنا الروحية » عن نفس المشكلة فقال : « إن هناك شيئا ما يسير بشكل خاطىء فى أمتنا ، وإلا لما أصبحنا فى هذا الحرج ، وفى هذه الحالة النفسية ... لا يجدر بنا أن نأخذ موقفا دفاعيا ، وأن يمتلكنا الذعر ... إن ذلك أمر جديد فى تاريخنا ... إن الأمر لا يتعلق بالماديات ، فلدينا إعظم إنتاج عالمى فى الأشياء المادية ، إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوى ، فبدونه يكون ما لدينا قليلا . وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم ، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم ، أو القنابل مهما بلغت قوتها !!... وفى بلادنا لا تجتذب نظمنا الإخلاص الروحى اللازم للدفاع عنها ، وهناك حيرة فى عقول الناس ، وتآكل لأرواحهم ، وذلك يجعل أمتنا معرضة للتغلغل المعادى »[2] ثم يقول : « إن القوة

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٦٠ .

(٢) انظر حرب أم سلام دالاس ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ط العالمية للطباعة والنشر .

المادية الكبيرة تكون خطرة فى عصرنا المادى فقط ، وليس فى عصر روحى . والمعرفة العلمية الجديدة خطرة اليوم ؛ لأنها حدثت فى وقت قد أخفقت فيه الزعامة الروحية أن توضح الصلة بين العقيدة والعمل ، ولعله يكون أكثر أهمية لو أن العبادة الروحية تطورت ، بدلا من محاولة وقف التقدم العلمى ، أو الرجوع به القهقرى »[1]. ولا شك أن الدكتور كاريل والمستر دالاس وغيرهم أحسوا بالخطر الحقيقى ، الذى يتهدد مجتمعاتهم ، ويسرى فى جسدها كالأرضة التى توشك أن تقضى على الأخضر واليابس ، ولم يجدوا بعد ذلك من علاج إلا أن يرجعوا إلى طبيعتهم وفطرتهم ، ليستفتوها ، ويأخذوا منها الجواب الصحيح لتلك المعضلات ، وقد نطقت تلك الفطر بما تحس به وتشعر ، بل بما تحس به كل فطرة وتحتاجه كل نفس ، وهى الرجوع إلى حضارة الإنسان ، وإلى تصحيح داخله قبل خارجه ، وعلاج مخبره قبل مظهره ، بمنهج روحى إيمانى عقائدى ولكن أنى لهم بهذا المنهج ، وأين يعثرون عليه ، لايجدونه فيما بين أيديهم من رصيد مهلهل للنصرانية ، ومن تاريخ مرير للكنيسة ورجال الدين وأهله ... ، لأنه ليس فيه تلك المواصفات التى يطلبون . إنهم يطلبون دينا يصل بين الإيمان والعمل ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الروح والمادة ، وبين التقدم العلمى والهيمنة الروحية على هذا التقدم ، وبين العناية بتنمية الحياة للمجتمع مع سيطرة الروح الإيمانى ... منهج لا يفرق بين الدين وممارسة الدين ، ويرفض القول بأنه من غير الممكن الحصول على عدالة اجتماعية بدون ممارسة الإلحاد والمادية . كما يرفض أن يكون للأشياء المادية الأولوية ، أو تكون العبودية والاستبداد وسيلة الإكثار من الانتاج المادى ، أو أن يعتدى على الحرية العقلية والروحية والاقتصادية ، فى سبيل هذا الإنتاج والإكثار منه ، منهج لا يوقف التقدم العلمى والبحث فى المعرفة باسم الدين ، ولا يجعل التدين وسيلة لاحتقار العلم والمعرفة ، منهج تتطور فيه العبادة حتى تشمل كل عمل من أعمال الدنيا ، ويصبح النشاط الإنسانى كله عبادة ، خطوه وسعيه ، صحوه ونومه ، حياته ومماته : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2].

---

(١) حرب أم سلام دالاس .

(٢) الأنعام ــ ١٦٢ ، ١٦٣ .

﴿ وَابْتَغِ فِيما ءَاتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَاتَبْغِ الفَسَادَ فى الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لايُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾[1] يقول ﷺ : « كل سلامى من الناس عليه صدقة . كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين اثنين صدقة ، ويعين الرجل فى دابته فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ، ويميط الأذى عن الطريق صدقة »[2] ويروى ابن عباس نحو هذا عن رسول الله ﷺ إذ يقول : « على كل ميسم من الإنسان صلاة كل يوم !! فقال رجل من القوم : هذا من أشد ما أنبأتنا به . قال : أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة ، وحملك عن الضعيف صلاة ، وإنحاؤك القذر من الطريق صلاة ، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صلاة »[3]. هذه هى طبيعة الإسلام وطبيعة منهجه ، والمستر دالاس يريد ــ كما يقول ــ أن يصلح حياة أمة بدين لا تتعارض فيه العقيدة مع الدنيا ، أو تتضارب مع العلم والمعرفة ، ولا يجد المستر دالاس هذا إلا فى الإسلام وفى عقيدته ومنهجه ، لأن إدراك العبادة فى الإسلام وطبيعة منهجه الروحى ليست محصورة فى أعمال من الخشوع الخالص كالصلاة والصيام مثلا ، ولكنها تتناول « كل » حياة الإنسان العملية أيضا ، ولذا كانت الغاية من حياتنا اليومية :

« عبادة الله فى كل ناحية من نواحى الحياة ، حتى تلك التى تظهر صغيرة نتناولها على أنها عبادات ، ونتناولها بوعى ، على أنها جزء من ذلك المنهج العالمى الذى أبدعه الله »

إن الإسلام يعلمنا أن الحياة الروحية تعانق الحياة الجسدية ، وأنه لا صلاح لحياتنا إلا بالمادة والروح . كما يعلمنا كيف نعيش الحياة بالمادة والروح ، وبالوحى والعقل ، وبالاتباع والفهم ، وبالشهود والغيب ، فلا عداء بين مطالب الروح والجسد ، أو بين الحياة المادية والروحية ، أو بين تعاليم الوحى وإدراكات العقول

---

(١) القصص ــ ٧٧ .

(٢) البخارى ٢ / ١١١ عينى ٤ / ٣٤٣ ، عسقلانى ٣ / ٢٤٣ قسطلانى ٣ / ٤٦ ، مسلم ١ / ٢٧٧ ، نووى ٤ / ٤٨٥ .

(٣) ابن خزيمة ٢ / ٢٢٩ تحقيق الدكتور مصطفى الأعظمى ط المكتب الإسلامى .

والأفهام ، كما يعلمنا ، أنه لا إيمان بدون عمل ، وأن كل عمل للمسلم يجب أن تتجلى فيه تعاليم دينه وحضارته وقيمه .

التطلع إلى الحضارة الإسلامية :

لاشك أن دينا بهذه الصفات المميزة ، الصالحة لعلاج ما أفسدته أيدى الناس ، وإصلاح ما أصاب العالم من دخان الحضارات البعيدة عن المناهج الإنسانية ، لا شك أنه يكون عجيبة العصر ، وطوق النجاة ، وهدية السماء ، وقد أدرك هذا كثير من علماء الغرب رغم العداء للإسلام — شأن أى عداء للحق فى مقابلة الباطل — ولكن الحق له سطوة ، والشمس لها ضياء لا يغلب ، يقول الدكتور « إيزكو إنسابساتو » : إن الشريعة الإسلامية تفوق فى كثير من بحوثها الشرائع الأوربية ، بل هى التى تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتا » ، ويقول العلامة « شيرل » — عميد كلية الحقوق بجامعة فينا — فى مؤتمر الحقوق سنة ١٩٢٧ : « إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد ﷺ إليها — إذ رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون ، لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة » .

ويقول الفيلسوف الإنجليزى « برنارد شو » قولته الخالدة : « لقد كان دين محمد موضع تقدير سام ، لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة ، وأنه الدين الوحيد الذى له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، وأرى واجبا أن يدعى محمد — ﷺ — منقذ الإنسانية ، وإن رجلا كشاكلته إذا تولى زعامة العالم الحديث فسوف ينجح فى حل مشكلاته » .

ويقول المؤرخ الإنجليزى « ويلز » فى كتابه ملامح تاريخ الإنسانية : « إن أوروبا مدينة للإسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الإدارية والتجارية » ، أما المؤرخ الفرنسى « سيلو » فيؤكده ويقول : « إن قانون نابليون منقول عن كتاب فقهى فى مذهب الإمام مالك هو « شرح الدردير على متن خليل » [(١)] وهذه الأقوال لهؤلاء العلماء

---

(١) انظر فى كل هذه النصوص فى كتاب معالم الحضارة عبد الله علوان ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ وثورة الإسلام لأبى شادى ص ١١٧ .

من باب « الفضل ما شهدت به الأعداء » ، وهى لا تزيدنا إيمانا بمبادئنا وبصلاحها وحاجة الإنسان إليها ، فنحن نعلم علم اليقين أنه لا صلاح للإنسانية فى شتى عصورها وأصقاعها إلا بالإسلام ، وإلا باعتناق عقيدته ، واتباع منهجه ، والتعلق بأهداب حضارته .

وقد بدأت تباشير هذا التحول نحو الإسلام ، بعد انفتاح الناس على الثقافات المختلفة ، وبعد كثرة الحيرة وشقوة التخبط ، التى ملها الناس ، وكرهوا العكوف عليها ، والانصياع لها . بدأت تباشير ذلك باعتناق كثيرين للإسلام ، اقتناعا بمبادئه ، وحبا لنظامه ، واستشفاء بهدايته ، وقد لاحظ هذا كثيرون من الباحثين والعلماء الغربيين .

يقول برنارد شو : « لقد دخل فى الوقت الحاضر كثير من أبناء قومى من أهل أوربا دين محمد ﷺ ، حتى يمكن أن يقال : إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ ، ولقد بدأت أوربا الآن تعتنق الدين الإسلامى ، ولن يمضى القرن الحادى والعشرين حتى تكون أوربا قد بدأت تستعين بالدين الإسلامى فى حل مشكلاتها ... ويقول : إنه لن يمضى مائة عام حتى تكون أوربا — ولاسيما انجلترا — قد أيقنت بملاءمة الإسلام للحضارة الصحيحة »[1] .وإذا نظرنا إلى مايقوله هؤلاء الذين أسلموا فعلا من المجتمعات الأوربية ، على اختلاف دولهم ومللهم ، وجدنا معانى الإسلام تنطق فى فطرهم ، وتنطلق من حناجرهم ، وتفيض على تحركاتهم ، وتكسب نفوسهم بهاء وجلالا .

يقول الدكتور عبد الكريم جرمانوس ، الذى تسمى باسم إسلامى ، وخلع اسمه الأول : « إننى — وأنا الرجل الأوربى الذى لم يجد فى بيئته إلا عبادة الذهب والقوة والسطوة الميكانيكية — تأثرت أعمق الأثر ببساطة الإسلام وعظمة سطوته على نفوس معتنقيه ، إن الشرق الإسلامى سيبقى مستوليا علينا بروحانيته ومثله العليا ، والإسلام حافظ دائما على مبادئه الداعية إلى الإخاء بين الجنس البشرى ، إنه

---

(١) الإسلام والثقافة العربية عبد الفتاح غنيم ص ١٩٤ .

لا يوجد فى تعاليم الإسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم ، أو يمنع زيادة حظه من النور والمعرفة والقوة ، لقد أخطأ الذين لم يفهموا الإسلام على حقيقته ، وبالتالى لم يتشبعوا بروحه ... لقد وضع الإسلام حدا للنظرية التى كانت تعتبر الإنسان وحدة من قبيلة ، أو وحدة فى شعب ، أو ابنا للغة من اللغات ، وقد سما بالأفراد من وحدة الحيوانية إلىٰ آفاق فسيحة ، إنى لا أتوقع أن يكون الإنسان قادرا مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة ، فى الوقت الذى تحيط بنا فيه ظلمات كثيفة »[1] فالإسلام يسير وحده بمبادئه ، يدعو إلى نفسه بغير دعاة ، ولا سلطة ، ولا مبشرين ، ولا كتب معدة للناس تشرح مبادئه ، وتوضح مناهجه ، بلغة الناس المختلفة ، اللهم إلا بعض الكتيبات التى قد يكون العثور عليها من المستحيلات ، لنفاذها ، وبعد عهدها ، وفضلا عن ذلك فإن هناك الحرب المعلنة على الإسلام من كل جانب ، ومن كل صقع ، ومن كل شيطان ، وبأساليب مختلفة ومتنوعة ومتعددة . بالتحريف وبالتبديل ، وبالتشويش بالكلمة المقروءة والمسموعة ، وبالدعايات والتحذيرات ، فضلا عن بعد أهله ولهوهم وتخيلهم وجهلهم ، رغما عن هذا كله يسير ، ويفتح وينتصر ، ويخوض أكبر المعارك الفكرية والنفسية والعقائدية والحضارية » ولنسمع ما يقوله الدكتور « شلدويك » عن تجربته فى اعتناق الإسلام . يقول : « إننى اتخذت الإسلام دينا بعد بحث وتنقيب ، لم أتلق هذا الدين فى أول الأمر من كتبه الصحيحة ، ولكنى تلقيته من كتابات الطاعنين فيه ، فالله الرحمن الرحيم هو الذى هدانى . ولدت من أبوين بريطانيين تابعين للكنيسة الإنجيلية ، وكان والدى يتمنى أن يرانى قسيسا ، ولذلك كان يسره أن أطالع كتب الدين ، ولكن الاختلاف الشديد جدا فى أصول المسيحية (الغربية) وفى تكوين العقيدة ، واختلاطها بعقائد الوثنيين القدماء من البوذيين وغيرهم . قد حملنى هذا على البحث والتأمل ، ودرس الديانات الأخرى ، درست البوذية والبرهمية وسائر الأديان ، فى دور الكتب العامة بانجلترا بحوث عن كل دين ماعدا الإسلام ، فإن الكتب التى ألفت عنه مملوءة بالتحامل والمطاعن والغرض الظاهر ، وقد زعموا أن الإسلام ليس

---

(١) حضارة الإسلام ١٠ / ١٢ أنور الجندى ص ٣٥ .

دينا مستقلا ، ولكنه أقوال محرفة عن كتب المسيحيين ، ولقد ساءلت نفسى : إذا كان الإسلام لا أهمية له إلى هذا الحد ، فلماذا هم يبذلون هذه الجهود للتحامل عليه ، ومقاومته ، وتوجيه المطاعن إليه . وقد وقر فى نفسى أنه لولا أن الإسلام دين يخشاه هؤلاء الناس ، ويحسبون له حسابا كبيرا لما فيه من القوة والحيوية ، لما بذلوا كل هذه الجهود لمقاومته ، والطعن فيه ، وتشويه سمعته . ولذلك عزمت على قراءة هذه الكتب التى كتبت عنه واحدا واحدا . وقلت : إن الإسلام لا يخفيه انتقاد منتقديه ، فمنتقدوا الإسلام ، إنما يظهرون ضغن خصومه ، وخوفهم من الحق ، وفى هذا مصلحة له ولدعوته . والحق يبدو مهما حاول المبطلون إخفاءه . ولما شرعت أدرس عقائد الإسلام ــ بعد أن انتهيت من الوقوف على حقائقه السالفة الذكر ــ وجدت جميع عقائده مقبولة عقلا ومنطقا وواقعا . فعقيدة التوحيد الخالص هى أصح العقائد ، وقد امتاز بها الإسلام . والقرآن ليس كتاب دين فحسب ، بل هو أعظم هاد إلى سعادة الفرد والمجتمع ، وقد وقر ذلك فى نفسى منذ اطلعت عليه ، وبالرغم من أنى قرأته مشوها ومحرفا بترجماته المعلومة ، إلا أنه ليس كالإسلام دين أو عقيدة ، وقد مضى على دخولى الإسلام مدة تربو على الثلاثين عاما ، إلا أننى كلما ازددت علما بالإسلام ازددت إجلالا له وتمسكا به »[1].

إن الإسلام دين له خصائص غلابة ، لها جلال ، ولها نفاذ ، ولها عبير وسحر ، لا يستطيع أن يقاومه من قرأ تعاليمه ، أو سمع آياته ، أو خالط عقيدته ، إنه دين طبيعى كالطبيعة ، لم تخلق لشخص أو أمة أو جنس أو لون أو طبقة ، عالمى كالشموس والأقمار والكواكب ، ضرورى كالماء والهواء والضياء ، منسجم ، متناسق ، كحركة الأفلاك ودوران العوالم وتصريف الرياح ، مبهر كصنعة الله الذى أتقن كل شيء ، فطرى كفطرة الله التى فطر الناس عليها ، معجز كخلق السموات والأرض وخلق الناس مع اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، فكيف يقاوم هذا الدين ، وكيف يغالب سحره ، وكيف تقاوم جاذبيته بأباطيل وتخاريف قلوب حاقدة . وصدق الله ﴿ يريدون ليطفئوا نورَ الله بأفواههم ، والله متم نوره وَلو كرِه الكافرون ﴾[2].

---

(١) حضارة الإسلام ص٣٧ ، ٣٨ .

(٢) الصف ــ ٨ .

ميثاق للإنسان العالمى :

هل يدرك الغرب الحائر الآن ، والذى يبحث عن مخرج جاد لما يعترى حضارته من تفسخ وانهيار ، هل يدرك أن تعاليم الإسلام وحضارته هى مخرجه الوحيد مما هو فيه ، وهل يستطيع أن يتناسى أحقاده وبغضاءه ، ويداوى نفسه من علله القاتلة بقانون السماء . نرى بعض الصيحات تعلو وبعض العيون تتفتح ، لتبصر الغرب بهذه الحقيقة .

فيقول الدكتور « فرانسيس لامان » رئيس الجمعية الوطنية الفرنسية فى كتاب « الإسلام والغرب » : « نحن نؤمن إيمانا جازما بروحانيـة الإسلام ، وهـى روحانيـة من الخارج والداخل ، لم يتمكن العالم الغربى بعد من إدراكها بكل وضوحها وصفائها ، علما بأن الاقتراب منها أو مماثلتها قد يكون مصدر إشعاع خصب فى عالم أصبح فريسة للاضطرابات والاختلاجات ، وعندما تكون عناصر الإدراك والتصور والسعى نحو قصد واحد لدى الإنسان مشتركة فيما بين الديانات السماوية المنزلة ، فهل يكون الحوار الإسلامى الغربى سوى البحث عن الروحانية فى العظمة ، أو البحث عن العظمة فى الروحانية ، فماذا يمكن للإسلام أن يقدم للغرب ، وماهى القيم الحضارية الإسلامية التى يمكن للغرب أن يستمدها ، هذا الغرب الذى يسيطر — كما يقال — على التقنيات والسياسة ، والذى — على مايبدو — قد أضاع فكرة الإنسانية التى استمدها منذ فجر العقلانية فى غياهب الازدهار المذهل للمعرفة العلمية ، فأضاع ذلك التوازن فيما بين الفرد والمعرفة التى جاهر بها وعلمها لفترة طويلة من الزمن ؟... إن الاسلام يمكن أن يقترح على العالم الغربى لوحة تقدم الرسوم الأولية لهذا النظام العالمى الجديد ، الذى يجرى التحدث عنه حاليا .

١ـــ الإسلام حضارة الأصل الحقيقية .

٢ـــ الإسلام ، مدرسة رعاية المقدس .

٣ـــ الإسلام ، ميثاق الإنسان الشامل .

إن الإسلام لا يعرف الفرد المطمئن إلى مطامعه الترقوية ، سيد قدره ، فى معزل عن التسليم بالمشيئة الإلهية ، والإسلام لايعرف « فوق البشرى » ، أى ما يفوق

قدرة البشر ، ولكنه يبقى متعلقا بالبعد العمودى للمعرفة ، أى الخلق أو الإبداع الإلهى . وانطلاقا من هذه العقيدة الدينية ، أى من هذه الشهادة ، تتحقق نسبية كل تصرف أو عمل إنسانى ، ويتبدد الوهم بأن الفرد قد تمكن ـــ بقوته الخاصة ـــ من اجتياز درجات جديدة من طبقات الوجود ، فالمعرفة تستقر ضمن علاقة من الشرعية والأصالة فيما بين الفرد والإرادة الإلهية ، وليس ضمن علاقة مصطنعة ومزيفة بين الرجل المخلوق والرجل الخالق ، والمسافة فيما بين الاثنين تبقى ذلك العقل أو السور الوحيد ، غير القابل للتصرف ، الذى يحافظ على طبيعة الفرد الحقيقية « الفطرية » إلى هذا . إننا نعتقد أن الإسلام يمكنه تذكير الغرب بأن الحقيقة لاتكمن إلا فى هذه العقيدة التى ضلت وضاعت فى أكثر الأحيان ، بسبب اللمعان « البروميثوس » نسبة إلى بروميثيوس ، أى إله النار ، الذى يرمز إلى الحضارة البشرية الأولى « لنوع من التقدم العلمى ، تلك العقيدة التى تؤكد على أن طبيعة الإنسان لا تخص الفرد ، ولا هى ملك له . فالإسلام هو إذاً حضارة الأصالة فى عالمنا المعاصر ... وهو يظهر الآن مدرسة للمقدس ، ومن الذى يتمكن فى الغرب من أن ينكر بأن الإحساس بإبطال صفة القداسة لم يعد يحرك الشعور ، وبأن رفض المقدس يميل إلى الاستقرار داخل الأمة نفسها ؟

ونحن نعتقد بأن الإسلام ـــ ولا عجب فى ذلك ـــ يمكنه إلى حد بعيد ـــ إعادة تعليم المقدس للغرب ، إن الإسلام فى بادىء الأمر يمكنه أن يستبدل عدم استمرارية المقدس المتفشية فى العالم الغربى بنظرة الاستمرارية ، وذلك لأن المفهوم الإسلامى للمقدس ـــ وهو يرتبط بوحدانية الإرادة الالهية ـــ يفرز نظاما اجتماعيا وأخلاقيا دائما ، وثانيا ، لأن الإسلام ليس فقط مجرد انفتاح أو شرود نحو المقدس ، وإنما أيضا عملية دمج واعية للمقدس داخل جميع مجالات الوجود .

وإذا كان الإسلام حضارة الأصالة ، ومدرسة رعاية المقدَّس ، فلماذا لايرى الغرب فى ـــ رسالته إلى جانب مكاسب معارفه الخاصة ، وقوته الخلاقة المبدعة ـــ ، روحانية متأصلة تبحث عن نفسها وميثاقها ، ممكنا للإنسان الشامل ، إن هذا الميثاق فى الواقع هو قيد الإعداد فى كل مكان يكون الإسلام فيه حاضرا ... والإسلام

لايتكيف على شكل تغليف مزيف لبنية هيكلية موجودة قبل ، إن الإسلام ينسق ويكمل ويوجد ؛ لأنه يقع فى نقطة التقاء الروحانى والزمنى ، اللذين يتواجدان مجتمعين لدى الإنسان ، لا وجود للشامل إلا فى الوحدة ، ولا وجود للشامل إلا فى الروحانية ، وإن روحانية الإسلام تتأكد أيضا من خلال إيمان طبيعى ، لا شطط فيه ، ولا تفريط . والإسلام يعطى الغرب أيضا من خلال مثل هذا المضمون ، مفهوما جديدا للقيم الأخلاقية والدينية ، قبل المفهوم الجغرافى السياسى ، وقد يكون ذلك لإنارته وتنويره ، وهو ليس مجرد صيغة ملائمة ، ولا تقارب الصدفة والارتجال ، أو الكياسة والمجاملة ، وإنما هو اتصال متبادل ضرورى للعالمين ، عندما يحل عصر التكامل ـــ أكثر فأكثر ـــ محل عصر العداوات والخصومات ، فى هذا العصر الذى سوف تعتمد فيه العقائد الصالحة للإنسان ولسعادته ورقيه ، إن هذا النداء سوف يعلمه ويعرفه كل غربى ، وكأنه نداء تقاليده الخاصة ، وليس هو إلا صوت أحد العقلاء . إن هذا الصوت فى الحقيقة إن هو إلا نداء الإسلام للغرب ، ونداء الغرب للإسلام » . (١)

هكذا بدأ ساسة الغرب وباحثوه أنفسهم يضيقون ذرعا بالضياع ، والبعد عن المقدس ، « أى البعد عن الله » ، وأن الرجوع إلى الله يجب أن يكون بالمفهوم الإسلامى ، وأن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يستطيع جمع العالم على قيم إنسانية بعيدة عن الحقد والتعصب الجغرافى أو العنصرية ، كما أنه يوافق فطرة الإنسان ، ويبعدها عن العقد ، وعن التمزق والضياع ، وأنه هو الذى يستطيع أن يحتضن البشرية فى أخوة عامة ، يعمها السلام والأمن والطمأنينة ، وأن الإسلام وحضارته وتعاليمه سوف ينادى الغرب الشارد ، وأن الغرب المعذب سوف ينادى الإسلام ويستجير به ، وأنه لصوت العقل والمنطق أن يبحث التائهون عن الطريق المستقيم ، بغير غرور ولا كبرياء ولا عناد .

هيمنة القرآن وتأثيره :

لا شك أن للقرآن تأثيراً على القلوب والنفوس ، لأنه كلام الله سبحانه ، كما

(١) عن الإسلام والغرب ، السياسة الكويتية السنة ١٧ العدد ٥٠١٤ ص ١١ .

أن له سحره ونفاذه إلى الآذان والأعماق ، رغما عن أنه كتاب قانون ومنهج للحياة فى كل نواحيها وأشكالها ، ومما هو معلوم أن كتب القانون أو الدساتير والمناهج دائما ما تكون صعبة الفهم ، شديدة المراس ، لا تسلم قيادها إلا لقلة متخصصة ، ولكن هذا الكتاب يخالف كل الكتب فى كل الفنون ، لأنه ميسر ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾[1]، لا يَخْلِق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، أو تنفد غرائبه ، مثانى تقشعر منه قلوب البشر وتسكن إليه : ﴿الله نَزَّلَ أَحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد﴾[2]، وهذه هى طبيعة الشفاء وأسلوب الصحة والنقاهة ، قشعريرة الدواء ثم الشفاء والهداية ، وصدق الله ﴿وَنُنَزِّلُ من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ...﴾[3].

طبيعة القرآن التأثيرية :

هى طبيعة الصحة والهداية والريادة والهيمنة لكل من سمعه ، نعم لكل من سمعه ، إنسا كان أو جنا ، حيا كان أو جامدا هامدا . أما أثر هذا فى أصحاب الحياة ، فنجده فى قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ﴾[4]. وهذه الآية تصور الأثر الذى انطبع فى قلوبهم من الإنصات للقرآن ، فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية ، بغير تململ أو ضجر ، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم ، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه مالا تطيق عليه السكوت ، أو التلكؤ فى إبلاغه والإنذار به ، وهى حالة من امتلاء حسه بشىء جديد ، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب ، يدفعه دفعا إلى الحركة به ، والاحتفال بشأنه ، وإبلاغه للآخرين فى جد واهتمام ، إنَّ وقع هذا القرآن فى القلوب هائل ضخم ، لا يقف له

---

(١) القمر — ٢٢ .
(٢) الزمر — ٢٣ .
(٣) الإسراء — ٨٢ .
(٤) الأحقاف — ٢٩ .

قلب غير مطمـوس ، ولا تصمـد له روح غير معانـــدة ، ولا مشدودة بالهوى الجامح اللئيم ، ومن ثم لمس هذه القلـوب لأول وهلـة فإذا هى صامتـة مأخـوذة ، تنطـق بأنـه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فتقول : ﴿ ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ ، ثم انقلبوا له داعين مبلغين متحمسين : ﴿ ياقومنا أجيبوا داعىَ الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم مِن ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم ﴾.[1]

وأما تأثير القرآن فى الجماد :

فإن القرآن يعرض لهذا الأثر وهـذا الزلـزال من الخشيـة ، فى الصخـر الجامـد والحجر الصلد ، فيقول : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبـل لرأيتـه خاشعـا متصدعـا من خشية الله . وتلك الأمثـال نضربها للنـاس لعلهـم يتفكـرون ﴾ [2]، وهـى صورة تمثل الحقيقة الماثلة الكائنة لهذا القرآن ، فإن فيه روعة وثقـلا وأثـرا مزلـزلا لا يثبت له شىء يتلقاه بحقيقته ، فإن اللحظات التى يكون فيها الكيان الإنسانى متفتحـا لتلقـى شىء من حقيقـة القـرآن يهتـز فيها اهتـزازا ويـرتجف ارتجافـا ، ويقـع فيـه من التـغيرات والتحولات ما يمثله فى عالم المادة فعل المغنطـيس والكهربـاء بالأجسام ، أو أشد ، والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول : ﴿ لو أنزلنـا هذا القـرآن على جبـل لرأيتـه خاشعـا متصدعا من خشية الله ﴾ ، والذين أحسوا شيئا من مس القرآن فى كيانهم يتذوقـون هذه الحقيقة تذوقا لايعبر عنه إلا هذا النص القرآنى المشع الموحى :﴿ وتـلك الأمثـال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ [3] ، وهى حقيقة فعـلا بأن توقـظ القلـوب والأفهام والعقول ، وتبعث فيها التأمل والفكر والخشوع .

نجد فعل هذه الحقيقة فى القلـوب الصلـدة ، التـى وصفهـا القـرآن بأنها أشد صلابة من الحجارة والصخر ، فى قلوب المشركين التى وصفها القرآن فى قوله : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعـد ذلك ، فهـى كالحجـارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجـارة لما

---

(١) الأحقاف ـــ ٣٠ ـــ ٣١ .
(٢) الحشر ـــ ٢١ .
(٣) الحشر ـــ ٢١ .

يتفجر منه الأنهار ... ﴾ (١) .

نجد هذا الأثر فى قلب المغيرة بن شعبة لَمَّا قرأ عليه الرسول ﷺ القرآن ، فأخذته رعدة وقشعريرة ، وَانْهَدَّ جبروته ، وخشع حديثه ، واحتار فى أمره . وقد سألته قريش عن القرآن فقال : ماذا أقول : ؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه أو بقصيده منى ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا ، والله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته » (٢) هكذا كان تأثير هذا القرآن فى القلوب الصلدة ، رغم المعاندة والمُكابرة والعداوة ، ونرى كذلك مافعل القرآن فى قلب أبى سفيان بن حرب ، والأخنس بن شريق وأبى جهل : حيث كانوا يتسللون فى جنح الليل ، ويَدّعون الكرى ، ويتلصصون لسماع آية من القرآن أو بعضا منه » .

يروى ابن كثير عن البيهقى فيقول : روى البيهقى عن الحاكم عن الأصم ، عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس عن ابن إسحاق حدثنى الزهرى قال : حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ، ليسمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى بالليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا ليستمع منه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا ، حتى كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا فى المرة الأولى ثم انصرفوا ، فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم بمجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق . فقالوا : لا نبرح حتى نتعاهد على ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم

---

(١) البقرة — ٧٤ .
(٢) سيرة ابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد ١ / ٤٩٩ .

تفرقوا » [1] . ما هذا السحر الذى يسمعون ، وما هذه الحلاوة التى لا يطيقون البعد عنها ، وما هذا الغرام الذى يهيمون به ، ويتركون من أجله كل قيمة وكل لوم وكل راحة ، حتى يبيت هؤلاء السادة المعاندون متلصصين متنازلين عن كرامتهم ، ليسمعوا القرآن ، ويترنموا بآياته وكلماته ، إنه لا شك شيء غير عادى وشيء يدعو إلى التأمل والدهشة .

تأثير القرآن ممتد وباق :

ما زال تأثير هذا القرآن باق ، يعمل عمله فى النفوس ، لأن معجزته باقية ، ولفظهُ لم يتغير ، وعمله هو هو ، وما زال محفوظا فى الألواح والصدور : ولهذا نرى أن من سمع القرآن الآن يدرك تلك المعانى التى كان يسمعها ويدركها السابقون . يقول : « كوزان دى بيرسوفال » فى سحر القرآن وتأثيره : « وليست حال محمد ﷺ فى انفعالاته وتأثراته بحالة ذى جنة ، بل كانت مثل التى قال نَبِيٌّ بنى إسرائيل فى وصفها : « لقد شعرت بأن قلبى انكسر بين أضلعى ، وارتعشت منى العظام ، فصرت كالنشوان ، لما قام بى من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة » [2] .

ونرى ونسمع هذا الرأى العجيب الذى يحدثنا به : ك. ك نريج أستاذ الأدب العربى بجامعة كمبرديج : فى كتابه القيم « كيف تعرفت على القرآن » ، عن سحر القرآن فى النفوس ، فيقول : « الحق بدأ ذلك مبكرا — أى لدى تصفحى السريع للقرآن الكريم ، فقد أدركت أننى أمام مضمار جديد فى الأسلوب والجرس والهيمنة الروحية والموسيقى الباطنية الغريبة : كل الغرابة ، فأصبحت أتلو القرآن تلو هنا وهناك ، فأجد فى كل مرة نكهة ولذة خاصة غريبة ، لايمكن إلا أن تكون سماوية .... وأشعر بالأنس والراحة والطمأنينة ... يارباه !! هل كل من يقرأ هذا السفر الجليل يشعر بمثل ما أشعر أنا به أم ماذا ؟ ألح على هذا السؤال الذى يطرح نفسه بكل ثقله ، مما

---

(١) سيرة ابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

(٢) أوربا والإسلام عبد الحليم محمود ص ٤٣ .

حدى بى أن أتصل بعشرات من المستشرقين المنصفين ، الذين تحدثوا أو بحثوا عن القرآن سواء منهم من عرفتهم فى أسفارى إلى أوربا وأمريكا ، أو من لم أعرف معرفة صداقة ، ولكننى قد سمعت أو قرأت عنهم شيئا أو أشياء . وقد طرحت عليهم سؤالا محددا هو : ما يكون شعوركم وأحاسيسكم عندما تتلون القرآن ..؟ فكان الجواب كالآتى : نحس ونشعر بشىء غريب ، غير عادى ، وغير مادى ، ولا بشرى ، فى ضمائرنا وكياننا والأغرب والأدهش أننا ننجذب إليه بطريقة لا شعورية « ميتافيزيقية » جذبا قويا ، وقد نسمع موسيقى أو لحنا أو صوتا .. لا يشبه فى شىء ما نعلمه من الفنون الموسيقية ، لا من قريب ولا من بعيد ... وقد زادت على ما مر سيدة إيطالية (هى الدكتورة واكجيالورا ...) البروفوسورة بجامعة نابل بإيطاليا ، فذكرت لى فى رسالتها : أنها تسمع لحنا إلهيا جذابا حنونا ، لا يقارن بالفنون الموسيقية البشرية وألحانها فى شىء .. وقد يتسمر الواحد منا أمام روعته الإلهية عدة دقائق .. وتأخذه الجذبة بصفة غير عادية ، وبصورة روحانية لذيذة . ثم يسرد المؤلف عشرات الأمثلة ، ويتناول آيات من القرآن الكريم .. والأحاديث النبوية يدلل على روعة ما يحس به .

وفى النهاية يقول : « كل الذين أعرفهم فى أوربا وأمريكا ــ تقريبا ــ اعترفوا بشعورهم الغريب ، وإحساسهم الأغرب نحو القرآن ومعماره الغريب وموسيقاه الربانى الجميل الجذاب ، ولا سيما عندما يعطى القرآن كل ذرة من كيانه ، فإذ ذاك يرى الإنسان العجب العجاب ... ثم يقول : لا أشك لحظة فى إلهية القرآن ، وهيمنته القوية المعنوية على سائر الكتب ، وعلى إعجازه الخارق ، وسيطرته على الألباب و ...» [1]. هذا رجل أحس بما أحس به غيره ، من روعة القرآن ، وجلال نظمه ، وروعة تلاوته ، وسحر لفظه ، فما بال من فهم المعنى ، واتصل بالأنوار ، وخالط الأحكام ، وانسجم مع الوحى ، وأوب مع الترتيل . إن القرآن مازال هو القرآن الذى سمعته الجن فقالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به [2] ﴾ لقد

---

(١) انظر كيف تفهمت القرآن ، ك . ك نمريج المقدمة ص ٦٢٥ ألف الكتاب باللغة الإنجليزية ثم أعيد طبعه وترجم إلى عدة لغات ومنها العربية والفارسية والأردية .. وقد أثار الكتاب ضجة فى الأوساط الكنيسية وأكثر اللغط فى الفتيكان . كما أثار الحقد الأسود عند المستشرقين .

(٢) الجن / ١ ــ ٢ .

ذكر لى الأستاذ محمد حنيف ، الإيرانى ، المسلم ، السنى ، الباحث بالموسوعة الفقهية بالكويت ، عن واقعة شاهدها بنفسه ، ولمسها ورآها بعينه . يقول : « ذهبت إلى لندن لإلقاء محاضرة فى مسجد لندن ، فوضع المكلفون بتنظيم المحاضرة شريطا من القرآن الكريم فى مكبر الصوت لجمع الناس ، وما أن قرىء القرآن وسمعه الناس حتى توافد على المسجد جموع من الإنجليز ، وجلسوا يستمعون القرآن كأن على رؤوسهم الطير ، وما أن جاء وقت المحاضرة ونظرت إلى الناس فرأيت المسجد قد غص بالناس ، حتى فرحت . ولكن بمجرد أن أغلق مكبر الصوت ، وانتهت القراءة ، وبدأت فى المحاضرة ، حتى رأيت الناس ينصرفون ، فعجبت من ذلك ، وبئست . وبعد فراغى من محاضرتى سألت إمام المسجد عن هذه الظاهرة ، فقال : لا تحزن فليست فى الأمر شيء ، وأماط لى اللثام عن سر مارأيت ، فقال : ما نكاد نفتح مكبر الصوت فى أى وقت على القرآن الكريم حتى يتوافد الناس من الإنجليز على المسجد ، ويجلسون كما رأيت خاشعين ، رغم أنهم لا يفهمون القرآن ، ولكنه يأخذهم بسحر فيه ، وروعة فى لفظه ، ونظمه ، وموسيقاه ، فإذا انتهت التلاوة قاموا كما جاءوا . » فقلت سبحان الله ! هذه روعة الكتاب العزيز ، وقدسية الآيات تنفذ إلى أعماق الناس ، وإن كان اللسان غير اللسان ، واللغة غير اللغة ، ولكن الخالق هو المتكلم ، والآيات آياته ، والخلق عباده ، والكون ملكه ، واللغات تدبيره وأمره ، وصدق الله :﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن فى ذلك لآيات للعَالِمِين ﴾[1] فالتقت الآيات بالآيات فعملت عملها وفعلت فعلها ، فكان ما كان وما سيكون إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإن الباحث العادى الذى يطالع هذا ويفهمه ، لا بد وأن يعلم تمام العلم أن هذه البشرية شفاؤها ودواؤها هو هذا القرآن ، وفى أحكامه ومنهجه وآياته وأسراره ، كما أنه لا بد وأن يشعر أن دينا بهذه الجاذبية فى تعاليمه وفى آياته وفى أحكامه لا يزول ولا ينمحى ، لأن الحب دليل البقاء والثبات والأصالة والمواءمة ، ولأن القوة

---

(١) الروم — ٢٢ .

الحقيقية لأى منهج ، والركيزة الأولى لحضارته ، تعتمد على فتح مغاليق النفوس ، واستقرارها ، وبعثها ، وشفائها ، وانطلاقها ، وصدق الله : ﴿ وَنُنَزِّلُ من القرآن ما هو شفاء ورحمة ...﴾ (١)

الشفاء من الصراع :

تحتاج الإنسانية إلى الإسلام وحضارته ؛ لترتاح من الصراعات المختلفة فى شتى نواحى الحياة ، ليسلم لها ضميرها وأعماقها ، وليسلم لها واقعها الإنسانى كله ، فى الأسرة ، فى المجتمع ، فى الحياة ،فلا استقرار لعالم ضمير الفرد فيه ملىء بالصراعات ، لا يستمتع بالأمن ، ولا سعادة لأمة تتمزق كل يوم نفسيا وقلبيا وجسديا . تتبع أنهار الصحف وسيل المجلات وأمواج الأثير ، هل تقرأ أو تسمع أو ترى إلا أخبار الحروب ، وأنباء الدمار ، وكلمات التهديد ، وأعمال العنف والظلم والبغى والعدوان ، وهل تحس إلا الخضوع والعمالة والأحلاف ومناطق النفوذ ، وهل تسمع فى نطاق ذلك إلا اختراع سلاح جديد ، أو تطوير سلاح قديم ، أو تفوقا ، أو لحوقا فى هذا المضمار ، إن أخبار الصواريخ الموجهة أو ذات التوجيه الذاتى ، وأخبار الطائرات المحسنة والمتعددة الأغراض والمضار ، والقنابل المتعددة الأهلاك والدمار ، أصبح موضة العصر ، وشهوة الأيام ، وسعادة الأمم والشعوب ، هذا من جانب . ومن جانب آخر ترى الجنس ، والأعراض ، والشهوات تعرض كالسلع فى الأسواق ، والكلام عنها ، وقصصها ، وممارستها ، متعة الأفراد ، ولهو الجماعات ، وبضاعة الأمم ، تروج بها الصحافة ، وتقوم عليها الصحافة التلفازية والخيالية والإذاعية ، كلها تزكى سعار الشهوات ، وتلهب نيران الغرائز ، تصفح جريدة من الجرائد أو صحيفة من الصحف المنتشرة ، ترى وتحس وتلمس فيها الصراعات المختلفة التى أوقدت الحرائق البشرية هنا وهناك ، وعصفت بالإنسان الغريب وسعرته وقودا لهذه البراكين الهوج .

هدوء الضمير :

إذا أراد العلم الاستقرار والأمن فليعمل على استقرار الفرد فيه ، وعلى تربية

---

(١) الإسراء ـــ ٨٢ .

ضميره ، وشفاء نفسه أولا ، ولن يجد ذلك إلا فى حضارة الإسلام ، فإن للفرد فى النظام الإسلامى قيمة أساسية ، فهو اللبنة الأولى التى يركز عليها الإسلام لبناء مجتمعه ، ففى ضميره تنبت البذرة الأولى للعقيدة ، وهذه العقيدة تستحيل فى سلوكه إلى حقيقة ظاهرة ، فتكون ترجمة حياة وطريق سلوك .

فى ضمير الفرد يغرس الإسلام بذور الأمن والاستقرار والإيمان ، الإيمان الإيجابى الذى يرفع الحياة ويرقيها ، لا الإيمان السلبى الذى يرضى بكل شىء ، ويسيح فى كل شىء ، ويدع المبادىء العليا تداس وتمتهن فى سبيل متعة البطن والفرج والجسد ، الإيمان النابع من التناسق والتوافق والتوازن ، المؤلف من الطلاقة والنظام ، الناشىء من إطلاق القوى والطاقات الصالحة البانيـة ، ومن تهذيب النزعات والنزوات ، لا من الكبت والاستقذار والتنويم والخمود ، الإيمان الذى يعترف للفرد بوجوده وبنوازعه وبأشواقه وببشريته ، جسدية أو روحية ، ويعترف فى الوقت نفسه بالجماعة ومصالحها وأهدافها وحرية الآخرين وصيانة أعراضهم وأموالهم ، ويعترف كذلك بالخلق والمثل المترابطة مع الحياة ومع خطو الإنسان وعمله وفعله فى تلك الحياة ، الإيمان الذى يربط الحاضر بالمصير ، ويجعل الإنسان رقيبا على نفسه وعلى عمله ، الإيمان الذى يوفق بين الغرائز والطاقات والفطر والتطلعات ، ويوفق بين الخيال والواقع والأحلام والأمانى ، فلا ينشطر الإنسان أو يتمزق أو يقلق ويعقد ، وإنما يهدأ ويقر وينعم ويسعد ، لأنه تحل فيه هداية الله وأنوار الوحى وفقه الرسالة .

النجاة من الحيرة والشك :

بهذا الإيمان العميق ، وهذه الهداية الغامرة ، وهذا الوحى المنير ، المؤيد بالعقل والمنطق المستقيم ، والمتقبل من الفطرة الطاهرة ؛ سلم متبع المنهج الإسلامى من الشك والاضطراب ، واستراح من البلبلة والحيرة الذهنية والنفسية التى يتجرع غصصها الشاردون عن هذا المنهج المستقيم .

بالإيمان حل المؤمن ألغاز الوجود الكبرى ، حين عرف مبدأه ، ومصيره ، وغايته ، ومهمته . عرف أن له ربا ــ هو رب كل شىء ــ هو الذى خلقه ، وسواه ، وكرمه ، وفضله ، وجعله فى الأرض خليفة ، وتكفل برزقه ، وذلل له الأرض . عرف

المؤمن أنه لم يخلق فى الحياةعبثا ولم يترك سدى ، وإنما هو فى عناية الله ورحمته ، بعث له رسلا مبشرين ومنذرين ، ليبينوا له الطريق المستقيم ، ويهدوا الناس إلى الحق والرشاد ، ويحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه ، كما عرف المؤمن أنه ليس غريبا على الكون الكبير من حوله ، ففطرة هذا الكون هى الإيمان ، هى الخضوع والتسبيح والسجود لله سبحانه : ﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ (١). أما الجاحدون بهذا المنهج ، أو المرتابون فيه ؛ فإنهم يحيون الحياة لا طعم لها ، يحيونها فى شك وحيرة ، فكلها من حولهم علامات استفهام .

نرى ذلك فى أحوالهم قديما وحديثا ، قديما فى مثل الشبل الفداوى فى قصيدته الرائية :

بربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟

إلى أن يقول متسائلا عن علة الوجود :

فماذا الامتنان على وجود لغير الموجودين به الخيار ؟
وكانت أنعما لو أن كونا نخير قبله أو نستشار !

وفى مثل ذلك يقول عمر الخيام :

لبست ثوب العمر لم أستشر وصرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم أدر لماذا جئت ؟ أين المفر ؟

وحديثا يقول إيليا أبو ماضى :

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت
ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت
وسأبقى سائرا إن شئت هذا أم أبيت

---

(١) النحل — ٤٩ .

كيف جئت كيف أبصرت طريقى
لست أدرى
أجديد أم قديم أنا فى هذا الوجود
هل أنا حر طليق أم أسير فى قيود
هل أنا قائد نفسى فى حياتى أم مقود
أتمنى أننى أدرى ولكــــن ..
لست أدرى
وطريقى ماطريقى أطويل أم قصير
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور
أأنا سائر فى الدرب ، أم الدرب يسير
أم كلانا واقف والدهر يجرى
لست أدرى
أتراني قبلما أصبحت إنسانا سويا
كنت محوا ومحالا ، أم تراني كنت شيا
ألهذا اللغز حل ؟ ، أم سيبقى أبديا
لست أدرى ولماذا لست أدرى ؟؟
لست أدرى [1]

إن هذا الشك والاضطراب والقلق الذى يتقلب على جمره الحائرون ، أمر رهيب حقا ، إنه عذاب أليم ونار تلفح القلوب والوجوه ، يحرم الإنسان لذة الحياة وهدوء الضمير ، ويقض مضجعه ، ويؤرق ليله ، ويتعس نهاره ، ويجعله يعيش كما قال الله ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ [2].

أما المؤمن ، فإنه ــ على خلاف ذلك ــ عنده إجابة من الله وتفسير لكل

(١) ديوان « الجداول » إليا أبو ماضى ــ ص ١٣٩ ــ ط دار العلم للملايين بيروت .
(٢) طه ــ ١٢٤ .

ذلك ، يعرف طريقه وغايته ومصيره ، فى هذا يقول الحق سبحانه ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (١) ، ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليـزدادوا إيمانـا مع إيمانهم ، ولله جنـود السمـوات والأرض وكان الله عليمـا حكيمـا ﴾ (٢)، ﴿ من عمـل صالحا من ذكـر أو أنثى وهـو مؤمن فلنحيينـه حيـاة طيبة ﴾ (٣). عرف المؤمن غايته فاستراح إليها ، وعرف الطريق فاطمأن به ، إنه طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

الراحة من المعاناة :

تحتاج البشرية إلى الحضارة الإسلامية لترتاح من المعاناة الفردية والجماعية كما ألمحنا ، وإذا كان الفرد يلزمه الراحة من المعاناة النفسية فى داخله وفى أعماقه ، فإنه تلزمه أيضا الراحة من المعاناة الواقعة عليه ، من هضم للحقوق ، وظلم ، وبغى ، واستعباد ، يقهر الإنسان ، ويذله ، ويطحن كرامته ، وستظل الإنسانية تعانى من هذا الهلاك لشخصيتها ما دامت هناك عنصرية فى اللون والجنس والأرض . وستظل فكرة الإنسانية الواحدة بعيدة عن التحقق فى ظل هذه الحضارة العنصرية ، مهما نودى بفكرة الوحدة العالمية ، لأن هذه الوحدة لا بد أن تقوم على عقيدة أدبية ، تكيف الصلاة المادية ، وتسير الآلات والأجهزة لبناء الحياة لا لتحطيم الحياة .

وستظل الأطماع الدولية تتحكم ، فتبيح للساسة والقادة كل منكر وكل إجرام وكل وحشية ؛ لأنها توجه إلى دول أخرى أو جنس آخر ، وما دامت فكرة قداسة الدولة ــ لا قداسة الإنسانية ــ هى التى تتحكم ، فلـن يكـون هنـاك رادع عن ارتكاب أحط الجرائم فى حقوق الأخريـن ، وستظـل الغايـة تبرر الوسيلـة فى نظرهـم ، وسيعتبر المجرم بطلا عظيما ، والغادر سياسيا بارعا ، على نحو ما شاهدت البشرية فى

---

(١) الرعد ــ ٢٧ ــ ٢٨ .
(٢) الفتح ــ ٤ .
(٣) النحل ــ ٩٧ .

تاريخها كله ، فيما عدا الفترة التى سيطر فيها الإسلام وكانت قبسا من النور فى غياهب الظلام .

إن الإسلام قوة تحريرية ــ تنطلق فى الأرض لتحرر البشر من أغلالهم ، وتمنحهم الحرية والنور والكرامة ، دون نظر إلى عصبية عنصرية أو عصبية دينية ، فإذا اصطدمت هذه القوى بقوى الشر والطغيان والاستعباد كافحت هذه القوى الشريرة وحدها ، مبرأة من كل غاية استعمارية ومن كل غاية اقتصادية ، « فقد بعث محمد ﷺ هاديا ولم يبعث جابيا » كما قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لعامله الذى أرسل إليه يشكو نقص الجزية لأن الناس آثروا الإسلام .

وحين ينطلق الإسلام ليقوم بواجبه فى خدمة الإنسانية وراحتها وكرامتها واستقامتها لا ينس أن مصلحة البشرية العليا هى هدفه الأول ، لا مصلحة الفاتحين الشخصية ، ولا مصلحة المسلمين خاصة ، فلا مجال فى الإسلام وفى تعاليمه إذاً لقداسة الدولة التى تبيح المحظور ، وتبرر المنكر ، وتصف الغدر والكذب والنفاق بالبراعة السياسية ، أو تصف القسوة والجريمة والوحشية بالبطولة الحربية ، ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ... ﴾[1] « كما أن العهود التى يقطعها المسلمون على أنفسهم أو يعطونها للعدو أو الصديق عهودٌ مقدسة ، لا يجوز نقضها بعد توكيدها ، مهما تفوت على المسلمين من مصالح قريبة ومطامع مرغوبة ، لأن الشرف مرعى مهما يسبب للمسلمين من خسائر ومتاعب . ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمَانَ بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . إن الله يعلم ماتفعلون ﴾[2] ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا ﴾[3] .

والشعور الإنسانى محترم مهما تكن قسوة المعركة وشرود العدو وخسته وحرارة الحرب وقوة النزال والضرب ، وقد أمر المسلمون أن لا يقتلوا شيخا أو طفلا أو أمرأة ، أو يتعرضون لعابد أو يهلكون زرعا ، وقد كسب الإسلام بذلك كله ، ولم

---

(١) النساء ــ ١٠٥ .
(٢) النحل ــ ٩١ .
(٣) الإسراء ــ ٣٤ .

يخسر فى النهاية ، كسب الأرواح والنفوس ، كسب توطيد الأخلاق والمبادىء العليا التى جاء لإقرارها فى الأرض ، كسب حب الإنسانية وتقديرها ، بحيث تعلقت وشغفت به حبا ، وسعدت به وعاشت فى ظلاله ، وهكذا الإسلام وتعاليمه وحضارته جاءت للإنسان ، لفطرته ، وأمنه ، وحياته ، ورفاهيته ، وحملها رجال لا يبغون عزا لأنفسهم ، ولا مالا لذواتهم ، ولا مجدا لشعب معين على حساب الآخرين ، يحملون تلك التعاليم ، ويعيشون لها ، ويسعدون ويفرحون بسعادة الناس بها ودخولهم فى كنفها ، ويحزنون لبعد الناس عن تلك القيم وهذه المبادىء ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[1] ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾[2] فمنهج بهذه التعاليم ورجال بهذه الصفة لابد أن يكون لهم شأن ، وإذا كان البقاء للأصلح ، كما يتمثل ذلك فى القاعدة الإسلامية : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾[3] فأى صلاح أفضل من هذا وأجل وأسمى .

المسلمون قادمون :

أبنَّا أن هذا الدين يحمل عوامل ديمومته واستمراره بين جنبيه ، وهذا أمر بدهى ، فما دام الله سبحانه قد أراد أن يكون هذا الدين هو الخاتم ؛ فمعنى هذا أنه سبحانه قد أمده بعناصر القوة والحيوية ، بما يجعله قديرا على التواصل مع أجيال البشرية المتعاقبة جيلا بعد جيل .. وسواء مر على ظهور الإسلام قرن واحد ، أم أربعة عشر قرنا ، أم مائه قرن أو أكثر ؛ فإن هذا الدين سيظل يحمل ما منحه الله سبحانه من قوة وحيوية وصلاحية ، وسيظل قديرا على الصمود والعطاء حيث يجب الصمود ويكون العطاء ، وسيكون على مر الأيام بصيرا بمطالب البشرية فى كل مكان وزمان .. متمكنا من الامتداد والانتشار هنا وهناك ، لأنه دين الفطرة الذى يتعامل مع الإنسان كإنسان روحا ومادة وفطرة وقيمة ، ويتعامل مع الطبيعة سننا ونواميس

---

(١) الكهف ــ ٦ .

(٢) الشعراء ــ ٣ .

(٣) الرعد ــ ١٧ .

مخلوقة لخالق ، ويتعامل مع التاريخ حركةدائبة دائمة متجددة ، تحمل العبرة والعظة ، كما تحمل المعرفة والثقافة ، وتستوعب الحياة الماضية والحاضرة والمستقبلة ، وحدة متكاملة وقد التفت المسلمون فى هذه الأيام إلى عبرة الأربعة عشر قرنا التى ولت وانقضت ، والإسلام شامخ ثابت يتحدى بكل شىء ، بتعاليمه ، بحيويته ، بقوته ... ، فعبر مسيرته الحافلة ذات الأربعة عشر قرنا كان الإسلام قديرا ـ أبدا ـ على التجدد والانبعاث ، فكلما أدلهم خطب ، وذرت فتنة قرنها ، وكاد اليأس أن يأخذ بتلابيب النفوس والأرواح ؛ كلما برز رجال أو انبعثت حركات وصيحات سطع فيها ضوء الإسلام وشعاعه ، فإذا هى مبهرة تنادى إلى قوة البعث فيه ، وطبيعة الحياة فى تعاليمه ، فما يلبث أن يبرهن من جديد أنه على استعداد ليعيدها كما بدأت ، وينيرها كلما اظلمت ، ويطهرها كلما تدنست.

إنه دين يحمل فى تركيبه المعجز القدرة الأبدية الخلاقة على التجدد والإنبعاث .. بل إن هناك ما هو أبعد من ذلك فى طبيعة هذا الدين وفى تاريخه إنه يسير بدعاته وبغير دعاته بقوته الذاتية ودفعه التلقائى ، وإنه حينما يخسر معركة أو تظن قوى الباطل أنها انتصرت عليه فى جهة من الجهات لا يلبث أن يظهر مده فى جهة أخرى ، وأن ينتفض فى ميدان آخر ، ويكون فى نهاية الأمر هو الفائز والمنتصر فى حساب الخسائر والأرباح !! .

صحوة وانتشار :

فى هذه الأيام التى يعيش الناس فيها المدنية الحديثة نرى الإسلام العجيب ينشر كلا جناحيه على الكرة الأرضية ، ويتوافد عليه رجال من الشرق أو الغرب على السواء ، حتى أزعج هذا المد المتواصل الكثيرين فى الشرق والغرب ، وكثرت الكتابة فى فرنسا عن المد الإسلامى الطاغى تحت عنوان « المسلمون قادمون » ، وظهرت عدة كتب بهذا العنوان ، وطارت إلى كثير من البلاد الأوربية ، وانزعج منها كثيرا الفاتيكان ، ووصلت هذه الموجة إلى أمريكا ، وقامت هناك حركات إسلامية فى وسط الزنوج والملونين وإقبال إسلامى من البيض والمتعلمين ، مد إسلامى هنا وهناك ، وأريد أن أضرب مثلين اثنين على

هذه الصحوة وهذا التقدم الإسلامى ، الأول فى شعب من شعوب الحضارة ، والثانى فى شعب من شعوب الدول النامية .

الإسلام فى كوريا :

لم يصل الإسلام إلى كوريا ، ولم تذهب دعاة الإسلام إلى تلك البقاع ، ولم يدر أحد من أهل تلك البلاد عن الإسلام شيئا ، لم يقرأ عنه ، لم يسمع حتى شيئا من تعاليمه ، إلى أن ذهب إلى هناك فى الحرب العالمية الثانية بعض الجنود الأتراك لمحاربة الشيوعيين ، فاختلطوا ببعض أهالى المنطقة ، وشرحوا لهم بعض تعاليم الإسلام ، فآمن بعض الكوريين واعتنقوا الإسلام . ونترك الحديث للمسلم الأول فى كوريا يحكى قصة دخول الإسلام فى كوريا ، وهو الحاج « محمد يون تويون » ٧٢ سنة فيقول : تعرفت على بعض الجنود الأتراك ، وعرفت منهم بعض تعاليم الإسلام ، وكنت بعد ذلك أذهب إليهم وأزورهم أنا وأخى الحاج عمر فى معسكرهم ؛ للتعرف على المزيد من الإسلام ، واعتنقنا الإسلام والحمد لله بعد معرفتنا لتعاليم الإسلام ، وقد طلبت من أحد الجنود الأتراك مساعدتنا فى نشاطنا الإسلامى ، وقد وافق على ذلك وكان اسمه جبير كوتش ـــ مايزال على قيد الحياة إلى الآن جزاه الله خيرا وهو موجود الآن بأزمير ـــ وكان سنى وقت اعتناق الإسلام ٥٠ عاما ، وصرنا ندعوا إلى الإسلام ، والإسلام ينتشر بسهولة ، والكثير من الناس يرغب فى الدخول فى الإسلام لوضوح عقيدته وحيويته » .

وقد انتشر الإسلام فى كوريا الجنوبية رغم أنه لا يوجد التعريف الكافى ، أو الدعاية اللازمة ، أو الكتاب الكورى الذى يشرح بلغة القوم تعاليم الإسلام وقضاياه ، ولكن الكوريين الذين أنعم الله عليهم بالإسلام استطاع بعضهم أن يتقن لغة القرآن ، وأن يقوم بترجمة بعض الكتب الإسلامية إلى كوريا على نفقتهم الخاصة ، وأن يتولى العاملون فى حقل الدعوة منهم توزيعها على الناس لمعرفة تعاليم الإسلام .

ومن هؤلاء الذين أسلموا وكانت لهم جهود مشكورة فى هذا المجال :

البروفيسور : عثمان كيم يونغ سون ، أستاذ فى جامعة هانكوك للدراسات الأجنبية ، قام بترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة الكورية للمرة الأولى .

قصتى مع القرآن :

يقول البروفيسور عثمان عن قصة ترجمته لمعانى القرآن : كنت أدرس القرآن وتفسيره فى قسم اللغة العربية بالجامعة منذ عام ١٩٧١ ، وقرأت ودرست تفسير المنار للشيخ « محمد رشيد رضا » ، كما قرأت ترجمة معانى القرآن بالإنكليزية ليوسف على ، ثم فكرت فى أن أترجم معانى القرآن إلى الكورية ، حيث لم يترجم سابقا ، خاصة وأن الإسلام بدأ ينتشر فى كوريا ، وأصبحت الحاجة ماسة لتفهم معانى القرآن الكريم ، هذا الأمر بنظرى على غاية من الأهمية للدعوة الإسلامية فى بلادى كوريا ، وقد بدأت عملى سنة ١٩٧٥ وانتهيت منه فى فبراير سنة ١٩٨١ ، كنت أعمل باستمرار أكثر من ثلاث ساعات يوميا ، وبعد أن انتهيت من الترجمة واجهتنى مشكلة طبعه ، فاقترضت من اتحاد المسلمين فى كوريا حوالى عشرين ألف دولار ، وطبعت من الترجمة ألف نسخة فقط ، وهذا العدد لا يسد حاجة البلاد ، وسأفكر فى طبعه مرة أخرى ، وسأبدأ عملى اعتبارا من السنة القادمة فى ترجمة سيرة الرسول ﷺ ؛ لأننى أعتقد أن فهم السيرة ضرورى لمعرفة كتاب الله ، ولدى مشروع لترجمة حديث رسول الله ﷺ . وأنا أجد لذة فى مصاحبة القرآن وسيرة رسول الله وحديثه ﷺ .

جهود المسلمين فى كوريا :

يتعجب الإنسان وتأخذه الدهشة إذا تصور أن رجلا واحدا أسلم من مدة وجيزة استطاع أن يدخل فى الإسلام اكثر من عشرين ألفا ، ثم واصل الدعوة حتى دخلت بعد ذلك قرى بأكملها فى الإسلام ، فى بلاد بلغت شأوا كبيرا فى العلم والمدنية ، حتى أصبحت تنافس أوربا وأمريكا واليابان صناعيا وعمرانيا وعلميا .

ولكنه الإسلام ، الدعوة الغلابة التى تعطى معتنقيها قوة وسطوة وحلاوة إذا آمن بصدق ، ودعا بإخلاص ، وأقبل بيقين ، وقد أخبر القرآن بذلك فقال : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ ، ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ، ﴿ ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ .

ولقد قامت المجموعة الكورية المسلمة بتنظيم نفسها بنفسها ، وقامت بجهود مختلفة فى مجال الدعوة ، وفى مجال المؤسسات الإسلامية والتعليمية والإعلامية ، التى تخدم الدعوة الإسلامية ، وتسهل وصولها إلى الناس .

جهودهم فى الدعوة :

قام الاتحاد الإسلامى الكورى بجهود قيمة ، نذكر منها مايلى :

١ــ دعوة المدرسين فى المدارس إلى اعتناق الإسلام وشرحه لهم .

٢ــ دعوة الطلاب ، وإقامة ندوات لهم ، وتعريفهم بميزة الإسلام وعقيدته .

٣ــ ترجمة كتب للطلاب فى المدارس والجامعات ، وللأفراد المتعلمين فى الأمة لشرح الإسلام وتوضيح عقيدته .

٤ــ إصدار مجلات إسلامية تحمل رأى الإسلام وتدعو إليه .

٥ــ زيارات للأسر ، وشرح الإسلام لهم وتبيان مميزاته .

٦ــ مشاركة الناس فى أفراحهم وأحزانهم ومواساتهم .

٧ــ حل مشاكل الناس بما يستطيعون وقضاء مصالحهم .

٨ــ خدمات اجتماعية كالعبادات لمعالجة الفقراء ومساعدة المحتاج .

٩ــ إظهار المعاملات الإسلامية المتميزة .

١٠ــ مكتبات لإعارة المحتاجين إلى الكتب العلمية والإسلامية .

١١ــ تعليم اللغة العربية وتدريب المسلمين عليها لأنها لغة القرآن .

١٢ــ ترجمة الكتب إلى لغة البلاد الأصلية .

١٣ــ اختيار الطلبة الصالحين ، وإرسال نخبة منهم إلى البلاد الإسلامية .

١٤ـــ إرسال دعاة إلى الجهات المختلفة ، للدعوة إلى الإسلام فى البلاد .

ولبيان مدى نشاط الدعاة فى الدعوة إلى الإسلام نذكر نشاط داعية منهم على سبيل المثال : الداعية اسمه الأخ « راضى كو » ، تخرج من جامعة كورية مختصا بالاقتصاد ، وعمل مديرا لشركة تجارية كبيرة ، أنعم الله عليه بالإسلام . ثقف نفسه إسلاميا ، وجد فى الإسلام بغيته ، ووجد الإسلام مليئا بالحيوية والعطاء ، يقول : علمت أن الله يريد من كل مسلم أن يكون داعية لدين الله سبحانه وتعالى ، وبهذا أكون مسئولا بين يدى الله عن تبليغ الإسلام فى بلادى ، دعوت إلى الله سبحانه فى كل مجال ، ويسعدنى أن يعم الإسلام العالم لتسعد البشرية به ، أزور المناطق الكثيرة فى كوريا ، وأشرح لهم الإسلام ، وخاصة أقوم بزيارة للجيش ، وأشرح مفهوم الجهاد فى الإسلام ، وأجد تقبلا من قادات الجيش ، وأعتقد أن الإسلام سينتشر فى كوريا ، وأن كوريا ستصبح مسلمة فى المستقبل ؛ لأن الدين الإسلامى يخاطب الفطر ، ويصلح المجتمعات ، ويمنعها من الانهيار الخلقى والروحى والمادى . وبلادى تتمتع بالحرية ، ولا تمانع من انتشار الإسلام ، ولا تحول بين الفرد وأى دين يختار .

حيوية الرسالة :

أى رسالة هذه تلك التى إذا دخلت القلوب فعلت بها فعل الماء والنماء ، وبعثت فيها الحياة ، رجل واحد يؤمن فى القرية فيثير كل هذا النشاط ، وكل هذه الحركة ، وليس هناك وراءه دولة أو هيئة أو مؤسسة ، أو تسنده قوة من القوى ولا يبتغى بذلك جزاء ولا شكورا إلا خير الناس وثواب الله سبحانه وتعالى ، يدخل فى كل عام ٤ آلاف إلى الإسلام ، وفى بعض المناطق تدخل قرى بأكملها فى الإسلام عن رغبة وطواعية وحب يصل إلى حد العشق والوله .

أى رسالة هذه التى تسير وحدها بغير المسلمين ، وبغير دعاة الإسلام ، وبغير أولى الأمر ، وبغير أموالهم وسلطانهم ، وبغير ذلك كله فى شرف ونزاهة ورفعة وشموخ ، تسير وهى مهزومة فى بلاد المسلمين ، معطلة بينهم ، تفتح جبهات أخرى وميادين نابهة عطشى ، تقدر قيم الأشياء ومعادن الدعوات ، وهذه طبيعة الدعوة الإسلامية من قديم ، بدءاً من عهدها مع الداعية الأول ﷺ وإلى عصرنا ، وإلى أن

يرث الله الأرض ومن عليها ، تسير مع النـابهين ، ولا تحب الخامـلين العابـثين ، تركت مكة وذهبت إلى المدينة فانتصرت ، وتركت الحجاز والخلافة وذهبت إلى مصر فانتصرت على الصليبيين والتتار ، وتركت الشرق وذهبت إلى الأندلس ، وتركت الأندلس وذهبت إلى تركيا ، ثم تركت تركيا والشرق الميت وتذهب الآن إلى بقاع أخرى أوربية وغير أوربية ، ترتادها ، وتعمل عملها ، وإن غدا لناظره قريب .

جهود المسلمين الكوريين فى مجال المؤسسات الإسلامية :

عرف الكوريون أنه لابد من تعلم اللغة العربية لفهم الإسلام واستيعاب معانى القـرآن والسنة ، فعملوا على إنشاء مدارس إسلامية لتعليم اللغة العربية مع الإسلام ، كما عملوا على فتح أقسام اللغة العربية فى الجامعات الكورية ، واستطاعوا أن يفتحوا قسم اللغة العربية فى جامعة « هانكوك » ، ويعد من أكبر أقسام الجامعة ، وعدد الطلاب فيه يصلون إلى خمسمائة طالب ، يبذلون جهودا طيبة فى تعلم اللغة العربية وآدابها وعلومها ، واعتنقت نسبة كبيرة منهم الدين الإسلامى ، ويداومون على الصلاة فى المركز الإسلامى . كما أنشىء قسم للغة العربية فى جامعة « ميونجى » يبلغ عدد طلابه مائتى طالب ، يدرسون اللغة العربية عن رغبة واقتناع ، لأنها مفتاح لفهم الدين الإسلامى الجديد الذى بدأت خطواته فى كوريا .

كما أقام اتحاد المسلمين فى كوريا مركزا لتدريب وتعليم اللغة العربية ، يتفرع منه مدارس فى عدة مناطق لتأدية الغرض نفسه ، وقد أقيم هذا المركز عام ١٩٧٦ .

جامعة كوريا الإسلامية :

بعد أن عزم الاتحاد الإسلامى فى كوريا على فتح المدارس الإسلامية ، وتم له ذلك ، فكر الاتحاد فى فتح جامعة إسلامية ، وقد خرج المشروع إلى حيز الوجود بفضل جهود هذا الشباب الكورى المتعلم النابه الملتهب بالعقيدة الإسلامية ، فتبرعت الحكومة بعد اقتناع لاتحاد المسلمين الكوريين بأرض مساحتها ٤٣٠٫٠٠٠ متر مربع ، بأمر رئيس الجمهورية ، وقامت الحكومة بشق الطرق اللازمة الموصلة إليها لتصلها كل المرافق والمواصلات .

وقد شكلت لجنة من أعضاء الاتحاد والمتخصصين فى وضع المناهج الدراسية للجامعات ذات الطابع الإسلامى فى الدول الإسلامية ، لوضع المناهج المناسبة للجامعة ، ويتكون هذا المنهج من :

١ــ دراسة القرآن الكريم تلاوة وحفظا وتفسيرا .

٢ــ دراسة أحاديث الرسول ﷺ وتفسيرها .

٣ــ دراسة العقائد والفقه والسيرة والعلوم الإسلامية .

كلياتها :

١ــ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .

٢ــ كلية للغة العربية وآدابها .

٣ــ كلية لغات أندونيسيا وملايو .

٤ــ كلية اقتصاد .

٥ــ كلية إدارة وتجارة .

٦ــ كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية .

من أهداف الجامعة :

١ــ التبادل الثقافى بينها وبين جامعات الدول الإسلامية .

٢ــ إيجاد معاهد لتعليم أبناء المسلمين فى كوريا .

٣ــ تعليم العقيدة الصحيحة ؛ لنشر الدعوة فى كوريا والبلاد المجاورة ، حتى تكون منطلقا للدعوة الإسلامية فى المنطقة .

٤ــ إصدار المجلات والدوريات ، وتنظيم المحاضرات ، وإقامة معارض الكتب الإسلامية .

٥ــ تدريب الطلاب على الإسلام العملى والحياة الإسلامية ، وتخريج دعاة ومدرسين أكفاء .

جهودهم فى بناء المساجد :

أقام المسلمون العديد من المساجد الهامة ، لأداء الشعائر الدينية وإقامة الصلوات ، ولتكون مركزا لنشر الدعوة الإسلامية وشرح تعاليم الإسلام وتعليم أدابه ،

نذكر أهم تلك المساجد :

١ــ أقام المسلمون مسجدهم الأول فى سيئول العاصمة ، لنشر الدعوة الإسلامية ، وإقامة الشعائر ، وكان له نشاط كبير ، وأصدر مجلة باسم « كوريا إسلام » ، للدعوة إلى الدين الجديد ، وتعريف الناس به .

٢ــ المسجد الكبير والمركز الإسلامى بسيئول ؛ لما ضاق المسجد الأول وانتشر الإسلام ، بنى المسلمون مسجدهم الكبير فى قلب العاصمة سيئول ، وكان لبناء هذا المسجد أثره فى الدعوة إلى الله وإلى الإسلام وتعريف الناس به .

٣ــ المركز الإسلامى فى مدينة « بوسان » بنى على أرض مساحتها ٢٠٨٥ مترا مربعا ، وافتتح فى سبتمبر سنة ١٩٨٠ ، وهو يؤدى دوره الهام فى نشر الدعوة الإسلامية بين الكوريين .

٤ــ المركز الإسلامى الملحق بالمسجد الكبير الذى بنى فى عام ١٩٧٠ ، وامتد إلى خارج العاصمة وأصبح له ثلاثة فروع خارجها .

٥ــ مسجد « كوانغجوا » بنى فى عام ١٩٧٨ ، وكانت نواته الأولى رجل فى القرية هو الحاج عبد الله جون ، وقد بنى أول الأمر مسجدا صغيرا فى بيته فى القرية ثم انتشر الإسلام فى القرية ، وأسلمت القرية كلها ، وهى أول قرية فى كوريا مسلمة مائة فى المائة ، بعد أن شرح الله صدرها للإسلام والقرى القريبة تفكر فى الإسلام بعد أن رأت سلوك المسلمين الطيب وسيرتهم الحسنة .

آثار الإسلام فى المجتمع الكورى :

١ــ أهل القرى التى اعتنقت الإسلام تركوا حياة التبذل والفجور والإباحية .

٢ــ رقَّت حواشيهم ، وكثر التعاون فيما بينهم ، وظهرت فيهم القيم .

٣ــ ترك المسكرات والبعد عن الخمر والميسر .

٤ــ اختفاء الجرائم والسرقات ، وظهرت المحبة والألفة .

٥ــ حبهم للعبادة والإقبال عليها ، ودأبهم الكبير فى حفظ القرآن ومعرفة الإسلام .

٦ـ تطوع الكثيرين للدعوة إلى الله فى القرى المجاورة .

٧ـ إقبال المتعلمين على الدين الجديد ؛ لأنه يعطيهم طاقة ، وهدوءً نفسيا ، وفهما جديداً للحياة .

توقعات الكوريين وآرائهم :

١ـ الدين الإسلامى دين علمى خالد ، لا يفرق بين الناس بألوانهم ولا أموالهم ، ويعتبر البشرية أسرة واحدة ، ولهذا فهو دين المستقبل وحضارته .

٢ـ جاء الإسلام بحقيقة الحقائق ، وهى أن الله واحد ، ونحن نستطيع أن نجزم بواسطة العقل والمنطق كذلك بأن الله واحد لاشريك له ، وأنه خالق الكون . والتناقض الذى عليه الديانات والمذاهب المختلفة مرفوض فى العقل والمنطق والواقع ، وصدق الله ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ .[(١)]

٣ـ المعتقد أن الإسلام سينتشر فى كوريا ؛ لأن النصرانية والبوذية كلاهما يتجه إلى المادية ، ويميل إلى الفلسفة المعقدة ، والإسلام دين يوافق الإنسان ؛ لأنه لا يصادم فطرته ، وهو دين بسيط وميسر .

٤ـ يجب أن ينشر الإسلام بالكلمة والسلوك والأخلاق والمثل الحسن ؛ لإظهار فعاليته الحقيقية ، وتأثيره العملى فى الناس . [(٢)]

إيضاح :

يستطيع الإنسان المسلم أن يرى كيف ينتشر الإسلام بسرعة فى الأوساط الحضارية ، وفى الأمم المتقدمة صناعيا وثقافيا ، لأنهم يعتبرون أن الإسلام بمنهجه وحضارته هو ما كانوا يفتقدون ، ليكتمل تقدمهم ، ويُحفظَ علمهم ، وتوجه ثقافتهم ، وتهنأ أنفُسهم ، وتسلم من الأمراض والعقد والتخريب والشقاء ، إن انتشار

---

(١) الأنبياء / ٢٢ .

(٢) المرجع فى هذه المعلومات مقابلات شخصية ، وتقارير ميدانية ، ومذكرات بالمعهد الدينى بقطر ، ومجلة الأمة القطرية : العدد الحادى عشر السنة الأولى ص ٣٣ الى ص ٥٤ ، مع تقارير لوزارة الأوقاف الكويتية من زيارة لوزيرها الأستاذ يوسف الحجى .

الإسلام بتلك الجهود البسيطة الأولية البدائية فى عصر العلم والفضاء والتلفاز والأقمار الصناعية لدليل على أنه يوازى بمبادئه كل هذا التقدم ، وأن موجاته أعلى وأقوى من كل هذه الموجات ، وأن صوته أرفع من كل بث وأوضح من كل إرسال ».

وإن ثبات الإسلام فى وسط هذه الأعاصير الهوج من المبادىء والنحل والأفكار والشعارات ، رغم ما تملك ، ورغم من يقفون وراءها ، وانتصاره عليها ، يمثل لفتة إلى جبروته الطاغى ، ومنهجه الغلّاب ، وحضارته الراسخة .

كما وأن قبول الإسلام يقتضى قبول لغته ، وتعلمها ، ومعرفة ثقافتها . وهذا شىء يمثل فى عرف الأمم تنازلا كبيرا عن قوميتهم ووطنيتهم ، خصوصا إذا كانت لغته ليس لها حضارة ظاهرة أو معروفة اليوم ، وليس لها علوم أو نظريات فى وسط الحياة العصرية ، يستفيدون منها وينتفعون من ورائها ، ومن هذا التنازل القومى ، بل من التحول عن القومية كلية إلى قومية الإسلام ، التوجه فى صلاتهم إلى قبلة المسلمين ، والتوجه بشعورهم وروحهم وكيانهم إلى نبى الإسلام وتعاليمه ، بل إلى المناسبات الإسلامية ، وأعيادها ، حتى رأينا المسلمين الكوريين يحتفلون معنا — بل قبلنا — بالقرن الخامس عشر الهجرى ، وينشئون الجامعات الإسلامية ، وينسلخون من ثقافتهم إلى ثقافتنا وإلى روحنا .

أفما كان الأجدر بنا أن نكون عند حسن الظن ، وأن نحمل الأمانة ، وأن نبلغها للناس ؟ ويومها سنرى ماذا تكون رسالة الإسلام وحضارته . وياله من دين لو كان له رجال ، ويالها من حضارة ينقصها التبليغ والإعلان والسلوك .

إسلام المنبوذين :

ومن إسلام الأمم المتقدمة علميا إلى الأمم المتخلفة علميا ، وإلى الأمم النامية والفقيرة . من الإسلام المنتشر فى أوربا وفى كوريا إلى الإسلام المنتشر فى الهند ، وسط الفقراء والمنبوذين ، الذين سئموا الحياة ، وسئموا التفرقة العنصرية ، وسئموا ظلم المذاهب والنحل الباطلة ، فالهند دولة كبيرة ذات كثافة سكانية ومساحة واسعة ، وهى أرض الديانات الهندوكية والبوذية والإسلامية والسيخية الزرداشتية والنصرانية وغيرها ، أرض تنبت فيها الآلهة كالأعشاب ، وتقدس فيها الأحجار ولو لم

تكن كريمة ، والأشجار وإن كانت غير مثمرة ، والحيوانات وإن كانت خسيسة مثل القردة ، وبعض أنواع الطيور ، والأبقار ، وقد نالت بعد استقلالها مكانة لابأس بها بين البلاد النامية ودول العالم الثالث وفى هذه الدول ذات الثقافات والحضارات ، وذات العناصر والألوان الديانات والتقاليد ، نرى رجالا سئموا الحياة وبدوا يتذمرون من الفوارق الطبقية والعنصرية ، وضاقوا ذرعا مما يعانون من ويلات القهر منذ زمن عريق، عاشوا فيها ، ديانة لا تؤمن بعنصرية أو طبقية ، وحضارة يكون الإنسان فيها كأسنان المشط سواسية ، يطلبون دينا لايقر الاستقراطية ، ولا يفرق بين أبناء النوع الإنسانى ، إلى شريف ووضيع ، وعال وسافل ينحط من إنسان إلى حيوان ، دين ينادى بصراحة ووضوح : ألا- كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ، يطلبون دينا لا يجعل من إنسان يتنفس أبعاضا طبقة عالية وشعبا مختارا ، وأخرى سافلة مطروحة فى قارعة الطريق ، ومنبوذة فى الأرض ، تداس تحت الأقدام ، يطلبون حضارة لا تقر بنجاسة بعض الأرواح الانسانية .

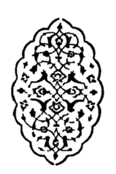
هؤلاء هم المنبوذون الذين بدؤوا يعتنقون الإسلام ، ويدخلون فى دين الله أفواجا ، وهم سعداء حقا ، حيث اهتدوا إلى سواء السبيل من غير أن يرشدهم أحد ، أو يأخذ بأيديهم أحد ، وإنما الفوارق الطبقية فى مجتمعهم هى التى ألجأتهم إلى التحول إلى الإسلام وإلى هديه ونوره ، لقد دخلت قرى بأكملها من الهندوس فى الإسلام ؛ لأنهم من طبقة شودر « المنبوذون » ، لأن المُجتمع الهندوسى الظالم يحتقرهم ، ويعتبرهم أحط من البهائم وأخس من الكلاب ، ولا ذنب لهم ولا جريرة ، لا يُسلِّم أحد عليهم ، ولا يعطون حقوقا ، ولا يجالسون أو يولون ، وليست لهم حرمة أو كرامة أو دية ، وجد هؤلاء فى الإسلام أنه دين الله حقا ، دين العدالة ، دين الحب والحياة والكرامة ، وبغير دعاة وبغير إعلان عرفوا الإسلام ، ودخلوا فيه ، رغم منع السلطان لهم ، ورغم حرق مزارعهم واستباحة قراهم لدخولهم فى الإسلام ، ورغم ما يتعرضون إليه من تجويع وتهديد واستباحة ليلا ونهارا .

لقد زاد اضطهادهم أكثر وأكثر بعد دخولهم الإسلام ، ولكنهم سعداء ،

ولسان حالهم يقول : ﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا﴾ [1]. هذا لأن دين الإسلام هو دين الإنسانية من عند خالقها ، الدين الذى رفع العبيد بالإيمان ، وخفض السادة بالكفر والضلال .

وبعد :

فهذا هو الإسلام ، وهذه حضارته التى يحتاجها العالم ، قويه وضعيفه ، غنيه وفقيره ، متعلمه وجاهله ؛ لأنها حديث الفطرة ، وناموس الكون ، ولغة الحياة التى تنتظرها الحياة ، وصدق الله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [2]. وقد بدأ الحق يعمل عمله ، ويظهر نوره ، ويطلع فجره ، وتبزغ شمسه ، ويستقبله الناس بالأمل والحب والحياة .



(١) انظر على هامش الأحداث ــ لبدر القاسمى الهند ديوبند ــ ص ٣٠ / ٣١ وانظر مجلة البلاغ العدد ٦٥٠ مايو سنة ١٩٨٢ . والآية من سورة طه / ٧٢ .

(٢) الشورى / ٥٣ .

الباب الرابع

التدهور الحضارى وأثره وأسباب انحطاط المسلمين حضاريا

الفصل الأول : الغـزو الفكـرى وتـوارث الحضارات وأثره على الأمة الإسلامية

الفصل الثانى : أمراض الحضارات وعصور الانتحار العلمى

الفصل الثالث : أسباب انحطاط المسلمين حضارياً

الفصل الأول

الغزو الفكرى وتوارث الحضارات وأثره على الأمة الإسلامية

المبحث الأول
أضواء على هذا المصطلح وما يقاربه من مصطلحات

لاشك أن مصطلح الغزو الفكرى مصطلح حُديث ، لم يسمع به بهذا الاسم قبل هذا القرن ، وإن كان معناه ومفهومه قديما قدم الأمم والشعوب والثقافات ، وإذا أردنا أن نضع الكلمة تحت المجهر اللغوى ، ونعرضها على مقاييس اللغة العربية ، فإننا نرى أنها تستند إلى أصل لغوى ، يرتبط معناها بهذا الأصل الذى استعيرت منه لتدل على مفهوم عصرى ، له من الخطر ما للحرب والقتال الذى تشير إليه كلمة الغزو لغويا ، ولوضوح المعنى نعرض لمفردات المصطلح اللغوية .

فكلمة الغزو فى العربية تطلق على السير إلى قتال العدو فى بلاده وانتهابه . يقال : غزوت العدو غزوا : إذا سرت إليه فى بلاده لمقاتلته وحربه . قال ابن برى : وقد جاء الغزو فى شعر الأعشى فقال :

وفى كل عام أنت حاسم غزوة   تشد لأقصاها عزيم عزائكا

وفى شعر جميل قوله :

يقولون جاهد ياجميل بغزوة

وفى الحديث : قال ﷺ يوم فتح مكة :

« لا تغزى قريش بعدها » أى لا تكفر فتغزى .

كما يطلق الغزو على الإرادة والطلب للشيء ، يقال : غزوت فلانا أغزوه غزوا ، إذا أردته وطلبته ، والغِزوة بكسر الغين هى ما غزى وطلب : قال ساعدة بن جوية :

لقلت لدهرى إن هو غزوتى   وإنى وإن أرغبتنى غير فاعل

كما يقال : مغزى الكلام ، مقصده ، وعرفت ما يغزى من هذا الكلام ، أى ما يراد . كما يطلق الغزو على القصد .

فيقال : غزاه ، وغازه غزوا وغوزا ، إذا قصده ، وغزا الأمر واغتزاه : كلاهما قصده . هذا عن ابن الأعرابى . وأنشد

قد يغزى الهجران بالتجرم

كما يقال : غزوى كذا ، أى قصدى . ويقال : ماتغزو ، وما مغزاك : أى ما مطلبك [1]. وعلى هذا فمعنى الكلمة يدور على معنى القصد ، والطلب ، والسير إلى قتال الأعداء فى ديارهم وانتهابهم وقهرهم والتغلب عليهم ، وأما تعريف كلمة الفكر لغويا فتطلق على :

إعمال الخاطر فى الشيء ، وتردد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعانى . يقال : لى فى الأمر فكر أى نظر . ومن العرب من يقول : الفكر والفكرة ، قال الجوهرى : التفكر التأمل ، والاسم الفكر والفكرة ، والمصدر الفكر بالفتح .

كما يطلق الفكر : على ترتيب أمور فى الذهن ، يتوصل بها إلى مطلوب يكون علما أو ظنا [2]. وعلى هذا فالفكر هو القوة العاقلة الناظرة فى الأمور الموجهة للإنسان . وهى التى تحكم على الأشياء وتقدر الأمور التى يتوصل بها مطلوب الإنسان فى الحياة . ومصطلح الغزو الفكرى ، قصد به ، إغارة الأعداء على أمة من الأمم ، بأسلحة معينة ، وأساليب مختلفة ، لتدمير قواها الداخلية وعزائمها ومقوماتها ، وانتهاب كل ما تملك ، ولكن الفرق بين الغزو الفكرى والغزو الجسدى والحربى : أن الغزو الحربى يأتى لتصفية الأجساد ، أما الغزو الفكرى فهو لتصفية العقول والأفهام . ولكن النتيجة واحدة ، هى استعمار الشعوب ، وتصفيتها ، وأخذ خيراتها ، والسيطرة عليها .

وقد يكون خطر الغزو الفكرى أشد وأقسى ؛ لأن الأمة المهزومة فكريا تسير إلى

---

(١) لسان العرب والمصباح المنير فى مادة ــ غزا .

(٢) لسان العرب والمصباح المنير فى مادة ــ فكر .

غازيها عن طواعية ، وإلى جزارها عن رضا واقتناع وحب ، لا تحاول التمرد أو الخلاص .

وبهذا يظهر ما بين المصطلح واللغة من صلة ، حيث أن كلمة الغزو استعملت فى معناها ، وهى الإغارة على أمة من الأمم للاعتداء عليها وانتهابها ، ولكن عن طريق الفكر ، وتدمير القوى المفكرة فيها . وهذا ما لفتت إليه كلمة الفكر التى تطابق معناها فى العربية معناها فى المصطلح . وإذا أردنا أن نكون أكثر إيضاحا وبعدا عن التجاوزات، نقول : استعار المصطلح كلمة الغزو للفكر ، لما بينها وبين الغزو فى الحرب من علاقة فى نهب الشعوب ، وتدميرها ، والسيطرة عليها .

أو هى مجاز على التشبيه بالحرب الفعلية ، فى التدمير ، والتخريب ، والانتهاب ، والسيطرة على الشعوب . ولهذا شاع استعمال هذا المصطلح وأضرابه من المصطلحات ، التى تدل على هذا المعنى ، وتسير فى فلكه .

المصطلحات المشابهة :

ظهرت مصطلحات فكرية أخرى مشابهة للغزو الفكرى ، يقصد بها ويراد منها ما يراد منه ، غير أنها قد تختلف فى بعض الأحيان فى الأساليب والمخططات والأزمان ، ولكن الأهداف العامة واحدة . منها :

الحرب النفسية :

وعرفوها بأنها : « هى استخدام مخطط من جانب دولة أو مجموعة من الدول ، للدعاية وغيرها من الإجراءات الإعلامية ، الموجهة إلى جماعات عدائية أو محايدة أو صديقة ، للتأثير عليها ، وعلى آرائها ، وعواطفها ، ومواقفها ، وسلوكها ، بطريقة تعين على تحقيق سياسة وأهداف الدولة المستخدمة ، أو الدولة المستخدمة »[1]

ولا شك أن هذه الحرب تنصب بالدرجة الأولى على فكر الإنسان وعقله وقواه المدركة ؛ لتدميرها بأساليب مختلفة مثل الإثارة ، والتخويف ، والإرهاب ،

---

(١) الحرب النفسية ــ صلاح نصر ــ ١ / ٩٢ .

والترغيب ، والتشكيك ، وغير ذلك من الأساليب .

هذا وقد صاحب الحرب النفسية جملة من الحروب ، ومن المسميات المساعدة ، مثل : الحرب السياسية ، أو الدبلوماسية ، والحرب الاقتصادية ، والحرب الباردة .

وكل هذه الحروب يراد بها التأثير على أعصاب الجهة المقابلة ، والضغط على تفكيرها ، لشل قدراتها ، وتوجيه مسارها لصالح الجهة المنفذة لهذه الحرب ، وهذه الحرب لا تقتصر على وقت القتال ؛ بل أصبحت تستخدم فى وقت السلم والصلح ، وأوقات النزاع المسلح والمفاوضات الدبلوماسية ، وفى أوقات التحفز « الحرب الباردة » .

والحرب النفسية تشترك مع الغزو الفكرى فى التأثير على العدو ، وتدميره ، ونهبه ، ولكن عمل الحرب النفسية فى وقت النزاع المسلح يكون أكثر وألزم منه فى وقت السلم ، على خلاف الغزو الفكرى . وقد تستعمل الحرب النفسيه للتخويف والإرهاب ، بخلاف الغزو الفكرى الذى يكون بالدهاء والمكر واستعمال الحيل العقلية والثقافية والدعائية ، التى تؤثر فى الناس ، وتغرر بهم ، وتجعلهم يميلون إليها ويأنسون بها .

غسيل المخ :

ولعل هذا المصطلح قد عبر عنه عنوانه أصدق تعبير ، إذ يراد به إزالة ما فى المخ والعقل ، وتفريغه من كل ما يعلق به وكل مايحتويه من أفكار ورغبات أو آراء ومعتقدات ، وقد يصاحب هذا قتل للعقل وتعطيل للإدراك . ولعل هذا ما دعا كثيرا من علماء النفس إلى عده عملا منافيا للإنسانية . فنرى الدكتور ميرلو ، العالم النفسى الهولندى يستخدم فى التعبير عنه كلمة Menticlde ومعناها « قتل العقل » ، ذلك لأن عملية غسيل المخ توجد خضوعا لا إراديا وقهرا للناس ، تسلبهم إنسانيتهم بطرق شتى ، وضغوط معنية ، يستحيل معها المحافظة على أى توازن أو إرادة أو تفكير . ولهذا عرفوه بقولهم : « هو محاولات تستخدم لتوجيه الفكر

الإنسانى ، أو العمل الإنسانى ، ضد رغبة الفرد الحر ، أو ضد إرادته أو عقله » [1].
وعرفه الدكتور الدباغ فى كتابه « غسيل المخ » بقوله : « كل وسيلة تقنية مخططة ، ترمى إلى تحوير الفكر أو السلوك البشرى ضد رغبة الإنسان أو إرادته أو سابق ثقافته وتعليمه » [2]

وظهرت فكرة غسيل المخ ، وبرز هذا المصطلح إلى الوجود عند الصينيين والروس والكوريين ، لتحوير الأفكار، وتنقيتها مما علق بها فى رأيهم من أفكار البرجوازيين والمتربصين والمدمرين . وكان أول من أجرى تجارب غسيل المخ هو العالم الروسى « إيفان بيتروفيق بافلوف » إذ استطاع بافلوف أن يجرى تجاربه على الكلاب ، واستطاع بأساليب معينة : من القهر ، والإرهاب ، والتجويع ، والترويع ، والمثابرة ، أن يخرج الكلاب عن طبيعتها ، ويجعلها مثلا تأكل الحبوب والحشائش ، بدلا من اللحوم والأطعمة المخصصه لها .

وقد عرف لينين قيمة وأهمية أبحاث بافلوف العلمية ، ومدى عمقها ، فقيّمها وشجعها ، وطبقوها على الإنسان ، وأخضعوها لقواعد معينة ، يجب أن يتعرض لها الإنسان حتى يغسل جيدا من هذه الأفكار .

١ ـــ عزل الشخص عن الحياة العامة ، وقطعه عن الدنيا فى زنازين معينة .
٢ ـــ الضغط الجسمانى ، وذلك بالحرمان من الطعام ومن النوم ، وتعريضه للإجهاد والقهر والامتهان .
٣ ـــ التهديدات وأعمال العنف ، إما أن يكون مباشرا ، وآثاره بالتعذيب الجسدى والنفسى ، أو غير مباشر ، وذلك بتعذيب من يحب من أهله وزوجه .
٤ ـــ الإذلال والضغوط ، الإذلال فى إعطاء الطعام الضرورى وفى النوم إن كان ، وفى الاغتسال وفى طريقة الاستئذان وغير ذلك .

---

(١) انظر الحرب النفسية ٢ / ٣ ، ٣١ .
(٢) غسيل الدماغ للدكتور فخرى الدباغ ص ١٣ .

٥ ــ الدروس الجماعية ، وهذه تكون بواسطة مدربين على أهداف يراد تثبيتها من قِبَل من يقومون بهذا الغسيل المراد ، لتثبيت مبادىء معيَّنة [١].

وغسيل المخ هذا يفترق كثيرا فى الأساليب عن الغزو الفكرى ، إذ يعتمد على القهر ، وعلى التعذيب والتصفية الجسدية فى بعض الحالات للإرهاب ، وعلى قتل الفكر وإجهاض العقل إجهاضا مباشرا . ويستعمل هذا على الإنسان الأسير أو الحبيس أو مافى حكمه ، وهذا يخالف أساليب الغزو الفكرى التى أشرنا إليها قبل . ولكن كل منهما يصل إلى أهداف متقاربة .



---

(١) انظر غسيل الدماغ للدكتور فخرى الدباغ ص ٢٨ ، الحرب النفسية ص ٣٠ الى ص ٣٨ .

المبحث الثانى
أسباب الغزو الفكــرى

لاشك أن الغزو الفكرى لأى أمة من الأمم يسبقه ظروف وملابسات معينة ، تمهـد له ، وتوطىء لزحفه وإنشاب أظافره فى تلك الأمة ، وإذا أردنا أن نتكلم على تلك الظروف والملابسات والأسباب التى تعترى الأمم عامة ، والأمة الإسلامية خاصة ، فإن سرد ذلك سيطول ويتشعب ، ولكننا نوجز منها أهم الأسباب والملابسات التى تعرضت لها الأمة الإسلامية فى عصورها الأخيرة ، مما جعلها هدفا لتلك الحملات الشرسة المتواصله للغزو الفكرى الوافد .

١ ـــ التقدم العلمى الغربي :

لاشك أن التقدم العلمى المذهل للغرب كان قويا دفاقا ، له من القوة والانتشار والاستيلاء ما بهر العقول وفتن الألباب ، ولاغرو فقد بَذَّ بذلك كل تقدم علمى عرفه العالم ، وسمعت عنه البشرية فى التاريخ المترامى الأطراف ، واستطاع أن يخرج من الأسرار ويكتشف من الاختراعات ماجعل أبصار الناس وعقولهم تتعلق به ، بل وتفتتن وتسبح به ، وتهلل لبراعته وأحكامه .

واجه العالم الإسلامى هذه المشكلة وجها لوجه ، وهذا التحدى السافر على طريق واحد ، وهو صاحب الحضارة العريقة والرسالة الدينية الخاتمة ، وصاحب الوصاية على البشرية ، بعدما انسحبت كل الديانات والمذاهب القديمة متوارية من نوره الوهاج وحجته المشرقة ، وصاحب الرقعة الواسعة والثقافة المنتشرة والقوة الكبرى التى كان يحسب لها ألف حساب ، فكان تحدى الحضارة المادية الآلية للعالم الإسلامـــــى أعظـــــم من تحديها لأى أمـــــة ، ولأى حضارة ، ولأى ثقافـــــة .

وقد صاحبت تلك الحضارة مذاهب فكرية ، وفلسفات مادية ، ونظم سياسية واقتصادية وعمرانية واجتماعية وخلقية . وكان لابد أن ينظر الناس — وخاصة الشعوب المتخلفة — إلى هذه المذاهب والفلسفات والنظم نظرة تقدير واحترام ، لأنها نتاج تلك الشعوب المتقدمة ، وحصاد تلك الأمم المتطورة ، التى فتتت الذرة ، وصنعت الطائرة والصاروخ ، وأدارت الأقمار ، وفعلت الخوارق . كل هذا مع دعاية ساحرة ، وأساليب منمقة ، وإلحاح قوى ، وإصرار عجيب ، ونية مبيتة ، وخطة محكمة ، لغزو هذه الشعوب المشدوهة ، وفتنة هذه الأمم الساذجة عن نفسها وواقعها . ولهذا كان الضغط على الأمة الإسلامية هائلا ماديا وفكريا ، فى زمن فقدت فيه روادها وفرسانها وثقافتها ، فلما هبت تريد أن تتعلم وأن تنهض لم تجد إلا أن تولى وجهها نحو الغرب صاحب تلك الحضارة ، فذهب شباب ناهض إلى تلك البلاد ليأخذوا من علمها وفنها ، فمنهم من كانوا كالصخرة الشامخة أخذوا العلم وتركوا الغثاء ، بل اكتشفوا أن التقدم العلمى المذهل الذى وصل إليه هؤلاء هو بفضل آبائهم وأجدادهم الذين علموا الدنيا كيف يكون البحث ، وكيف تكون الاستفادة من آلاء الله ومخلوقاته ، كما اكتشفوا أنه لاصلة بين التقدم العلمى وتلك المذاهب والفلسفات التى تريد ترويجها وغزو الأمم بها . ولكن هؤلاء كانوا قلة فى وسط أمواج المثقفين الوافدين ، الذين نهلوا من علوم الغرب وثقافته ، وتأثروا بها درجات متفاوتة ، ومبعث هذا التأثر كانت له أسباب عدة ، منها : دهشتهم وانبهارهم بالتقدم العلمى الكبير فى تلك الأقطار ، ومنها : حال المسلمين وماوصلوا إليه ، ومنها : عدم استيعابهم استيعابا كاملا للثقافة الإسلامية ، ومنها : حب التقليد بغير تفكر

فأما الطائفة الأولى : فهم أغنياء عن التعريف ، لأنهم أعلام جاهدوا فى سبيل أممهم ، وحملوا مشاعل العلم والإيقاظ فترة من الزمان ، وكان لهم فى الرد على المذاهب الهدامة حملات وحملات ، وكان لهم مع الفكر الغربى مساجلات ومحاورات وانتصارات ، هؤلاء من أمثال : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، وشكيب أرسلان ، ومحمد إقبال ، ومحمد فريد .

أجدنى فى غنى عن التحدث عنهم بما اشتهر من أمرهم ، ولكننى أعرض لمثل

أو اثنين ممن اختلفت فيهم الآراء وتشعبت ، وخلطوا عملا صالحا بآخر سيئا ، منهم رفاعة الطهطاوى [١].

ذهب رفاعة الطهطاوى إلى فرنسا مسلحا بثقافة إسلامية ، ثم مالبث أن قرأ لمشاهير الغرب حتى اتسعت ثقافته الغربية ، وألف فى ذلك كتابه المشهور « تخليص الإبريز » ط بولاق سنة ١٢٥٠ هـ ، ومن أشهر ماقرأ من كتب الفلسفة : مؤلفات كونديلاك (ت ١٧٨٠) فى الفلسفة ، وكتابه فى المنطق ، ثم مؤلفات فلتير (ت ١٧٧٨) ، ومنها « معجم الفلسفة » « ومؤلفات روسّو (ت ١٧٧٨) ، وخاصة« عقد التأنس والاجتماع الإنسانى » ، وكتاب برلماكى (ت ١٧٤٨) فى الحقوق الطبيعية ، كما اطلع على كثير من الأفكار والآراء الغربية والنظريات السياسية والاقتصادية » ، [٢] ونظر رفاعة الطهطاوى إلى التقدم العلمى والمعالم الحضارية فى باريس ، فأعجب بمظاهر الحرية والمساواة ، وتفاعل مع أحداث فرنسا وقوانينها ، وأعجب بدستورها وشعبها ، وتحدث عن ذلك مادحا ، فوصفَ مثلا — ثورة الشعب الفرنسى على الملك شارل العاشر سنة ١٨٣٠ ، لأنه خالف الدستور [٣]، مشيدا بهذه الحرية وهذا الدستور . ثم ترجم مواد الدستور ، مبينا ما تنص عليه من تساو بين المواطنين جميعا إزاء القانون فى الحقوق والوظائف والرتب [٤] ، ثم أوضح أنها تكفل حرية الفرد ، وحرية الملكية الفردية ، وحرية العبادة والقول والكتابه والطبع والنشر « بشرط ألا يضر بالقانون » [٥]، وأبدى إعجابه بهذا الدستور ، الذى يسوى بين الملك نفسه وبين عامة الشعب ، ثم بين أن هذه المساواة هى السبب فى شيوع

---

(١) هو رفاعه بدوى رافع الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) ، ولد بطهطا من قرى صعيد مصر ، تعلم بالأزهر ، ثم أوفد إلى باريس سنة ١٨٢٦ ، مرافقا لبعثة علمية ليكون مرشدها الروحى ، فدرس الفرنسية ، وتثقف هناك ، وعاد إلى مصر فتولى رئاسة الترجمة فى المدرسة الطبية ، وتدرج فى غيرها من المناصب . له من الكتب : تخليص الإبريز ، والمرشد الأمين وغيرهما .

(٢) أنظر تخليص الإبريز ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) تخليص الإبريز ١٦٢ — ١٦٧ .

(٤) المرجع السابق ، ٧٣ .

(٥) المرجع السابق — ٦٧ .

العدل وتقدم الحضارة فى فرنسا .[1]ومع أن رفاعة الطهطاوى كان يفتقد كل هذه المعانى فى مصر فى ذلك الوقت ، بل كان يرى ويلمس آثار الحكم المطلق ، والقهر ، والتعسف ، وضياع الحقوق فى الشرق الإسلامى ، إلا أنه لم ينس أن يبين أن هذه الحرية وهذه المساواة ليستا غريبتين عن الإسلام ، فأكد أن الإسلام يدعو إلى المساواة ، والعدل ، والحرية ، مثل تلك القوانين التى بهر بها ، وكأنه يفصل بين أعمال الحكام المسلمين وبين رسالة الإسلام ، ومما قال فى ذلك : « ومع أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض فى الرزق ، فقد جعلهم فى الأحكام متساوين ، لافرق بين الشريف والمشروف ، والرئيس والمرؤوس ، كما أمرت به ودلت عليه سائر الكتب المنزلة على أنبيائه »[2] .

ثم بين رفاعة الطهطاوى أن الإسلام أصل هذه الحضارات والحريات والقوانين السائدة اليوم ، وأنها قد اقتبست من الإسلام الذى جنى على تعاليمه حفنة من الناس ، فقال : « فإن الذى جاء به الإسلام من الأصول والأحكام هو الذى مَدَّن بلاد الدنيا على الإطلاق .... وجميع الاستنباطات العقلية التى وصلت إليها عقول أهل هذه الأمم المتمدنة ، وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم ، قلَّ أن تخرج عن تلك الأصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية التى عليها مدار المعاملات . فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى مايشبهه عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية ، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية »[3] ، ويزيد رفاعة فكرته إيضاحا ، فيقول : « للمعاملات الشرعية أبواب مستوعبة للأحكام التجارية كالشركات ، والمضاربة ، والقرض ، والمخابرة ، والعارية ، والصلح ، وغير ذلك . ولاشك أن قوانين المعاملات الأوربية مستنبطة منها »[4]وقد طالب كذلك

---

(١) تخليص الإبريز ـــ ٧٣ .

(٢) المرشد الأمين للبنات والبنين ص ١٣٠ ط المدارس الملكية سنة ١٢٩٢هـ .

(٣) المرجع السابق ـــ ١٢٤ ـــ ١٢٥ .

(٤) مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية الطبعة الثانية ١٩١٢ ص ١٦٢ للطهطاوى

بتعليم الأولاد من الصغر أصول الدين قبل أى تعليم آخر ،[1] حتى لايتأثروا بضلالات الفلاسفة العقلانيين[2].

ولكن الطهطاوى مع هذا كانت له تجاوزات حسبت عليه ، وأفكار وضح فيها رائحة الغزو الفكرى ، من هذه التجاوزات : إعجابه بالنساء الفرنسيات وبمسلكهن ، وتبريره لخلاعتهن ، مؤكداً أن خلاعة بعضهن لاتشين السفور ولاتمت له بصلة ، وإنما تنشأ من حسن التربية أو رداءتها . ثم تمادى فى ذلك مبررا الرقص الفرنسى للمرأة والرجل ، فقال « فرقص المرأة الفرنسية بين زراعى الرجل لايشم منه رائحة العهر أبدا ، بخلاف الرقص فى أرض مصر ، فإنه من خصوصيات النساء ، لأنه لتهييج الشهوات »[3] وفى رأيى أن الطهطاوى كان برأيه هذا يقارن بين وضعين معينين .

الأول : بين تعليم المرأة الفرنسية ، ومخالطتها المجتمعات ، وخبرتها فى الحياة ، وبين المرأة الشرقية التى حرمت من التعليم والثقافة ، وغابت عن الفاعلية فى الحياة العامة .

ومن هنا كان الإبهار الذى دعاه إلى مدحها .

الثانى : بين عادات ، عادة الرقص فى المجتمعات الباريسية ، وعادة الرقص فى المجتمعات الشرقية ، والثانى كان بلاشك أكثر امتهانا للمرأة من الأول . ولكن هذا كله لايبرر أخذ الأمر على عواهنه ، فالتعليم لايبرر السفور أو الشهوات وإبراز المفاتين ، كما أن الرقص سواء كان بين زراعى الرجل باحترام وحشمة ، أو كان أمام الرجل بهز الأرداف والصدور ، لايكون محموداً أومستحسناً أو غير ملام عليه ، فهو رقص ، وهو خلاعة وامتهان ، وإن اختلفت الأذواق والعادات والتقاليد.

ولكن يظهر أن مخالطة هذه المجتمعات ومعايشتها يورث بعض الناس إلفاً لها،

---

(١) انظر المرشد الأمين ص ١٣ .

(٢) تخليص الإبريز ص ١٢٢ .

(٣) تخليص الابريز ص ٩٠ .

أو تهاونا معها ، وهذا من أساليب الغزو الفكرى الخفى .

خير الدين التونسى[1] :

وممن سار على نهج الطهطاوى : خيرُ الدين التونسى ، إذ نجده أوضح فى كتابه « أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » رأيه عن الحضارة الغربية ، وعن عاداتها ، ثم تكلم عن الوطن والوطنية ، وأخذ فكرة الغربيين فى الروابط بين الرعية ، فاضطر إلى الاعتراف بأن الدين قد لايكون الرابط الوحيد بين أفراد الرعية ، إذ لابد من رابطة الجنس أيضا . ولكنه مع ذلك مدح الأصول الإسلامية، وبين مافيها من أصول تدعو إلى الحرية وإصلاح الحكم ، كما بين أن السبب فى تأخر المسلمين والدول الإسلامية هو تحرر حكامها من قيود الشريعة [2]. وقد أيد خير الدين الخروج على الحكام الظلمة ، فقد كان فى الآستانة حين اندلعت ثورة عرابى « فى حزيران ١٨٨٢ » ، فأكد خير الدين أن ثورة المصريين على الخديوى توفيق ، كانت تحاول أن تحول دون خراب مصر ، وأنهم فى رأيى مخلصون للخلافة ، ولكنهم يطالبون بتحسين مصيرهم ... ولذا فإنهم لايخالفون الشريعة على الإطلاق ، وعليه لايمكننا من الوجهة الدينية ، أن نعتبرهم عصاة . وعلى كل ، هل نستطيع أن نتهم شعبنا بالعصيان لأنه يطالب بوضع حد للمظالم التى لانعرفها ، ونتيجة لهذا الموقف الصريح من حق الشعب فى الحرية ، رفض خير الدين أن يوقع المضبطة الوزارية التى اعتبرت عرابى ورفاقه خارجين على القانون [3].

هذا وقد دعا خير الدين إلى الاجتهاد فى الشريعة ، من غير التمسك بالمذاهب الفقهية ، ومن غير اعتماد على النصوص إذا لم تسعفه ، مادامت غاية المجتهد أن يخدم

---

(١) خير الدين التونسى ، قدم تونس صغيرا ، فاتصل بصاحبها الباى أحمد ، وتعلم العلوم الأجنبية ، والتحق بوظائف الحكومة ، حتى أختير وزيرا للحربية فى تونس ، ثم ولاه السلطان عبد الحميد الصدارة العظمى ، من مؤلفاته أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك توفى سنة ١٨٩٠ فى القسطنطينية .

(٢) انظر أقوم المسالك ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٧٣ ، ٨٦ ، ١٨٦ ط مطبعة الدولة بتونس الطبعة الأولى سنة ١٢٨٤ .

(٣) نظر فى ذلك الرحالون العرب للدكتورة نارل سباياردة ص ٨١ ، ٨٢ ط مؤسسة نوفل لبنان .

الصالح العام .

ثم يفسر الشريعة تفسيرا يستقيه ـــ كما يقول ـــ من فقهاء الحنبليين والحنفيين المتأخرين ، فينكر أن تكون الشريعة قانونا محددا يأمر الفرد والحكومة بما يوجب القيام به ، وينهى عن كل مالم يأمر به ، بل يعرفها ـــ نقلا عن الشيخ الحنفى سيد محمد بيرم (ت ٨٢٥) ـــ بأنها « مايكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وإن لم يضعه الرسول ، ولا نزل به الوحى » [١].

وعلى هذا فالرجل ـــ كما هو معروف من تاريخه ـــ يحب الإصلاح والمصلحين ، ويسعى جاهدا إلى نفع أمته ، ولكن ليس بكاف ولا مبرر للقول فى الشريعة بغير دليل ، أو بغير نظر رجال بلغوا درجة الاجتهاد ، يستطيعون استنباط الأحكام على أصول الشريعة بمقاييس معينة ، منعا لدخول الأهواء والبدع فى الشرع .

وإطلاق القول فى الشريعة على عواهنه ، وفتح الباب على مصراعيه ، دعوة خطرة ، يراد بها التشريع بغير ماأنزل الله ، والتذرع بمصالح الناس يوحى بأن الشريعة ناقصة ، أو جاءت بغير مصالح الناس ، أو مخالفة لسعادتهم ، ثم من الذى يحكم إن كان الأمر صالحا أم طالحا ، أهو الشرع أم الحكام والمحكومين ، أو هو مايوافق هوى طبقة أو رغبة فئة من الناس . لا عاصم من هذه الأغلاط إلا باتباع قواعد الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية، وقد قال العلماء بالمصالح المرسلة ، ولكنهم وضعوا لذلك ضوابط معينة على أصول الاجتهاد الصحيح . ودعوى قصور الشريعة وعدم ملائمتها للأزمنة فكرة دخيلة ، وأسلوب من أساليب الغزو الفكرى الذى يبث فى أوساط المسلمين وخير الدين التونسى ، مع إخلاصه وحبه لبلده ودينه ، إلا أن أمثال هذه الأفكار تشير إلى التأثر بإيحاءات المستشرقين وضغط الحضارة على أفهام الكثير من المخلصين .
وهذا هو ماعناه المستشرق « ولفرد كانتويل سميث » [٢]، فى كتابه « الإسلام فى

---

(١) أقوم المسالك ـــ ٤٢ .

(٢) ولفرد كانتويل سميث مدير معهد الدراسات الإسلامية ، وأستاذ الدين المقارن فى جامعة ماكجيل بكندا ، حصل على الدكتوراه فى جامعة برينستون سنة ١٩٤٨ ، تحت أشراف المستشرق المعروف « هـ . ا . ر . جب ،

العصر الحديث » ، حيث كان من هدفه فى ذلك الكتاب بث هذه الفكرة :

أولا : « قطع صلة الإسلام فى الوقت الراهن وفى المستقبل بالإسلام فى الماضى ، أو بعبارة أصح ، قطع التفكير والتشريع الإسلامى فى الحال وفى المستقبل عن الوحى ، وبذلك يفقد الإسلام صلابته وذاتيته المتميزة المستقلة ، ويصبح طوع الأهواء والأغراض التى يوجهه إليها أصحاب المصالح » .

ثانيا : تفكيك الوحدة الإسلامية ، لأن الإسلام إذا فقد ارتباطه بذلك المصدر الأول الثابت الذى يجمع المسلمين على أشكال موحدة ، لم يعد هناك مايمنع من أن يتشكل كل مجتمع إسلامى فى تطوره بعوامل محلية ، يسيطر عليها الاستعمار الغربى فى كثير من الميادين السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، وينتهى الأمر إلى تقطيع المجتمع الإسلامى وامتصاصه فى مناطق النفوذ المختلفة »[1].

ولاشك أن الإيحاء العام للثقافة الغربية قد أثر بدرجة متفاوتة فى كثير من الدارسين فى ذلك الوقت ، وأخذ هذا الإيحاء يخرج على شكل آراء ووجهات نظر وإعجاب ، سواء كان هذا الإعجاب بالغرب ، أو بشىء يلفت إليه الغرب ، فمثلا نرى أن رفاعة الطهطاوى يلفت إلى حضارة القدماء المصريين ، ويلفت إلى التأسى بها والاقتداء بخطواتها ، ويشيد بتقدم الفراعنة وامتيازهم فى المعارف والعلوم والقوانين والفضائل الخلقية والاجتماعية ، فيقول بعد أن يشيد بهم وبآثارهم : « ومنه يعلم أنه كان لمصر إذ ذاك أحكام عادلة ، وقوانين مرتبة ، وحدود مشروعة خالية من الأغراض والنفسيات ، وهى نتيجة التمدن العام .. ويقول : « فلايبعد على مصر فى هذا العصر أن تستجلب السعادة ، وتكتسب من القوة الملية الحسنى وزيادة ، ونتحصل من وسائل الغنى على مقاصد الإفادة والاستفادة ، لأن بنية أجسام أهل هذا الزمان هى عين بنية أهل الزمان الذى مضى وفات ، والقرائح واحدة »[2].

وكان موضوع بحثه فى الدكتوراه : هو مجلة الأزهر . عرض ونقد بين عهدين . عهد حسين ـــ ، وعهد محمد فريد .

(١) انظر الإسلام والحضارة الغربية الدكتور محمد محمد حسين ص ١٦١ ، ص ١٦٢ ط المكتب الإسلامى .

(٢) انظر تخليص الإبريز ص١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ . مع المرجع السابق ص ٢٠

يعنى أن المصريين ينسبون إلى أحفادهم الفراعنة ، فيجب أن ينهجوا نهجهم ، ويسيروا على سننهم ، ويقول الدكتور محمد محمد حسين تعليقا على هذا : « ومن الواضح أن هذه الأمثال الكثيرة التى يتخذ فيها الطهطاوى القدوة والأسوة من تاريخ الفراعنة شىء جديد على الفكر الإسلامى ، جاء فى تصوره الجديد للوطنية الذى بدأ يأخذ اعتباره إلى جانب الإسلامية من ناحية ، ومما شاهده من اهتمام علماء الآثار فى فرنسا بتاريخ مصر القديم من ناحية أخرى ، فقد رأى هناك آثار الفراعنة التى نقلها علماء الحملة الفرنسية إلى بلادهم ، وطالب فى كتاب « تخليص الإبريز » بردها إلى مصر ؛ « لأن مصر أخذت الآن فى أسباب التمدن والتعلم على منوال بلاد أوربا ، فهى أولى وأحق بما تركه لها سلفها »[1]. وإذا كان الطهطاوى وخير الدين قد افتتنا بالحرية الفرنسية وبما شاهداه من عدل وقانون وإنصاف وحرية نشر ؛ فإننا نجد محمد فريد يعلق على تلك الحضارة ، وعلى ما فيها من عدل وحرية .... الخ ، فيقول « يعامل الفرنسيون المسلمين فى الجزائر بقوانين مخصوصة فى غاية الشدة والصرامة ، فهم محرومون من حرية الكتابة والاجتماع ، بل من حرية السفر والانتقال ، وحرية مطالعة الكتب والجرائد ، نعم يصعب على الذى يعرف « ادعاء وحب الفرنسيين للحرية والمساواة ، ويرى هذه الألفاظ المنقوشة على أبواب جميع المصالح والإدارات الأميرية ، أن يصدق ذلك ، ولكن من يكلف نفسه مشقة زيارة بلاد الجزائر يتحقق أن ما هو جائز فى بلاد فرنسا غير مباح للمسلمين فى المستعمرات ، وإن كان مباحا للفرنساويين أو المتفرنسيين »[2] ثم أكد محمد فريد أن الفرنسيين الذين ينتقدون ظلم الدولة العلية ليسوا بأقل استبداداً منها .

وقد رأى محمد فريد كذلك — وشاركه في رأيه هذا المويلى — « أن الغربيين يدَّعون هذه المبادىء فقط ليفتنوا الشرقيين ، فيتخلى هؤلاء عن مبادىء حضارتهم ليعتنقوا ما يظنونه أفضل وأرقى وأعدل ، وإذا بهم قد خسروا كل شىء : خسروا الحرية

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٧٧ ومن مصر إلى مصر ص ١٥٤ — ١٦٢ .

(٢) الرحالون العرب الدكتورة نازل سبايارد ص ١٧٦ عن كتاب من مصر إلى مصر لمحمد فريد من ص ٦٦ الى ص ٧٦ .

والإخاء والمساواة التى خلبتهم فى الحضارة الغربية ، وخسروا القيم الإنسانية الكامنة فى الحضارة الشرقية ، والتى كانت سببا فى خلود هذه الحضارة عبر الأجيال »[١] وإذا كان التأثر الثقافى قد ظهرت بعض ملامحه على رفاعة وخير الدين ؛ فإنه قد وضح وارتفعت له راية عند جرجى زيدان ، وبطرس البستانى ، وسليم تقلا ، ومراش فرنسيس فتح الله ، وغيرهم . ثم خلف من بعد هؤلاء خلف خلصوا لهذا الفن ، وانقطعوا له ، وكشفوا عن وجهوههم بغير حياء ولا خجل . نأخذ مثلا على هؤلاء .

قاسم أمين :

تجلى أثر الثقافة الغربية واضحا فى عقل قاسم أمين ، الذى دعا إلى نبذ كل العادات السابقه والانتماء صراحة إلى الثقافة الأوربية . وتجلى ذلك بوضوح فى كتابه « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ ، وكتابه الثانى « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ ، وأما الكتاب الأول ؛ فقد دعا فيه إلى سفور المرأة ، معللا لذلك بأنها تعاليم بالية ، وأن السفور ليس فيه خروج عن الدين ، ثم قرر أن الشريعة الإسلامية إنما هى كليات عامة ، لم تعرض إلى الجزئيات والفروع ، ولو عرضت إلى الكليات والفروع لما حق لها أن تكون شرعا عاما ، يمكن أن يجدد فى كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحها .... أما الأحكام المبنية على ما يجرى من العادات والمعاملات فهى قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان ، وكل ما تطلبه الشريعة من الناس هى أن لا يخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة.[٢] .

ثم تبنى الفكر الغربى فى كتابه هذا فى السفور ، وفى اشتغال المرأة وخروجها إلى الأعمال العامة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق ، تبنى مذهب الغربيين فى كل هذه القضايا ، زاعما بغير حياء أن هذا هو مذهب الإسلام ، وهو فهم الإسلام . وفى كتابه الثانى « المرأة الجديدة » رفض كل المسلمات والأعراف السابقة ، سواء جاءت من طريق الدين أم من غير طريقه ، وأوحى إلى الناس أنه لا يقبل إلا ما يأتى عن

---

(١) أنظر المرجع السابق ص ١٧٧ ومن مصر إلى مصر ص ١٥٤ — ١٦٢

(٢) انظر بتصريف تحرير المرأة ص ١٦٩ .

طريق التجربة ، ويوافق العصر . وسمى هذا « الأسلوب العلمى » ، ثم دعا فى كتابه صراحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، ثم يهاجم المعجبين والمتمسكين بالإسلام وتعاليمه ، فيقول : « هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له دواء إلا أننا نربى أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ، إذا أتى ذلك الحين ــ ونرجوا أن لا يكون بعيدا ــ فقد انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما فى أحوالنا ..... إلى أن يقول : هذا هو الذى جعلنا نضرب الأمثال بالأوربيين ونشيد بتقاليدهم . وحملنا على أن نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوربية »[1]

وكان لقول هذا الداعى أثر فى نساء مصر ، فقامت بعض النساء فى مصر ، وتزعمت هذه الحركة النسوية ، هدى شعراوى ، حرم على باشا شعراوى .... وتجرأت هذه المتزعمة على ما لم تتجرأ عليه امرأة فى مصر من قبل ، فسافرت إلى باريس وإلى أمريكا لتدرس شئون المرأة ، وأخذت تلقى بالتصريحات والأحاديث لمندوبى الصحف[2]، وهكذا تشبعت هذه الفئة بالأفكار المستوردة وكانوا صدى للمستشرقين ، وأبواقا للغزو الفكرى ، ينشرون ما يملى عليهم ، ويذيعون ما يراد منهم بكل إخلاص وتفانٍ وصدق .

٢ ـ التخلف المهلك :

تخلفت الشعوب الإسلامية عن ركب الحضارة والتقدم العلمى ، ونسيت تراثها ، ونهضتها ، وعزتها ، وعلمها ، بل عقلها ، وصاحبها مع هذا ضيق فى الفكر ، وتعطيل للقوى الفطرية ، وجناية على تعاليم الإسلام ، وسوء تفسير لتعاليمه ، التى تحث على استخدام العقل ، والتفكر فى الكون ، واقتباس الصالح النافع ، وتطوير المفيد والحسن ، وإعداد القوى الممكنة للدفاع عن الدين والديار وإرهاب العدو ،

---

(١) انظر بتصرف المرأة الجديدة ص ١٨٥ ــ ١٨٦ .

(٢) انظر الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ج٢ ص٢٣٥ .

وتسخير كل شيء ، والاستفادة منه لنفع الإنسان وسعادته .

وواكب هذا انحطاط فى القيم ، ودعوات إلى الركون إلى المتع والعبث بالأموال ، إلى حد السفه والجنون والترف والفجور ، حتى كان قواد هذا الركب من طبقة الأمراء والملوك والحكام ، الذين تروى قصصهم المضحكة المبكية فى كل ناد وكل صحيفة ، مع جهل ضارب ، ونفاق ناشب أظفاره ، وفساد فى كل مجتمع وناد ، وتصارع على كل تافه وخسيس من المادة ، وخراب للذمم ، وبيع للشرف ، وكره للقيم ، وضياع للحق ، وهضم للحقوق ، وذبح للفضيلة .

وكان وضع البلاد الإسلامية كما صوره شاعر تركيا الإسلامى الكبير محمد عاكف فى إحدى قصائده قائلا :

« يسألنى الناس : أنك كنت فى الشرق مدة طويلة ، فما الذى شهدت ياترى ، وما عسى أن يكون جوابى ؟ إننى أقول لهم :

إننى رأيت الشرق من أقصاه ، فما رأيت إلا قرى مقفرة ، وشعوبا لاراعى لها ، وجسورا متهدمة ، وأنهارا معطلة ، وشوارع موحشة ، رأيت وجوها هزيلة متجعدة ، وظهورا منحنية ، ورؤوسا فارغة ، وقلوبا جامدة ، وعقولا منحرفة ، رأيت الظلم ، والعبودية ، والبؤس ، والشقاء ، والرياء ، والفواحش المنكرة المكروهة ، والأمراض الفاشية الكثيرة ، والغابات المحرقة ، والمواقد المنطفئة الباردة ، والحقول السبخة القاحلة ، والصور المقززة ، والأيادى المعطلة ، والأرجل المشلولة ، رأيت أئمة لا تابع لهم ، ورأيت أخا يعادى أخاه ، ورأيت نهارا لا غاية له ولا هدف ، ورأيت ليالى حالكة طويلة لايعقبها صباح مسفر ونهار مشرق »[(١)]

هذا التخلف أضعف الثقة بالنفس ، وأوقف عجلة التقدم والانطلاق فى الشعوب الإسلامية ، وجعلها تعتمد فى كل شيء على غيرها ، خاصة فى عصر انفتحت فيه المغاليق ، وظهرت فيه المخترعات من إذاعة وتلفاز وخيالى ، وتناقل الناس

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية لأبى الحسن الندوى ص٣٥ .

أخبارها ، وغزت تلك الأقطار والديار ، ودخلت بيوتهم ومخادعهم ، بل وقلدوا الغرب فى تلك المخترعات ، وأخذوا عنهم ، فكل دولة لها إذاعة ولها تلفاز ، ولكنه صنع أجنبى ، وتركيب أجنبى ، بل وثقافة أجنبية ، فمعظم الدول التى تبث البرامج لا تصنع منها شيئا ، بل تستورده من غيرها ، إما شراء وإما إهداء أو معونة . ونظرت تلك الدول إلى الإغراء المادى نظرة الصَّدِىّ إلى الماء ، أو نظرة الجائع إلى الشواء ، وقد عبر عن هذا الأستاذ **محمد أسد الصحفى الأوربى** ، الذى تجول فى الشرق والعالم الإسلامى ، وزار الجزيرة العربية وهى لا تزال متمسكة بتقاليدها العربية والإسلامية ، وكانت أشبه بالماضى منها بالحاضر ، ولم تغزها الأساليب الغربية والمصنوعات الحديثة بعد ، يقول سألت نفسى فجأة « إلى متى يستطيع العرب أن يحتفظوا بتماسكهم الروحى فى وجه الخطر الذى يطبق عليهم بكثير من الخداع والمكر ، وبصور لا تعرف الرحمة أو اللين ، نحن نعيش فى زمن لم يعد الشرق فيه يستطيع أن يكون سلبيا فى وجه الغرب الآخذ بالانطباق عليه ، إن آلافا من القوى ـــ السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ـــ تطرق أبواب العالم الإسلامى ، فهل يخضع هذا العالم ويستسلم إلى حضارة الغرب ، ويفقد خلال التفاعل ، لا أشكاله وأنظمته التقليدية فحسب ، بل جذوره الروحية أيضا »[(١)]

ويقول الأستاذ الندوى معلقا على كلام الأستاذ محمد أسد فى تلك الفقرة : « نعم لم تطل هذه الفترة . لم تلبث هذه البلاد المقدسة « يقصد مكة » أن غزتها الحضارة الغربية ، وتدفق فيها سيل المصنوعات الحديثة والمستوردات الغربية ، أكثروا من أسباب الترف ومن الكماليات ، فشحنت الأسواق وملأت البيوت ، وقضت على التقشف فى الحياة ، وصفات الفتوة والفروسية التى عرف بها العرب من قديم الزمان ، وكانت من أسباب قوتهم وانتصارهم ، وظهر اتصال الجزيرة بالغرب عن طريق الحضارة والثقافة والسياسة ، وعن طريق البترول ، وكان هذا الاتصال وهذا الاقتباس من الغرب فى مجال الحضارة والتجارة والثقافة ، عن ارتجال وتهور ، من غير

(١) الطريق إلى مكة للأستاذ المسلم محمد أسد ص١٤٠

تفكير هادىء وتصميم سابق ، فأصبح هذا الاستسلام الذى تخوف منه الأستاذ محمد أسد أمرا واقعا ، وأصبحت الجذور الروحية ـــ فضلا عن الأشكال والأنظمة التقليدية ـــ مهددة »[(1)]

ثم يستأنف الأستاذ أبو الحسن الندوى قوله : « ولن تطول هذه الفترة السلبية فى أى قطر من أقطار الشرق ؛ لأن التقاليد والعادات والجهاز الاجتماعى أو الإدارى ليس وراءه عقيدة راسخة قائمة على فقه وبصيرة ، وليس معه الذكاء والألمعية والمقدرة الكافية على تطبيق الحقائق والمبادىء الدينية الخالدة على الحياة المتطورة وحاجتها الجديدة ، والتمييز بين ما يصلح للاقتباس من الحضارة الجديدة ومنتجاتها وما لا يصلح ، لا يستطيع أن يقف طويلا فى وجه الحضارة العارمة ، وكل قطب أو قيادة تمنى نفسها بالاحتفاظ بالقديم ، والانحصار فى دائرته من غير إيمان جديد قوى وعقل واع منتج ، مهددة بالانهيار عاجلا أو آجلا . وإذا لم يكن الاقتباس من الحضارة الغربية ومرافقها عن فقه وبصيرة ، هجمت على هذا القطر أو المجتمع غصبا ، وعلى الرغم من قادته وولاة الأمر فيه ، وعلى الرغم من العلماء وزعماء الدين ، ورحب بها أهل البلاد ، وفتحوا لها الأبواب ، والتهموها ـــ بصالحها وفاسدها ـــ فى نهامة وجشع ، واكتُسِحَت القيم الدينية والخلقية ، وغلب قادة البلاد أو ولاتهم على أمرهم ، وأفلت منهم الزمام إلى آخر الأبد »[(2)]

إن التخلف العقلى لا يكمن فى عدم الذهاب إلى الجامعات واكتساب المعارف فقط ، بقدر ما يكمن فى التبلد ، والخمول ، والنوم ، والرضاء بالدون ، وموت الهمة . وموقف الإنسان من الحياة ومن الحضارة وأدوات الترف والزينة ، تحدده همته وتجاربه وذكاؤه وقواه العقلية والمعنوية ، كما تحدده كذلك تربيته وما نشأ عليه من قواعد أخلاقية وسلوكية ، فمن المعروف أن من يولد فى مهاد النعمة وبيوت الحسب ثم تحسن تربيته يكون أبعد عن مضار استخدام الحضارة ووسائل الترف ، ولكن الذين

---

(1) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص١٦ .

(2) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص٢١ ، ٢٢ .

لا يقيمون للتربية وزنا ، أو الشعوب التى أهملت تلك الخاصية نشأ فيها نوعان من الناس :

الأول :ـــ

غنى مترف ، ما إن برز له المال حتى استعمله فى إهلاك نفسه ومجتمعه ، والجناية على قيمه وخلقه ، وإتلاف صحته وبلده ، فبدد طاقته ، وأفسد أمته ، وأتلف قوته ، لا يفكر فى غاية ، ولا يسعى إلى هدف .

الثانى :ـــ

فقير كسول ، لايكاد يحصل على قوت يومه ، ومع ذلك تجدهم كسالى مسترخين على الكراسى ، بل على الأرض ، يدخنون السجائر والمخدرات ، ويتبعونها بأكواب الشاى الأسود ، ويتلفون المال الذى يحتاجه أولادهم للطعام فى المكيفات وجلسات السوء ، هازلين مع من على شاكلتهم . وهذا أيضا لا يفكر فى غاية ، ولا يسعى إلى هدف . ومع هذا تجد لهذه الأمم رعاة لا يريدون للغنى أن يرعوى ، ولا يحبون للفقير أن يفيق ، لأنهم يحبونهم ساكنين هادئين خاضعين . وهذه الشعوب يصبح من اليسير لفتها وتوجيهها باليسير من اللهو ، إلى أن تفقد شخصيتها وذاتيتها وتشرب الكأس حتى الثمالة . وتستطيع أن ترى ذلك على سبيل المثال فى لوحة إخبارية من أفغانستان ، ينقلها الصحفى الأوربى الشهير Ritchiecolder وقد حضر عيد الاستقلال الأفغانى ، الذى استمر أسبوعا فى رقص ولعب ومجون ، فى عام ١٩٦٣ ، يقول : « إن الألعاب النارية الواسعة النطاق (والتى لم أرها فى أفغانستان قبل) كانت تثير هتاف وتصفيق نصف مليون متفرج ، وهكذا كانت أفغانستان تحتفل بأسبوع عيد استقلالها .

وقال لى وزير خارجية أفغانستان ، الذى كان بجوارى على المقاعد الملكية ، على شاطىء البحيرة ، حيث كانت الألعاب النارية مستمرة : إنك لم تحسن اختيار الوقت الذى تزور فيه هذه البلاد ، نحن نحتفل الآن بعيد الاستقلال ، ونحن فى متعة وفرح ، لا نستطيع أن نتحدث معك عن تفاصيل مشاريعنا التقدمية لخمس سنوات

قلت : « لا ياصاحب المعالى ، إنها فرصة حسنة لائقة ، وهى أفضل مناسبة لاختيار مآثر بلادكم ومدى تقدمها ، إننى أريد أن أرى السيدات الأفغانيات باسمات . وهناك تقدمت إلينا فتاة أفغانية جميلة وابتسمت ، إن هذا يلقى ضوءا على مدى التطوير الذى نشأ فى أفغانستان ، أقوى من الأضواء التى تنير كابل ، ومن التخطيط الكهربائى ، ومن المبانى كلها والصناعات الحديثة ، ومن الرقى المادى كله . »[1]

لننظر قليلا فى تلك الكلمات . بلدة لا تملك شيئا ، تحتفل أسبوعا كاملا بعيد استقلال ، وزير خارجية مشغول بالفرح والسرور واللهو . وأخيرا صحفى يلفت وزير الخارجية إلى خير ، وإلى حضارة ، وإلى مكسب أفضل من كل تقدم أو نفع أو ازدهار وعمران ، ألا وهو رؤية النساء الأفغانيات حاسرات ، باسمات ، خارجات إلى اللهو والرقص ، ومخالطة الرجال ، والضحك للأجانب الأوربيين . ثم لننظر إلى آثار هذا الغزو فى هذا المجتمع الأفغانى على مستوى قادته ، وعلى مستوى شعبه .

كره الملك احتشام النساء وخروجهن ساترات ، فأصدر منشورا ملكيا عام ١٩٥٩ م بإباحة السفور للنساء ، وسارع النساء إلى خلع الحجاب ، ووضع الزينة ، والتفنن فى إظهار المفاتن ، وتتبع الموضات العالمية ، وسارع كذلك أصحاب الأقلام وأرباب الصحافة ليباركوا هذا التقدم المبارك الزاهر . فسأل أحد الصحفيين امرأة وصفها بالظرف والخفة ، فقال : سألت السيدة معصومة الكاظمى ، وكانت قد تخرجت من جامعة كابل لشهادة الليسانس الداخلية ، وكانت صورة حية للظرف وخفة الروح ، مليئة بالحياة ، ماذا فعلت بعد صدور هذا المنشور ؟

قالت : إننى وأختى طرحنا الملاءة وأردية القناع ، وسجرناها فى التنور ، وحلفنا أننا لا نرجع إليها أبدا [2].

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص٢٣ ، ٢٤ عن صحفية .

(٢) المرجع السابق ص٢٥ ، ٢٦ بتصرف .

ولنعرف مرامى هذا الاهتمام بالمرأة ، وبانحرافها التعليمى والمظهرى فى العالم الإسلامى اليوم ، فقرأ ما يقوله « مروبرجر » ، وهو يهودى أمريكى معاصر فى كتابه « العالم العربى اليوم » يقول : « إن المرأة المتعلمة هى أبعد أفراد المجتمع عن تعاليم الدين ، وأقدر أفراد المجتمع على جر المجتمع كله بعيدا عن الدين » (١). وجاء فى كتاب الغارة على العالم الإسلامى : وينبغى للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتعليم النساء » (٢)

وغنى عن البيان أن الإسلام جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ولم يكن ليقف فى سبيل تعليم المرأة ، ولكنه بطبيعة الحال لم يكن يسمح بتعليم المرأة — ولا الرجل — تعليما ينفرهما من الله ، ومن منهج الله ، ومن القيم والفضيلة ، ويجعلها ذيلا للمستعمرين وأهوائهم . ألا ترى معى أن ذلك الغزو كان لإفقاد الأمة شخصيتها ، ليسهل بعد ذلك ازدرادها وابتلاعها عسكريا ، وقد كان ما نسمعه اليوم من غزو تلك البلاد وضياعها أولا على أيدى صنائع هذا الغزو ، ثم بتلك الجيوش المتربصة للقضاء على تلك الأمم القضاء النهائى ، ولكن أنى لهم ذلك ، فإن هناك فئة من الناس نبذوا هذا الغزو الفكرى ، واستعصوا عليه ، وهم الآن يستعصون على كل غزو عسكرى ، بل وقاهروه إن شاء الله .

وهكذا يوحى هذا التخلف الفكرى والتخلف العقائدى والبعد عن الإسلام للصوص البشرية أن يسرقوا الأمم الغافلة اللاهية ، ويدمروا روح الرجولة والجد والإيمان ، ويقودوها طواعية إلى الهلاك كما تقاد الشاة إلى حتفها بظلفها .

٣ — الفراغ العقائدى . أو الخواء الروحى

لا شك أن العقائد فى الأمم تقف سدودا بينها وبين الأفكار الوافدة أو المذاهب المقتحمة ، وتعطى أعماقا للصروح والمجتمعات والأفراد ، كما تمنح استقرارا وثباتا للإنسان فى الحياة . وخاصة العقيدة الإسلامية ، لأنها عقيدة فطرية جامعة ،

---

(١) مجلة التربية الإسلامية سنة ١١ / ١٠ عدد ص٣٦ عن كتاب الغارة على العالم الإسلامى ص٤٨ .

(٢) الغارة على العالم الإسلامى ص٤٧ .

تحيط بكل صغيرة وكبيرة ، وصدق الله : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شيء ﴾[1] . ولهذا كانت العقيدة فى المجتمع الإسلامى ميزانا يزن به المسلم أعماله وأقواله ، يسير ويتصرف تحت ظلالها وفى جنباتها ، ولهذا قلت أخطاؤه ، وندرت شطحاته ، وانطلقت قوته وبسرعة ، وظهرت موهبته ، واستعصى على كل شيطان رجيم ، وكل أفاك لئيم ، لأنه يدور مع الكتاب حيث دار ، وهكذا كانوا فى الصدر الأول : قال عامر بن مطر : قال لى حذيفة فى كلام : كيف أنت يا عامر بن مطر ، إذا أخذ الناس طريقا ، والقرآن طريقا ، مع أيهما تكون ؟ قال عامر : فقلت له : مع القرآن أحيا ، ومع القرآن أموت . قال له حذيفة : فأنت إذا أنت ، قال ابن حزم معلقا : اللهم إنى أقول كما قال عامر : أكون والله مع القرآن أحيا متمسكا به ، وأموت إن شاء الله متمسكا به ، ولا أبالى بمن سلك غير القرآن ولو أنهم أهل الأرض غيرى »[2]

أما إذا تركت الأمم عقائدها ، وتخلت عن غذائها الروحى ، وعن عمقها الإيمانى ، فإنها تصبح كريشة معلقة فى مهب الرياح ، خاصة إذا كانت هذه الأمة هى أمة الإسلام ، فإنها تكون بذلك قد ضحت بكل شيء ، ولم يبق لها إلا الضياع .

يقول غستاف لوبون « إن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الإسلام ، وتشبثه بالعقائد الباطلة »[3]

لقد كان العرب أذل الناس فصاروا سادتهم بالإيمان ، وكانوا أبطل الناس عقائد فصاروا أهدى الناس إيمانا ، وكانوا شتاتا فكوَّنوا أعظم أمبراطورية عرفها التاريخ . يقول توماس كارليل : « خرجت جيوش رعاة الأمس تقتحم الأرض شرقاً وغرباً ، وتفتح باسم الدين الجديد ، وفى خلال قرن من الزمان قضت على القوى العظمى ، وملكت الأرض من تحت أرجلهم .

إنها معجزة ، ولولا أنها حقيقة تاريخية لقلت : إنها خرافة أو خيال . لقد كانت صحبة محمد أشبه ما تكون بشرارة ملتهبة ، وقعت لا على كثبان كسولة من رمال الصحراء ، ولكن على جبال من البارود ، وتفجرت مرة واحدة ، فعم نورها

---

(١) الأنعام / ٢٨ .

(٢) معجم ابن حزم الظاهرى ١ / ٣٥ ط دمشق .

(٣) مجلة حضارة الإسلام عدد شعبان ص١٣٨٧ .

الآفاق من هضاب الهند وحتى سهول الأندلس »[1]

وهذه العقيدة الشابة القوية ما زالت كما كانت ملتهبة ، تعمل عملها ، وهى على استعداد أن تعيد المعجزة وتصنع التاريخ . يقول « أميل دَرْمِنْجهم » فى كتابه « القيم الخالدة فى الإسلام : « إن قيمة الأمة الإسلامية ليست فقط فى أثرها التاريخى ، وهو تغيير نظم الحكم على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، بل فى أنهار لا تزال إلى اليوم حية قوية ، بل لقد كتب لها الخلود والبقاء أبد الدهر »[2].

ولهذا حرص أعداء الإسلام أن يلبسوا على المسلمين دينهم ، وأن يسلبوا منهم فاعليته ويغتصبوا قوته ، بأن يدخلوا فى روع الناس أن الإسلام عقيدة فى القلب ، أو على أكثر التقديرات وأحسن الأحوال ، فهو إسلام يصلى له الإنسان ويصوم ، أما ما وراء ذلك فتعب وتعسف ليس له لزوم . إنهم يريدون ساعة لقلبك وساعة لربك .

يريدون أن يتسلوا بالسينما والفديو ـــ ولو كانت فاضحة ـــ وبالرقص والأغانى والفن ، وإن كان داعرا يريدون أن يكذبوا ، ويغتابوا ، ويضللوا ، ويغشوا ، ويدجلوا ، بحرية ، ولا رقيب ولا حسيب ولا حرام ولا حلال .

يريدون أن يستمتعوا بالجنس ، ويتسلوا بمفاتن المرأة فى الطرقات والنوادى ، ولا أحد يتلفظ بالتبرج ، أو يتكلم عن الأعراض والحرمات أو يعكر الصفو الجميل .

يريدون النوم فى وداعة ، والعيش فى رغد ، والجلوس فى استرخاء ، فإذا حذرهم أحد من خطر يتهددهم ، أو دعاهم إلى عمل أو جلد أو تقشف أو عدل أو رحمة ، فإنما هو مخرب ، يجب أن يؤخذ على يديه . أما أن يدعو أحد إلى عقيدة يصلى لها الإنسان ويصوم ، وتصبح حقيقة تحكم سلوك الناس وتصرفهم ومجتمعهم ، وتكون حياة تعاش فى الملبس والمأكل ، فى البيت ، وفى المجتمع ، فى التصور والسلوك ، فى

---

(١) مجلة حضارة الإسلام عدد شعبان ص١٣٨٧ .

(٢) الإسلام والثقافة العربية ـــ عبد الفتاح الغنيمى ص١٩١ .

الهدف والغاية ، فى الآلام والآمال ، فى الدنيا والآخرة ؛ فهذا هو البعد عن سماحة الإسلام ، وعن روح الدين ، وعن صفاء العقيدة ، وعن الصراط المستقيم ، بل هذا هو الفتنة ، وهو التعصب والتضليل والخطر المبين . يجب أن تحصن ضده الأمة ، وأن يضيق عليه الخناق ، ويجب أن تحرض ضده الشهوات والمنافع والأحقاد ، وأن يبارك هذا كله كهنة الحضارة الزائفة ، وأحبار المدنية المكذوبة .

يجب أن تدافع المرأة عن حقها ، وعن مكاسبها فى المساواة ، وفى الحرية والعرى والاختلاط .

يجب أن يدافع كتاب الجنس عن بضاعتهم وثقافتهم ودعارتهم وأسواقهم .

يجب أن يدافع الفن عن رسالته ، وعن إنجازاته ، وعن جمهوره ، وعن امتيازاته .

يجب أن يدافع أصحاب الجاه عن جاههم ، وأصحاب المنافع وأصحاب القصور عن جهلهم وبذرهم وحصادهم ولعبتهم . بل يجب أن يدافع المجتمع كله لأنها حياته ومسئوليته وتراثه وتقدمه وحضارته . بل يجب أن تساق الشاة إلى الجزار ، وهى تغنى ، وتسمع الأنغام ودقات الطبول وأهازيج العرس . كل هذا لا يكون إلا بفراغ روحى ، وهدم عقائدى ، وغزو ثقافى منظم ومبرمج ، تسمعه الأذن وتطرب له وتراه العين وتسر به ، ويستسيغه الفكر ويهيم به ، وتقبله الشفاه وتسكر به ، وتحلم أحلام الغرور ، ولكنها ﴿ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ [1] .

٤ ـــ العداء الصليبى للإسلام

أخذ العداء الصليبى للإسلام شكل الصعار الوبائى لدى الأمم الغربية ، فأخذوا مستميتين يوزعون السموم ذات اليمين وذات الشمال ، ويفترون الأكاذيب ،

---

(١) النور ـــ٣٩ .

ويطمسون الحقائق ،ويدبرون المكائد ، ويتصيدون السقطات . ثم يدخلون فى روع أنفسهم وفى عاطفة بنى جلدتهم أنهم أرقى عنصرا ، وأفضل عقلا ، وأملح دينا ، وأنهم أوصياء على البشرية ، وسادة الإنسانية ، وهداتها ، ومرشدوها . ولهذا يقول الدكتور دربول : « إن الغربيين ربوا فى عاطفة أن النصرانية أرقى بكثير من الإسلام ، وأن رسالتها أن تهدى المسلمين إلى دين المسيح ، وهذا أمر عسير ، وكم من أناس بيننا يبسمون ما يذكر من النعيم الذى وعد به المسلمون فى الجنة ، ولما يرون من حركات العبادات الإسلامية ، ونحن ندعوا المسلمين بالكافرين ، فلهم الحق أن يردوا علينا هذا النعت ، وبهذا لا يرجى أن تقوم بيننا وبينهم صلات إخاء وحب »[1] .

وقال وليم غيفورد بلغراف الإنجليزى ، المسمى بالحرباء ـــ: الكلمة المشهورة التى يلخص فيها عداء الغربيين للإسلام : « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة ، التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه »[2]

ويوضح هذا العداء ، ويذكر بعض أسبابه ، المستشرق بيكر ، فيقول : « إن هناك عداء من النصرانية للإسلام ، بسبب أن الإسلام عندما انتشر فى العصور الوسطى أقام سدا منيعا فى وجه الاستعمار ، وانتشار النصرانية ، ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها »[3].

ويقول فى هذا المعنى لورنس بروان : « إن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام ، وفى قدرته على التوسع والإخضاع ، وفى حيويته ، إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الغربى ...... »[4]

---

(١) من بحث للأستاذ محمد حسن الندوى ، عنوانة حركة الاستشراق فى ميزان العلم والتاريخ نشر فى مجلة البعث مايو سنة ١٩٨٢ ط الهند ص٧٢ .

(٢) التبشير والاستعمار ص٣٥ والمصدر السابق .

(٣) أخبار العالم الإسلامى ذو القعدة ١٣٩٩هـ .

(٤) التبشير والاستعمار ص١٨٤ لعمر فروخ والخالدى ط المكتبة العصرية بيروت .

ثم بين أن خطر المسلمين هو الخطر العالمى الوحيد فى هذا العصر الذى يجب أن تجتمع له القوى ، وتجيش له الجيوش ، وتلتفت إليه الأنظار ، فيقول — حاكيا آراء المبشرين — « إن القضية الإسلامية تختلف عن القضية اليهودية — إن المسلمين يختلفون عن اليهود فى دينهم ، إنه دين دعوة . إن الإسلام ينتشر بين النصارى أنفسهم ، وبين غير النصارى ، ثم إن المسلمين كان لهم كفاح طويل فى أوربا ، فأخضعوها فى مناسبات كثيرة . على أن الفرق الأساسى بين المسلمين واليهود — كما يراه المبشرون — هو أن المسلمين لم يكونوا يوما ما أقلية موطوءة بالأقدام . ثم يقول : إننا من أجل ذلك نرى المبشرين ينصرون اليهود على المسلمين فى فلسطين .

ثم يعلن لورنس براون رأيه الخاص ، فيقول : لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودى ، والخطر الأصفر (باليابان وتزعمها على الصين) ، وبالخطر البلشفى ، إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق (لم نجده ولم يتحقق) كما تخيلناه ، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد . ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا . أما الشعوب الصفر فإن هناك دولا ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتها ...... ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام »[1].

ولقد اشترك الاستعمار الغربى والجهد التبشيرى والحقد الصليبى فى حرب المسلمين ، وتشتيت تراثهم ، ونهب ديارهم ، يخيم عليهم سحابة سوداء من البغضاء والكراهية ، يتمثل هذا فيما حدث فى عام ١٩١٨ ، عندما دخل اللورد اللنبى القدس وأعلن : « الآن انتهت الحروب الصليبية » ، وقد نجح اللنبى حيث أخفق (ريكارد قلب الأسد) ،[2] ولولا انتصار الجنرال اللنبى لما كان زرع إسرائيل ممكنا فى قلب العالم الإسلامى والعربى ، وبنفس الطريقة وبنفس الحقد الذى صدر من الجنرال الإنجليزى ، كان مسلك الجنرال الفرنسى « غورو » — قائد الجيوش الفرنسيين فى دمشق — حين ذهب إلى قبر صلاح الدين ، بعد أن جاء راكبا سيارة

---

(١) التبشير والاستعمار لعمر فروخ ص١٨٤ ط المكتبة المصرية .

(٢) المرجع السابق ص١٨٦ ، وشبهات التغريب ص٢٧ .

مكشوفة ، وترجل إلى القبر ، وقال قولته المشهورة : « نحن هنا ياصلاح الدين » وفى اليوم التالى عمل الشىء نفسه فى حمص ، حيث ذهب إلى قبر « خالد بن الوليد » رضى الله عنه ، وقال : « نحن هنا ياخالد »[1].

إن جذور هذا الحقد قديمة ضاربة فى أعماق التاريخ ، تظهر عند ضعف المسلمين وانكسارهم ، حقدا يخرج من صدر واحد ولسان واحد ، وإن اختلفت الجنسيات والديار والمشارب ، كأنهم كما قال القرآن : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[2] يقول « كيمون » المستشرق الفرنسى فى كتابه « باثولوجيا الإسلام » : « إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هى مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمور ، ويجمح فى القبائح . وماقبر محمد إلا عمود كهربائى ، يبعث الجنون فى رؤوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة ، والذهول العقلى ، وتكرار لفظة « الله » إلى مالا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة : ككراهة لحم الخنزير ، والنبيذ ، والموسيقى ، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات ... »[3]

وهذا الحقد والضغن والمقت كان سببا قويا فى الإغارة على المسلمين ، بشتى الأساليب والطرق والأشكال والألوان . ومازالت تلك الموجة تعلو وتشتد وتمتد ، ثقافيا وفكريا ؛ تمهد للجيوش والطائرات والصواريخ والأساطيل ، تمهد للإبادة والانتقام وسفك دماء صنف واحد وأمة واحدة ، هى أمة المسلمين ودماء المؤمنين .

---

(١) المجتمع الكويتية العدد ٥٨٠ شوال ١٤٠٢هـ .

(٢) الذاريات ـــ ٥٣ .

(٣) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى عن تاريخ الإمام : حـ٢ ص٤٠٩ ط وهبة ص٥١ .

المبحث الثالث

أساليب الغزو الفكرى

الغزو الفكرى للشعوب ليست أشياء عفوية ، إنما هى مخططات وأفكار ومجامع وعلماء ومختصون ، يقننون ويبرمجون ، ويخترعون الخطط ، وينتقون الوسائل ، ويهيئون الظروف ، ويدربون الكوادر ، ويعدون الرجال ، ويطلقون الألسن والأقلام ، وغير ذلك من أفانين مختلفة ، وتكتيكات مدروسة ، وأساليب مجربة .

وهذه المخططات وتلك الأساليب كثيرة ومتنوعة ومعقدة ، ظاهرة وخفية ، طافية ومستترة ، براقة وقاسية ، كتبت فيها مجلدات ، ونشرات ، ومجلات ، على مدى قرون ، ولكنها كلها مجتمعة تهدف إلى غاية واحدة ، وهى إبعاد الشعوب عن شخصيتها وتراثها ، وخاصة الشعوب الإسلامية ، بل نكاد نقول : إنها هى الهدف الأول ، والغرض المقصود من تلك الأساليب .

ويحسن بنا أن نذكر بعض هذه الأساليب كأمثلة على ما تستهدف إليه الأمة الإسلامية من غزو، ومن تدمير لكل شىء له قيمة فى عقائدها وتراثها وحياتها الاجتماعية والثقافية .

أ ــ من أساليب الغزو فى العقيدة :

١ ــ ذم العقيدة الإسلامية بغير سند ولا دليل .

يقول رينان الفرنسى ، يصور عقيدة التوحيد فى الإسلام ، بأنها عقيدة تؤدى إلى حيرة المسلم ، كما تحط به كإنسان إلى أسفل الدرك » .

ويقول « كيمون » المستشرق الفرنسى فى كتابه « باثولوجيا الإسلام » : « إن

الديانه المحمدية جذام تفشى بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هى مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منها إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمر . ويجمح فى القبائح . وما قبر محمد إلا عمود كهربائى ، يبعث الجنون فى رءوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة ، والذهول العقلى ، وتكرار لفظ « الله » إلى مالا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهية لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى ، وترتيب ما يستيقظ من أفكار القسوة والفجور فى اللذات ....[1] » .

ومن هذا يظهر مقدار الافتراء والكذب على عقيدة المسلمين ، ومحاولة تلويث العقيدة فى نفس المسلم ، وقلب الحقائق فى ذهنه ومخيلته .

٢ ـــ محاولة تشويه القرآن :

ولعل من أخطر تلك المحاولات محاولتهم تشويه كتاب الله العزيز ، والافتراء عليه ، وادعاء أنه من صنع رسول الله ﷺ ، وأنه من وحى تفكيره . يقول «ماكدونالد» فى حديثه عن القرآن فى دائرة المعارف الإسلامية : « كما أنه من المحقق أن أهل مكة جعلوا بينه وبين الجنة نسبا ..... وجعلوهم شركاء لله .... وقدموا لهم قرابين وكانوا يتعوذون بهم . ولسنا نعلم علم اليقين هل كانت قد وجدت لديهم فكرة عن الملائكة أو أنهم جعلوهم شركاء لله .. وربما كان هذا تفسيرا من عند محمد » ...[2] ثم يقول فى موضع آخر فى نفس الدائرة ، عند الكلام على صفات الله سبحانه : « ينبغى أن نتبسط فى الكلام على هذه الذات كما تصورها محمد ﷺ ، ومن حسن التوفيق أن لزوم السجع حملته على وصف الله بعدة صفات ، يتردد ذكرها فى القرآن ، وتبين شغف محمد ﷺ بهذه الصفات وشدة تمسكه بها . وكانت الفطرة السليمة هى التى دفعت المسلمين بعد محمد ﷺ إلى جمع هذه

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ص٤ ، ص٢٤٤ الى ص٢٤٧ دار الشعب .

(٢) انظر فى ذلك الغزو الفكرى للدكتور على عبد الحليم ص٣٦ ـــ ٤٠ ط دار البحوث الكويت ، ومعالم تاريخ الإسانية ٣ / ٦٢٦ وما بعدها .

الصفات وتقديسها »(١). ثم ظل هذا المستشرق يلح على إلصاق صنع القرآن برسول الله ﷺ ، طوال أربع صفحات من ٢٤٤/٤ الى ٢٤٨ .

ويتكلم فى هذا وحول المعنى نفسه ـ جب ـ وهـ ـ ج ـ ويلز (٢)

٣ ـ محاولة تشويه السنة :

يقول « ماكدونالد » ، متطاولا على حديث رسول الله ﷺ ، وعلى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم :

« يجدر الآن أن نتكلم على الآراء التى أسندها الحديث إلى محمد ﷺ ، على أننا إذا حاولنا أن نجد فى الحديث ما نستطيع أن نقطع بصحته نسبه إليه من الوجهة التاريخية ؛ فإن عملنا هذا يكون لا غناء فيه على الإطلاق ، فمن الواضح أن هناك أحاديث كثيرة لا يمكن أن تكون قد صدرت عنه ، كما أننا لا نستطيع أبدا أن نعرف الأحاديث التى صدرت عنه حقا »[٢] ثم يستشهد « بجولدزيهر » على هذا الخلط والتشبكيك ، فيقول « وقد بين لنا جولد زيهر أن الأحاديث ليست فى الواقع إلا سجلا للجدل الدينى فى القرون الأولى ، ومن ثم كانت قيمتها التاريخية . ولكن هذا السجل مضطرب ، كثير الأغلاط التاريخية ، وفيه معلومات مضللة لم تؤخذ من مصادرها الأولى »[٣]

ومن هذا يظهر لنا مقدار الحق والمغالطة فى الحقائق ، إذ كيف لايستطيع هذا الباحث الهمام أن يقطع بصحة الأحاديث ، وهو يرى الجهد الخارق فى تجميع تلك الأحاديث ، وتنقيتها ، ونسبتها ، وعنعنتها ، وفحص رجالها ، ودرجتها ، بما كان هذا الجهد مفخرة علمية لتراث الإنسانية فى فترة من الزمان كانت نورا للإنسانية كلها ، نعم لا يستطيع أن يقطع من الحقد ، ومن البغض ، ومن الجهل العلمى ، وسوء النية ، وعدم النزاهة ، وكره المعرفة . وكيف لايستطيع فى هذا الأمر البين ، ويستطيع

---

(١) انظر فى ذلك الغزو الفكرى للدكتور على عبد الحليم ص٣٦ ـ ٤٠ ط دار البحوث الكويت ومعالم تاريخ الإنسانية ٣ / ٦٢٦ وما بعدها .

(٢) انظر دائرة المعارف ص٤ / ٢٥٥ دار الشعب .

(٣) المرجع السابق ص٢٥٥ .

فى أمر آخر ليس عليه دليل ولا حجة ولا بينة ، وهو نسبة الأناجيل إلى عيسى وإلى الحواريين ، وكيف يستطيع التصديق بحوادث التاريخ كلها ، أم هو وأمثالـــه من « اللاأدريين » ، لا . بل من المستشرقين .

٤ ــ الهجوم على شخص الرسول ﷺ :

استُهْدِفَت شخصيةُ قائد الدعوة الإسلامية ورسولُ العناية الإلهية ﷺ من قِبَل جموع الحاقدين وأصحاب الأغراض الملتوية بما لم تستهدف به شخصية ما ، على مدار التاريخ ، ظنا من هذا الكم اللاهث أن هذا يطفىء من وهج الحق ونــور الرسالة ، وصدق الله : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾[1] وقد حاولنا جمع طائفة من هؤلاء الكتاب الذين تجرءوا على رسول الله ﷺ ، وقد كان للأستاذ الدكتور على عبد الحليم جهد كبير فى جمع عدد لا بأس به من أسماء هؤلاء الكتاب مع كتبهم التى تعرضوا فيها لرسول الله ﷺ وللإسلام [2] ، « من هؤلاء وليم موير ــ فى كتابه حياة محمد ، هنرى لامنس ــ فى كتابه الإسلام ، الفرد جيوم ــ فى كتابه/ الإسلام ، صمويل زويمر ــ فى كتابه الإسلام نحو العقيدة ، كنيكراج ــ فى كتابه : دعوة المئذنة ، أ . ج . أربرى ــ فى كتابه الإسلام اليوم ، جولد زيهر ــ فى كتابه تاريخ مذاهب التفسير الإسلامى .

هـ . أ . ر . جب فى كتبه

أ ــ طريق الإسلام .

ب ــ الاتجاهات الحديثة فى الإسلام .

جـ ــ المذهب المحمدى .

د ــ الإسلام والمجتمع الغربى

أ . ج . فينسنك فى كتابه

المستشرقون والإسلام .

---

(١) (٢) الغزو الفكرى ص٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

د. س. مرجليوث فى كتبه

أ ــ محمد ومطلع الإسلام .

ب ــ التطورات المبكرة فى الإسلام .

جـ ــ الجامعة الإسلامية .

د ــ قنطرة إلى الإسلام .

ج . فون . جرونياوم فى كتبه

أ ــ إسلام العصور الوسطى .

ب ــ الإسلام .

جـ ــ الأعياد المحمدية .

د ــ الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية .

هـ ــ دراسات فى تاريخ الثقافة الإسلامية .

د . ب . ماكدونالد فى كتابه

تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية فى الإسلام .

ر. أ. نيكلسون فى كتابه

متصوفو الإسلام .

ر ــ بل فى كتابيه

أ ــ أصول الإسلام فى بيئته المسيحية .

ب ــ مقدمة القرآن .

أرثر جيفرى فى كتابه

مصادر تاريخ القرآن .

يوسف شاخت فى كتابه

أصول الفقه الإسلامى .

فيلت حتى فى كتابه

تاريخ العرب .

مجيد خورى فى كتابه

الحرب والسلام فى الإسلام .

إبراهيم كاشن فى كتابه

اليهودية فى الإسلام .

آدوارد فرمان فى كتابه

تاريخ المسلمين وفتوحاتهم .

ج . س . آرتر فى كتابه

العناصر الصوفية فى محمد .

ر . بلاشير فى كتابه

مقدمة القرآن .

سنوك هورج روبجه فى كتابه

الإسلام .

٥ ـــ الدعوة إلى إنكار الغيب :

الدعوة إلى إنكار الغيب ، والإيغال فى الحسية ، وتفسير الجزاء عند المصدقين به أنه جزاء روحى ، والجنة والنار بأنها شعور نفسى . وهذا يراد منه تدمير الشعور النفسى ، والرقابة على النفس ، والتشكيك فى كل مالا تدركه الحواس ، وهذه خرافة تروج لتدمير العقائد وأصحابها والمتمسكين بأهدابها .

ويترتب على ذلك :

٦ ـــ الدعوة إلى سقوط التكليف .

٧ ـــ الدعوة إلى عبادة قوى الطبيعة المنظورة .

٨ ـــ طرح النظريات المادية المنكرة للوحدانية .

٩ ـــ طرح مذاهب معينة تكون بديلا للعقائد ، وتملأ فراغا اجتماعيا وسط المجتمعات ، ويمسك بزمامها أشخاص مشبوهون يخدمون أهدافا معينة . ـــ مثل الماسونية ، والروتارى .... وغيرهما .

١٠ ـــ إحياء الدعوات الهدامة التى كان لها أثر سيء فى الوسط الإسلامى ،

وفى تدمير قوى المجتمعات الإسلامية ، مثل : القرامطة ، والباطنية ،واصطناع تاريخ لتلك الدعوات ، تصورها بأنها كانت دعوات صالحة تكافح فى سبيل أهداف عليا نبيلة ، وتثور ضد الظلم والطغيان ، تحريضا على اتباع أسلوبها ، وتسفيها للفكر الصحيح الذى كان يخالفها ، وتلويثا للجهاد الإسلامى الصحيح فى الشعوب الإسلامية .

١١ ـــ دعاوى الروحية الحديثة ، ولفت الناس إلى تحضير الأرواح ، والانشغال بالضلالات ، ولفت الناس عن الجد والسير فى الطريق الصحيح واتباع الأسباب .[١]

١٢ ـــ ترويج دعوى انتشار الإسلام بالسيف ، وأن مبدأ الجهاد فى سبيل الله إنما هو نزعة عدوانية ، تميل إلى سفك الدماء ، والاعتداء على الناس والغدر بهم[٢]

١٣ ـــ تشجيع الشيوعية والإلحاد فى بلاد المسلمين ، لتقاوم العقيدة الصحيحة ، وتتصارع معها ، حتى يسهل بعد ذلك القضاء عليها .

١٤ ـــ إشاعة أن فكرة الإسلام كدين ، يتعدد بتعدد شعوبه وأجناسه ، وبتعدد مصادره ..[٣]

١٥ ـــ إشاعة « أن الإسلام دين فردى وشخصى ، لا يصح أن يدخل فى علاقات الأفراد بعضهم مع بعض » [٤]. يراد من ذلك تفريق الأمة ، وعدم تجميعها حول هدف واحد ، حتى يسهل ابتلاعها .

ب ـــ فى الحياة الاجتماعية :

يتطرق الغزو الفكرى إلى الحياة الاجتماعية ، ويدخل إلى عادات الناس ، وإلى مجتمعاتهم ، ليبدل المفاهيم والأفكار ، ويصبغها بصبغته وتعاليمه .

١ ـــ المرأة :

يركز الغزو الثقافى على إفساد المرأة ، إفسادها بالتعليم ، إفسادها بالأفكار

---

(١) انظر الروحية الحديثة دعوة هدامة للدكتور محمد محمد حسين ص٥٧ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٨ .

(٢) انظر فى ذلك الفكر الإسلامى الحديث للدكتور محمد البهى ص٤٨ ط وهبة .

(٣) انظر المصدر السابق ص٤٨ .

(٤) المصدر السابق ص٤٨ .

التى تدعو إلى الحرية ونبذ الأخلاق والمطالبة بالحقوق ــ أيا كانت هذه الحقوق ــ والمساواة مع الرجل فى كل شىء ، خروجها إلى المجتمعات ، استقلالها اقتصاديا ، لتفعل ما تشاء ، لا لتنفع نفسها وأسرتها ومجتمعها ، تحريضا على تعاليم الإسلام ، ووصف تلك التعاليم بالجور والحيف ، وذلك بإثارة موضوعات مثل : تعدد الزوجات ، وموضوع تقييد الطلاق ، وإلغاء بيت الطاعة ، وتسهيل قوانين الانحراف ، وإلغاء عقوبة الزنا مادام ذلك برضى الطرفين ، ولهذا تقول المادة ٢٦٨ ــ من واقع أنثى بغير رضاها يعاقب بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة ، فإذا وجد الرضا فلا جريمة ولا عقاب ، مع توفر الإرادة والتمييز »[١] .

وجاء فى المادة ٢٧٣ : أن الزوجة إذا زنت ولم يحس الزوج بحرج من عمل زوجته ، أو آثر السكوت على فعلتها ، فإن القانون ليس له قبلها شىء[٢] .

كما يشيع الاستعمار أن عدم زواج المسلمة بغير المسلم فكرة عنصرية ، قائمة على التميز بين الشعوب ، وقائمة على هضم الحقوق والغرور[٣] .

عرف المستعمرون أن أثر المرأة فى التربية أكثر من الرجل ، فأولوها اهتماما عظيما ، حتى قال جب : « إن مدرسة البنات فى بيروت هى بؤبؤ عينى ، لقد شعرت دائما أن مستقبل سورية إنما هو فى التعليم لبناتها ونسائها »[٤] أى تعليما استشراقيا تبشيريا . وكان اهتمام المبشرين بالمدارس الأجنبية الداخلية للبنات اهتماما منقطع النظير ، وخاصة إذا كانت تحوى بنات السادة والقادة والعظماء ؛ لأنه يمكن التأثير عليهن بسهولة ويسر ، وتغيير ملامح حياتهن[٥] .

فلا بأس بالاختلاط ، ولا بأس بالرقص ، ولا بأس بالغناء ، ولا بأس بخدمة الرجل فى الفنادق والمخادع ، ولا بأس بالصداقة .

٢ ــ الدعوة إلى تحديد النسل :

دعوة تحديد النسل ظهرت ونمت فى الشعوب النامية ، وأشيع أنها لخوف

---

(١) كفاح دين للغزالى ص١٩٩ ، ٢٠٠ ط دار البيان الكويت .

(٢) انظر المصدر السابق ص٢٠٠ .

(٣) الفكر الإسلامى الحديث صلته بالاستعمار الغربى بتصرف ص٤٣ ، ص٤٨ .

(٤) انظر التبشير والاستعمار فروخ ص٨٦ ، ٨٧ .

(٥) انظر المرجع السابق ص٨٧ .

الفقر والبعد عن الضوائق الاقتصادية والانفجار السكانى

ولسنا بصدد مناقشة تلك الفكرة ، وإنما نقول . إنها وجهت إلى تلك الشعوب ؛ لتعمل عملها فى الحد من خطرها ، أولا على الأمم الراقية ، وثانيا لتوفر الخامات والثروات التى بين يديها للاستغلال الاستعمارى ، وثالثا لإفساح المجال للجنس الآرى والنورماندى العظيم للسيادة والهيمنة والسيطرة ، وإلا فبماذا نعلل بث هذه الفكرة بين شعوب مواردها كثيرة ، وتستورد العمالة مثل الكويت والخليج العربى ، وبماذا نعلل منع التكنولوجيا عن بلاد زراعية تسع رقعتها الزراعية مئات الملايين من البشر مثل السودان مثلا ، ومعظم بلاد أفريقيا السوداء ، وعندها من الأنهار والموارد ما يملأ الأرض خيرا ، وما زالت تعيش على البداوة فى كل شىء للآن ، ولكن الاستعمار يحنو عليها ويخاف على سعادتها ، فيأمرها بتحديد النسل . ألتكون مخازن خير تظل مغلقة لحين استعمارها والاستفادة منها أم ماذا ؟

ولماذا دائما تشغل بالحروب بين جاراتها ، وإنفاق ما بذات يدها على السلاح وعلى القتال ؟ ألسعادتها وهنائها أم لماذا ؟

٣ ـــ الدعوة إلى التحلل والإباحية :

استطاعت الدول المستعمرة أن تطعن الأمم فى قيمتها وأخلاقها بكل طريقة ، مغرية كانت أم غير مغرية ، بتهوين الأعراض ، وإشاعة الموضات ، وإظهار المفاتن ، وكشف العورات ، وتقليد النساء للرجال والرجال للنساء ، باختراع الأعياد المختلطة ، من أعياد الميلاد ، وأعياد الأسرة ، وأعياد الربيع ، وأعياد رأس السنة .

بالصحافة والكتب الجنسية ، والصور العارية ، بالسينما والمسرح والأفلام الداعرة والمسلسلات الهابطة المثيرة للغرائز ، بالرياضة والأندية المختلطة بالشواطىء والبحار والمصايف .

بالفن الهابط وحماية أصحابه واعتبارهم سفراء ونجوم ومثلاً تقتدى بهم الأجيال وتقلدهم وتسير وراءهم ، بالمحاولات الجادة والقوانين المنحرفة ، التى تحاول طبع المجتمع بطابع غربى أو شرقى .

٤ ــ المذاهب المنحرفة

المذاهب المنحرفة لتلفت المثقفين والمتعلمين والمفكرين إلى غثاء السيول السوداء ، وأعاصير العواصف الهوجاء ، وأفانين الشياطين الرعناء ، ولتطمس نور الفطرة ، وتبرز قتامة الشهوة ، لتبعد صفات الإنسانية وتبرز معالم الحيوانية . مذاهب ركبت خصيصا لتدمير الإنسان عن تربص وسبق إصرار وترصد ، لتذبح الشعوب وتستولى على الأفكار والعقول/ : من هذه المذاهب :

أ ــ الوجودية :

التى تقر أن الوجود كله عبث ، لا معنى له على الإطلاق ، ولا غاية من ورائه لمخلوق ولا لخلاق ، وأن الفرد هو الموجود الحقيقى ، فلا معنى إذاً للقول بالطبيعة البشرية ، والقول بالأخلاق التى تفرضها هذه الطبيعة ، أو بالأقدار التى رسمت لها طريقها قبل أن تبرز إلى عالم الوجود .[١]

ثم تدعو إلى الإباحية وتقويض القيم والآداب . وكان سارتر هو زعيمها فى فرنسا ، وناشر رايتها ، وقد استقبل فى مصر استقبال الأبطال شعبيا ورسميا وإعلاميا .

ب ــ الفوضوية :

وهى تدعو إلى فلسفات هدامة معادية لكل نظام وقانون ، تنادى بضرورة مقاومة الدولة والأنظمة المنبثقة منها ، لأنها أداة للاستبداد وكبت الحريات .

تنادى بإلغاء الملكية الفردية ، لأنها مبعث التسلط والظلم ، وإلغاء الدولة ، وإلغاء القانون وكل نظام ؛ لتحقيق الحرية . ويقررون أن العدالة المطلقة والحرية المطلقة لا يمكن أن تتوفر فى ظل نظام يقوم على فكرة الدولة والملكية الفردية [٢] .

ألا ترى معى أن هذه الفوضوية تفسح المجال لتفتيت الأمم وإباحة الأموال والأعراض ، وتوسع الطريق لوافد جديد ، أى وافد ، مادام لإهلاك الأمة وإضلالها والقضاء عليها .

---

(١) انظر فى ذلك « بين الكتب والناس للعقاد ص٢٦ ط بيروت ١٩٦٦ » .

(٢) انظر فى ذلك الموسوعة العربية الميسرة : ص١٣٣٤ .

جـ القديانية :

صنيعة الإنجليز فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى ـــ ، الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى ـــ ذلك هو المذهب القديانى ، نسبة إلى غلام أحمد القديانى ، ذلك الرجل الذى رباه الإنجليز ؛ ليفسدوا به شبه القارة الهندية ، ويضربوا به الكفاح الإسلامى هناك ، الذى يتأبى عليهم وكان من تعاليمه : وتتلخص دعوته فى إسقاط الجهاد ، والدعوة إلى حب الإنجليز ، وفدائهم بالأرواح والمهج ، ثم التطاول على التعاليم الإسلامية ، ومسخها بما يوافق ما يريد منه أسياده [1] ، ثم ادعى النبوة ، وحرف القرآن ، وأطلق لسانه فى تجريح [2] الرسول والرسالة ، وأضاف تعاليم جديدة إلى الإسلام ، مثل الحج إلى قاديان ، وما إلى ذلك .

د ـ البابية والبهائية :

فرق ضالة ، ظهرت لتضرب العقيدة الإسلامية ، وتشق صفوف المسلمين ، وتوهن كلمتهم . قامت على نفى صفات الله سبحانه ، وادعاء النبوة والرسالة للبهاء ، وأنه القيامة ومعناها ظهور البهاء ، لأنه المعنىُّ بالقيامة والساعة الكبرى ، وهو وجه الله الأبهى ، ولا قيام إلا قيامه ، ولا دين إلا دينه ، ألغت الصلوات المعهودة لدى المسلمين ، قيامه هو البعث ، والانتماء إليه هو الجنة ، ومخالفته النار ، كل الأنبياء والرسل كانت مهمتها التبشير بسخافاته وما جاء به ، يدعوه أتباعه « ربنا » ألف كتاب (الإيقان) ، ونسب البهاء هذا إلى الوحى .

دعا إلى هدم لغة القرآن ومحاربتها ، وإنكار إعجاز القرآن ، وإنكار المعجزات المحمدية ، وينكرون أحاديث الرسول ﷺ فى الكتب الصحاح ، ولا يعبرون الأحاديث إلا بما يوافق مذهبهم [3] .

ويعرف ـــ من أول وهلة ـــ صلة هذا المذهب وهذه الفرقة بالاستعمار ، ولهذا خلع عليه الإنجليز لقب « سير » ، واتخذ من عكا محفلا ليكون فى حماية الإنجليز ،

(١) انظر فى ذلك القديانية ، لحافظ إحسان البهى ظهير : ٦ ، ٧ ، ٣٦ .

(٢) انظر القديانى والقديانية لأبى الحسن الندوى ص١١٩ الى ١٤٢ ط الدار السعودية .

(٣) البهائية لمحب الدين الخطيب بتصرف ص٣ الى ٢٧ ط المكتب الإسلامى دمشق .

بعد أن حكم على الباب الذى سبقه بالإعدام فى تبريز فى ٢٨ شعبان سنة ١٢٦٦ ، وأكلت جثته الوحوش ، كما أنه يدعو إلى هدم الشريعة ولغتها وإعجازها ، وأحاديث الرسول .

وما هٰذا إلا ليهدم تلك الأمة الصامدة ، التى تتربص للباطل ، وتقاوم البهتان .

٥ ــ دعوة فصل الدين عن المجتمع

ويراد بذلك جعل الدين طقوسا وتراتيل ومناسك ، لا صلة له بالحياة ، فيبطل بذلك قسم الشريعة ، ولا يبقى إلا العبادات ، والعبادات شيء اختيارى تتولى هدمه المذاهب الهدامة المختلفة والرفاهية وعجلة الحياة .

٦ ــ ادعاء أن العربية تصادم الإسلام وتعارضه :

وهذه دعوى يراد منها إحياء النعرات ، والفصل بين الأمم المسلمة غير العربية والأمة العربية ، ويكفى للرد على هذه الفرية مارواه الترمذى عن سلمان الفارسى قال: قال لى رسول الله ﷺ : ياسلمان ، لا تبغضنى فتفارق دينك . قلت :[1]

يارسول الله كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟ قال : « تبغض العرب فتبغضنى !! »

وروى الترمذى عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله ﷺ : « من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ، ولم تنله مودتى »[2]

ومراد أعداء الإسلام بذلك القضاء على الإسلام ، وفى سبيل ذلك ــ وكمقدمة له ــ يكون القضاء على العروبة ، وعلى قيمتها ، ولغتها ، وقوتها ، وتراثها .[3]

٧ ــ التفسير المادى للإسلام ولحياة الرسول :

تجرى محاولات دائبة لتفسير الإسلام تفسيرا اقتصاديا أو ماديا ، وتصوير الرسالة الإسلامية بأنها جاءت لحالة ملحة ، تطلبها المجتمع العربى فى ذلك الوقت ،

---

(١) رواه الترمذى تحفة الاحوذى ١٠ / ٤٢٨ ــ ٤٢٩ .

(٢) رواه الترمذى التحفة ١٠ / ٤٢٩ .

(٣) كفاح دين للغزالى ص٧ ط دار البيان الكويت .

وما كان عليه من جهالة وضياع ، وأن الرسول ﷺ بطل عربي ، أو بطل إقليمى ، أو عبقرى مفكر ، يدعو إلى الحرية والعدالة الاجتماعية ، ومحاولة تفسير جوانب الوحى وما يتصل به من خرق للنواميس ، تفسيرا مجازيا أو مناميا ، وملخص ذلك كله وما يرمى إليه هو : نفى الرسالة ، ونفى الاتصال بالسماء ، وأن هذه الظاهرة تتكرر كل يوم بين الأمم والشعوب ، ثم خرجت كتب تفسر تلك الطريقة ، وتؤيدها . من هذه الكتب وتلك المحاولات التى جرت فى تزييف السيرة :

أولا : بإضافة الأساطير القديمة فى (هامش السيرة) .

ثانيا : بإنكار الإسراء والمعراج بالجسد — (حياة محمد) .

ثالثا : إنكار النبوة والوحى فى (محمد رسول الحرية) .

رابعا : وصف النبى بالعبقرية دون الرسالة (عبقرية محمد)

هذه الكتب وغيرها انخدعت بهذه التفسيرات المادية للإسلام ولسيرة الرسول ﷺ (١) .

٨ — الإسلام صفاء نفسى ونقاء روح :

حرص المستشرقون على لفت المسلمين إلى أن الإسلام عمله فى مجال النفس والروح والعلاقات بين الجسد والروح ، لإظهار أنه دين شخصى ، لا علاقة له بتنظيم الحياة ، ولا بالعلاقات الإنسانية ، ليوسع الطريق أمام الوافدات من الأنظمة المراد هيمنتها على المجتمعات .

ولهذا فإن هناك أفكاراً تنطلق من هذا المفهوم :

أ — فكرة إبعاد الإسلام عن مجال العلاقات بين الأفراد ومعاملتهم فى الأسرة وفى المجتمع .

ب — فكرة توقيت الجهاد ، وقصره على عهد الرسول والصحابة ومحاربة المشركين والوثنيين فى الزمان الغابر .

ج — فكرة أن الظروف الدولية تدعو المسلم إلى التساهل فى قيمه وتعاليمه ، كما تقضيه الولاء لغير المسلم ومجاراته .

---

(١) انظر فى ذلك شبهات التغريب ص٢٦٧ ، ٢٦٨ .

د ـــ فكرة أن الإسلام نفسه يتجدد ، ويخضع لعامل الزمن فى تطوره ....

هـ ـــ فكرة أن الإسلام كدين يتعدد بتعدد شعوبه وأجناسه ، وأن لكل شعب من الشعوب الحرية فى تلوينه وتشكيله ، رغم النصوص والمصادر الصحيحة[1].

كل هذه المفاهيم وغيرها أراد الاستعمار زرعها فى عقول المسلمين ؛ لينفذ منها إلى هدف واحد ، وإن تعددت أسبابه ، وهو بعثرة المسلمين ولفتهم عن دينهم القويم صراطهم المستقيم .

جـ ـــ فى الحياة الثقافية :

للمستعمرين ومستشرقيهم استراتيجية دقيقة ، يحاولون بها أن يصلوا إلى غايتهم بأى طريق ، ثم يقومون بتجميع المعلومات لها من كل حدب وصوب ـــ سواء كانت هذه المعلومات معتمدة أم لا ، حقيقة أم مزيفة ـــ وليس لها علاقة بالموضوع ، فمثلا يجمعون المعلومات التى يراد أن تكون حقائق علمية ، من كتب الديانات من التاريخ ، من الأدب ، من الشعر ، من الروايات والأقاصيص ، من كتب النوادر والفكاهة ، وإن كانت تلك المعلومات تافهة أو حقيرة ولا قيمة لها ، ولكنهم يقعدون لها ويقدمونها بكل تمويه وجرأة على أنها حقائق ، ويبنون عليها نظرية ذات صرح وعمد ، لا يكون لها وجود إلا فى مخيلة من اخترعوها .

ثم أنهم يتبعون نظرية الخلط ، فيذكرون عيبا واحدا وعشرة محاسن ـــ لا قيمة لها ـــ بجانب هذا العيب ، بحيث ينخدع القارىء ، ويظن نزاهتهم وإنصافهم ، ثم يصدق هذا العيب المدسوس ، الذى يهدم كل المحاسن ، بل يقوض صرح العقيدة من أساسه .

وإليك بعضا من تلك المدسوسات على الثقافة الإسلامية ، وعلى المجتمع المسلم ، وأساليب ذلك :

١ ـــ التشكيك فى كون القرآن كتابا منزلا من عند الله سبحانه .

٢ ـــ التشكيك فى صحة رسالة النبى محمد ﷺ .

---

(١) انظر فى ذلك كله الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص٤٧ ، ٤٨ بتصرف .

٣ ــ التشكيك فى قيمة الفقة الإسلامى الذاتية .

٤ ــ التشكيك فى قيمة التراث الإسلامى الحضارى .

٥ ــ إضعاف العلاقة بين المسلمين بقطع الروابط الثقافية وإحياء الثقافات الجاهلية .

٦ ــ الدعوة إلى العامية ، وإلى تطوير اللغة العربية .

٧ ــ إيجاد الشعور بالتبعية الثقافية ، والشعور بمركب النقص .

٨ ــ دفع الجامعات إلى الاعتماد على كتب المستشرقين العلمية .

٩ ــ توهين جهود المخلصين الثقافية والإبداعية .

١٠ ــ تمجيد القيم الغربية ، وتسفيه القيم الإسلامية ، والدعوة إلى نبذها .

١١ ــ لفت المجتمعات إلى القشور ، وإلهائها عما يفيد وينفع .

١٢ ــ إحياء المذاهب الفلسفية والجدلية ، والبعد عن الأساليب العلمية .

١٣ ــ إنشاء الموسوعات التاريخية الإسلامية ، وبذر الشكوك ولَىّ الحقائق فيها .

١٤ ــ الحرص على تكوين جيل مثقف يحمل راية الاستشراق والدعوة إليها .

د ــ الأساليب العملية لهذا الغزو :

لم يقتصر عمل الغزو الفكرى على مجرد الأمانى أو الكلمات، وإنما كانت لهم خطوات ، وخطوات عملية محسوبة ومتعددة ، على كافة الجهات والطرق. من هذه المخططات :

١ ــ الإرساليات التبشيرية إلى العالم الإسلامى .

٢ ــ الإعداد الصهيونى ، والتنسيق بينها وبين الاستعمار .

٣ ــ التصنيف والتأليف فى المباحث الإسلامية ، واستغلال قصور المسلمين .

٤ ــ إلقاء المحاضرات فى الجامعات أو الجمعيات المسلمة .

٥ ــ المؤتمرات التى تعقد بأسماء مختلفة فى أنحاء العالم الإسلامى .

٦ ــ استغلال الأمم المتحدة ، والعمل تحت مؤسساتها الثقافية وغيرها .

٧ ــ إصدار المجلات العلمية ، ولعل أخطرها فى الوقت الحاضر مجلة MUSLIMWORLD من أمريكا ، ومجلة LEMOND MUSALMANS من فرنسا .

٨ ــ إنشاء دوائر المعارف الإسلامية ، والمعاجم العربية ، وغيرها .

٩ــ تقديم التراث الإسلامى على العالم بالجمع والفهرسة والتنظيم والتبويب .

١٠ــ القيام بأعمال اجتماعية معينة ، ينفذ من خلالها ، مثل التمريض والتطبيب والملاجىء .

١١ــ إنشاء المدراس ودور العلم التى تدرس العلوم والعادات .

١٢ــ استغلال البعثات العلمية والثقافية .

١٣ــ الامتيازات الأجنبية والحصانات الدبلوماسية واستغلالها .

١٤ــ استغلال الأقليات والطوائف والنعرات .

١٥ــ التعاون بين التبشير والسياسة .

١٦ــ استغلال الحركات الوطنية والتطلعات السياسية .

١٧ــ استغلال فقر الشعوب وحاجتها وعريها ، وربط الإحسان بالتبشير .

١٨ــ استغلال العواطف والجوع الجنسى ، واستخدامه فى خدمة الأهداف .

١٩ــ الرحلات وجمعيات الصداقة ، والدعوة إلى العالمية ، والمخيمات الكشفية .

٢٠ــ المساعدات الاقتصادية ، وربطها بتسهيلات وتنازلات معينة .

٢١ــ الدعوة إلى الحوار الحر ، مع نبذ العقائد والأفكار ، والتجرد للوصول إلى الحقيقة .(١)

---

(١) انظر فى ذلك الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة لأبى الاعلى المودودى ص٢٧١، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص٢٣ ــ ٢٨ ، ومعالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان ص٩٩ ، الإسلام على مفترق الطرق ص٢٩ ، التبشير والاستعمار ص٣٥ ، ٥١ ، ٦٥ ، ١١١ ، ١٣٢ ، ١٩٣ ، الفكر الإسلامى الحديث ص٤٢ .

تموين الحركات التبشيرية وحمايتها

ليست الحركات التبشيرية ومؤسسات الغزو الثقافى نشازا ، أو نبتا عفويا ، وإنما هى حركات تسندها حكومات ومؤسسات ، تملك الأموال الطائلة ، والأساطيل والسفن ، والطائرات ، والجيوش الثقافية والعلمية المدربة .

تملك المدارس التى تعلم الأساليب واللغات واللهجات والمحاورات والمداورات ، تملك الأرصدة الضخمة والميزانيات المهولة ، ويقوم على هذا كله :

١ـ البلدان الغربية وفى مقدمتها الدول الاستعمارية .
٢ـ الجمعيات التى أنشأت لأجل تشجيع الدراسات الشرقية .
٣ـ الفاتيكان أكبر المدارس الدينية التى تهتم بالاستشراق .
٤ـ الحركات التبشيرية فى العالم .
٥ـ الجامعات الأوربية والامريكية .
٦ـ التبرعات والمساعدات التى ترصد لذلك .

وهذه الحكومات وتلك الدول تبذل على الغزو الفكرى وعلى الاستشراق بسخاء ؛ لأن ذلك طلائع الاستعمار وأظفاره ، فإذا حاد مستشرق أو عميل عن الخط المرسوم ، تخلى عنه ذلك الاستعمار وأعوانه وأذنابه . إن الاستعمار هو الذى قتل « باتريس لومومبا » فى عام ١٩٦١ ، مع أن لومومبا صابىء من الوثنية إلى النصرانية بفعل التبشير ، ولكنه أراد أن يكون فى الكنغو استقلال صحيح .

ثم إن هؤلاء المبشرين يشتغلون أشياء أخرى غير هذه الأعمال الظاهرة ، ألا وهى الجاسوسية .

وقد وزعت وكالة تاس السوفياتية فى بيروت عام ١٩٥١ مقالا نشرته جريدة « برافدا » فى موسكو لمراسلها فى بكين عاصمة الصين ، وقد جاء فيه : « لقد أدخل الاستعماريون الأمريكيون إلى الصين مبشرين من مختلف المذاهب ، استخدموهم منذ أمد بعيد فى أعمال الجاسوسية »[1]

---

(١) انظر التبشير والاستعمار ص٢ عن نشرة صادرة فى حزيران عان ١٩٥١ (واحد وخمسين فى العدد) (١١٣) .

ومن هذا يتبين أن هذه الحركات وهؤلاء المبشرين ماهم إلا طلائع زحْف على الأمم والشعوب ؛ لتحطيمها ، والقضاء عليها ، وتخريبها من داخلها ، لمصلحة سدنة المدنية الحديثة ، التى تقوم على أشلاء الأمم والشعوب ، وتسحقهم بغير رحمة أو إحساس بالذنب .



المبحث الرابع
هل تنحل الأمة الإسلامية ويعتريها توارث الحضارات

تقوم حضارة الأمم على مبادىء وأعراف وقيم وقوانين ودساتير ، يتربى عليها جموع منهم ، تستطيع بما فى هذه الحضارة من قوة أن تؤسس دولة ، وتبنى صرحا متماسكا قويا ، قد يغزو ويستقطب ويستوعب حضارات أخرى كثيرة ، وبقدر ما تكون صلاحيات تلك الحضارة ، وبقدر فلاحها فى التربية والإبداع تكون سيادتها وغلبتها وعزتها . فإذا فقدت هذه المبادىء وتلك الأعراف والقوانين والدساتير انهارت الحضارة بتحللها من الداخل ، قبل أن يأتيها غزو من الخارج ليجهز عليها .

ذلك أن الغزو الخارجى فى مثل هذه الحالة يشبه — فى كثير من أحيانه — الضربة القاضية فى مجتمع يلفظ أنفاسه الأخيرة .

فليس الانهيار فى أمم الحضارة حدثاً عارضاً يقوم على مصادفة أو تدخل القضاء والقدر . كذلك فإن الانهيار لايمكن أن يعزى إلى فقدان السيطرة على البيئة سياسيا ، أو الانحطاط فى الأساليب الصناعية أو التكنولوجية ، أو حتى العدوان الخارجى فقط ، وإنما العامل الأصيل فيه هو الإنسان ، وتحلل هذا الإنسان ؛ وفقدانه لإنسانيته ، ورجولته وقيمه ، وهمته ، ومقدرته على فهم الحياة من حوله ، وعلى القيام برسالته ، وهذا هو التولى الذى عناه القرآن الكريم فى قوله « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »[1]

وقد تكون الأمه المتولية فقيرة ضعيفة ، وقد تكون غنية وقوية ، ولكن العبرة بالتولى وفقدان صفات الإنسانية وخصائصها . فكم من أمم فقيرة ضعيفة تولت فبادت واندثرت ، وكم من أمم ضعيفة استجابت وعزمت وجاهدت فعزت . وما أمة

(١) محمد / ٣٨ .

العرب حين جاءها الإسلام عنا ببعيد ، عرفت قيمة الإنسان ، وعرفت رسالته ، وربت عليها مجتمعا ، آمن بمُثُل ، وترك أعرافا وعادات . ولتبيان ذلك الفرق واضحا نذكر وصف « جعفر بن أبى طالب » للنجاشى — : لحال الفترتين : فقال جعفر : « أيها الملك . كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرفه ، ونعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .... فصدقناه وأمنا به »[(١)] نعم سادت هذه الأمة بقيمها وصدقها ، رغم فقرها وضعفها .

وكم من أمم قوية فقدت عنصر بقائها ، وهى فى أوج حضارتها وعزتها ، فهلكت وبادت واندثرت ، ولم تنفعها ما جيشت من جند ، ومادججت من سلاح ، وما دربت من قادة ، وأمامنا دولة الفرس والروم ، ذواتا الحول والطول ، وقد رأينا ما فعلت بهما الأيام على أيدى الأميين التائهين فى الصحراء القاحلة .

وقد قرر علماء الحضارة أن هذه الثقافات التى تترقى عليها الأمم لها أعمار وأطوار .

أطوار تتدرج فيها ، وأعمار تقضيها وتعيشها .

فابن خلدون فى تأملاته العديدة فى الحضارات ، وطبيعة العمران ، يقرر أن الحضارة تتعاقب على الأمم فى أربعة أطوار : هى طور البداوة ، ثم طور التحضر ، ثم طور الترف ، ثم طور التدهور الذى يؤدى إلى السقوط .[(٢)]

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام ص٧٥ ط دار البحوث — لعبد السلام هارون .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ص١٣٧ التجارية بتصرف .

وقد سار على رأى ابن خلدون الفيلسوف الاجتماعى الإيطالى « فيكو (vico) ، الذى عاش فى القرن السابع عشر وأوائل الثامن الميلادى .

« يقرر فيكو : أن المجتمعات تمر بمراحل معينة من النمو والتطور والفناء ؛ لأن من طبيعة الظواهر أن تحدث فى ظل ملابسات محددة ، وفقا لطريقة معينة ، فحيثما وجدت هذه الملابسات والظروف وجدت الظواهر »[1]

ويأتى فيلسوف التاريخ « أوزولد اشبنجلر المتوفى سنة ١٩٣٦ ، فيقرر « أن الحضارة كائن عضوى طبيعى ، ينشأ فينمـو ، ثم يزدهر فيشيخ ، حتى يلحقه الفناء . وقد عرض اشبنجلر هذا التصور البيولوجى للحضارات عرضا مفصلا فى كتابه « انحلال الغرب »[2]

إذاً فالأمم ينتهى أمرها بالتصدع الحضارى ، وتذوب ثقافة وفكراً وشخصية فى حضارة أخرى جديدة ، إذا فقدت عناصر بقائها ، وذابت ثقافتها ، وأصبحت لا تستطيع مقاومة الأفكار الجديدة ، أو تستوعب الحياة المتطورة . فتأتى حضارة أخرى تستطيع استيعاب العقول والأفكار والثقافات ، وترث تلك الحضارة البائدة .

ولكن هل تنحل الأمة الإسلامية ، ويعتريها ما يعترى غيرها من توارث الحضارات ؟ يجيب على هذا السؤال بعض الباحثين المتخصصين فى الحضارات ، فيقول الأستاذ / محمد أسد « ليوبولد فايس » فى كتابه القيم العظيم « الإسلام على مفترق الطرق » : « يخبرنا التاريخ أن جميع الثقافات الإنسانية ، وجميع المدنيات ، أجسام عضوية ، تشبه الكائنات الحية ، إنها تمر فى جميع أدوار الحياة العضوية التى يجب أن تمر بها . إنها تولـد ، ثم تشب وتـنضج ، ثم يدركها الـبلى فى آخـر الأمـــر . فالثقافات كالنبات الذى يذوى، ثم يستحيل ترابا ، تموت فى أواخر أيامها ، وتفسح المجال لثقافات اخرى ولدت حديثا ، أهذه إذاً حال الإسلام ؟ ربما ظهرت كذلك عند إلقاء أول نظرة سطحية ، مما لاشك فيه أن الثقافة الإسلامية شهدت نهضة

---

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية د . عفت الشرقاوى ص١٨٧ ، ١٨٨ ط دار النهضة العربية .

(٢) المرجع السابق ص١٩٣ .

مجيدة ، وعهدا من الازدهار ، وكان لها من القوة ما يلهم الرجال جلائل الأعمال وأنواع التضحية . ولقد غُيرت معالم الشعوب ، وخُلقت دول جديدة، ثم سكنت وركدت ، وأصبحت كلمة جوفاء ، وها نحن أولاد اليوم نشهد انحطاطها التام وانحلالها !! ، ولكن هل هذا كل مافى الأمر ؟

إذا كنا نعتقد أن الإسلام ليس مدنية من المدنيات الأخرى ، وليس نتاجا بسيطا لآراء البشر وجهودهم ، بل شرع سنه الله لتعمل به الشعوب فى كل مكان وزمان ، فإن الموقف يتبدل تماما .

وإذا كانت الثقافة الإسلامية ـــ فى اعتقادنا ـــ نتيجة لاتباعنا شرعا منزلا ؛ فإننا حينئذ لا نستطيع أبداً أن نقول بأنها كسائر الثقافات ، خاضعة لمرور الزمن ، ومقيدة بقوانين الحياة العضوية ، ـــ ثم إن ما يظهر انحلالا فى الإسلام ليس فى الحقيقة إلا موتا وخلاء ، يحلان فى قلوبنا ، التى بلغ من خمولها وكسلها أنها لا تستمع إلى الصوت الأولى !! ، ثم ليس ثمت علامة ظاهرة تدل على أن الإنسانية ـــ مع نموها الحاضر ـــ قد استطاعت أن تشب عن الإسلام ، بل إنها لم تستطع أن تبنى فكرة الإخاء الإنسانى على أساس عملى ما ، كما استطاع الإسلام أن يفعل ، حينما أتى بفكرة القومية العليا : « الأمة » .. إنها لم تستطع أن تشيد صرحا اجتماعيا يتضاءل التصادم والاحتكاك بين أهله فعلا ، على مثال ما تم فى النظام الاجتماعى الإسلامى .... إنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان ، ولا أن تزيد فى شعوره بالأمن ، ولا فى رجائه الروحى وسعادته .

ففى جميع هذه الأمور نرى الجنس البشرى فى كل ما وصل إليه ، مقصرا كثيرا عما تضمنه المنهج الإسلامى .... فأين ما يبرر القول إذاً بأن الإسلام قد ذهبت أيامه ؟ أذلك لأن أسسه دينية خالصة ، والاتجاه الدينى زى غير شائع اليوم ؟

ولكن إذا رأينا نظاما ما بنى على الدين ، قد استطاع أن يقدم منهاجاً عمليا للحياة أتم وأمتن وأصلح للمزاج النفسانى فى الإنسان من كل شىء آخر ، يمكن العقل البشرى أن يأتى به عن طريق الإصلاح والاقتراح !! ، أفلا يكون هذا نفسه حجة بالغة فى ميدان الاستشراق الدينى ؟

لقد تأيد الإسلام ـــ ولدينا جميع الأدلة على ذلك ـــ بما وصل إليه الإنسان من أنواع الإنتاج الإنسانى ، لأن الإسلام كشف عنها ، وأشار إليها ، على أنها مستحبة ، قبل أن يصل إليها الناس بزمن طويل .

ولقد تأيد أيضا ـــ على السواء ـــ بما وقع فى أثناء التطور الإنسانى من قصور وأخطاء وعثرات ؛ لأنه كان قد رفع الصوت عاليا واضحا بالتحذير منها ، من قبل أن تتحقق البشرية أن هذه أخطاء ، وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الدينى نجد ـــ من وجهة نظر عقلية محضة ـــ كل تشويق إلى أن نتبع الهدى الإسلامى ، بصورة عملية ، وبثقة تامة .

نحن لا نحتاج إلى فرض إصلاح على الإسلام ـــ كما يظن بعض المسلمين ـــ لأن الإسلام كامل بنفسه من قبل . أما الذى نحتاج إليه فعلا ، فهو إصلاح موقفنا من الدين بمعالجة كسلنا وغرورنا ، وقصر نظرنا ، وبكلمة واحدة : معالجة مساوئنا ... إن الإسلام ـــ كمؤسسة روحية واجتماعية ـــ غنى عن كل تحسين ، وإن كل تغيير فى مثل هذه الحال يطرأ على مدركاته ، وعلى تنظيمه الاجتماعى ، بافتئات من ثقافة أجنبية ـــ ولو بإشراق ضئيل ـــ سيكون مدعاة إلى الأسف الشديد ، وسترجع الخسارة حتما علينا نحن » [1].

إذاً فحضارة الإسلام على هذا لا يعتريها ما يعترى غيرها من توارث الحضارات ، وإذاً فهى مستثناة من حركات التاريخ . يقرر هذا ويؤكده الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ، فيقول بعد أن يبين عوامل توارث الحضارات : « وتستثنى من ذلك كله حضارة الإسلام ؛ لأن أساسها ليس عنصرا بشريا ، يناله الضعف والبلى ، ولكن أساسها العقيدة ، وهى لاتزال تتجدد وتتعاقب على حمل رايتها الأجيال ، وأداتها هى اللغة العربية ، لغة القرآن ، وبفضله عاشت وقدر لها أن تنجو من الضياع ، وبفضل الإسلام والعربية ظلت حضارة الإسلام حية ، لأن العقيدة لا تبلى مادام هناك من يؤمن بها ، ومادامت العقيدة حية فى عالم الإسلام ، فاللغة

(١) الإسلام على مفترق الطرق تأليف محمد أسد ترجمة : عمر فروخ ص١١١ ـــ ١١٤ ط السادسة دار العلم للملايين .

العربية حية ، أى أن عنصرى الحضارة الإسلامية الأساسيين باقيان ، لا ينال منهما كر الغداة ومر العشى ، وتعاقب الأجناس وتغير الظروف . وهذا مبحث واسع[1] وهذا فى رأينا هو الرأى الذى لا يستطيع أى باحث منصف أن يحيد عنه . .

بل أقول : إن هذا رأى بدهى ، حجب عن الأنظار كثيراً من المسلمين؛ لبعدهم عن كتاب ربهم ، ولجفاء نفوسهم للهدى والنور ، ولجفاف قلوبهم من عاطفة الإيمان ، ولخمود جذوة الإيمان فى روع كل تقى ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لنجاح الغزو الفكرى فى إبعاد المسلمين عن تراثهم وتاريخهم ، وإبهارهم بالثقافة الغربية ، وتزيينها لهم ، وإلباسها حللا قشيبة على جسد أجرب مقروح نتن .

ويتلخص من ذلك أن الحضارة الإسلامية فريدة فى ثقافتها ، فريدة فى منهجها وقوتها وصلابتها ، ولا يعتريها البلى للأسباب الآتية :ـــ

١ـــ لأنها وحى من الله ، وليست صناعة بشرية ، بل هى ناموس ربانى للإنسان ، كما أن للحياة نواميس تصاحبها إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها .

٢ـــ لأنها المثل الكامل الذى لن تستطيعه البشرية ، وإنما تقترب منه إذا هديت طريقها المستقيم ، وأخذت بشرعها الحكيم .

٣ـــ لأنها رسالة الفطرة ، والفطرة البشرية لا تتغير ولا تتبدل ، وإذا تبدلت الفطرة كان ذلك دلالة على الانحراف الذى يجب أن تقلع البشرية عنه ، فلا صلاح لها ولا فلاح إلا بالرجوع إلى فطرتها ، وبالتالى إلى شريعة الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

٤ـــ لأنها مازالت لليوم المثل الكامل الذى ما استطاعته البشرية ، والنظام الباهر الذى سبق كل تفكير . وقد فرض واقعا معاشا فى كل قيمه العليا ، مازالت تحاوله الحضارات ولا تستطيعه . فرض مثلا واقع الأخوة ، وواقع المساواة ، وواقع العدل ، وواقع الحرية ، وواقع التوازن بين الروحية والمادية فى الإنسان وفى المجتمع ، وواقع الطهر الروحى والجسدى ، الجنس والنفس ، واقع الكرامة الإنسانية والأخوة العالية ، واقع

---

(١) الحضارة للدكتور حسين مؤنس ص٢٧٣ ط عالم المعرفة الكويت .

التعايش بين الأديان والنحل المختلفة ، بنفس الحقوق والواجبات ، بغير أحقاد ولا أطماع . وتحاول البشرية ذلك اليوم وتفشل ، بل تتردى وتنحط ، وتبعد عنه وتنهار .

٥ــ لأنها النبع الصافى الذى لا يكدر ، وكل من قرب من ذلك النبع كان أكثر صفاء وأنقى شرابا ، ولأنها الأنموذج الذى يقاس عليه ، وينسج على منواله ، والأصل الذى يقلَّد ، ويحاول كُلٌّ أن يتأسى به .

٦ــ لأن الله تكفل بحفظ هذه الثقافة وهذا النظام ، فلا ينهار ولا يتحلل ولا يماع كغيره من الثقافات ، ولا يندثر كغيره من الأعراف والتعاليم ، وإنما هو باق خالد عظيم شامخ ، عليه خاتم الخلود والبقاء .

فكيف إذاً يقاس الإسلام بغيره ، وتقاس ثقافته الربانية وقانونه الإلهى بالثقافة البشرية والتفكير الإنسانى القاصر ، الذى تثبت الأيام قصوره وفناءه كصاحبه ، دلالة على أن الفانى زائل فى كل شىء ، حتى فى فكره ونظامه ، أما الباقى فهو باق فى كل شىء ، وكذلك فى قانونه ودستوره ونظامه ، وصدق الله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[1]، ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون[2]﴾

---

(١) فصلت ــ ٥٣ .
(٢) المائدة ــ ٤٩ ــ ٥٠ .

الفصل الثانى

أمراض الحضارات وعصور الانتحار العلمى

المبحث الأول
تدهور الحضارات

تَقَدُّم العقل نعمة ، ونور البصيرة نعمة ، وسهولة الحياة نعمة ، وراحة البال نعمة ، والأمن ونزع الخوف نعمة ، وصدق الله : ﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ (١) ، ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾ (٢) ، ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف ﴾ (٣) .

وحضارة الإنسان التى تبنى على العقل والقيم والحب وراحة البال وسعادة الإنسان لا شك تكون نعمة . وقد منَّ الله سبحانه على أهل سبأ بما أعطاهم من حضارة زاهرة ، وتقدم باهر ، وخير وفير ، فقال سبحانه : ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ﴾ (٤) .

ولكن لا تستمر هذه النعم ، ولا تربو هذه الحضارات ، إلا بأسباب معينة ، ونواميس محسوبة ، فإذا اختل مسارها ، أو تدحرجت خطواتها ، تهدمت أركانها ، وتزلزلت قواعدها . فالحضارة علم ، ومعارف ، وذوق ، وخبرة ، وتجربة ، وجهد ،

---

(١) المؤمنون ــ ٧٨ .
(٢) الأحقاف ــ ٢٦ .
(٣) قريش ــ ٣ ــ ٤ .
(٤) سبأ ــ ١٥ .

وبحث ، وعقل . وكل هذا يزيد ملكات الإنسان إرهافا ، ويفجر فى كيانه ينابيع جديدة من الإبداع والإحسان والتقدم ، فإذا انحرف العلم أو فسد ، وشردت المعارف أو ضلت ، وانحرف الخطو أو فسد العقل ، تدهورت الحضارة .

إساءة استخدام الحضارة :

إذن فربما أورثت الحضارة غرورا وفتنة ، هذا إذا أساءت الأمم استخدامها ، وأفسدها ما تملكه من أسباب التمدن ، فأسرفوا فى التنعم ، وخلدوا إلى التبطل والدعة ، وزهدوا فى العمل والجهد والجد ، ووكلوا الأعمال والمتاعب لغيرهم ممن لا يحسنها ولا يصلح لها ، ومضوا فى الاستمتاع والترفه بما أحاط بهم من نعيم العيش ولين المهاد ، وأسرفوا فى الطعام وفى الشراب ، وانصرفوا بطاقتهم إلى التفنن فى الاستمتاع ، وأكثروا من العربدة والسير وراء الشهوات ، وأغرقوا أنفسهم فى الجنس ، ولعبت بهم أهواء النساء ، وضيعوا أوقاتهم بين الغوانى ، وصاحب ذلك الإقبال على الخمر ، ومصاحبة رفقاء السوء ؛ وبعد الناصح ، فأصبحت الأوقات لا تتسع للجد ، ولا لمباشرة أمور الأمم ، فضعفت قبضتهم على السلطان ، وتفلتت أزمة الأمور من أيديهم ، وهم لاهون فى هذا المتاع ، فاضمحلت قواهم ، وتمهد الطريق لغيرهم ، للتغلب عليهم ، وانتزاع الملك من أيديهم ، والسيادة من أمتهم ، وتتلخص هذه الظاهرة فيما يسميه المؤرخون بسيطرة أدوات الحضارة على الإنسان ، بدلا من سيطرته عليها .

ولكن إذا أراد الإنسان أو أرادت أى أمة الاستفادة من حضارتها ، أو أى ظاهرة حضارية ، ينبغى أن يكون الإنسان فيها قادرا على السيطرة على أدوات تلك الحضارة ، وعلى ما تنتجه من أدوات ، وما تيسره من رفاه ، وإلا سيطرت عليه فأهلكته ، وأصبحت بالتالى ضررا عليه ، ووبالا على أمته .

فكل شىء فى الحياة مهما كان نافعا ، إذا فقد الإنسان السيطرة عليه كان مهلكا وكان ضارا له ، بل كان فى معظم الأحيان ساحقا ومدمرا . ولنضرب لذلك الأمثال .

النار مثلا ، كانت تحولا حضاريا هائلا ، فى طهى الطعام ، وفى الإنارة والاستصباح ، وفى الاستدفاء ، وفى غير ذلك من المنافع . ولكن إذا أسيء استعمالها ، وأهملت السيطرة عليها ، كانت خطرا على الكبير والصغير ، وعلى البيت والمتاع ، وعلى البلد والجيران ، وعلى إنتاج الأمة وعلى مقومات حياتها .

والسلاح ضرورى للإنسان ، لكى يدافع عن نفسه ، ويحمى به بلده وقومه وعشيرته . ولكن إذا فقد الإنسان السَّيطرة على نفسه فى حيازة هذا السلاح وفى وجوده ، كان هذا السلاح وبالا على الفرد ، وعلى المجتمع ، وعلى الأمم ، بل وعلى البشرية جمعاء ، وقد ثبت بالفعل وبالتجربة وبالواقع المعاش ان السلاح يسيطر فى الغالب على الإنسان . الذى لايملك من القوة العقلية والخلقية ما يمكنه من السيطرة على هذا السلاح ، فقد حرض هذا السلاح الإنسان وشجعه على أن يكون ذئبا ، فشرع يستعمله فى الاستيلاء على الأشياء بالقوة أو الانتقام والإرهاب وسفك الدماء .

وتسمى هذه الحقيقة من الحقائق « بالقبض » ، أى القدرة على القبض على الأشياء ، ومعرفة كيفية استعمالها . وبدون هذا القبض أو هذه القدرة على الأشياء ، ومعرفة كيفية استعمالها والتحكم فيها ، وبدون وجود قانون خلقى ونفسى واجتماعى يحكم تلك الأشياء ، لا يستطيع الإنسان ولا الأمم الاستفادة من أى ثمرة من ثمرات الحضارة .

وكذلك كل استمتاع بأطايب الحياة ومطالبها بغير تحكم فى الشهوات وبغير ضابط يصبح ضررا على المستمتع به . فالإسراف فى لين الفراش يؤذى العمود الفقرى ، ويضر بالبدن ، والإسراف فى النوم فى الفراش الوثير يضعف الجسد ، ويدعو إلى الخمول ، وحتى الإسراف فى الشراب والطعام يصيب المعدة بأمراض شتى ، هذا فضلا عما يؤدى إليه من إتلاف وضياع وإهمال ، ولهذا نرى أن ربنا سبحانه ينهانا عن ذلك فى مواطن كثيرة .

فيقول عز من قائل : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾[1]

---

(١) الأعراف ـــ ٣١ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ (٢)

وقوله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أؤنبكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات ﴾(٣) .

العنصر الأخلاقى وأثره :

إن أبرز ما يميز الحضارات الناهضة من الحضارات الهابطة هو سيطرة العنصر الأخلاقى على تصرفات الفرد والمجتمع والدولة فى الحياة ، فى السلم والحرب على السواء ، والتجرد من الأنانية الصغيرة المحدودة ، والتخلى عن حب الذات حبا يبغى على الآخرين ، ويهضم حقوق الغير ، ويقضى عليه فى بعض الأحيان . وترك عبادة الدولة وتقدسها وإعلائها فوق المبادىء والمثل والأخلاق .

فإذا سيطرت اللاأخلاقية على حضارة من الحضارات ، فسدت أجواء الحياة البشرية ، واستحالت تلك الأجواء إلى حيوانية الذئاب فى الغابة ، لا عهد ولا ميثاق ، ولا مجال فيها لغير الغدر والنفاق واقتناص الفرص للقضاء على الفرائس .

ولقد شهدت البشرية وتشهد اليوم فى هذه الحقبة التى سيطرت فيها الحضارة الغربية مثلا من حياة الغابة ، وصورا من شرائع الذئاب ، شرائع الغدر والنفاق والخسة ونقض العهود وخيانة الوعود وتمزيق الاتفاقيات ، ووصف المعاهدات بأنها قصاصات من الورق ، كما شهدت من الدمار ومن وحشية الحروب ما تستنكف منه

---

(١) الإسراء ـــ ١٦ .
(٢) الإسراء ـــ ٢٧ .
(٣) آل عمران / ١٤ ـــ ١٥ .

الوحوش الذئاب والثعالب .

وستشهد البشرية فى مستقبلها ــ إذا استمرت هذه الحضارة اللاأخلاقية ــ ألوانا من الخيانة والغدْر ، وصنوفا من الوحشية والبربرية والهمجية ، بما يتفق مع روح هذه الحضارة المادية الكافرة ، التى لا تؤمن بإنسانية ولادين ولا خلق ، ولا تقيد نفسها بمبدأ ولا ضمير ولا رقابة ، وهذا ما يلتمس مع الفكر المادى الملحد الغليظ الأنانى الذى يسيطر على هذه الحضارة ، ويخلق فى الفرد والمجتمع روح العداء والتحفز والصراع ، والسعى إلى المصلحة المباشرة والعنصرية البغيضة .

وستظل روح الشقاق والصراع والغلبة والقهر سائدة مهما نودى بالأخوة والتعايش السلمى والصداقة بين الشعوب والوحدة العالمية ، لأن أساس الحضارة وقاعدتها لا أخلاق ، ولا إنسانى ، ولا يقوم على عقيدة أدبية إنسانية تكيف الصلات المادية ، وتسير الآلات والمخترعات والأجهزة لبناء الحياة ورفعة الإنسان ، لا لتحطيم الحياة وإذلال ذلك الإنسان .

وستظل أطماع الأقوياء ورغبات الدول الكبرى تتحكم على أساس انفعية العنصرية ، واستغلال الثروات وجهد الإنسان وعرقه ، وتبيح للقادة وللزعماء فيها كل منكر وكل وحشية ما دامت الغاية تبرر الوسيلة ، ومادامت قداسة الدولة هى السائدة وهى العقيدة ــ لاقداسة الأخلاق والمثل ــ هى التى تتحكم ، وهى القاعدة التى على أساسها يتعاملون ويتحركون فى المجتمعات وبين الأمم والشعوب .

ولن يكون إزاء هذا الفهم والانحراف رادع عن ارتكاب أحط الجرائم فى حق الآخرين ، مادام يعد المجرم بطلا عظيما ، والغادر سياسيا بارعا ، وارتكاب أفظع الجرائم وسفك الدماء وإذلال الشعوب واعتبار السطو والقهر والبطش عملا قوميا يضيف إلى صاحبه رصيدا معينا .

إذن فالعنصر الأخلاقى مهم جدا فى بناء الحضارات وسعادة الأمم ، وفقدان هذا العنصر يدمر الحضارة ، ويجعلها تتصارع وتفقد إنسانيتها ، وإذا فقدت الحضارة إنسانيتها رجعت كما بدأت إلى عصر البداوة والهمجية والانحطاط ، ولكن لا ترجع إليه

إلا بإنسانية محطمة وركام تائه بائس مدمر بصنع الإنسان .

وصدق الله : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾[1].



(١) الروم ــ ٤١ .

المبحث الثانى
أمراض الحضـــارة

الحضارة كالأجسام والأعضاء ، تصح وتمرض ، وتقوى وتسقم ، وتشتد وتضعف ، لأنها مرتبطة بحياة الإنسان ، وفكره ، ونهجه ، وخطوه ، فإذا استقام الفكر واستقام النهج واعتدل الخطو وسعدت الحياة ، وإذا اعوج والتوى الدرب وفسد النهج وشقيت الحياة ، انعكس ذلك على الإنسان وعلى المجتمع .

وتاريخ الحضارات وتراث الأمم ، تظهر على محياه وفى جنباته هذه الأعراض أو تلك الملامح ، كما ينعكس ذلك على حياة الناس بما كسبت أيديهم واقترفت عقولهم : ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾[1] .

وحضارة الغرب اليوم تناولها المحللون من جميع جوانبها ، فوجدوا أن الحياة الإنسانية فى ظل هذه الحضارة ، وفى رحاب تلك الأفكار والمناهج ــ كما هى سائرة اليوم ، وكما هى صائرة وفق جميع التقديرات الظاهرة ــ ، لا يمكن أن تستمر فى طريقها هذا ، ولا بد لها من تغيير أساسى فى القاعدة وفى الركائز التى تقوم عليها ، تغييرا يعصمها من تدمير الإنسان ذاته بتدمير خصائصه الأساسية ، فالحياة الإنسانية ، بل والدنيا كلها ، قد بلغت فيها اليوم عملية الهدم والتخريب ذروتها ، ولا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد ربهم رشدا .

لا ندرى آلله أراد من وراء هذه العملية أن يذيق الناس وبال ما عملوا ، أم هناك شىء صالح سيظهر بعد عملية الهدم والتخريب لتلك الحضارة ، وما كنا نهتدى إليه أو نقتنع به إلا بعد أن يذوق الناس وبال ما صنعوا .

---

(١) الكهف / ٤٩

والحقيقة الظاهرة للعيان أن خط الحياة للحضارة الحالية — وفى ظل منهجها — يمضى يوما بعد يوم فى تدمير خصائص الإنسان العليا ، وتحويله إلى آلة من ناحية أخرى ، وإذا كان هذا الخط لم يصل إلى نهايته بعد ، وإذا كانت آثار ذلك الهلاك وتلك النهاية لم تضح اتضاحا كاملا لبعض المتعجلين أو اللاهين ، فإن حريقه فى الأمم والشعوب الحضارية منها وغير الحضارية ، وهدم هذا الهلاك فى الحياة العامة والخاصة للإنسان ، قد جعل المخلصين والباحثين يجأرون بالشكوى ، ويرفعُون الصوت عاليا بالإنذار والتحذير من المصير البائس ، الذى ينتظر البشرية فى ظل هذا الهدم والتدمير الإنسانى المتواصل .

إن السموم والأوبئة التى تتناثر من تلك الحضارة المريضة ، جعل الناس فى هلع دائم ، وحرب ساخنة أو باردة ، وحياة باهتة أو ضاجرة ، يتخلص الكثيرون منها بالانتحار السريع أو البطىء .

ومرد ذلك كله إلى علل وأمراض وأخطاء ، نشبت فى جذور هذه الحضارة ، وفى حناياها وأحشائها . فهوى ذلك الصرح الشاهق ، وَخَرَّ سقفه على الناس من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .

وأمراض الحضارة اليوم وعللها عديدة ومتنوعة ، منها ما يختص بالأساس الذى تقوم عليه ، والأفكار التى تبنى عليها ، ومنها ما يتخلل المنهج ، ويتسرب إلى الأوصال ، ويسرى فى الدماء والعروق ، ومنها ما يتعلق بالغاية والهدف والآمال والطموح .

معالم تلك العلل والأمراض :

يشخص الباحثون أمراض الحضارة ، ويرى كل واحد من وجهة نظره أمراضا معينة وعللا مخصوصة ، ولكنهم يجمعون على علل وأمراض كانت سببا فى هدم تلك الحضارة ، وتحويلها إلى عكس ما يراد منها وما يرجى لها ، وأدل تلك الأسباب :

١ — الجهل المطبق بالإنسان وخصائصه :

على الرغم من كثرة معارفنا ، وعلمنا ، وسعة علمنا نسبيا بالمادة ، وطرق

استغلالها ، وتصنيعها ، والاستفادة منها على أصول فنية راقية ؛ إلا أننا مازلنا عاجزين عن فهم طبيعة الإنسان ، وتقدير خصائصه ، وتهذيب ميوله ورغباته وشهواته ، واختراع أو اكتشاف نظام شامل لجوانب حياته كلها ، يتناسب مع طبيعته وخصائصه ويحتفظ بها جميعا فى حالة تجدد ونمو وازدهار ، لتؤدى غرضها فى الحياة فى سعادة الإنسان وهنائه .

وقد أجاد الدكتور « الكسيس كاريل » فى كتابه المشهور الإنسان ذلك المجهول ، فى التعبير عن الفرق بين علوم الجماد وعلوم الإنسان ، وتقدم الحضارة فى الأولى وتأخرها فى الثانية ، فيقول :

« هناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة .. فعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة ، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها بسداد وفصاحة ، باللغة الحسابية ، وقد أنشأت هذه العلوم عالما متناسقا كتناسق آثار اليونان القديمة .

إنها تنسج حول هذا العالم نسيجا رائعا من الإحصاءات والنظريات ، بيد أن موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، حتى ليبدو كأن الذين يدرسون الحياة قد ضلوا طريقهم فى غاب متشابك الأشجار ، أو أنهم فى قلب دغل سحرى ، لاتكف أشجاره التى لا عداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها ، فهم يرزحون تحت عبء أكداس من الحقائق ، التى يستطيعون أن يصفوها ، ولكنهم يعجزون عن تعريفها أو تحديدها فى معادلات جبرية .

فمن الأشياء التى تراها عالم الماديات ، سواء كانت ذرات أم نجوما ، صخورا أم سحبا أم ماء ... أمكن استخلاص خواص معينة كالثقل والأبعاد الاتساعية .... وبتعلم سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريبا على كل شيء موجود على البسيطة ... فيما عدا أنفسنا ....

ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة ، والإنسان بصفة خاصة ، لم يصب مثل هذا التقدم ..

إنه لايزال فى المرحلة الوصفية .. فالإنسان كل لا يتجزأ ، وفى غاية التعقيد ،

ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له ، وليس هناك طريقة لفهمه فى مجموعه أو أجزائه فى وقت واحد .

كما توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجى . ولكى نحلل أنفسنا فإننا مضطرون إلى الاستعانة بفنون مختلفة ، وإلى استخدام علوم عديدة .

ومن الطبيعى أن تصل كل هذه العلوم إلى آراء مختلفة فى غايتها المشتركة ، فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط ، وبعد أن تضاف هذه المستخلصات بعضها إلى بعض ، فإنها تبقى أقل غناء من الحقيقة الصلبة .. إنها تخلف وراءها بقية عظيمة الأهمية ، بحيث لا يمكن إهمالها .. إلى أن يقول « وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنة مازالت غير معروفة ، فنحن لا نعرف ـــ حتى الآن ـــ الإجابة على أسئلة كثيرة مثل :

« كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكى تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية » ؟

« كيف تقرر « الجينس » (ناقلات الوراثة) فى نواة البيضة الملقحة ، صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة » ؟

« كيف تنتظم الخلايا فى جماعات من تلقاء أنفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء » ؟ ....(١)

ثم يقرر كاريل حقيقة معينة لا بد لكل إنسان أن يعرفها وأن يعيها ويحسها ، بل ويلمسها لمسا .

فيقول : « إننا مازلنا بعيدين جدا من معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمى والعضلات والأعضاء ، ووجود النشاط العقلى والروحى .

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص١٥ ـــ ١٦ .

ومازلنا نجهل العوامل التى تحدث التوازن العصبى ومقاومة التعب والكفاح ضد الأمراض .

إننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الإحساس الأدبى ، وقوة الحكم ، والجرأة ، ولا ماهى الأهمية النسبية للنشاط العقلى والأدبى ، كذلك النشاط الدينى . أى شكل من أشكال النشاط مسئول عن تبادل الشعور أو الخواطر ؟ لاشك مطلقا فى أن عوامل فسيولوجية وعقلية معينة هى التى تقرر السعادة أو التعاسة ، النجاح أو الفشل ، ولكننا لانعرف ما هى هذه العوامل .. إننا لا نستطيع أن نهب أى فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية ، وحتى الآن فإننا لم نعرف ، أى البيئات أكثر صلاحية لإنشاء الرجل المتمدن وتقدمه ..... هل فى الإمكان كبت الروح ، وكبت الكفاح والمجهود ، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجى والروحى ؟

كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه فى المدنية العصرية ؟

وهناك أسئلة أخرى عديدة لا حد لها ، يمكن أن تلقى فى موضوعات تعتبر غاية فى الأهمية بالنسبة لنا .

ولكنها ستظل جميعا بلا جواب .. فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ، مازال غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا بدائية فى الغالب . » (١)

وهكذا يظهر من تقريرات وتحليلات هذا العالم الكبير أن هناك فارقا أساسيا شاسعا بين علوم المادة وعلوم الإنسان ، وبين طبيعة وإمكانية موقف العقل بين هذه وتلك ، وأن هذا الفارق كامن فى أمرين ثابتين ، لا يتعلقا ببيئة ولا بزمان ، وهما :

١ ـــ تعقيد الموضوع وتشابكه .

٢ ـــ طبيعة تركيب عقولنا .

---

(١) المرجع السابق ـــ ١٨ ، ١٩ .

كما أنه رغم تقدم علوم الجماد فى هذه الحضارة ، ورغم بلوغ الإنسان فى تلك العلوم شأواً بعيداً ؛ إلا أنه مازال بدائيا فى علوم الإنسان ، وفى حقيقة مشاعره ، وآماله ، وحقيقة دوره فى الأرض ، وغاية وجود الإنسان فى هذا الكون .

ولهذا عومل الإنسان فى تلك الحضارة معاملة الجماد بدون تقدير لمواهبه وإحساساته ، فكان هذا اللون من المعاملة ماحِقاً له ، وناسفا لطبيعته . يقول شفاتيرز : « ألبرت شفاتيرز » ، حين يعرض لأزمة الحضارة :

« إن تقدم الحضارة المادى أكبر بكثير جدا من تقدمها الروحى ، لقد اختل توازنها . فالاكتشافات التى جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل قد أحدثت ثورة فى العلاقات بين الأفراد بعضهم ببعض ، الجماعات والدول ، وأثرت معارفنا وازدادت قوتنا إلى حد لم يكن فى وسع أحد أن يتخيله ، نحن نعانى فى تقدير إنجازاتها المادية ، ولا نقدر أهمية العنصر الروحى فى الحياة حق قدره ، إن الحضارة التى لا تنمو فيها إلا النواحى المادية ، دون أن يواكب ذلك نمو متكافىء فى ميدان الروح ، هى أشبه ما يكون بسفينة اختلت قيادتها ، ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التى ستقضى عليها ، ذلك أن الطابع الجوهرى للحضارة لا يتحدد بإنجازاتها المادية ، بل باحتفاظ الأفراد لكمال الإنسان ، وتحسين الأحوال المادية »(١)

ولهذا فالحضارة انطلقت كغول انسل من عقاله وأخذ يفترس هذا الإنسان ولا يعمل له أى حساب .

والإنسان هو سيد هذا الوجود ، وهو محوره ومدار نشاطه ، فأى حضارة تسحق هذا الإنسان ، ولا تقدر مواهبه ، وتجهل خصائصه ، وتغفل شعوره فى قوانينها الاقتصادية والاجتماعية ، مقضى عليها بالفشل والخسران ، وهو ما وقعت فيه حضارتنا العصرية المسيطرة .

---

(١) الإسلام والحضارة أنور الجندى ص١٣٠ ، ١٣١ ط دار الاعتصام .

يقول كاريل : « إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا ، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ، ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ؛ إلا أنها غير صالحة بالنسبة لنا ولحجمنا وشكلنا .... » [١]

هذا التصور العليل للإنسان فى الحضارة الحديثة ، وهذا التيه الذى يقضى على أشرف عنصر على وجه الأرض ، لا يوجد فى الحضارة الإسلامية .

حيث إن الإنسان فى التصور الإسلامى هو سيد الوجود الأرضى بخلافته عن الله فيها . وكل ما فى الأرض مسخر لخدمته وإسعاده وصدق الله ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾[٢]

﴿ الله الذى سخر لكم البحر ؛ لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٣].

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق مالا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنَّخِيلَ والأَعنَابَ ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقَوْمٍ يتفكرُون . وسَخَّر لكم الليل والنهار ، والشَّمْسَ والقمر ، والنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بأمره . إنَّ فى ذلك لآيات لقومٍ يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يَذَّكَّرُونَ . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص٣٧ ط مؤسسة المعارف بيروت تعريب شفيق أسعد .

(٢) البقرة — ٢٩ .

(٣) الجاثية — ١٢ — ١٣ .

حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تَشْكُرُون . وألقى فِى الأَرْض رَواسى أن تَمِيدَ بِكُمْ ، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون ، وعَلاَماتٍ وبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدونَ . ﴾[1].

ولم يترك المنهج الإسلامى الإنسان لشقوته واضطرابه وشهواته وأهوائه ، ولم يترك البشرية يبغى بعضها على بعض ، فليس لديهم القدرات والاستعدادات الضرورية لوضع منهج لحياتهم ؛ لأنهم يجهلون أنفسهم ، ويحارون فى فهم ملكاتهم وغرائزهم ، ويخضعون لأهوائهم وشهواتهم . وهذا الجهل وذاك الخضوع له إيحاء مؤثر يجعل من الخطر على وجودهم ، وعلى خط سيرهم فى الحياة ، أن يتولوا وضع شريعتهم وتخطيط منهج حياتهم .

ولهذا تولى الله وضع تلك الشريعة ، ورسم ذلك المنهج الإسلامى للبشرية ، متخطيا الجهل الإنسانى والقصور البشرى ، وقد أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون ﴾[2].

وقوله :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يُضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاؤك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ، أولٰئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع

---

(١) النحل ـــ ٥ ـــ ١٦ .

(٢) الجاثية ـــ ١٨ .

بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »[1].

فالإسلام جعل الإنسان سيداً على الأرض ، وسخر له كل شيء ، وأقدره على معرفة النواميس الكونية اللازمة للحياة . وفى الوقت نفسه عصمه من بغى شهواته ، وجهله بنفسه ، وطغيانه على طبيعته وبنى جلدته ، فرسم له طريقا سويا وصراطاً مستقيما لأن لايضل ولايشقى ، فمن أعرض عن هذا المنهج وسلك غير هذا الدرب جنى على نفسه ، وأوقعها فى جهل وعنت وتيه ، وصدق الله : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى ، وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ﴾[2].

٢ــ سيادة الحياة الصناعية لا الإنسانية :

كل الدلائل والإشارات تدل دلالة واضحة على أن الحضارة التى نعيشها اليوم ، والتى تهيمن على العالم ، تتأثر إلى حد كبير بجو الحياة الصناعية ، من ناحية الإنتاج والتسابق فى كسب المال ، وترويج السلع بالدعاية ، بزيادة ساعات العمل ، بتلويث الأجواء ، بالاعتماد على الأشياء الصناعية غير الطبيعية ، بالإرهاق وكثرة التفكير والتنافس على المادة .

فمثلا ، تتأثر حياتنا بالإعلانات التجارية إلى حد كبير ، وبالأسواق التجارية ، فلقد أوهمت وأجبرت الدعاية كثيرا من الناس ، بل كثيرا من الدول ، على تغيير عاداتها وطبائعها ، بل توجيه وجهتها إلى غير الوجهة الصحيحة ، ولننظر إلى الكسيس كاريل ، يصف تلك الحالة وهذا التأثير ، فيقول :

« لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال إهمالا تاما

---

(١) النساء : ٦٤ ــ ٦٥ .

(٢) طه ــ ١٢٤ ــ ١٢٧ .

عند تنظيم الحياة الصناعية ، إذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ » الحد الأعلى من الإنتاج بأقل التكاليف حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد الحصول على أكبر مبلغ مستطاع من المال ، وقد اتسع نطاقها دون أى تفكير فى طبيعة البشر الذين يديرون الآلات ، ودون أى اعتبار للتأثيرات التى تحدثها طريقة الحياة الصناعية ، التى يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم ، لقد بنيت المدن الكبرى دون الاهتمام بأمرنا ... فأشكال ناطحات السحاب ، ومساحتها ، تتوقف تماما على الحد الأقصى من الدخل من كل متر مربع من الأرض ، وعلى تقديم المكاتب والمساكن التى ترضى السكان وأصحاب الأعمال ، وتوافق رغباتهم ..

ثم يقول : لقد أوهمت الدعاية الجمهور أن الخبز الأبيض افضل من الخبز الأسمر . وهكذا ينخل الدقيق مرة بعد أخرى بدقة ، ليتجرد من العناصر الغذائية النافعة .. إن مبالغ ضخمة تنفق على الدعاية ، ونتيجة لذلك أصبحت كميات كبيرة من المنتجات الغذائية والطبية التى لافائدة منها على الأقل ، وغالبا ماتكون ضارة .

وأصبحت هذه المنتجات ضرورية للإنسان المتحضر ، وعلى هذا المنوال ؛ فإن شراهة للأفراد الذين وهبوا ذكاء كافيا ، يمكنهم من خلق تهافت الجمهور على طلب السلع التى لديهم ، وتلعب دورا رئيسيا فى الدنيا العصرية ...

ثم يختم كاريل ذلك بقوله : «وهكذا يبدو أن البيئة التى نجح العلم والتكنولوجيا فى إيجادها للإنسان لا تلائمه ؛ لأنها أنشئت اعتباطا ، وكيفما اتفق ، دون أى اعتبار لذاته الحقيقية . »[1].

والحقيقة أن سيطرة الحياة الصناعية ، وشرهها إلى الإنتاج ، وإلى المادة ، خلفت كثيرا من المآسى الاحتكارية والصحية والاجتماعية ، وما ذلك إلا لأنها لم يصحبها قانون أخلاقى ، أو عرف إنسانى ، أو شعور روحى . فخلفت بفقدها هذه

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ـــ ص٤٨ ـــ ٤٠ .

الأمور جوا من التنافس والأحقاد ، وجعلت الناس حكرا على مناطق نفوذ معينة لدولة أو لأفراد ، وهذا علاوة على ماخلفت من جو آلى ، استعمل فيما بعد فى الإضرار بالإنسان نفسه فى سلمه وحربه . نعم إن الإبداع المادى فى هذه الحياة ضرورة لنمو الحياة ورقيها ، ولكن بشرط أن لايضر ويناقض خصائص الإنسان ، أو يفسدها ، أو يقضى عليها ويدمرها ، وهذا ماتعانيه تلك الحضارة .

٣ــ ظهور نظريات معقدة ساعدت فى شقاء الإنسان :

فى جو الحياة الصناعية والآلية ، وفى غبار المادة الملتهبة ، ظهرت نظريات اجتماعية وسياسية ، كان لها دور فى تمزق الإنسان ، وضياع الطريق من قدميه ، فالنظم التى أنشأها أصحاب المذاهب فى عقولهم ودبجوها فى مكاتبهم عديمة القيمة .. فمبادىء الثورة الفرنسية الجوفاء ، وحقوق الإنسان ، وخيالات ماركس ، وأحلام لينين ، تنطبق على الرجال الجامدين غير الأحياء ، أو على الحيوان ، أو على قطع الشطرنج ، التى لاحس لها ، ولا تفكير ، ولا شعور ، ولا خصائص ، ولا غرائز ، ولا قيم .

إن قوانين العلاقات البشرية مازالت عند هؤلاء غير معروفة ، وكل هذه النظريات التى تدعى ، مجرد فروض وتخامين ، نتجت من الإحساس بالظلم أو الاضطهاد أو الإحباط ، فساعدت على ما فرت منه . وكانت ــ كما يقولون ــ كمن يستجير من الرمضاء بالنار . وكل هذا لعدم العلم بطبيعة الإنسان ، أو ملكاته ، أو إحساساته ، بل حتى تركيبه العضوى .

يقول العالم الأمريكى « أ. كريس موريسون » فى كتابه ، الذى ترجمه إلى العربية الأستاذ محمود صالح الفلكى ، بعنوان « العلم يدعو إلى الإيمان » .

« إن القائلين بنظرية التطور « النشوء والارتقاء » لم يكونوا يعلمون شيئا عن وحدات الوراثة « الجينات » ...[1]

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان ١ ــ كريس موريسون ترجمة محمود الفلكى ص١٤٧ ط النهضة المصرية ــ الخامسة .

« لقد رأينا أن الجينات متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات فى خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية ، وهى تحتفظ بالتصميم ، وسجل السلف والخواص التى لكل شىء حى .

وهى تتحكم تفصيلا فى الجذع ، والجذر ، والورق ، والزهر ، والثمر ، ولكل نبات تماما ، كما تقرر الشكل ، والقشرة ، والأجنحة ، والشعر ، لكل حيوان بما فيه الإنسان .... » (١)

ثم يقول : « إن ارتقاء الإنسان الحيوانى إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده ، هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادى ، ودون قصد ابتداعى .

وإذا قبلت واقعية القصد ، فإن الإنسان — بوصفه هذا — قد يكون جهازا ، ولكن ماالذى يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدار لافائدة منه . والعلم لايعلم من يتولى إدارته ، وكذلك لايزعم أنه مادى .

لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوافق بأن الله قد منح الإنسان قبسا من نوره ، ولايزال الإنسان فى طور طفولته من وجهة الخلق ، وقد بدأ يشعر بوجود مايسميه « بالروح » ، وهو يرقى فى بطء ليدرك هذه الهبة ، ويشعر بغريزته بأنها خالدة » (٢).

ومذهب النشوء والارتقاء ، والوجودية ، والماركسية ، وغيرها من النظريات المعقدة ، التى بثت فى أجواء الحضارة ، أغرقت الإنسان فى المادية ، وأبعدته عن إرواء روحه وفكره ، وقادته معصوب العينين إلى حيث يشاء سماسرة الحضارة والمستفيدون من هذا السعار المادى الجارف .

ويعرض « كارل ياسيرز » لمستقبل الحضارة ، فيقول :

« إن بدعتين طغتا من بدع العصر ، هى : الماركسية ، والفرويدية ، —

---

(١) المرجع السابق صـ ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) نفسه صـ ١٨٩ ، ١٩٠ .

وينسى دعوته المسمومة ــ « الوجودية » يقول :

« فى عالم محروم من الله ، ظهر كارل ماركس نبيا ، واتخذ القوالب التى يستطيع هذا العالم أن يقتنع بها ، وأن يهلل لها . وكان طبيعيا أن تسيطر على النفوس أساليب فرويد ومدرسته فى منهج مهزوز مجدود ، فى عالمنا المقلوب هذا .

قد أحس الناس بحاجة شديدة إلى التحرر ، وجاء التحليل النفسى فزودهم بذلك الوهم ، إننا بصدد عملية جبارة من عمليات الاستهواء الذاتى ، الذى هو نتاج صادق لهذا العصر المفتون ، والذى يسير جنبا إلى جنب مع أساليب السحر والتعاويذ ، التى استولت على عقول الناس » (١).

نعم ظهرت هذه الدعوات فى غياب الروحانيات ، واستغلت نفور الناس من الكنيسة ، ومن استغلالها ومحاكمها التفتيشية ، واستغلت تلك الأجواء ، وأمطرت الناس بوابل من الأوهام والخيالات التى كانت جرثومة قوية فى جسد الحضارة المادية .

٤ــ الانصراف إلى الماديات :

أغرمت المدنية الغربية بالمادة ، وأعطتها كل شىء على حساب أى شىء ، حتى الإنسان وملكاته وخصائصه ، وأصبح الحديث عن المادة هو الحديث عن الحياة ، وعن السعادة ، وعن المستقبل والحاضر ، وعن الصداقة والعداوة . ولهذا نسمع عن الحروب الاقتصادية ، وعن مناطق النفوذ وعن الأسواق والمصالح الغربية ، حتى أصبحت الحضارة طوقاً وقيداً فى أعناق وأرجل الناس ، وضج من هذا التخريب الباحثون والعلماء ، وتكلموا فى تلك الحقائق المفزعة المقلوبة بازدراء .

يقول الأستاذ ليوبولد فايس « محمد أسد » :

« لقد أضافت الحضارة الغربية على الإرث الرومانى المادى عنصرا ماديا جديدا ، فقد أخذوا يعبدون المال كما عبد بنو إسرائيل العجل المسبوك ، الذى صنعه

---

(١) الإسلام والحضارة أنور الجندى صـ ٨٥ ، ٨٦ ط دار الاعتصام .

لهم هارون فى غياب موسى من حلى نسائهم »[1].

وهكذا أصبح المال إلها جديدا فى الغرب ، يعبد من دون الله ، وقامت فى عواصم أوربا أسواق المال والبورصة مثل « ريجنت ستريت فى لندن — وول ستريت فى نيويورك . ثم جعل كهان هذا الإله الجديد يستغلون الناس بكل سبيل ، يجمعون من شعوب الأرض دريهماتهم القليلة ، ليخزنوها ملايين فى صنادقهم الحديدية .

ولما زاد شرههم إلى المال أخذوا يثيرون الحروب بين الأمم ، ثم يبيعون المتحاربين كلهم سلاحا . لايهمهم من مات ولا يهمهم من قتل ، ولا من ضربت أرضه ودياره ، ولا من جاع أو عطش أو عرى ، أو ظل جاهلا ، ماداموا هم يجمعون المال فى صناديقهم ، ليزيدوا به نفوذهم السياسى والعسكرى فى العالم ، ثم ليستخدموا هذا النفوذ من جديد فى سبيل قناطير جديدة من الأموال وهكذا دواليك . »[2].

وعن هذا المعنى نفسه يتكلم الأستاذ « يترم سوركن » ، رئيس دائرة علم الاجتماع بجامعة هارفارد ، حين يتعرض لأزمة الحضارة الغربية فى كتابه الذى سماه (أزمة عصرنا) فيقول :

« أزمة الثقافة الغربية الراهنة سببها انحلال الثقافة الغربية الحسية الخالصة ، وقد سادت هذه الثقافة قرونا عدة ، وفرضت نفسها على كل ناحية من نواحى الحياة ، فهى حينما يدركها الخلل ، ويدب فيها التسمم ، يسرى الداء إلى مختلف أجزائها ، وتشيع الفوضى بنواحيها المختلفة .

فليست الأزمة الراهنة أزمة أوضاع وصور وأشكال ، وإنما هى أزمة انهيار عام وتحلل شامل . فهى أزمة مستحكمة عميقة ، أشد من سائر الأزمات . وفى خلال

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق صـ ٤٥ ، ٤٦ وهذا التعبير الأخير غير مقبول إسلاميا .
راجع التوراة سفر الخروج ، الإصحاح الثانى والثلاثين . ثم راجع القرآن الكريم ، سورة البقرة ٥١ ، ٥٤ ، ٩٢ ، ٩٣ والنساء — ٥٢ » والأعراف — ١٤٧ ، ١٥١ ، وسورة طه — وقد نسبوا صنع العجل إلى هارون بدل السامرى .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق محمد أسد صـ ٤٥ ، ٤٦ ط دار العلم للملايين تعريب الدكتور عمر فروخ .

الثلاثين قرنا الأخيرة لم يحدث فى تاريخ الثقافة (اليونانية ــ الرومانية ــ الغربية) سوى أربع أزمات من هذا القبيل ، والأزمة التى يواجهها المجتمع الغربى اليوم هى : أزمة انهيار الثقافة الحسية ، وستخلفها ثقافة أخرى ، ولكن هذا الدور هو دور الاضطراب الذى تنهار فيه الثقافة القديمة البالية ، وفيه تشتعل الحروب ، وتستعر الثورات ، وتشتد الأزمات ، وكل هذه الحروب والثورات ، إرهاصات بالثقافة والحياة الجديدة [1].

وهكذا نرى « سوركن » ــ رئيس دائرة علم الاجتماع ــ يقرر أن الثقافة الحسية للحضارة الغربية أصيلة الجذور فى المجتمع الغربى ، وأن تلك الثقافة قد أدت إلى انهيار وتحلل شامل للحضارة ، وأن الحروب والثورات والأزمات ــ التى تأخذ بتلابيب الأمم وتصليهم سعيرا ــ هى من نتاج هذه الماحقة ، وأن هذه الإرهاصات وتلك الضوائق دليل على زوال تلك الحضارة مع ثقافتها ، وأن ذلك يبشر بظهور ثقافة جديدة وحضارة أخرى ، تختلف عن تلك الحضارة الحسية ، وتكون موائمة لطبيعة تلك البشرية وصادقة معها ، ترتاح فى جنباتها النفوس وتقر .

ويؤيد ذلك ويقرره « ألبرت شفاتيرز » : إن الحضارة الأوربية المعاصرة تعانى من أعراض التحلل والانهيار . ثم يعدد الأسباب ويذكر منها .

١ ــ سيطرة الآلة على حياة الكثير منا ، حتى غدونا عبيدا لها ، تتحكم فينا ، وأصبحت حياتنا ضيقة مرهقة ، ولم تعد لنا فسحة من الوقت للتأمل والاستقرار الذهنى ، وأصبحنا جميعا بصورة متفاوتة فى خطر من أن نستحيل إلى صور إنسانية ، بدلا من كائنات لها شخصيتها الذاتية ، وبهذا أصاب الأذى المادى والروحى وجودنا الإنسانى ، وشغلتنا معركة العيش عن التفكير فى المثل العليا للحضارة ، ونشأ تصور ضال للحضارة عندنا . والمعنى الحقيقى للحضارة ، وهى أن تظل إنسانية ، وأن تحتفظ بذخيرة حياتنا الروحية مع ظروف مدنيتنا المادية الحديثة .

---

(١) انظر الإسلام والحضارة للجندى صـ ١٢٦ ط الاعتصام .

٢ ـــ العناصر الجمالية والتاريخية ، وعمق المعرفة المادية ، واتساعها ، لايكون جوهر الحضارة ، فإن العناصر لاتسفر عن آثارها الحقيقية فى نموها واكتمالها ، مالم تستند فى بقائها ونموها إلى استعداد نفسى أخلاقى ، ذلك أن الإنسان ليس له قيمة بوصفه شخصية إنسانية ؛ إلا عن طريق كفاحه ، ليكون على خلق وخلال حميدة .

٣ ـــ إن تقدم الفيزياء والكمياء والميكانيك وعلم النفس وعلم الحياة لم يقدم البشرية خطوة واحدة نحو الفضيلة ، ولم يعصم المجتمع من الرذائل والموبقات والأزمات الخلقية ، بل فتح العلم سبيل الشر فى مجال التدمير والحرب وفى مجال التحلل من موجبات الدين .

٤ ـــ إن الإنسان ليس ماديا إلى الدرجة التى يدعيها الغافلون المتشائمون ، فقد وجدت بعد حياة زاخرة بالتجارب ، شهدت فيها آلام البشرية . إن الإنسان يتلهف لبلوغ المثل العليا بإرادته ، ولو أنه على الأغلب لايظهر هذا اللهف الذى يضطرم فى أعماقه . ومثل هذه الرغبة من الإنسان المعاصر فى نظر شفاتيرز ـــ كمثل حياة الجداول والأنهار ، تكون جزءا غير ذى أهمية إذا قورنت بكميات المياه الجارفة تحت سطح الأرض ، وأن البشرية تتطلع نحو من يستطيع إظهار الخفى فى الأعماق ، والكشف عن التيارات المتضاربة فى الزوايا المظلمة فى النفس البشرية [١].

ورؤية « شفاتيرز » هذه للحضارة وللإنسان تمثل رأى جمهور الباحثين ، سواء منهم الغربيين أو الشرقيين ، بل تمثل الحقيقة التى لا يستطيع إنكارها إلا مكابر ، أصم الأذن ، وأغمض العين ، وأغلق الفهم ، وطمس القلب . ونحن ـــ الأمم النامية ـــ ربما نشعر بوطأتها أكثر من غيرنا ، وخصوصا نحن المسلمين المستهدفين لكثير من حملات البغضاء والكراهية والظلم والعنت ، لأحقاد دفينة ، ليست لنا فيها من جريرة ، إلا أننا كنا أصحاب حق ساد يوما ، ويوشك أن يبرز إن شاء الله إلى الوجود . وإن غدا لناظره قريب .

---

(١) المرجع السابق صـ ١٣٢ ، ١٣٣ .

٥ـ الإلحاد والإباحية :

مما هو معروف وملاحظ على الحضارة الغربية أنها أوغلت فى التحلل والإباحية ، وقد تكلمنا على مثل ذلك فى فصول سابقة ، وهذا التخبط فى الجنس وفى العلاقة بين الجنسين ، بين الغلو والتفريط ، انعكس على الحياة وعلى استقرارها ، وتسبب فى مصادمة الفطرة ، وإتلاف الحياة الاجتماعية برمتها ؛ لأن العلاقة بين الجنسين ، واستعدادات الإنسان وميوله ورغباته ، تحكمها فطرة يستحيل أن تعتدل وتطمئن إذا كانت العلاقة بين الجنسين غير مستقرة ، أو إذا كانت تتأرجح تبعا للشهوات والميول الحيوانية ، أو تستند إلى الجهل والضعف والهوى .

كما أن لتلك العلاقة دخل كبير فى بناء صرح الأخلاق الإنسانية ، وضبط موازين العفة والكرامة ، التى تؤدى إلى الاستقرار والسعادة فى تلك الحياة ، ففى الانحلال والإباحية يدب الفساد فى أرواح الناس ، ويطرأ على سلوكهم ومشاعرهم وحياتهم كلها تغيير جذرى ، ويحل محل الصفات الباهرة والقوى المبدعة ، التى كانت تذخر بها ذواتهم فى دور النمو الحضارى ، ثنائية فى النزعات والمواقف العقيمة المتناقضة ، ثنائية الشك والتعيين ، ثنائية الضيق والسعادة ، ثنائية الأهداف العليا والضياع الحيوانى .

ولايمكن لإنسان هذا شأنه أن يتحمل كثيرا هذه الضغوط ، وإذا تحملها لايكون معها مبدعا أو مستقرا أو حضاريا . وكل باحث وكل مفكر لايملك نفسه إزاء هذه المفاسد إلا أن يحذر منها ويستنكر ..

ولهذا يقول الأستاذ كرد على : « عقلاء الغربيين يقبحون عادة التبذل التى صار إليها بعض النساء عندهم ، لما ينبعث عنها من المفاسد الاجتماعية ، التى لا يسع مكابر إنكارها ، وأى عقل سليم تجرد من المؤثرات يقول مثلا بالرقص الغربى ، وما يتبعه من مخاصرة وضم وشم ؟ وإذا كان الرقص فنا من الفنون ، كما يقولون ، ليس فيه ما يدعو إلى مواقف التهم ، فلم لا يرقص الرجل مع الرجل والمرأة مع المرأة . على حين جعلوا من أمهات قواعده أن يرقص الرجل مع المرأة ، ولولا نزع الحجاب

ما التفتت المرأة إليه ، أو شغل الناس به ، وما كانت تبلغ الفتنة هذا الحد[١] وقد أدرك علماء الغرب فى أوربا وأمريكا ما تصير إليه أممهم من دمار .

يقول الأستاذ بيتريم ساروكين — مدير مركز البحوث بجامعة هارفرد — فى كتاب له صدر أخيرا بعنوان : « الثورة الجنسية » : إن أمريكا سائرة بسرعة إلى كارثة الفوضوية الجنسية ، كما يقرر أنها متجهة إلى الاتجاه نفسه الذى أدى إلى سقوط الامبراطورية الإغريقية ، ثم الامبراطورية الرومانية فى الزمان القديم . ويقول فى ذلك الصدد (إننا محاصرون من جميع الجهات بتيار مطرد من الجنس ، يُغرق فى غرفة من بناه ثقافتنا وكل قطاع من حياتنا العامة « وهذه الثورة التى تعبر بنا ، آخذة فى تغيير الحياة كل رجل وكل امرأة فى أمريكا ، أكثر من أى ثورة أخرى فى هذا العصر »[٢] ومن ذلك ماجاء فى صحيفة « الأخبار » (عدد ٢٦ محرم ١٣٧٧ ص ٢) تحت عنوان : عالم أمريكى يقول إن المرأة الأمريكية باردة « حيث نقلت الصحيفة ماصرح به الدكتور جون كيشلر — أحد علماء النفس الأمريكيين فى شيكاغو حين قال : « إن ٩٠ فى المائة من الأمريكيات مصابات بالبرود الجنسى ، وإن ٤٠ فى المائة من الرجال مصابون بالعقم . وقال الدكتور : إن الإعلانات التى تعتمد على صور الفتيات العارية هى السبب فى هبوط المستوى الجنسى للشعب الأمريكى .

ومن شاء المزيد فليرجع إلى تقرير لجنة الكونفريست الأمريكية لتحقيق جرائم الأحداث فى أمريكا ، الذى نقلته مجلة « التحرير » العدد ٢٣٤ ، تحت عنوان : أخلاق المجتمع الأمريكى منهارة ، وهو يشير إلى ارتفاع نسبة تعاطى المخدرات بين الأحداث ، وانتشار الحانات التى تقدم الخمور ، وكتب الجنس ، وقصص الجنس ، وأفلام الجنس ، وانتشار نوادى العراة بكثرة مخيفة على الشواطىء الشرقية خاصة ، ومن شاء فليرجع إلى تقرير اللجنة التى شكلها مجلس العموم البريطانى ؛ للتحقيق فى مشكلة الشذوذ الجنسى ، فانتهت من بحثها إلى اقتراح إباحته بعد الواحد

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية كرد على ص ٩٢ .

(٢) المصور المصرى العدد ١٦٨٩ ص ٤ .

والعشرين » [1].

وهذه الإباحية المطلقة نشأت من تزكية الإلحاد . وإثارة نزعة الحيوانية فى الإنسان ، ففى خلال القرن التاسع عشر ، عندما بدأت الحضارة الغربية تأخذ مجالها ، ظهر دارون وفرويد وكارل ماركس جميعا ، وكانت لإيحاءاتهم وتوجيهاتهم المنصبة كلها على اغتيال عقيدته ، وإثارة حيوانيته ، فعل الشيطان فى تلك المجتمعات ، فى ثقافتها ، وفى غرورها ، وفى شرودها ، ولهذا نسمع البروفسور « أترنى » يقول تلك القولة المغرورة المجنونة : —

« لأى شيء يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية ، ولماذا يقص عليهم قصص إبراهيم وإسحاق ؟ ينبغى أن يكون إلهنا أيضا ألمانيا » [2].

وماذا كانت عواقب هذا الغرور الألمانى والصلف الآرى ، إنه كان الدمار والنازية والخراب والهلاك ، وكذلك من على الدرب سائرون .

٦ — ضياع الروحانية : —

بروز الحيوانية وضياع الروحانية كان سببا فى بعد الحضارة عن الإنسان ، وعن تحقيق رغباته الحقيقية وموائمة فطرته البشرية ، والحقيقة أن الحضارة الغربيه فقدت من أول يوم برزت فيه إلى الوجود النبع الصافى لهذه الروحانية الفعالة ، التى تعمل عملها فى خلق حضارة سليمة للإنسان ، ولهذا نسمع المودودى يقول فى ذلك بعد دراسة مستفيضة لتلك الحضارة :

« ظهرت الحضارة الغربية فى أمة لم يكن عندها معين صاف ، ولا نبع عذب للحكمة الإلهية ، لقد كان فيها قادة الدين ، ولكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم ولا شريعة إلهية ، ولم يكن عندهم إلا شبح دينى ، لو حاول أن يسير بالنوع

---

(١) انظر حصوننا مهددة من داخلها د . محمد محمد حسين ص ١٠٤ ط دار الإرشاد .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ص ٢١٣ ط دار القلم .

الإنسانى على صراط مستقيم فى طرق الفكر والعمل لما استطاع ، ولم يكن له أن يكون حجر عثرة وسدا فى سبيل ارتقاء العلم والحكمة ، وهكذا كان ، وكان عاقبة ذلك ، أن الذين كانوا يريدون الرقى نبذوا الدين بالعراء ، واختاروا طريقا لم يكن دليلهم فيها إلا المشاهدة ، والاختبار ، والقياس ، والاستقراء ، ووثقوا بهذه الدلائل التى هى فى حاجة بنفسها إلى الهداية والنور ، وجاهدوا واجتهدوا باحتذائها فى طرق الفكر والنظر والتحقيق والاكتشاف والبناء والتنظيم ، ولكن ضلت خطوتهم الأولى فى كل جهة وفى كل مجال ، وانصرفت فتوحهم فى ميادين العلم والتحقيق ، ومحاولاتهم فى سبيل الفكر والنظر ، إلى غاية لم تكن صحيحة .

إنهم بدءوا وساروا من نقطة الإلحاد والمادية ، نظروا فى الكون على أنه ليس له إله ، نظروا فى الآفاق والأنفس على أنه لا حقيقة فيها إلا المشاهد والمحسوس ، وليس وراء هذا الستار الظاهر شىء .

إنهم أدركوا نواميس الفطرة بالاختيار والقياس ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى فاطرها إنهم وجدوا الموجودات مسخرة واستخدموها لأغراضهم ، ولكنهم جهلوا أنهم ليسوا سادتها ومديريها ، بل هم خلفاء سيدها الحق ، فلم يروا أنفسهم مسئولين عنها ، ولم يروا على أنفسهم عهدة وتبعة ، فاختل أساس مدنيتهم وتهذيبهم ، وانصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة النفس ، واتخذوا إلاههم هواهم ، وفتنتهم عبادة هذا الإله ، وسارت بهم هذه العبادة فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق زائغة خلابة رائعة ، ولكن مصيرها إلى الهلاك »[1].

وبهلاكها تهلك الإنسان معها ، بعد أن تعذبه ، وتستعبده ، وتضله ضلالا بعيدا ، وفى هذا المجال يتكلم أستاذ الحضارة فى العصر الحديث : يقول أرنولد توينبى :

« إن منافسة الأيدولوجيات للأديان على اكتساب ولاء الجماهير يعنى العودة إلى عبادة الإنسان ، بعد أن حررته الأديان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد ، ليتجه

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ط دار القلم .

إلى الله وحده ، فإن الحضارة الغربية تعيد الإنسان مرة أخرى إلى سجن المجتمع . لقد استطاعت الأديان أن تفهم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية ، ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واعتبار .

وقد أوجدت الأديان أساسا لتحرر الإنسان من آثار المجتمع ، ووضعته مباشرة أمام مسئولياته فى علاقة مباشرة مع الحقيقة السرمدية الخالدة ، واستطاعت أن تمنح معتنقيها هداية لا تستطيع أن تجاريها فيها الأيدلوجيات ، لقد منحته الاطمئنان والمساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح والراحة الروحية ، وحررته من سجن المجتمع ، ومن ثم فلا غنى للإنسان عن الأديان ، ولن تستطيع الأيدلوجيات أن تحل محل الدين ، لأنها تمنحنا التعصب والتباغض ، بدلا من الجد والتعاون ، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز ، ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحى[1] .

ولهذا فإن ضياع الروحانية جر معه ضياع الإنسان . ضياع حريته وكرامته ، ضياع قيمه ، ضياع فطرته ، ضياع سعادته .

فماذا يجنى الإنسان بعد ذلك ، وعلى ماذا يبقى أو يذر ، ولهذا نرى كثيرا من الناس إزاء هذا الحال يفضل فى ساعات ضيقه الانتحار على البقاء فى هذه الحياة ، ولو كان عنده ملء الأرض ذهبا .

٧ ــ الإخلاد إلى الترف والنعيم :

من أمراض الحضارات الترف والنعيم ، الذى يلفت الناس عن الجد والكفاح ، وعن مقارعة الخطوب وتخطى الصعاب .

فتضمر فى الإنسان اللاحضارى شهيته فى الإبداع والإتقان والابتكار ، ويصيبه الترهل الفكرى والعقلى ، الذى ينعكس على تصرفه وحياته ومجتمعه وأمته .

إن صفات الإنسان الحضارى تحتاج إلى تربية ومغالبة وترويض ، كما تحتاج إلى

---

(١) الإسلام والحضارة أنور الجندى ص ٨٠ ، ٨١ ط الاعتصام .

صبر وتعود وكفاح ، وهذا كله لايتأتى إلا بالبعد عن ميوعة المترفين وتسيب المنعمين .

إن الإنسان الذى لايعرف الجهد المبذول ، أو المعاناة المطلوبة ، لإيجاد عظائم الأمور ، وبديع الاختراعات والمصنوعات ، لا يستطيع صيانتها ، فضلا عن إنشائها وإيجادها ، وإنما جل مايعيش فيه ، أو يفكر فى نطاقه ، هى أحلام اليقظة ، والعيش على السراب والأمانى الكذاب .

كما أن الترف والإيغال فى النعيم لايعيش ولا ينمو إلا فى المفاسد والشهوات وتفاحش العلاقات . وهذه الأشياء بذاتها تقضى على القوة النفسية والجسدية والإبداعية ، بل والصحية للأمة .

وهذا ماحدث فعلا فى أمم الحضارة ، حيث نرى الأستاذ المودودى يقرر هذا . فيقول :

« إن أول ما جره تمكن الشهوات من الفرنسيين ، اضمحلال قواهم الجسدية ، وتدرجها إلى الضعف يوما فيوما . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم ، وتعبد الشهوات يكاد يأتى على قوة صبرهم وجلدهم ، وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم ، فمن أوائل القرن العشرين لايزال حكام الجيش الفرنسى يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوبة فى المتطوعة للجندى الفرنسى على فترة كل بضع سنين ، لأن عدد الشبان الوافدين بالمستوى السابق من القوة والصحة لايزال يقل ويندر فى الأمة على مسيرة الأيام ، وهذا مقياس أمين يدلنا — كدلالة مقياس الحرارة فى الصحة والتدقيق — على كيفية اضمحلال القوى الجسدية فى الأمة الفرنسية [(1)]

وكذلك يقرر « كندى » هذا المعنى نفسه فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فيقول فى تصريحه الخطير سنة ١٩٦٢ : إن مستقبل أمريكا فى خطر ، لأن شبابها مائع منحل غارق فى الشهوات ، لايقدر المسئولية الملقاة على عاتقه ، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين !! لأن الشهوات التى

---

(١) الحجاب ص ١١٣ .

غرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية . ولننظر إلى ماهو أخطر وأبشع من ذلك .

اضطرت وزارة الخارجية الأمريكية إلى فصل ٣٣ موظفا من موظفيها ، لأنهم مصابون بالشذوذ الجنسى ، ولأنهم — بهذه الصفة — غير مؤتمنين على أسرار الدولة ، وكذلك نرى فى انجلترا نفس الشيء . فنرى فى قضية بروفيموا : تعريض أسرار الدولة العسكرية للخطر ، لقاء لذة فاجرة يقضيها وزير الحرب مع إحدى العاهرات ، وكذلك نرى نفس الشيء فى روسيا .

صرح خروشوف سنة ١٩٦٢ — كما صرح كندى —«بأن مستقبل روسيا فى خطر !! وأن شباب روسيا لايؤتمن على مستقبلها ، لأنه مائع منحل غارق فى الشهوات !!(١)». وكذلك نفس الشيء فى دول أوربا ، التى نرى فيها عصابات الشباب المنحل الغارق فى الشهوات ، الذى يدخن ويدمن الحشيش والأفيون ، ويغرق فى الجنس إلى أم رأسه ، ويهيم فى الطرقات تنتابه العلل النفسية التى يتخلص منها دائما أو غالبا بالانتحار .

وما هذا إلا للضياع الذى أورثه الترهل والترف والإيغال فى النعيم ، والفراغ ، وفقدان الهدف ، والجرى وراء الأهواء والشهوات .

٨ — الانحطاط الخلقى :

ولقد كان من مستلزمات الترف والنعيم الفساد الخلقى ، الذى يقضى على كل تقدم وكل طموح ، حيث عند فساد الأخلاق يصبح كل شيء مشروعا ، وكل أمر مباحا ، فالسرقة ، والرشوة ، والظلم ، والنهب ، والخسة ، والنفاق ، وهتك الأعراض ، وذبح الحرمات ، وفضح البيوت ، وتقطيع الأوصال ، والتأنق ، والتخنث ، والعهر ، والفسق ، تكون بضاعة العصر الرائجة ، وتجارته النافقة ، وسلعته المقبولة ، وحينما تبلغ الأمم أو الحضارات هذا الدرك ، تكون قد تودع منها . وفى هذا يقول القائل :

---

(١) انظر فى هذا جاهلية القرن العشرين ص ١٩٧ ، ١٩٨ ط وهبة .

إنما الأمم الأخلاق مابقيت   فإن هُمو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويصور داربر الأمريكى ضياع الحضارة الرومانية ، ويعزو ذلك إلى الترف ، وذهاب الأخلاق ، وفساد النظم السياسية والاجتماعية ، فيقول : « لما بلغت الدولة الرومية فى القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت فى الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت فى فساد الأخلاق ، وفى الانحطاط فى الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، واستهتروا استهتارا ، وكان مبدأهم أن الحياة إنما هى فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهو بأوانى الذهب والفضة المرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام فى ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ، وغوانى عاريات كاسيات ، غير متعففات ، تدل دلالا ، ويزيد فى نعيمهم حمامات بازخة ، وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولايزالون يتصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعا ، يتشحط فى دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين روضوا العالم أنه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة ، التى يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان فى ساعة القتال بقوة ساعده ؛ فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعين إيرادات الإقطاع ، وأن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام رومة المدنى يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعا كالذى نراه فى حضارة اليونان فى عهد انحطاطها »[(1)].

وفى هذا المعنى ، وعلى هذا الرأى ، يؤكد جميع علماء الحضارات ، الذين كتبوا فى أسباب نهوضها ونكوصها ، ولهذا يقولون جميعا ، ويحذرون من تدنس الأخلاق فى الأمم ، ويعدون ذلك من كوارث الحضارات . كما يعدون التقدم الخلقى

---

(١) التاريخ القديم بين الحياة والعلم ٢ / ٣١ ط لندن سنة ١٩٢٧ ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ص ١٨٢ ص ١٨٢ ط دار القلم .

علامة بارزة وقوة دافعة لبناء الحضارات واستمرارها . فيقول ألبرت شفاتيرز : ــ

« التقدم الأخلاقى هو جوهر الحضارة ، حيث تتجه الإرادة الإنسانية نحو الخير المادى والروحى للأفراد ، والمجاميع التى تضم هؤلاء الأفراد ، أو الخير للجزء والكل ، بمعنى أن تكون أعمالهم أخلاقية ، أما التقدم المادى فلا يعد الجوهر الخالص للحضارة ، إذ يحتمل الشر والخير على السواء[1] » . وحول هذه الأسباب المتقدمة التى تؤدى إلى انهيار الحضارات توجد أسباب أخرى ، تتصل بتلك الأسباب ، وتؤدى إلى نفس النتيجة منها :

٩ــ الإغراق فى الجنس .

١٠ــ إهدار القيم .

١١ــ المساواة بين الرجل والمرأة .

١٢ــ الظلم والعبودية .

١٣ــ اختفاء الابتكار والروح الخلاقة .

١٤ــ الانتحار الجماعى ، ويكون بشيئين :

أ ــ تحديد النسل وانخفاض نسبة المواليد .

ب ــ عدم الاستقرار النفسى .

١٥ــ الغرور الإنسانى ، ويتمثل ذلك فى : ــ

أ ــ الظلم .

ب ــ الأنانية .

جـ ــ تفضيل الجنس .

١٦ــ الانحطاط الكامل ؛ لفقدان المؤهلات للتقدم .

١٧ــ سير الحضارة اليوم على سنن الحضارة الوثنية اليونانية القديمة .

---

(١) الإسلام والحضارة للجندى ص ١٣١ ط الاعتصام .

المبحث الثالث
الحضارة والانتحار العلمى

لابد أن يتساءل الذين يعيشون تلك الحضارة عن مدى ماتقدمه هذه الحضارة للإنسان ، فى الحفاظ على حياته ، وعلى أمواله ، وعلى سعادته فى الدنيا والآخرة .

وأن يتساءلوا عن اهتمامات تلك الحضارة وعن وجهتها ، ومن ثم فهل من الأفضل أن تبنى الحضارة المساكن والمرافق ، وتستغنى بذلك عن بناء الرجال . ونجد هذا التساؤل كذلك على لسان الغربيين أنفسهم ، أكثر من غيرهم ، فيقولون : « هل من الأفضل كثيرا أن نوجه اهتمامنا إلى أنفسنا ، أو أن نبنى بواخر أكثر سرعة ، وسيارات تتوفر فيها أسباب الراحة ، وأجهزة راديو أقل ثمنا ، أو تلسكوبات لفحص هيكل السديم الذى على بعد سحيق . وما هو مدى التقدم الحقيقى الذى نحققه حينما تنقلنا إحدى الطائرات إلى أوروبا أو إلى الصين فى ساعات قلائل ؟ هل من الضرورى أن نزيد الإنتاج بلا توقف ، حتى يستطيع الإنسان أن يستهلك كميات أكثر فأكثر من الأشياء التى لاجدوى منها ؟

ليس هناك أى ظل من الشك فى أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء عاجزة عن إعطائنا الذكاء ، والنظام الأخلاقى ، والصحة ، والتوازن العصبى ، والأمن ، والسلام » (1).

ولكن هل تقتصر سلبيات الحضارة على أحمال الإنسان ، أم أنها ألقت على كاهله أعباء جديدة ، وأثقلته بضغوط ناء بها كلكله ، وعجزت عنها أعصابه .

---

(1) الإنسان ذلك المجهول ص ٥٧ ط مؤسسة المعارف بيروت .

يقول روجيه جارودى : « إن حضارتنا تقوم على أسس خاطئة ، فنحن فى المرحلة الأخيرة من الحضارة التى لا تكاد تبدأ مازلنا لانعرف أن نحدد لأنفسنا غايات حقيقية ، ولا أن نسيطر على وسائلنا . إن حضارتنا تقوم على هذه الموضوعات الثلاث :

ــ تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك .

ــ تحيل الفكر إلى الذكاء .

ــ تحيل اللانهائى إلى الكم .

إنها حضارة مؤهلة للانتحار ، انتحار لفقدان الهدف ، يشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات ، وانتحار المراهقين بأعداد أكبر فى الأصقاع الأغنى .

انتحار ؛ لإفراط الوسائل ، يبرهن على ذلك مثلا المنظور الجائر لنضوب المصادر الطبيعية والتلوث ، وذلك نتيجة لازبة لتصور لايرى فى الطبيعة شيئا آخر ، سوى أنها مستودع ومعمل لمعالجة القمامة ، والمنظور يتصرف بوسائل هدم الحضارة بهذين الاعتبارين [(١)] .

انتحار ؛ لإفراط الوسائل الذى يؤدى إلى فقر الوسائل التى يحتاجها هذا الإنسان البائس فى الحياة . فكان كالغريق الذى يموت من العطش ، وهو فى بطن الماء ؛ لأن الماء الغارق فيه مالح آسن عفن .

ظلم باسم الحضارة :

ما إن بزغت شمس الحضارة الأوربية حتى أطل معها قرن الشيطان ، وانطلق المغامرون بما صنعوا وما جيشوا واستعدوا لنهب الدول الآمنة والشعوب المسالمة ، التى تقبع فى أرضها ، لاتبغى على أحد ، ولا تتطاول على إنسان فضلا عن أمة أو شعب ، فإذا بحظها العاثر ، يوقعها فى قبضة هؤلاء المتحضرين ، ليسيموها الذل والهوان ، ويأخذوا اللقمة من فم الشيخ والضعيف والمريض والصغير ، ويستعبدوامن

---

(١) حوار الحضارات روجية غارودى ص٤٢ ط منشورات عويدات بيروت .

يقدر على العمل ويأخذوا ثروات الأمم ويتركوها بلقعا .

وقد أفرد (ستورت مل) فصلا فى كتابه ، لإيضاح أهداف المستعمرين الدخلاء من المتحضرين الذين نكبت بهم الدول الآمنة المطمئنة ، فكانوا قدرها العاثر وحظها المنكود .

يقول فيه : « إن الاستعمار بالنسبة للبلدان القديمة الغنية هو إحدى أفضل العمليات التجارية التى تستطيع ممارستها ،.... وأنا أقول : إن فرنسا وهى جد غنية تفيد من النظر فى هذا الجانب من المسألة الاستعمارية » .

ثم يسأل السيد كميل بلتان : ماهى هذه الحضارة التى تفرضها طلقات المدافع ؟ « يجيب (جول فرى) ... أيها السادة ، علينا أن نقول بصوت أعلى ، وبمزيد من الحق ! يجب أن نعلن بصراحة أن للشعوب العليا حقا تجاه الشعوب الدنيا ...!! » .[1]

حق الشعوب العليا ، كما يسمونها ، القهر ، والاستعباد ، وأخذ الثروات ، وهتك الحرمات ، والإذلال . والبغى ، والعربدة . حق الشعوب العليا شرب الدماء ، وأكل لحوم البشر ، والصلف ، والغرور بعد ذلك ، ولا رقيب ولا حسيب ولا ضمير .

ونحن لا نحب أن نضيف شيئا على هذه الوثائق ، وإنما ندعها تتكلم ، وتنطق ، وتخاطب دعاة الحضارة والمتشدقين بها . ولنبدأ برسالة المارشال (سان أرنوا) الذى يقول فيها عن جولاته فى المغرب العربى : « لقد اتسع النهب الذى بدأه أولادنا الجنود ، وامتد بعدئذ إلى الضباط ، وعندما أخليت « قسطنطينة » اتفق كما يحدث دوما ، أن آلت الحصة الأغنى والأكبر إلى قيادة الجيش ، وإلى ضباط الأركان العامة » .

« الاستيلاء على « قسطنطينة » تشرين الأول ١٨٣٧ » : « إنهم يخربون ، ويحرقون ، ويهدمون البيوت ، ويقطعون الأشجار » .

« منطقة ميليانا ــ حزيران ١٨٤٢ » . « لقد تركت بعد مرورى حريقا

---

(١) هذه النصوص ينظر فيها حوار الحضارات ص ٦٤ .

هائلا . فقد كانت القرى كلها ، وهى قرابة مائتين ، قد احترقت ، وعاث الفساد فى بساتينها ، وقطعت أشجار زيتونها » .

« القبلى الصغير ــ أيار ١٨٥١ » [١].

وإليكم ماكتبه الكولونيل « فوريه » « سنة ١٨٤٣ : « انطلقت سبع كتائب من (ميليانا) و (تشرشل) ، بغية أن تعيث فى الأرض الفساد ، وتخطف أكثر ماتستطيع من القطعان ، ولا سيما من النساء والأطفال . فقد كان الحاكم ، وهو « بوجو » ، يريد بث الذعر بين السكان ، بإرسالهم إلى فرنسا » [٢].

وفيما يلى شهادة الكولونيل « منتنياك » فى « رسائل جندى » : « يعيش » « لامورسيير » يقول : « إن هذا الجنرال الشاب الذى لا يقف فى وجهه عائق ، هو الذى اخترق الموقع فى لمحة من الزمان ، واقتلع العرب من مخابئهم فى دائرة من ٢٥ ميلا ، وسلبهم جميع ما يملكون ، من نساء وأطفال ، وقطعان وماشية .... الخ » (١ شباط ١٨٤١) .

وفى منطقة مسكرة فى السابع عشر من كانون الثانى « لاحقنا العدو ، وانتزعنا منه النساء والأولاد والماشية والقمح والشعير .....» « تسألنى فى فقرة من رسالتك عما نفعل بالنساء التى نأخذهن . إننا نحتفظ بقسم منهن رهائن ونبادل قسما لقاء الخيول ، والباقى يباع بالمزاد بيع حيوانات الذبح » .

ونذكر بعد ذلك شهادة كونت « دى هاريسون » ، فى كتابه بعنوان « صيد البشر » ص ١٣٣ ، ص ٣٤٧ ، ص ٣٤٩ « فيصف عمل إحدى الكتائب التى شارك فيها ويبدو أنه شعر ببعض النفور : « صحيح أننا كنا نعود بملء برميل صغير من الآذان المقطوعة مثنى مثنى من أجساد الأسرى ، أصدقاء كانوا أم أعداء .... وكانت هناك دروب من القسوة لم يسمع بها أحد من قبل ، إعدامات أمر بها من أمر

---

(١) هذه النصوص ينظر فيها فى رسائل المارشال « سان أرنو » الجزء ١ ص ١٤١ ، ٣١٣ ، ٣٢٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥٦ جـ ٢ ص ٨٣ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ــ وهذه الحوادث كان مسرحها المغرب العربى الإسلامى فى فترة الاستعمار .

(٢) انظر محلات افريقية للكولونيل (فوره) ص ٣١٠ .

ببرودة ، ونفذها الجلادون ببرودة ، بعيارات نارية ، أو بضربات سيف ، تنال أولئك المساكين ، الذين كان أعظم ذنب اقترفوه — أحيانا — أنهم أرشدونا إلى مستودعات فارغة ... وقد أحرقنا القرى التي مررنا بها ، وكان أهلها قد هجروها ، وعثنا فيها سلبا وهدما ، وقد اقترفنا جميع هذه الأعمال الهمجية ، دون إطلاق لعيار ناري واحد ، لأن السكان كانوا يفرون قبل وصولنا ، وهم يعدون قطعانهم ونسائهم ويهجرون قراهم » . لقد أباد ثلاثة ضباط فرنسيون هم « كافيناك » و « بيليسيه » و « سان أرنو » في سنة واحدة ، وفي ثلاث نقاط مختلفة ، ثلاث قبائل عن بكرة أبيها « رجال ونساء وأطفال » ، حين التجأت إلى المغائر ، وذلك بإحراقهم وخنقهم بالغاز وهم أحياء .

وفي ١٩ حزيران ١٨٤٥ التجأت قبيلة (ولد رياح) ، بعد أن طردتها كتائب (بوجو) المحرقة من قراها إلى مغارة . فعمد الكولونيل « بليسيه » إلى إشعال النار في فوهة المغارة طوال الليل والنهار .

وإليكم رواية شاهد عيان : «من ذا الذى يستطيع وصف هذه اللوحة ؟ أن ترى في منتصف الليل وفي ضوء القمر ، كتيبة من الجيوش الفرنسية تضرم نار جهنم كلما خبت . وأن تسمع الأنين الخافت لرجال ونساء وأطفال وحيوانات . تمزق الصخور المتكلسة التى تتشقق وتنهار ... وفي الصباح عندما عمدوا إلى تنظيف مدخل المغار ... كانت ثمت جثث الأبقار والحمير والخراف ... وبين البهائم كان يتكدس تحتها رجال ونساء وأطفال . وقد شاهدت جثة رجل يضع ركبته في الأرض ، ويده تمسك متشنجة بقرن بقرة ، وأمامه كانت امرأة تحتضن طفلها بين ذراعيها . لقد اختنق هذا الرجل عندما كان يحاول حماية أسرته من غضب هذا الحيوان ... وقد عدوا ٧٦٠ جثة ...» (١) .

حضارة ، وأى حضارة ، وأية قلوب تلك ، وأية مشاعر ، إنها مشاعر الشياطين والأبالسة وقلوب الوحوش . بل الوحوش أكثر رحمة وأقل افتراسا من هؤلاء الغلاظ الشداد المتسلحين بالفتك والدمار والبغى والعلم .

---

(١) انظر حوار الحضارات روحيه غارودى ص ٧٢ — ٧٦ ط عويدات لبنان .

أين هذا من الحضارة الإنسانية الغامرة ، ومن قول رسولها الخاتم : « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » [1] ، وقوله « دخلت امرأة النار في قطة حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » [2]. وأين هذا من سيرة أصحاب الحضارة ودعاة الإنسانية الذين يذكرهم الكتاب قوله ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[3]، وقوله ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ﴾[4]وقوله ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل ؛ لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[5] .

إنها حضارة الإنسان ، وحضارة القيم ، وحضارة الرحمة ، لاحضارة الظلم والبغي والدمار .

حرب السموم :

لم يقتصر حرب هؤلاء المتحضرين على الأسلحة ، والجيوش ، والمعارك ، وسفك دماء الأبرياء ، وحرق النساء والأطفال ، وإهلاك الحرث والنسل ، بل تفتق ذهن هؤلاء العباقرة عن حروب أخرى ، تستنزف قوى الشعوب ، وتريق الحياة من بين أرجلهم وأيديهم ، حرب السموم ، التي تخدر الناس وتسلب إدراكهم وعزائمهم ، وتهد قواهم وحيويتهم . ولقد كانت سبيل المحتل الأوربي واحدة في كل مكان . إنها سبيل حرب الأفيون ، حيث اتخذه الفرنسيون والألمان والإنجليز ضد الصين ، ليفرضوا عليها تجارة المخدر . « وقد أعقبت ذلك حربان سنة ١٨٤٠ إلى ١٨٤٤ ، أتاحتا للأوربيين ألا يفرضوا على الصينيين حرب الأفيون وحسب ، بل انفتاحها أمام التجارة الأوربية كلها ..

وقد كانت جيوش الغزو المكلفة بفرض تجارة الأفيون تضم وحدات عسكرية ،

---

(١) الحديث سبق تخريجه .
(٢) الحديث سبق تخريجه .
(٣) التوبة / ١٢٨ .
(٤) آل عمران / ١٥٩ .
(٥) الحجرات / ١٣ .

أرسلها « بالمرستون » من انجلترا ، يدعمها قسم من الأسطول الأمريكى ، وقد اهتبلت فرنسا فرصة المعاهدات غير المتكافئة المفروضة على الصين بعد حرب الأفيون الأولى ، للإسهام فى تجزئة الصين ، واقتسام التركة بمعاهدة « فامبو » سنة ١٨٤٤ . ثم وضعت يدها على مقاطعة صينية : شبه جزيرة الهند الصينية ، وأدخلت إليها تجارتها ومبشريها وجنودها . وقد منحت الإدارة الفرنسية نفسها حق احتكار صناعة الأفيون وتوزيعه .

وإليكم مثلا البلاغ رقم ٨٧٥ « س .آ .أ » الصادر فى ٢٢ تموز ١٩٤٢ عن المقيم السامى فى « تون كين » إلى المقيمين فى المقاطعات المنتجة للأفيون : « يمكن تلخيص دوركم على النحو الآتى : تشجيع الزراعة ، ومراقبة المزروعات ، ومعرفة دقيقة قدر المستطاع للمساحات المزروعة ، والقضاء على التجارة السرية » .

وقد نهض المستعمرون الفرنسيون بهذا العمل التمدينى بنجاح متميز ، تدل عليه الأرقام التالية ، وقد كان استعمال الأفيون نادرا تقريبا فى الهند الصينية قبل الغزو :

المبيع سنة ١٩٣٤	٢٩٣٢٦ كغ
المبيع سنة ١٩٤٠	٧١٧٣٦ كغ
الإنتاج المحلى سنة ١٩٤٠	٧٥٦٠ كغ
الإنتاج المحلى سنة ١٩٤٤	٦٠٦٣٣ كغ

ولم يتناول النسيان تجار الخمور الفرنسيين ، بل إن الإدارة الفرنسية فرضت استهلاك الكحول إجباريا فى الثامن من أيلول ١٩٣٤ ؛ لزيادة الواردات : « لقد قررت الإدارة أنه بدءا من اليوم يجب على كل دائرة أن تستهلك سبعة لترات من الكحول فى السنة . وكل قرية لاتشترى كمية الكحول التى تحددها الإدارة ستعتبر بمثابة من يمارس التهريب ، وسيعاقب أعيانها . وسيكون عدد اللترات التى ينبغى توزيعها على كل قرية متناسبا مع عدد الدوائر ، بمعدل ٧ لترات لكل نسمة فى الدائرة ولا مندوحة من دفع كامل المبلغ المتوجب ثمنا لكمية الكحول المسلمة ، سواء أبيعت

كلها أم لا » (١).

ولقد كانت فرنسا قبل دخول الجزائر تستورد القمح من الجزائر ، وكانت جيوش الثورة والامبراطورية تتغذى بالقمح الجزائرى .

وما إن وصلت فرنسا إلى الجزائر مستعمرة ، حتى أبادت القمح ، وفرضت على البلد الإسلامى الذى تحرم ديانته الخمر ، زراعة الكروم بدلا من القمح لإنتاج الخمور ، وبذلك قضى على الاقتصاد الغذائى ، الذى كانت تنتجه الجزائر من قبل ، وأصبحت الجزائر تستورد القمح بعد أن كانت تصدره ، وربطت فرنسا مصير الجزائريين بالخمور وإنتاجها والارتزاق منها ، والشرب والسكر والعربدة ، والتخلى عن الهمة والكرامة ، إلى أن قاوم الشعب الجزائرى ذلك بعد جهاد مرير ، فقد فيه أكثر من مليونى شهيد ، وذاق الحرمان والتشريد على يد هؤلاء المتعلمين المتحضرين ، الذين تولوا الوصاية على البشرية والهيمنة على الإنسانية ، فأذاقوها عذاب الهون ، وآلام الاستعباد ، وشقاء النفس والجسد .

الانتحار العلمى :

العلم اليوم أصبح سلاحا ذو حدين ، يستطيع الإنسان أن يستعمله فى الخير ، ويستطيع كذلك أن يستعمله فى الشر والإفساد ، والضابط ذلك هو الإنسان نفسه ، الإنسان بما له من عقل أو شهوة ، بما له من نوازع ورغبات ، وأمانى وغايات ، فإذا فقد الإنسان الرغبة فى الخير والصلاح ، وافتقر إلى المبادىء والمثل والأهداف العليا ، زاغت نفسه ، وانحرفت طبيعته ، واعتلت ملكاته ، وفسد ذوقه ، ولم تزده العلوم والمخترعات إلا ضررا ، كما أن السيف فى يد الأخرق لا يزيده إلا خبالا وإفسادا وبغيا .

وهذا ما حدث فعلا عند أمة الحضارة الغربية الحديثة ، التى لم تزدهم الآلات والمخترعات إلا قوة وسرعة فى الإهلاك ، واستعانة على الانتحار .

ولسنا وحدنا الذين نحس بهذا ، ونصلى ناره ، نحن وأمثالنا من الأمم التى

(١) انظر حوار الحضارات ص ٥٥ ، ٥٦ ط عويدات .

تسمى بالنامية ، بل شعر بهذا ، وحذر منه ، ولفت إليه ، أصحاب الحضارة الغربية أنفسهم ، فنرى رئيس وزراء بريطانيا السابق « مستر إيدن » يصف ذلك ، ويفصح عنه فى بعض خطبه سنة ١٩٣٨ م ، فيقول : « إن أهل الأرض كادوا يرجعون فى أخريات هذا القرن إلى عهد الهمجية والوحشية . ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات ، ومن الغريب المضحك أن البلاد والدول تنفق ملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آلة فتاكة تخافها ، ولكنها لا تنفق على ضبطها ، وإنى أتعجب فى بعض الأحيان ، وأقول : كيف لو زار العالَمَ الجديد زائر من كوكب آخر ، وهبط إلينا ، فما عسى أن يشاهده ؟ سيجدنا نعد العدة لإهلاك بعضنا ، ونتبادل الأنباء عنها ، ويخبر بعضنا بعضا كيف تستعمل هذه الآلات الجهنمية »[1].

ويقول الكاتب الإنجليزى المشهور « سيدنى لو » سنة ١٩١٢ ، يصف الاستعمار ، ويصف فظائع وانحرافات الدول المتحضرة إزاء الأمم الشرقية ، فيقول : « ما أشبه غالب الدول الأوربية فى سلوكها هذا الذى مابرحت تسلكه منذ عدة سنوات ، إزاء الأمم الشرقية ، بعصابة من اللصوص ، يهبطون على المحال الآمنة ، فيثخنون فيها القتل ، ثم ينقلبون بالغنائم والأسلاب ، وما بال هذه الدول الغربية بعملها هذا مؤيدة للدعوى الباطلة بأن القوى الشاكى السلاح يحق له الانقضاض على الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان القاطع على أن مكارم الأخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها البتة حيال القوة المسلحة !! ففى خلال عشرين عاما ثارت ثائرة الاستعمار فى أوربا ، وهبت عواصف الحضارة المادية الهوجاء ، فقوضت الآداب والحقوق الدولية تقويضا »[2]. حضارة وعلم ، ولكنها لا تعرف التحضر ، ولا تأخذ منه إلا اسمه ، لاتعرف رقة الحاشية ، ولا تعرف نبل الغاية ، وسمو الهدف ، ويقظة الضمير .

إنما الذى تعرفه هو الاستفادة من التجارب ، واستثمار العلم ، والبحث فيما يعود عليهم بملء بطونهم ، وانتفاخ جيوبهم ، وزيادة أرصدتهم ، وإن كان على

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٤١ .

(٢) الرسالة الخالدة لعزام ص ٢٠١ « عبد الرحمن عزام » ط .

حساب ضياع الحقوق ، ونهب الشعوب ، وضياع الحرمات ، وسفك الدماء .

وإنما الذى يسيل له اللعاب وتلهث وراءه المطامع ، هو المادة ، هو الذهب ، وإن كان ملوثا بدماء الجياع والمحرومين ، وإن كان .

يقول الكاتب الأمريكى « لو ثروب ستوارد » ، فى كتابه « حاضر العالم الإسلامى » : « إن مبادىء الحرية التى سادت فى العرب ، ونودى بها غالب القرن التاسع عشر ، قد هبت عليها ريح هوجاء من المطامع السياسية والاقتصادية ، فمزقتها شر ممزق ، وبددت صورها كل مبدد ، إذ أخذ التزاحم يشتد ، والتنازع يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل ، فاشتعلت الحرب الكونية العظمى ، واشتد نهم أوروبا وجشعها ، للتوسع فى الفتح والاستعمار ، ومناطق السيطرة ، ونيل الامتيازات ، وامتياز الأسواق الاقتصادية ، اشتداداً وحشيا غير مسبوق المثيل » [1].

واشتعال الحرب ، وتسخير العلم فى تلك الحرب ، كان لإشباع النهم الاقتصادى والسياسى ، ولإرضاء الغرور القاتل ، الذى يسيطر على أفهام هؤلاء الكهنة المتسترين فى الحضارة ، وفى مظاهرها الخادعة .

وحروب اليوم ليست كحروب الأمس ، ومعارك المتحضرين لا تقاس بمعارك المتخلفين فى الماضى السحيق ، لأن معارك اليوم عملية استخدمت فيها العقول البشرية والإلكترونية ، والنظريات العلمية ، والاكتشافات الذرية والهيدروجينية والنوترونية ، ومعارك الأمس كانت بدائية سطحية ، لأن الأهواء بالأمس كانت محدودة ، وهى اليوم غير محدودة ولا محصورة .

ولأن الحضارة قد استعملت العلم فى اختراع آلات ، تبز جميع الآلات والمخترعات فى التدمير والقتل ، وتفوق ذكاء الإنسان وخياله فى الهول والفظاعة . فمن هذه الآلات والمخترعات القنبلة الذرية ، التى جربتها أمريكا على رؤوس البشر فى مدينة هيروشيما ، وبعدها فى نجازاكى فى اليابان ، ففى صباح ٦ آب سنة ١٩٤٥ م أغارت ثلاث طائرات أمريكية على مدينة هيروشيما ، البالغ تعداد سكانها

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٢ .

٣٠٠ ألف نسمة ، وألقت عليها أول قنبلة ذرية ، وفى صباح ٩ آب سنة ١٩٤٥ م أغارت الطائرات الأمريكية على مدينة ناغازاكى ، البالغ عدد سكانها ٢٧٠ ألف نسمة ، وألقت القنبلة الذرية الثانية وقد أذاع رئيس بلدة (هيروشيما) فى ٢٠ أغسطس ١٩٤٩ أن الذين هلكوا فى اليوم السادس من أغسطس ١٩٤٥ من اليابانيين يتراوح عددهم بين مائتى ألف وأربعين ألفا . وأن الذين هلكوا فى القنبلة الثانية على ناغازاكى ٣٦ ألفا ، والذين جرحوا بلغوا ٤٠ ألفا ، وقد لايستطيع الإنسان أن يتصور هذا الهول ، ولا هذا الحجم من الدمار والخراب وسفك الدماء ، الذى تسببه الحضارة ، ويسببه تقدمها العلمى فى هذا الجحيم المصبوب صبا على هذه الإنسانية المسكينة ، التى كتب عليها أن تعيش هذا العصر النكد ، الذى فاق كل وحشية وحيوانية .

يقول المستر « استورت » فى مقالة نشرتها صحيفة الهند الإنجليزية السيادة ، فى عددها الصادر فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٥ م . يقول البروفوسور « بلسك » : « لا يؤمن على الناس الذين كانوا يبعدون عن المنطقة التى انفجرت فيها القنبلة الذرية بمائة ميل أن يكونوا قد تأثروا بها ، فينبغى أن يفحص فحصا طبيا ، ولا يستغرب أن يصبح الناس يوما ، ويقرؤوا فى الجرائد أن علامات الإصابة بطاعون القنبلة الذرية قد ظهرت فى الذين يسكنون على آلاف الأميال من اليابان » .

ويقول البروفوسور « م .ى .أولى فنيت » : معلم جامعة برمنجهام ، وعضو الهيئة الصناعية فى إعداد القنبلة الذرية : « من الأمور الخرافية أن يعتقد إنسان أن بريطانيا أو دولة أخرى تستطيع أن تحافظ على سر القنبلة الذرية ، إن المبادىء التى قامت عليها صناعة القنبلة الذرية مكشوفة لكل الدول. إن بريطانيا وأمريكا استفادتا بتجارب السابقين ، وبلغتا إلى نهاية صناعة القنبلة الذرية ، ولكنها لا تدوم سرا حربيا إلا لأجل معدود ، لأن كل بلاد صناعية تستطيع أن تعد القنبلة الذرية فى مدة خمس سنوات ، وإذا أفرغت جهودها ووجهت قواها إلى صناعتها ، فيمكن أن تبلغ إلى نهايتها فى سنتين » .

ويقول البروفوسور المذكور : « وأنا على يقين أنه سيظهر فى مدة قصيرة على

مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن فى قوة الانفجار ، وستليها قنابل قوتها مليون طن ، ولا ينفع فى التوقى منها دفاع أو احتياط ، وإن ست قنابل فقط من هذا القبيل تكفى فى تدمير انجلترا على بكرة أبيها ، وإن العلماء الروسيين ينجحون فى إعداد القنابل فى مدة قصيرة جدا .[1]

وقد اخترعت أمريكا قنابل أخرى أشد هولا من القنبلة الذرية ، فى القوة ، والتدمير ، والفظاعة ، مثل القنابل الهيدروجينية ، والنترونية ، وغيرها . وقد اخترعت كذلك القنابل العنقودية والفراغية وغير ذلك من القنابل ، التى تتقدم كل يوم ، وتحقق إيلاما يفوق كل احتمال وتوقع وخيال .

وقد ذكر المستر شارلس ــ س ــ ولسن سكرتير وزارة الدفاع الأمريكية سنة ١٩٥٤ م ، أن نتائج تفجير القنبلة الهيدروجينية لا تكاد تصدق .

وقد ذكر مستر لويس استراس رئيس لجنة القوى الذرية فى أمريكا سنة ١٩٥٤ م : « أن قنبلة هيدروجينية واحدة تستطيع أن تبيد مساحة مدينة نيويورك الواسعة .

وقال العالم الطبيعى الشهير ، ونائب رئيس الأمن ، اللواء صاحب « سنج » فى دلهى الجديدة : إن أربع قنابل هيدروجينية ، وزن كل واحدة منها مائة طن ، تستطيع أن تقتل كل نسمة على وجه الأرض »[2]. يتقدم دعاة الحضارة ، ولا ينامون الليل ، ولا يهدؤون بالنهار ، ليخترعوا آلات الدمار والهلاك ، ويطوروها ، ويحسنوها ، حتى تقضى على أكبر عدد ممكن من البشر .

وقد يسائل الإنسان نفسه : كيف أن العلم عند هؤلاء يؤدى إلى الانتحار ، وعند غيرهم كان رحمة وهداية وفتحاً ومنة ونعمة .

يجيب على تلك التساؤلات « اللورد لوثين » ، فى خطبته التى ألقاها فى حفل توزيع الشهادات بجامعة عليكر ، فيقول : « يطلع الإنسان بفعله على القوى السرية

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٤٢

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٣ .

لهذا العالم الطبيعى ويهىء الوسائل لاستخدامها . وهذه القوى الجديدة التى يمتلكها الإنسان برقى هذه العلوم ، إذا أخذ يستعملها فى حياته العملية اليومية فذاك يقال له رقى المدنية ، ولكن هذين الأمرين فى ذاتهما لا يضمنان فلاح الإنسان وسعادته ، إذ أنهما كما يكونان سببا لفلاحه قد يكونان سببا لهلاكه ، لئن كان الإنسان قد صار يعمل بالميكنة بدل أن يعمل بيده ، ويقطع المسافات بالقطار الحديدى والسيارات والسفن البخارية والطائرات بدل أن يقطعها على ظهور الأنعام ، وصار نظام بريده يجرى بألات البرق واللاسلكى بدل محطات البريد القديمة ، فليس معناه أن الإنسان قد عاد أسعد وأرضى مما كان فى الغابر ، لأن هذه الأمور كلها كما قد تزيد فى سعادته ورفائه ، قد تزيد أيضا فى نكبته وهلاكه ، وأن دور المدنية الذى لم يكن يملك فيه الإنسان من آلات الحرب إلا الرمح والسيف ، لم يكن يضمن من أسباب الهلاك والدمار ما يضمنه هذا التمدن الذى قد اخترع الإنسان فيه من تلك الآلات المدافع الرشاشة والغازات السامة والطائرات والغواصات . أما أن يكون رقى العلم والمدنية مبعث السعادة أو سبب النكبة والهلاك ؛ فالأمر موقوف على الحضارة السائدة ، التى يتم فى ظلها ارتقاء العلوم والفنون والمدنية والتحضير ، وإن الحضارة هى التى تبين فى الحقيقة طريقة الارتقاء ، وتحدد غاية أعمال الإنسان ، وتعين كيفية الانتفاع بما يكتشف الإنسان من القوى ، وهذه هى التى تقرر نوعية العلاقة بين الناس ، وهى التى تضع المبادىء للحياة الاجتماعية ، وتسن قوانين الأخلاق فى دائرة الشئون الفردية والقومية والدولية ، وبالجملة إن الحضارة هى التى تؤهل الذهن الإنسانى للحكم فى أمر القوى الحاصلة بفضل رقى العلم ، بأنه قد يدخلها فى نظام مدنيته ، ولأى غرض وبأية صورة يستخدمها ، وماذا يختار من وجوه استعمالها المختلفة ، وماذا يرفض»[(١)]

والحقيقة أن نكبة الحضارة المتسلحة بالعلم ليست نكبة هينة ، أو يمكن تجاوزها إذا وقعت ، وإنما هى نكبة ماحقة مدمرة ، لاتبقى ولا تذر ، ولم يكن العلم فى عصر من العصور ، ولا فى حضارة من الحضارات ، لعنة كما كان فى هذا العصر وتلك الحضارة ، ولم يكن الإنسان المتعلم أو المثقف فى كل حقب التاريخ ومر الدهور

---

(١) نحن والحضارة الغربية ص ٨٧ ، ٨٨ ط دار الفكر . المودودى .

والأزمان لعنة ودمارا كما هو اليوم وفى ذلك الزمان ، وكأن العلم شيطان تقمص إبليس ، أو هلاك تلبس بقارعة .

ويوضح هذه الحقائق ، ويحذر منها ، بعد أن هالهم ما صنعه العلم — بل ما صنعوه بأيديهم ، وتوصلوا إليه بعلمهم — بعض علماء الذرة . فمازالت الصيحة التى أطلقها « أوبنهايمر » العالم الأمريكى ، الألمانى الأصل ، الذى توصل إلى إنتاج القنبلة الذرية ، تدوى فى آذان كل عالم ذرة إلى اليوم ، ولكن ولات ساعة مندم . حينما وقف « أوبنهايمر » يرقب تجربة القنبلة الذرية من بعيد ، فى صحراء ترنيتى بولاية نيومكسيكو الأمريكية ، هاله مارأى ، فصرخ بأعلى صوته : « ياإلهى ماذا صنعت ؟ » لكثرة مارأى من الهول ومن الدمار والفزع .

وكذلك صرخ من جاء بعده ، من أمثال « جوناثان شيل » ، وغيره ، عند رؤيتهم هذا الهول الذى لا يتصور : « ياإلهى ماذا صنعوا بنا » ، وقد ألف « جوناثان شيل » فى ذلك الهول وتلك الطامة كتابا أسماه « مصير الأرض » ، شرح فيه كثيرا من الحقائق التى يجب أن يتوقف عندها الإنسان طويلا . وكان من تلك الحقائق قوله : « هذه القنابل الذرية صنعت لاستخدامها كسلاح جديد فى الحروب ، ولكن مغزاها أكبر من الحرب، وكل أسبابها ونتائجها ، لقد نبتت هذه القنابل من التاريخ ، وهى تهدد اليوم بوضع نهاية لهذا التاريخ . لقد صنعها الإنسان ، ومع هذا فهى تهدد بإبادة الإنسان . لقد أصبحت قبرا كبيرا يمكن أن يسقط فيه العالم كله . إنها الخصم الرهيب الذى يقف فى وجه كل نوايا الإنسان وأعماله وآماله . الحياة وعددها التى تتهددها القنابل الذرية بالابتلاع ، هى التى تستطيع أن تعطينا المقياس الصحيح لخطورة القنبلة الذرية ودلالتها ....

وبعد أن يمضى المؤلف فى وصف الدمار والخراب والموت الذى يحدثه الانفجار النووى بعد ثوان معدودة للمنطقة التى تعرضت للانفجار ، ينتقل إلى الحديث عن الدمار الذى سيحل بالكرة الأرضية ومافيها ، وماعليها ، نتيجة الإشعاعات الذرية ، التى تنطلق بعد إلقاء قنبلة ذات قوة انفجارية توازن ٥٠٠ فيجاتون أو ٤٠ ألف مرة أكبر من قوة القنبلة الذرية ، التى ألقيت فوق هيروشيما فى

الحرب الثانية ــ وهذه الإشعاعات الذرية تنتشر بعد الانفجار فى الأرض والجو والبحر ، وفى خلايا وجذوع وعظام وجذور وأوراق كل شيء حى ، وتظل تنفجر داخلها لأجل غير مسمى ومن بين الآثار التى ستنتج عن الانفجار الذرى ويتعرض لها العالم كله ، ارتفاع ملايين الأطنان من الأتربة إلى الجزء الأعلى من الغلاف الجوى ، ومن المحتمل أن يؤدى هذا إلى انخفاض درجة الحرارة على سطح الأرض ، أما الأثر التالف من الآثار التى ستتعرض لها الأرض بعد الانفجار النووى ، فهو ــ طبقا لتوقعات العلماء ــ دمار جزئى لطبقة الأوزون ، التى تحيط بالكرة الأرضية فى طبقات الجو العليا ، وطبقة الأوزون التى تحيط بالكرة الأرضية ذات أهمية حيوية بالنسبة للحياة على الأرض ؛ لأنها تحمى سطح الأرض من المستويات المميتة المهلكة للإشعاعات فوق البنفسجية .

والسؤال الأول الذى يطرحه جوناثان ، وهو يمضى بنا فى حديثه عن المصير الذى ينتظر الأرض ، ونحن نحكم على الآثار الناتجة عن الاحتراق النووى ، لايكمن عنده فى تحديد عدد الذين تعرضوا للإشعاعات الذرية ، أو الذين احترقوا ، أو سحقهم اللهب حتى الموت ، نتيجة للآثار المباشرة للانفجار النووى ، ولكن السؤال هو عن مدى صمود الطبقة الحامية للأرض ، والتى تعتمد كل أنواع الحياة عليها فى وجودها واستمرارها ، فالقضية إذن هى قضية صلاحية الأرض للحياة . فى هذا الإطار ينبثق السؤال عن بقاء البشرية واستمرارها ، وليس الإطار أبدا المذبحة ، التى سيروح ضحيتها مئات الملايين من البشر ، نتيجة للآثار المحلية للانفجار ، وإذا وقع هجوم نووى واسع النطاق على الولايات المتحدة الأمريكية ؛ فسوف يحدث دمار ، شامل للبيئة الطبيعية على نطاق لم يعرف له مثيل منذ العصور الجولوجية الأولى ، وتتحول أمريكا إلى جمهورية للحشرات والأعشاب . وبالرغم من أنه قد يبدو من غير المناسب أن نتحدث عن « الحضارة » بنفس الروح التى نتحدث بها عن الموت لمئات الملايين من البشر ، إلا أنه لابد من الإشارة على الأقل إلى أنه فى حالة حدوث حريق نووى على نطاق واسع فى نصف الكرة الشمالى ، فسوف تنتهى حضارة أوربا

والصين واليابان وروسيا وأمريكا ، وستزول تماما عن سطح الأرض »[1]

أى انتحار هذا ، وأى هلاك ودمار تتعرض له البشرية ، وتقع فى حبائله ، وما الذى جر على الإنسانية هذا الوبال ، أى جنون وخبال هذا ؟ إنه جنون جماعى .. جنون لايتميز بالصرخ والثورة ، ولكنه واضح بالتحديد ، وجلىّ بالأعمال ، نسيرُ به إلى الهاوية ، كما لو كانت الناس والأمم واقعة تحت مخدر . فنحن الذين نؤلف ، ونحن الذين نعانى من مصائرنا ، ونحن الذين نخترع ، ونحن الذين سنباد ونهلك ، ونحن الذين نحفر الهاوية ، ونصنع الخراب ، بدون إكراه ، ولا إرهاب ، أو تخويف . هل يصدق هذا عاقل ، وهل يفعل ذلك سَوِىّ ؟! ولكنها هى الحقيقة التى تعيشها الحضارة الحديثة ، ويعيشها معها ساستها ومفكروها والقائمون عليها ، السائرون فى جنباتها .

أى قيمة لحضارة إذا لم تنشىء سلاما ، أو محبة ، أو وئاما ، أو سعادة وجمالا ، وأى قيمة للعلم إذا أضل العقول ، وسلب الأفهام ، وورث الخبال والجنون والدمار ، وكان سببا فى الانتحار ، والهلاك ، وصناعة الأهوال ، ونسف الحياة ، واجتثاث الحرث والنسل ؟!

إن الإنسان البدائى استطاع أن يحافظ على الحياة نقية هنية صالحة عامرة ، ثم أسلمها إلى من بعده ، بعد أن بذل جهده على طريقة تطويرها وتحسينها وتقدمها ، فما بال المتحضرين المتعلمين والمتمدينين يفسدون الحياة ، ويقدمون الدمار والموت وزوال الحياة ، ويقطعون النسل منها ، بل ينسفونها بما عليها من نبات وحيوان وإنسان ، أليست هذه من أعاجيب الجهالات والضلالات ، بل من أعاجيب أعاجيب الحضارات ، أو تسمى بالحضارات .

---

(١) مصير الأرض تأليف « جوناثان شيل » عرض وتلخيص : منير نصيف . العربى الكويتى ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ العدد ٢٨٦ سبتمبر ١٩٨٢م .

فى ١٨ من يونيو سنة ١٩١٦ ألقى (رابندرانات تاغور) محاضرة فى جامعة طوكيو ، خاطب فيها الشبيبة بقوله : « إنكم لا تستطيعون أن تقبلوا الحضارة الحديثة كما هى . إن واجبكم أن تدخلوا عليها التغير الذى تتطلبه عبقريتنا الشرقية . وواجبكم أن تبثوا الحياة حيث لايوجد إلا الماكينة ، وأن تستعيضوا بالقلب الإنسانى عن حسابات المصلحة الباردة ، وأن تتوخوا الحق والجمال حيث لا سلطان إلا للقوة الغاشمة والنجاح اليسير . إن حضارة أوربا حضارة نهمة ومسيطرة ، تلتهم الشعوب التى تغزوها ، إنها تبيد تفنى الأفراد والشعوب التى تعوق مسيرتها الفاتحة . إنها حضارة كلها سياسية ، تستسيغ لحوم الآدميين . إنها تقهر الضعفاء ، وتثرى على حسابهم . إنها آلة للطحن . إنها تبذر — أينما ذهبت — الحسد والغيرة والشقاق . إنها تصنع الفراغ حولها . انها حضارة علمية لا إنسانية . ومصدر قوتها أنها تركز جميع قواها صوب غاية واحدة : الثروة ، وتحت اسم الوطنية لا تراعى كلمة الشرف . إنها تمد بلا خجل شباكها ، ونسيجها الكاذب ، وتقيم للمعبود الهائل البشع المعابد المشيدة للكسب والمنفعة ، ونحن نتنبأ — دون تردد — بأن هذه الحضارة لن تدوم أبدا ؛ لأن فى العالم قانونا أخلاقيا مهيمنا ، ينطبق على الجماعات ، كما ينطبق على الأفراد ، وإهدار كل مثل أعلى فى الأخلاق ينتهى بأن يؤثر فى كل عضو من أعضاء الجماعة ، ويولد عدم الثقة والاستهتار ، ويحطم فى الإنسان كل ما هو مقدس ، إنها تمرد على القوانين التى سنها العلى القدير . إنها لاتستطيع أن تنتهى إلا إلى « كارثة »[١]

المجتمع المتحضر هو المجتمع الأخلاقى ، أو « المدنية الفاضلة » بتعبير الفارابى . وهى تلك التى يجعل أهلها أمور السياسة خاضعة لقانون الأخلاق ، ويدأبون فى أفكارهم وأعمالهم على الإنصات إلى صوت الضمير ، ولاريب أن العلوم الأخلاقية والنفسية والاجتماعية هى اليوم ألزم من علوم المادة ، التى هى أدنى إلى أن نكون خطرا يتهدد الناس ، فى مجتمع مايزال أهله على جهل بأنفسهم . ومن البين ، كما يقول مالك بن نبى ، أن تربية إنسان متحضر وإعداده أصعب من صنع محرك ، أو تعويد قرد على أن يلبس رباط رقبة .

---

(١) المسلم المعاصر الكويت ص ١٥ العدد ٣ .

إن الروح هى التى تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم . وحيث تغيب الروح يكون السقوط والاضمحلال ، لأن ما يفقد القدرة على الصعود لا يمتلك إلا أن يهوى منجذبا بثقل لا سبيل إلى مقاومته . والدين هو « مجتمع » القيم الاجتماعية ، ولكنه يقوم بهذا الدور فى حال نشأته وانتشاره وحركته ، حين يعبر عن فكر الجماعة . أما حين يصبح الإيمان مطويا بغير إشعاع ، أعنى حين يصير إيمانا فرديا ، فإن رسالته التاريخية تنتهى على الأرض ، إذ يكون عاجزا عن تحريك دفة الحضارة ، ويصبح إيمان متعبدين ، يعزلون أنفسهم عن الحياة ، ويهربون من واجباتهم ومسؤولياتهم .



الفصل الثالث

أسباب انحطاط المسلمين حضاريا

أسباب انحطاط المسلمين حضاريا

على مدار التاريخ ، وعلى طول مسيرة الأمة الإسلامية ، لم يعهد لها انتصار إلا بالإسلام وحده ، وبالولاء له ، والتطبيق الحسن لتعاليمه . ولقد أعطاها الإسلام دفعة ، ظلت تشق طريقها بتلك الشحنة ، إلى أن نفد الوقود ، وقل الزاد ، ولم تحاول الأمة أن تتزود أو تستقيم ، وبين يديها الوحى والرسالة ، وترفرف عليها السنة والهداية ، ثم خلف من بعد الهداة المهتدين خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

وما أن جاء القرن الرابع عشر الهجرى ، حتى كان الوجود الإسلامى يعانى من علل مبرحة وأسقام عظيمة ، وكان جسد الأمة الإسلامية يترنح ذات اليمين وذات الشمال ، ولم يُجْدِ فى علاجه بعض المسكنات التى كانت تعطى له بين الحين والحين .

وسقطت الدولة الإسلامية سقوطا مروعا ، وظهر واضحا أن العلل الداخلية والانهيار العقائدى هو الذى عجل بهذا الختام الكئيب المؤلم ، وهذه النهاية المفزعة .

ومع أن الدولة قضت إلا أن الأمة بقيت تواجه مستقبلها ، وشرعت الجماهير تتلمس الطريق إلى مستقبل أشرف ، وتتغلب بجهد شديد على العقبات الكثيرة التى تسد أمامها المنافذ ، وتمنع عنها الهواء النقى والضوء الكاشف .

وإذا كان أغلب البلاء جاءنا من عند أنفسنا ، فيجب أن تتجه الجهود إلى الإصلاح الداخلى قبل أن تفكر فى الوقوف أمام العدو الخارجى . فإنه إن ظلت أدواؤها الداخلية متمكنة على جسامتها ؛ فلن — ولم — يعد ذلك الجسم يصلح للحياة المستقيمة .

من أجل ذلك نريد إلقاء نظرة صريحة فاحصة على أسباب تخلفنا ، بعد أن

كنا طليعة معجبة رائدة ، ولا يجوز أن نخجل من إحصاء عيوبنا وأمراضنا وعللنا ؛ إذا كنا نريد الشفاء والرفعة والسيادة والريادة .

ويمكن أن نقول إجمالا : إنه كان هناك قصور متعمد فى فهم الإسلام ، شمل عددا من المفاهيم والقضايا ، كما كان هناك إصرار واضح على إضاعة تعاليم تراثنا وعقيدتنا ، والخروج عليها ، ومخالفتها . وكان هناك لفت لهذه الأمة عن طريقها المستقيم ، حتى لا تستيقظ من سباتها العميق ونومها الطويل ، وتلتفت إلى الذئاب والوحوش والثعابين ، التى تعيث فى الدنيا فسادا ، وتملأ بقاع الأرض بغيا وعدوانا وضلالا .

حقيقة إن الأمة الإسلامية تداوى عللها اليوم بالعلل ، وتشفى الداء بالداء ، وتروى عطشها وصداها بالحميم والزقوم ، حتى كثرت أمراضها ، وتضاعفت أسقامها ، وتفاوتت بلاياها ، ويئس الطبيب والنطاس ، إلا أن فى جعبتها دواؤها السحرى ، وشفاؤها الربانى ، الذى يستطيع أن يحى العظام بإذن الله وهى رميم . ولم يبق أمامها إلا أن تؤمن به وتداوم عليه ، كما يلزمها أن تحدد تلك العلل ، وتشخص تلك الأمراض التى تنهك جسدها ، وتهد قواها ؛ ليتم الشفاء ، وأول خطوات الشفاء تحديد المرض .

وقد حاولت جاهدا بعد تصفح عشرات ومئات الكتب أن أحصر تلك الأمراض ، وأشخص تلك العلل . فوجدتها تتلخص فى الآتى :

١ــ التخلى عن تعاليم الكتاب ودستوره .

٢ــ ترك السنة والاقتدء بالرسول ﷺ .

٣ــ حصر العبادة فى الشعائر والمناسك دون سائر الأعمال ، وإقامتها مقام الأسباب .

٤ــ فقدان القوة الروحية .

٥ــ موقف المسلمين من الدنيا والتزهيد فيها والتنفير منها

٦ــ اعتبار الزهد بديلا عن الأعمال .

٧ــ الاعتماد على التواكل وترك الأسباب وإهمالها .

٨ــ الاهتمام بالجزئيات تفكيرا وعملا ، بدلا من الاهتمام بأهداف الإسلام العامة

ومقاصده وكلياته .

٩ــ فساد الأخلاق والانحطاط السلوكى .

١٠ــ اعتماد العرف والاستغناء به عن التعاليم الدينية .

١١ ــ فصل الخلق عن الحياة العملية وعن ماديات الحياة .

١٢ــ تخلى المسلمين عن تبليغ الرسالة فى الداخل والخارج ودراسة أحوال الأمم والاهتمام بها .

١٣ــ اعتبار الدعوة وظيفة لا رسالة أو عقيدة ملزمة .

١٤ــ خطورة التسرع فى الإفتاء وإصدار الأحكام .

١٥ ــ الإسلام بين الجامدين والجاحدين .

١٦ــ ميل العلماء إلى الأمراء ، وحب الدنيا ، والعمل لها ، وترك المثل .

١٧ــ مشاركة العلماء والقادة فى الانحطاط الخلقى والاجتماعى .

١٨ــ توجيه الضعفاء وأصحاب العاهات والهمم الكليلة إلى القيام بأمر الدين تعليما وتَعَلُّما .

١٩ــ الإسلام دين عمل ، لا دين خيال وركود .

٢٠ــ التصوير الجزئى للإسلام .

٢١ــ ذهاب الخلافة وتمزق المسلمين .

٢٢ــ تحكيم العرف فى الشرع .

٢٣ــ تفضيل العقل على النص .

٢٤ــ الابتداع فى الدين ، والجمود فى الدنيا ، وترك العكس .

٢٥ــ إعطاء الحق لغير الله فى التحريم والتحليل .

٢٦ــ الفصل بين العلم والدين ، والعلم والإيمان .

٢٧ــ عدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وترك التواصى بالحق .

٢٨ــ اختلاف أخلاق الخاصة عن العامة .

٢٩ــ شيوع مبدأ الجبر فى العالم الإسلامى .

٣٠ــ فساد الأغنياء وتبديد أموال الدولة وقدراتها .

٣١ــ تخريب وسائل الإعلام ، وعدم استغلالها فى نفع الأمة .

٣٢ـــ الغزو الفكرى الغربى والصهيونى .
٣٣ـــ إهمال الجهاد ومكافحة الظلم والبغى .
٣٤ـــ الجبن والهلع ، وحب الدنيا ، وكراهية الموت .
٣٥ـــ إهمال الاستعداد واحترام القوة ، وعدم العمل على إيجادها .
٣٦ـــ إغفال الاهتمام بأمر المسلمين .
٣٧ـــ الشح على الخير ، والإسراف على الشهوات والشر .
٣٨ـــ اليأس والقنوط .
٣٩ـــ تقليد المسلمين للغرب والحياة الغربية .
٤٠ـــ إهمال الأعمال وإيقاظ الأمانى وأحلام اليقظة .
٤١ـــ ظهور العصبيات ، وبذر العداوات ، وتفضيل الطبقات .
٤٢ـــ إحياء النعرات القومية والعنصرية .
٤٣ـــ غزو أوربا للمسلمين عسكريا واقتصاديا وأخلاقيا .
٤٤ـــ فهم الاستسلام على أنه قضاء وقدر .
٤٥ـــ فقدان المثل فى نواحى الحياة المختلفة .
٤٦ـــ حب الرياسة وطلب الإمارة .
٤٧ـــ إهمال الشورى .
٤٨ـــ الاستبداد السياسى .
٤٩ـــ العجز الإدارى ، والتسيب ، والمحسوبية .
٥٠ـــ ظهور الإسلام الحكومى ، والإسلام الشعبى .
٥١ـــ بدعة فصل الدين عن الدولة .
٥٢ـــ ادعاء أن بعض أحكام الشريعة لا يصلح تطبيقها ؛ أو لا يستطاع .
٥٣ـــ إدعاء أن بعض أحكام الشريعة مؤقتة .
٥٤ـــ نقل القوانين الأوربية إلى البلاد الإسلامية .
٥٥ـــ الفساد السياسى وتوسيد الأمر لغير أهله .
٥٦ـــ استعمال سلاح الدين للتضييق على أصحاب العقائد الصحيحة .
٥٧ـــ خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم وأمتهم .

٥٨ــ شيوع الرياء والخنوع والمسكنة .

٥٩ــ ركود الحركة الاقتصادية وجهل المسلمين بها .

٦٠ــ فساد سياسة المال فى المجتمعات الإسلامية .

٦١ــ فقدان الإبداع ، وترك العلوم الدنيوية .

٦٢ــ جمود التفكير العلمى الإسلامى ، وظهور التقليد .

٦٣ــ قصور الثقافة الإسلامية ، وتلويثها بينابيع مختلفة .

٦٤ــ عدم وجود فلسفة تربوية صحيحة ، وعدم إمكانية التنفيذ إن وجدت .

٦٥ــ انقطاع نظم التعليم عن الحياة وعن العقيدة وعن المجتمع .

٦٦ــ السير بالتعليم على النظم الغربية والوثنية الإباحية المناقضة للعقيدة .

٦٧ــ التقعر فى دراسة ما وراء المادة .

٦٨ــ عدم معرفة مقتضى الحال ودراسة الأحوال والأوقات للبرامج والمناهج .

٦٩ــ محاربة اللغة ومحاولة التجهيل بها .

٧٠ــ قياس الإسلام بالأديان المحرفة كالمسيحية .

٧١ــ ضعف الثقة بالنفس والإعجاب بالغالب .

٧٢ــ ضعف الأسرة وعدم القيام بواجبها .

٧٣ــ المعالجة الخاطئة لموضوع المرأة .

٧٤ــ اعتبار عصور الضعف الإسلامى مقياسا إسلاميا .

٧٥ــ السطحية فى التفكير وفى تقدير الأمور وعدم الدربة فيها .[١]

---

(١) انظر فى ذلك على سبيل المثال . البداية والنهاية لابن كثير ط دار ابن كثير بيروت ١٤ مجلد وتاريخ الطبرى ١٠ مجلدات ط دار المعارف ، الكامل لابن الاثير ، الإسلام والحضارة العربية تأليف كرد على . لجنة التأليف والنشر القاهرة ١٩٦٨ ، أثر العرب فى الحضارة الأوربية عباس العقاد ط دار المعارف ، دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى تأليف عبد الرحمن بدوى ط دار الآداب بيروت ، مؤلفات الدكتور أحمد شلبى وخصوصا فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، مؤلفات الأستاذ الشيخ الغزالى ، ومنها كفاح دين ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ط السلاسل الكويت ، ومؤلفات الأستاذ الندوى ، ومنها ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ط دار القلم الكويت ، وإلى الإسلام من جديد للندوى ط دار الإرشاد بيروت ، والدكتور محمد محمد حسين فى مؤلفاته التى منها حصوننا مهددة من داخلها ط دار الإرشاد ، ومؤلفات الأستاذ المودودى ومنها ، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ط الكويت ، مؤلفات شكيب أرسلان ، ومنها ، لماذا تأخر المسلمون ط عيسى الحلبى ،=

نظرات :

علمتنا التجارب ، وعرفتنا الحوادث والأيام ، أن داء هذه الأمم الشرقية والإسلامية متشعب المناحى ، كثير الأغراض ، قد نال من كل مظاهر حياتها . فهى مصابة فى ناحيتها السياسية بالتبعية وحب التقليد من جانب أعدائها ، والحزبية والخصومة والفرقة والشتات من جانب أبنائها ، وفى ناحيتها الاقتصادية بانتشار الربا بين كل طبقاتها ، واستيلاء الأمم الغالبة على أسواقهم . وموادهـا ، وخاماتها ، ووقوفها موقف المتفرج اللاهى . وفى ناحيتها الفكرية بالإلحاد الذى يهدم عقائدها ، ويحطم المثل العليا فى نفوس أبنائها ، والتحلل من عقدة الفضائل الإنسانية التى ورثتها عن الغر الميامين . وفى ناحيتها الاجتماعية ، بالإباحية ، والفوضى ، والمروق ، والتسيب ، وعدم المبالاة ، وحب النفس والذات ، وبالقوانين الوضعية التى لا تزجر مجرما ، ولا تؤدب معتديا ، ولا ترد ظالما ، ولا تغنى يوما من الأيام غناء قانون السماء ، وبالفوضى فى سياسة التعليم والتربية التى تحول « دون التوجيه الصحيح للنشىء وللرجال والنساء فى مستقبلهم ، لحمل أمانة النهوض والتقدم .

وفى ناحيتها النفسية بيأس قاتل ، وخمول مميت ، وجبن فاضح ، وذلة حقيرة ، وخنوثة فاشية ، وشح ، وأنانية تكف الأيدى عن البذل ، وتقف حجابا دون التضحية والإقدام ، وتخرج الأمة من صفوف المجاهدين إلى طريق اللاهين اللاعبين .

وفى ناحيتها الأسرية ، بالتقليد ، والجرى وراء المظاهر والأهواء ، والبعد عن الجد ، وعن البحث ، وعن تربية أصيلة مقنعة نافعة لخير الدين والدنيا .

وفى أهدافها العليا بترك المثل ، والقيم ، والجرى وراء الشهوات واللذات ،

وحاضر العالم الإسلامى ٤ أجزاء ط عيسى الحلبى ، مؤلفات محمد أسد منها الإسلام على مفترق الطرق والطريق إلى مكة ط دار العلم للملايين ، المسؤولية لمحمد أمين المصرى ط زيد بن ثابت ، مقالات الكوثرى لمحمد زاهد الكوثرى ط الأنوار بالقاهرة ، وموقف العقل لصبرى ط الحلبى ، الصراع بين الفكر الإسلامى والغربى للندوى ط الدار الكويتية .

واستمراء الهبوط والتخبط .

وماذا يرجى أو ينتظر من أمة اجتمعت على غزوها كل هذه العلل بأقوى مظاهرها وأشد أعراضها ؟ والأعداء يتربصون بها ، ويرقبون حركاتها ، ويكيدون لها كيدا ، ويمكرون بها مكر الليل والنهار ، فهناك الاستعمار ، وهناك الشيوعية ، وهناك المنظمات الصليبية واليهودية ، وهناك حركات التبشير . وهؤلاء لا يصطلحون على شيء إلا على القضاء على المسلمين ، والإجهاز عليهم ، والتنكيل بهم ، إذاً فالمسلمون محاطون من الداخل بأمراضهم ، ومن الخارج بأعدائهم .

وإن داءً واحداً من هذه الأدواء يكفى لقتل أمم متظاهرة ، فكيف وقد تفشت جميعا فى كل الأمة ، لولا مناعة وحصانة وجلادة وشدة فى هذه الأمة الإسلامية ، التى جاذبها خصومها حبل العداء من بعيد ، ودأبوا على تلقيحها بجراثيم هذه الأمراض زمنا طويلا ، حتى باضت وأفرخت ، لولا ذلك لعفت آثارها ، ولبادت من الوجود ، ولكن يأبى الله ذلك والمؤمنون .

وبتتبع هذه العلل الكثيرة والأمراض المتعددة ، وجدنا أنها ترجع إلى عاملين اثنين . عامل داخلى ، وعامل خارجى . وكل له مجاله ومداره وفعله فى جسد الأمة فالعامل الداخلى ، ينخر فى أوصالها ، ويسرى فى جنباتها ، يهلك شريانه وكل عصب وقوة والعامل الخارجى ؛ يمد الداء ، ويشجع العلة ، ويمنع الدواء ، وينهش الجسد العليل .

العوامل الداخلية :

لا شك أن النفوس الكبار تربى رجالا كبارا ، وتفعل من الأعمال ما يتناسب مع تلك النفوس ، والنفوس الضعاف تدغدغ الرجال والأمم ، وتضعضع الهمم ، والعزائم ، وتلوث الأفعال والأعمال ، ولهذا وجهنا الله سبحانه وتعالى إلى إصلاح أنفسنا أولا ، والالتفات إليها عند النازلة ، واتهامها عند الملمة : فقال تعالى : ﴿ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ﴾ [1] .

(١) آل عمران ــ ١٦٥ .

ودائما أخطر الهزائم وأقوى الانكسارات تكون من الداخل ، وتأتى من الأعماق ، ولهذا لما أراد الله إهلاك بنى النضير ؛ أصابهم بزلزال فى نفوسهم ، ووهن فى قلوبهم ، فصاروا هم يهزمون أنفسهم ، ويهلكون ديارهم ، ويخربون بيوتهم . قال تعالى فى شأنهم وفى بيان حالهم : ﴿ ماظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار لله ﴾[1] . فلم يؤتوا من نقص فى ذخيرتهم ، أو عددهم ، أو حصونهم ، أو عدتهم ، وإنما أوتوا من قِبَل أنفسهم ، فصار الخراب عندهم إصلاحا ، وصار الرعب فى نفوسهم جيوشا وكتائب وصواعقا ورعودا . ولهذا حذر الرسول ﷺ المؤمنين من وهن القلوب ، وضعف النفوس ، ونتائج ذلك عليهم ، فقال : « ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »[2] وهذه قاعدة خطيرة فى ضياع الأمم وذهاب ريحها ، فإن الأسباب الحقيقية لكل سقوط واضمحلال تكون داخلية ، ولهذا قالوا فى الأمثال : ليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة ، إنما اللوم على الشجرة النخرة نفسها . وكثيرا ما يوجه القرآن الكريم النفوس إلى ذلك بقوله وإشاراته ودلالاته ، فيقول عن تلك الأمم البائدة : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[3] . والأمم النخرة ، والشعوب الواهنة ، والمجتمعات العليا ، حينما تقع تتجمع عليها الذئاب والكلاب والهوام ؛ ليقضوا عليها القضاء المبرم ، وليجهزوا عليها الإجهاز الأخير .

ولقد بدا واضحا — بعد ضعف المسلمين وذهاب قوتهم — أن القوى المعادية للإسلام تقصد قصدا إلى القضاء عليه والخلاص من أمته ، وجاشت أمانى وأحلام ملوثة فى عقل أعدائها الباطن ، تنشد الويل والثبور والدمار لعقيدة المسلمين وثقافتهم الفكرية والاجتماعية !

---

(١) الحشر — ٢ .

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الملاحم رقم ٤١٢٩ .

(٣) هود — ١٠١ .

يقول « شاتليه » فى مقدمة كتابه « الغارة على العالم الإسلامى » :

« ينبغى لفرنسا أن يكون عملها فى الشرق مبنيا قبل كل شىء على قواعد التربية العقلية » ويشرح هذه الجملة فيقول : أى يجب التأثير على عقول أبناء الشرق وقلوبهم ، ثم يقول ، المؤلف : وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذى يكون تحت إشراف الجامعة الفرنسية .

يقول السيد جمال الدين الأفغانى فى صحيفة العروة الوثقى ص ٥٦ : « أقول ولا أخشى لوماً : أنه لو كان فى البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الإنجليز ؛ لما باروحها أبد الآبدين « ويريد بالطلائع الشبان الذين ربوا فى أوربا أو المدارس الحديثة ذات المناهج الغربية . »[1] ولقد استأسد على المسلمين الجرزان والهوام والبوم والغربان ، وجاءوا إلى بلادهم يقتلون وينهبون ، ويذلون فى كل حدب وصوب فى البلاد الإسلامية ، وكأنهم ذاهبون إلى نزهة خلوية ، أو رحلة قمرية شاعرية .

انظر إلى نشيد الجند الطليان الذاهبين للحرب فى طرابلس بليبيا ، حيث يقولون : « أتمى صلاتك ولا تبكى يا أماه ، بل اضحكى وتأملى ، ألا تعلمين إن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى (طرابلس) فرحا مسرورا ، لأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة ، ولأحارب الديانة الإسلامية التى تجيز البنات الأبكار للسلطان . سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن ... يأأماه أنا مسافر ، ألا تعلمين أن على الأمواج الزرقاء من بحرنا ستلقى سفائننا المراسى ؟ أنا ذاهب إلى طرابلس مسرورا ؛ لأن رايتنا المثلثة الألوان تدعونى ، وذلك القطر تحت ظلها »[2] .

أقول : نعم مانزل بنا من وهن إنما هو نتيجة فراغ النفوس من العقيدة ، ومن آى الكتاب ، وأنوار السنة ، فانطفأت مصابيح الإقدام والهداية ، وساد الظلام الدامس القلوبَ والنفوسَ والمجتمعات ، ونسى الناس المثل الأعلى فى رسول الله ، ثم فى

---

(١) المسئولية للدكتور أمين المصرى ص ١٧ .

(٢) لماذا تأخر المسلمون لشكيب أرسلان ص ٣١ ، ٣٢ ط عيسى الحلبى .

صحابته الأبرار الأتقياء الأنقياء ، وأخذوا دين الله مسكنة وخنوعا ، وقصروا أنفسهم على شعائر ميتة ، لا تحمى روحا ، ولا تزكى قلبا ، ولا تملأ عاطفة ، وأقاموها مقام الأسباب لبلوغ الأهداف ، واعتبروا أشكالها بدلا من روحها ومقاصدها . ففقدوا بذلك القوة الروحية لتلك الشعائر والعبادات ، والمدد الأصيل لكل همة وعزيمة ونهضة ، ولم تورثهم خلقا دينيا سليما ، ينبع من عقيدة صافية ، تسير فى الحياة وفى دنيا الناس ، مصلحة عالية سامقة طيبة ، يشم الناس عبيرها ، ويستطعمون جناها ، ويرون رحيقها ، بل ظهرت الأخلاق كنبات شيطانى ، لا يتعهده أحد ، ولا يرعاه إنسان يتبع رغبات الناس وشهواتهم ومصالحهم الدنيا ، ويمثر تلك الفترة التى يعيشونها تمثيلا مطابقا صحيحا ، وعمت البلوى ، وشارك فى هذا الانحطاط الخلقى ؛ العامةُ والخاصة والقادة والسادة ، والفرد والجماعة ، والمتعلم والجاهل ، حسن الفهم وحسن العمل .

لا شك أن حسن الفهم يورث حسن العمل ، ويوجه الإنسان إلى المسار الصحيح ، وإلى الغاية الراشدة .

فالإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، كما ورد فى الحديث ، وهذه الشعب الإيمانية ليست كمًّا ملقى كيفما اتفق ، وإنما هى شعب متفاوتة الخطر والقيمة ، ولكل منها وضع عتيد فى الصورة الجامعة للعقيدة والشريعة الجامعة لا يعدوه .

والرسالة الإسلامية لها أركان ونوافل ، وأصول وفروع ، وأعمال قلبية وأعمال جسدية ، وفروض وسنن ، ومندوبات ومستحبات . والخلط بين هذه الأشياء وعدم فهمها مرتبة ، أو عدم وضع كل فى ميزانه وحجمه ، يخل بتوازن العقيدة وصلاحية الرسالة واستقامتها ، كما يضر بأصحابها ، ويشوش مسارهم فى الحياة ، فالسنة مثلا إذا اختلطت بالواجب يجب تركها ، والفرض إذا التبس بالسنة يجب إظهاره والتنبيه عليه ، وتأكيد الفرق بينهما ، وقد يترك الإنسان المندوب والمستحب ، ولا يحاسب عليه أو يعاقب ، بعكس الواجب والفرض .. بل قد تأتى ظروف معينة تخفف الفرض وتمنع السنة ، ففى السفر يخفف الفرض فى الرباعية إلى النصف ، ويستبدل الوضوء بالتيمم عند فقد الماء والقعود بالقيام فى الصلاة عند عدم الاستطاعة ،

وما إلى ذلك . فالإعنات أو المشقة فى مثل هذه الحالات مضرة ومكروهة وممنوعة شرعا . كما أن للشعائر حكما وتكاليف وفوائد ، يجب أن يقف الإنسان عندها ، ويشعر بها .

وعلى هذا ، فكثيرا ما ترى من يحفظون نصوصا ولا يضعونها مواضعها ، ولا يجيدون الاستنباط منها ، كما تجد أصحاب رأى يلمحون بالمصلحة ، ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ .

وقد تجد حكاما يعملون لصالح الناس ، وإن كان باعهم فى التقوى قصير ، وتجد عكس ذلك كثير .

وتجد عبادا يعكفون على العبادات الفردية ، فإذا بلغ الأمر النصح والزجر والنهى والتعرض لغضب الحكام أو ذوى السلطان لاذوا بالصمت الطويل ، والسكون العميق ، وتجد كثيرا من الناس يجولون بالإسلام — وهم قليلى الفقه ، قليلى الذكاء ، كثيرى النشاط — ينطلقون بعقولهم الكليلة ، وزادهم القليل ، وفهمهم العليل ، فيسيئون ولا يحسنون . وفى هذا يقول الأستاذ الغزالى :

« ماذا يفيده الإسلام من شباب يغشون المجتمعات الأمريكية والأوربية ، يلبسون جلاليب بيضاء ، ويجلسون على الأرض ليتناولوا الطعام بأيديهم ، ثم يلعقونها ، أو يلعقون أطراف أصابعهم . وهذا فى نظرهم هدى الإسلام ، وهدى الرسول فى الأكل والشرب ، والسنة التى يبدؤون — من عندها — عرض الإسلام على الغربيين .

هل هذه آداب الإسلام فى الطعام .

وعندما يرى الأوربيون رجلا يبغى الشرب ، فيتناول الكأس ثم يقعد وكان واقفا ، ليتبع السنة فى الشرب ، فهل هذا المنظر الغريب هو الذى يغرى بدخول الإسلام ؟ لماذا تجسم التوافه على نحو يصد عن سبيل الله ، ويبرز الإسلام على أنه دين ذميم الوجه . ثم إن الدعوة الإسلامية لا يقبل فيها عرض القضايا الخلافية ، مهما كانت مهمة عند أصحابها ، والأكل على الأرض أو بالأيدى مسألة عادية ، وليست عبادية .

ومن السماحة عرض الإسلام من خلالها . ووضع النقاب على وجه المرأة تناوله الأخذ والرد ، ولا يسوغ بحال من الأحوال تقديمه عند عرض دين الله على عباده .

وتدبر هذا الحديث الذى رواه البخارى فى أسلوب عرض الرسالة الإسلامية كما أحكمه رب العزة .

عن يوسف بن ماهك قال : إنى عند عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، إذ جاءها عراق فقال : أى الكفن خير ؟ قالت ويحك ! وما يضرك ؟ قال : يا أم المؤمنين أرينى مصحفك ! قالت : لم . قال : لعلى أؤلف القرآن عليه ، فإنه يقرأ غير مؤلف . قالت : وما يضرك آية قرأت قبله ؟ إنما نزل أول مانزل منه سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء ، لاتشربوا الخمر لقالوا : لاندع الخمر أبدا . ولو نزل : لاتزنوا لقالوا : لاندع الزنا أبدا ، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ ـــ وإنى لجارية لعوب : ﴿ بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر ﴾ ، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده . قال : فأخرجت له المصحف فأملت عليه آى السورة .

لكن أناسا يشتغلون بالدعوة لافقه لهم ولادراية ، يسيئون إلى الدين ولايحسنون ، وفيهم من يمزج قصوره بالاستعلاء ولمز الآخرين .

ولقد تطور هذا القصور ، فرأيت بين أشباه المتعلمين ناسا يتصورون الإسلام يحد من جهاته الأربع بلحية فى وجه الرجل ، ونقاب على وجه المرأة ، ورفض للتصوير ، ولو على ورقة ، ورفض للغناء والموسيقى ، ولو فى مناسبات شريفة وبكلمات لطيفة (!)[1].

إن تصوير العادات والأعراف والمندوبات والمستحبات على أنها هى الإسلام ، وعلى أنها الغاية لرسالته ، والهدف من دعوته ، تصور يدعو إلى الشفقة والحزن معا ،

(١) انظر فى ذلك الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر للشيخ محمد الغزالى ص ٦٩ ، ٧٠ ط دار السلاسل الكويت .

تماما كتصور ظل الشجرة على أنه هو الشجرة ، وهو الثمرة ، وهو الجذوع والسيقان والأوراق .

إن العقائد والفضائل والأهداف والغايات ، هى التى يجب أن تكون المحور الأساسى للدعوة ، وللنشاط الفكرى للدعاة ، وإن حقوق الإنسان ، وأسلوب حياته ، وطهارة مجتمعه ، وصلته بربه ، وعلاقته مع بنى جنسه ، وسعادته فى دنياه وأخراه ، يجب أن يكون هو المستحوذ على اهتمام المسلم وقصده وعمله وطاقته .

ولايجوز بأى حال إعطاء هذه العادات أكثر من حقها ، أو شغل الناس بها ، أو إلهاء المجتمعات بالجدل فيها والحوار حولها . إن ذلك يمثل جريمة فى حق الإسلام ، وحق رسالته ، وحق المجتمعات المسلمة ، بل فى حق العالم الذى يحتاج إلى نور الإسلام وهديه وسعادته .

شيوع الاستسلام ومبدأ الجبر :

اعترى الفرد المسلم خاصةً ، والأمة الإسلامية عامة ، استسلام غريب للنوازل والمصائب والأحزان ، حتى تحسب أن هذه الأجساد قد فقدت الحياة ، أو شلت التفكير ، أو خدرت بعقار . وإذا حدثت واحدا من هؤلاء قال لك : ماذا نفعل ؟ هذه إرادة الله . أو قال لك مايردده بعض الناس « أنا قلم والأقدار أصابع !! » إذاً فالمرء لاحول له ولاقوة ، ولاطول ، ولاقدرة ، ولاإرادة . وإنما هو يحيا بتوجيه خفى أو جلى من مشيئة الله ، التى تدفع به ذات اليمين وذات الشمال ، والتى تهيىء له حياة العسر أو حياة اليسر والرغد برغمه . وكما يقول الجبريون : الإنسان كريشة حائرة فى مهب الرياح .

ونشأ عن هذا هدم مريع لقانون السببية ، وانطلق عدد كبير من الناس ، بل ومن الموجهين ، يقيسون الأمور على المعجزات والخوارق ، ويشعرون الأمة بأن النار قد توجد ، ولايوجد الإحراق ، وأن الماء قد يوجد ، ولايوجد الرى ، وأن السكين قد توجد ، ولا يوجد القطع ، وأن الواجبات العادية قد تتخلف ، وجعلوا الدنيا لا تضبطها قاعدة ، وانطلقوا يقولون :

دع المقادير تجرى فى أعنتها ولا تنامن إلا خالى البال

واستشهدوا بما ورد فى عصور الضعف والهوان من أقوال وتفاسير وأحكام .
وليس يقبل عقلا ولا فكرا ولا شرعا ما يقولون : أن يتزوج رجل فى المشرق بامرأة فى المغرب ، ولا يلتقيان ، ثم تلد منه على بعد الشقة ، وينسب إليه الولد ، لأنه قد يكون من أهل الخطوة ، أو ربما انتقل من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلسى فى لحظة من ليل أو نهار ..!! وهذا التصور المخبول التائه لا ينضج معه علم ، ولا يصح فيه بحث ، ولا يملك أصحابه الفكر والأدوات التى يستطيعون بها قهر المادة ، أو يحققون بها نجاحا عمليا فى هذه الحياة . ومن المقرر فى العلوم الإسلامية ، وكذلك فى العلوم الكونية ، والتجريبية والإنسانية ، أن قانون السببية قانون محترم .

بل قد أبنا قبل أن المسلمين هم أول من قادوا العالم إلى العلوم التجريبية ، وكانوا هم رواد المنهج التجريبى ، وما تحضرت الدنيا إلا على أيديهم ، وإلا بفتحهم ، وطرقهم للأسباب والمسببات التى دلهم عليها القرآن الكريم ، وحثهم على الأخذ بها ، وقد قدمنا طرفا من ذلك قبل ، وأظهرنا مقدار إنتاج المسلمين فى المجال العلمى والكونى والإنسانى . وجاءت عصور الضعف التى يحتاج المسلمون فيها إلى مزيد من الجهد ، ومزيد من النظر والفهم والعمل وطرق الأسباب ، ليجدوا أعدادا مهولة ، تلفتهم عن دينهم ودنياهم بفلسفات وآراء مشبوهة ، وأفكار مريضة مخدرة ، أشبهها بحرب الأفيون ، الذى كان يستعمل ضد الصين فى عصور الاستعمار الإنجليزى . فها نحن اليوم نحارب بأفيون آخر ، ولكنه أفيون فكرى عقائدى ، ولكنه يؤدى نفس الغرض ، ويزيد عليه ويربو . وكان لذلك أثر محزن فى انهيار حضارتنا ، واختلال ثقافتنا ، وإحباط عزيمتنا ، وقتل الإبداع والعبقرية والنظر الثاقب الذى امتازت به الحضارة الإسلامية .

إهدار للشخصية يورث الرياء :

تعرض المسلمون فى عصورهم الأخيرة لضغوط شتى ، ناءت بها كواهلهم ، وانهدت بها عزماتهم ولم يجدوا منها عاصم من عقيدة أو عدالة أو قانون فطأطؤوا لها رؤوسهم وأحنوا لها أصلابهم وأخضعوا لها جباههم ، وعمت تقاليد الرياء وأساليب المواهنة ، وانطلق المداحون يكيلون الثناء وينشدون الأهازيج فى فضل جلاديهم وعبقرية القاهرين

لهم والآخذين لحقوقهم والراغمين لأنوفهم .

ففرخت الأمة علماء لهم سمت الجهلة ، ودهماء محصورين فى طلب القوت والفتات ، ومساجد سامقة يعمرها من لاهم لهم ولا طموح ولا غاية ولا تزكية ولا رسالة . وكأن المسلمين هم الذين تحدث عنهم ذو القرنين ووجدهم دون السدين ﴿ لايكادون يفقهون قولا ﴾[1] .

وانقطع من الأمة الجندى الشجاع والقائد العبقرى والعالم البارع والمخترع المبدع ، والأديب اللامع والمفكر الحصيف وسادت الأجواء روائح الخمول والعجز ، وتصدر الركب المهازيل الكذبة الدجالون ، وانعدمت المثل ، وقل الناصح وعز الأمين وانعدم الشريف . وحار التقى بين ربه ودينه وطهره وشرفه وبين جلاديه ودنياه وقوته وضغوط الحياة وزخرف الجاه والمال .

فنسفت الأمة نسفا وتبدلت الأعراف والأخلاق والعادات ، وخر السقف على الناس من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون .

التقعر فى دراسة ماوراء المادة :

خاض المسلمون فى عصورهم الواهنة بحورا مغرقة ومحيطات مهلكة فى بحوث عقيمة كان لها أثر وخيم على العقل الإسلامى . كما تسببت فى لفت الفكر عن البحوث المادية وعن النظر فى الواقع المؤلم .

ومن المعروف أن هناك آيات محكمة هى أم الكتاب وهى مناط التكليف الاعتقادى . والعملى والعلمى ، وأنه بحسب المسلمين أن يعتمدوا عليها فى حياتهم ومسارهم . وهناك ما تشابه من الحديث عن ذات الله تعالى ، وعن صفاته ، وعن الغيبيات مما لا تحيط به عقولنا . فالعقل البشرى أعجز أن يفقه حقيقة الروح التى بين جنبيه ، وحقيقة فرحه وحزنه ، وسعادته وشقائه ، فكيف به يريد أن يعرف كنه الألوهية وصفاتها ، ولكن المسلمين شغلوا بأشياء نهوا عنها ، وضل من كان قبلهم من

---

(١) الكهف / ٩٣ .

الفلاسفة بالخوض فيها ، وقد أوجدت فى الأمة كثيرا من أساليب السفسطة والتشكيك والحيرة ، التى زادت المسلمين ضعفا على ضعف ، ووهنا على وهن .

وهذا وأمثاله هو الذى ضرب الأمة داخليا ، ومزقها نفسيا وفكريا ، وسمح للأمراض والعلل أن تتمكن منها ، وأن تقضى على قواها المحركة ، وحيويتها المنتجة ، ومثلها العليا .

العوامل الخارجية :

هناك بعض العوامل الخارجية ، عددناها فى أسباب انحطاط المسلمين حضاريا ، كان لها أثر ما حق على الأمة الإسلامية ، وعلى حضارتها وتقدمها فى شتى المجالات .

من هذه العوامل :

التقليد :

انحدر المسلمون إلى تقليد الأمم الغربية فى حياتها ومبادئها وعاداتها ، وشمل هذا التقليد الفرد والأسرة والمجتمع ، وذلك يرجع إلى ما قبل بضعة عقود ، وقد تسبب فى ذلك قنوط المسلمين ، وعجزهم ، وانكسارهم أمام قوى الغرب المادية والتقدمية الآلية ، فوازنوا بينها وبين الحالة المؤسفة فى بيئتهم الخاصة ، تلك الحالة التى تسبب فيها بعدهم عن العلم والجد والبحث والتعب والنصب ، وساعد على الإيغال فيها ضيق التفكير والاستنتاج السطحى الخالص من أن النظام الإسلامى فى الاجتماع والاقتصاد لا يتفق مع مقتضيات التقدم ، فيجب أن يحور حسب الأسس الغربية ، أو أن يستبدل بما أنتجته تلك العقول الغربية المبدعة ، التى استطاعت أن تؤسس تلك الحضارة . وهؤلاء السطحيون الذين يدعون التنور ، لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن مدى التبعية التى يتحملها الإسلام ، على أنه عقيدة فى تأخر المسلمين ، وأن تلك المبادىء هى التى لا توافق التقدم أو التحضر ، وهل العيب يكمن فى الإنسان الذى لا ينفذ ، وفى المريض الذى لم يتناول الداوء ، أم فى المبادىء والدواء ؟ إنهم وكما ـــ يبدون ـــ فقراء حتى فى تقليدهم ، عجزة حتى فيما هو تحت أيديهم . ولم تتفتق أذهانهم إلا على الارتماء فى أحضان المدنية الغربية ، التى ظنوها

ـ لعجزهم وقهرهم ـ أنها هى المخرج الوحيد من ورطتهم وقصورهم . فما زادتهم إلا خبالا ، وما وعدتهم إلا غرورا .

نقل القوانين الأوربية إلى البلاد الإسلامية :

الشريعة الإسلامية ـ بشهادة الأفذاذ من علماء القانون ـ تمتاز بالكمال ، الذى يسد كل ثغرة فى المبادىء والنظريات التى تكفل سد حاجات الجماعة فى الحاضر القريب والمستقبل البعيد . كما تمتاز بالسمو الذى دائما يقود الأفراد والجماعات إلى القيم العليا ، وإلى الرقى والاطمئنان والسعادة ، وتمتاز كذلك بالدوام حيث لا تقبل التعديل والتبديل والفصام بين الحاضر والماضى والمستقبل ، ومع ذلك ماتزال متجددة حية غضة ، تعطى كل يوم ، وتشرق كل وقت وحين .

رغم كل ذلك فإن فى الشريعة والفقه الإسلامى من المبادىء والنظريات والأحكام ما لو جمع فى مجموعات لكان مثلا أعلى فى المجموعات التشريعية . لو وضع موضع التنفيذ فى البلاد الإسلامية لنقلت البلاد الإسلامية إلى آفاق وآفاق ، ولو وضع موضع التنفيذ فى البلاد غير الإسلامية لحل مشاكلهم ، وكفكف حيرتهم ، وردهم إلى فطرتهم ردا جميلا .

ومع كل ما تقدم نجد أن بعض المثقفين ثقافة غربية ، وبعض المقلدين، وبعض المهزومين يرمون الشريعة بالنقائص ، ويلصقون بها العيوب ، فتراهم يدعون مفترين عليها ادعاءات معينة منها :

أولا ـ إن الدين علاقة بين الإنسان وربه ، ولا صلة له بالحكم ولا بالدولة ، وسندهم فى هذا هو الجهل بالشريعة الإسلامية ، وقياسهم الإسلام على المسيحية ، وتقليدهم للغرب الذى يفصل بين الكنيسة والدولة . والحقيقة التى لا مراء فيها ، والتى يعرفها كل من قرأ القرآن والسنة ، أن النظام الإسلامى يجمع بين الدين والدنيا ، ويمزج العبادة بالقيادة ، ويحتضن المساجد والمصنع ، فادعاؤهم هذا مرفوض ، واختلافهم هذا باطل .

ثانيا ـ الادعاء بأن الشريعة لا تصلح للعصر الحاضر . يقولون هكذا بغير تعليل

ولا دراسة ولا حجة ، ولو أنهم قالوا إن مبدأ معينا ، أو مبادىء بذاتها ، لاتصلح للعصر الحاضر ، وبينوا السبب فى عدم صلاحيتها ، لكان لادعائهم قيمة ، ولكان من المنطق والمعقول مناقشتهم وإظهار أخطائهم . وصلاح الشريعة بل الشرائع تقرر على أساس صلاحية مبادئها ، وليس فى الشريعة مبدأ واحد يمكن أن يوصم بعدم الصلاحية .

فالشريعة الإسلامية تقرر مبدأ المساواة ، كما تقرر مبدأ العدالة : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ ، كما تقرر مبدأ الشورى :﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ، ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ . كما تقرر مبدأ التكافل ، وتمنع الاحتكار وتحرم الخبائث والخمر ، والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتحض على التعاون والإخاء والصدق والأمانة وفعل الخيرات .

فكيف يقال إن الشريعة لاتصلح لهذا العصر ، اللهم إلا إذا أرادوا أن تخرج الناس من إنسانيتهم إلى حيوانيتهم ووحشيتهم ، إن الشريعة هى المنقذ الذى ينتظره الجميع ، والأمل الذى يرقبه الجميع ، خلاصا من الحيوانية والهوان والضلال .

ثالثا ــ الادعاء بأن أحكام الشريعة مؤقتة ، ويقولون : إنها نزلت لعصر مضى وذهب ، ونحن اليوم فى عصر آخر ، انطلق فيه الإنسان بعقله وحريته وطاقته يفتح الأرض ويطوع العوالم ، وهذا قول يلزمه الحجة والدليل أيضا . ولا حجة ولا دليل فى الحقيقة إلا التقليد وترديد أقوال المستشرقين والطاعنين من الحاقدين على الإسلام والمسلمين .

رابعا ــ الادعاء بأن بعض الأحكام لايستطاع تطبيقها . ويعنون بذلك بعض أحكام الشريعةمثل القطع والرجم ، ويتعللون بأشياء معينة ، منها أنها تدل على شدة ، وأن عددا من الأجانب موجود عندنا ، وبعض الأقليات غير الإسلامية لايرتضون بها . وغير ذلك من الأقوال . والعلة الحقيقية تكمن فى التهاون فى الحقوق والواجبات ، وعدم الأخذ على يد الظالم والمعتدى ، والتملص من الحق ، وعلة أخرى مهمة ، وهى أنهم يتأثرون بأقوال الغربيين وأفعالهم ونظرياتهم ، وليست لهم شخصية مستقلة .

خامسا ــ الادعاء بأن الفقه الإسلامى يرجع إلى آراء الفقهاء ، وهم بشر ، ونحن بشر . وهذا إدعاء باطل من أساسه ، فالفقه الإسلامى يرجع إلى نصوصه الثابتة الربانية من قرآن وسنة ، وعمل الفقهاء هو فهم جيد للقرآن والسنة ، وتفصيل لتلك الأحكام ، وتوضيح وبيان . وليس لأحد أن يشرع أو يكذب على الله ورسوله .

وبعد هذه الادعاءات والافتراءات ، رتع هؤلاء فى مخلفات من افتتنوا بهم من الغربيين ، فنقلوا القوانين الأوربية فى البلاد الإسلامية ، وكانوا سدنتها وحماتها . وترتب على إدخال القوانين الأوربية إلى البلاد الإسلامية أن أنشئت فى البلاد الإسلامية محاكم خاصة لتطبيق تلك القوانين ، وعين لها قضاة ومستشارون ، ومحاماة وكتب وشروح ، أدى ذلك إلى الجهل بالشريعة ،وترك نصوصها ، وهجر تعاليمها ، كما أدى إلى الإستهانة بالإسلام وبتراثه وتعاليمه ، ونشأت ثغرة وهوة بين الفرد المسلم وواقعه المعاش وحياته ومجتمعه ، وربطت المسلم بغير عقيدته ووطنه وبيئته ، فخرج جيل مشوه ممزق متهالك .

ذهاب الخلافة وتقطيع عرى التعاون بين المسلمين :

كانت دولة الخلافة فى المدينة المنورة بعد رسول الله ﷺ المدد المتصل المتجدد للرسالة الإسلامية والدعوة الربانية ، وماعرفت الدنيا من قبل ولا من بعد أعدل ولا أنبل ولا أشرف من الرجال الأربعة الذين حكموا الأمة الإسلامية فى هذه المدة القصيرة الأمد ، وماعرفت الدنيا كذلك مجتمعا يحمل من المثل والقيم والأهداف العليا مثل ما حمل هذا المجتمع الطاهر الذيل النقى الثوب .

ولقد نجحت دولة الخلافة نجاحا ساحقا فى إسقاط الطواغيت ، التى كانت تسود العالم ، وتبسط نفوذها على الخافقين ، واستطاعت وأن تقيم للإسلام صرحا مهيبا وحكومة رشيدة ، تعد من الناحية السياسية الحكومة الأولى فى العالم .

ولقد لحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى ، والإسلام لم يتخط حدود الجزيرة العربية ، بيد أن الرجال الذين رباهم ، والذين يعرفون عالمية الدعوة شرّقوا بها وغرّبوا ، وذللوا عقبات كان البصر يحكم باستحالتها وصعوبة تذليلها .

ذهبت دولة الفرس فى أيام معدودة وأطفئت نارها ، واخترقها المسلمون إلى ما وراءها ، وسقطت راية الروم عن آسيا الصغرى ووادى النيل وشمال أفريقيا ، وكانت أملاكها ممتدة حتى شواطىء الأطلس غربا ، وآل كل ذلك إلى دولة الخلافة ، وبسطت يدها على هذا الميراث الضخم ، وتولت قيادة هذه الأمم بالإحسان والعدل ، وأخذت الأجهزة الدوارة فى الكيان الإسلامى تعمل بجد فى تنشئة أجيال مسلمة لحما ودما ، وهو عمل لاينكره إلا قاصر ، فإن سقوط دولة الفرس والروم أعقبه فراغ نفسى وذهنى كبير ، استطاع المسلمون من أتباع محمد ﷺ أن يتلقفوا شباب وأجيال تلك الدول الذاهبة بالتعليم والتهذيب الذكى ، فلم تمض خمسون سنة على انديا ح موجة الفتح ، حتى كانت المدن والقرى مليئة بالمساجد والمدارس ، وحتى كانت شعائر الإسلام بارزة ، وتقاليده موطدة ، وأحكامه مطبقة ، فى الشام والعراق ومصر واليمن وأقطار أخرى كثيرة .

بل إن غير العرب سبق العرب أنفسهم فى هذه الميادين ، فأصبحت أئمة الأمصار ورواد الفقه واللغة والحديث من الموالى .. وذلك نجاح ما بعده نجاح لتعاليم الإسلام وسماحته وهمة رجاله ، كما نجحت الدعوة الإسلامية والتعاليم القرآنية فى إقامة كيان إسلامى ، ذابت فيه الفوارق بين الطبقات والأجناس ، وأعطت كل ذى حق حقه ، وتعاون الناس على البر والتقوى ، وامتنعت الجريمة ، وساد الأمن حتى كان الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه . وقامت نهضة فى طول تلك البلاد وعرضها ، فتحت مغاليق كل شىء فى العلوم والفنون والآداب ، وأضاء العقل ـــ الذى استنار بالإسلام ـــ ظلمات العصور الوسطى ، وبدد جهالات الوثنية الإغريقية والرومانية .

وأعقبت الموجة الأولى للمد الإسلامى موجات وموجات ، ظهر من خلالها قواد عظام ، وجند بواسل ، وكتائب وجيوش ، ثم استداروا إلى الجزر التى تنتشر فى البحر الأبيض ، وأخذوا يحررونها واحدة بعد الأخرى ، حتى بلغوا إلى عاصمة الروم نفسها ، فحاصروها ردحا من الزمن ولكن القسطنطينية استعصت عليهم ، فما دخلها المسلمون بعد ذلك إلا بعد مرور ستة قرون تقريبا ، لم تخمد خلالها نار

الحرب بين التوحيد والتثليث ، والعدل والظلم ، والحق والباطل ، ثم دخل المسلمون القارة الأوربية من أسبانيا ، وضموها إلى أرض الإسلام ، وبلغت جيوش المسلمين حدود النمسا وألمانيا .

أما فى الشرق ؛ فإن المسلمين ولوا وجوههم شطر الصين والهند ، ووقفوا على حدود عالم يموج بالخرافات والترهات والأباطيل وعبادة الحيوان والجماد ، واستطاعوا أن يولوا وجوههم نحو خالقهم وشطر المسجد الحرام ، وامتد العملاق الإسلامى إلى أرجاء المعمورة ، حتى قال خليفة المسلمين مخاطبا السحابة التى تحمل الماء : « شرقى أو غربى فسيأتينى خراجك » . وبعد هذا المد وهذه الرفعة وهذا الملك ماذا صار .

الخلفـــاء :

كان المسلمون فى شدة الشوق إلى الجهاد والفتح ، وفى قمة العبقرية والرجولة الفكرية والذهنية ، ولكن الجهاز الحاكم بدأ يعتريه الوهن والضعف ، وانحدر إلى المتاع الشخصى واللهو والعبث والمجون ، وتدنى إلى الهاوية ، وكان دون المستوى المرموق ، فلم يحسن الاستفادة من العبقرية التى تمهدت له ، والقيادات التى وضعت تحت إمرته ، فشلّ همتها ، وأبطل حركتها ، فكان مستوى الحاكمين فى دولة الخلافة فى فترة ما دون مستوى دولة الخلافة الراشدة . وقد كان لذلك آثار سيئة على الإسلام والمسلمين ، فكثرت المظالم ، وضاعت الحقوق ، ووهنت الجيوش ، واضطهدت القادة ، وتفرق الجند ، وطمع فى الرياسة والريادة أهل النفاق والعمالة والمجون ، وحرضوا على الإسلام والمسلمين ، وحاقت بالمسلمين الكوارث . يقول ابن كثير فى البداية والنهاية عن سنة ٦٥٦ : « استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار هولاكو خان ، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة ، وميرته وهداياه وتحفه ، وكل ذلك خوفا على نفسه من التتار ، ومصانعة لهم ، قبحهم الله تعالى ، وقد سترت بغداد ، ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرهما من الآلات الممانعة ، التى لاترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئا ،... كما ورد فى الأثر « لايغنى حذر من قدر » ، وقال تعالى : ﴿ إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا

فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ﴾[1] ، وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب ، حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدى الخليفة وتضحكه ، وكانت من جملة حظاياه ، وكانت مولدة ، تسمى عرفة . جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها ، وهى ترقص بين يدى الخليفة ، فانزعج الخليفة من ذلك ، وفزع فزعا شديدا ، وأحضر السهم الذى أصابها بين يديه ، فإذا عليه مكتوب « إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوى العقول عقولهم » ، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز وكثرة الستائر على دار الخلافة ، وكان قدوم هولاكوخان بجنوده كلها ، وكانوا نحو مائتى ألف مقاتل إلى بغداد فى الثانى عشر من المحرم فى هذه السنة ، وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذى قدره الله وقضاه ، وأنفذه وأمضاه ، وهو أن هولاكو لما كان من أول بروزه من همدان متوجها إلى العراق ، أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ، ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم ، فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره ، وقالوا : إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال ، وأشاروا بأن يبعث بشىء يسير ، فأرسل شيئا من الهدايا ، فاحتقرها هولاكو خان ، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور وسليمان شاه ، فلم يبعثهما إليه ولا ألقى بالا به ، حتى أزف قدومه ، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة ، ممن لايؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، فأحاطوا ببغداد من ناحيتيها الغربية والشرقيَّة . وجيوش بغداد فى غاية القلة ونهاية الذلة ، لايبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش ، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم ، حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ، ويحزنون على الإسلام وأهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمى الرافضى [2].

ثم كانت الكارثة التى تقشعر منها الأبدان والأرواح ، وكانت المذابح التى لم يسمع التاريخ بمثلها . يقول ابن كثير : « كان أول من برز إلى التتار هو وزير الخليفة

---

(١) الرعد / ١١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ص ١٣ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ط دار ابن كثير بيروت .

ابن العلقمى ، الذى كان على صلة بالتتار ، وكان صنيعة لهم ، خرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه ، فاجتمع بالسلطان هولاكو لعنه الله ، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إلى هولاكو ، والمثول بين يديه ، لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة ، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج فى سبعمائة راكب ، فى القضاة ، والفقهاء ، والصوفية ، ورءوس الأمراء والدولة ، والأعيان ، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسا ، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين ، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت ، وقتلوا عن آخرهم ، وأحضر الخليفة بين يدى هولاكو ، فسأله عن أشياء كثيرة ، فيقال : إنه اضطرب من هول ما رأى من الإهانة والجبروت ، ثم عاد إلى بغداد ، وفى صحبته خوجة نصير الدين الطوسى ، والوزير ابن العلقمى وغيرهما ، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة ، فأحضر من دار الخلافة شيئا كثيرا من الذهب والحلى والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة ، ... فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله . ويقال : إن الذى أشار بقتله الوزير ابن العلقمى ، والمولى نصير الدين الطوسى ، ... ثم مالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ، ودخل كثير من الناس فى الآبار ، وأماكن الحشوش ، وقنى الوسخ ، وكمنوا كذلك أياما لا يظهرون ، وكان الجماعات من الناس يجتمعون إلى الخانات ، ويغلقونَ عليهم الأبواب ، فتفتحها التتار ، إما بالكسر ، وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة ، فيقتلونهم بالأسطح ، حتى تجرى الميازب من الدماء فى الأزقة ، وكذلك فى المساجد والجوامع والربط ، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ومن التجأ إليهم ، أو إلى دار الوزير ابن العلقمى الرافضى ... وقد اختلف الناس فى كمية من قتل ببغداد من المسلمين فى هذه الوقعة ، فقيل : ثمانمائة ألف ، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف[1] . »

وهكذا تسبب ضعف الخلفاء ، وخيانة الوزراء ، وطمع المنافقين ، فى كارثة مروعة للمسلمين وللدولة وللخلافة ، كما تسببت الخلاعة والبعد عن الرجولة وترك

---

(١) المرجع السابق ١٣ / ٢٠١ ، ٢٠٢ .

الجهاد والهوان فى الذل والاستعباد المخزى . وهذا مثل من أمثلة المسلمين وعبرة من عبرهم التى تتكرر بتكرار أسبابها ، وكأنها تذكرهم بقوله تعالى : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ ، إلى أن جاءت العصور الأخيرة والعصور الحديثة ، فانفرط عقد الخلافة ، وتقطعت أوصال المسلمين وديارهم ، وأصبحت دولة الخلافة حوالى ٢٢ دولة ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، فهل يرجى من جسد تقطع ، وبدن تمزق ، ونفس تشتتت، قوة أو غلبة أو صمود فى وجه عدو ، أو حتى دفاع عن النفس ، هيهات هيهات ، إلا إذا اجتمع الشمل ، وضم الشتات ، واتحدت الكلمة ، وساد الكتاب .

حب الرياسة وطلب الإمارة :

من الرذائل المنكرة التى انتشرت فى تاريخنا فى أيام الانحطاط : حب الرياسة، وطلب الإمارة ، مع أن الإسلام رهب من هذه الرذيلة ، وبين أن أمر هذه الأمة لا يسلم لمن يطلبه ، أو يتوسل إليه بما أمكن ليناله ، وهو كليل الهمة ، قاصر المواهب ، قصير النظر ، مريض بحب الظهور ، مصاب بداء العظمة ، مطعم بمكروب الرياسة .

وقد رهب الإسلام من الإمارة والرياسة . فعن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : « ياعبد الرحمن بن سمرة : لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها ، وإن أعطيتها عن مسأله وكلت إليها » (١). وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة » (٢). وعن أنس « من طلب القضاء واستعان عليه بالشفاعة وكِّلَ إلى نفسه ، ومن أكره عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده » . أخرجه ابن المنذر والترمذى وأبو داود وابن ماجه (٣).

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم ، البخارى ٨ / ١٠٠ ، عينى ١١ / ٣٧٩ مسلم ٢ / ٨١ .

(٢) رواه البخارى ٨ / ١٠٠ ، وعينى ١١ / ٣٧٩ ، عسقلانى ١٣ / ١١١ ، ١٠ / ٢٦٧ عسقلانى ١٠ / ٢٢١ .

(٣) إرشاد السارى ١٠ / ٢٢١ ط دار الفكر .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « يا أبا ذر إنى أراك ضعيفـــا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تؤمرن على اثنين ، ولا تلين مال اليتيم » رواه مسلم وأبو داود والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .[1]

رغم أن الرياسة أمانة وتبعة ومسئولية ؛ إلا أنها طلبت وسخرت فى سبيل المطامع الشخصية والشهوات والأهواء ، فأنتجت مردودا ماحقا على المجتمع والأمة ، وعلى الأفراد والجماعات ، وكانت نارا أحرقت كل نبت صالح ، وكل صرح سامق ، وبناء شاهق ، وأتت على كل خير وبر حتى جعلته كالرميم .

إهمال الجهاد فى سبيل الله دفاعا عن الحق :

فرض الله الجهاد على كل مسلم فريضة لازمة حازمة ، لا فكاك منها ولا تفلت . ورغّب الحق سبحانه فى الجهاد فى سبيله ، وحض عليه ، ووعد المجاهدين المقاتلين والشهداء الثواب العظيم والفوز المبين ، جزاء ما قدموا فى سبيل الحق سبحانه ، وما قاموا به من حفظ القيم ، والدفاع عن المثل ، ودحر الباطل ، وإزهاق الكفر ، وقد كان كل نصر عظيم وفتح مبين عربونه دماء الأبطال الزاكية الطاهرة ، نعم هى عربون كل عزة وكرامة وتأييد وسؤدد .

ولهذا توعد الله المخلَّفين القاعدين بأفظع العقوبات ، ورماهم بأبشع النعوت والصفات ، ووبخهم على الجبن والقعود ، ونعى عليهم الضعف والتخلف ، وأعد لهم فى الدنيا خزيا لا يرفعه إلا أن يغسلوا ذلك التخلف والقعود بدمائهم فى الجهاد وفى سبيله سبحانه ، وفى الآخرة عذابا لا يفلتون منه ، ولو كان لهم مثل أحد ذهبا .

ولقد تحدث القرآن عن الجهاد فى كثير من آياته وسوره ، فى جزالة لفظ ، ونصاعة بيان ، ووضوح غاية وهدف .

قال تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا

---

(1) مسلم ٢ / ٨١ نووى ٨ / ٢٨ الترغيب والترهيب ٣ / ٤٤٣ ط مصطفى الحلبى باب الإدارة .

تعلمون ﴾[1]، ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير ، ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ [2]. ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾ [3].

التحذير من ترك الجهاد وعدم القيام به وتلبية الدعوة إليه :

﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا فى الحر . قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيرا ، جزاء بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل لن تخرجوا معى أبدا ، ولن تقاتلوا معى عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾ الآية [4]. ﴿ انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ [5]. ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير ﴾ [6].

طلب الاستعداد ، والتهيؤ للحرب ماديا ومعنويا ، حتى يكون المقاتل المسلم على المستوى المطلوب للنصر فى المعركة :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله

---

(١) البقرة — ٢١٦ .
(٢) آل عمران — ١٥٦ — ١٥٨ .
(٣) النساء — ٧١ — ٧٨ .
(٤) التوبة — ٨٠ — ٨١ .
(٥) التوبة — ٤١ .
(٦) التوبة — ٣٩ .

وعدوكم ﴾ [1]. ﴿ يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ [2].

﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ [3].

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يُحَرِّمُونَ ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ [4]

وبعد /

فقد رأينا كيف أن القرآن الكريم يحض المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله ، وإعلاء كلمته ، وممارسة القتال فى جيوش أو عصابات أو فرادى ، كما يقتضيه الحال .

كما رأينا كيف يوبخ القاعدين والجبناء والمخلفين والنفعيين ، وكيف يستثير الهمم لحماية الضعفاء وتخليص المظلومين ، وكيف يقرن القتال بالصلاة والصوم ، وكيف يفند شبهات المطرودين المنافقين اللاهين ، كما يحرض المقاتلين المدافعين الثابتين .

وكذلك نجد أن رسول الله ﷺ يسير على نفس النهج ، ويعد العدة ، ويحرض المؤمنين ، ويقود الجيوش والمجاهدين ، ويرفع السيف ، ويمتشق الحسام ، ويقارع الجيوش ، ويلاقى الكتائب جهادا فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ، ويجرح فى المعارك ، ويسيل دمه الشريف ، ويتمنى الشهادة فى سبيل الله سبحانه .

---

(١) الأنفال ـــ ٦٠ .

(٢) الأنفال ـــ ٦٥ .

(٣) التوبة ـــ ١٤ .

(٤) التوبة ـــ ٢٩ .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « والذى نفسى بيده ! لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ، ولا أجد ما أحملهم عليه ، ما تخلفت عن سَّرية تغزو فى سبيل الله . والذى نفسى بيده ! لوددت أنى أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل » (١)

عن أم حارثة بنت سراقة أنها أتت النبى ﷺ ، فقالت : « يانبى الله ألا تحدثنى عن حارثة — وكان قبل يوم بدر أصابه سهم غرب — فإن كان فى الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء . قال : يا أم حارثة : إنها جنات فى الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » (٢)

وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » (٣).

عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من جهز غازيا فى سبيل الله تعالى فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى سبيل الله بخير فقد غزا » (٤).

هذا والأحاديث فى الجهاد وفضل المجاهدين كثيرة ، ألفت فيها الكتب المتعددة ، وتتبعها الشراح بالتفصيل والبيان ، بما لا يوجد فى أى دين أو تراث .

وقد فصل الفقهاء أحكام الجهاد فى سبيل الله تبارك وتعالى ، ووجوب الاستعداد والتجهز ، وحشد القوة لإرهاب العدو ، ونصرة الحق ، وخذلان الباطل . فأجمعت فقهاء الأمة فى مذاهبها الأربعة على وجوب الجهاد والاستعداد له . قال صاحب بلغة السالك لأقرب المسالك فى مذهب الإمام مالك : « الجهاد فى سبيل

---

(١) البخارى ٨ / ١٢٠ ، عينى ١١ / ٤٣٧ عسقلانى ١٣ / ١٨٧ ، قسطلانى ١٠ / ٣٣١ مسلم باب الإمارة النسائى جهاد ١٨ ، ٣٠ ، والموطأ جهاد — أحمد ٢ / ٤٢٤ ، ٤٧٣ .

(٢) البخارى كتاب الجهاد ٣ / ١٨٩ ، عينى ٦ / ٥٥٦ ، عسقلانى ٦ / ٢١ ، قسطلانى ٥ / ٥٧ .

(٣) البخارى كتاب الجهاد ٣ / ١٩١ ، قسطلانى ٥ / ٦٣ .

(٤) البخارى كتاب الجهاد ٣ / ١٩٦ ، عينى ٦ / ٥٨٧ ، عسقلانى ٦ / ٣٧ ، قسطلانى ٥ / ٧٩ ، مسلم الإمارة ٢ / ١٠٠ نووى ٨ / ١١٦ .

الله لإعلاء كلمة الله تعالى كل سنة فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقى ، ويتعين (أى يصير فرض عين كالصلاة والصوم) بتعيين الإمام ، وبهجوم العدو على محلة قوم ، فيتعين عليهم وعلى من بقربهم إن عجزوا ، ويتعين على المرأة والرقيق مع هذه الحالة ، ولو منعهم الولى والزوج والسيد ورب الدَّيْنِ إن كان مدينا ، ويتعين أيضا بالنذر ، وللوالدين المنع منه فى فرض الكفاية فقط . وفك الأسير من الحربيين إن لم يكن له مال يفك منه فرض كفاية على المسلمين ، وإن أتى على جميع أموالهم » وقال صاحب كتاب الاختيار من الحنفية . « الجهاد فرض عين عند النفير العام ، وكفاية عند عدمه . أما الأول فلقوله تعالى : ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾ ــ والنفير العام : أن يحتاج إلى المسلمين ، فلا يحصل المقصود ــ وهو إعزاز الدين وقهر المشركين ــ إلا بالجميع ، فيصير عليهم فرض عين كالصلاة . وإذا لم يكن كذلك فهو فرض كفاية ... وقتال الكفار واجب على كل رجل عاقل صحيح حر قادر ، وإذا هجم العدو وجب على جميع الناس الدفع ، تخرج المرأة والعبد بغير إذن الزوج والسيد ؛ لأنه يصير فرض عين ، وحق الزوج والسيد لا يظهر فى مقابلة فرض الأعيان كالصلاة والصوم »

وقال الشيخ زكريا الأنصارى الشافعى فى كتابه « شرح روض الطالب من أسنى المطالب » : « الجهاد فرض فى كل سنة على الأقل ، فإن زاد على مرة فهو أفضل . ولا يجب إلا على مسلم بالغ عاقل ذكر حر مستطيع له ، ولا يجب على صبى ومجنون ، ولا على امرأة ولا أعمى .... ويجب الجهاد على أعور وأعشى وضعيف نظر يبصر الشخص والسلاح ... ويتعين الجهاد بالشروع فى القتال ، وبدخول الكفار بلاد المسلمين ، حتى على العبيد والنساء ، فلا حجر للسيد على رقيقه ، ولا للزوج على زوجته ، ولا أصل على فرعه ، ولا دائن على مدينه ، وحتى يتعين على المعذورين بعمى وعرج ومرض ونحوها » .



وفى المغنى لابن قدامة الحنبلى : « الجهاد فرض كفاية ، إذا قام به قوم سقط عن الباقين . ويتعين فى ثلاث مواضع » :

١ ــ إذا التقى الزحفان ، وتقابل الصفان ، حرم على من حضر الانصراف ، وتعين عليه المقام .

٢ ــ إذا نزل الكفار ببلدة تعين على أهله قتالهم ودفعهم .

٣ ــ إذا استنفر الإمام قوما لزمهم النفير معه (١).

وأقل الجهاد مرة واحدة فى كل عام ، وإن دعت الحاجة أكثر من مرة وجب على المسلم القيام بذلك حتى يعز الإسلام (٢).

وإذا وجب الجهاد خرج الكل ، معذور وغيره ، مدين وغيره ، امرأة وشاب عبد أو سيد .

المسلمون والجهاد :

المتتبع لتاريخ المسلمين الطويل يجد أنه ما من عصر من عصورهم ــ قبل العصر المظلم ، الذى ماتت فيه نخوتهم ــ ترك فيه الجهاد أو فرط المسلمون فيه . حتى إن علماءهم والمتصوفة منهم ، المنقطعون وغيرهم ، كانوا على أهبة الاستعداد .

كان عبد الله بن المبارك الفقيه الزاهد متطوعا فى أكثر أوقاته للجهاد والذود عن حياض الإسلام ، وكان عبد الواحد بن زيد الصوفى الزاهد دائم الاستعداد والخروج فى سبيل الله تعالى ، وكذلك كان شقيق البلخى شيخ الصوفية فى وقته ، يحمل نفسه وتلامذته على الجهاد .

وكان البدر العينى شارح البخارى الفقيه المحدث يغزو سنة ، ويدرس العلم سنة ، ويحج سنة . وكان القاضى أسد بن الفرات المالكى أميرا للبحر فى وقته ، وكذلك كان الإمام الشافعى رضوان الله عليه ، يرمى عشرة ولا يخطىء .

---

(١) المغنى لابن قدامة ١٠ / ٣٦٥ = ٨ / ٦٤٦ ، ٣٤٧ المعجم ١ / ٢٦ ط الكويت .

(٢) المغنى ١٠ / ٣٦٧ == ٨ / ٣٤٨ ط المنار والرياض .

طبيعة الجهاد فى الإسلام :

الجهاد فى الإسلام ليس أداة للعدوان ، إنما هو وسيلة لدفع الظلم والدفاع عن الحق ، ونشر دين الله ، وليس أداة للمطامع الشخصية ، أو الأطماع المادية ، أو المكاسب الإقليمية ، وإنما هو تبليغ للرسالة السماوية ، ونشر للهداية الربانية ، التى حملها المسلمون بتكليف من الله لهم .

كان المسلم يخرج للقتال وفى غايته أمر واحد : أن تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى . فإذا خلط مع تلك الغاية أمراً آخر من حب الجاه أو الظهور أو المال ؛ فإن الله أغنى الشركاء عن الشريك . فعمله مردود ، وجهاده مدخول ، وغايته هابطة ، إنما الحلال فى نظر الإسلام أمر واحد وغاية واحدة : أن يكون عمله خالصا لوجهه سبحانه ، وهو أفرح بإيمان المؤمن وإقبال المشرك من الدنيا وما فيها ، لايبغى إلا هذا ، أو أن يستشهد فى سبيل ذلك .

عن الحارث بن مسلم بن الحارث عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية ، فلما بلغنا الغار استحثثت فرسى ، فسبقت أصحابى ، فتلقانى أهل الحى بالرنين ، فقلت لهم : قولوا لاإله إلا الله تحرزوا ، فقالوها ، فلامنى أصحابى ، وقالوا : حرمتنا الغنيمة . فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبروه بالذى صنعت ، فدعانى ، فحسن لى ما صنعت . ثم قال لى : ألا إن الله تعالى قد كتب لك بكل إنسان كذا وكذا من الأجر ، وقال : أما إنى سأكتب لك بالوصاية بعدى ، ففعل ، وختم عليه ، ودفعه إلىّ (١).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رجلا قال : يارسول الله ، رجل يريد الجهاد فى سبيل الله ، وهو يبتغى عرضا من الدنيا . فقال : لا أجر له . فأعادها عليه ثلاثا ، كل ذلك يقول : لا أجر له » (٢)

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : « سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل

---

(١) أخرجه أبو داود .

(٢) أخرجه أبو داود .

شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » (١)

ورغم وضوح أحكام الجهاد وأدلتها ، ورغم نبل الغاية وحسن الهدف ، ترك المسلمون الجهاد ، وولوا وجوههم شطر الدعة والخنوع والبعد عن معالى الأمور وسمو الغايات ، وشاع بين الناس أن قتال العدو هو الجهاد الأصغر ، وأن هناك جهاد أكبر هو جهاد النفس ، وكثير منهم يستدل بما يروى « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟ قال جهاد القلب أو جهاد النفس » . وقد قال الحافظ بن حجر فى تسديد القوس « هو من كلام إبراهيم بن عبلة » ، وقيل : إنه من كلام أبى بكر الصديق ، وليس بحديث ، ولكن الذين يريدون تعطيل فريضة الجهاد يروجون لأمثال هذه الأقوال ؛ ليبرروا تخاذلهم عن نصرة الإسلام والمسلمين ، رغم أن الأمة الإسلامية ما كانت فى وقت من الأوقات أحوج ما تكون إلى الجهاد من هذا الوقت .

ولكن الأمة التى تظفر بالموتة الكريمة ، وتعرف كيف تبذل أرواحها ودماءها ، وتضحى فى سبيل عقيدتها وكرامتها ، هى الأمة التى تستحق الحياة والمجد ، ويهبها الله الحياة العزيزة الكريمة الخالدة فى الدنيا على مر الأيام ، وفى الآخرة إلى ما شاء الله . وما الوهن الذى أصابنا ولوى أعناقنا ؛ إلا من القعود عن الجهاد ، وحب الدنيا وكراهية الموتة العزيزة ، التى تشوق إليها الكفاح المسلم والميدان المسلم والجهاد المسلم بينها وبين عدوها .

ويوم أن يعرف المسلمون ــ وهم يعلمون ذلك ــ أن الموت لابد منه ، وأنه لا يكون إلا مرة واحدة ، وأنه يجب أن تكون تلك الموتة فى سبيل الله . يوم يعرفون ذلك وينفذونه يكون ربح الدنيا وسعادة الآخرة ، وتكون الحياة العزيزة التى يحبون ، والكريمة التى يبغون ، وما يصيبهم إلا ما كتب لهم ، وما قدره الله عليهم . وقد أعطينا الدرس من قديم ، ومازالت آيات القرآن بين أيدينا وفى مخيلتنا وأفهامنا وعقولنا ،

---

(١) رواه الخمسة ، البخارى باب فرض الخمس ٤ / ٤٧ ، عينى ٧ / ١٤٨ ، عسقلانى ٦ / ١٥٩ قسطلانى ٥ / ٢٤٩ ، مسلم ٢ / ١٠٢ نووى ٨ / ١٢٨ .

وصدق الله : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله . يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور ﴾ (١).

وما على هذه الأمة اليوم إلا أن تتدبر الآيات ، وتنطلق فى الأرض رافعة الرأس ، لا تخاف ، ولا تهن ، ولا تحزن ، إذا هى أحسنت صناعة الموت فى سبيل أهدافها ، فى سبيل الله ، فى عصر لا يحترم إلا القوى ، ولا يخاف ولا يرهب إلا من القوة ، ولا يعيد للمسلمين حقهم أو كرامتهم وهيبتهم إلا أن يكونوا أقوياء ، وفى هذا يقول محمد أسد « ليوبولد تابس » : « أما خير وسيلة يجب أن يلجأ إليها المسلمون حتى يحملوا العالم الغربى على احترامهم فهى أن يكونوا أقوياء » (٢).

وأى وسيلة أو سبيل يجعل المسلمين أقوياء غير الجهاد ؟ وهو فريضة لازمة على المسلمين إلى يوم القيامة ، والاستعداد إليه واجب ، فرضه عليهم قرآنهم ورسولهم وعقيدتهم . هل يؤدى المسلمون تلك الفريضة ، وهل يتنبهوا لها . ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله .



---

(١) آل عمران ــ ١٥٤ .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص ٦٢ ط دار العلم للملايين .

خاتمة فى
نتيجة هذه الدراسات

مما لا شك فيه أن هذا البحث قد كشف عن أشياء كثيرة ، وأبان حقائق عدة منها :ـــ

١ـــ بيان معنى الحضارة ومدلولها ، حيث أن مدلول كلمة الحضارة فى هذه الأيام قد انماع فى مسميات كثيرة ودعاوى عدة ، بل انتقل معناها فى بعض الأحيان إلى مايدل على عكس الحضارة ، أو ما يتنافى معها ، مما جعل كلمة الحضارة أو اصطلاحها عند بعض الناس ، يعنى الضلال أو الخروج على القيم أو القهر والبغى والظلم ، وسندهم فى هذا الفهم وهذا التفسير أساليب المنتسبين إليها والمتشدقين بها ، وقد أعطى معناها عند البعض الآخر مدلولا باهتا رجراجا ، لايدل على فهم معين ، بقدر ما يلفت إلى خداع أو تمويه ، لبعض الأغراض الشخصية أو الحيوانية أو العنصرية .

وقد أبان البحث وجه الحق فى كلمة الحضارة ، وحقق مدلولها ، وميز مراميها ، وأظهر زيف المنتسبين والمتسترين فى جنباتها .

وصاحب ذلك بيان للعلاقة بينها وبين ما يقاربها ، أو يختلط بها ، من مسميات وألفاظ ؛ لتكتمل الصورة ، وتظهر الإفادة . وقد أدى هذا البيان إلى حقائق علمية وأخلاقية وقيمية ، ترد كل شىء إلى أصله ، وكل فعل إلى قصده ، فامتازت الهمجية والحيوانية من الحضارية والإنسانية .

٢ـــ كما أظهرت الدراسات أنه ليس للجنس ولا للبيئة اليد الطولى فى تأسيس الحضارات أو قيام النهضات ، وأنه ليس هناك مسوغ لأن توسم شعوب معينة بأنها

شعوب حضارية لعرقها أو لونها أو أرضها ، وأن عقولها عقول معينة مختارة ، حباها الله بما لم يعطه غيرها من الفهم والابتكار والتقدم والريادة ، وأن هذه المغالطة العنصرية أو العرقية لايمكن إلا أن تكون وسيلة للسيطرة على الشعوب ، والتمايز عليها ، وأكل ثرواتها وخيراتها ، وهضم حقوقها .

هذا الادعاء الباطل يكذبه التاريخ والواقع والبحث العلمى النزيه ، وقد أظهر البحث ذلك وجلاه وأبان وجه الحق فيه ، كما أوضح رأى النظرية الإسلامية فى المسألة ، وكيف أنها وضعت الأمور فى نصابها ، وقطعت الطريق على السارقين لحقوق الناس والمتسلطين عليهم ، وأن الناس من ذكر وأنثى يتمايزون بالتقوى والعمل الصالح .

٣ــ دراسة التجربة الإنسانية على وجه الأرض ، أو بمعنى آخر دراسة التفسير الحضارى للتاريخ . وقد أظهر البحث مقدار الخلط الذى صاحب هذه النظرية ، بعد أن سرد أراء الباحثين ونظرياتهم فى دراسة التاريخ ، وفى استقاء أخباره وتقصى حقائقه ، وأظهر البحث أن مصادر التاريخ جلها نظرية تخرصية واستنتاجية ، أو خيالية ، ولهذا يجب وضع شروط معينة لإيضاح الرؤية التاريخية أمام الباحث ، حتى يستطيع أن يفسر التاريخ تفسيرا حضاريا ، وقد رسم البحث الخطوط العريضة لهذه الشروط الواجب اتباعها .

٤ــ كما أوضح البحث التحرك البشرى على ظهر الأرض ، وصلته بقيام الحضارات ، ورأى الباحثين فى ذلك ، ثم أبان الرأى فى صحة هذا التحرك وتأثيره على الحياةالحضارية ، وعلى استمرار الحياة بالشكل والمضمون الطبيعى لبنى الإنسان .

٥ــ ثم بين البحث المفهوم الإسلامى للحضارة ، ومناهجه ، وتفسيره للتاريخ ، فقدم البحث تصورا كاملا للكون بحقائقه وتصوراته ، وقدم تصورا للإنسان بجسده وروحه ونشاطه على وجه الأرض ، وحركته فيها ، وارتباطه بها ، وحث الإسلام له على الحركة وعلى الدأب مع نظام للإنسان يحكم سلوكه وتفكيره وطريقه فى الحياة ، وينمى مواهبه ، ويرضى أشواقه وتطلعاته وغاياته .

٦ ــ وقد تكلم البحث على المناهج العلمية التى قامت عليها الحضارة الإسلامية ، وبين ماترتكز عليه ، وتطرق البحث إلى اختلاف المناهج العلمية فى الحضارة الإسلامية عن غيرها فى الشكل والجوهر .

فقد كانت طبيعة المناهج العلمية فى الحضارات السابقة مبنية على الجدل اللفظى والتخيلات العقلية ، سواء كانت هذه المناهج نظرية أم مادية .

أما عن المناهج النظرية للحضارة الإسلامية ؛ فقد قامت على مصدرين نقلى وعقلى . وقد وضح البحث ذلك .

وأما عن المناهج المادية ؛ فقد اعتمدت الحضارة الإسلامية على المنهج التجريبى ، الذى شرح البحث خطواته بما وضح جوانبه ، وقد استطاع المسلمون بهذا المنهج أن يكتشفوا ما خفى على غيرهم ، وأن يتوصلوا إلى حقائق معينة ، وضعت الحضارات على سلم التقدم العلمى الصحيح ، وأن يميطوا اللثام عن الخرافات التى كانت تتوارثه فى أمم كثيرة ، وكل هذا قد انبثق من تعاليم كتابهم وسنة نبيهم .

٧ ــ تفسير الإسلام للتاريخ الحضارى على وجه الأرض ، وقد استقى المسلمون عمق هذا التاريخ الحضارى ومقاييسه من القرآن الكريم ، حيث يحكى ألوانا من سير الأمم الدابرة والشعوب الغابرة ، كونت عمقا أصيلا وجذورا غائرة لمدنيته ، وتجربة حية على طريقة مسيرته ، حيث إن القرآن يعرض قصصا واقعيا عاش تجربة الحياة ومسيرة التاريخ ، وعلى هذا النهج ظهر فى التاريخ من كان نهجه صلاحا للأرض ، ومن كان سيره فسادا فيها ، وظهرت أصول الحضارات الحقة التى تحكم الحياة متمثلة فى نماذج واضحة ، كما ظهر رواد الحضارات من خلال تلك المجتمعات ، متمثلا فى الصفوة المختارة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن سار على نهجهم ومثلهم .

٨ــ أظهر البحث صلة الحضارة الإسلامية بغيرها من الحضارات ، فقد قلبت حضارة الإسلام موازين المعتقدات العربية ، وكذلك النظم والتشريعات ، حيث كانت شريعة الإسلام ربانية جامعة . وصدق الله : ﴿ ماكنت تدرى ماالكتاب

ولاالإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾[1]

وأما عن الحضارات العربية ؛ فإن الأصول الحضارية للحضارة الإسلامية تخالف أصول تلك الحضارات وتشريعاتها وأساليبها واجتماعياتها ، تخالفها جذريا وإن انتفع المسلمون بما وجد عند تلك الشعوب من علم نافع لا يصادم معتقدات أو أصول أو آداب الشريعة الإسلامية ، وقد وجه المسلمون هذه العلوم إلى وجهتها الصحيحة وغايتها النافعة ، حسب التعاليم الإسلامية السامية ، وبنوا عليها صرحا شامخا من التراث العلمى الذى أيقظ العالم من سُبات طويل .

٩ ــ أظهر البحث عظم عمق الدور الذى اضطلع به المسلمون فى إنارة العالم ، وبعث الهمم ، وإذكاء العقول ، وإطلاقها من أوهام الجهل والخرافة والفسطقة ، وأبان مقدار الجهود التى بذلها المسلمون فى سبيل إحياء التراث القديم للأمم وتنقيته ، كما أظهر حجم التراث العلمى الذى اضطلع به المسلمون ، ومقدار مابذلوه من جهد فى سبيل إنقاذ البشرية وإنارتها ، وقد اقتضى ذلك إعمال الفكر فى كل فن وعلم ، وإخراج كل مكنون ، وإظهار كل مستور ، والتنقيب عن كل شاردة ونائية ، حتى اجتمع لهم أطراف العلوم وأشتات الفنون ، وأوقفوا العالم على أسرار العالم وأخبار الكائنات . وكانت الأمة الإسلامية ــ من أقصاها إلى أقصاها ــ تمثل سوقا كبيرا للمعرفة والاختراع والبحث فى جميع المجالات والعلوم . وقد عبرت هذه الحضارة الإسلامية إلى جميع أنحاء المعمورة ، فكان لها فعل السحر فى تلك الأمم والشعوب .

١٠ ــ كما توصل البحث إلى تجلية المبادىء الأساسية للحضارة الإسلامية ، وإظهار ما فيها من مواكبة للقيم العليا ، والأعمال الحضارية مع بيان مقدار ما فيها من ملاءمة للفطرة ، ثم مقارنة تلك المبادىء بنظائرها من الحضارة الغربية ، وبيان مقدار بُعْد تلك الحضارة الغربية عن القيم وعن الفطرة ، وعن طبيعة السلوك الإنسانى السوى .

١١ ــ توصل البحث إلى إظهار مدى التحدى الحضارى الإسلامى ، وكيف أنه

---

(١) الشورى ٥٢ .

ناموس من نواميس الحياة ، ولا بد أن يؤدى دوره فيها ؛ لأسباب معينة منها :

أ ــ أنه رصيد إنسانى واجتماعى فريد .

ب ــ ملاءمته الإنسانية والفطرية لجميع البشر .

جـ ــ مرونة التكاليف والتعاليم .

د ــ قوة الارتباط والانضباط التى تتميز بها تلك الحضارة .

هـ ــ قوة عقائدية عملاقة فريدة فى تربية الروح وغذائها .

كما أظهر البحث مستقبل هذه الحضارة بالأدلة الواضحة ، وبالنصوص الموثقة ، التى نؤمن بها ، ونعهد فيها الصدق والنفاذ والتحقق ، وبالحاجة الإنسانية الملحة ، خاصة فى هذا العصر إلى تلك الحضارة ، لأن طبيعة المنهج الإسلامى يحمل بين طياته الميزات الآتية :

* ــ منهج كامل لطبيعة الإنسان لجسده وروحه ، لحياته وآخرته ، لربه وللناس كلهم ، فلا تمزق فيه ولا عُقَد أو ضياع .

* ــ الحياة هى ميدان هذا المنهج ، فهو لا يزدريها أو يحتقرها ؛ بل يحترمها ويصلحها .

* ــ منهج للقيم والإصلاح والمثل الحضارية .

* ــ منهج المساواة والأخوة والرحمة .

لهذا ، فلا شفاء من الصراع ومن العذاب والقلق أو الفساد والحيرة ، التى تكتنف هذا العالم ، وتحيط به ، إلا بالإسلام وحضارة المثل الإسلامية التى تخرج الناس من الظلمات إلى النور .

١٢ ــ كشف أساليب الهجوم والغزو الفكرى على الأمة الإسلامية ، وأسبابه ، وبيان تأثير ذلك على الأمة ، وعلى الحضارة الإسلامية ، وكيف أن هذا الغزو كان وبالا على الأمة وعلى الأفراد ، وقد فعل فيها الأفاعيل ، ونال منها بما لم تنله الحروب والجيوش والأساطيل ، وكانت بواعث هذا الغزو متعددة متشعبة ، تحتاج إلى خبرة وعمق ويقظة وتحرى ، استطاع البحث أن يجلى ذلك ، وأن يقوم بدور مهم فى وضع العلامات على الطريق ، والأضواء على الدرب ، حتى يكشف المزالق التى تؤدى إلى

خداع الناس عن حضارتهم وتراثهم وشخصيتهم ، وتذيبهم فى بوتقة الانهيار والتبعية .

١٣ ــ عمد البحث إلى كشف الحضارات ، وإلقاء الضوء عليها ، وإظهار الجوهر الحقيقى للحضارات ، كما عمد إلى بيان تدهورها وانحسارها ، وأسباب ذلك ، وكيف أن للحضارات خداعا بلفت الناس عن الجد ، كما أن للسراب بريقا يشغل الإنسان عن الحقيقة . ثم سبر البحث غور الحضارات فى الساحة الحاضرة ، وأظهر أنها لا تلائم طبيعة الإنسان ، ولا تلبى أشواقه ومثله وطموحاته واستقراره ، ولهذا فهى تذبل وتعتل وتمرض وتنهار ؛ لأنها ضد طبيعة الإنسان وضد الاستقرار والطمأنينة والسلام ؛ لأنها تقوم على الصراع والقهر والإذلال ، وأن العلم فيها اليوم يوجه إلى الإهلاك وتدمير الإنسان ؛ بل والحياة والأحياء ، ولهذا ، فإنه يطلق على تقدم تلك العلوم : الانتحار العلمى ، والإهلاك الحضارى ، وماآثار ذلك عن الناس منا ببعيد .

١٤ ــ خاض البحث معركة التنقيب عن أسباب انحطاط المسلمين حضاريا ، وكان لابد أن يستقرىء التواريخ والحوادث والأسباب والعلل والآثار والنتائج ، ويعايش الرجال والأعمال والأفعال ، يتصفح الأيام ، ويستنطق الليالى ، يقف عند الآثار والرسوم ، ويبحث فى الصحائف والعلوم ، ويشخص الأمراض والعلل ، ويفحص الأجساد والأرواح ، ويتعرف على الأدوية والعقاقير والمقويات والمنشطات ، حتى يستطيع أن يبين كيف انهد هذا الجسد الإسلامى الشامخ ، وكيف ضاعت هذه الحضارة العملاقة ، وكيف شرد هذا العقل ، وضل هذا الفكر ، الذى محص علوم الأولين ، وأنشأ ورفع علوم الآخرين ، كيف مات هذا المارد ، ونسف هذا الصرح ، واندكت هذه العمد ، وصار المجد والعمران والجنان خرابا بلقعا ، وأحلها البوم والغربان بدل الكروانات والبلابل .

وهكذا طوف البحث فى هذه الممالك والأمم ، وفى الحضارات والمدنيات ، وفى العلوم والفنون والعادات والثقافات ، وأبان عوارها ، وفضح أسرارها ، وأظهر معدن الحضارة الإسلامية الكريم اللامع ، فكشف عن الشمس ، وعن الحياة ، وعن العظمة الحقيقية لتلك الرسالة الربانية ، التى جاءت رحمة للعالمين .



الفهارس

بسم الله الرحمن الرحيم

المـــراجـــع

أولا : القرآن الكريم

ثانيا : من السنة

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
إرشاد السارى	أحمد بن محمد القسطلانى	ط القاهرة المنيرية
التاريخ الصغير	أبو عبد الله البخارى	ط دار التراث
التاريخ الكبير	أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى	المعارف العثمانية ١٣٦٠
تذكرة الحفاظ	شمس الدين الذهبى	المعارف النظامية ١٣٣٣ هـ
الترغيب والترهيب	زكى الدين عبد العظيم المنذرى	عيسى الحلبى
تعجيل المنفعة	ابن حجر العسقلانى	ط بيروت دار الكتاب العربى
تقريب التهذيب	ابن حجر العسقلانى	دار المعارف بيروت
تيسير المنفعة	فؤاد عبد الباقى	المنار بالقاهرة
جامع بيان العلم وفضله	يوسف بن عبد البر	المنيرية بالقاهرة

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
الجامع الصحيح لسنن الترمذى	تحقيق أحمد شاكر	مصطفى الحلبى
الجرح والتعديل	عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى	بيروت دار الكتب العلمية
سنن ابن ماجه	ابن ماجه ــ عبد الباقى	عيسى الحلبى
سنن أبى داود	تحقيق محمد محى الدين	المكتبة التجارية
سنن الدارقطنى	على بن عمر الدارقطنى	ط المدينة المنورة
سنن الدارمى	عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى	دمشق ــ الاعتدال
سنن النسائى	أحمد بن شعيب النسائى	لاهور المكتبة السلفية
صحيح ابن خزيمة	محمد بن إسحاق بن خزيمة	ط المكتب الإسلامى دمشق
صحيح البخارى	أبو عبد الله بن إسماعيل البخارى	ط بيروت المعرفة
صحيح مسلم بشرح النووى	مسلم بن الحجاج القشيرى	القاهرة المطبعة المصرية
عمدة القارىء	بدر الدين العينى	المطبعة المنيرية
عون المعبود شرح سنن أبى داود	أبو داود تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان	ط السلفية
فتح البارى	ابن حجر العسقلانى	ط البحوث العلمية بالرياض

الطبعة	المؤلف	اسم الكتاب
ط الإخوان المسلمين	أحمد عبد الرحمن البنا	الفتح الربانى
ط المكتب الإسلامى دمشق	محمد بن على الشوكانى	الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة
ط دمشق المكتب الإسلامى	المنادى	فيض القدير شرح الجامع الصغير
ط دار المعرفة بيروت	جلال الدين السيوطى	اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة
القاهرة مكتبة القدس	نور الدين على الهيثمى	مجمع الزوائد
ط بيروت دار الكتاب العربى	محمد بن عبد الله الحاكم	المستدرك على الصحيحين
القاهرة المعارف	تحقيق شاكر	مسند الإمام أحمد
ط الميمينة	على بن سلطان محمد القارى	مشكاة المصابيح
ط الدار السلفية بومباى	عبد الله بن محمد بن أبى شيبة	مصنف ابن أبى شيبة
ط دمشق المجلس العلمى	الحافظ أبو بكر عبد الرزاق الصنعانى	مصنف عبد الرزاق
وزارة الأوقاف . الكويت	ابن حجر ــ تحقيق الأعظمى	المطالب العالية بزوائد الثمانية

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
المعجم الكبير للطبرانى	سليمانْ بن أحمد الطبرانى تحقيق حمدى عبد المجيد	بغداد . وزارة الأوقاف
موطأ الإمام مالك	تحقيق فؤاد عبد الباق	عيسى الحلبى ١٣٧٠ هـ
ميزان الاعتدال	محمد بن أحمد الذهبى	القاهرة عيسى الحلبى .
نيل الأوطار للشوكانى	الشوكانى	ط دار الجميل بيروت

ثبت بأهم المراجع ـ والمؤلفات

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
الآثار الباقية عن القرون الخالية	أبو الريحان البيرونى	مكتبة المثنى
الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر	محمد محمد حسين	ط كويت
أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية	أحمد على الملا	دار الفكر
أحسن التقاسيم	المقديس	ط ليدن
الأحكام السلطانية والولايات	أبو الحسن الماوردى	ط القاهرة مصر ١٩٠٩ م
الأحكام للآمدى	أبو الحسن بن أبى على الآمدى	صبيح بالقاهرة ١٣٤٧ هـ
إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالى	المعرفة بيروت
الاختيار لتعليل المختار	عبد الله بن محمود بن مودود	المطبعة التعاونية
الأدب العربى وتاريخه	محمود مصطفى	ط الرحمانية بالقاهرة
ارتقاء الإنسان	برونوفسكى	ط المعرفة الكويت
إرشاد الفحول	الشوكانى	مصطفى الحلبى
الاستعمار والمذاهب الاستعمارية	محمد عوض محمد	المعارف القاهرة ١٩٥٧ م
أسد الغابة	عز الدين بن الأثير	المطبعة الوهبية ١٢٨٠ هـ
أسرار الماسونية	جواد رفعت	ط الكويت

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
الإسلام والثقافة العربية	عبد الفتاح مقلد	عالم الكتب القاهرة
الإسلام والحضارة الإنسانية	عبد المنعم خفاجة	ط القاهرة
الإسلام والحضارة	أنور الجندى	دار الاعتصام
الإسلام والحضارة العربية	محمد كرد على	ط دار الكتب المصرية ١٩٣٤ م
الإسلام والحضارة الغربية	محمد محمد حسين	المكتب الإسلامى دمشق
الإسلام على مفترق الطرق	محمد أسد ـــ ترجمة فروخ	دار العلم للملايين لبنان
الإسلام فى عصر العلم	محمد أحمد الغمراوى	دار الإنسان
الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة	أبو الأعلى المودودى	ط بيروت
الإسلام قوة الغد العالمية	ترجمة / الدكتور محمد عبد الغنى شامة	ط وهبة
الإسلام والحياة	د ـــ القرضاوى	دار السعودية
الإسلام ومشكلات الحضارة	الأستاذ سيد قطب	دار الشروق
الإسلام يتحدى	وحيد الدين خان	دار البحوث العلمية
الإرشادات والتنبيهات	ابن سينا ترجمة دنيا	ط المعارف القاهرة ١٩٥٥ م
اشبينجلر	عبد الرحمن بدوى	النهضة ١٩٤٥ م

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
أصالة الحضارة العربية	د . ناجى معروف	الثقافة العربية
أصول الفقه	عبد الوهاب خلاف	دار القلم بالكويت
أصول النظام الاجتماعى في الإسلام	محمد الطاهر بن عشور	الطبعة الرسمية تونس ١٩٦٤ م
أطفال بلا أسر	أنا فرويد ودرنى برمنجام	ترجمة بدران ورمزى يس
أعلام الموقعين	ابن القيم	دار الجميل بيروت
الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ	السخاوى	ط المثنى بغداد ١٩٦٣م
الأغانى	أبو الفرج الأصفهانى	دار الكتب المصرية
الإفادة والاعتبار	عبد اللطيف البغدادى	طبع مع الترجمة الإنجليزية ١٩٦٥ م
أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك	خير الدين التونسى	مطبعة الدولة بتونس.
الله فى الفلسفة الحديثة	جيمس كولنزرت فؤاد كامل	فرنكلين بالقاهرة ١٩٧٣ م
الإمتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدى	مكتبة الحياة بيروت
أنباء الرواة	جمال الدين أبو الحسن القفطى	دار الكتب بالقاهرة
الإنجيل	رسالة يونس لأهل رومة	ط الكتاب المقدس
الإنسان بين المادية والإسلام	محمد قطب	ط بيروت
الإنسان ذلك المجهول	ألكسيس كاريل	مؤسسة المعارف بيروت

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
الإنسان والحضارة	يوسف حورانى	المكتبة العصرية بيروت
الإيمان والحياة	القرضاوى	الدار السعودية
البدء والتاريخ	مظهر بن طاهر المقدس	ط باريس ١٩١٦ م
البداية والنهاية	ابن كثير	المعارف بيروت
بلغة السالك لأقرب المسالك	أحمد بن محمد الصاوى المالكى	مصطفى الحلبى
بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب	محمود شكرى الألوسى	الرحمانية ١٩٢٥ م
البهائية	محب الدين الخطيب	المكتب الإسلامى
بين الدين والعلم	مظهر	ط الحلبى
بغية الملتمس	الضبى ، أحمد بن يحيى	دار الكتاب العربى القاهرة
بين الكتب والناس	عباس العقاد	ط بيروت ١٩٦٦ م
تاريخ ابن عساكر	ابن عساكر ــ على بن الحسن	روضة الشام بدمشق
تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى	الدكتور حسن إبراهيم حسن	ط القاهرة ١٩٦٤ م
تاريخ التربية الإسلامية	د ــ أحمد شلبى	النهضة العربية
تاريخ التمدن الإسلامى	جورجى زيدان	دار الهلال بالقاهرة ١٩٥٨ م
تاريخ التشريع الإسلامى	د ــ محمد سلام مدكور	النهضة المصرية
تاريخ الحضارة الأوروبية	توفيق وهبه	الفكر الجامعى

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
تاريخ حكماء الإسلام	البيهقى ــ ظهير الدين	المجمع العلمى بدمشق
تاريخ الحضارة الإسلامية	بارتولد ــ ترجمة حمزة طاهر	دار المعارف بمصر ١٩٤٢
تاريخ الرسل والملوك	محمد بن جرير الطبرى	ط دار المعارف
تاريخ الشعوب الإسلامية	بروكلمان	دار العلم بيروت
تاريخ العالم	هلير	النهضة بالقاهرة ، الأديب دمشق
تاريخ العالم	سيرجون هامرتين	النهضة ١٩٤٨ م
تاريخ العرب قبل الإسلام	د ــ جواد على	المجمع العلمى العراقى بغداد
تاريخ الفكر العربى	عمر فروخ	بيروت ١٩٦٥ م
التاريخ القديم بين الحياة والعلم		ط لندن
تاريخ المدنية بانجلترا	بكل	دار صادر بيروت
التاريخ وكيف يفسرونه	البان ويدجرى	الهيئة المصرية ١٩٧٢
التبشير والاستعمار	عمر فروخ والخالدى	المكتبة العصرية بيروت
عجائب الأمم	ابن مسكوية المتوفى سنة ٤١٢	أمدروز التمدن الصناعى القاهرة
تجديد الفكر الدينى فى الإسلام	محمد إقبال ترجمة عباس محمود	لجنة التأليف والنشر القاهرة
التجرير وشروحه	للكمال بن الهمام	مصطفى الحلبى
تخليص الإبريز	رفاعة الطهطاوى	القاهرة
تدريب الراوى	السيوطى	ط القاهرة

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
تذكرة الحفاظ	شمس الدين الذهبى	حيدرأباد
تراث العرب العلمى	قدرى حافظ طوقان	دار القلم القاهرة ١٣٨٢ هـ
تطور الإنسان	سير أرثركيت	بيروت
التطور والثبات	محمد قطب	وهبة
التعبير الحضارى وتنمية المجتمع	محى الدين عبد الحميد	سرس الليان
التعريفات	الجرجانى	مصطفى الحلبى
تفسير ابن كثير	أبو الفداء ابن كثير	المعرفة بيروت
تفسير البيضاوى	البيضاوى ــ ناصر الدين أبو سعيد	المكتبة التجارية
التفسير العلمى للآيات الكونية	حنفى محمود	دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠ م
تفسير القرطبى	القرطبى	دار الكتب المصرية
تفسير المنار	محمد رشيد رضا	ط المنار
التفسير الكبير	الرازى	ط طهران
تقييد العلم	الخطيب البغدادي ــ ت د ــ العش	دمشق
تهافت التهافت	ابن رشيد تحقيق سليمان دنيا	المعارف بالقاهرة
تهذيب اللغة	محمد بن أحمد الأزهرى	بيروت
التوضيح	لصدر الشريعة ــ عبد الله بن مسعود بن محمود	المطبعة الجبرية ١٣٢٢هـ

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
التوراة سفر الخروج	الإصحاح ٣٢	
التمهيد فى علم الاجتماع	اليافى	الترجمة والنشر
جاهلية القرن العشرين	محمد قطب	دار النور
جمهورية أفلاطون	فؤاد زكريا	الكويت . المعرفة
حاضر العالم الإسلامى	لو ثروب ستودارد تعليق الأمير شكيب أرسلان	ترجمة عجاج نويهض القاهرة ١٣٥٢ هـ
الحجاب	أبو الأعلى المودودى	الكويت
حرب أم سلام	مستر دالاس	ط العالمية للطباعة
الحرب النفسية	صلاح نصر	القاهرة
حصوننا مهددة من داخلها	د . محمد محمد حسين	دار الإرشاد ــ الكويت
الحضارة	حسين مؤنس	عالم المعرفة ــ الكويت
حضارة الإسلام	صلاح الدين خودا بخش	دار الثقافة
الحضارة الإسلامية	حسن حبنكة	دار القلم دمشق بيروت
الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى	ترجمة محمد عبد الهادى أبو رسدة	ط القاهرة
الحضارة الإسلامية	د ــ أحمد شلبى	النهضة المصرية
الحضارة الإسلامية	أبو الأعلى المودودى	الطباعة العربية
الحضارة العربية	الخربوطلى	ط بيروت
حضارة العرب	غوستاف لوبون	عيسى الحلبى القاهرة ١٩٥٦

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
حقائق الإسلام وأباطل خصومه	عباس العقاد	مطبعة الكتاب العربى بيروت
حملات أفريقيا	الكلونيل فوره	ط بيروت
حوار الحضارات	روجيه غارودى	عويدات لبنان
حياة الحيوان	الدميرى	ط القاهرة
حياة الصحابة	محمد يوسف	دار القلم
حياة الوزان	محمد مهدى	العراق
دائرة المعارف الإسلامية	كتاب الشعب	دائرة الشعب
دائرة معارف القرن العشرين	محمد فريد وجدى	دائرة المعارف
دراسات فى حضارة الإسلام	هملتون جب	بيروت ١٩٦٤ م
الدعوة الإسلامية تستقبل القرن ١٥	محمد الغزالى	دار السلاسل
دعوة إلى الإسلام	حسن إبراهيم	القاهرة ١٩٦٤ م
الديباج المذهب	ابن فرحون	القاهرة
ديوان الجداول	إيليا أبو ماضى	دار العلم للملايين
الدين	الدكتور محمد عبد الله دراز	دار القلم كويت
الرحالون العرب	نازك سبايا زده	نوفل لبنان

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
رسائل الجزال سان أرتو	ارتو	بيروت
الرسالة الخالدة	عبد الوهاب عزام	دار القلم ، كويت
الرسالة المستطرفة	محمد بن جعفر الكنانى	ط دمشق
رسالة المصلحة	للطوفى	مطبعة الأزهر
الدعاية لحقوق الله	الحارث بن أسد المحاسبى	دار الكتاب العربى القاهرة
الرق	الترمانينى	ط المعرفة بالكويت
روائع إقبال	أبو الحسن الندوى	ط الكويت
روح الجماعة	ترجمة عادل زعيتر	دار المعرفة القاهرة
الروحية الحديثة دعوة هدامة	الدكتور محمد محمد حسين	الإرشاد بيروت
الروض الأنف	عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى	الكليات الأزهرية
الزرقانى على الموطأ	محمد الزرقانى	المكتبة التجارية القاهرة
الزمان الوجودى	عبد الرحمن بدوى	النهضة المصرية ١٩٥٥م
الزمن فى الأدب	هانز مايرهوف	سجل العرب ١٩٧٢ م
السلام العالمى والإسلام	سيد قطب	وهبة
السلوك فى معرفة دول الملوك	تقى الدين المقريزى	القاهرة ١٩٣٩ م
السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى	مصطفى السباعى	المكتب الإسلامى
سيرة عمر بن عبد العزيز	عبد الله بن عبد الحكم	دار الفكر دمشق

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
سيرة ابن هشام	ابن هشام	مطبعة الحجاز
سير النبلاء	الذهبى	دار المعارف
شبهات التغريب	أنور الجندى	المكتب الإسلامى
شجرة الحضارة	رالف لتون	الأنجلو المصرية
شذرات الذهب	ابن العماد	القاهرة
شرح الأدلة على الأحكام العدلية	محمد الأتاس	حمص بالقاهرة
شرح روض الطالب من أسنى المطالب	زكريا الأنصارى	المكتب الإسلامى
شروط النهضة	مالك بن نبى	دار الفكر دمشق
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	تقى الدين الفاس المكى	دار إحياء الكتب العربية
شمس الله على الغرب	سجريد هونكة	دار صادر بيروت
الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية	أبو الحسن الندوى	ط دار الندوة لبنان
الصلة فى أئمة تاريخ الأندلس	ابن بشكوال	نشر الثقافة بالقاهرة
الضوء اللامع	السخاوى	القدس بالقاهرة
الطب الإسلامى	المؤتمر الطبى الإسلامى	الكويت
طبقات الأطباء والحكماء	ابن جلجل	القاهرة ١٩٥٥ م
طبقات الأمم	صاعد الأندلسى	بيروت ١٩١٢ م
طبقات بن سعد	ابن سعد	الشعب بمصر

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
طبقات الشافعية	السبكى	دار المعرفة بيروت
الطرق الحكمية فى السياسة	ابن القيم	القاهرة ١٣١٧
الطريق إلى مكة	محمد أسد	بيروت
ظهر الإسلام	أحمد أمين	النهضة المصرية ١٩٦٥ م
العبر وديوان المبتدأ والخبر	ابن خلدون	ط بيروت
عبقرية العرب فى العلم والفلسفة	عمر فروخ	بيروت ١٩٦٩ م
العدالة الاجتماعية فى الإسلام	سيد قطب	دار إحياء الكتب العربية
العصر الجاهلى	شوقى ضيف	دار المعارف ١٩٦١ م
العلم يدعو إلى الإيمان	كريسى ميرسون	دار النهضة المصرية
على هامش الأحداث	بدر القاسمى	الهند ديربند
عيون الأنباء	ابن أبى أصيبعة	ط الوهيبية ١٢٩٩ هـ
عيون التواريخ	محمد بن شاكر الكتبى	النهضة بالقاهرة
عيون الأخبار	ابن قتيبة	دار الكتب بالقاهرة
غسيل الدماغ	الدكتور فخرى الدباغ	ط دمشق
الغزو الفكرى	على عبد الحليم	دار البحوث
فتح القدير	الشوكانى الغارة على العالم الإسلامى . محب الدين الخطيب	مصطفى الحلبى بيروت

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
فتوح البلدان	البلاذرى	القاهرة
فجر الإسلام	أحمد أمين	النهضة المصرية ١٩٦٦ م
الفروق فى اللغة	أبو هلال العسكرى	دار
فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية	د ـــ طه ندى	ط القاهرة
الفصل فى الملل والنحل	ابن حزم	القاهرة
المدخل فى الفقه الإسلامى	د ـــ محمد سلام مدكور	ط
الفكر الإسلامى الحديث	د ـــ محمد البهى	وهبة
فلسفة التاريخ	أحمد صبحى	مؤسسة الثقافة الجامعية
فلسفة التاريخ	غستاف لبون	ط المعرفة بيروت
فلسفة الحضارة الإسلامية	د ـــ عفت الشرقاوى	النهضة العربية بيروت
الفهرست	ابن النديم	ملوكل لايبزك ١٨٧١ م
فواتح الرحموت	ابن عبد الشكور	الأميرية بالقاهرة ١٣٢٢ هـ
فى فلسفة التاريخ	أحمد محمود صبحى	مؤسسة الثقافة الجامعية
فى معرفة التاريخ	أرنست كاسيرر	المؤسسة المصرية
القانون فى الطب	ابن سينا	بولاق

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
القتال فى الإسلام	أحمد نار	الدار السعودية
القاديانية	الحافظ إحسان البهى	بيروت
القاديانية	أبو الحسن الندوى	الدار السعودية
قصة الملكية فى العالم	د ـــ على عبد الواحد وافى	إحياء الكتاب بالقاهرة
قصص الأنبياء	عبد الوهاب النجار	القاهرة التجارية
الكامل فى التاريخ	ابن الأثير الجزرى	دار صادر ١٣٨٥ هـ
الكتاب الذهبى للمهرجان الألفى لابن سيناء	الدكتور جمال الفندى	ط الكويت
كشاف اصطلاحات الفنون	التهانون	وزارة الثقافة القاهرة
كشف الأسرار	على بن محجر	حسن حلمى الفيزوى
كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون	حاجى خليفة	استانبول ١٩٤١ م
كفاح دين	محمد الغزالى	دار البيان بالكويت
الكفاية فى علم الرواية	الخطيب البغدادى	دائرة المعارف العثمانية
كليلة ودمنة	ابن المقفع	القاهرة
كيف تفهمت القرآن	ك . ك . ممريج	ط الكويت
لسان الميزان	ابن حجر	مؤسسة الأعلمى
لماذا تأخر المسلمون	شكيب أرسلان	عيسى الحلبى
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	أبو الحسن الندوى	دار القلم الكويت

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
المجتمع الإسلامى والتيارات المعاصرة	الدكتور محمد البهى	وهبة
المجتمع الإسلامى	عمر بهاء الأميرى	ط ، دار الفتح
المجتمع الإسلامى	د ــ مصطفى عبد الواحد	الأمل بالكويت
المجددون فى الإسلام	عبد المتعال الصعيدى	مكتبة القاهرة
مختصر تاريخ الدولة	ابن العبرى	ط بيروت ١٨٩٠
مختصر دراسة للتاريخ	أرنولد توينبى	ط جامعةالدولة العربية
مختصر سيرة ابن هشام	عبد السلام هارون	دار البحوث بالكويت
مدارج السالكين	ابن القيم	السنة المحمدية
المدخل إلى فلسفة الحضارة الإسلامية	أرنست كاسيرر	دار الأندلس بيروت
مدونة جستنيان القانونية	ترجمة عبد العزيز فهمى	دار الكتب المصرية
مرآة الجنان	اليافعى	مؤسسة الأعلمى بيروت
المرشد الأمين للبنات والبنين	رفاعة الطهطاوى	ط المدارس الملكية ١٢٩٢ هـ
مروج الذهب ومعادن الجوهر	المسعودى	القاهرة المطبعة البهية
المزهر	السيوطى	القاهرة الحلبى ١٩٥٨

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
المسئولية	محمد أمين المصرى	زيد بن ثابت
مسالك الثقافة	أوليرى ـ تمام حسين	مطبعة القاهرة
المستصفى	أبو حامد الغزالى	الأميرية بالقاهرة
المستقبل لهذا الدين	سيد قطب	الكويت
المشكلة الأخلاقية والفلاسفة	أندريه كرسن	إحياء العربية
مشكلة الوجود	حسام محى الدين الألوسى	بغداد مكتبة الزهراء
مصادر للتشريع الإسلامى	عبد الوهاب خلاف	دار القلم الكويت
مصطلح التاريخ	أسد رستم	الأمريكية
مطابع اليهودية	محمد نمر الخطيب	ط الكويت
معارك العرب الحماسة	صبحى عبد الحميد	منشورات دار المنار
معالم تاريخ الإنسانية	ويلز	الترجمة والنشر
معالم تاريخ الإنسانية	هـ ج ويلز	لجنة التأليف والنشر
معالم تاريخ العصور الوسطى	محمد رفعت ومحمد أحمد	الرحمانية بالقاهرة
معالم الحضارة	علوان	بيروت
معالم السنن للخطابى	أبى سليمان محمد بن أحمد	حلب راغب الطباخ
معالم القربة فى أحكام الحسبة	ابن الإخوة محمد بن محمد	كمبردج ١٩٣٧ م
معجزة الإسلام التربوية	د ـ محمود سلطان	دار القلم
معجم الأدباء	ياقوت الحموى	عيسى الحلبى القاهرة
معجم الأطباء	أحمد عيسى	جامعة القاهرة

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
معجم المحلى	ابن حزم الظاهرى	دمشق
معركة الحضارة	قسطنطين زريق	دار العلم للملايين
المغازى	موسى بن عقبة	القاهرة
مفاتيح العلوم	أبو عبد الله محمد الخوارزمى	القاهرة ١٣٤٢ هـ
الملل	الشهرستانى	الحلبى والحسين التجارية
مقالات الكوثرى	محمد زاهر الكوثرى	الأنوار بالقاهرة
مقدمات ومباحث فى حضارة العرب	عمر رضا كحالة	مطبعة الحجاز دمشق
مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون	التجارية بالقاهرة
مناهج علماء المسلمين فى البحث العلمى	د ـ فتنز رونتال	دار الثقافة بيروت
مناهج البحث العلمى	عبد الرحمن بدوى	دار النهضة العربية
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار	تقى الدين المقريزى	القاهرة ١٣٢٦ هـ
الموافقات للشاطبى	الشاطبى	ط المعرفة بيروت
الموسوعة العربية الميسرة	القاهرة	القاهرة
موسوعة الفقه الإسلامى	المجلس الأعلى	القاهرة
موسوعة النظم الحضارية	د ـ أحمد شلبى	النهضة المصرية
موقف العقل	مصطفى صبرى	الحلبى
النبوة والأنبياء في القرآن	أبو الحسن الندوى	دار السعودية ، جدة

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة
النجاة	ابن سينا	الحلبى
النجوم الزاهرة	ابن تغرى بردى	الثقافة ـ دار الكتب المصرية
نحن والتاريخ	قسطنطين زريق	دار العلم للملايين
نشأة الحضارة	ول ديورانت	ط لجنة التأليف والترجمة
نظرية دارون	السيد الكيلانى	دار القلم الكويت
النقد فى عصر التنوير	نازلى إسماعيل	دار النهضة
نهاية الأقدام فى علم الكلام	الشهرستانى	مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٧ م
نهاية السول شرح المنهاج	للإسنوى	محمد على صبيح
نيل الأوطار	الشوكانى	دار الجميل بيروت
هدية العارفين	البغدادى	وكالة المعارف استنبول
الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية	كرنباوم	أسعد بغداد ١٩٦٦ م
وفيات الأعيان	شمس الدين بن خلكان	القاهرة ١٩٤٨ م

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٠٣٥ / ٨٦

الترقيم الدولى ٥ ـ ٩٢ ـ ١٤٢٠ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة

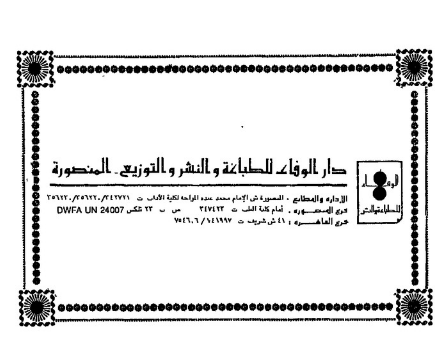
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٧٢١ – ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٢ DWFA UN



الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية



الوفاء للطباعة والنشر
دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة
الإداره والمطابع . المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ت ٣٤٢٧٢١/٣٥٦٢٢٠/٣٥٦٢٣٠
فرع المنصوره . أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣ تلكس DWFA UN 24007
فرع القاهره ؛ ٤١ ش شريف ت ٧٤١٩٩٧ / ٧٥٤٦٠٦